بنیاد پژوهشهای اسلامی
آستان قدس رضوی

تاريخ الخلفاء

الجزء الاوّل

رسول جعفريان

ترجمة الدكتور علي هاشم الأسدي

بسم الله الرحمن الرحيم

تاريخ الخلفاء

الجزء الأوّل

رسول جعفريّان

شبكة الفكر
alfeker.net

ترجمة:

الدكتور علي هاشم الأسديّ

جعفريان، رسول، ۱۳٤۳ ـ .
[تاريخ خلفا از رحلت پيامبر تا زوال امويان (۱۱ ـ ۱۳۲ هـ). عربي]
تاريخ الخلفاء / رسول جعفريان ؛ ترجمة: علي هاشم الأسديّ . ـ مشهد : مجمع البحوث الإسلاميّة، ۱۳۹۰ .
۲ ج.
ISBN 978-964-971-446-2
ISBN set 2 vol 978-964-971-782-1
فيپا.
كتابنامه به صورت زيرنويس.
۱. اسلام ـ تاريخ ـ از آغاز تا ۱۳۲ ق . ۲. خلفاي راشدين. ۳. خلافت. ٤. امويان .
الف. اسدي، علي، ۱۳۳٦ ـ ، مترجم. ب. بنياد پژوهشهاي اسلامي. ج. عنوان.
DS ۳۷ / ۷ / ج ۷ ت ۲۰٤۳۱۳۹۰
۹۰۹ / ۰۹۷٦۷۱
كتابخانه ملي جمهوري اسلامي ايران
۲۲۷٤۰۳۹

بنياد پژوهشهاى اسلامى
آستان قدس رضوى

تاريخ الخلفاء

الجزء الأول

رسول جعفريان

ترجمة: الدكتور علي هاشم الأسديّ

مراجعة: جعفر البياتيّ

الطبعة الأولى ۱٤۳٥ ق. / ۱۳۹۳ ش. / ۲۰۰۰ نسخة ، وزيري
الثمن: ۱۸۰۰۰۰ ريال إيراني
الطباعة: دقت
مجمع البحوث الإسلاميّة، ص.ب ۳٦٦-۹۱۷۳٥
هاتف و فاكس وحدة المبيعات في مجمع البحوث الإسلاميّة: ۲۲۳۰۸۰۳
معارض بيع كتب مجمع البحوث الإسلاميّة، (مشهد) ۲۲۳۳۹۲۳، (قمّ)۷۷۳۳۰۲۹
www.islamic-rf.ir info@islamic-rf.ir

حقوق الطبع محفوظة للناشر

بسم الله الرحمن الرحيم
و صلّى الله على سيّدنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين

تذكير

إنّ الهدف الأصليّ من تصنيف هذا الكتاب هو الرغبة في تدوين كتابٍ حول تاريخ التطوّرات السياسيّة في الإسلام منذ بزوغه إلى نهاية العصر الأمويّ، لاسيّما إذا كان كتاباً يستند إلى الوثائق المعتمدة المقبولة. ونترك الحكم في مدى بلوغنا هذا الهدف للقرّاء الكرام. وقد كان الجزء الأوّل من الكتاب المذكور في السيرة النبويّة الشريفة، وهذا الجزء في تاريخ الخلفاء، وهما في متناول من يرغب فيه.

ومن الضروريّ التذكير بأنّ حجر الأساس لهذا الكتاب وخطّته الأولى كانا قد وُضعا بين سنة ١٤٠٤، وسنة ١٤٠٩هـ ، ثمّ جدّد تدوين أقسام منه مرّة أخرى. مع هذا ما زال بحاجة إلى مراجعة وإصلاح، ذلك أنّ كلّ كتاب بحثيّ لا بدّ من إعادة مراجعته بعد مضيّ سنين على تأليفه. دع عنك ما وافانا به هواة الكتاب من شتّى الرسائل التي نبّهوني فيها على نواقصه، حتّى آل الأمر إلى مراجعته في سنة ١٤٢٤هـ على الرغم من ضيق الفرصة والانشغال بأعمال أُخرى، فتبدّلت أقسام من الكتاب أثناء المراجعة، وتمّت مراجعة بعض الأقسام مراجعة تنقيحيّة وإملائيّة، وأُضيفت إليه فصول أُخرى أيضاً. وما عُرض فيه لا يخلو من نقصٍ طبعاً، فمن الضروريّ أن نعيد الكرّة في كتابته

من الأساس خلال فرصة مناسبة بعد النظر في المصادر الجديدة الخاصّة لهذا الموضوع.

ولي أن أعترف بأنّ حكمي لا يطابق الواقع في جميع الأبواب؛ لأنّي لستُ متخصّصاً في هذه العصور كلّها بالضرورة، كما لم يتيسّر لي الاطّلاع على المصادر المطبوعة حديثاً. فجُهدي كما تفيده مصادر البحث مراجعة الكتب القديمة في كلّ قسم من أقسام الكتاب.

ومن الطبيعيّ أنّني لا محيص لي من الإقرار بأنّه لا يمكن الإصرار على صحّة جميع الآراء المستنبطة في مثل هذه الأعمال الكبيرة، أو الادّعاء بملاحظة المصادر جميعاً، أو فهم ما لوحظ منها بدقّة أو الإفادة منها كما ينبغي. ولكنّ هذا الكتاب على أيّ حال ثمرة نالت - خلال السنين الماضية - اهتمامَ قسم كبير من هواة الاطّلاع على التاريخ الإسلاميّ، فغمرني كثير منهم بمحبّتهم ومودّتهم بأشكال مختلفة. وما أفتأ أتطلّع إلى الرسائل والانتقادات كي تنال نصيبها في الطبعات القادمة، وأقوم بإصلاح الكتاب لو يمدّ الله عمري.

ومن حسن الحظّ أنّ انتشارات أنصاريّان [دار أنصاريان للنشر] قد طبعت الترجمة الإنجليزيّة لهذا الكتاب في الوقت الذي تصدر فيه هذه الطبعة الجديدة إلى الأسواق.

رسول جعفريّان

١٤٢٤هـ

الفصل الأوّل

خلافة أبي بكر

قال الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

«...حتّى إذا قَبَضَ اللهُ رسولَه صلى الله عليه وآله، رَجَعَ قومٌ على الأعقـاب، وغـالَتهُمُ السُّـبُل، واتّكلُوا على الوَلائج، ووَصَلوا غيرَ الرَّحِم، وهَجَروا السببَ الـذي أُمِروا بمودّتِه، ونَقَلوا البناءَ عن رَصِّ أساسِه، فبَنَوه في غيرِ موضعِه، مَعادِنُ كلِّ خطيئة، وأبوابُ كلِّ ضاربٍ في غمرة. قَد مارُوا في الحَيـرَة ، وذَهَلـوا في السَّكرَة عَلى سُنّةٍ من آلِ فرعون: مِن مُنقطعٍ إلى الدنيا راكن، أو مُفارقٍ للدينِ مُبايِن».

(نهج البلاغة: الخطبة ١٥٠)

في ظلّ السقيفة

تحدّثنا في الفصل الأخير من كتاب «سيرة رسول الله ﷺ» حول الأزمة السياسيّة التي شهدتها المدينة في السنة الأخيرة من حياته ﷺ. ومن الطبيعيّ أنّ الفهم الأفضل لما جاء هنا يتوقّف على فهم المبحث المذكور. والحقيقة أنّ الإدراك الصحيح للحوادث التي تلت وفاة النبيّ ﷺ فيما يتعلّق بقيادة الأمّة واستخلاف أبي بكر، لا يتيسّر بدون الأخذ بنظر الاعتبار التكتّلات التي كانت في المدينة يومئذٍ. من الكتل المهمّة: الأنصار الذين بدأوا منذ فتح مكّة يفكّرون في المشكلات التي ستطرأ بعد وفاة رسول الله ﷺ، وكانوا في قلق لمستقبلهم. فاجتمعوا في السقيفة خوفاً من تسلّط قريش، متغافلين عن بيعتهم عليّاً عليه السلام في الغدير، وربّما لم يحتملوا نجاحه. وذهب أحد سراتهم - وهو الحباب بن المنذر - في خطبة له في السقيفة إلى أنّ الأنصار أفضل من قريش، وقال: «... ولا دانت العرب للإسلام إلّا بأسيافكم... فإنّما الناس [المهاجرون] في فيئكم وظلالكم، ولن يجير مجير على خلافكم»[1]. ويتبيّن من كلامه هذا أنّ ما حمل الأنصار على هذا العمل غير المدروس هو خوفهم

---

١ - **الإمامة والسياسة** ١: ٢٤ - ٢٥.

المشوب بالتحفّظ من قريش.

من جهة أخرى، كان بعض المهاجرين قد قاموا ببعض الأعمال المريبة في الأسبوعين الأخيرين من حياة النبيّ ﷺ، فلمّا بلغهم اجتماع السقيفة أسرعوا إليها وطفقوا يحاورون الأنصار. وهذا ما حدّث به الخليفة الثاني في خطبة له بالمدينة؛ فإنّه سمع قائلًا يقول بمكّة في إحدى سني خلافته: كانت بيعة أبي بكر فلتة! وإذا مات فلان - أي عمر - استخلفنا عليّاً، فغضب وأراد أن يخطب الناس بمكّة، فقال له عبد الرحمان بن عوف: «إنّك ببلد قد اجتمعت إليه أفناء العرب كلّها، وإنّك إن قلت مقالةً حُمِلَت عنك وانتشرت في الأرض كلّها». فلمّا قدم المدينة، جلس على المنبر فقال: «...بلغني أنّ رجالًا يقولون في خلافة أبي بكر: إنّها كانت فلتةً، ولَعَمري إن كانت كذلك، ولكنّ الله أعطى خيرها ووقى شرّها... إنّه كان من شأن الناس أنّ رسول الله ﷺ توفّي فأتينا، فقيل لنا: إنّ الأنصار قد اجتمعت في سقيفة بني ساعدة مع سعد بن عُبادة يبايعونه، فقمت وقام أبو بكر وأبو عبيدة بن الجرّاح نحوهم... فَلقِيَنا رجلان من الأنصار... فقالا: ارجعوا؛ فإنّكم لن تُخالَفوا، ولن يؤتَ شيء تكرهونه، فأبينا إلّا أن نمضي... فقام خطيب الأنصار فقال: فنحن الأنصار وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر قريش رهط منّا... فذهبت لأتكلّم، فقال [أبو بكر]: أنصِت يا عمر... ثمّ قال: أمّا بعد، فما ذكرتم فيكم من خير يا معشر الأنصار فأنتم له أهل، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلّا لهذا الحيّ من قريش، فهم أوسط العرب داراً ونسباً. وإنّي قد رضيتُ لكم هذين الرجلين [عمر وأبا عبيدة، وليس في الناس من المهاجرين غيرهما]، فبايعوا أيّهما

شئتم... فاعترضه خطيب الأنصار تارةً أُخرى، وقال: منّا أمير ومنكم أمير[١]. قال عمر: لا يصلح سيفان في غمدٍ واحد. ثمّ أخذتُ بيد أبي بكر وبايعته.

وأضاف قائلاً: ثمّ تتابع الناس من المهاجرين والأنصار وبايعوه. [و ما كان المهاجرون إلّا ثلاثة ليس غيرهم]، وخشينا إن فارقنا القوم أنّ يحدثوا بيعةً بعدنا، فإمّا أن نبايعهم على ما لا نرضى، وإمّا أن نخالفهم فيكون فساداً، «إنّ بيعة أبي بكر كانت فلتةً غير أنّ الله وقى شرّها، وليس فيكم من تُقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر، فمن بايع رجلاً من غير مَشُورة من المسلمين فإنّه لايُتابع هو ولا الذي بايعه تَغِرَّة أن يقتلا»[٢].

قدّم الخليفة في كلامه هذا تقريراً موجزاً حول السقيفة، إلّا أنّه على وجازته كشف شيئاً من الحقيقة. وأورد أبو بكر الجوهريّ (م ٣٢٣ ه) تفصيل أمرها من طرق خبريّة مختلفة في كتاب «السقيفة»[٣]. واستعرض مؤرّخون آخرون ذلك نوعاً ما، فقد قال ابن أعثم: اجتمع الأنصار في السقيفة قبل مجيء المهاجرين إليها، وتحدّثوا كثيراً، فقال أحدهم: أجمِعوا أمركم على رجل تهابه قريش وتأمنه الأنصار. فقالت طائفة منهم: قد رضينا بصاحبنا سعد ابن عبادة... ثمّ وثب أسيد بن حضير وهو من أشراف الأوس فقال:... فإنّ هذا الأمر في قريش دونكم... فوثب إليه نفرٌ من الأنصار، فأغلظوا له في القول

١ - كان الحباب بن المنذر يقول: لا المهاجرون يدينون للأنصار ولا الأنصار يدينون للمهاجرين. انظر: «**مسائل الإمامة**»: ١٣.

٢ - **مصنّف ابن أبي شيبة** ٧: ٤٣١ (قال عمر: فمن دعا إلى مثلها فهو الذي لا بيعة له ولا لمن بايعه)؛ **مصنّف عبد الرزّاق** ٥: ٤٤٢ – ٤٤٥ (باختصار)؛ **طبقات ابن سعد** ٣: ٣٤٤، ٦١٦؛ **تاريخ الطبريّ** ٣: ٢٠٤ – ٢٠٦ (كلام عمر)؛ انظر: **أنساب الأشراف** ١: ٥٨١ للاطّلاع على الخبر المرويّ في كلامه.

٣ - الكتاب مفقود، إلّا أنّ ابن أبي الحديد نقل معظمه في شرحه لـ **نهج البلاغة** . وجمع الأستاذ محمّد هادي الأمينيّ هذه الأخبار في كتاب مستقلّ نشره تحت عنوان «**السقيفة وفدك**» .

وسكّتوه فسكت. ثمّ وثب بشير بن سعد الخزرجيّ - منافس سعد بن عبادة - ودافع عن قريش أيضاً... ثمّ وثب عُويم بن ساعدة فقال:... فإنّ الخلافة لا تكون إلّا لأهل النبوّة فاجعلوها حيث جعلها الله عزّ وجلّ"[1]. ويدلّ خبر ابن أعثم على تضارب آراء الأنصار ونزاعهم الداخليّ. والإشارة الأخيرة آية على وجود رجال كانوا في ذِكر الإمام عليّ عليه السلام.

وكان أُسيد بن حُضير - وهو من الأوس - وبشير بن سعد ابن عمّ سعد ابن عبادة أوّل من بايع أبا بكر في السقيفة من الأنصار. ثمّ إنّ الأنصار كما نعلم سخطوا لاحقاً لتسلّط قريش. وفي خبر الزبير بن بكّار أنّ الأوس كانوا يقولون: أوّل من بايع هو بشير بن سعد الخزرجيّ. وكان الخزرج يقولون: أوّل من بايع هو أُسيد بن حضير[2]! وهذه المنافسة كانت معروفة لأبي بكر، لذا قال في السقيفة:... إنّ هذا الأمر إن تطاولت له الأوس لم تقصّر عنه الخزرج. وقد كان بين الحيّينِ قتلى لا تُنسى، وجرحى لا تُداوى[3]. وأخبر اليعقوبيّ أنّ عبد الرحمان بن عوف كان في السقيفة. وهذا لا يصحّ؛ لأنّ ما نقله عنه هو كلامه في غد ذلك اليوم، إذ خاطب الأنصار قائلاً: يا معشر الأنصار، إنّكم وإن كنتم على فضل، فليس فيكم مثل أبي بكر وعمر وعليّ.

---

١ - **الفتوح** ١: ٣ - ٤؛ **كتاب الردّة**، للواقديّ: ٣٢ - ٣٣.

٢ - **الموفقيّات**: ٥٧٨؛ **شرح نهج البلاغة**، لابن أبي الحديد ٢: ٢٧٢. وسيأتي في الهوامش القادمة بعنوان «**شرح النهج**». قال الحباب بن المنذر لبشير بن سعد في السقيفة: بايعتَ أبا بكر حسداً لسعد بن عُبادة (**كتاب الردّة**: ٤٢). ولمّا مات أُسيد بن حُضير قضى عنه عمر جميع ديونه! (**الفائق في غريب الحديث** ١: ١٠٨). وأنشد الحباب في السقيفة شعراً في ذمّ هذين الرجلين، ومطلعه:

سعَى ابن حضير في الفساد لَحاجةً ... و أسرعَ منه في الفساد بشيراً!

(**كتاب الردّة**: ٣٨).

٣ - **نثر الدرّ** ٢: ١٤؛ **البيان والتبيين** ٣: ٢٩٨؛ **الإمامة والسياسة** ١: ٢٧ **مسائل الإمامة**: ١٣.

وقام المنذر بن أرقم فقال: ما ندفع فضل مَن ذكرتَ، وإنّ فيهم لَرجلاً لو طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد (يعني عليّ بن أبي طالب). فوثب بشير بن سعد من الخزرج، فكان أوّلَ من بايعه من الأنصار، وأُسيد بن حُضَير. وبايع الناس حتّى جعل الرجل يطفر وسادة سعد بن عُبادة، وحتّى وَطِئوا سعداً![1]

وجاء البَراء بن عازب، فضرب الباب على بني هاشم وقال: يا معشر بني هاشم، بُويع أبو بكر! فقال بعضهم: ما كان المسلمون يُحْدِثون حَدَثاً نغيب عنه، ونحن أولى بمحمّد [ﷺ]. فقال العبّاس: فعلوها وربِّ الكعبة!!

وأضاف اليعقوبيّ قائلاً: وكان المهاجرون والأنصار لا يشكّون في عليّ[2].

ونقل الطبريّ وابن الأثير أيضاً أنّ الأنصار أو جماعة منهم قالوا في

١ - إنّ سعد بن عبادة لم يبايع أبا بكر وخرج إلى الشام، فبعث الخليفة رجلاً ... فرماه بسهم فقتله. انظر: **أنساب الأشراف** ١: ٢٥٠.

٢ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٢٣ - ١٢٤. وجاء في خبر آخر أنّ رجلاً من الأنصار قال: لولا أنّ عليّ ابن أبي طالب ... وغيره من بني هاشم اشتغلوا بدفن النبيّ ﷺ وبحزنهم عليه، فجلسوا في منازلهم، ما طمع فيها مَنْ طمع . «**كتاب الردّة**: ٤٥ - ٤٦» . وتبيّن من خبر الواقديّ أنّ كلام عبد الرحمان بن عوف مع الأنصار كان بعد السقيفة. وتدلّ قرائن كثيرة على أنّه لم يحضر السقيفة من المهاجرين إلّا ثلاثة . ثمّ إنّ بشير بن سعد الأنصاريّ قال للإمام عليّ عليه السلام بعد سماعه استدلالاته: «يا أبا الحسن، أما والله لو أنّ هذا الكلام سَمِعه الناس منك قبل البيعة لما اختلف عليك رجلان، ولبايَعك الناس كلّهم، غير أنّك جلست في منزلك ولم تَشهد هذا الأمر فظنّ الناس أن لا حاجة لك فيه !... فقال له عليّ: وَيْحَك يا بشير ! أفكان يجب أن أترك رسول الله ﷺ في بيته فلم أجبه إلى حفرته، وأخرجُ أنازع الناس بالخلافة ؟ قال: فأقبل عليه أبو بكر ... فقال: إنّي لو علمت أنّك تنازعني في هذا الأمر ما أردته ولا طلبته ... فإن بايعتني فذلك ظنّي بك، وإن لم تبايع في وقتك هذا وتحبّ أن تنظر في أمرك لم أكرهك عليه ... فلم يبايع حتّى توفّيت فاطمة ... ثمّ بايع بعد خمس وسبعين ليلةً من وفاتها». **كتاب الردّة**: ٤٧.

السقيفة: لانبايع إلّا علياً[1].

وروى ابن قتيبة أنّ الحباب بن المنذر حين رأى الأنصار يبايعون سلّ سيفه، فأخذوه منه، فقال للأنصار: «... أما والله لكأنّي بأبنائكم على أبواب أبنائهم قد وقفوا يسألونهم بأكفّهم ولا يسقون الماء»[2].

إنّ من النقاط التي ذكرها جميع نقلة الأخبار هي أنّ أهمّ استدلال جاء به أبو بكر وعمر: قرابةُ رسول الله ﷺ وسنّ أبي بكر. وإن أشارت بعض الأخبار إلى فضائل أبي بكر أيضاً، وقالا للأنصار: ولن تدين العرب إلّا لهذا الحيّ من قريش[3]. وأكّدا أنّ العرب لا ترضى أن تؤمّرهم ونبيُّها من غيرهم.[4] وقال أبو بكر في السقيفة: نحن قريش والأئمّة منّا.[5] ولمّا اعترض الإمام عليّ عليه السلام عليهما

---

١ – **تاريخ الطبريّ** ٣: ٢٠٨؛ **الكامل في التاريخ** ٢: ٣٢٥.

٢ – **الإمامة والسياسة** ١: ٢٧؛ **الردّة**: ٤٢ . قال الجوهريّ: لقد صدقت فراسة الحُباب، فإنّ الذي خافه وقع يومَ الحرّة [٦٣هـ] [الكلام لغيره لا له]. وكان قال لأبي بكر وصحبه: إنّا والله ما ننفس هذا الأمر عليكم ... ولكنّا نخاف أن يليه بعدكم من قَتَلْنا أبناءَهم وآباءَهم وإخوانهم (انظر: **شرح النهج** ١: ٣١٣ . انظر في ندم الأنصار بعد السقيفة: «**الموفقيّات**»: ٥٨٣ . وكان الحباب يقول: ما نحسدك ولا أصحابك ولكنّا نخشى أن يكون الأمر في أيدي قوم قتلناهم فحقدوا علينا. (**أنساب الأشراف** ١: ٥٨٠؛ **الفائق في غريب الحديث** ٣: ١٦٦؛ **مسائل الإمامة**: ١٣٥) . وفي مثل هذه الحالة يجب أن نرى كيف كان موقفهم من الإمام عليّ عليه السلام، إذ قتل وحده ببدر قرابة أربعين من مشركي قريش الذين بلغ عدد قتلاهم سبعين رجلاً . ويتعيّن أن نعرف جزماً وحتماً أنّ الأنصار ندموا على عملهم، ودافعوا عن الإمام عليّ عليه السلام ووقفوا معه في واقعتي الجمل وصفّين، بل قبلهما، وساهموا في قتل عثمان أو سكتوا في مقابل ذلك، ووقفوا أمام قريش وحزبهم السياسيّ اعتباراً من عثمان ومعاوية حتّى طلحة والزبير وعائشة وتبيّن ندمهم حتّى بعد السقيفة بأيّام، وشعر حسّان بن ثابت أفضل مثال على ذلك آنئذٍ . انظر: **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٢٧– ١٢٨.

٣ – **أنساب الأشراف** ١: ٥٨٢.

٤ – **شرح نهج البلاغة** ٢: ٣٨.

٥ – **أنساب الأشراف** ١: ٥٨٣ (و العرب لاترضى أن يؤمّروكم ونبيُّها من غيركم، ولكن يؤمّرون

لاستنادهما إلى القرابة في حين هو أقرب منهما إلى رسول اللهﷺ، قال له عمر: إنّ العرب تكره أن تجتمع النبوّة والخلافة في بيت واحد![1] فالنبوّة لكم، فأذَنوا أن تكون الخلافة لغيركم!

ولا شكّ في أنّ المنافسة القبليّة قد بدأت في السقيفة بعد إقصاء الامام عليّعليه السلام. وآل الأمر إلى استخلاف قريش توكُّؤاً على «الاستعلاء القبليّ» الذي كانت عليه، واستغلالًا لمنازعات الأنصار فيما بينهم على الرغم من الجاه المحدود الذي كان لهم في المدينة يومئذٍ. وكان التنبيه على سنّ أبي بكر واتّخاذُه معياراً ينسجم ورغبة المؤيّدين، أمّا الإمام عليّعليه السلام فقد كان شابّاً. ولمّا بلغ سلمانَ خبرُ البيعة قال: «أصبتم ذا السنّ منكم، وأخطأتم أهل بيت نبيّكم؛ لو جعلتموها فيهم ما اختلف عليكم اثنان...»[2]. وحريّ بالعلم أنّ أحداً لم ينطق بالكلام الفصل في السقيفة حول طريقة اختيار الخليفة والشروط التي يتعيّن أن يحرزها. أمّا الأحاديث الموضوعة التي نُسجت فيما بعد لإثبات حقّ أبي بكر[3]، وفيها أنّ رسول اللهﷺ لم ينصّبه فحسب، بل نصّب من جاء

من كانت النبوّة فيهم) **كتاب الردّة**: ٣٩. ومسند كلام أبي بكر هو قوله: «قريش أوسط العرب داراً، وأكرمهم أحساباً» . انظر: **الطبقات الكبرى** ٢: ٢٦٩ . وجاء في كتاب (**نثر الدرّ**) ٢: ١٣ بعد ذلك القول: وأحسنهم وجوهاً، أكثر الناس ولادةً في العرب. ولم ينقل كلام أبو بكر (نحن قريش والأئمّة منّا) كحديث، وإن نُسب إليه ذلك بعدئذ.

١ – **الإيضاح**: ٨٧ . وقال عمر لابن عبّاس: اللّهمّ غفراً على كره قومكم أن تجتمع فيكم النبوّة والخلافة فتذهبون في السماء شمخاً . انظر: **نثر الدرّ** ٢: ٢٨.

٢ – **السقيفة وفدك**: ٤٣؛ **شرح نهج البلاغة**٢: ٤٩. وانظر: **أنساب الأشراف** ١: ٥٩٠ وطرح أبو عبيدة ابن الجرّاح أيضاً قضيّة سنّ الإمام الفتيّة لمّا اعترض الإمام عليّ عليه السلام. (انظر: **شرح النهج** ٢: ٢– ٥).

٣ – نقل عن عائشة أنّها سُئلت: من استخلف رسولُ الله ﷺ ؟ قالت: أبا بكر . ثمّ من ؟ قالت: عمر. ثمّ من؟ قالت: أبا عبيدة بن الجرّاح ! (**مصنّف ابن أبي شيبة** ٧: ٤٤٣). ودونكم تاريخ وضع الحديث من فحواه! ووُضعت عشرات الأحاديث مثله، وهي التي جمعها أبو نُعيم

بعده من الخلفاء أيضاً! فحقيق أن نضرب عنها صفحاً.[١] والمهمّ هو ما دار في السقيفة من محاورات وما شهدته من ملمّات؛ فالأنصار كانوا يرون الحكومة حقّاً لهم. والمهاجرون - أبو بكر وعمر وأبو عبيدة - ذهبوا إليها وصرّحوا أنّ الحكومة حقّ لقريش. ولم يستندوا إلى أيّ حديث من قبيل (الأئمّة من قريش) بل اكتفوا بقولهم: إنّ العرب لا تدين لغير قريش. وفي غضون ذلك كان جماعة من كبار الصحابة - كالزبير وطلحة [٢] - لا ترى أنّ أبا بكر على الحقّ.

وهكذا لا بدّ من القول: أنْ لا منهج ولا مقاييس معروفة عُرِضت في السقيفة لاختيار أبي بكر إلّا المقاييس القبليّة، وهي الاستناد إلى أفضليّة قريش وقُرباها إلى النبيّ ﷺ خاصّة. وهنا يلزم أن نعلم بأنّ القرشيّة لم تعدّ شرطاً شرعيّاً للخلافة قطّ، حتّى كان عمر يودّ في السنين اللاحقة أن لو كان سالم مولى حذيفة بن اليمان - الذي لم يكن قرشيّاً البتّة - حيّاً فيستخلفه بعده [٣]. ويعتقد جماعة أنّ شرط القرشيّة طُرح في الفقه السياسيّ السنّيّ خلال القرن الثالث[٤]. وما عُرض معياراً للخليفة هو الانتساب إلى قريش والإشارة إلى سنّ أبي بكر. وهما في الحقيقة المعياران الجاهليّان الوحيدان المشوبان بالمجادلات السياسيّة واللّذان قلّداه الخلافة، لا كما زعم الدكتور «خير الدين

الأصفهانيّ في كتابه (**الإمامة**) الذي كتبه ضدّ الرافضة!

١ - انظر: **الغدير** ج٥ (بحث: سلسلة الموضوعات في الخلافة): ٣٣٣ - ٣٥٦. وفي ضوء ما ذكره الواقديّ في كتاب (**الردّة**: ٣٥ - ٣٧) يبدو وكأنّ القوم قد صرّحوا في السقيفة مراراً أنّ رسول ﷺ استخلف أبا بكر!

٢ - **نهاية الإرب** ١٩: ٣٩.

٣ - **شرح النهج** ١: ١٩٠؛ **العقد الفريد** ٢: ٢٧٤، ٣: ٤٠٧؛ **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ٨٨١؛ **مسائل الإمامة**: ٦٣؛ **مختصر تاريخ دمشق** ١٢: ٦٩.

٤ - **تطوّر الفكر السياسيّ عند أهل السنّة**: ٣٨.

يوجه السويّ» من أنّ المعايير كانت مزيجاً من العُرف العربيّ والمفاهيم الإسلاميّة، وتدلّ أمثلة أخرى على أنّ للقرشيّة والشرف القرشيّ اعتباراً خاصّاً في ذهن أبي بكر. قال ابن عساكر: «مرّ أبو سفيان ببلال وسلمان وصهيب فقالوا: ما أخَذَت سيوف الله من عنق هذا بعد مأخذها. فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيّدها».؟! فبلغ رسولَ الله ﷺ خبرُهم، فأمر أبا بكر أن يعتذر منهم لإغضابه إيّاهم[١،٢].

وخرجوا من السقيفة بعد أن تمّت البيعة فيها. وروى البَراء بن عازب أنّهم ساروا في الأزقّة، وكلّما لَقُوا أحداً أخذوا بيده ومسحوها بيد أبي بكر، راغباً كان أم غير راغب! وحينها ذهبتُ إلى بني هاشم وأخبرتهم[٣]. وبلغ اهتمام هذه الجماعة في أخذ البيعة لأبي بكر درجةً أنّهم - كما نقل ابن أبي شيبة - لم يشهدوا دفن رسول الله ﷺ وما رجعوا إلّا بعد دفنه[٤].

ولمّا تمّت البيعة قام عمر واعتذر عمّا قاله في بقاء رسول الله ﷺ حيّاً حتّى يموت آخر أصحابه، وهو قول ادّعى فيه المهدويّة للنبيّ في الواقع. وذكر أنّه كان يرى بقاءه لتدبير الأمور، لكنّه يشهد الآن أنّ القرآن بينهم وأنّه

١ - **تطوّر الفكر السياسيّ عند أهل السنّة**: ٣٨، الهامش الرابع.

٢ - **مختصر تاريخ دمشق** ٥: ٢٦١.

٣ - **السقيفة وفدك**: ٤٦.

٤ - **مصنّف ابن أبي شيبة** ٧: ٤٣٢ (نقل هشام بن عروة عن أبيه أنّ أبا بكر وعمر لم يشهدا دفن النبيّ ﷺ وكانا في الأنصار فدُفن قبل أن يرجعا) وذكر الواقديّ أنّ ما يصحّ عنده هو أنّ رسول الله ﷺ دُفن يوم الثلاثاء (**البدء والتاريخ** ٥: ٤٧) . من هنا يتبيّن أنّ أبا بكر وأصحابه كانوا مشغولين تماماً منذ يوم الإثنين الذي توفّي فيه النبيّ ﷺ حتّى غده، ولم يستطيعوا أن يحضروا جنازته . ولم يُذكَر أبو بكر وعمر فيمن حضر دفنه من الصحابة كما دلّت الأخبار المتعلّقة بالدفن.

بويع خير أصحابه[١] ! ويدلّ هذا على أنّــه كـان ينتظـر اختيـار الخليفـة الـذي يريده، فلا همّ لهم بعدئذٍ بشيء.

وانبرى له في ذلك الحين رجال، فـأعلنوا معارضـتهم، وهـم: الزبيـر بـن العوّام، وخالد بن سعيد، والمقداد بن عمرو، وسلمان، وأبوذرّ، وعمّار، والبَراء ابن عازب وأُبيّ بن كعب. مضافاً إلى الشخصيّتَين البارزتين فـي بنـي هاشـم: الإمام عليّ عليه السلام، والعبّاس[٢]. وذهب أصحاب أبي بكر إلى دار أبـيّ بـن كعـب فلم يفتح لهم الباب[٣]. وكانت المهمّة الأصليّة في هـذه الواقعـة علـى عـاتق: عمر، وأبي عبيدة بن الجرّاح، والمغيرة بن شعبة، وخالد بن الوليد. وجاء عمر إلى بيت الإمام عليّ عليه السلام لأخذ البيعة بكلّ جدٍّ، فقال لـه الإمـام عليه السلام: «و اللهِ مـا حِرصُك على إمارته اليوم إلّا ليؤمّرك غداً»[٤].

وجُوبِهَ المجتمعون في بيت الإمـام علـيّ عليه السلام بـالموقف المتشـدّد لعمـر وأصحابه. وأخذ عمر سيف الزبير وكَسَـره، ثـمّ هـدّد بحـرق البيـت! وبشـأن أسماء المعتصمين في بيت فاطمة عليها السلام ومن دخل البيت عَنوةً، يُنظَر المصدران المذكوران في الهامش[٥]. وجاء في خبر ابن عبد ربّه أنّ عمر كـان بيـده قـبس من نار، فهدّد بحرق البيت! ولمّا سألته فاطمة عليها السلام عن حقيقـة قصـده، وهـل يُقدم على ما عزم عليه؟ قال: نعم، إلّا أن تدخلوا فيما دخلت فيه الأمّة[٦]! وبعد

---

١ - **البدء والتاريخ** ٤: ٦٥- ٦٦.

٢ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٢٤.

٣ - **السقيفة وفدك**: ٤٧.

٤ - **أنساب الأشراف** ١: ٥٨٧ . وروى ابن قتيبة أنّ عليّاً قال له: «احلب حلباً لـك شـطره» . انظـر: **الإمامة والسياسة** ١: ٢٩.

٥ - **معالم المدرستين** ٢: ١٦٣- ١٦٦؛ **تلخيص الشافي** ٣: ٧٦، ١٥٦.

٦ - **العقد الفريد** ٣: ٦٤؛ **تاريخ أبي الفداء** ١: ١٥٦ عنه: **معالم المدرستين** ٢: ١٦٧ . وللاطّلاع علـى مصادر أُخرى أشارت إلى التهديد ينظر: **معالم المدرستين** ٢: ١٦٧ – ١٦٨ . وعبّـر أبـو بكـر

تهديده بحرق البيت على من فيه من المعترضين، طلبت فاطمةعليها السلام منهم أن يتفرّقوا لأنّه سيفعل ما يريده[١]. ولعلّ أخذ البيعة بتهديد الحرق الذي عمل به بعض الأمراء والسلاطين لاحقاً [كعبد الله بن الزبير في أخذه البيعة من بني هاشم[٢]] انطلق من تلك الممارسات أو هو سقيفيّ المنشأ. علماً أنّ قريشاً استعملت أسلوب التفاوض أيضاً مضافاً إلى أسلوب القوّة. فقد قصدت - باستشارة المُغيرة - العبّاس لتُشركه وأسرته في الأمر، وتقلّل من عنائها في تعاملها مع بني هاشم نوعاً ما من خلال استرضائه بوصفه عمّ النبيّصلى الله عليه وآله، لكنّه رفض دعوتها[٣].

وقد ألزم أمير المؤمنين والصدّيقة الزهراءعليهما السلام هذه الأُمّة مسؤوليّتها مِن خلال مساعي كريمة بذلاها في توضيح الأُمور وفكّ الالتباسات التي نسجها لاغتصاب الخلافة الإلٰهيّة.

وذكر أبو بكر الجوهريّ وغيره خبر هذه المساعي[٤]. ولا شكّ أبداً في أنّ الزهراءعليها السلام غضِبت على أبي بكر وعمر، ورحلت عن الدنيا ساخطةً واجدةً عليهما؛ لما شهدتهعليها السلام من إجحافٍ في قضيّة ميراث النبيّصلى الله عليه وآله، وقضيّة فدك[٥]،

عند موته عن جزعه واضطرابه لقيامه ببعض الأعمال، منها أنّه ودّ لو لم يكشف بيت فاطمة حتّى لو كان أغلقه مَن فيه بقصد الحرب (انظر: **معالم المدرستين** ٢: ١٦٥، الهامش ٦٥ من مصادر عديدة) . وانظر أيضاً: الجزء الثاني من «**مأساة الزهراء**عليها السلام» ، للسيّد جعفر مرتضى العامليّ، بيروت، دار السيرة، ١٩٩٧م، للتعرّف على المصادر الأدبيّة والتاريخيّة التيّ تحدّثت حول عمل عمر في موقفه من بنت النبيّ صلى الله عليه وآله.

١ - **المذكّر والتذكير والذكر**: ٩١؛ **مصنّف ابن أبي شيبة** ٧: ٤٣٢ . وهذا الرأي في تطبيق العمل المذكور كان موجوداً عند الشيعة.

٢ - **شرح نهج البلاغة**، لابن أبي الحديد ٢٠: ١٤٧.

٣ - **تلخيص الشافي** ١: ٢٢٠، **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٢٤ — ١٢٥.

٤ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٢٦؛ **شرح النهج** ٢: ٥ — ٢٨، ٦٧ **وقعة صفّين**: ١٨٢؛ **كتاب الردّة**: ٤٦.

٥ - انظر: **الخراج وصناعة الكتابة**: ٢٥٩ — ٢٦٠ للاطّلاع على ما جرى لفدك في العصر الأمويّ

وموضوع الإمامة[١]. وذكر الزهريّ أنّ الإمام عليّاً عليه السلام دفنها ليلاً ولم يؤذِنْ بها أبا بكر. وأضاف أنّه ليس الإمام عليّ وحده لم يبايع أبا بكر، بل بنو هاشم كلّهم - تبعاً له - لم يبايعوه قبل وفاتها[٢]. وصرّح الإمام عليه السلام أنّ سبب بيعته المحافظة على بيضة الإسلام ووحدة المسلمين ضدّ المرتدّين والكفّار[٣]. كما قال لأبي سفيان حين طلب منه ألّا تبقى الخلافة عند بني تَيم: ما زلتَ عدوّاً للإسلام والمسلمين [٤]. مع هذا، لا ريب في أنّه عليه السلام لم يبايع أبا بكر إلّا بعد وفاة الزهراء عليها السلام[٥]. ونقل المدائنيّ أنّه لمّا بدأت حروب الردّة جاءه عثمان وقال له: إنّه لا يخرج واحد إلى قتال هذا العدوّ وأنت لم تُبايع. ولم يزل به حتّى مشى إلى أبي بكر، فسرّ المسلمون بذلك[٦]. وقال المسعوديّ: جاءت فاطمة عليها السلام قبر النبيّ صلى الله عليه وآله وأنشدت:

قد كان بعدَك أنباءٌ وهيمنةٌ ... لو كنتَ شاهدَها لم تَكثُرِ الخطبُ[٧]

ومن المتيقّن أنّ معارضة الزهراء عليها السلام كانت أمراً مهمّاً لسمعة «الخليفة»

والعبّاسيّ.

١ - **مصنّف عبد الرزّاق** ٥: ٤٧٢. ونُقل مثلها عن الزهريّ في **صحيح البخاريّ** ٦: ١٢٢. وانظر: **شرح النهج** ٦: ٤٩، ٥٠، ١٦: ٢٥٣، ٢٨١ - ٢٨٢؛ **البداية والنهاية** ٥: ٢٨٥، ٢٨٧.

٢ - **مصنّف عبد الرزّاق** ٥: ٤٧٢.

٣ - لهذا رفض عليه السلام طلب أبي سفيان أن يبايعه وأبعده عنه. انظر: **نثر الدرّ** ١: ٤٠٠.

٤ - **نهاية الإرب** ١٩: ٤٠.

٥ - أعرض عن تلك الأخبار الكاذبة المخالفة لتواتر التاريخ من أنّه عليه السلام بايع في تلك اللّحظة التي جاء فيها أبو بكر وعمر إلى بيته. انظر: **نهاية الإرب** ١٩: ٣٩، ٤٠.

٦ - **تلخيص الشافي** ٣: ٧٧.

٧ - **مروج الذهب** ٢: ٣٠٤؛ **شرح النهج** ٢: ٥٠، ٦: ٤٣، ١٦: ٢١٢، ٢٥١، **البدء والتاريخ** ٥: ٦٨ - ٦٩. وجاء فيه «وهنبثة» بدل «وهيمنة»، كما أُضيف إليه بيت آخر. وانظر: **فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى** صلى الله عليه وآله، لأحمد الرحمانيّ (قمّ ١٤١٤ هـ) ص ٣٦٠ - ٣٦١ للاطّلاع على الشعر المنشود في خطاب قبر النبيّ صلى الله عليه وآله بعد كلامها مع أبي بكر.

وشخصيّته العامّة، لذا بذل قُصارى جهده لإرضائها، بَيْدَ أنّها لم ترض قطّ، ممّا جعله يعبّر عن ندمه في آخر عمره لإسخاطه إيّاها وهجومه على بيتها. وروى كثير من مؤرّخي أهل السنّة أنّه ودّ في الأيّام الأخيرة من حياته لو لم يفتّش بيتها.[١]

وكان المعارض الآخر لأبي بكر سعد بن عبادة[٢]. فلم يبايعه وذهب إلى الشام. ونُقل أنّه قُتل فيها أيّام عمر. والخبر المشهور المبثوث في المصنّفات التاريخيّة هو أنّ الجنّ قتلته، وأنشدت بيتين في ذلك! لكنّ الحقيقة هي كما ذكر البلاذريّ وابن عبد ربّه أنّ عمر بعث إليه رجلًا شاميّاً لأخذ البيعة منه، وإذا أبى قَتَله؛ ففعل ما أُمر به.[٣]

وكان التفاوت بين سياسة أبي بكر وسياسة عمر أنّ عمر كان يعتقد أخذ البيعة عنوةً، أمّا أبو بكر فإنّه - على فرض اعتقاده لهذا الأصل - لم يَرَ مصلحةً في ذلك من قِبَله، وفي هذا الشأن تُنسب السياسة الازدواجيّة إلى موقفهما معاً. وبينا كان عمر يرى أنّ على الجميع أن يبايعوا بالقوّة، جاء في موضع أنّ أبا بكر قال في خطبة له: «لا بيعةَ لي في عُنُقه [عنق عليّ عليه السلام] ، وهو بالخيار من أمره».[٤]

---

١ - **حياة الصحابة** ٢: ٢٤؛ **كنز العمّال** ٥ / الرقم ١٤١١٣؛ **الأموال** ، لابن سلّام: ١٩٤.

٢ - **نهاية الإرب** ١٩: ٣٨ . وورد فيه أنّ جماعة من الخزرج لم تبايع في السقيفة أيضاً .

٣ - **المعيار والموازنة**: ٢٣٢ (في الهامش نقلاً عن البلاذريّ وابن عبد ربّه) . ومن الطريف أنّ ابن أبي الحديد قال في ج ١٧، ص ٢٢٣ – ٢٢٤ من **شرحه** أنّ جماعة تعتقد أنّ أبا بكر قتله، إلّا أنّه لم يَرَ في كتب التاريخ خبراً بهذا الشأن، في حين أنّ الخبر المذكور جاء في المصدرين التاريخيّين المذكورين بشأن عمر .

٤ - **السيرة الحلبيّة** ٣: ٣٨٩ (و انظر: **الغدير** ٥: ٣٦٨).

ردّ الفعل الشعبيّ من المنصَّب في السقيفة

كان الحكم في الحكومة الولائيّة للنبيّ ﷺ يقوم على قاعدة الدِّين، أي أنّه ﷺ تمكّن أن يُوجِد على تلك القاعدة نوعاً من الرابطة التي وحّدت العرب المسلمين في أطرافه. لكن كان واضحاً أنّ عامّة الناس لم يستسيغوا أن يحلّ الدين بنحو وافٍ محلّ العصبيّة القبليّة التي كان مقدّراً لها في تلك الظروف أن تؤثّر تأثيراً بالغاً في تشكيل الحكومة، وهذا عمل كان على قريش أن تقوم به. من هنا اقتضت الحكمة الإلهيّة إتماماً للحجّة مراعاة الجانب الدينيّ والقبليّ في القضيّة على حدّ سواء (إذ يُنتَخب رجل من قبيلة بارزة متميّزة)، فاختار الله سبحانه للخلافة أفضل المؤمنين بعد رسوله الكريم ﷺ - وكان قرشيّاً - كما اختار نبيّه ﷺ من تلك القبيلة. وكان الإمام عليّ عليه السلام أفضل الصحابة وأعلاهم شأناً في الإيمان وعلوم الدين وسائر السجايا والخصال. وهو من قريش أسرة النبيّ ﷺ نفسه. وحينئذٍ لا بأس عند العرب في قبولها إيّاه وهي التي كانت تنظر إلى قريش نظرة متواضعة. ولو احترم الصحابة من قريش الأخوّة الدينيّة احتراماً كافياً، وتلقّوا التعليمات النبويّة بوصفها ديناً وطبّقوها بدقّة بالغة، لما كان عناءَ عندئذٍ. لكن ضعف النزعة الدينيّة في تركيبة الحكومة الجديدة، وغلبة فرع منحرف من قريش على مصير الأمّة الإسلاميّة خَلْخَلا المجرى الطبيعيّ لتشكيل الحكومة الولائيّة.

وتقلّدت قريش الأمر في الظروف الجديدة، ورضي العرب من سائر القبائل ذلك أيضاً، بيد أنّ عنصر العصبيّة القبليّة ظلّ محفوظاً ولم يتقلّد الأمرَ أفضل المؤمنين كما أراد الله ورسوله، فتقوّضت الحكومة الولائيّة بذلك. وهذه القضيّة معلولة في الأعمّ الأغلب لضعف عنصر الأخوّة الدينيّة في ذلك المجتمع، وانتهازيّة عدد من قادة العصبة المحافِظة من قريش، الذين أسّسوا

الحكومة الجديدة بتوجّهات قبليّة، ودفعوا أهلَ البيت النبويّ عن مقامهم وأزالوهم عن مراتبهم التي رتّبهم الله فيها!

من هنا زُحزِحت الحكومة الولائيّة بوفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وحلّت «الخلافة» بمواصفاتها الخاصّة محلّ «الولاية». وحدث هذا التغيير في مجتمع يشكّل الصحابة أفرادَه، وترك سؤالًا ما زال مثارًا، وهو: لماذا وقع ما وقع في ذلك المجتمع؟!

ويتعيّن علينا هنا أن نتلمّس الجواب ابتداءً وبنحو منتظم في ما قدّمه ابن خلدون من معلومات حول قواعد تغيّر المجتمع والأصول المرتبطة بتشكيل الحكومة والتمدّن، فهو يرى أنّ العصبيّة القبليّة أساس تشكيل الحكومة، فمن بين القبائل العديدة التي تعيش في منطقة واسعة تسيطر القبيلة التي تتمتّع بالجاه الأكبر وتفرض سلطتها السياسيّة عليها. ومن الناحية القبليّة يضاف إلى العامل السكّانيّ وعلاقة القبيلة بسائر القبائل، أنّ عوامل أخرى - كالدين - هي في غاية التأثير أيضاً. وإذا وُجدت هذه القبيلة في بيئة فسيحة، وكانت تتمتّع بقدرة لازمة وقيادة كفوءة، ولا منافس ذا بالٍ لها، فإنّها تستطيع أن تؤسّس الحكومة.

إنّ الاختيار الإلهيّ لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام حمل على الناس أكثرَ من حُجّة، لا سيّما على الذين يحملون العصبيّة القوميّة والقبليّة، فالإمام عليّ عليه السلام هو العربيّ القرشيّ التهاميّ، ثمّ هو أقرب الناس رَحِماً وصِلَةً إلى النبيّ صلى الله عليه وآله. فأين الذين يشترطون القرابة المقرَّبة في الخليفة؟! أو يشترطون العربيّة والقرشيّة؟! ولا يشترطون الاختيار الإلهيّ ولا الملكات السامقة، والإمام عليّ عليه السلام سيّدُها جميعاً في ذلك بعد رسول الله صلى الله عليه وآله!

ولا شكّ أنّ سائر القبائل - بعد مخطّط السقيفة - كانت ترضى بسلطة

قريش، ولا فرق عندها بأن يكون القرشيّ من بني هاشم أو من بني تيم أو من بني أُميّة! علماً أنّ المسلمين بالمدينة بعد نشر الإسلام لم يرغبوا - في الأقلّ - خلال السنين الأولى التي تلت وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله في أن يكون المنتخب من بني أُميّة وإن وافقوا على ذلك لاحقاً. ولم تتمتّع القبائل البدويّة الحديثة العهد بالإسلام بقدرة كافية على التمييز بين بني هاشم وسائر القبائل إلّا بني أُميّة فما كان مهمّاً عندها هو أن يكون المنتخَب قرشيّاً. واصطدم كثير من القبائل بقريش من أجل السلطة السياسيّة.

حتّى أنّها واجهت تحدّيات صعبةً قُرابة سنة ونصف في فرض قيادتها على سائر القبائل، لكنّ القدرات التي كانت عندها، وقوّة استقطابها، والموقع التاريخيّ الخاصّ للجزيرة العربيّة، كلّ ذلك أدّى إلى بقاء الحكومة الجديدة.

وكان النزاع الداخليّ بين بطون قريش في تلك الظروف نزاعاً مهمّاً، فقد كانت طوائف منها ساخطة على بني هاشم لا سيّما الإمام عليّ عليه السلام، وتعارض تصدّيهم للحكم، وكان لهذا الأمر أسباب خاصّة تعود إلى نزاعات قديمة. فضلاً عن ذلك، كان للأحقاد البدريّة والحُنينيّة والخيبريّة تأثيرها. فقد قُتل في الأقلّ خمسة وعشرون رجلاً من سائر بطون قريش خلال حروبهم مع النبيّ صلى الله عليه وآله بسيف عليّ بن أبي طالب عليه السلام [1]، ولم يكن هذا هيّناً على قريش ذات النزعة القبليّة الشديدة، فتتغاضى عنه بسهولة.

وأيّاً كان، فإنّ النزاع داخل قريش أدّى إلى إقصاء بني هاشم، وكذلك الأنصار فإنّ خلافاتهم حالت دون اتّخاذهم الموقف المطلوب، وهم كانوا أهمّ طائفة يتسنّى لها أن تبدي رأيها في هذا المجال إلى حدٍّ ما، وكانت ترى أنّ الخطر المهمّ يكمن في سيطرة قريش، ولعلّها التفتت إلى عزم قريش على

---

١ - أنساب الأشراف ١: ٣٣٤ - ٣٣٥.

حؤولها دون خلافة الإمام عليّ عليه السلام.

من هنا نلحظ أنّ قوى قريش وبطونها الداخليّة حين عارضت خلافة الإمام عليّ عليه السلام، وقعد الأنصار عن نصرته، لم يبق سبيل لانتقال الزعامة إليه طبيعيّاً، وكان عمر يدرك هذه الحقيقة جيّداً لمّا قال: إنّ العرب لا تدين إلّا لقريش، وقريش أيضاً لا تريد أن تكون الإمامة في بني هاشم.

وربّما يثار هذا السؤال، وهو: ألم تكن الأمّة على مستوىً من التديّن يمكّنها من الثبات على كلام النبيّ صلى الله عليه وآله يوم الغدير، والدفاع عن الإمام عليّ عليه السلام؟

الجواب: هو أنّ مستوى تديّنها قياساً بالعصبيّات القبليّة الموجودة لم يكن على درجة من الرفعة والقوّة كيما تستطيع أن تنظر إلى القضيّة من هذا المنطلق.

وكان الصحابة القادرون على اتّخاذ القرار هم المهاجرون والأنصار أنفسهم، فالمهاجرون تقوم رؤيتهم على آراء قريش، والخطّ الوسط الذي مثّلته الأكثريّة من قريش لم يُبدِ رغبته في الارتضاء بقيادة الإمام عليّ عليه السلام. أمّا الأنصار الذين كانوا حزباً مستقلّاً فقد دلّ اجتماعهم في السقيفة على انتهازهم الفرصة للحؤول دون تسلّط قريش. ومَن دافع عن الإمام من الصحابة هم ثلّة من هاتين الطائفتين، وكانوا في غاية القلّة عند الإحصاء، لكنّهم على مستوىً عالٍ رفيع من التديّن، وهؤلاء هم: سلمان، وأبو ذرّ، وعمّار، والمِقداد. ومعظمهم إمّا لم تكن له قبيلة، أو كانت له إلّا أنّها بعيدة غاية البعد عن مركز القوّة والسلطة، فقد أبدى عمّار رأيه مرّة في المسجد عند الاجتماع لانتخاب الخليفة بعد عمر، وطلب من الحاضرين أن ينتخبوا الإمام عليّاً عليه السلام، بيد أنّ قريشاً هاجمته وصرّحت أن لا حقّ له أن يتدخّل في شؤونها.

يضاف إلى ذلك، أنّ حجم التأييد والطاعة الشعبيّة لتعليمات النبيّ ﷺ كان متفاوتاً في مختلف الحالات حتّى في عصره ﷺ، ففي صلح الحديبيّة مثلًا لم يقبلوا حُكمه إلّا بصعوبة. وهذا يدلّ باحتمال قويٍّ جدّاً على أنّهم يعارضون انتخابه في اللّحظات السياسيّة الحسّاسة، خاصّة إذا علمنا أنّ رجالًا مثل عمر لم يَرَوا لآرائه السياسيّة ﷺ حُجّيّةً شرعيّة، وعندئذٍ يتسنّى لنا أن ندرك مثل هذه المعارضات والمخالفات ونستوعبها بأيسر ما يكون.

الخلافة بعد رسول الله ﷺ

كان أوّل حاكم بعد رسول الله ﷺ هو أبو بكر بن أبي قُحافة، وكان أصغر من النبيّ ﷺ بسنتين. وفي اسمه خلاف، هل كان عبدَ الله أو عتيقاً؟ ويبدو وجود إصرار على أنّ اسمه كان عبد الله، لكن لم يشكّ أحد في أنّه كان يُدعى (عتيقاً) أيضاً[1]. وكان من قبيلة تيم التي تُعدّ من قبائل قريش. ولم يكن لها موقع خاصّ في الجاهليّة. وشاهد ذلك قول أبي سفيان بعد تنصّب أبي بكر: «غلبكم على هذا الأمر أذلُّ أهل بيتٍ في قريش »[2]!

ونُقل أنّ أبا بكر كان يُحادث دَغْفَلاً حول نسبه، وما اتّضح من محادثتهما هو أنّ قبيلته كانت أضعفَ طوائف قريش[3]، وذات مرّة قال أبو بكر لقيس بن عاصم: «ما حملك على أن وأدتَ؟ قال: مخافة أن يُخلَف عليهنّ مثلُك»[4]!

وثمّة خلاف حول شغله في الجاهليّة، فقد ذكر من تحمّس لإيجاد موقع له فيها أنّه كان تاجراً، في حين وردت أخبار متظافرة أكيدة أنّه كان يزاول

١ - **المعرفة والتاريخ** ١: ٢٣٨؛ **مروج الذهب** ٢: ٢٩٨.

٢ - **مصنّف عبد الرزاق** ٥: ٤٥١؛ **مستدرك الحاكم** ٢: ٧٨.

٣ - **مجمع الأمثال** ١: ٢٧.

٤ - **شرح نهج البلاغة**، لابن أبي الحديد ١٣: ١٧٧.

أعمالاً بسيطة كالحَلْب[١] وأمثاله، ويدلّ خبرٌ آخر على أنّه كان في ضائقةٍ ماليّة، وقد زاول التعليم في الجاهليّة والخياطة في الإسلام.[٢]

وعُدّ ـ وهو أصغر من النبيّ ﷺ بعامين ـ من المسلمين الأوائل، على الرغم من الخلاف الموجود حول، ذلك؛ إذ جاء في خبر أنّ إسلامه كان بعد خمسين أسلموا قَبله[٣]. والطبيعيّ في هذه القضيّة هو وجود مثل هذه الآراء المختلفة حوله ، إذ كان الخليفة الأوّل للمسلمين، ولم يُسمَع أنّه تعرّض لضغوطٍ خاصّة إبّان السنين الأولى للدعوة بمكّة، كما لم يذهب إلى الحبشة مع المهاجرين. بيد أنّ الفرصة أُتيحت له ليكون مع النبيّ ﷺ ليلةَ الهجرة. وفي ضوء الخبر الذي نقلناه في البحوث المرتبطة بالهجرة أنّ اصطحابه للنبيّ ﷺ كان بعد أن سمع بخروجه من بيته وإتيانه إلى الإمام عليّ عليه السلام، فتتبّعه ولَحِق به.

وقَويت علاقته بالنبيّ ﷺ أكثر فأكثر بعد زواجه ﷺ بعائشة. ويتعيّن الالتفات إلى أنّ عائشة كانت امرأة ذات دهاء، فقد سعت طوال حياتها إلى أن يكون لها تأثير في التطوّرات السياسيّة الجارية آنذاك، وهذا ما أفضى إلى تثبيت موقع أبي بكر وتعزيزه إلى حدٍّ ما ، ورأينا كيف كان يعتقد الإمام عليّ عليه السلام أنّ لها التأثير الأصليّ في قضيّة صلاة أبيها. في حين لم يتقلّد أبوها أيَّ مسؤوليّة سياسيّة أو عسكريّة خلال السنين العشر في المدينة، إلّا أنّه استطاع أن يُمسك زمام الأُمور فجأة بعد النبيّ ﷺ لإدراكه موقع الأجنحة الداخليّة في قريش، واستغلاله عنادَ قريش ومحادّتها للإمام أمير المؤمنين عليه السلام،

---

١ - **الفائق في غريب الحديث** ٤: ١٢.

٢ - **الإفصاح**: ١٧٦.

٣ - انظر: **الصحيح من سيرة النبيّ** ١: ٢٤٧، ٢٨٩، ٢٩٠، **الطبريّ** ٢: ٦٠ . وذكر في خبر ضعّفه هو نفسه أنّ خمسين شخصاً أسلموا قبل أبي بكر.

ومؤازرة الفئات القرشيّة المحافِظة له، تلك الأجنحة التي لم تكن في عداد بني هاشم ولا بني أمَيّة.

وساعده في تسلّطه بعض الأمور، منها تصادف خلافته لتصاعد موجات ما سمّي بالردّة عن الإسلام في الجزيرة العربيّة، ولمّا رأى المسلمون الخطر محدقاً ببلادهم لم يروا مصلحة في معارضة أبي بكر. ومن الطريف أن نعلم بأنّ خلافاً نشب بين الأنصار وقريش بعد استخلاف أبي بكر مباشرةً. وسببه شِعرٌ أنشده أبو بكر في قَدْح الأنصار، فاعتزلوه. وطعن عمرو بن العاص فيهم أيضاً بتحريض قريش، وفي مقابل ذلك أثنى عليهم الفضل بن العبّاس ثمّ الإمام أمير المؤمنين عليّ‌عليه السلام، وبسبب مدحه‌عليه السلام لهم أنشد حسّان بن ثابت شعراً في مدحه وأشار فيه إلى محاولة رجال من قريش أن تكون لهم منزلة الإمام[1]. مع هذا، ما إنْ تصاعدت موجات المعارضة للدولة حتّى تحرّك الأنصار لدرء الخطر المحدق بهم وبالدولة.

ويضاف إلى ما ذُكر أنّنا ينبغي أن نقول: كان لأبي بكر لسان ذليق في الخطابة. ونحن على ثقة بأنّ ذلك اللّسان الذليق المتظاهر باللّين قد فعل فعله وأحكم أمره في السقيفة أكثر من حدّة رفيقه عمر وغلظته، وإن تلازم سلوكهما.

وصرّح أبو بكر مراراً أنّ في المسلمين مَن هو أحقُّ منه بالخلافة، وخطب بعد بيعته قائلاً: وُلّيتُ عليكم ولستُ بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأتُ فقوّموني...أطيعوني ما أطعتُ الله، وإذا عصيتُ فلا طاعة لي عليكم[2]. وهذا دليل على أنّه كان يصرّح بأن لا يلزم أن يتولّى الحكومة أفضلُ

١ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٢٨.

٢ - **مصنّف عبد الرزّاق** ١١: ٣٢٦ . وانظر: **تاريخ الطبريّ** ٣: ٢٢٤؛ **والإمامة والسياسة** ١: ٣٤.

الناس. ونُقل عنه أنّه قال: عمر أقوى منّي، وسالم ـ مولى أبي حذيفة ـ أتقى[١]. مع هذا فإنّ من العجيب أنّه كان يصرّ على أن يكون أمر الحكومة بيده! وكان يصف حكومته بأنّها خلافة النبوّة، وهذا التعبير يضمن الجانب الدينيّ لخلافته، بيد أنّه كان لايراها خلافةً من الله، بل هي خلافة رسول الله ﷺ ويُسمّي نفسه: «خليفة رسول الله»[٢]!

وكان أوّل عمل قام به هو إنفاذ جيش أُسامة، ذلك الجيش الذي كان رسول الله ﷺ يعدّه للتحرّك صوب الشام في الأيّام الأخيرة من حياته، وكان تأخّر إنفاذه بسبب بعض الاعتراضات السياسيّة المتذرّعة بصغر سنّ قائده، بيد أنّ وقت الإنفاذ قد حان، إذ تمّ حلّ المسائل المتعلّقة بتأخيره ظاهراً، والذين تذرّعوا بتلك الذريعة هم أنفسهم عزموا على تجهيزه بالرغم من الوضع المتأزّم في الجزيرة العربيّة. وقالوا – وهم الذين اعترضوا على إنفاذه–: ليس لنا أن نَدَعَ ما أمر به رسول الله ﷺ. وذكر أبو بكر أنّه حتّى لو علم أنّ السباع ستأكله لأنفذه.[٣] وتوجّه جيش أُسامة إلى الشام، ورجع بعد أربعين يوماً بلا قتال. وبينا رسول الله ﷺ قد جعل عمر في جيش أُسامة، طلب أبو بكر من أسامة أن يأذن ببقاء عمر عنده!

١ - **نثر الدرّ** ٢: ١٥.

٢ - **الأحكام السلطانيّة**، لأبي يعلى: ١٧. وعلى الرغم من هذا الأمر فقد صرّح في أوّل خطبة له قائلًا: وقد استخلف اللهُ عليكم خليفةً ليجمع به أُلفتكم، ويقيم به كلمتكم. انظر: **الإمامة والسياسة** ١: ٣٤. وجاء في كلام لمسلمي الشام أنّهم كانوا يسمّونه خليفة الله. **الإمامة والسياسة** ١: ٣٨. [ولا ينتظر من أهل الشام غير ذلك]. وناداه رجل مرّةً بقوله: يا خليفة الله فقال: لستُ بخليفة الله، ولكنّي خليفة رسول الله، أنا راضٍ بذلك. (**مصنّف ابن أبي شيبة** ٧: ٤٣٣).

٣ - **تاريخ خليفة بن خيّاط**: ١٠٠ – ١٠١.

قضيّة الردّة

كانت المشكلة الأصليّة للمسلمين حراكاً عُرف بتيّار «الردّة». وذكر المؤرّخون أنّه حدث بعد وفاة النبيّ ﷺ أن تنبّأ جماعة من العرب، وارتدّ جماعة، ووضعوا التيجان على رؤوسهم، وامتنع قوم من دفع الزكاة إلى أبي بكر.[١]

ونحن نعلم أنّ عرب البادية أسلموا واحداً بعد الآخر في فتح مكّة، وعملهم هذا كان في الأغلب معلولاً بقدرة الإسلام المتزايدة على كرور الأيّام، وخشيتهم من تحرّك المسلمين نحوهم كلّ لحظة، من هنا كان عليهم أن يختاروا الطريق الجديد ولو مؤقّتاً. هذا في وقت كانوا لا يعرفون الإسلام حقّ معرفته، ولا يستطيعون أن يتنازلوا عن عقائدهم الجاهليّة القديمة بسهولة. وكان دفع الزكاة أيضاً مشكلةً جديدةً لهم، إذ كانوا يرونها نوعاً من الإتاوة يأخذها المسلمون الذين كانوا في عقيدتهم أشخاصاً من قريش أو من الأوس والخزرج لا حقّ لهم عليهم. وكان لكلٍّ من هؤلاء دافعه الخاصّ، لكنّ جهاز الخلافة كان ينظر إليهم كلّهم نظرة الارتداد، فتعامل معهم بهذه الأداة، في حين يتسنّى لنا بناءً على ما نُقل أن نقسّم المرتدّين إلى أقسام؛

الأوّل: المتنبّئون. الثاني: المتعرّبون الذين تركوا الإسلام وعادوا إلى جاهليّتهم. الثالث: المنكرون لقادة حكومة المدينة الذين عدّوا أنفسهم هم المتمسّكين بالإسلام. وهؤلاء امتنعوا من تسليم الزكاة، لأنّهم لم يعتقدوا الحكومة المذكورة. وبينهم رجال أبوا تسليمها، لأنّهم لم يعترفوا بحكومة أبي بكر، وكانوا يعتقدون إمامة أهل البيت النبويّ عليهم السلام. وسنتحدّث هنا عن المتنبّئين أوّلاً.

---

١ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٢٨.

ونذكّر في البداية أنّ أخبار الردّة وردت في كتب عديدة، ومنها كتاب الطبريّ الذي اعتمد على كتاب سيف بن عمر متناً أصليّاً له، وعنوانه «كتاب الفتوح الكبير والردّة»، وسيف هذا كذّبه وجرّحه جميع الرجاليّين[١]. وكتاب «الفتوح» لابن أعثم الكوفيّ، ومن حسن الحظّ أنّه مطبوع الآن. وللواقديّ والمدائنيّ كتب في تلك الأخبار، وطُبع أخيراً «كتاب الردّة» للواقديّ، ويشترك مع فتوح ابن الأعثم في كثير من الأخبار. وضمّت مصادر أخرى أيضاً نُتفاً من هذا الموضوع نوعاً ما.

أمّا المتنبّئون فقد كان فيما يرتبط بهم دافع جوهريّ يتلخّص في أنّ بعض القبائل أو الأشخاص الطموحين كان يجول في ظنّهم أنْ لو قُدِر لشخصٍ من احدى القبائل أن يتزعّم القبائل الأُخرى بادّعائه النبوّة، فلقبيلته أن تكون كذلك. وهذا التفكير أفضى إلى تنبّؤ أفراد بعض القبائل، وأوّلهم الأسود العنسيّ الذي تمرّد باليمن، وقال لموفَدي النبيّ صلى الله عليه وآله: أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا[٢]، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله الخبر فأمر بقتله «غيلةً أو مصادمةً». ودامت فتنته ثلاثة أشهر ثمّ قُتل. وقيل: إنّ خبر قتله وصل إلى المدينة بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله بأيّام؛ قَتَله رجل يُدعى فيروز وكان فارسيّاً من طائفة «الأبناء»، وهم الفرس الذين كانوا يقيمون في اليمن[٣]. وذكر في ذلك المصدر أنّ قاتله شخص آخر يقال له: داذويه، وكان من المسلمين، واسمه يدلّ على أنّه كان فارسيّاً أيضاً.

وممّن ادّعى النبوّة أيضاً مُسَيلمة بن حبيب من بني حنيفة، وكان قد وَفَد

---

١ - تناول كتاب عبد الله بن سبأ أو دراسة أحاديث سيف للعلّامة العسكريّ مرويّات سيف بالنقد والتحليل.

٢ - **تاريخ الطبريّ** ٢: ٢٢٩.

٣ - **تاريخ خليفة بن خيّاط**: ١١٧.

على النبيّ ﷺ بالمدينة مع كبار قبيلته وأظهر الإسلام، لكنّه لمّا عاد سوّلت له نفسه التنبُّؤ فخاطب قومه قائلًا: أريدُ أن تخبروني بماذا صارت قريش أحقّ بالنبوّة والإمامة منكم؟ والله ما هم بأكثر منكم ولا أنجد، وإنّ بلادكم لأوسع من بلادهم، وأموالكم أكثر من أموالهم[١]. ثمّ تنبّأ بعد ذلك وكتب إلى النبيّ ﷺ: فإنّي قد أشركتُ في الأمر معك، وإنّ لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكنّ قريشاً قوم يعتدون.فكتب إليه رسول الله ﷺ: إنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين[٢].

وتمهّد له الأمر أكثر بعد وفاة النبيّ ﷺ حتّى استطاع أن يجرّ إليه خلقاً كثيراً من الناس، وكان يخترع كلمات بنثر مسجّع؛ يقلّد فيه القرآن الكريم ويعرضه على الناس[٣]، وكان قد قال لهم: قد وضعتُ عنكم صلاة الفجر وصلاة العشاء[٤].

وتنبّأت سجاح بنت الحارث التميميّة أيضاً[٥]، ولمّا التقت بمسيلمة تزوّجته! وقيل: إنّه جعل مهرها رفع صلاة الفجر وصلاة العشاء. وجاء في «الفتوح»: أنّها لمّا سارت إليه... قالت: «إنّه بلغني أثرك، وسمعتُ بنبوّتك، وقد أقبلتُ إليك وأحببت أن أتزوّج بك...»، فجعل صداقها رفع صلاتي الفجر والعشاء عن أُمّتها.[٦]

---

١ – **الفتوح** ١: ٢٣.

٢ – **تاريخ الطبريّ** ٢: ١٤٦؛ **الخراج وصناعة الكتابة**: ٢٨٢.

٣ – ومنه: «لا أقسم بهذا البلد، ولا تبرح هذا البلد، حتى تكون ذا مال وولد، ووفر وصفد، وخيل وعدد، إلى آخر الأبد، على رغم من حسد» . **كتاب الردّة**: ١١١ . وورد مثال آخر في «**البدء والتاريخ**» ٥: ١٦١ – ١٦٢، ١٦٤ . وهذه الأمثلة قبيحة من الوجهة الأخلاقيّة.

٤ – **البداية والنهاية** ٦: ٣٢٦ .

٥ – وفي بعض المصادر: بنت أوس بن حريز . انظر: **جمهرة النسب**: ٢٢٦.

٦ – **الفتوح** ١: ٢٧ – ٢٨ طبعة دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ؛ **البدء والتاريخ** ٥:١٦٥.

ولمّا ذهب المسلمون إلى اليمامة وقائدهم خالد بن الوليد التقوا بأصحاب مسيلمة فسألوهم: ما تقولون؟ قالوا: «منّا نبيّ ومنكم نبيّ». ثمّ بدأ القتال، وكانت حرب اليمامة من أشدّ حروب المسلمين مع المتنبّئين والمرتدّين، فقد استُشهد فيها عدد كبير منهم، وفيهم ثمانية وخمسون من المهاجرين والأنصار، وثلاثة عشر منهم ممّن شهد بدراً[1]. وذهب ابن أعثم إلى أنّ الشهداء ألف ومئتان، بينهم سبعمئة من حفّاظ القرآن[2]. وفي النصّ المنسوب إلى الواقديّ تفصيل للقتال بأراجيز كثيرة للصحابة، ومنه رجز عمّار ابن ياسر. وبعد انتهاء الحرب مباشرة تزوّج خالد بن الوليد بنت مجاعة بن مرارة أحد القادة المتآمرين من بني حنيفة، وانهمك في لذّاته، فلمّا رأى المسلمون ذلك كتبوا إلى أبي بكر:

أترضى بأنّا لا تجفّ دماؤنا وهذا عروسٌ باليمامة خالدُ

وبلغ أبا بكر خبره، فقال عمر: «أما والله لا يزال يأتينا من خالد في كلّ حين ما تضيق به الصدور. فكتب إليه أبو بكر كتاباً شديد اللّهجة، فلمّا وصله تبسّم ضاحكاً ثمّ قال: ما أعرف في هذا الكتاب من كلامه شيئاً، ولا هذا إلّا من كلام عمر»[3].

وتنبّأ طُليحة بن خويلد الأسديّ؛ جمع طوائف من قبيلة غطفان وبني فَزارة، وحاول بكلماته المسجّعة وتنبّئه أن يواجه حكومة المدينة. وفي القتال الذي جرى بينه وبين المسلمين هُزم عُيَيْنة بن حصن مع قبيلته بني فزارة وفرّ

---

١ - **تاريخ خليفة بن خيّاط** ١: ١١١ - ١١٥.

٢ - **الفتوح** ١: ٤٠.

٣ - نفسه ١: ٤٣ - ٤٤؛ **كتاب الردّة**: ١٤٤ - ١٤٦.

طُليحة إلى الشام، فقُمع بذلك تمرّد آخر[1]. وعيينة المذكور هو الـذي خاصـم المسلمين في عهد رسول الله ﷺ غير مرّة، ثمّ أسلم، إلّا أنّ حضوره في القتال دلّ على أنّه لم يؤمن حقّ الإيمان قطّ ككثير من الناس سواه. ولمّـا جـيء بـه أسيراً إلى المدينة، طعن عليه النـاس وقـالوا لـه: يـا عـدوّ الله! أكفـرت بعـد إيمانك؟ فقال: والله ما آمنتُ طرفةَ عين[2]. وعفا أبو بكر عـن أسـراهم، وقـدم طُليحة المدينة في عهد عمر وأظهر التوبة، فقال له عمر: كيف ترجـو النجـاة من النار وقتلتَ مثل ثابت بن الأرقم الأنصاريّ وعُكاشة بن مِحصن الأسديّ؟ قال: ذانك رجلان أكرمهما الله عزّوجلّ بالجنّة وساق إليهما الشهادة على يدي ولم يقتلني بأيديهما فأكون في النار. فأعجب عمرَ مقالُه! فقرّبه وأدناه.

و بغضّ النظر عن المتنبّئين، قيل: إنّ بعـض القبائـل كانـت مرتـدّة، مـن الأساس.

ولا شكّ في أنّ أرضيّة الردّة كانت ممهَّدة، وأنّ لُمّة من الناس قد ارتدّت، بيد أنّ الغامض حقّاً هو من كان المرتدّ الحقيقيّ فـيهم؟ ومـن كـان الـرافض لحكومة المدينة فحسب لأسباب سياسـيّة أو دينيّـة؟[3] فمـن الرافضـين علـى سبيل المثال قبيلة مالك بن نويرة، فلا يرتاب أحد أبداً في أنّهم افتُري علـيهم وقُتلوا بكلّ قسوة بسبب أهواء خالـد ودوافعـه اللّاأخلاقيّـة المتردّيـة لا غيـر. وهذه وصمة عار في ملفّ خالد، والذين دافعوا عنه عدّوا جريمته ـ في قتلـه عدداً من المسلمين ودخوله بامرأة مالك بعد قتله مباشرة ـ تـأوّلاً وخطـأ فـي

---

١ - **الفتوح** ١: ١٤– ١٥؛ **تاريخ خليفة بن خيّاط**: ١٠٢ – ١٠٣.

٢ - **الفتوح** ١: ١٧؛ **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٢٩.

٣ - كان الشيعة منذ البداية لا يقرّون ارتداد جميع الخارجين على الحكومة. انظر: **كنز الفوائد** ١: ٣٤٦.

الاجتهاد[١]. ولمّا سمع عمر به هاج بشدّة، وسأل أبا بكر أن يعزله، لكنّ أبا بكر قال: هو سيف الله، ولم يفعل ما أراده عمر[٢].

وكان من بين القبائل التي ألصق بها الارتداد رجال لم يرضوا بأبي بكر وطالبوا بحكومة أهل البيت النبويّ، فكانوا يقولون بأن لا عهد لأبي بكر عندهم ولا تجب طاعته عليهم، وعقيدتهم أنّ المهاجرين والأنصار حرموا أهل البيت من الخلافة وحالوا بينهم وبينها حسداً من عند أنفسهم[٣]؛ جاء في خبر الواقديّ وابن أعثم: أنّ أحدى القبائل التي وُصفت بالارتداد قبيلة من كِندة كانت تسكن حضرموت، وكان زياد بن لبيد مسؤولًا عن جمع زكاتها. «فجعلت فرقة يعطون الزكاة، وفرقة عزموا على منعها... وأخذ زياد يوماً من الأيّام ناقةً من إبل الصدقة فوسمها... وكانت هذه الناقة لفتىً من كندة يقال له: زيد بن معاوية... فأقبل إلى رجل من سادات كندة يقال له حارثة بن سراقة فقال له:... فإن رأيتَ أن تكلّمه فيها فلعلّه يُطْلقها ويأخذ غيرها من إبلي... فأراد حارثة ذلك من زياد، فامتنع... وأقبل حارثة إلى إبل الصدقة، فأخرج الناقة بعينها وأعطاها صاحبها. ثمّ قال لزياد: نحن إنّما أطعنا رسول الله ﷺ إذ كان حيّاً ولو قام رجل من أهل بيته لأطعناه، وأمّا ابن أبي قحافة فما له طاعة في رقابنا ولا بيعة». قيل: لمّا رأى زياد ذلك فرّ ليلًا وسمّاهم مرتدّين في شعر أنشده: «نقاتلكم... حتّى تطيعوا أبا بكر... وحتّى تقولوا بعد كفر وردّةٍ بأنّا أُناس لا نعود إلى الكفر».

---

١ - **تاريخ خليفة بن خيّاط**: ١٠٥ . فقال أبو بكر: «هل يزيد خالد على أن يكون تأوّل فأخطأ»؟ انظر: **تاريخ الطبريّ** ٣: ٢٧٨؛ **طبقات الشعراء**: ٤٨.

٢ - **تاريخ الطبريّ** ٣: ٢٧٩؛ **الأغاني** ١٥: ٣٠٢.

٣ - **الفتوح** ١: ٥٨، ٦٠، ٦١؛ **كتاب الردّة**: ١٧١، ١٧٦، ١٧٧ «والله ما أزلتموها عن أهلها إلّا حسداً منكم لهم».

علماً أنّ جميع أفراد القبيلة المذكورة لم يفكّروا كحارثة، والمهمّ أنّهم لم يدفعوا الزكاة إلى حكومة المدينة، وكانوا يرون في ذلك نوعاً من الذلّ لهم. وفي الأصل هؤلاء كلّهم أو جُلّهم كانوا يعتقدون أنّ الزكاة يمكن أن تقسّم بين فقراء القبيلة. وقال نفر منهم: «والله ما نحن إلّا كعبيدٍ لقريش، مرّة يوجّهون إلينا المهاجر بن أُميّة فيأخذون من أموالنا ما يريدون، ومرّة يولّون علينا مثل زياد بن لبيد فيأخذ من أموالنا ويهدّدنا بالقتل»[1]! وقال الأشعث بن قيس وهو من هذه القبيلة: «فإنّي أعلم أنّ العرب لا تقرّ بطاعة بني تيم وتدع سادات البطحاء من بني هاشم إلى غيرها». وقال في شعر له ما مضمونه: إذا عزمت قريش على تولية بني تيم وترك «آل محمّد» فنحن أولى؛ لأنّا الملوك وأبناء الملوك.

وجاء في الخبر الآنف الذكر أنّ زياداً وجّه بما عنده من إبل الصدقة إلى المدينة مع ثقة، وسار إلى حيّ من أحياء كندة يقال لهم: بنو ذهل. فقال رجل من سادات كندة يقال له: الحارث بن معاوية: إنّك لتدعو إلى طاعة رجل لم يُعهَد إلينا ولا إليكم فيه عهد، فقال له زياد: يا هذا صدقتَ، فإنّه لم يُعهَد إلينا ولا إليكم فيه عهد، ولكنّا اخترناه لهذا الأمر. فقال له الحارث: أخبرني لِمَ نحّيتم عنها أهل بيته وهم أحقّ الناس بها؛ لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: **﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾**[2]. فقال له زياد: إنّ المهاجرين والأنصار أنظرُ لأنفسهم منك، فقال له الحارث: لا والله! ما أزلتموها عن أهلها إلّا حسداً منكم لهم، وما يستقرّ في قلبي أنّ رسول الله ﷺ خرج من الدنيا ولم ينصب للناس علماً يتّبعونه، فارحلْ عنّا. وقال عرفجة بن عبد الله الذهليّ: صدق والله

---

١ - كتاب الردّة: ١٦٩ – ١٧٤.
٢ - الأنفال: ٧٥.

الحارث بن معاوية، أخرجوا هذا الرجل عنكم، فما صاحبه بأهل للخلافة ولا يستحقّها بوجه من الوجوه، وما المهاجرون والأنصار بـأنظر لهـذه الأمّـة مـن نبيّها محمّدﷺ. وحين رأى زياد الأمر على هذه الشاكلة أتـى المدينـة وقـال: ارتدّت كِندةُ وعَصَت![1]

ويستبين من أخبار أخرى نقلها ابن أعثم في استمرار القتال بين كندة وأبي بكر أنّ القضيّة الأهمّ هي معارضة أبي بكر، ولمّا علم أبو بكر أنّه لا بدّ من قتالهم قال لعمر: «إنّي عزمتُ على أن أُوجّه إلى هؤلاء القوم عليَّ بن أبي طالب؛ فإنّه عدل رضىً عند أكثر الناس؛ لفضله وشجاعته وقرابته وعلمه وفهمه ورفقه بما يحاول من الأمور». فقال عمر: «صدقتَ... إنّ عليّاً كما ذكرتَ وفوق ما وصفتَ، ولكنّي أخاف عليك خصلةً منه واحدة... أخاف أن يأبى لقتال القوم فلا يقاتلهم، فإن أبى ذلك فلم تجد أحداً يسير إليهم إلّا على المكروه منه»[2].

ونظراً إلى مشورة عمر وأبي أيّوب حول قتال القوم ومخالفته - كما نقل ابن أعثم - فإنّ القضيّة تدلّ على أنّ رجالًا كانوا يعارضون هذه الإجراءات.

وهذا النوع من المواقف يعدّ ارتداداً عند «الخليفة»! كما وصف المؤرّخون قتالهم أيضاً بأنّه «حروب الردّة». ويمكن أن نوجّه قتالهم على أنه معارضةٌ للحكومة، أمّا إثبات ارتدادهم فأمر عسير. ولمّا عزم أبو بكر على أن يقاتل القبائل المذكورة، عارضه جماعة، فيهم عمر الذي قال فيما بعد:... فما هو إلّا أن رأيتُ الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفتُ أنّه الحقّ.

والمهمّ هنا هو: هل كانت هذه القبائل مرتدّة حقّاً أو أُجيز قتالها

---

١ - **كتاب الردة**: ١٧٣ - ١٧٩؛ **الفتوح** ١: ٥٧- ٦١.

٢ - **الفتوح** ١: ٧١ - ٧٢.

لمعارضتها الحكومة المركزيّة؟ فأبو بكر كان يرى أنّها مرتدّة، حتّى أنّه أسر نساءهم وذراريهم وجاء بهم إلى المدينة[١]. أمّا عمر فيبدو أنّه ـ ككثير من المسلمين ـ كان يؤيّد أصل القتال، إلّا أنّه لم يعتقد أنّهم مرتدّون. وكما ذكر الشهرستانيّ أنّه أطلق أسراهم بعد أن تقلّد الأمر بسبب رأيه المذكور.[٢]

يضاف إلى ذلك أنّ المشكلة الأُخرى هي أنّهم حتّى لو عُدّوا مرتدّين، فإنّ الكثير يعتقد أنّ أخذ الأسير من المرتدّ عمل غير شرعيّ.[٣]

وفي هذا المجال كان كثير من القبائل التي يُزعَم ارتدادها منكراً لتسليم الزكاة أساساً، وعلى هذا أمثلة عديدة، منها: أنّه قيل في جماعة من أهل اليمامة: أنّهم لم يجحدوا فرض الزكاة، وإنّما أنكروا فرض حملها إلى أبي بكر، وقالوا: نحن نأخذها من أغنيائنا ونضعها في فقرائنا، ولا نوجب على أنفسنا حملها إلى من لم يُفتَرض له ذلك علينا بسُنّةٍ ولا كتاب[٤]. وقال اليعقوبيّ: امتنع قوم من دفع الزكاة إلى أبي بكر.[٥]

وأُشير إلى أنّ عمر كان معارضاً لارتدادهم، ونقل ابن أعثم أنّ أبا بكر كان يريد قتل الأسرى من المرتدّين[٦] الذين أسروا كمرتدّين، لكنّ عمر قال: إنّ القوم على دين الإسلام، وذلك أنّي أراهم يحلفون بالله مجتهدين... فلا تعجل عليهم، واحبسهم عندك إلى أن ترى فيهم رأيك. فأمر بهم فحبسهم في

١ - **مصنّف عبد الرزّاق** ١٠: ١٧٦ . وأمَرَ أبو بكر مرّةً بحرق بعض المرتدّين وإلقائهم من الجبل. انظر: **أحكام القرآن** ، للجصّاص ٣: ٦٧، ٨١.

٢ - **الملل والنحل** ١: ٣١؛ **جامع بيان العلم** ٢: ١٢٩.

٣ - انظر: **شرح النهج** ، لابن أبي الحديد ٣: ١٥١.

٤ - **الإفصاح**: ١٢١.

٥ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٢٨.

٦ - يقول المَقْدسيّ: لمّا وجّه أبو بكر خالداً أمره أن يقتل أهل الردّة بالسيف، وأن يحرقهم بالنار، وأن يسبي الذراري ويقسّم الأموال . (**البدء والتاريخ** ٥: ١٥٧).

دار رملة بنت الحارث. وبعد موت أبي بكر قال لهم عمر: إنّكم قد علمتم ما كان رأي أبي بكر وما كان من رأيي... فانطلقوا إلى أيّ بلد شئتم، فأنتم أحرار لوجه الله تعالى، فلا فدية عليكم[١]. وكان قيس بن عاصم المنقريّ مبعوثاً من رسول الله ﷺ لجمع الزكاة من قبيلته، وبعد وفاته ﷺ جمع زكاتها ووزّعها على فقرائها بدل أن يأتي بها أبا بكر، فعُرّف عمله هذا على أنّه عمل جنائيّ حتّى ضُرب به المثل، فقيل: «أعذرُ مِن قيس بن عاصم»[٢]. ونصّ ابن كثير أيضاً على أنّ منهم من امتنع من دفعها إلى الصدّيق[٣]، ويقول النوبختيّ: كانت فرقة اعتزلت عن أبي بكر فقالت: لا نؤدّي الزكاة إليه حتّى يصحّ عندنا لمن الأمر ومَن استخلفه رسولُ الله ﷺ... ونقسّم الزكاة بين فقرائنا وأهل الحاجة منّا.[٤] ويقول المقدسيّ أيضاً: فمنهم من أبى أن يُعطي الزكاة ومنهم من أنكر الزكاة.[٥]

ويضاف إلى رفض الاعتراف بحكومة أبي بكر أنّ المشكلة الأُخرى للقبائل هي أنّها قطعت اتّصالها بالمدينة بعد سماعها خبر وفاة النبيّ ﷺ، وكانت تعتقد أنّ عليها أن تتّصل بها دينيّاً فحسب، وإذ مات رسول الله ﷺ فلا يلزمها أن تقرّ بحكومة رجل آخر، من هنا ردّت طلب المدينة بتسليم الزكاة ممّا أدّى إلى وصفها بالارتداد[٦]، وكانت ترى أن لا ضرورة لتعيين حاكم عامّ

١ - **الفتوح** ١: ٧٥؛ **الطبقات الكبرى** ٧: ١٠١ – ١٠٢.
٢ - **الدرّة الفاخرة**: ٣٢٤؛ **مجمع الأمثال** ٢: ٦٥.
٣ - **البداية والنهاية** ٦: ٣١١.
٤ - **فرق الشيعة**: ٤.
٥ - **البدء والتاريخ** ٥: ١٥١.
٦ - **تاريخ العرب والإسلام**: ٠٧١ قال الدكتور حسن إبراهيم حسن: ... فريقاً منع الزكاة فقط زاعماً أنّها إتاوة تُدفَع إلى الرسول ... على أنّ هؤلاء لم يرتدّوا عن الإسلام لبغضهم إيّاه أو كراهتهم له ... إنّهم لم يخرجوا على عقيدة التوحيد التي هي عماد هذا الدين، بل زعموا أنّ

لجميع المسلمين، وما كانت تطيع النبيّ ﷺ إلّا لنبوّته، أمّا بعده فلا دليل على إطاعة شخص آخر ليس له نبوّة ولا رسالة. وأنشدت تقول:

أطَعْنا رسول الله ما كانَ بينَنا فيا لَعبادِ الله ما لأبي بكرِ!

إذا مات بكرٌ قام بكر مكانَهُ وتِلكُم لَعَمْرُ الله قاصمةُ الظّهر[١]

وهكذا لم يروا أنفسهم مُلزَمين بطاعة المدينة، فاتّهمتهم المدينة بالارتداد.[٢] قال محمّد بن إدريس الشافعيّ فيهم: «لأن كلّ من كان حول مكّة من العرب لم يكن يعرف إمارةً»، وكانت تأنف أن يعطي بعضها بعضاً طاعة الإمارة... »[٣].

وجاء هذا الاستدلال في شعر لمالك بن نويرة. فقد قيل: إنّه خاطب قومه منشداً:

وقلتُ: خُذوا أموالكم غيرَ خائفٍ ولا ناظر فيما يجيء من الغدِ

إذا قام بالأمرِ المُخوِّفِ قائم ذمَنَعْنا وقلنا: الدينُ دينُ محمّدِ[٤]

الزكاة إنّما هي إتاوة يدفعونها إلى الرسول ... انظر: **تاريخ سياسي اسلام** ١: ٢١٦ [فارسيّ]. وذهب العقّاد أيضاً إلى أنّ ثلّة من هؤلاء كانوا يعتقدون أصل الزكاة، إلّا أنّهم لم يعتقدوا من يدفعونها إليه. انظر: «**عبقريّة الصدّيق**: ١٢٤– ١٢٥».

١ – **تاريخ الطبريّ**: ٢٤٦؛ **مسائل الإمامة**: ١٤؛ **كتاب الردّة**: ١٧١ – ١٧٢؛ **مختصر تاريخ دمشق** ٣: ٤٠٩؛ **الأغاني** ٢: ١٥٧؛ **الجمل**: ١١٨ **الشعر والشعراء**: ٦٥؛ **البدء والتاريخ** ٥: ١٥٦. وانظر: **تطوّر الفكر السياسيّ عند أهل السنّة**: ٣٨؛ هامش ٢؛ **مقدّمة في تاريخ صدر الإسلام**: ٥١. وجاء في بعض المصادر المذكورة مكان البيت الثاني:

أيورثها بكرٌ إذا مات بعده وتلك لعمرُ الله قاصمةُ الظهر

٢ – **تاريخ العرب والإسلام**: ٧١؛ **تطوّر الفكر السياسيّ عند أهل السنّة**: ٣٨. قال مؤرّخ قديم: كانت جماعة تعتقد أنّ هؤلاء لم يرتدّوا بل امتنعوا عن دفع الزكاة، وقالوا: فقراؤنا أولى بها، وصرّحوا أنّ دفعها إلى عمّال النبيّ ﷺ كانت لأجله ﷺ فاختصّت به، انظر: **مسائل الإمامة**: ١٤.

٣ – **الرسالة**: ٨٠

٤ – **طبقات فحول الشعراء** ١: ٢٠٦ (مطبعة المدنيّ ١٤٠٠ هـ). ومعنى كلمة الدين في البيت

وكانت مبادرة أبي بكر إلى دفع القبائل كلّها إلى تسليم الزكاة أهمّ عمل صبّ في ترسيخ أركان الحكومة المركزيّة. وقال مرّة: «و الله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدّونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه»[١]. ولايُنكَر أبداً أنّ كثيراً من الصحابة لم يتّفقوا معه في قتال هؤلاء[٢]، وما أطاعوه في ذلك إلّا لأنّه حاكمُهم. وقد صرّح المقدسيّ بأنّ أوّل قضيّة خلافيّة بين المسلمين بعد الإمامة هي قتال الممتنعين من تسليم الزكاة، وذكر أنّ* المسلمين خالفوا أبا بكر فيها، ثمّ رجع أكثرهم إلى قوله وبقي الخلاف، ومن الناس من يقول: كان قتالهم خطأ![٣] وعلى كلّ حال، فقد استطاع أبو بكر تخيير مخالفيه في الإمامة وصبّ ذلك في مصبّ الردّة!

وأشرنا إلى أنّ عمر كان يحتمل امتناع الإمام عليّ عليه السلام من قتال أهل كندة الذين وسمهم أبو بكر بالارتداد. ونُقل في موضع آخر أنّ أبا بكر عزم على أن يسير إلى قتالهم، فأشار عليه الإمام عليّ عليه السلام ألّا يفعل، ويبعث أحداً مكانه[٤].

وإنّما كانت الفتوحات:

أ. لصرف المسلمين عن البحث في شؤون العقيدة والخلافة والدولة.

ب. لكسب سمعة جديدةٍ تطغى على انحراف الحكّام وجهلهم وعدم لياقتهم بالخلافة.

ت. للقضاء على المعارضة إبعاداً أو تهديداً، أو تصفية.

ث. لتأسيس دولة قبليّةٍ وإعادة المجد القرشيّ على حساب الإسلام.

---

* المذكور كما صحّح مصحّح الكتاب في الهامش: الحكومة.

١ - **الإمامة والسياسة** ١: ٣٥.

٢ - **جامع بيان العلم** ٢: ١٠٤، ١٢٥.

٣ - **البدء والتاريخ** ٥: ١٢٣.

٤ - **المعيار والموازنة**: ٩٤.

ومن الواضح أنّ جماعات من الذين قاتلهم أبو بكر كانوا مرتـدّين حقّـاً. وورد في خبر آخر عن المدائنيّ أنّ عثمان ذكّر الإمامعليه السلامبعد نهيه أبا بكـر عن السير إليهم بنفسه أنّ أحداً لا يخرج إلى قتال العدوّ وهو لم يبايع أبـا بكر. وإصرار عثمان هذا هو الذي حمل الإمامعليه السلام على بيعته[1].

وفي مقابل ذلك، من المحتمل أنّ بعض الناس في المدينة كـانوا يتمنّـون غلبة المرتدّين ليتسنّى لهم الاحتفاظ بعقائدهم الجاهليّة الملوّثة بالشـرك كـرّةً أُخرى. وذات مرّة تفاخر أُمويّ وأنصاريّ، فقال الأمويّ: مـات رسـول اللهصلى الله عليه وآله وجُلّ عمّاله من بني أُميّة، فقال الأنصاريّ: بلى «و لكـنّهم حـالفوا أهـل الـردّة على هدم الإسلام»[2]. وذكرت عائشة أيضاً انتشار النفاق بالمدينة خلال الأيّـام الأولى لخلافة أبيها[3]. ولم تبتعد مكّة كثيراً عن الردّة الكاملة بعـد وفـاة النبـيّ صلى الله عليه وآله. وقيل: ما أقرّ وضع مكّة إلّا كلام سهيل بن عمرو، فقد ذكر ابن الأثيـر أنّ مكّة كادت ترتدّ بعد وفاة النبيّصلى الله عليه وآله واختفى عتّاب بن أُسيد، فقام سهيل وقـال لهم: «لا تكونوا آخرَ مَن أسلم وأوّل من ارتدّ»[4].

ومهما كان فلا بدّ أن نجعل في بالنا أنّ مقاومة المدينة للارتداد سـاعدت على صمودها وثباتها، حتّى تمكّنت بعد تلك الفترة الحرجة أن تُخضع مناطق أخرى لسيادتها. وقد نقل خليفة بـن خيّـاط فهـرس المرتـدّين كـالآتي: ردّة طليحة بن خويلد، ردّة بني سليم، ردّة بني تمـيم، ردّة اليمامـة، ردّة البحـرين،

---

١ - **تلخيص الشافي** ٣: ٧٧.

٢ - **ربيع الأبرار** ١: ٧٠٨ – ٧٠٩.

٣ - **تاريخ خليفة بن خيّاط**: ١٠٢؛ **مصنّف ابن أبي شيبة** ٧: ٤٣٤.

٤ - **أسد الغابة** ٢: ٣٧١ – ٣٧٢.

ردّة عمان والنجير وحضرموت واليمن[١].

ولاة أبي بكر

لا يخفى على أحد أنّ أقرب صاحب وخليل لأبي بكر هو رفيقه القديم عمر الذي قُضيَ أن يكون أخاه في المؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بين المهاجرين بمكّة[٢]. وعلى الرغم من أنّ أبا بكر كان من المخطّطين الأصليّين لموضوع الخلافة، وأثبت تفوّق فكره السياسيّ على عمر في تيّار الردّة، إلّا أنّه كان يستسلم لآراء عمر في كثير من المواطن بسبب حدّته وشدّته، وكانا متقارِنين في جميع المراحل التاريخيّة للسيرة. وقد مرّ بنا أنّهما كانا متّفقَين منسجمَين في أوضاع السقيفة كلّها، ولهذا الاتّفاق والانسجام ذكّر الإمام عليّ عليه السلام عمر في السقيفة بأنّه يسعى إلى ضمان مستقبله[٣]. وقال أبو بكر في عمر إنّه أحبّ الناس إليه[٤].

ولكن ابن أبي الحديد يقول: «و لولاه [عمر] لم يثبت لأبي بكر أمر»[٥]، وقيل: إنّ أبا بكر اختار عمر للقضاء[٦]. ونُقل أيضاً أنّه كان يصلّي بالناس عند غياب أبي بكر[٧]، وقد نصبه أبو بكر أميراً للحاج في السنة الحادية عشرة

١ - **تاريخ خليفة بن خيّاط**: ١٠٢ – ١١٧.

٢ - **تاريخ جرجان**، للسهمي: ٩٦.

٣ - **أنساب الأشراف** ١: ٥٨٧؛ **شرح النهج** ٦: ١١؛ **الإمامة والسياسة** ١: ١١؛ وقال أنس بن مالك: لقد رأيت [يوم السقيفة] عمر يُزعج أبا بكر إلى المنبر إزعاجاً. انظر: **مصنّف عبد الرزّاق** ٥: ٤٣٨.

٤ - **نثر الدرّ** ٢: ١٧؛ **غريب الحديث** ٣: ٢٢٢؛ **الأدب المفرد**: ٢٩.

٥ - **شرح النهج** ١: ١٧٦.

٦ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ٦٦٥؛ **مناقب عمر**، لابن الجوزي: ٤٨؛ **الكامل** ٢: ٤٢٠؛ **التنبيه والإشراف**: ٢٤٩.

٧ - **الطبقات الكبرى** ٣: ١٨٦؛ **الكامل** ٢: ٤٢٥.

للهجرة [١]. قال خليفة بن خيّاط عند ذكر أمراء أبي بكر: «و على أمره كلّه والقضاء عمر بن الخطّاب» [٢]. وقد بلغت قدرة عمر على اتّخاذ القرار في تلك الفترة مبلغاً أنّه استطاع فيه أن يصرف أبا بكر عن نصب خالد بن سعيد أميراً على المسلمين في الشام، ويولّي مكانه يزيد بن أبي سفيان. وحين رجع خالد ورأى ذلك امتنع عن بيعة أبي بكر برهةً [٣]. وكان عمر يدرك قدرته، لذا عزم في خلافة أبي بكر على مشاطرة أموال معاذ بن جبل، فأخذ نصفها إلى بيت المال [٤]. وهذا ما فعله مع ولاته في عهده أيضاً. ولم يفعل أبو بكر شيئاً بدون رأي عمر، لذا سأل أُسامة بن زيد حين أنفذه إلى الشام في أوّل خلافته أن يبقي عمر عنده فيُعينه على أعماله [٥]. ولمّا ارتكب خالد بن الوليد جريمته، وأبى أبو بكر أن يكتب إليه معترضاً، كان عمر هو الذي كتب إليه، لكنّ خالداً لم يعتن بكتابه وقال: هذا عمل عمر [٦].

وما هو إلّا جاه عمر وصلته الوثيقة بأبي بكر إذ استخلفه أبو بكر. بتعبير آخر، كان الناس يرون أنّ خلافتهما متّحدة غير منفصلة أساساً، وأنّ أحدهما امتداد للآخر منذ البداية [٧]؛ ولهذا السبب لمّا أراد أبو بكر أن يكتب عهده وهو مغميً عليه، كتب كاتبه عثمان اسم عمر في العهد المذكور، لأنّه كان يعلم جيّداً من يريد أبو بكر منه بعده.

---

١ - نفسه ٣: ١٨٧.

٢ - **تاريخ خليفة بن خيّاط**: ١٢٣ .

٣ - **مصنّف عبد الرزّاق** ٥: ٤٥٤؛ **حياة الصحابة** ٢: ٢٠.

٤ - **الطبقات الكبرى** ٣: ٥٨٥-٥٨٨.

٥ - نفسه ٤: ٢٩ - ٣٠؛ **حياة الحيوان** ١: ٤٨.

٦ - **الفتوح** ١: ٤٤؛ **شرح النهج** ١: ١٧٩.

٧ - قال المقدسيّ: وكانوا [الناس] لا يشكّون أنّ عمر هو الذي يلي الخلافةَ بعده . (**البدء والتاريخ** ٥: ١٦٧).

وكان خالد بن الوليد من العناصر الأخرى الفاعلة في خلافة أبي بكر، وهو من بني مخزوم، قبيلة من قريش، وقد أسلم في اليوم الأوّل من صفر سنة ثمان.[١] وكان عليه سيماء القوّة، لكنّه خليّ من القيم الأخلاقيّة حقّاً، وكان قد بدرتْ منه أخطاء وتخبّطات في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، ذكرناها في السيرة سلفاً. جاء في بعض المصادر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سمّاه «سيف الله»، بيد أنّ الصواب، كما ذكره ابن دريد وغيره، هو أنّ أبا بكر سمّاه بذلك[٢]، وذلك بعد أن قتل خالدٌ مالكَ بن نويرة ظلماً وعدواناً، وطلب رجال - فيهم عمر- من أبي بكر معاقبته، فقال أبو بكر: لا أشيم سيفاً سلّه الله[٣]، وروى ابن أعثم أنّ خالداً هو الذي سمّى نفسه سيف الله، وأقرّه أبو بكر على ذلك[٤]. وقيل: إنّ خالداً كان من أنصار أبي بكر ومن المنحرفين عن عليّ عليه السلام[٥]، كما قيل: إنّه كان في الذين هاجموا داره عليه السلام لأخذ البيعة وفلّ مقاومة المعتصمين[٦]. وكذلك ذُكر أنّه هو الذي مهّد لخلافة أبي بكر[٧]. ويدلّ قتله مالكَ بن نويرة المصحوب بانتهاكه لحرمة زوجته ودخوله بها - وهو ما أجمع عليه أهل العلم في لفظ ابن أعثم ـ على شخصيّته اللّا أخلاقيّة الهزيلة، ومع هذا أصرّ أبو بكر على توليته الجند وإرساله إلى مناطق مختلفة لقمع المرتدّين والمتنبّئين، ودفاعه عنه أنّه اجتهد فلا يُلام. وحدث مرّة أنّ خالداً أحرق بعض الأسرى الذين كان أخذهم من المرتدّين، وحين اعترض عمر على أبي

---

١ - **الطبقات الكبرى** ٧: ٣٩٤.

٢ - **الاشتقاق**: ١٤٩؛ **شرح النهج** ١٦: ١٥٨ – ١٥٩.

٣ - **الفتوح**: ٢٣؛ **مصنّف عبد الرزّاق** ٥: ٢١٢؛ **الإيضاح**: ٧٢ – ٧٣؛ **شرح النهج** ١: ١٧٩.

٤ - **الفتوح** ١: ١٤٩.

٥ - نفسه ٣: ٢٢.

٦ - نفسه ٦: ٤٨ – ٤٩.

٧ - نفسه ١٨: ٣٠٦ – ٣٠٧.

بكر، أجاب أنّه سيف الله[١]، وكان اعتراض عمر على نصبه رجلاً يقتل الناس ويعذّبهم بالنار[٢]. ويبدو أنّ أبا بكر مع كامل إقباله على عمر لم يَرُق له أنّ يُمسك عن دعم خالد لأجله. والطريف في الأمر أنّ عمر لمّا وُلّي اكتفى بعزل خالد على الرغم من سابق إصراره على رجمه لما فعل في قضيّة مالك بن نويرة[٣]. وكان خالد واثقاً أنّ أبا بكر لا يعترض عليه مهما فعل، حتّى لو بلغه كتاب توبيخه؛ لأنّه بتحريض من عمر، وإلّا فإنّ أبا بكر كان لا يُسيء الظنّ به[٤]. وكان خالد يتصرّف تصرّفات كيفيّة، لأنّه كان يثق ثقةً تامّة بدعم أبي بكر له[٥]، وكان أبو بكر يقول فيه: عجز النساء أن يلدن مثل خالد[٦]! وحتّى حين قتل خالد الشخصَين اللّذَين كانا معهما كتاب الأمان من أبي بكر، واعتَرِض على أبي بكر دافع عنه أيضاً[٧].

ولمّا وُلّي عمر، كان أوّل عمل قام به أنّه عزل خالداً عن قيادة جيش الشام ونصب مكانه أبا عبيدة بن الجرّاح، وذُكر أنّه عزله ليتبيّن أنّ الله ينصر دينه[٨]! وحين كان خالد مشغولاً بالقتال في العراق وبلغه مسيره إلى الشام،

---

١ - **الطبقات الكبرى** ٧: ٣٦٩.

٢ - **فتوح البلدان**: ١٠٧.

٣ - نقل صاحب «**تذكرة الخواصّ**» في ص ٦ من كتابه أنّ عمر طلّق زوجة مالك من خالد بعد أن وضعت حملها الذي كان منه.

٤ - **الفتوح** ١: ٤٤.

٥ - نقل ابن حجر عن الزبير بن بكّار أنّ خالداً لمّا أخذ خمس الغنائم لم يدفع حسابه إلى أبي بكر، وكان يقوم بأعمال لم يطلع أبا بكر عليها، منها قتله مالكاً . انظر: **الإصابة** ١: ٤١٤ - ٤١٥.

٦ - **الكامل في التاريخ** ٢: ٣٨٩.

٧ - نفسه ٢: ٣٩٨.

٨ - **تاريخ خليفة بن خيّاط**: ١٢٢.

قال: هذا عمر بن الخطّاب حسدني أن يكون فتحُ العراق على يدي[١]. قال أنس بن مالك: قال عمر لأبي بكر: اكتب إلى خالد ألّا يعطي شيئاً إلّا بأمرك، فكتب إليه بذلك، فأجابه خالد: إمّا أن تَدَعني وعملي وإلّا فشأنك بعملك. فأشار عليه عمر بعزله، فأبى[٢].

ومات خالد بالمدينة أو الشام[٣] سنة ٢١هـ، ومن العجب أنّه جعل عمر وصيّه! وهذا ما نقله ابن سعد، وذكر أنّ عمر قال: لقد كنّا نظنّ به أموراً ما كانت[٤]. وعمر هذا الذي كان متشدّداً في البكاء على الميّت - وكان يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: إنّ الميّت لَيُعذَّب ببكاء أهله - أَذِنَ لنساء بني مخزوم أن يبكين على خالد[٥]! وأعجب من ذلك ما نُقل عنه أنّه قال عند موته: لو كان خالد بن الوليد حيّاً لَاستخلفتُه[٦]!

وكان أبو عبيدة بن الجرّاح من الأركان الأخرى في خلافه أبي بكر... وكان هو وعمر وأبو بكر القريشيّين الوحيدين الذين حضروا سقيفة بني ساعدة. وكان أبو عبيدة مؤاخياً لسالم (من موالي حذيفة)[٧]، [٨] وكلاهما كان ناشطاً في ما جرى في السقيفة. وفي سالم هذا قال عمر: لو كان حيّاً

---

١ - **الطبقات الكبرى** ٧: ٣٩٧.
٢ - **الإصابة** ١: ٤١٥.
٣ - نفسه ١: ٤١٥ . قال ابن حجر: ذهب أكثرهم إلى أنّه مات بالشام (حمص).
٤ - **الطبقات الكبرى** ٧: ٣٩٧ – ٣٩٨؛ **البداية والنهاية** ٧: ١١٥.
٥ - **البداية والنهاية** ٧: ١١٦.
٦ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ٨٨٧؛ **الإمامة والسياسة** ١: ٤٢.
٧ - المولى في مثل هذه المواضع بمعنى العبد الذي أعتقه مولاه. وحين يقال: سالم مولى حذيفة فالمراد هو أنّ حذيفة أعتقه وحرّره .
٨ - **الطبقات الكبرى** ٣: ٤١٠.

لاستخلفته[1]، ومن الحريّ بالذكر أنّ عمر قال عند موته أيضاً: لو كان أبو عبيدة حيّاً لاستخلفته[2]. وكان أُبو عبيدة على بيت المال في البداية، ثم وَلِيَ جيش الشام[3]، وما زال في منصبه هذا حتّى سنة (١٨هـ)، إذ مات في طاعون عَمَواس.

ومن ولاة أبي بكر وأُمرائه: يزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، وشُرَحْبيل بن حسنة (م ١٨ هـ)[4]، وعكرمة بن أبي جهل. وقد بقي بعض الذين كان رسول الله ﷺ نصبهم في مناصبهم. ومنهم معاذ بن جبل باليمن، وعتّاب ابن أُسيد بمكّة، والعلاء بن الحضرميّ بالبحرين. وفي نفس الوقت قيل: إنّ أبا بكر ولّى أنس بن مالك على البحرين، ولعلّه كان حاكماً عليها في عهدين مختلفين. وكان المهاجر بن أبي أُميّة والياً على صنعاء، وزياد بن لبيد على المناطق الساحليّة في اليمن، ويعلى بن أميّة على خولان، وعثمان بن أبي العاص على الطائف، وسُليط بن قيس على اليمامة، وذُكر عثمان على أنّه كان كاتباً لأبي بكر[5].

ومن الواضح تماماً أنّ شخصيّة مهمّةً من الصحابة - لا سيّما الأنصار - لا يلحظ بين ولاة أبي بكر، ويبدو أنّ هذا مثال مناسب على إهمال الخليفة للأنصار.

فتح دمشق

تقع بلاد الشام في الحدّ الفاصل بين البحر الأبيض المتوسّط، والسواحل

١ - نفسه ٣: ٣٤٣؛ **الفتوح** ٢: ٨٦.

٢ - **الفتوح** ٢: ١٦؛ **الإمامة والسياسة** ١: ٤٢؛ **الطبقات الكبرى** ٣: ٣٤٣، ٤١٢؛ **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٢٧.

٣ - **تاريخ خليفة بن خيّاط**: ١٢٣.

٤ - **مصنّف عبد الرزّاق** ٥: ٤٥٤؛ وانظر: **الطبقات الكبرى** ٧: ٣٩٤.

٥ - **تاريخ خليفة بن خيّاط**: ١٢٣.

الغربيّة للفرات، والحدود الشماليّة للحجاز، والحدود الجنوبيّة للروم الشرقيّة القديمة تركيا الحاليّة وتشمل الشام اليوم: سورية، والأردن ولبنان وفلسطين. وتعود الحدود الجديدة إلى التطوّرات التي طرأت بعد الحرب العالميّة الأولى، وكان اسم سورية موجوداً منذ القديم، وممّن أطلق هذا الاسم عليها هرودُت (٤٢٥ ق.م)، ومن المحتمل أنّ الاسم مأخوذ من كلمة «أشورية» المنسوبة الى الآشوريّين، وإن ذهب بعض إلى خطأ هذا الاحتمال[١].

وكانت الشام خاضعة لسيادة الإمبراطوريّة الرومانيّة الشرقيّة قبل الفتح الإسلاميّ، وقد نزحت إليها القبائل العربيّة الكبيرة قادمةً من الجزيرة العربيّة، ومُعظمها من الجنوب، قبل الإسلام بقرون، وأهمّها ممّا ذُكر اسمها في تطوّرات عصر صدر الإسلام: قُضاعة، وسَليح والغساسنة، وجذام، ولخم، وكلب، وتنوخ، وبهراء.

ثمّ تفرّقت القبائل المذكورة في بلاد الشام العامرة، وسكن كلّ منها في حاضرة من حواضرها، ونسيت تلك القبائل آدابها وتقاليدها العربيّة على مرّ الزمان بسبب مجاورتها الطويلة للروم، واعتنق أكثرها النصرانيّة، مع هذا لم تفقد هويّتها العربيّة تماماً.

ومن تبعات تبنّي الثقافة النصرانيّة امتزاج عربيّتها بالكلمات السريانيّة، حتّى أصبحت لغتها العلميّة هي اللّغة السريانيّة نفسها؛ ولهذا السبب كان يُنهى عن تعلّم اللّغة العربيّة من «قضاعة وغسّان»، لأنّهم كانوا يقرؤون الكتب باللّغة السريانيّة، وشابت لغتهم كلمات غير عربيّة[٢]، ويصرّ الباحث اللبنانيّ المسيحيّ شيخو على أنّ جميع العرب الذين سكنوا الشام تنصّروا قبل الإسلام، ونعتقد

١ – انظر: **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**: ٦٢ – ٦٣؛ **الشام في صدر الإسلام**: ٣٧ – ٣٨.

٢ – **المزهر**، للسيوطيّ، نقلًا عن **النصرانيّة وآدابها**: ٣١.

أنّه أفرط في ذلك. وقد سبق أن أشرنا في حديثنا عن الأوس والخزرج إلى أنّ المؤلّف المذكور يرى - عكس ما ورد في المصادر كلّها - أنّهم كانوا نصارى. وقدّم - على أساس شواهد صحيحة وخاطئة - فهرساً للقبائل العربيّة التي تغلغلت النصرانيّة في أوساطها[١]. أمّا العراق - فعلى الرغم من النفوذ الواسع للنصارى في الحيرة، واختراقِهم بلاط اللخميّين وتنصُّرِ النعمان آخر سلاطينهم - فقد ظلّ أهله الذين كانوا من العرب المهاجرين من جزيرة العرب على وثنيّتهم حتّى ظهور الإسلام.[٢]

مع هذا، لا يمكن التشكيك في أنّ عرب الشام كانوا في السنين القريبة من ظهور الإسلام - في الأقلّ - حلفاءَ الروم كما يبدو، وكانوا إلى جانبهم في قتال الفُرس والعرب المتحالفين معهم في العراق، وكان جيش الروم آنذاك خليطاً من جنودهم ورجال من القبائل العربيّة بالشام[٣].

ويضاف إلى ذلك أنّ عرب الشام كانوا يختلفون عن عرب الجزيرة في الدين، كما كان بينهم تفاوت بيّن من الوجهة الاجتماعيّة، فقد ترك عرب الشام الحياة البدويّة وتحضّروا بسبب العمارة الموجودة في الشام، وصارت حواضر: كدمشق، وحلب، وحمص وغيرها أماكنَ دائميّةً لحياتهم ومعيشتهم. وقد أدّى انصهارهم في الثقافة النصرانيّة إلى أنّ يرحل عدد كبير منهم إلى

---

١ - **النصرانيّة وآدابها**: ١٢٤ - ١٤١.

٢ - انظر: **أعراب حدود مرزهاي روم شرقي وإيران** [العرب في حدود الروم الشرقيّة وإيران]: ٦٢٧ - ٦٢٩.

٣ - انظر: تحقيقاً في غاية التفصيل لبيغولو سكايا تحت عنوان «**أعراب حدود مرزهاي روم شرقي وإيران**» [العرب في حدود الروم الشرقيّة وإيران]، نقله إلى الفارسيّة عنايت الله رضا، طهران، مؤسّسة مطالعات وتحقيقات فرهنگي[مؤسّسة الدراسات والبحوث الثقافيّة] سنة ١٤١٤ هـ.

بلاد الروم بعد الفتح الإسلاميّ.[١] ومن الطبيعيّ أنّ الروم كانوا خلال حروبهم مع المسلمين في قلق دائم من احتمال تأثير العِرق المشترك في القبائل العربيّة بالشام فيجتذبهم إلى الإسلام، والمشكلة الأهمّ كانت وجود الخلاف الدينيّ بين نصارى الشام وكنيسة القسطنطينيّة، حتّى أدّى ذلك إلى تحمّلهم أذىً كثيراً منها، فقد كان نصارى الشام على المذهب اليعقوبيّ[٢] الذي كانت الكنيسة الشرقيّة تعدّه بدعةً. وقيل: إنّ نصرانيّة الشام كانت – عندها – متميّزة في اختلاق البدع[٣]! ويعتقد كثيرون أنّ الخلاف المذهبيّ بين العرب النصارى بالشام وكنيسة الروم الشرقيّة كان من الأسباب التي أدّت إلى سرعة الفتوحات الإسلاميّة في الشام.[٤]

وكان يعيش في الشام ـ فضلاً عن العرب الساكنين فيها ـ أنباط كثيرون من أخلاف قوم كانوا يحكمونها، كما كان فيها يهود كُثر قُدِّر عددهم بين مئة ألف ومئتي ألف.[٥]

١ – **فتوح البلدان**: ١٢٨، ١٣٧.

٢ – يُنسب المذهب اليعقوبيّ إلى يعقوب البرداعيّ (م ٥٧٨ م) ، ويقال لأتباعه: المونوفيزيّة، وهؤلاء يعتقدون أنّ السيّد المسيح عليه السلام كان ذا طبيعة لاهوتيّة لا طبيعتين بشريّة وإلهيّة . وقد نشر يعقوب البرداعيّ مذهبه في سورية، فبقي اسمه عليه، وامتدّ من سورية إلى الشمال حتّى أرمينية، ومن جهة الجنوب حتّى مصر، ويدين به الأرمن والأقباط لحدّ الآن . وشاع إلى جانبه المذهب النسطوريّ في بلاد ما بين النهرين (العراق)، وهو الذي يعتقد طبيعتين للسيّد المسيح عليه السلام ولا يراهما متّحدتين . ومؤسّس هذا المذهب نسطوريوس، وظهر قبل المذهب اليعقوبيّ بعقود. انظر: **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**: ٤١٢ – ٤١٣؛ قصّة الحضارة/ عصر الإيمان، القسم الأوّل .

٣ – **النصرانيّة وآدابها**: ٣٨.

٤ – للتعرّف على مختلف الآراء في هذا المجال انظر: **الشام في صدر الإسلام**: ٦٣ – ٦٤؛ قصّة الحضارة ٤ (عصر الإيمان، القسم الأوّل).

٥ – **الشام في صدر الإسلام**: ٦٢.

ومرّ بنا أنّ الشام كانت خاضعة لإمبراطوريّة الروم الشرقيّة قبل ظهور الإسلام، كما كان يديرها حكّام محلّيّون لقرون خلتْ، وهؤلاء هم ثلّة من قبائل عربيّة ذات نفوذ استطاعت أنّ تؤسّس بعضٍ الحكومات بعد أن ضمّت إليها عدداً من القبائل الصغيرة، لكنّ تفرّقها حال دون وجود وحدة عربيّة ممتدّة لها في جميع المناطق، وهو ما حدث تحت لواء الدولة الإسلاميّة بعد ذلك بقليل. وما يمكننا أن نقوله في الدويلات العربيّة قبل الإسلام: هو أنّها بدأت بالأنباط، ثمّ التدمريّين، وانتهت بالغسّانيّين أبناء قبيلة الغساسنة العربيّة. وهي من القبائل اليمانيّة التي نزحت إلى الشمال بعد الخراب الذي لحق بسدّ مأرب كما يبدو، واعتنقت هذه القبيلةُ النصرانيّةَ في القرن الرابع الميلاديّ، وكان جفنة بن عمرو أحدَ أكابرها وهو مؤسّسها. وفي ضوء ما نُقل ـ وهو غامض إلى حدّ كبير ـ أنّ أحد عشر إلى اثنين وثلاثين حاكماً منها كانوا يحكمون الشام، وثمّة معلومات حول عدد قليل من متأخّريهم فحسب. وكان الحارث بن جبلة أحدَ شخصيّاتهم البارزة التي حكمت بين سنة ٥٢٩ و٥٦٩م.

وكانت له حروب مع اللّخميّين المنافسين للعرب الغساسنة والحاكمين في العراق ، وبلغ الغساسنة ذروة شهرتهم خلال فترة حكمه، وبسبب خدماته لُقّب بـ «فيلارك» الذي يعني رئيس القبيلة، كما لقّبه إمبراطور الروم بـ «البطريق».

وانتشر المذهب اليعقوبيّ بالشام أيّام حكومته، وأعقب الحارثَ نجلُه المنذر الذي حكم حتّى سنة ٥٨١ م، ثمّ ألمّت بالشام أزمة وظروف عصيبة.[1] ففي الفترة الواقعة بين سنة ٦١١ و٦١٤ م تعرّضت لهجمات شديدة شنّها الفُرس عليها، ووقعت أورشليم تحت تصرّفهم. ثمّ استطاع هرقل في سنين

---

١ - تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ٤٤٧ – ٤٥٠.

لاحقة أن يسترجعها منهم. ويُستشفّ من أسماء الأمراء الغساسنة الذين حكموا بعض المدائن، وقيادتهم في الحرب الروميّة - العربيّة مع الجيش الإسلاميّ، أنّ نفوذاً عظيماً ما زال للغساسنة بالشام والقسطنطينيّة. وكان جَبَلة ابن الأيهم الغسّانيّ قائد جيش الروم في اليرموك من هؤلاء الأمراء ذوي النفوذ، وكان قد أسلم ثمّ ارتدّ لما أشرنا إليه في موضع آخر، وذهب إلى إمبراطور الروم.

وإذ ذكرنا هرقل هنا، فمن المناسب أن نشير إلى أنّه هراكليتوس بن هراكليتوس، كان أبوه يحكم أفريقية النصرانيّة من قبل الإمبراطور الرومانيّ، وكانت إمبراطوريّة الروم الشرقيّة الفسيحة قد مُنيت بمشكلات كبيرة خلال السنين الأخيرة من القرن السادس الميلاديّ والسنين الأولى من القرن السابع، بسبب الهجمات التي شنّها عليهم الآوار الإسلافيّون من الغرب، لكنّ الأهمّ هو ما تعرّضت له من ثورات داخليّة أدّت بعريفٍ يُدعى فوكاس إلى أن يحرّض الناس على حكومة الإترافيّين (الارستقراطيّين)، ويقتل الإمبراطور ماوريكيوس مع جميع ولده. وهذه الفوضى هي التي دفعت خسرو برويز إلى أن يهاجم الشام ويحتلّ أورشليم سنة ٦١٤ م، ويواصل هجماته على آسيا الصغرى. ولمّا رأى نبلاء القسطنطينيّة هذا الوضع المتدهور استغاثوا بهراكليتوس حاكم أفريقية الذي كان يحكمها من قبل الإمبراطور، فبعث هراكليتوس معهم ابنه الذي كان يحمل نفس اسمه أو لقبه، فاستطاع بشجاعته أن يهزم فوكاس ويضع تاج الإمبراطوريّة على رأسه. وكان احتلال أورشليم ذريعة مناسبة لتحريض النصارى على الفُرس، فتوجّه هراكليتوس بعد هدوء الأوضاع إلى قتال الفُرس سنة ٦٢٢، واستطاع بعد هجمات متوالية دامت ستّ

سنين أن يلاحقهم حتّى بوّابة طيسفون ويجبرهم على قبول الصلح.[١] وقد صادفت هذه الوقائع السنةَ السابعة والثامنة للهجرة، فبينا كان هراكليتوس مشغولًا بتنظيم أُمور البلاد، بدأ المسلمون حملاتهم الأولى على دمشق عام ٦٣٤، فاستولوا عليها بعد مدّة، وصادفت الأيّام الأخيرة من عمر الإمبراطوريّة فتح مصر سنة ٦٤٠م[٢].

وكان للشام أولويّة عند المسلمين الذين استطاعوا أن يُجبروا قريشاً على توقيع صلح الحديبيّة بعد سنين لأسباب كثيرة. فهيّأوا أنفسهم لنشر الإسلام خارج الجزيرة العربيّة، وكان رسول اللهﷺ قد بعث عدّة رسل إلى بعض النواحي ، منهم: الحارث بن عمير الذي حمل كتابهﷺ إلى حاكم بُصرى واستُشهد على يد شُرَحبيل بن عمرو الغسّانيّ، وعلى أثر ذلك أنفذ رسول اللهﷺ جيشاً قوامه ثلاثة آلاف بقيادة جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة رضوان الله عليهم إلى مؤتة جنوب الشام، وأعدّ الروم في الشام جيشاً لحرب المسلمين، ذلك الجيش الذي نقل ابن إسحاق أنّه كان خليطاً من الروم وبعض القبائل العربيّة كلَخْم وجُذام، وبلقى، وبهراء، وبَليّ[٣]. ولم يفعل المسلمون شيئاً، غير أنّهم رجعوا إلى المدينة بعد استشهاد قادتهم وآخرين منهم، فكان العمل الذي قام به رسول اللهﷺ بعد ذلك هو التجهّز لغزوة تبوك، تلك الغزوة التي لم يكن فيها قتال، بل انتهت بانعقاد معاهدات مع بعض القبائل العربيّة. وهيّأ رسول اللهﷺ في الأيّام الأخيرة من حياته جيشاً آخر بقيادة أسامة بن زيد، لكنّ هذا الجيش لم يتحرّك إلّا بعد وفاته،

١ - الآيات الأولى من سورة الروم التي تشير إلى هزيمة الروم وتَعِد بنصرهم تعود إلى هذه الحوادث .

٢ - بشأن حياة هراكليتوس وحوادث عصره انظر: **قصّة الحضارة** ٤ (عصر الإيمان، القسم الأوّل).

٣ - **تاريخ الطبريّ** ٣: ٣٧.

فعاد من غير نتيجة مهمّة.

وتدلّ هذه الأحداث جميعاً على أهميّة الشام عند رسول الله ﷺ، وهذا أمر طبيعيّ ؛ لأنّها كانت قريبة من المدينة، وللمسلمين معرفة بها، وهي في حدّ ذاتها تمتاز بأهميّة بالغة، أيضاً، ثمّ تبيّن لاحقاً أنّها أهمّ من العراق عند الحكّام.

وبانتهاء الحوادث المتعلّقة بالمرتدّين كتب أبو بكر رسائل إلى أهل مكّة، والطائف واليمن، وجميع عرب الحجاز ونجد يدعوهم فيها إلى الجهاد، ويَعدهم بالغنائم الموجودة عند الروم أيضاً، فتقاطر الناس من أرجاء الجزيرة إلى المدينة أفواجاً.[1] وبعد اجتماعهم توجّهت قوّاتهم العسكريّة إلى الشام في السنة الثانية عشرة من الهجرة (٦٣٣ م) لأوّل مرّة، فنظّمها أبو بكر في ثلاث فرق، على رأس الأولى عمرو بن العاص الذي توجّه إلى أيله عند خليج العقبة، والأُخرى بقيادة يزيد بن أبي سفيان، والثالثة بقيادة شرحبيل بن حسنة. وهذان قصدا المنطقة الواقعة بين تبوك ومعان، وتقرّر في البداية أن يقود خالد بن سعيد احدى هذه الفرق لكنّه عُزل لاعتراضه على انتخاب أبي بكر، ولإصرار عمر، ونُصب مكانه يزيد بن أبي سفيان.[2] ثمّ لحق بهم بعد مدّة قليلة أبو عبيدة بن الجرّاح على رأس قوّات لمددهم، وفوّضت القيادة إليه عند اجتماعهم في مكان واحد. ويرى بعض أنّه كان يتولّى قيادة قسم من الجند منذ البداية.

وحدث أوّل صدامٍ للمسلمين مع الروم في منطقة «وادي عربة» الواقعة جنوب البحر الميّت، وكان على رأس الروم حاكم فلسطين سرجيوس الذي

---

١ - فتوح البلدان: ١١٥.

٢ - نفسه: ١١٦.

انهزم وقُتل في المعركـة. وواصـل المسـلمون تقـدّمهم إلـى سـواحل البحـر الأبيض المتوسّط[1]، وكلّ من الفرق تقاتل في منطقة، وكانوا على اتّصال، فـإذا اقتضى الأمر قاتلوا في مكان واحد[2]، وكان عدد كـلّ فرقـة فـي البدايـة ثلاثـة آلاف، ثمّ أمدّهم أبو بكر حتّى بلغت كلّ فرقة سبعة آلاف وخمسـمئة، وبعـد مدّه أناف عدد القوّات على أربعة وعشرين ألفاً.[3]

وتلا قتال «عربة» قتالٌ آخر في احدى قرى غـزّة وتُـدعى «داثـن»، وقـد انتهى هذا القتال الذي نشب في المحرّم سنة ١٣هـ[4] بانتصـار المسـلمين. بـدأ البلاذريّ كلامه في حرب داثن، ثمّ حرب عربة، ونقل بعد ذلك روايـةً حـول تقدّم حرب داثن علـى حـرب عربـة، جـاء فـي غضـونها أنّ المسـلمين لـم يصطدموا في طـريقهم مـن الحجـاز إلـى وادي عربـة بعقبـة تُجبـرهم علـى استعمال السلاح. وهذه الانتصارات قذفت الرعب فـي قلـب هرقـل، فتجهّـز للقتال، وبلغ المدينةَ خبرُه، فدفع الخليفة إلى إيقاف القتال في العـراق مؤقّتـاً، وإرسال خالد بن الوليد قوّاته من العراق إلى الشام. وفتح المسلمون بعد وقعة داثن بُصرى ومآب في ربيع الأوّل سنة ١٣هـ، ثمّ توجّهوا إلـى دمشـق، إلّا أنّ اجتماع العدوّ في أجنادَين دفعهم إلى قصدها أوّلًا. وحدث قتال شـديد فـي جمادى الأولى أو الآخرة عام ١٣هـ، انتهى بهزيمـة الـروم، وإن استُشـهد فيـه عدد من المسلمين[5]. وقيل: في أعقاب تلك الهزيمة غادر هرقل حمـص التـي كان فيها حتّى تلك الفترة وتوجّه إلى أنطاكية. وبينا كان المسـلمون يتقـدّمون

١ - **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين** ٢: ٦.
٢ - **فتوح البلدان**: ١٢٣.
٣ - نفسه: ١١٦.
٤ - **أطلس تاريخ إسلام**: ١٢٦.
٥ - **فتوح البلدان**: ١٢١.

نحو دمشق، جدّد العدوّ قواه وقصدهم، والتقى بهم في مرج الصَّفَر، وكانت الغلبة للمسلمين أيضاً في ذلك القتال الذي نشب في المحرّم سنة ١٤هـ، بعدها حاصر المسلمون دمشق حصاراً مطبقاً.

وقيل: حين كان أبو عبيدة قد تمكّن من دخول المدينة عنوةً، صالح أُسقفها خالد بن الوليد في الجانب الآخر منها، ورضي أبو عبيدة بالصلح على الرغم من معارضة المسلمين. ووقعت دمشق في قبضة العرب المسلمين، وبعد فتحها رحل عدد كبير من أهلها الذين كانوا روماً عادةً أو من العرب التابعين لهم قاصدين أنطاكية وانضمّوا إلى هرقل، وسكن المسلمون بيوتهم الخالية.[١] وكان فتح دمشق في رجب عام ١٤هـ، في حين مات أبو بكر في جمادى الآخرة عام ١٣هـ، بعد سنتين وثلاثة أشهر وأيّام من حكمه.

فتح العراق

العراق بلد عريق ذو حضارة تليدة يعرفها العالم باسم حضارة ما بين النهرين [أو وادي الرافدين]. ويقع شمال الجزيرة العربيّة وشرق الشام، وغرب إيران وراء منطقة الجبال).

وقد نزحت القبائل العربيّة القاطنة في الجزيرة ـ التي كان عددها في ازدياد، ولم تسعها بيئة الجزيرة العربيّة ـ إلى الشمال حيث سورية والعراق، وذلك قبل ظهور الإسلام بقرون [٢]. وأدّى هذا النزوح الواسع من القوى الشابّة في القبائل إلى غلبتهم على الأقوام في تلك المناطق، ومن ثمّ تعريب البيئة تدريجاً، وكان الأنباط في العراق وسورية من بقايا تلك الأقوام القديمة

---

١ - نفسه: ١٢٨ – ١٢٩.

٢ - ثمّة خلافات حول زمن نزوحها . انظر: **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام** ٣: ١٦١.

الساكنة هناك[١]. وسمّي العراق منطقة «السَّواد» لخصوبة أراضيه، والسواد كثـرة الزراعة والغطاء النباتيّ على سطح من الأرض، حتّى لكأنّ الأرض قد اسودّت بسببه[٢]. وكـان عـرب الشـام عنـد ظهـور الإسـلام مـن: تنـوخ، والعبـاديّين والأحلاف، وهؤلاء جميعاً من القبائل العربيّة. وكـان نهـر الفـرات فـي الحـدّ الفاصل بين عرب الشام وعرب العراق، وكان عرب العـراق يُـدعَون: «عـرب الفرس»، وعرب الشام: «عرب الروم»[٣].

وتحضّر عرب البادية النازحون شيئاً فشيئاً بسبب أرض العراق الخصـيبة، واعتنق كثير منهم الدين النصرانيّ الذي كان يضغط من الغرب، حتّى قيل فـي العباديّين الذين سكن معظمهم الحيرة: إنّهم كـانوا جميعـاً علـى النصـرانيّة[٤]، ومذهبهم الذي كانوا يدينون به هو المـذهب النسـطوريّ، وهـم أهـل ثقافـة، فتعلّم عرب الحجاز القراءة والكتابة منهم.[٥]

وكانت الحيرة من أهمّ مدائن العراق، وقيل: إنّ اسمها مأخوذ مـن حرتـا، وحيرتا، وحيرتو السريانيّ الـذي يعنـي المعسـكر والمخيّم. ويُستشـفّ مـن الأدب العربيّ الجاهليّ أنّ هذه المدينة كانت تحظى بموقع رفيع بين حواضر العراق، وهي عاصمة الملوك اللّخميّين، وبعد بزوغ الإسلام وتمصـير الكوفـة القريبة منها أخذت بالأفول، واستُعملت موادّها في إعمار الكوفة [٦] التي تبعـد عنها فرسخاً واحداً. وكانت من الوجهة الثقافيّة نقطة التقاء ثقافات عديدة قبل

---

١ – **المفصّل** ٣: ١٧٢ – ١٧٣.
٢ – **الطريق إلى المدائن**: ١٣٢
٣ – **المفصّل** ٣: ١٦٥.
٤ – نفسه ٣: ١٦٩ – ١٧١.
٥ – **تاريخ إيران**، كمبريج ٣: ٧١٢
٦ – **المفصّل** ٣: ١٥٩.

الإسلام: كالثقافة الفارسيّة الساسانيّة، والثقافة البزنطيّة، والمسيحيّة النسطوريّة، والوثنيّة[١]. وما زالت هذه المدينة ماثلة كما يبدو[٢].

وكان تاريخ العراق من الوجهة السياسيّة يدخل في تاريخ إيران قبل الإسلام، ولهذا السبب دمج المؤرّخان الفارسيّان: الطبريّ، والدينوريّ تاريخ العراق في تلك الفترة بالتطوّرات الحادثة في تاريخ إيران يومئذٍ، وسبب ذلك هو مفهوم «عرب الفُرس» نفسه، ويماثل الوضع الذي كان قائماً في الشام، إذ كان تاريخه في تلك الظروف مندمجاً في تاريخ الروم.

وكان الوضع الذي عليه سلالة «آل لخم» المعروفين بآل نصر، وآل النعمان[٣]، ودولة المناذرة مماثلاً لوضع الغسّانيّين أو آل جفنة. ومن القضاء أنّ مصيرهما كان متماثلًا، وكلاهما فقد سلطته إبّان ظهور الإسلام، وسبب ذلك أنّ ضغطاً مشتركاً كان عليهما من إيران والروم. وقد وردت معلومات عن آل لخم في النصوص التاريخيّة للمسلمين وغيرها، وهي متداخلة إلى حدٍّ ما، واستطاع الدكتور جواد عليّ أن ينظّمها جهد المستطاع[٤]. وكان أوّل حاكم لخميّ هو جُذيمة الأبرش الذي ذُكر في بعض النقوش باسم «ملك تنوخ».

ومن ملوك اللّخميّين المعروفين امرؤ القيس (المتوفّى ٣٢٨ م) الذي بولغ في وصفه بـ «ملك العرب جميعاً»[٥]. وكان الملوك اللخميّون وثنيّين غالباً، ألّا أنّهم كانوا يميلون إلى المجوسيّة حيناً وإلى النصرانيّة حيناً آخر، بسبب تأثّرهم بالثقافة المجوسيّة في الشرق والثقافة النصرانيّة في الغرب، ومن

١ - **تاريخ إيران**، كمبريج ٣: ٧١٠.
٢ - انظر بشأن ذلك: **أصول أسماء المدن والمواقع العراقيّة** ١: ١٠٠ – ١٠١.
٣ - ويبدو أنّ لهذا السبب سمّي بعض ملوكهم باسم النعمان، وآخرين باسم المنذر.
٤ - **المفصّل** ٣: ١٧٧ فما بعدها.
٥ - **تاريخ إيران**، كمبريج ٣: ٧١٢.

الثابت أنّ النعمان الثالث الذي حكم حتّى سنة ٦٠٢ م كان وحده نصرانياً. وأُشير إلى أنّ نصرانيّة العراق والمناطق الغربيّة من إيران كانت نسطوريّة، وقد دعم الملوك الساسانيّون هذا التوجّه؛ لأنّ الحكومة البيزنطيّة كانت في نزاع شديد لهذا المذهب، وكان في مصلحة إيران سياسيّاً أن تدافع عن المذهب المذكور[١].

وكان المصير السياسيّ للعراق وإيران يومئذٍ مترابطاً بشدّة، ذلك أنّ العراق كان عميلًا لإيران عمليّاً، إذ لولا أنّه كان محميّةً لإيران لما استطاع الصمود أمام آل غسّان أو المنافسين ذوي البأس من عرب شمال الجزيرة ، مثل كِندة التي كانت تدّعي الملوكيّة في هذه المنطقة وتمكّنت من إخراج الحيرة من قبضة لخم لثلاث سنين[٢].

وكان على إيران إزاء ذلك أن تدعم العراق؛ لأنّه يشكّل سدّاً أمام عدوان عرب البادية من جهة، وأمام هجوم الدولة البيزنطيّة وحكومتها العميلة في الشام من جهة أخرى. وبلغت هذه الضرورة مبلغاً أنّ حكومة إيران كانت ترسل جنوداً إلى الحيرة وضواحيها ليحموا ثغور إيران فيها، ولم يكن لإيران موقف وديّ مع العرب في العراق فحسب، بل كانت جارتهم عبر السواحل الشرقيّة للجزيرة العربيّة في الشريط الجنوبيّ من الخليج الفارسيّ أيضاً، ولها علاقات بهم طبعاً. وتذكر بعض المصادر أنّه كان لإيران نفوذ في يثرب قبل الإسلام بقرن أو قرنين[٣]. كما كانت إيران مجبورة أحياناً على أن تُنيط أمر منطقة كالأُبلّة بقبيلة قويّة كبني شيبان؛ لتحول دون عدوان بكر بن وائل عليها.

---

١ - **النصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهليّة**: ٨٧.

٢ - **تاريخ إيران**، كمبريج ٣: ٧١٥.

٣ - نفسه ٣: ٧١٣ – ٧١٤.

وكانت مصالح إيران في الجزيرة العربيّة على درجة أنّها ارتأت في أن تتدخّل وقتاً ما في اليمن، أقصى نقطة في جنوب الجزيرة العربيّة. وقد استولى اليهود على اليمن في أوائل القرن السادس الميلاديّ، وبدأوا يؤذون النصارى هناك، فأدّى هذا العمل إلى أن يزحف يوستي نيانوس نجاشيّ الحبشة على اليمن عام ٥٢٥ م، ويقمع اليهود ويمكّن النصرانيّة فيها. وحكم إبرهة قائد الزحف المذكور ونجله مسروق الحبشة خمسين عاماً، ثمّ استطاع سيف بن ذي يزن أن يقضي على الأحباش فيها بمددٍ من إيران قوامه ثمانية آلاف. وبقي كثير من الفُرس في اليمن[1]، وشكّلوا نسل «الأبناء» أو فُرس اليمن، وقد بلغ عددهم حدّاً أنّهم اشتركوا مع المسلمين في فتح مصر، وأسّسوا محلّةً ومسجداً في الفُسطاط باسمهم، وكانا قائمين حتّى القرن الثالث[2]. وعندما دعا رسول الله ﷺ ملوك العالم وأمراءه إلى الإسلام كان يحكم اليمن رجلٌ يُدعى بازان، وكان عميلًا للدولة الساسانيّة، وحين تنبّأ الأسود العنسيّ باليمن في الشهور الأخيرة من حياة النبيّ ﷺ قتله فارسيّ مقيم فيها ، أي من الأبناء. أجل كانت لإيران مصالح مهمّة في البلدان العربيّة، لاسيّما العراق البلد الواقع على حدود فارس والروم، وقد بلغ تدخّلها في هذه المناطق خلال السنين الأخيرة درجةً أنّ خسرو برويز أمر النعمان الثالث آخر الملوك اللّخميّين أن يتنحّى عن الحكم عام ٦٠٢ م، فنصب مكانه نصرانيّاً من تلك المناطق يُدعى إياس بن قُبيصة حاكماً على الحيرة، وإلى جانبه حارس فارسيّ[3]!

---

١ – نفسه، ٣: ٧٢٠.

٢ – **فتوح مصر وأخبارها**: ١٢٩

٣ – **تاريخ إيران**، كمبريج ٣: ٧٢٠.

وحدثت تطوّرات بالغة الأهميّة في علاقات بلاد فارس بالدولة البيزنطيّة خلال الثلاثين سنة الواقعة بين عزل آل لخم والحملة الأولى للمسلمين على الحيرة، تلك التطوّرات التي اقتضت تدخّل بلاد فارس المباشر في شؤون العراق، فهاجم خسرو برويز الدولة البيزنطيّة في الفترة الواقعة بين سنة ٦١١ و٦١٤ م هجوماً طال أمده، حتّى استطاع أن يستولي على قسمٍ عظيم من بلاد الشام، ومنها القُدس، فأحرج الدولة البيزنطيّة وورّطها لسنين متمادية. وهزيمة الروم هذه هي التي ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، ثمّ استطاع هراكليتوس بعد بضع سنين أن يعزّز القوى البيزنطيّة ، فخاض حروباً متواصلة على الفرس دامت ستّ سنين تغلّب فيها عام ٦٢٨ م، وهو العام الذي قُتل فيه خسرو برويز، حتّى قبلت فارس بالصلح. ومن الواضح أنّ هزيمة الفرس في هذه الحرب عرّضت العراق لخطر حقيقيّ يواجهه به البيزنطيّون، وأهمّ منهم القبائل البدويّة المتمرّدة.

وفي السنين الأولى من العقد الرابع من القرن السابع الميلاديّ استنجد بعض رؤساء القبائل العربيّة في هذه المناطق بأبي بكر لإخراج العراق من براثن الفُرس، فكانت الحملة الأولى على الحيرة سنة ٦٣٣م / ١٢هـ.

وكان العرب المسلمون يعيشون في المنطقة الغربيّة من الجزيرة العربيّة، إلّا أنّهم لم ينقطعوا عن شرقها، إذ كانوا يتواصلون مع نجد وقبائلها خاصّة، وقد أسلم عدد كبير من هذه القبائل قُبيل وفاة النبيّ ﷺ وإن لم يكن إسلامها حقيقيّاً، لذا انتشرت الردّة عن الإسلام - بعد وفاته ﷺ - في المناطق الشرقيّة من الجزيرة أكثر من غيرها، لا سيّما في نجد، ولم يكن أمام الحكومة الجديدة سبيل إلّا تهدئتها، وإلّا لم يُؤمَنوا أن تزحف إلى المدينة بعد حين. ومن أجل هذا توجّه المسلمون إلى هناك لتأديب المتمرّدين. وتولّى خالد بن

الوليد قيادة بعض هذه الحملات، وحين كان يتقدّم تدريجاً بلغ مشارف المناطق الواقعة في جنوب العراق، ففرّ أناس من القبائل المرتدّة إلى العراق، وكان بعضهم يعيش في تلك المناطق من ذي قبل كبني تميم. وكانت الانتصارات المتلاحقة للمسلمين في هذه المناطق قد دفعت بعض رؤساء القبائل القاطنة في جنوب العراق إلى التفكير باغتنام الفرصة للاستعانة بقوى المسلمين من أجل الاستيلاء على الحيرة، وهذه أوّل جذوةٍ للفتوحات في العراق ثمّ في إيران.

وكان من القبائل الوجيهة في جنوب العراق قبيلة بني شيبان، وهي من بكر بن وائل، وبكر من ربيعة. وكان العراق أوّل مسكن لبكر بن وائل، ثمّ امتدّت هذه القبيلة إلى البحرين في سواحل الخليج الفارسيّ[1]. وكان بنو شيبان منافسين لآل لخم، وهم من القبائل التي رأى الفرس أنفسهم مُكرهَين على منحهم بعض الامتيازات في المناطق الواقعة تحت سيطرتهم.

وكان آخر الاشتباكات بين العرب والفُرس واقعة «ذي قار» التي اصطدم فيها بنو شيبان بالفرس. وقيل: إنّ العرب انتصروا على الفرس في هذه الحرب. ومن رؤساء القبيلة المذكورة المثنّى بن حارثة الذي يتعيّن علينا أن نعدّه المحرّض الأصليّ للمسلمين على فتح العراق، ثمّ إيران. نقل الدينوريّ أنّ بوران حين تربّع على العرش في بلاد فارس شاع أنّه لم يَبقَ فيها من الملوكيّة شيء، وتلا ذلك هجوم شخصين من بكر بن وائل: أحدهما المثنّى ابن حارثة، والآخر سُوَيد بن قُطبة العِجليّ على أرض العجم (الأوّل على الحيرة، والثاني على الأُبُلّة)، فانقضّوا على دهاقينهم وسلبوهم. ثمّ كتب

---

١ - الطريق إلى المدائن: ٢٠٢.

المثنّى إلى أبي بكر يُعْلمه بضعف الفرس.[١]

ولمّا سمع أبو بكر أخبار حملاته على العجم قال: مَن هذا الذي تصل إلينا أخباره قبل نسبه؟ فقيل له: ليس مجهولًا. وقدم المثنّى المدينة بعد انتهاء قتال المرتدّين، واستأذن أبا بكر بقتال الفُرس، فكتب له أبو بكر عهداً، وبعث أخاه الى المدينة بعد حين ليستمدّ أبا بكر. فأشخص أبو بكر خالداً إلى العراق[٢]. وعلى ما نقل البلاذريّ فإنّ المثنّى رجع بعد الإذن بالقتال من المدينة إلى «خِفّان» حيث قبيلته، ودعاهم إلى الإسلام فأجابوا، بعد ذلك بعث أبو بكر خالد بن الوليد على رأس جيش إلى العراق وأمر المثنّى أن يتّبعة[٣]. وبذل المثنّى جهداً بالغاً في بثّ الإسلام في العراق، وقيل: إنّه جاء إلى رسول الله ﷺ مع وفد من قبيلته، فهو إذن في عداد الصحابة[٤]. وناهز عدد المسلمين في تلك الحملات الثمانية عشر ألفاً.[٥]

ويدلّ ما نُقل في هذه الحوادث بشأن الفتوحات على أنّ جُند الفُرس كانوا الطرفَ الأصليّ في تلك الاشتباكات، وكانت القيادة في الأقلّ بأيديهم، وإن كان القسم الأعظم فيه من أهل الجزيرة ونصارى العرب. وكان قائد قوّات العدوّ في فتح الأُبُلّة رجلاً يدُعى هرمز، وقد خوّل هرمز هذا رجلاً يُقال له: قباد قسماً من جيشه، كما خوّل أنوشجان قسماً آخر منه[٦]. وبعد سقوط اللّخميّين كان الفرس هم الراعين لهذه الديار، وكان طبيعيّاً في بيئة

١ – **الأخبار الطوال**: ١١١.

٢ – **الإصابة** ٣: ٣٦١.

٣ – **فتوح البلدان**: ٢٤٢.

٤ – **الاستيعاب** (في حاشية «**الإصابة**») ٣: ٥٢٢؛ **الإصابة** ٣: ٣٦٢.

٥ – **الطريق إلى المدائن**: ٢٠٩ – ٢١١.

٦ – نفسه : ٢١٥ – ٢١٦.

العراق العربيّة أن يفضّل اللّخميّون الفرسَ في النهوض بهذا الأمر، من هنا قيل: إنّ سقوط اللّخميّين أدّى إلى خلوّ الجناح الجنوبيّ للحكومة الساسانيّة من حامٍ له تقريباً.[١]

ويجدر القول بأنّ أخبار هذه الفتوحات نُقلت باختلاف كثير، فأحد رواتها هو سيف بن عمر المشهور بكذبه واختلاقه القَصصيّ، وجُهده في أن يُبرزَ خالد بن الوليد كشخص غير عاديّ، بل كان يقوم بأعمال خارقة أحياناً! وأخبار فتح العراق في تاريخ الطبريّ منقولة عنه.

وجاء في بعض الأخبار التاريخيّة أنّ خالداً فتح الأُبُلّة أوّلًا، وهو ما رفضه الواقديّ[٢]، وسنُشير إلى ما جاء في مصدر آخر أنّ عُتبة بن غزوان هو الذي فتحها. وجاء كذلك أنّ مدينة أُلّيْس فُتحت صلحاً، وبعد ذلك تحرّك المسلمون تلقاء الحيرة، وثمّة خلاف حول مقاومة الحيرة لقوّات العرب المسلمين أو استسلامها.[٣]

وأكابرها وفيهم إياس بن قُبيصة - على ما نُقل - سلّموها صلحاً، على شرط ألّا تُدمَّرَ كنائسها وقصورها، وكان خراجها أوّل خراج وصل إلى المدينة بعد فتحها في ذي القعدة عام ١٢هـ.[٤]

ومن المدائن الأُخرى التي فتحت في العراق آنذاك مدينة الأنبار، وتسميتها بهذا الاسم تعود إلى أنّها كانت مخزناً لحفظ غِلال الفُرس، وكانت قوّاتهم فيها بقيادة المرازبة «حرس الثغور» كثيرة حقّاً، والمدينة المذكورة كانت مخزناً لمؤنهم ومِيَرهم، وكانت لها شهرتها حتّى القرن الثاني، ثمّ أُفَلَت

١ - **تاريخ إيران**، شبولر ١: ٦.
٢ - **معجم البلدان** ١: ٤٣١.
٣ - **تاريخ إيران**، شبولر ١: ٨.
٤ - **فتوح البلدان**: ٢٤٤.

بعد تأسيس بغداد. ومن الخليق بالذِكر أنّ الروم أحرقوها قبل فتح المسلمين لها بسنة واحدة[١]، وهذا دليل على أنّ خسائر فادحة لحقتها منهم قبل البدء بفتح العراق بعامٍ واحد. وكانت عين التّمر المجاورة للأُبُلّة والخُريبة في عداد المناطق التي استقرّت فيها قوّات الفرس الحدوديّة، وفُتحت عَنوةً أو صلحاً. ومن أسراها رجل يُدعى يساراً، وهو جدّ محمّد بن إسحاق صاحب السيرة النبويّة.[٢]

وتدلّ سرعة الفتوحات التي أُنجزت خلال سنة واحدة من جهة، وعدم مقاومة الفرس للعرب المسلمين مقاومة جادّة قاطعة من جهة أخرى، على مدى الفوضى التي مُنيت بها القوّات الفارسيّة في هذه المنطقة، وربّما يقال: إنّ الفرس لم يأخذوا تلك الحملات مأخذ الجدّ يومئذ، ولذا لم يُقيموا لها وزناً. وهذا كلام صحيح إلى حدٍّ ما؛ فأوّلًا: يتعيّن الالتفات إلى أنّهم كانوا لا محالة على اطّلاع بما يجري في الجزيرة العربيّة من أحداثٍ بخاصّة حروب الردّة، ذلك أنّه كان لبلادهم نفوذ عظيم في البحرين واليمامة آنذاك، فمن المستبعد أنّهم لم يطّلعوا على تلك الحوادث ولم يدركوا وضع المسلمين.

وثانياً: أنّهم حتّى بعد تعاملهم مع الأحداث بجدّ ما استطاعوا أن يقوموا بعمل مثمر. ومن الواضح أنّ قواهم العسكريّة في الأصل ليست ذات وضع مناسب يومئذٍ، ومشكلتهم تنبع من التخلخل والفوضى التي عمّت بلاطهم بعد هزيمتهم من قبل الروم، وضعّفت ثقة شعبهم بالحكومة الساسانيّة بشدّة. قال شبولر في سرعة إخلائهم العراق: إنّ لنجاح العرب السريع وسرعة إخلاء الفرس لهذه المنطقة أسباباً ذات جذور أعمق، فمن جهة كان الآراميّون القاطنون في بلاد ما بين النهرين (الرافِدَين) أو «المتأرّمين» منهم هناك، حيث

---

١ - **أصول أسماء المدن والمواقع العراقيّة** ١: ٣١.

٢ - **فتوح البلدان**: ٢٤٨.

كان النصارى وإلى جانبهم أتباع الفرقة التعميديّة واليهود وعدد من المانويّين، الذين يعيشون في القسم الأعظم منها، معارضين لتسلّط الفُرس عليهم. ومن جهة أخرى كان عدد الفرس الساكنين في هذه المنطقة غير كثير، ولم يكن لأهل القُرى ردّ فعل أمام تقدّم العرب... وإن لم يكن استقبال العرب المهاجمين بالشكل المشهود في مصر، المصادف له تقريباً - وكان المصريّون قد اشتدّ هيجانهم بفعل أعمال البيزنطيّين - إلّا أنّ أوضاع ما بين النهرين كانت مماثلة لأوضاع مصر أساساً.[1]

ومجمل القول: إنّه ما دام الأمر متّصلاً بالعرب الساكنين في هذه المناطق، وبالرغم من جميع الاشتباكات التي جرت بين جند الإسلام والعرب القاطنين في العراق والشام، كان عند القبائل - في عمق القضيّة - نوع من الاستعداد لقبول الإسلام ديناً جديداً. ويبدو أنّ هذا القبول كان صعباً على النصارى بقدر ما، أمّا العرب الوثنيّون فقد كان أيسرَ عليهم أن يقبلوا الإسلام الذي كان ديناً سهلاً بسيطاً مبتنياً على التوحيد بعيداً عن المجادلات والاختلافات اللّاهوتيّة والناسوتيّة والمباحث الكلاميّة والطائفيّة للنصرانيّة. وكانت الظروف الفكريّة والاجتماعيّة والسياسيّة للقبائل العربيّة مواتية لقبول الإسلام من كلّ الجهات. قال لوسكايا في هذا المجال: لا مجال للشكّ في أنّ التقدّم الاجتماعيّ للعرب بلغ مرحلةً تبيّن فيها أنّ وجود دين ذي خصوصيّة تفوق التوجّه القبليّ، وتوحّد القوى القوميّة أمر ماثل تماماً وله ضرورته الملحّة، وكان الإسلام ملبّياً لهذه الحاجة وفي مستوى التقدّم الثقافيّ للعرب.[2]

---

١ - **تاريخ إيران**، شبولر ١٣:١.

٢ - **أعراب حدود مرزهاي شرقي روم وإيران** [العرب في الحدود الشرقيّة للروم وفارس] ص٦٣٥.

الفصل الثاني

خلافة عمر

سيرة الخليفة الثاني

كان عمر من قبيلة عَدِيّ، احدى قبائل قريش. وأُمّه حنتمة بنت هاشم بن المُغيرة من بني مخزوم، وبنو مخزوم من قريش أيضاً، ومن حلفاء بني أميّة في الجاهليّة. وكان عمر – على عكس أبي بكر – ممّن أسلم بعد البعثة النبويّة بسنين. وذكر كثير من المصادر أنّ إسلامه كان في السنة السادسة من البعثة، في حين ذهب المسعوديّ إلى أنّه أسلم قبل الهجرة بأربع سنين، أي في السنة التاسعة من البعثة[1]. وشهد عمر الحوادث والحروب أيّام المدينة المنوّرة، وإن لم ينقل عنه التاريخ شيئاً خاصّاً يُذكَر. وحينما تزوّجت ابنته حفصة برسول الله ﷺ كثر تردّده عليه ﷺ، وكان في هذا شبيهاً بأبي بكر. ومرّ بنا أنّه هو وأبو بكر ممّن آخى بينهم رسول الله ﷺ[2]، وكانا متلازمَين طوال حياته ﷺ، وموقفهما واحد في جميع ما جرى في السقيفة. وإصرار عمر على تثبيت خلافة أبي بكر جعله واضحاً عند الإمام عليّ عليه السلام بتمهيد الأمر لنفسه آجلاً[3]. وهذا أمر أدركه الآخرون أيضاً فيما بعد.

ولمّا دفع أبو بكر إلى عمر عهدَ استخلافه ليقرأه على الناس، قال له رجل

---

١ – **مروج الذهب** ٢: ٣٢١. وذلك مبنيّ على أنّ الهجرة كانت سنة ١٣ للهجرة.

٢ – **تاريخ جرجان**، للسهميّ: ٩٦.

٣ – **أنساب الأشراف** ١: ٥٨٧؛ **شرح النهج** ٦: ١١. قال أنس بن مالك: لقد رأيتُ عمر [يوم السقيفة] يُزعج أبا بكر إلى المنبر إزعاجاً. انظر: **مصنّف عبد الرزّاق** ٥: ٤٣٨.

في الطريق: ما في الكتاب؟ قال: لا أدري، ولكنّي أوّل من سمع وأطاع! فقال: لكنّي والله أدري ما فيه، أمّرتَهُ عام أوّل فأمّرك العام[١]! ويدلّ هذا الحوار على أنّ الناس كانوا يعلمون برابطتهما السياسيّة*. ويبدو أنّ نجاح أحدهما بالنسبة إلى الآخر، وموقع عمر المتفوّق طوال العامين وثلاثة الأشهر التي حكم فيها أبو بكر، جعلا الجميع يحسبونهما شخصاً واحداً، أي أنّ خلافة عمر طبيعيّاً هي امتداد لخلافة أبي بكر، وحكومتهما خلافة واحدة. قال قيس بن أبي حازم: رأيت عمر في المسجد وبيده جذيل وهو يُجلِس الناس، فجاء غلام أبي بكر – واسمه شديد – فقرأ على الناس كتاباً من أبي بكر، ثمّ رأيتُ عمر على المنبر[٢]. وهذا كلام صحيح، إذ لولا عمر لما كان أبو بكر خليفة[٣]. ولمّا أراد أبو بكر أن يؤمّر خالد بن سعيد على الجيش نجح عمر في صرفه عن قصده؛ لأنّ خالداً هذا بايع أبا بكر بعد السقيفة بثلاثة أشهر[٤]. وكان أبو بكر يقول: «إنّ عمر أحبُّ الناس إليّ»[٥]. وقال عمر لابن عبّاس: «لولا رأي أبي بكر فيّ لجعل لكم سهماً، فلا يطيق قومكم (قريش) النظرَ إليكم»[٦]. ورأي أبي بكر هذا هو الذي جعله يستخلف عمر في عهده الذي كتبه، وقال في كلام له: إنّه

١ – **الإمامة والسياسة** ١: ٢٥. وحدث ذات مرّة أنّ أبا بكر أقطع رجلًا أرضاً وكتب له فيها كتاباً، فأخذه عمر ومزّقه، «**حياة الصحابة**» ٢: ٤٧. ومن الطريف أنّهما يُسمَّيان: العُمَرَيْن!

* – إنّ ما ذكره المؤلّف ليس في **شرح النهج** بل في كتاب **الإمامة والسياسة** ١: ٢٥، المترجم.

٢ – **السنّة**، لأبي بكر الخلّال: ٢٧٧.

٣ – **الإمامة والسياسة** ١: ٣٨. قال ابن أبي الحديد: هو (عمر) الذي شدّ بيعة أبي بكر، ووقم المخالفين فيها، فكسر سيف الزبير... ودفع في صدر المقداد... ولولاه لم يثبت لأبي بكر أمر، ولا قامت له قائمة. (**شرح النهج** ١: ١٧٤).

٤ – **مصنّف عبد الرزّاق** ٥: ٢٥٤.

٥ – **غريب الحديث** ٢: ٢٢٢؛ **نثر الدرّ** ٢: ١٧؛ **الفائق في غريب الحديث** ٣: ٣٣٣؛ **الأدب المفرد**، البخاريّ: ٢٩.

٦ – **نثر الدرّ** ٢: ٢٨.

ولّى عمر لخوفه من الفتنة[١].

وقبل أن ينصّب أبو بكر عمرَ استشار عبد الرحمان بن عوف فأثنى عليه إلّا أنّه وصفه بأنّ فيه غِلظة. فقال أبو بكر: «ذاك لأنّه يراني رقيقاً، ولو قد أفضى الأمر إليه لترك كثيراً ممّا هو عليه». وكان الطرف الآخر في مشورة أبي بكر عثمان، وقال عثمان في عمر: «سريرته خيرٌ من علانيته»[٢]. وهذه هي مشورة أبي بكر كلّها لنصب عمر، وهي مسطورة في كتب التاريخ، لا سيّما أنّه لم يستشر إلّا عثمان وعبد الرحمان بن عوف اللّذينِ كانا من أعيان قريش.

وكُلّف عثمان ـ الذي لازم أبا بكر طوال مدّة مرضه ـ بكتابة عهد استخلاف عمر، فأُغمي على أبي بكر عند كتابة أوّل العهد، فواصل عثمان الذي كان يعرف ما عليه كتابتَه، فأدرج فيه اسم عمر، ولمّا أفاق أبو بكر طلب منه أن يقرأ عليه ما كتب، ففعل، فأقرّه.[٣] وبعد ذلك دخل طلحة على أبي بكر وقال: «استخلفتَ على الناس عمر، وقد رأيتَ ما يلقى الناس منه وأنتَ معه، فكيف به إذا خلا بهم»؟! فغضب أبو بكر [٤]. وجاء في خبر آخر أنّ الناس أنكروا على أبي بكر توليتَه رجلًا فظّاً عليهم[٥]. وروى ابنُ عبد البرّ أنّ أبا بكر سأل مُعيقبَ الدوسيّ: «ما يقول الناس في استخلافي عمرَ؟ قال: كَرِهَه قومٌ،

---

١ - **الطبقات الكبرى** ٣: ٢٠٠.

٢ - **تاريخ الطبريّ** ٣: ٤٢٨؛ **الطبقات الكبرى** ٣: ١٩٩.

٣ - **تاريخ الطبريّ** ٣: ٤٢٩؛ **شرح النهج** ١: ١٦٣ – ١٦٥؛ **نثر الدرّ** ٢: ١٥، ٢٣؛ **الكامل في التاريخ** ٢: ٤٢٥؛ **حياة الصحابة** ٢: ٢٦؛ **الطبقات الكبرى** ٣: ٢٠٠.

٤ - **تاريخ الطبريّ** ٣: ٤٣٣. وذكرت عائشة أيضاً إنكار فلان وفلان. **الطبقات الكبرى** ٣: ٢٧٤. قيل لأبي بكر: «كان قد عتا علينا ولا سلطان له، فلو ملكنا لكان أعتى علينا؟»، **مصنّف عبد الرزّاق** ٥: ٤٤٩؛ وشكا آخرون أيضاً من «لسانه ودُرّته»؛ **الإمامة والسياسة** ١: ٣٨. وكان عليّ عليه السلام من المُنكِرين على أبي بكر أيضاً: **الطبقات** ٣: ٢٧٤؛ **حياة الصحابة** ٢: ٢٦.

٥ - **السنّة، لأبي بكرالخلّال**: ٢٧٥.

ورضيه آخرون. قال: فالذين كرهوه أكثر أم الذين رضوه؟ قال: بل الذين كرهُوه. قال: إنّ الحقَّ يبدو كريهاً، وله تكون العاقبة»[١]. وقال عمر في أوّل خطبة له: «إنّي قد علمتُ أن قد كرهتم قيامي عليكم»[٢]. ونقل ابن قُتيبة أنّ المسلمين بالشام لمّا بلغهم موت أبي بكر واحتمال تولية عمر عليهم، خافوا وقالوا: «إن كان عمر هو الوالي فليس لنا بصاحب، وإنّا نرى خلعه»[٣]. ويبدو أنّ أبا بكر لم يستشر في اختيار عمر كما يُدّعى[٤]. وكان أبو بكر نفسه يرى أنّ كثيراً من المهاجرين يفكّرون في الخلافة، فقد خاطب عبد الرحمان بن عوف قائلاً بأنّ كثيراً من المهاجرين كانوا يطمعون في الخلافة منذ اليوم الأوّل لخلافته[٥]، وحين حضرته الوفاة حذّر عمرَ من المهاجرين وطمعهم في الخلافة[٦].

وبتعيين أبي بكر عمرَ صار مبدأ «الاستخلاف» مبدأ مشروعاً في الفقه السياسيّ السنّيّ، في حين أنّ هذا العمل - وبتصريح المصادر السنّيّة - لم يكن له سابقة تُذكَر في السيرة النبويّة. ويشترك حكم الاستخلاف والحكم الوراثيّ في أحد رُكنيه: فالركن الأوّل في الحكم الوراثيّ هو الاستخلاف،

١ - **بهجة المجالس** ١: ٥٧٩. وحول سائر المنكرين، انظر: **معرفة الصحابة** ١: ١٨٣؛ **الفتوح** ١: ١٥٢؛ **الفائق في غريب الحديث** ١: ٩٩ ـ ١٠٠.

٢ - **نثر الدرّ** ٢: ٦١. وطلب من الله في هذه الخطبة أن يليّنه؛ في **الطبقات الكبرى** ٣: ٢٧٤.

٣ - **الإمامة والسياسة** ١: ٣٨.

٤ - ذكر الدكتور خير الدين السويّ: أنّ أبا بكر شاور الصحابة قبل اختيار عمر (**تطوّر الفكر السياسيّ**: ٤٠). ولا ينسجم هذا الرأي مع الحقائق التاريخيّة، كما لا نعرف إلّا مشاورته ابنَ عوف وعثمانَ، ومن الطبيعيّ أنّ عندنا معلومات أكثر عن المخالفات. وزعم الدكتور فاروق النبهان أيضاً أنّ عمل أبي بكر كان بمشاورة المؤمنين (**نظام الحكم في الإسلام**: ٣٠).

٥ - **نثر الدرّ** ٢: ١٦.

٦ - نفسه ٢: ٢٢.

والركن الثاني هو الجوانب الوراثيّة والعائليّة. وقد اتّخذ الركن الأوّل بالتلقين طابعاً شرعيّاً في سيرة الخليفة الأوّل، ومهّد هذا الأمر لوراثيّة الخلافة في العهد الأمويّ، كما نبّه عليه محمّد رشيد رضا[1].

ونُصب عمر خليفةً عمليّاً بعد كتابة أبي بكر عهدَ الخلافة له، وحينئذٍ لايمكن أن تكون بيعة الناس هي التي استخلفته. ومآل الكلام هو أنّ إعلان الناس تأييدهم لذلك لايوجب علينا أن نفهم منه بأنّهم لو لم يؤيّدوا لما استُخلف عمر، بل كما سبق ذكره، إنّ هذا كان نوعاً من الرضى والإعراب عن الولاء للخليفة في طاعته. والعجيب أنّ عمر كان يعتقد أنّ خلافة أبي بكر كانت فلتةً، في حين أنّ الحكم ينبغي أن يكون بمشورة المؤمنين، لكنّه استُخلِف بعهد أبي بكر وحده. وفي الوقت الذي كان عمر ينتقد لا شعوريّاً انتخاب أبي بكر، لم يتحدّث في كيفيّة استخلافه من قِبل أبي بكر.

أخلاق الخليفة

كانت الشخصيّة الروحيّة للخليفة ـ التي تركت شديد الأثر على عمله الفكريّ والسياسيّ والتنفيذيّ أيضاً ـ شخصيّةً حادّة المزاج[2] ومتطرّفةً من الوجهة الفكريّة[3]. وكان يرى في إدارة الأمور نوعاً من التشدّد، وقد سعى إلى السيطرة على العرب من خلال هذا التشدّد. وكان اتّساق هذا الأمر بيّناً في أفكاره وسلوكه منذ كان رسول اللهﷺ حيّاً، ولا ننسى أنّه أصرّ على رسول

---

١ - **الخلافة والإمامة العظمى** نقلاً عن (**انديشه سياسي در اسلام معاصر**) (**الفكر السياسيّ في الإسلام المعاصر**). وسبق مروانُ بن الحكم رشيدَ رضا في الاستناد إلى عمل أبي بكر لتسويغ وراثة الخلافة أيضاً!

٢ - قال ابن أبي الحديد: وكان في أخلاق عمر وألفاظه جفاءٌ، (**شرح نهج البلاغة** ١: ١٨٣).

٣ - كان الخليفة طويل القامة، أسمر الوجه، كما كان أصلعَ. وذكر محمّد بن حبيب أنّه كان أحول. «**المحبّر**»: ٣٠٣؛ «**المنمّق**»: ٤٠٥.

الله ﷺ ببدر أن يقتل أسرى المشركين جميعاً، إذ نقلت المصادر التاريخيّة شدّته وسَوَرَته على سُهَيل بن عَمْرو في صلح الحديبيّة، بل كان موقفه مع النبيّ ﷺ حاداً في الصلح. ووضّحنا في الجزء الأوّل من هذا الكتاب (سيرة رسول الله ﷺ) ما يتطلّبه هذا الأمر.

قال عمر في اليوم الأوّل من خلافته: «اللّهمّ إنّي غليظ فَلَيِّنّي»[١]! وعُرف أنّه لايستطيع أن يعيش بلا سوط. لذا قيل: إنّه كان أوّلَ مَن حمل الدِرَّةَ بيده[٢]. وقيل فيها: إنّها كانت أهيبَ من سيف الحجّاج[٣]. وسَلَفَ أنّ طلحة أنكر على أبي بكر تنصيبه إيّاه لفظاظته[٤].

ونقل ابن شَبَّة أنّ رجلاً قال لعمر: «أبغضك الناس، أبغضك الناس، كرهك الناس! فسأله عمر: مِمّ وَيْحك؟! قال: لسانك وعصاك»[٥]! ووقف مولًى للزبير مرّةً لأداء صلاة العصر، وما أن رأى عمرَ مقبلاً عليه بدِرّته حتّى فَرَّ، وتبعه عمر وظفر به. فقال المولى: لن أفعل ذلك أبداً[٦]!

ولمّا خطب زوجةَ يزيد بن أبي سفيان بعد موت بعلها، ردّته، فعَذَرها لأنّه يدخل عابساً ويخرج عابساً[٧]. حتّى إنّ عائشة التي كانت تربطها به

١ - **الطبقات الكبرى** ٣: ٢٧٤؛ **السنّة**، لأبي بكرالخلّال: ٣١٨.

٢ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٠٩؛ **تاريخ الخلفاء**: ١٣٧؛ **حياة الحيوان** ١: ٣٤٦؛ **الطبقات الكبرى** ٣: ٢٨٢. وأوّل من ضُرب بها أمّ فروة أخت أبي بكر، وكانت تبكي على أخيها بعد وفاته. وكان عمر لايرى البكاء على الميّت صحيحاً. انظر: «**شرح نهج البلاغة**» ، لابن أبي الحديد ١: ١٨١.

٣ - **ربيع الأبرار** ٣: ١٨٨؛ **حياة الحيوان** ١: ٥١؛ **شرح النهج** ١: ١٨٨؛ **التراتيب الإداريّة** ٢: ٣٧٦؛ وانظر: **الطبقات الكبرى** ٣: ٢٨١.

٤ - **شرح النهج** ٦: ٣٤٣، ١: ١٦٤؛ **حياة الصحابة** ٢: ١٢٨ ، ١٣٠.

٥ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ٨٥٨.

٦ - **المعرفة والتاريخ** ١: ٣٦٤ – ٣٦٥.

٧ - **نثر الدرّ** ٤: ٦١.

علاقات حميمة لم تُزوّجه أُختَها بسبب أخلاقه هذه[١]. ونقل عبد الرزّاق الصنعانيّ أنّ إبراهيم النَخَعيّ قال: «طاف عمر في صفوف النساء، فوجد ريحاً طيّبة من رأس امرأة، فقال: لو أعلم أيّتكنّ هي لَفعلتُ ولفعلتُ، لِتُطيّب أحداكنّ لزوجها... قال إبراهيم: فبلغني أنّ المرأة التي كانت تطيّبت بالت في ثيابها من الفَرَق»[٢]، كما أنّ أخرى لمّا رأته أجهضت[٣]. ولم يجرؤْ أحد على سؤاله عادةً، بل كان يسأله السائل بواسطة عثمان أو غيره[٤].

وأدّت هذه الأخلاق إلى اتّخاذ الغِلظة معياراً أساساً في اختياره لولاته[٥]. ولم يصفح عن الخاطئين مهما كانت قبائلهم، وكان يرى الإسلام من زاوية الشدّة فحسب، وهذا هو الذي حمل جَبَلة بن الأيهم الغسّانيّ أحد أمراء الشام على الفرار من المدينة إلى الشام*، بل ارتداده عن الإسلام بعد أن كان قد ارتكب خطأ[٦]! ولم يأمن ولاته ولا حتّى أولاده من شدّته أيضاً، فحين لبس ابنٌ له ثياباً حساناً ضربه حتّى أبكاه، فقالت له حفصة: لم يكن فاحشاً، لِمَ ضربتَه؟ قال: رأيتُه قد أعجبته نفسه فأحببتُ أن أُصغّرها إليه[٧]. وضرب ولداً آخر له كان قد شرب الخمر ضرباً شديداً حتّى هلك[٨]! ويبدو أنّ عمرو بن

---

١ - **الأغاني** ١٦: ٩٣؛ **الاستيعاب** ٤: ٢٧٣.

٢ - **مصنّف عبد الرزّاق** ٤: ٣٧٣ - ٣٧٤.

٣ - **جامع بيان العلم** ٢: ١٠٣؛ **شرح النهج** ١: ١٧٤.

٤ - **الفخريّ**، **شرح النهج** ١: ١٨٣.

٥ - **العقد الفريد**: ١: ١٥.

* - ذكر المؤلّف أنّه فرّ من مكّة إلى الشام، المترجم.

٦ - انظر: **الطبقات الكبرى** ١: ٢٦٥، **الفتوح** ٢: ٣٠٣ - ٣٠٤، ونقلت حكاية متفاوتة فيه، وهي ترتبط أيضاً بمعاملة عمر له، وندمه على ما عامله به. انظر: **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٤٧.

٧ - **مصنّف عبد الرزّاق** ١٠: ٤١٦.

٨ - **حياة الحيوان** ١: ٤٩؛ **نسب قريش**، لمصعب الزبيريّ: ٣٥٦.

العاص كان قد أقام على ابن عمر الحدّ بمصر بسبب شربه، وحين أتى المدينة ضربه أبوه عمر أيضاً حتّى مات. وحين كان يحتضر قال لأبيه: قتلتَني! فقال عمر: إذا لقيتَ ربّك فأخبره أنّا نُقيم الحدود[١]! وأثارت هذه الشدّة اعتراض الناس عليه، فطلبوا من عبد الرحمان بن عوف أن يكلّمه بذلك، ويقول له: إنّ البنات يخَفْنه في بيوتهنّ. فقال عمر: «إنّ الناس لايصلح لهم إلاّ هذا، ولو علموا ما لهم عندي لأخذوا ثوبي من عاتقي»[٢]. فهو كان يعلم أيضاً أنّ الناس يخافون من غلظته وفظاظته[٣]. ويمكن أن تكون هذه المواقف في الأصل عقبةً أمام اعتراض الناس على عمله[٤]. وقبل ذلك، حينما نهى رسولُ الله ﷺ الرجالَ عن ضرب نسائهم، طلب منه عمر أن يأذن لهم بذلك، بَيْدَ أنّه ﷺ لم يرضَ[٥].

وأشرنا إلى أنّ تصوّره عن الدين كان متأثّراً بهذه الروحيّة، إذ جعلته شخصيّةً مُفرطة، وإصراره على ضرب ولده حتّى الموت لشربه الخمر يدلّ على هذا الأمر، وكان شديداً على النساء أيضاً، ولم يأذن لهنّ بحضور صلاة الصبح ولا العشاء. وقَطعُهُ سهمَ المؤلّفة قلوبُهم ينطلق من طبيعته هذه. وكان يهتمّ بالجهاد من بين أحكام الإسلام أكثر من كلّ شيء، على الرغم من أنّه لم يتمتّع بشجاعة عسكريّة محسوسة[٦]! ولهذا السبب أسقط فقرة حَيَّ عَلى خيرِ العَمَل من الأذان، وحجّته الوحيدة في ذلك هي أنّ الناس يمكن ألاّ ينفروا إلى

١ - تاريخ المدينة المنوّرة ٢: ٨٤١.
٢ - نثر الدرّ ٢: ٣٥؛ عيون الأخبار ١: ١٢.
٣ - حياة الحيوان ١: ٤٩.
٤ - انظر: نثر الدرّ ٤: ٣٤ ـ ٣٥.
٥ - الطبقات الكبرى ٨: ٢٠٥.
٦ - الأغاني ٦: ٢٧٩.

الجهاد بوجودها، واستبدل بها فقرةً أُخرى وهي «الصلاةُ خيرٌ من النـوم»! فـي حين أنّ الإمام السجّادعليه السلام وعبد الله بن عمر كانا يعتقدانِ أنّ «حَيَّ عَلـى خَيـرِ العمل» جزءٌ من الأذان[١]، كما كان أبوحنيفة يعتقد أنّ فقرة «الصـلاةُ خيـرٌ مـن النوم» تُزاد بعد الأذان، لأنّها ليست جزءاً منه[٢].

ومهما كان، فإنّ عمر كان شديداً غليظاً في تعامله مع النـاس، هـذا علـى الرغم من أنّه كان يسعى إلـى العمـل فـي نطـاق الخلافـة لا السـلطنة. ومـن المناسب هنا أن ننقل كلام عتبة بن غزوان الذي حكم البصرة ستّة أشهر فقط في عهد عمر، وكان آمراً على القوّات البصريّة؛ فقد قال مشيراً إلـى المشـاكل الاقتصاديّة أيّام رسول اللهصلى الله عليه وآله وفقر الصحابة قياساً بالوضـع القـائم أيّـام عمـر الذي صار الصحابة في عهده أُمراء على الأمصار: «... وإنّه لـم تكـن نبـوّةٌ إلاّ تناسَخَها مُلك، فأعوذ بالله أن يدركنا ذلك الزمان الذي يكـون السـلطان مُلكـاً، وأعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وفي أنفس النـاس صـغيراً، وسـتجرّبون الأُمراء بعدنا وتجرّبون، فتعرفون وتنكرون»[٣].

وكان استبدال «الملكيّة» بـ«الخلافة» تصوّراً عامّاً في الحقيقة عند كثير من الناس، وكان عمر يقول عن نفسه بأنّه لايدري أخليفة هـو أم مَلِـك؟ فطمأنـه كعب الأحبار بأنّه خليفة، وأنّه وجد اسم عمر في الكتب السماويّة الماضـية[٤]! ويبدو أنّ أبا بكر كان يرى نفسه مَلِكاً أيضاً[٥].

---

١ - **هويّة التشيّع**: ٤٧ - عن: **سنن البيهقيّ**، **وابن أبي شيبة**، **وإحكـام الأحكـام** ، للمحـبّ الطبـريّ الشافعيّ، وابن حزم.

٢ - نفسه: ٤٦ عن «**تيسير الأصول**».

٣ - **الطبقات الكبرى** ٧: ٦ ـ ٧.

٤ - **حياة الصحابة** ٢: ٣٦؛ **التراتيب الإداريّة** ١: ١٣؛ **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢١١. (وقد جاء اسم سـلمان في هذا المصدر)؛ **الطبقات الكبرى** ٣: ٣٠٦.

٥ - **حياة الصحابة** ٣: ٤٧٥ ـ ٤٧٦.

ومع حدّة عمر، كان هناك من يجرؤ على انتقاده، فقد قال له بلال الحبشيّ مرّةً بعد أن كان يؤذّن، واعترضه عمر بأنّ وقته لم يَحِنْ: «لأنا أعلمُ بالوقت منكَ، إذ أنت أضلُّ من حمار أهلك»[1]. وعمر نفسه كان يقول: «من رأى منكم فيّ عوجاً فليقوّمْه، فقال له أعرابيّ: لو رأينا فيك عوجاً لقوّمناه بسيوفنا، فقال: الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوّم عوج عمر بسيفه»[2]. مع هذا، كانت عائشة بنت عثمان تعتقد أنّ حدّة عمر منعت المسلمين من انتقاده[3]، كان ذلك قياساً بأبيها الذي كان يقال فيه: إنّ ضعفه أمام عدوّه سبّب كثرة الطعون فيه. وكان عمر ذاته يُقرّ بأنّ إصلاح أمّة محمّدﷺ يتحقّق بالقوّة في غير عُنف، وباللّين في غير ضعف، وبالجود في غير سرَف، وبالإمساك في غير بخل[4]. ويجب أن نُقرّ بأنّ التعامل مع مجتمع بدويّ لم يكن أمراً يسيراً، وربّما تاهت عليه الحكمة كيف يتعامل مع مجتمع كهذا!

وكان لطبيعته الحادّة مؤشّرٌ خاصٌّ من الوجهة الاقتصاديّة أيضاً، فقد رضي بالحياة البسيطة لنفسه وولاته وأُسرته. وكان التأسّي بحياة رسول اللهﷺ ما زال جاريّاً بين الناس، وإن سلك بعض الحاكمين سبيلًا آخر على تواتر الأيّام. ومضافاً إلى أنّ عمر كان متأثّراً بتلك الأُسوة، كان يحمل أيضاً تصوّراً زهديّاً مفرطاً للدين، وأمارة هذا التصوّر فهمُه للآية الكريمة: ﴿**أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا**﴾[5]، إذ أباحها للمسلمين. واعتُرض عليه في هذا الموضوع

١ – **مختصر تاريخ دمشق** ٥: ٢٦٧.
٢ – **تفسير المنار** ١١: ٢٦٦.
٣ – **نثر الدرّ** ٤: ٣٤.
٤ – **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ٨٧٩؛ وانظر: **الطبقات الكبرى** ٣: ٣٤٤ ـ ٣٤٥.
٥ – **الأحقاف**: ١٩.

أيضاً، وحين علم أنّ الآية المذكورة نزلت في الكفّار، قَبل ذلك[1]. ولم تَغْنِ حياته الزهديّة أنّه لم يمتلك ثروةً أيّام خلافته، بل جاء في المصادر أنّه كان من أثرياء قريش[2]، وقد سُئل نافع: «هل كان على عمر دَين؟ فقال: ومن أين يَدَع عمرُ دَيناً وقد باع رجلٌ من ورثته ميراثه بمائة ألف (درهم أو دينار)»[3]؟! وكان عمر قد جعل مهر امرأته أربعين ألف درهم![4] ووهب لصهره مرّةً عَشَرَةَ آلافِ دِرهم من ماله[5]! وكان سلمان أزهدَ منه، إذ كان ينهاه عن الترف[6].

ولاة عمر

لمّا اتّسعت الفتوحات في هذا العصر انضوت أمصار كثيرة إلى حكومة المدينة، فاحتاجت إلى من يتولّى أمرها فيديرها على أساس القيم الجديدة، ويمهّد الطريق لفتوحات أكثر فأكثر. وأهمّ ما كان يخالج الخليفةَ والمسلمين في تلك الظروف هو توسيع رقعة الأمصار المفتوحة، وكان يُختار للأمصار المتاخمة للبلاى الأخرى بشكل رئيس رجال من أُولي القوّة والتجربة العسكريّة الوافية، وهكذا كان من المعايير الأصليّة للخليفة في اختيار الوالي هو تمتّعه بتلك القوّة وحسن إدارته للمنطقة الخاضعة لسلطته.

وفيما يأتي فهرس بأسماء ولاة عمر على الأمصار: مكّة: محرز بن حارثة... بن عبد شمس؛ قنفذ بن عُمير التَّيميّ؛ نافع بن عبد الحارث

---

١ - **شرح النهج** ١: ١٨٢.

٢ - **كشف الأستار** ٢: ٣٠٣؛ **حياة الصحابة** ١: ٣٤٧ (عمر من أكثر قريش مالًا).

٣ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ٩٣٥؛ **جامع بيان العلم** ٢: ١٧.

٤ - **الطبقات الكبرى** ٨: ٤٦٤؛ **التراتيب الإداريّة** ٢: ٤٠٥؛ **البحر الزخّار** ٣: ١٠١؛ **أنساب الأشراف** ٢: ١٩٠؛ **مصنّف ابن أبي شيبة** ٤: ١٩٠.

٥ - **تاريخ الخلفاء**: ١٢٠؛ **كنز العمّال** ٢: ٣١٧؛ **حياة الصحابة** ٢: ٣٥٦.

٦ - **مختصر تاريخ دمشق** ١٠: ٤٦.

الخزاعيّ؛ خالد بن العاص المخزوميّ. اليمن: عبد الله بن أبي ربيعة المخزوميّ. البحرين: علاء الحضرميّ؛ قُدامة بن مظعون؛ عثمان بن أبي العاص؛ أبوهُرَيرة الدوسيّ؛ عيّاش بن أبي ثور. عمان: رجل من الأنصار وبعده: عثمان بن أبي العاص. البصرة: شُرَيح بن عامر؛ عتبة بن غزوان؛ المُغيرة بن شعبَة؛ أبو موسى الأشعريّ. اليمامة: سَلَمة بن سلاّمة الأنصاريّ. الكوفة: سعد بن أبي وقّاص؛ عمّار بن ياسر؛ جُبَير بن مُطعِم؛ المُغيرة بن شُعبة. الطّائف: عثمان بن أبي العاص؛ سفيان بن عبد الله الثقفيّ. الشّام: أبوعبيدة بن أبي الجرّاح؛ مُعاذ بن جبل؛ يزيد بن أبي سفيان؛ معاوية بن أبي سفيان[1].

فلسطين: يزيد بن أبي سفيان؛ عمرو بن العاص. مصر: عمرو بن العاص. الجزيرة وآذربايجان: عَياض بن غُنم؛ حبيب بن مَسْلمة الفِهريّ؛ عُمير بن سعد الأنصاريّ[2]. وقيل: وَليَ سلمانُ المدائن[3].

ويظهر من هذه الأسماء أنّ عمر لم يستعمل وجوه الصحابة في إدارة الأمور إلّا نادراً، وكان هذا الأمر بَيّناً آنذاك، وعندما سُئل عن سبب ذلك ذكر بأنّه يكره أن يدنّسهم بالأعمال التي يَلُونها[4]، وقد نقل هذا الموضوعَ سائر المؤرّخين أيضاً.

وأغلب الأجوبة هو عين ما ذُكر[5]، لكنّ الشعبيّ المصدر الموثوق عند

---

١ - نصّ خليفة بن خيّاط على أنّ معاوية صار حاكماً على بلاد الشام كلّها في السنين الأخيرة من خلافة عمر.

٢ - **تاريخ خليفة بن خيّاط**: ١٥٣ـ ١٥٦.

٣ - **مروج الذهب** ٢: ٣٠٦.

٤ - **الطبقات الكبرى** ٣: ٤٩٩.

٥ - **الكامل في التاريخ** ٢: ٣٦١؛ **تاريخ الخلفاء**: ١٠٦.

السُّنَّة قال: كان عمر لايأذن للمهاجرين بالخروج من المدينة، وكان يقول لهم: «إنّ أخوفَ ما أخاف على هذه الأمّة انتشاركم في البلاد». وأضاف أنّه كان يقول لمن يستأذنه منهم بالقتال: «قد كان في غزوك مع رسول الله ﷺ ما يبلّغك»[1]. وقال الحسن البصريّ أيضاً: إذا قصد صحابيّ الخروج من المدينة فعليه أن يستأذن عمر[2]. والحؤول دون خروج الصحابة - كما ذكر بعض - لم يتوقّف على قريش وحدها، بل كان عمر ينهى عن خروج كلّ صحابيّ يمكن أن يصير قطباً ومحوراً في المدينة التي يحكمها، ومن ثَمّ يقف أمام الخليفة معارِضاً يوماً ما! ولهذا المنع سبب آخر أيضاً، وهو أنّ عمر كان لايريد لحديث رسول الله ﷺ أن ينتشر في الأمصار. نقل الخطيب البغداديّ أنّ عمر بعث إلى أبي الدرداء، وإلى أبي مسعود الأنصاريّ، وإلى عبد الله بن مسعود فقال: «ما هذا الحديث الذي تُكثرون عن رسول الله ﷺ؟! فحبسهم بالمدينة حتّى مقتله»[3]. وأورد الخطيب أنّ قَرظَة بن كعب قال: «خرجنا فشيّعَنا عمر... ثمّ قال لنا: أتدرون لِمَ خرجتُ معكم؟... قال: إنّ مع ذاك لَحاجةً خرجتُ لها، إنّكم تأتون بلدةً لأهلها دويٌّ بالقرآن كدويّ النَّحْل، فلا تصدّوهم بالأحاديث عن رسول الله ﷺ وأنا شريككم، قال قرظة: فما حدّثتُ بعده حديثاً عن رسول الله ﷺ»[4].

وكان منع الصحابة من الخروج وترك استعمالهم في الأعمال سياسةً واكبها عمر بدقّة، وتقصّى رجال كالشعبيّ مشكلة عثمان في سياسته التي كانت معاكسة لسياسة عمر. وقيل: لمّا استأذن الزبيرُ عمرَ في حضور

١ - تاريخ الطبريّ ٤: ٣٩٧؛ شرح النهج ٢: ١٥٩ ـ ١٦٠.
٢ - تاريخ الطبريّ ٤: ٣٩٦.
٣ - شرف أصحاب الحديث: ٨٧
٤ - نفسه ٨٨

الحروب، قال له عمر: لا آذن لصحابة رسول اللهﷺ أن ينتشروا في الأمصار فيُضلّوا الناس[١]! وكذلك أنكر عليه توليته يزيدَ بن أبي سفيان وسعيد بن العاص ومعاوية، وفلاناً وفلاناً الذين كانوا من «المؤلّفة قلوبهم» ومن «الطُّلَقاء»، وتَرْكَه عليّاً والعبّاس والزبير وطلحة! فقال: بأنّه يخشى من أن ينتشروا في الأمصار فيُفسدوا فيها![٢] وسأله عبد الرحمان بن عوف يوماً عن سبب إحجامه عن الإذن لهم بالجهاد، فقال: «لأن أسكتَ عنك فلا أُجيبَك خيرٌ لك من أن أُجيبك»[٣]. والتوجيه الذي ذكره أحمد أمين لهذا العمل هو أنّ أهَمّيّة المدينة دفعت عمر إلى إبقائهم فيها[٤]، توجيه مرفوض؛ لأنّ هذا الرأي يختلف عن رأي الشعبيّ وكذا الحسن البصريّ! قال ابن سعد في خبر له: ولّى عمرُ رجالاً مثل عمرو بن العاص ومعاوية والمُغيرة، لكنّه ترك عثمانَ وعليّاً وطلحةَ والزبير وعبد الرحمان بن عوف ونظراءَهم؛ ذلك أنّ الطائفة الأولى كانت قويّة على العمل، بصيرة بالأمور، ثمّ إنّ عمر كان مشرفاً عليهم وهم يهابونه. وحين سُئل عمر عن تركه كبار الصحابة قال: «أكره أن أُدنّسهم بالعمل»[٥]! وكان عمر يستحسن الولاة المتشدّدين وإن لم يكونوا من أهل التقوى.

ومن الأمصار التي سبّبت له مشكلةً: الكوفةُ الحديثةُ التأسيس، وقد حكمها سعد بن أبي وقّاص زمناً، ثمّ عُزل حين شكاهُ الناس، وجاءَ بعده عمّار بن ياسر، واتُّهم بالضعف فعزله عمر أيضاً، ثمّ وَلِيَها جُبَير بن مُطعم لكنّه لم يستطع البقاء فيها أيضاً، فحار عمر حيرةً شديدة، وسأل المغيرةَ عن

---

١ - **شرح النهج** ٢٠: ٢٠.
٢ - نفسه ٩: ٢٩ ـ ٣٠؛ وانظر: **الفتنة الكبرى**: ٨٠ ـ ٨١.
٣ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٥٨؛ وجاء فيه أنّه قال: لاتخرجوا! فتسلكوا بالناس يميناً وشمالاً.
٤ - **فجر الإسلام**: ١٧٢.
٥ - **الطبقات الكبرى** ٣: ١٨٣، ٢٨٣.

الشخص الذي يناسب الكوفة، فقال: «ولّني، فقال له عمر: أنت رجل فاسق! فقال: وما عليك منّي؟ كفايتي ورَجلتي لك، وفِسقي على نفسي! فولّاه الكوفة»[١]. وكان المُغيرة من قبلُ قد حكم البصرة حيناً، وفيها باشر امرأةً مُحصَنَةً تُسمّى أمَّ جميل، وبلغ عمله هذا من الشهرة حدّاً أنّ أربعةً رأوه يزني بها، إلّا أنّ واحداً منهم فقط شهد عليه عند عمر شهادةً ناقصةً، فخلّصه من الرجم، واتّفقت المصادر على أنّ الشاهد أدلى بشهادة ناقصة بتحريض عمر إيّاه وحمله على ذلك[٢]!

وسيرة عمر هذه هي التي دفعت حُذَيفةَ بن اليمان إلى أن يُنكر عليه مرّةً توليةَ رجلٍ فاجرٍ فاسق، فقال عمر: «إنّي أستعمله لأستعين بقوّته»[٣]، وعندما جاء المدينةَ أحدُ ولاة أبي موسى الأشعريّ وكان يحكم احدى مناطق البحرين، سأل مِرفأ بوّابَ عمر: «أخبرني أيّ الهيئات أحبُّ إلى عمر؟ فقال: الخشونة! فقال الرجل: حين حضرت عند الخليفة تظاهرتُ بالخشونة، فلم تأخذ عينُه أحداً غيري، فدعاني... فقال: وما تتولّى من أعمالنا؟ قلتُ: البحرين... قال: إرجع إلى موضعك»[٤].

إنّ احدى النقاط المهمّة بشأن ولاة عمر إشرافُه على سيرتهم مع الناس، ومع بيت المال أيضاً، فكانت له رقابة خاصّة عليهم، وكان يضبط ثروتهم عند ذهابهم إلى محلّ عملهم، وقد خطّأهم جميعاً في هذا المجال تقريباً[٥]، وكان

---

١ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٥٥؛ **العقد الفريد** ١: ٢٢؛ **نثر الدرّ** ٢: ٨٠.

٢ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٤٦؛ **مصنّف عبد الرزّاق** ٧: ٣٨٤ ـ ٣٨٥؛ **الأغاني** ١٦: ٩٤؛ وللاطّلاع على أمثلة أخرى ينظر: **مصنّف عبد الرزّاق** ٧: ٢١٧– ٢١٩.

٣ - **غريب الحديث** ٣: ٢٣٩؛ **الفائق** ٣: ٢١٥.

٤ - **العقد الفريد** ١: ١٤ ـ ١٥.

٥ - على سبيل المثال اتّهم أبا هريرة بالسرقة. انظر: **الطبقات** ٤: ٣٣٥.

يشاطرهم أموالهم بعد رجوعهم، فيعطيهم شطراً ويُودع الشطر الآخر في بيت المال، ويُصطَلح على هذا العمل «مشاطرة الأموال». وهكذا كان طبيعيّاً أن يعتقد أنّهم جمعوا الأموال باطلًا، لكنّه لمّا لم يجد سبيلاً خاصّاً إلى فرزها وتمييزها، فحظر في باله أن يقسّمها بالشكل المذكور إلّا في بعض الحالات.
وكان من هؤلاء أبوهريرة الذي ولّيَ البحرين، فحين رجع إلى المدينة شاطره عمر أمواله وأمر بمعاقبته، وبعد ذلك طلب منه أن يعود إلى عمله![1] فرفض أبوهريرة؛ لأنّ أمواله ذهبت وافتضح أمره في آن واحد، ويضاف إلى ذلك أنّه جُلِدَ أيضاً[2]! وشُوطرت أموال عَمْرو بن العاص أيضاً[3]، وكذلك شوطرت أموال أبي موسى الأشعريّ، والحارث بن كعب، وعُتبة بن أبي سفيان الذي كان مسؤولًا عن جمع الصدقات في الطائف[4].

وكان أبو بكرة من ولاة عمر الذين شُوطرت أموالهم، فاعترض عليه قائلاً: إذا كان هذا المال كلّه لله، فلِمَ لا تأخذُه كلَّه؟! وإذا كان لنا فَلِمَ تفعل ما نراه؟![5] ومرّ بنا أنّه كان يُعيد الولاة إلى أعمالهم بعد مشاطرة أموالهم. وكان للإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام انتقاده الصريح لعمر، بخاصّة إعادتهم إلى أعمالهم، ومثال ذلك أنّ والي عمر على اليمن جاء وعليه حُلّةٌ جميلة، فأمر بنزعها، ثمّ أرجعه الى عمله.[6] وبلغه مرّةً أنّ واليه على حمص بنى له داراً جميلةً وجعل عليها بوّاباً، فبعث إليه من أحرق داره، ثمّ أعاده إلى عمله بعد

١ - عيون الأخبار ١: ٥٣ - ٥٤؛ فتوح البلدان: ٩٣؛ العقد الفريد ١: ٤٥.
٢ - الطبقات الكبرى ٤: ٣٣٥.
٣ - شرح النهج ١: ١٧٥.
٤ - العقد الفريد ١: ٤٦.
٥ - نفسه.
٦ - نهج السعادة ١: ١١٢.

حين،[1] وقد شملت هذه المشاطرة رجالًا من أمثال سعد بن أبي وقّاص أيضاً. وقد قدّم لنا البلاذريّ فهرساً بأسماء الحكّام الذين فُعل بأموالهم مثل ذلك، وهم: نافع بن الحارث، ونفيع بن الحارث، وبِشْر بن المعتفر، وجزّ بن معاوية، وخالد بن الحارث، وقيس بن عاصم، وسَمُرة بن جُندب، ومجاشع بن مسعود، وشبل بن معيد، وأبو مريم بن محرش. وكان هؤلاء - كما قال البلاذريّ - مسؤولين غالباً عن الأموال والصدقات في الأمصار.[2] ولم يرد في عداد هؤلاء رجال كسلمان الفارسيّ، أو عمّار بن ياسر.

وكان الإشراف المتظاهَرُ به على عمل الولاة مبدأ مسنوناً في سياسة عمر، حتّى لُوحظ هذا الإشراف وتلك القسوة في المجال الماليّ أكثر من غيره، فحين بلغ عمرَ أنّ عمرو بن العاص أخذ من بيت المال، كتب إليه يخبره أنّ عدداً من المهاجرين الأوّلين كانوا عنده وهم خيرٌ من ابن العاص، لكنّه قلّده مصرَ رجاءَ غنائهِ، ثمّ وجّه إليه محمّد بن سلمة ليشاطره أمواله.[3] وورد في خبرٍ آخر أنّ عمر سمع أنّ عياض بن غنم قد أُترف، فلبس الليّن وأكل الطيّب من الطعام، فبعث اليه محمّدَ بن مَسلمة ليأتي به إليه، ولمّا أُتي به أمر له بعصا وكساء، ثمّ سلّمه ثلاثمائة شاة ليرعاها، فرعى شهرين، ولمّا أراد أن يتخلّص من هذا العمل بوساطة امرأة عمرٍ، وبلغ عمرَ ذلك، غلظ على امرأته وقال لها: «إنّما أنتِ لعبةٌ يُلعَبُ بكِ، ثُمّ تُتركين! ومتى كنتِ تدخلين بيني وبين المسلمين»! وبعد ذلك ردّه بوساطةٍ من عثمان وأخذ عليه عهداً ألّا يعود إلى

١ - **حياة الصحابة** ٢: ٢١٠؛ عن: **كنز العمّال** ٣: ١٦٦.

٢ - **فتوح البلدان**: ٩٠، ٢٦٦، ٣٩٦.

٣ - **شرح النهج** ١: ١٧٤.

ما كان عليه، فرضي عياض بذلك، ثم رجع إلى عمله.[١] وهذه القسوة المفرطة وإن كانت تخالف موازين الشرع لكنّها كانت ترعب عمّاله وتخوّفهم.

وكان عمر يذهب أحياناً مع شخصٍ آخر إلى بيوت عمّاله، وكان يسكت حتّى يستأذن صاحبه في الدخول، ثمّ يدخل هو وصاحبه بغتةً، وهكذا كان يسعى في أن يخيفهم ويرعبهم ويطأ صماخهم، خصوصاً من لايتّفقون معه فكريّاً تماماً[٢].

وعندما بلغه أنّ سعد بن أبي وقّاص بنى قصراً ووضع له باباً في خارجه أرسل إليه وهو بالكوفة من يُحرق ذلك الباب ويرجع[٣]؛ علماً أنّ بعض عمّاله كانوا في رفاهة من العيش لكنّه لم يتشدّد معهم كثيراً، ومثالهم: عمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان ومعاوية بن أبي سفيان[٤]. ويمكن أن يكون ذلك نابعاً من انسجامهم معه فكريّاً ومن حبّه لهم أيضاً! على سبيل المثال كان يحبّ أنس بن مالك حبّاً خاصّاً، ففي عهد أبي بكر طلب أنس وهو شابٌّ من عمر أن يعيّنه في الشؤون الماليّة، ولمّا ولي عمر ورجع إليه أنس بأموال معه وهب له تلك الأموال.[٥] وحين بلغه أنّ أبا موسى الأشعريّ جلد أحد المقاتلين وحلق رأسه، كتب إليه أنّه إن فعل ذلك علانيةً فليُقتَصّ منه علناً، وإن فعل ذلك في الخفاء فليُقتصّ منه في الخفاء أيضاً، ولمّا تهيّأ أبو موسى للقصاص عفا عنه ذلك الرجل.[٦] وهكذا كان يتظاهر بحسن السياسة، ويخيف عمّاله –

---

١ – **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ٨١٧؛ **شرح النهج** ١: ١٧٨ (باختلافٍ يسير).

٢ – **تاريخ المدينة المنوّرة**: ٣: ٨٣٦.

٣ – **الأخبار الطوال**: ١٢٤؛ **فتوح البلدان**: ٢٧٧.

٤ – انظر: **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ٨٣٣.

٥ – نفسه ٣: ٨٥٤ – ٨٥٥؛ **الإصابة** ١: ٨٥. في **تاريخ المدينة**: أنَس بن مالك، وليس زيد بن ثابت كما ذكر المؤلّف. المترجم.

٦ – **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ٨٠٩.

إلّا المنسجمين معه تماماً - أيّما إخافة.

على أيّ حال، أكثرت المصادر من ذكر أوامره وكتبه إلى الولاة، ومؤاخذته لأمراء الأمصار[١]. إلّا أنّ هذا الوضع لم يَدُم بعده مهما كان السبب، فقد ترك عثمان عمّاله وشأنَهم خلال حكمه المتمادي. وحال هذا الوضع دون قيام شخصيّة كالإمام عليّ عليه السلام بالسيطرة على الأوضاع.

نقل أحدُ الرواة أنّ مالًا حُمِلَ إلى عمر، فأخذ ابنُه درهماً منه وضعه في فيه ثمّ سعى. فقام عمر يسعى خلفه حتّى أدركه... فانتزع الدرهم بلعابه... وأضاف: كنتُ عند عثمان وأُتي بمال، فأخذ منه ابنه، ثمَّ خادِمُهُ، فلم ينكر عثمان ذلك فبكيتُ، فسألني عمّا يُبكيني، فحدّثتهُ بحديث عمر. فقال: «إنّ عمر منع قرابته ابتغاءَ وجه الله عزّ وجلّ، وإنّي أُعطي قرابتي ابتغاء وجه الله عزّ وجلّ[٢]»! فإذا صحّ ذلك فلِمَ لم يحاسب عمر شخصاً من ولاته بشكل

١ - انظر: مجموعةً من هذه الأوامر والكتب والخطب في **شرح النهج** ١٢: ١٩٤ - ١٩٦. وكتب إلى أهل الأمصار: ألا وإنّي لا أُرسل عمّالي إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أُرسلهم إليكم ليعلّموكم دينكم وسنّتكم، فمن فُعل به سوى ذلك فليرفعهُ إليَّ لأقتصّ له، فقد رأيتُ رسول الله - صلّى الله عليه وآله - يقتصّ من نفسه: **شرح النهج** ١٢: ٢٢. وللاطّلاع على تشدّده الناتج عن عدم فهم الآيات القرآنيّة انظر: نفس المصدر ١٢: ١٥ - ١٧.

٢ - انظر: **الأمالي في آثار الصحابة**: ٥٣ - ٥٤؛ إنّ التراث الّذي يعرّفه أهل السنّة باسم «سيرة الخلفاء الراشدين»، سوى ما روي عن الإمام عليّ عليه السلام وانعكس في الثقافة الشيعيّة غالباً، هو ما أُثر عن عمر لا عن أبي بكر وعثمان، وما نقله التاريخ من هذا التراث كثيرٌ. وقد أخذ أهل السنّة مقبولاته الواردة في كتب عمر وكلماتِهِ القصار. ولا بدّ من الإقرار بأنّنا إذا تغاضينا عن القضايا الخاصّة للخليفة فيما يرتبط بالإمامة، وبني هاشم، وبعض الأحكام الفقهيّة والقيم الدينيّة، فإنّ الذي تركه يتفوّق على ما أُثر عن سيرة عثمان، والأمويّين، وكثير من العبّاسيّين. وكان تصوير هذا التراث لافتاً لنظر طلّاب الإصلاح من أهل السنّة في كلّ زمان ولا يتسنّى إنكارهُ. انظر: «تاريخ فلسفه در إسلام» (تاريخ الفلسفة في الإسلام)، ج٢. وتتوكّأ مقالة «التفكير السياسيّ في صدر الإسلام» أساساً على تلك المنقولات المأثورة عن عمر، وتقدّم لنا تصويراً مثاليّاً للحكومة الإسلاميّة ومبادئ السياسة الإسلاميّة؛ وكان الخليفة يعتقد أنّ أموال

ملحوظ؟! ومنهم معاوية بن أبي سفيان الذي تأخّر إسلامه عن إسلام أبيه، إذ كان تعيين معاوية حاكماً على دمشق خلال السنين الستّ الأخيرة من حكومة عمر أحدَ الموضوعات الحسّاسة في عهده، ولهذا اتُّهِمَ بأنّه كان له دورٌ كبير في تثبيت موقع بني أميّة في الشام.

ولم يعزله عمر، بل كان يسمّيه كسرى العرب[١]! وقد قال له مرّةً بأنّه لا يأمرُه ولا ينهاه[٢]. وفي عهد عمر نفسه خضعت بلاد الشام بأسرها لسلطة معاوية.[٣] وقال للشورى السداسيّة عند احتضاره: لاتختلفوا ومعاويةُ في الشام![٤] قال السنّيّ المتعصّب القاضي عبد الجبّار أيضاً: «وكان عمر كثير التصفّح لأحوال العمّال والاستبدال بهم، فما وَجَدَ عليه (على معاوية) ولا استبدل به».[٥] وكان أبو بكر الأصمّ المتكلّم يقول: كان معاوية محقّاً في قتاله لعليّ؛ لأنّ عمر هو الّذي كان نصبه[٦]!

وهكذا أصبحت سيرة عمر السياسيّة والدينيّة فيما بعد سُنّةً، فقد تنازع طلحة والإمام عليّ عليه السلام مرّةً على «مشربة» وعثمان ومعاوية حاضران، فقال معاوية: هل كان ذلك في زمان عمر؟ قالا: نعم، فقال: فهل يمكن تغيير شيءٍ

بيت المال ليست ماله الخاصّ، بل هي «مال الله» وقع في تصرّفه (**الطبقات الكبرى** ٣: ٢٧٥ – ٢٧٦)، وبينا كان عثمان ينظر إلى تلك الأموال بأنّها أمواله الخاصّة كان عمر يتجوّل في المدينة بوصفهِ «عسساً». (**الطبقات** ٣: ٢٨١).

١ – **نثر الدرّ** ٢: ٦١؛ **العقد الفريد** ٣: ٣٦٥.

٢ – **دلائل الصدق** ٣، ق١، ٣١٢، عن **الطبريّ** ٦: ١٨٤.

٣ – **تاريخ خليفة بن خيّاط** ١: ١٥٧. على عكس رأي ابن كثير الّذي كان يعتقد أنّ عمر فوّض إليه بعض مناطق الشّام. انظر: **البداية والنهاية** ٨: ١٢٤.

٤ – **نثر الدرّ** ٢: ٣٧.

٥ – **تثبيت دلائل النبوّة**: ٥٩٣.

٦ – **مسائل الإمامة**: ٦٠.

كان مسنوناً في عهده؟![1]

وكان قبل معاوية أخوه يزيد آمراً وحاكماً على مناطق من الشام، وهذا الأمر كان معروفاً منذ عهد أبي بكر، فحين ولّى أبو بكر خالدَ بنَ سعيد على الجيش في الشام، أصرَّ عمر على استبدال يزيد بن أبي سفيان بِهِ، ذلك أنّ خالد بن سعيد الّذي كان والياً لرسول الله ﷺ على اليمن رجع بعد وفاة النبيّ ﷺ وعتب على عليّ عليه السلام لاستخلاف أبي بكر، ولهذا السبب قدّم عمرُ يزيدَ بن أبي سفيان [الّذي كان من الطلقاء] عليه.[2] وبعد موت يزيد ولَيَ أخوه معاوية، وكان حاكم الشام في السنين الأربع الأخيرة من خلافة عمر.[3] وللجاحظ تعبيرات مهمّة عن مراحل توطيد موقع معاوية في الشام من عهد أبي بكر إلى عهد عثمان.[4]

وكان بين ولاة عمر من عُرِف بالفسق أيضاً غير المغيرة، ومنهم: قدامة بن مظعون الذي شرب الخمر وأُقيم عليه الحدّ[5]، وأنشد وال آخر له شعراً في الخمريّات، وهو النعمان بن عَدِيّ[6]، وبلغه أنّه يُحسن القيام بالأعمال لكنّه لم يحضر الصلاة[7].

ومن المناسب أن أُشير في ختام هذا القسم إلى ملاحظات أُخرى في اختيار الولاة الذين كان يريدهم الخليفة.. فقد دلّ في أوائل عمل العراق

---

١ - انظر: **أنساب الأشراف** ٤: ٤٩٩/ الرقم ١٢٨٦؛ وفي هذا الشأن أورد ابنُ عساكر شواهد متعدّدة: انظر: **مختصر تاريخ دمشق** ٢٥: ١٨ ـ ٢٥؛ وانظر: ص ٤٤ ـ ٧٣.

٢ - **مصنّف عبد الرزّاق** ٥: ٤٥٤.

٣ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ٨٣٨.

٤ - **رسائل الجاحظ**، الرسائل السياسيّة: ٣٤٤.

٥ - **الاشتقاق**: ١٣؛ **الفائق** ١: ٤٣١؛ **الطبقات الكبرى** ٥: ٥٦٠ ـ ٥٦١.

٦ - **نسب قريش**، لمصعب الزبيريّ: ٣٨٢.

٧ - **الطبقات الكبرى** ٥: ٥٦٠.

والشام على أنّه لو لم يجعل الأُمراء من كبار الصحابة، فعليه ألّا يتخطى قريشاً وحلفاءها كثقيف، وأحياناً الأنصار الذين كان يثق بهم. فعلى الرغم من أنّ المثنّى بن حارثة كان قد استحكم أمره في العراق، ويبدو أنّه نال الثقة أيضاً، امتنع من نصبه آمراً لحرب الفرس. وحين عتب عتبةُ بن غزوان مؤسّس البصرة على سعد بن أبي وقّاص لأمرهِ ونهيهِ، قال له عمر: لِمَ لا تريد إمارة رجلٍ من قريش؟ ويضاف إلى ذلك أنّه كان يحاول أن يختار ولاته من أهل الحواضر لا من أهل البوادي. ولمّا سمع أن عُتْبَةَ جعل مجاشع بن مسعود مكانه في البصرة، ومجاشع لم يكن حاضراً مؤقّتاً، نصب المُغيرةَ بن شعبة إلى أن يأتي مجاشع، قال: المغيرة خيرٌ من مجاشع لولاية البصرة؛ لأنّ مجاشع من «أهل الوبر» والمُغيرة من «أهل الحضر».[١] وكان المغيرة ثقفيّاً ساكناً في الطائف.

أفكار الخليفة الثاني

كان للخليفة الثاني تأثيره في الفكر السنّيّ أكثر من أيّ شخصيّةٍ أُخرى، ولمّا كان عهده بالغَ الأهميّة في تاريخ الإسلام من الوجهة التاريخيّة، فإنّ لفكره وعمله شأناً أيَّ شأنٍ عند المسلمين السنّة، وقد بلغ هذا الشأن مبلغاً أنّهُ عُدّ أُسوةً لم يخطأ قطّ، ويُستَنَد إلى قوله وفعله بوصفهما سيرةً وسنّةً شرعيّةً؛ ولهذا السبب يتعيّن علينا أن نتحدّث في هذا الموضوع.

إنّ مكانة عمر الرفيعة في الفكر الدينيّ السنّيّ لا تُقاس بها مكانةُ أحدٍ، فله في الأحاديث المنقولة في مناقبه مقامٌ دون مقام النبوّة قليلاً! حتّى ورد التعبير عن هذا المقام بـ«المحدَّث». وقيل في تفسير المحدَّث: إنّه الشخْصُ

١ - معجم البلدان ١: ٤٣٢.

الّذي يُلْهَم؛ فقد جاء في حديثٍ نقله البخاريّ ومسلم وغيرهما عن أبي هُريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: لقد كان فيمن كان قبلَكُم مِن بني إسرائيل رجالٌ يُكَلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أُمّتي منهم أحد فعُمر! وعلّق القسطلانيّ شارح كتاب البخاريّ على أنّ «إنْ» الواردة في الحديث للتأكيد، لا للترديد.

وإلى جانب هذه الأخبار المنقولة نجد تصويراً لأعمال الخليفة في عهد النبيّ ﷺ حكم فيها قبل أن يُنزِل الله سبحانه شيئاً بشأنها، ثمَّ أنزل الله فيها آيات من القرآن، وتُسمّى هذه الأمثلة: «مُوافقات عمر». ومن الطريف أنّنا نلحظ في بعض الأمثلة أنّ رأي النبيّ ﷺ كان يخالف رأي عمر، لكنّ الله أنزل آياتٍ تؤيّد رأي عمر! فقد نُقل عن عبد الله بن عمر قوله: إنّ الله لم ينزل آياتٍ من القرآن في أمرٍ كان عمر وغيره من المسلمين قد قالوا فيه شيئاً إلّا وتؤيّد رأيَ عمر وحده. ومن هذه الموافقات: الصلاة في مقام إبراهيم، وآية الحجاب، وأسرى بدر، وتحريم الخمر، وترك الصلاة على المنافقين، وغيرها. وأصبح من الواضح لنا كيف أوجب الفكر السنّيّ أن تكون منزلة عمر قريبة من منزلة النبوّة حتّى قدِّمت سيرته في العصور اللّاحقة على سيرة النبيّ ﷺ! وهنا يجب علينا أن نلتفت إلى أنَّ عمر بالقدر الّذي كان يبدو فيه قويّاً في عمله، كان ضعيفاً من الوجهة الفكريّة، فهو نفسه اعترف بهذا الأمر مراراً، واستمدّ الآخرين لحلّ مسائل كثيرة. وقد خصّص لهذا الأمر العلّامة الأمينيّ قُرابةَ نصف كتاب من الجزءِ السادس من موسوعة «الغدير» تحت عنوان «نوادر الأثر في علم عمر». وبسبب هذا الضعف في بُنيته العلميّة، كان عمر لا يرضى بالبحث أو الجدل الدينيّ كثيراً، فذات مرّة سأله شخص عن معنى

الآية ﴿والذّارياتِ ذَرواً﴾، فلم يكن من عمر إلّا أن ضربه[١].

إنّ احدى الخصائص الفكريّة الرئيسة للخليفة الثاني أنّه كان يرى صلاحيّاته هي صلاحيّات حاكمٍ كبير لدولة واسعة النّطاق، وكان يرى لنفسه حقّاً خاصّاً ليس في حيّز الشؤون السياسيّة والتنفيذيّة فحسب، بل في التشريعِ أيضاً؛ وصار يُبدع توَكُّؤاً على هذه الصلاحيّات ولم يجد نفسه مقيّداً بشيء إلّا بمعرفته العامّة بالقرآن والشرع، وحينما كان يعجز عن بعض المسائل كان يستشير الصحابة، ثمّ ينهض بالأعمال بعد مشورتهم.

ومن المناسب أن ننقل هنا حادثةً طريفةً رواها الطبريّ من أجل التعرّف على عقيدة الخليفة في صلاحيّاته.. فقد قال عمران بن سَواد: صلّيت الصبح مع عمر... ثمّ انصرف وقمتُ معه، فقال: أحاجة؟ قلتُ: حاجةٌ... نصيحةٌ! فقال: مرحباً بالناصح... قلتُ: عابت أمّتك منك أربعاً! قال: فوضع رأس دِرّته في ذقنه... ثمّ قال: هاتِ، قلتُ: ذكروا أنّك حرّمتَ العمرة في أشهر الحجّ ولم يفعل ذلك رسولُ اللهﷺ ولا أبو بكر، وهي حلال. قال: هي حلال، لو أنّهم اعتمروا في أشهر الحجّ رأوها مجزيةً من حجّهم... وذكروا أنّك حرّمتَ متعة النساء، وقد كانت رخصةً من الله... قال: إنّ رسول اللهﷺ أحلّها في زمانِ ضرورة، ثمّ رجع الناس إلى السعة... قلتُ: وتشكو منك نهر الرعيّة وعُنف السياقِ!... قال: أنا زميلُ محمّدﷺ... فوالله إنّي لأرتع فأشبع، وأسقي فأروي... وأُشهر العصا، وأدفع باليد، لولا ذلك لأعذرتُ.[٢]

وهنا ملاحظتان أساسيّتان في هذا الخبر الذي تؤيّده شواهدُ كثيرةٌ؛

---

١ – **الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية** ١: ٤١٥؛ **عقيدة السلف أصحاب الحديث** ، لأبي عثمان إسماعيل بن عبد الرحمان الصابونيّ: ٦٦ ـ ٦٨.

٢ – **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٢٥؛ **شرح النهج** ١٢: ١٢١ ـ ١٢٢؛ **الفائق في غريب الحديث** ١: ٤٣١ ـ ٤٣٤.

الأولى: لم ينكر عمر في جواب اعتراض عمران مخالفةَ عمله لرسول الله ﷺ، بل شرع يوجّهه ويسوّغه. الأخرى: بدأ جوابه عن الاعتراض الآخر لعمران بقوله: أنا زميلُ محمّد ﷺ، ويُستَعمل الزميل اليوم بمعنى الطالب الّذي معك في الصفّ، وفي القديم كان يُطلق على مَن يركب وراء أحدٍ على دابّةٍ أو على مَن يسافر مع شخصٍ آخر على بعيرين.

وتلا الجملةَ السابقة مباشرةً جملةٌ معترضة، وهي: وكان زامله في غزوة قرقرة الكُدر، وهذه الجملة لا تناسب جواب عمر عن الأسئلة المطروحة أبداً،[1] بل بالعكس، هي مضلّةٌ غاية الإضلال، وقد وردت هنا عمداً لتضليل الأذهان.

قال عمر: أنا زميل محمّد ﷺ؛ أي لي أن أفعل كما فعل رسول الله ﷺ من الأمر والنهي، والتحليل والتحريم. وهكذا يرى الخليفة حدود صلاحيّاته مساويةً لحدود صلاحيّات النبيّ ﷺ، ولا يعتقد شيئًا آخر غير القرآن الظاهر الذي يفسّره هو لنفسه.

إنّ ما ورد في نهي الخليفة عن نقل الحديث وتدوينه[2] يتطابق تماماً مع أفكاره، وكأنّه كان يعتقد أنّ القرآن وحده يمكن أن يكون ثابتاً، أمّا الحديث فليس له ذلك، فللحاكم في كلّ عصر أن يعمل بما يرى فيه المصلحة. بعبارةٍ أُخرى أنّ ما نُقل عن النبيّ ﷺ يرتبط فقط بصلاحيّاته كحاكم، وهذه الصلاحيّات هي له أيضاً بوصفه حاكماً لا غيره. وبعيدٌ أن نجد خليفةً آخر - إلّا عمرَ وعثمانَ - في الاعتقاد أنّ صلاحيّاته تبلغ حدَّ التشريع والتدخّل في العبادات. وهنا نسب نصر الله مُنشي في مقدّمة ترجمة «كليلة ودمنة» إلى عمر

---

١ - لابن أبي الحديد توجيهٌ أسوأ، انظر: ١٢: ١٢٤.

٢ - انظر: مقدّمتي لـ **تاريخ تدوين الحديث**.

قوله: «ما يزع السلطان أكثر ممّا يـزع القـرآن»[١]. وكـان قـد قطـع عمـر سـهمَ «المؤلّفة قلوبهم» الّذي كان رسول الله ﷺ يدفعه من الزكـاة، قـائلاً: لايُخشـى على الإسلام منهم[٢]. وكان يعتقد أنّ الجُنُب يحتاج إلـى المـاء، وإذا لـم يجـد الماء فلا تجب عليه الصلاة؛ وحين استشهد عمّار بن ياسر بسنّة النبيّ ﷺ في التيمّم، قال له عمر: اتّقِ اللهَ يا عمّار، فقال عمّار: «إنْ شئتَ لـم أُحـدّث بـه»[٣]! [بحديث النبيّ ﷺ]. والطريف أنّ عمر كان يكره التـيمّم فـي عهـد النبـيّ ﷺ أيضاً وعندما أجنب رفيقٌ له في سفرٍ من أسفاره وتيمّم، أنكر عليه عمر، ولمّا قدموا المدينة، شكاه عمر إلى رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: لو كنتُ مكانَك فعلـتُ مِثلَ الذي فعلتَ[٤]. علماً أنّه كان إذا لم يخطر في بالـه شـيء لجـأ إلـى السـنّة النبويّة[٥]. قال ابن عبّاس: كان الطلاق على عهد النبيّ ﷺ، وأبي بكـر، وسـنتين من خلافة عمر طلاقَ الثلاث واحدة، لكنّ عمر جعله ثلاثاً[٦] وروى مالك بـن أنس إمام المالكيّة أنّ عمر كان يأبى أن يـرث أعجمـيّ [مـن العـرب] إلّا أن يُولَد بين العرب[٧]!

كانت هذه اجتهادات الخليفة الخاصّة التـي كـان يمارسـها علـى أسـاس

١ – **الترجمة المذكورة**: ٤، إعداد مينوي.

٢ – **التراتيب الإداريّة** ١: ٢٢٨؛ **الإيضاح**: ٩٧.

٣ – **الغدير** ٦: ٨٣ ـ ٨٥ عن **سنن أبي داود** ١: ٥٣؛ **سنن ابن ماجة** ١: ٢٠٠؛ **مسـند أحمـد** ٤: ٢٦٥؛ **سنن النسائيّ** ١: ٥٩، ٦١؛ **سنن البيهقيّ** ١: ٢٠٩، ومصادر أخرى.

٤ – **فتوح مصر وأخبارها**: ٢٤٩.

٥ – انظر: **مسند أحمد** ١: ١٩٠، ١٩٥.

٦ – **مصنّف عبد الرزّاق** ٦: ٣٩٢ – ٣٩٣؛ **الغدير** ٦: ١٧٨ ـ ١٨٠ عن **مسند أحمـد** ١: ٣١٤؛ **صـحيح مسلم** ١: ٥٧٤؛ **سنن البيهقيّ** ٧: ٣٣٦؛ **مستدرك الحاكم** ٢: ١٩٦؛ **تفسير القرطبيّ** ٣: ١٣٠؛ **إرشاد الساري** ٨: ١٢٧؛ **الدرّ المنثور** ١: ٢٧٩، ومصادر أخرى.

٧ – **الموطّأ** ٢: ١٢.

«المصالح» التي كان يراها، فمتعة الحجّ ومتعة النساء اللّتان كانتا من أشهر المسائل الشرعيّة التي حلّلها رسول الله ﷺ، حرّمهما الخليفة،[١] قيل: كان عمر يرى أنّ أساس تحليلهما في عهد النبيّ ﷺ نوعٌ مِن الضرورة المؤقّتة. والمثال الآخر أيضاً إسقاط حيَّ على خيرِ العمل من الأذان.[٢] في حين كان رجالٌ من أمثال عبد الله بن عمر، والإمام السجّاد عليه السلام يقرأونها في الأذان دائماً.[٣] وقيل: كان عمر أوّلَ مَن سنّ القيام في شهر رمضان. وبدأه في السّنة الرابعة عشرة من الهجرة وكتب بذلك إلى جميع الأمصار[٤]. وهذا القيام هو صلاة التراويح التي ما زالت قائمةً عند السُّنّة. وما رآه عمر من الصلاحيّات له أدّى به إلى إصدار أحكام متناقضة، مثال ذلك بعض مسائل الإرث[٥].

وهذا التصرّف في الأمور العباديّة يمكن أن يستتبع تصرّفاً أكثر في الأمور غير العباديّة، فكان الخليفة لا يتجنّب التجديد، [في حين كان أمير المؤمنين عليّ عليه السلام يقوم أحسن قيام بحلّ المسائل المستحدثة، ولكنْ عبر التزامه بالنصّ دونَ أيّ شيءٍ آخر]، في حين أنّ الامتداد المفاجئ لرقعة الدولة الإسلاميّة في عهد عمر جعله يواجه قضايا كثيرة، من هنا أخذ يسعى غالباً إلى أن يجد حلًّا لها، حتّى لو كان ذلك عن طريق مشورة الصحابة. وهذه الحلول القائمة على أساس الميراث النبويّ من جهة، ومشورة الصحابة من جهة أُخرى، وآرائِهِ الخاصّة من جهةٍ ثالثة، أفضت إلى اتّساع نطاق الأجهزة الحكوميّة.

---

١ – للاطّلاع على مصادرهما في آثار أهل السنّة، انظر: **الغدير** ٦: ١٩٨ – ٢١٣. ويضاف إليه: **تاريخ المدينة المنوّرة** ١: ٧١٦ – ٧٢٠.

٢ – كان الإمام السجّاد عليه السلام يقول: رفع عمر حيَّ على خير العمل من الأذان كي لايضعف الناس عن الجهاد؛ كتاب العلوم [**أمالي أحمد بن عيسى**] ١: ٩٢.

٣ – **السيرة الحلبيّة** ٢: ١١٠.

٤ – **الطبقات الكبرى** ٣: ٢٨١.

٥ – **شرح النهج** ١: ١٨١.

يرى أحمد أمين في موازنته بين السياسة الناجحة التي انتهجها عمر ومعاوية، والسياسة التي انتهجها الإمام عليّ عليه السلام، أنّ المذكورَين كانا يتصرّفان في النصوص الدينيّة، في حين كان الإمام عليّ عليه السلام يتمسّك بها.[١] وذكر سهيل زكّار أيضاً أنّ عمر كان يرى أنّ من حقّه التشريع في المسائل الجديدة.[٢] وأوامره إلى شريح أن يعمل بالرأي لافتةٌ للنظر أيضاً.[٣]

لقد أشرنا إلى أنّ أحد الأصول في فكر الخليفة أنّه كان يحاول أن يجعل القرآن وحدَه حُجّةً، ولهذا لم يعتنِ بالحديث. وقوله: حَسْبُنا كتابُ الله[٤]، ورد في كثيرٍ من المصادر التاريخيّة والحديثيّة، ولا يعني إلّا الاستغناء عن الحديث. وهذا لاينافي أن لايأخذ الخليفة بما نُقل عن النبيّ صلى الله عليه وآله إذا لم يتوصّل هو نفسه إلى حلٍّ خاصّ، لكنّه في المقابل كان إذا رأى مصلحةً في شيءٍ، فإنّه يفعله حتّى لو ورد فيه سنّةٌ خاصّة عن النبيّ صلى الله عليه وآله تنهى عنه.

إنّ أحد الأمثلة البيّنة لهذا الأمر نصٌّ وصل إلينا عن النبيّ صلى الله عليه وآله في إمامة عليّ عليه السلام، فلم يعرض عن هذا النصّ عمر وحدَه، بل شاركه في ذلك عددٌ آخر من الصحابة لِمصلحةٍ زعموها!

---

١ - **ظهر الإسلام** ٤: ٣٨.

٢ - **تاريخ العرب والإسلام**: ٨٨.

٣ - **جامع بيان العلم وفضله**: ٧٠ ـ ٧٢.

٤ - قال عمر: هذا في قضيّة يوم الخميس، أي باليوم الذي طلب فيه النبيّ صلى الله عليه وآله دواةً وكتفاً ليكتب للناس ما لن يَضلّوا بعده. وبشأن مصادره انظر: البخاريّ، كتاب العلم، باب كتابة العلم؛ كتاب الجهاد، باب هل يستشفع إلى أهل الذمّة، وباب إخراج اليهود من جزيرة العرب؛ كتاب المغازي، باب مرض النبيّ صلى الله عليه وآله؛ كتاب المرضى، باب قول المريض: قوموا عنّي؛ كتاب الاعتصام، باب كراهية الخلاف؛ **مصنّف عبد الرزّاق** ٥: ٤٣٨، ٤٣٩؛ **مسند أحمد** ١: ٣٣٦؛ **دلائل النبوّة** ٧: ١٨٣؛ **جامع بيان العلم** ١: ٧٧؛ **كنز العمّال** ١٠: ٢٩٢، ح ٢٩٤٧٥. وللاطّلاع على مصادر كثيرة انظر: **تدوين السنّة الشريفة**، فهرس المصطلحات، ذيل مورد: حسبنا كتاب الله.

قال ابن أبي الحديد: سألتُ [أُستاذي عن النصّ على إمامة عليّ(عليه السلام) وقلت:]... ولكنّي أستبعد أن يجتمع الصحابة على دفع نصّ رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فقال: إنّ القوم لم يكونوا يذهبون في الخلافة إلى أنّها من معالم الدين... كالصلاة والصوم، ولكنّهم كانوا يُجرونها مجرى الأمور الدنيويّة... مثل تأمير الأمراء، وتدبير الحروب، وسياسة الرعيّة، وما كانوا يبالون في أمثال هذا مِن مخالفة نصوصه(صلى الله عليه وآله) إذا رأوا المصلحة في غيرها، ألا تراهُ كيف نصّ على إخراج أبي بكر وعمر في جيش أسامة، ولم يَخرجا لمّا رأيا أنّ مقامهما مصلحةٌ للدولة وللملّة؟ ... وقد كان رسول الله(صلى الله عليه وآله) يُخالَف وهو حيٌّ في أمثال ذلك فلا ينكره!... وقد أطبقت الصحابة إطباقاً واحداً على ترك كثير من النصوص لمّا رأوا المصلحةَ في ذلك، كإسقاطهم سهمَ ذوي القربى وإسقاطِ سهم المؤلّفة قلوبُهم... وقد عملوا بآرائهم أُموراً لم يكن لها ذكرٌ في الكتاب والسنّة، كحدّ الخمر... فرجّح كثيرٌ منهم القياس على النصّ... وكانوا يقفون مع نصوص الرسول(صلى الله عليه وآله) وتدبيراته إذا رأوا المصلحة في خلافها... [ويقولون]: افعلوا كذا إن رأيتمُوه مصلحةً... [وفي النصّ على عليٍّ(عليه السلام) قالوا:] وعلمنا [القائلان هما أبو بكر وعمر في الحقيقة] أنّ العرب لا تُطيعه [لعدّة أسباب]... فأصفق الكلّ إصفاقاً واحداً على صرف الأمر عنه لغيره؛ [لأنّ العرب لاتُطيعه]... وتأوّلوا عند أنفسهم النصّ، ولا ينكر النصّ، وقالوا: إنّه النصّ، ولكنّ الحاضر يرى ما لا يرى الغائب!...

وأعانهم على ذلك مسارعة الأنصار إلى ادّعائهم الأمر... فوثب رؤساء المهاجرين فبايعوا أبا بكر... وزعموا أنّهم أطفأوا بها نائرة الأنصار... [وأجابوا إنكارَ عليٍّ(عليه السلام)] إمّا أنّه حديث السنّ، أو تبغضه العرب... وأبو بكر شيخٌ مجرِّب للأمور... لايُبغضه أحد... ولو نصبنا عليّاً ارتدّ النّاس عن الإسلام...

فأيّما أصلح في الدين؟ الوقوف مع النصّ المفضي إلى ارتداد الخلق ورجوعهم إلى الأصنام والجاهليّة، أم العمل بمقتضى الأصلح واستبقاء الإسلام واستدامة العمل بالدين؟!... وسكت النّاس عن الإنكار... قال ابن أبي الحديد:... ولم يكن [النقيب أبوجعفر] إماميَّ المذهب، ولا كان يبرأ من السَّلَف، ولا يرتضي قول المسرفين من الشيعة، ولكنّه كلامٌ أجراه على لسانه البحثُ والجدل بيني وبينه.[1]

على أيّ حال، يتعيّن علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أنّ عمر تسلّم الخلافة في مرحلة كانت ضروريّةً لتوسيع التنظيمات الإداريّة للحكومة الجديدة، فاتّساع الفتوحات، والأمصار الخاضعة لحكومته، والحرب والسلم، كلٌّ ذلك دفعه إلى وضع القوانين والبتّ في الأمور. ذكر عبد الحيّ الكتّانيّ فهرساً لأعمال عمر في كتاب التراتيب الإداريّة. واتُّخِذ كثيرٌ من أعمال عمر طابعاً فقهيّاً، وجعلتها النصوص المتأخّرة لأهل السنّة أساساً لقوانين الفقه السنّيّ، فنجد أكثر فتاواه في كتاب المصنَّف لعبد الرزّاق الصنعانيّ، وقد جمعها ابن كثير أيضاً في كتاب عنوانه مُسند عمر.

واستُعمل لقبً «أمير المؤمنين» للخليفة أوّل مرّة في عهده، وكان قبل ذلك يخاطَب بـ«خليفة خليفة رسول اللهﷺ»، لكنّ ما جاء في الأثر هو أنّ اللّقب المذكور سمّاهُ به المُغيرة بن شُعبة، أو أبوموسى الأشعريّ، أو عَدِيّ بن حاتم، منذ سنة ١٧هـ.[2]

ومن أعماله الإداريّة التي كان لها تأثير مهمّ في إنشاء الدولة وتنظيم أمر

١- شرح النهج ١٢: ٨٢ - ٩٠.

٢ - تاريخ اليعقوبيّ ٢: ١٥٠؛ مروج الذهب ٢: ٣٠٥؛ الفتوح ١: ١٥٧.

الحكومة تشكيل «الدواوين» وتدوينها سنة ٢٠هـ[١]، وكان رسول الله ﷺ سبّاقاً إلى تسجيل أسماء المسلمين، بخاصّة المقاتلين منهم،[٢] فأمر عمر بتسجيل أسماء الصحابة، وتقسيمهم على الأساس القبليّ[٣] وسوابقهم الدينيّة، ثمّ بدأ بتوزيع الغنائم الوفيرة التي أغدقتها الفتوحات، وشرع ببني هاشم، وفيهم بنو عبد المطّلب.[٤] والفرق بين سياسة النبيّ ﷺ وأبي بكر[٥]، وبين سياسة عمر هو أنّهما قسّما الأموال بالتساوي، في حين فرّق عمر بين القبائل والسابقين إلى الإسلام قياساً بحديثَي العهد منهم. وقيل: إنّ عمر اعترض على المساواة الّتي انتهجها أبو بكر.[٦] وأدّى عمله هذا إلى ترسيخ التقسيم القبليّ بين العرب، وتفضيل بعض القبائل على بعض استناداً إلى هذا التقسيم. وما نقله المَقْدسيّ عن عمر من أنّه قال بأنّه أخذ العدالة من كسرى[٧]، يقوّي احتمال تأثّره بالنظام الطبقيّ الفارسيّ إلى حدٍّ ما، وإن كنّا لا نملك دليلًا آخر على هذا التأثّر. وقيل: إنّ عمر كان في آخر عمره شاكّاً في صحّة عمله هذا، وتمنّى أنّه لو بقي حيّاً لساوى بين الناس جميعاً.[٨]

---

١ – **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٥٣.

٢ – **التراتيب الإداريّة** ١: ٢٢٧، وذهب بعض الى أنّ رسول الله ﷺ هو الذي بدأ بتدوين الديوان، انظر: المصدر نفسه: ٢٢٨. وذهب بعضٌ آخر أيضاً إلى أنّ سياسة عمر في تدوين الديوان كانت متأثّرة بالنظام الإمبراطوريّ بالشام، انظر: **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٠٩. وهناك من يعتقد أنّها متأثّرة بالحكومة الساسانيّة، انظر: **الفخري**: ٨٣.

٣ – قال الكتّاني في تعريف الديوان: دفترٌ يُكتَب فيه أسماء أهل العطاء والعساكر على القبائل والبطون، انظر: **التراتيب الإداريّة** ١: ٢٢٥.

٤ – **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٥٣.

٥ – انظر: **التراتيب الإداريّة** ١: ٢٢٦.

٦ – **حياة الصحابة** ٢: ٢٢٢.

٧ – **أحسن التقاسيم**: ١٨.

٨ – **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٥٤.

وكان وضع تاريخ منظّم كضرورة للعمل الإداريّ قد تحقّق في عهده أيضاً، وأشرنا في موضع آخر إلى أنّه أثناء مشاورته الصحابة عمل برأي أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في اتّخاذ الهجرة النبويّة مبدأ لتاريخ المسلمين، وكان هذا العمل خطوةً مهمّةً في إقرار الانضباط الإداريّ.

واتّسع تقسيم الأعمال في إدارة الأمصار في زمانه أيضاً، وإن كان شكله البسيط قد بدأ منذ عهد النبيّ صلى الله عليه وآله، واتّخذ فصل القضاء عن الشؤون الماليّة وإدارة المدن وقيادة الحروب طابعه الأكمل تدريجاً.

وبشأن مصادر الفكر الدينيّ والسياسيّ للخليفة الثاني ينبغي الانتباه إلى أنّه كان يحاول أن يلقّح فكره من مصادر أُخرى عدا ما اكتسبه من التعليمات الإسلاميّة، ومن هذه المصادر علمُ أهل الكتاب الّذي كان عند اليهود في جزيرة العرب بنحوٍ وافٍ. ويجب الاعتراف قبل كلّ كلام بأنّ تُهمة الأخذ من المصادر اليهوديّة كانت شائعةً بين الفرق الإسلاميّة، ويعود معظم ذلك إلى أنّ اليهود كانوا مبغوضين بشدّة في القرآن الكريم وبين المسلمين. وحريٌّ بنا أن نعلم أنّ أهل الكتاب بعامّة، واليهود بخاصّة، قد تركوا آثاراً لهم في بعض النصوص التاريخيّة والحديثيّة. وهذا التأثير وإن كان في بعض الفرق أكثر إلّا أنّه قلّما سلمت منه فرقةٌ من فرق المسلمين. ومهما كان فإنّ في أيدينا نصوصاً تدلّ على أنّ أهل الكتاب ـ بما كان عندهم من العلوم السابقة والنفوذ الثقافيّ الذي ورثوه من العصر الجاهليّ ـ بذلوا جهداً بالغاً من أجل أن يحصلوا على موقعٍ لهم في المجتمع الجديد. وبين متونهم الدينيّة والمتون الإسلاميّة قواسم مشتركة كثيرة، استطاعوا من خلالها أن يزعموا أنّ عندهم معلومات ومعرفة بتفسير القرآن الكريم، ويضاف إلى ذلك أنّهم، باستغلال وجود العلم ببعثة النبيّ صلى الله عليه وآله في النصوص القديمة، وسّعوا أرضيّة ذلك إلى حدٍّ

تبدو فيه الكتب المقدّسة وكأنّها اشتملت على معلوماتٍ وافرةٍ عن تطوّرات المجتمع الإسلاميّ، وسيرة الخلفاء، ومختلف الوقائع والحروب. وتصديق المسلمين هذه المسألة يسّر الأمر على أهل الكتاب. ومن الأفضل أن نترك الكلام العامّ في هذا المجال، وهو ما صرّح به ابن خلدون في مقدّمة تاريخه أيضاً، ونعود إلى بحثنا الأصليّ.

عندما جاء المهاجرون إلى المدينة وانتشر الإسلام فيها، تهيّأ المجال لقيام علاقاتٍ ثقافيّة بين المسلمين واليهود بسبب نقاط الالتقاء بين ثقافتَيهما، فقد ورد في خبرٍ ما نصُّه: كانت اليهود يحدّثون أصحاب رسول الله [ﷺ]، ولمّا بلغ رسولَ اللهﷺ الخبر قال: «لاتصدّقوهم ولا تكذّبوهم»[١]. لكنّ الّذي يبدو هو أنّ هذا الأمر استفحل شيئاً فشيئاً حتّى بلغ مبلغاً أنّهﷺ نهى عن الإصغاء إليهم واستنساخ آثارهم.

وحين قدم الخليفة الثاني المدينةَ أراد أن يستفيد من أهل الكتاب لزيادة معلوماته الدينيّة والتاريخيّة، فقد قال: نسختُ لنفسي نسخةً من آثار أهل الكتاب، ولمّا رآها النبيّﷺ قال: ما هذا؟ قلتُ: نسخةٌ أخذتُها من أهل الكتاب لأزيد علمي. فاشتدّ غضب النبيّﷺ حتّى صاح الأنصار: «السلاح السلاح». ثمّ قالﷺ: إنّما بُعثتُ فاتحاً وخاتماً، وأُعطيتُ جوامع الكلم وفواتحه[٢]... .

وفي رواية أحمد بسنده، عن جابر بن عبد الله: أنّ عمر بن الخطّاب أتى النبيّﷺ بكتابٍ أصابه مِن بعض أهل الكتاب، فقرأه النبيّﷺ فغضب فقال:

---

١ - **مصنّف عبد الرزّاق** ٦: ١١١.

٢ - نفسه ؛ **لسان الميزان** ٢: ٤٠٨؛ وانظر: **نثر الدرّ** ١: ٢٠٧؛ **غريب الحديث** ٤: ٤٨ - ٤٩؛ **سنن الدارمي** ١: ١١٦؛ **مصنّف عبد الرزّاق** ٦: ١١٢ - ١١٣؛ **مجمع الزوائد** ١: ١٧٢ - ١٧٣، ١٨٤؛ **تقييد العلم**: ٥٢؛ (وفي هامش تقييد العلم عن:) **جامع بيان العلم** ٢: ٤٢؛ **أسد الغابة** ١: ٢٣٥، ٣: ١٢٦؛ **ذمّ الكلام**: ٦٤.

أمُتَهوِّكونَ فيها يا ابن الخطّاب؟! والذي نفسي بيده، لقد جئتُكم بها بيضاءَ نقيّة... والذي نفسي بيده، لو أنّ موسى كان حيّاً ما وَسِعه إلّا أن يتّبعَني.[١]

وفي خبر آخر أنّه قال للنبيّ ﷺ: إنّي مررتُ بأخٍ لي من قُرَيظة، فكتب لي جوامع من التوراة، أفلا أعرضها عليك؟ فغضب النبيّ ﷺ لذلك[٢]. قال الزهريّ: إنّ حفصة زوج النبيّ ﷺ جاءت إلى النبيّ ﷺ بكتاب من قصص يوسف في كتف، فجعلت تقرأ عليه والنبيّ ﷺ يتلوّن وجهه، فقال: «والذي نفسي بيده، لو أتاكم يوسف وأنا فيكم فاتّبعتموه وتركتموني لَضللتم[٣]. ولا يمكن أن تكون محاولة عمر وابنته قراءةَ صُحف أهل الكتاب في عهد النبيّ ﷺ على سبيل الصدفة، ويستبين هذا الأمر بما ذكره ابن شهاب الزهريّ حول تسمية عمر بالفاروق، فقد قال: إنّ أوّل من سمّى عمرَ بالفاروق هم أهل الكتاب، في حين لم يصل إلينا أيُّ خبرٍ حول تسمية النبيّ ﷺ إيّاه بهذا الاسم[٤].

ولمّا تسلّم عمر الخلافة فكّر في هذا الأمر ببالٍ رخيّ، وتمكّن من أن يفيد أكثر من يهوديٍّ يمانيٍّ أسلم فور التقائه به، وهذا الشخص هو كعب بن ماتع الحِمْيَريّ المعروف بكعب الأحبار[٥]. وأسلم في عهد أبي بكر أو عمر ثمّ قدم المدينةَ، وبعد ذلك استأذن الخليفة في الخروج إلى الشام، وكأنّ ذهابه إلى الشام صادف وذهاب الخليفة الثاني إلى بيت المقدس لتوقيع حلفٍ

١ - **مسند أحمد** ٣: ٣٨٧.

٢ - **مصنّف عبد الرزّاق** ٦: ١١٣.

٣ - نفسه ٦: ١١٤؛ ١١: ١١٠.

٤ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ١: ٦٦؛ **المنتخب من ذيل المذيّل**: ٥٠٤؛ وفي خبر أنّ كعب الأحبار قال لمعاوية: ذُكر اسم «عمر الفاروق» في التوراة! (**مختصر تاريخ دمشق** ٢١: ١٨٦).

٥ - للاطّلاع على حياته انظر: **الطبقات الكبرى** ٧: ٤٤٦ ـ ٤٤٧؛ **تهذيب الكمال** ٢٤: ١٩٣؛ **حلية الأولياء** ٦: ٤٥؛ **مختصر تاريخ دمشق** ٢١: ١٨١ ـ ١٨٢؛ **سير أعلام النبلاء** ٣: ٤٨٩. ويُذكر في الروايات القصصيّة أحياناً باسم «كعب الأخبار» تصحيفاً.

للصلح مع النصارى، فصحبه كعب، ومات هذا الرجل بحمص سنة ٣٢ أو ٣٣ في أيّام عثمان[١]، وشِيد له قبرٌ بمصر وعليه قبّةٌ عاليـة. وكـان مصـدَر ثقـة، إذ ملأت أخبارهُ كتب التفسير والتاريخ لقرون، [٢] بَيْد أنّ الدراسات الجديدة الّتـي جرت في هذا العصر أحاطـت وجهَـه الحقيقـيّ بهالـة كثيفـة مـن الغمـوض والإشكال، وعسّرت على علماء الرجال السنّة والمتخصّصين منهم في الـدين البتَّ في الأمور.

وكان كعب الأحبار يحظى بعناية الخليفة الثاني من جهة، كما عُدّ مصدراً مهمّاً لموضوعاتٍ اشتهرت فـي الثقافـة الإسـلاميّة بالإسـرائيليّات مـن جهـة أخرى، وهي أخبـارٌ نُقِلـت فـي الكتـب التاريخيّـة، والتفسيريّة، والعرفانيّـة، والأدبيّة من التوراة وغيرها من النصوص اليهوديّة بنحوٍ واسـع. وكـان كعـب الأحبار ووهب بن منبّه رُكنَـين أصـليَّين فـي بـثّ الإسـرائيليّات فـي الثقافـة الإسلاميّة، وصَعُبَ البتُّ في أمرهِ حينَ قويَ التيّار المضادّ للإسـرائيليّات بـين أهل السنّة.[٣] وعلينا أن لا نغفل أنّ أُناساً تَقوّلوا عليه وضخّموه أضعافَ ما نقله عن كتب السابقين، فقد قال فيه الذهبيّ: كان عالماً بكتـب اليهـود، ولـه ذوقٌ خاصٌّ في معرفة صحيحها وسقيمها[٤]. وفي هذا الحال وعلى الرغم من الأدلّـة الكافية، فإنّ بعض الأشخاص الّذين لايثقون بالإسرائيليّات، وبـهِ خاصّـةً، لـم يعتنوا بثقة الخليفة الثاني به.

---

١ - انظر: **أضواء على السنّة المحمّديّة**: ١٤٨، الهامش الثالث.

٢ - أكثر من نقل عنه هو أبونُعيم الأصفهانيّ في كتاب **حلية الأولياء** في ذيل ترجمته في الجزء ٥ و٦ ، إذ نقل عنه أخباراً استوعبت قُرابةَ مئة صفحة.

٣ - تحدّث أخيراً الشيخ محمود أبو ريّة أكثر من أيّ باحثٍ آخر عنه وعن دوره السلبيّ ونظـائره في مجال بثّ الإسرائيليّات. انظر: **أضواء على السنّة المحمّديّة**: ١٤٥ - ١٩٤.

٤ - **سير أعلام النبلاء** ٣: ٤٩٠.

قال ابن كثير: كان كعب الأحبار أفضلَ الّذين (اليهود الّذين أسلموا) نقلوا عنهم (عن مصادرهم)، أسلم في عهد عمر، وكان ينقل عن أهل الكتاب، واستحسنَ عمر بعض أخباره لأنّهُ مُؤَيَّدٌ بالحقّ، كما كان يريد تقريبَه، وبعد ذلك زاد نقل الناس عنه حتّى بالغوا في ذلك، وهو أيضاً نقل أباطيل كثيرة، وبعض كلامهِ حقٌّ.[١] يُلاحَظ هنا أنّ ابن كثير أقرّ ضمناً بأنّ عمر هو الذي جعل لكعب موقعاً بين الناس فجعلهم يُقبِلون عليه. وأدّت الهيمنة الثقافيّة لأهل الكتاب إلى تجمّع الناس حوله فور وصوله إلى المدينة، وطلبهم منه أن يقرأ لهم أخباراً من كتب الماضين حول الملاحم والفتن،[٢] والذي حمل الناس على أن يثقوا به هو أنّهُ كان يسند الموضوعات إلى كتاب الله المُنزَّل، والقصد من هذا الكتاب هو التوراة التي كان كعب يقول فيها لقيس بن خرشة: «ما من شبرٍ في الأرض إلّا وهو مكتوب في التوراة التي أُنزل على نبيّه موسى عليه السلام، ما يكون عليه وما يخرج منه إلى يوم القيامة»[٣].

وكان يبُثُّ الأخبار بين الناس بتأكيده أنّهُ ينقلها من كتاب الله، وكان الخليفة الثاني يفيد منه ومن معلوماته أكثر من غيره، ويُؤيّد ذلك هذه الإفادةَ العلميّة أمثلةٌ عديدة. قال هشام الكلبيّ: أصاب الناسَ جدبٌ في عهد عمر، فقال له كعب الأحبار: عندما كان يصيب بني إسرائيل ذلك يتوسّلون بأهل بيتِ نبيّهم ويقرأون دعاءَ الاستسقاء. وهذا ما جعل عمر يلجأ إلى العبّاس من أجل الاستسقاء[٤].

---

١ - **البداية والنهاية** ٢: ١٢٣.

٢ - **الفتوح** ٤: ٣٢٦ ـ ٣٢٨؛ **بحار الأنوار** ٤٥: ٣١٥.

٣ - **أضواء على السنّة المحمّديّة**: ١٤٨ نقلاً عن الطبريّ، والبيهقيّ، وكذلك **الاستيعاب** ٢: ٥٣٣؛ **الإسلام والحضارة العربيّة**: ١٦٤.

٤ - **أنساب الأشراف** ٣: ٧.

وكذلك طلب عمر من كعب أن يحدّثه عن موتهِ، فحدّثهُ عن حقيقة الموت، وفي أثناء حديثه جرت الدموع من عين عمر.[١] وسأله عمر في موطنٍ آخر: مَن الذي أعقب مِن وُلد آدمعليه السلام، فحدّثه مفصّلاً.[٢] ولمّا عزم عمر على التوجّه إلى العراق قال له كعب: لا تفعل، فإنّ فيها الدجّال، وبها مَرَدَةُ الجنّ، وبها تسعة أعشار السِّحر[٣]. وجاء في خبر سيف بن عمر: كان طاعون عمواس، فاستشار عمر مَن حوله في المُدُن، فأشاروا عليه، وفيهم كعب الذي أعاد ما قالهُ بشأنِ العراق.[٤] وقال عبد الله بن مسعود: كُنتُ أنا وكعب الأحبار عند عمر، فقال له كعب ائذَنْ لي أن أُحدّثك بأحلى ما قرأتهُ في كتب الأنبياء، فنقل له شيئاً منها كان في أكثر من صفحة.[٥]

وطلب عمر من كعب أنّ يحدّثه عن الكعبة، فقال له: بعث الله ياقوتاً مجوّفاً إلى الأرض[٦]... واعترض رجلٌ على كعب قائلاً: إنّك تُكثِر ذِكْرَ بيتِ المَقْدس ولا تُكثِر ذِكرَ هذا البيت![٧] وقيل: إنّ رجلاً استأذن عمر إلى بيت المقدس، فقال عمر: تجهّز، فإذا فرغتَ فآذِنّي. فلمّا فرغ جاءه، فقال له عمر: اجعلها عمرة[٨]! وكان كعب الأحبار جالساً في المسجد مرّةً، فدخل عمر وطلب منه أن يخوّفَه ويخوّفَ غيره قائلاً: يا كعب خوّفْنا[٩]. وقال عمر: قال

---

١ - حلية الأولياء ٥: ٣٦٥، ٦: ٤٤.

٢ - البدء والتاريخ ٣: ٢٦.

٣ - حلية الأولياء ٦: ٢٣؛ مصنّف عبد الرزّاق ١١: ٢٥١.

٤ - تاريخ الطبريّ ٤: ٥٩ ـ ٦٠.

٥ - حلية الأولياء ٥: ٣٩١.

٦ - تاريخ مكّة ١: ٤٠.

٧ - مصنّف عبد الرزّاق ٥: ١٤.

٨ - نفسه ٥:١٣٤

٩ - حلية الأولياء ٥: ٣٧١، ٣٨١، ٣٩١؛ مختصر تاريخ دمشق ٢١: ١٨٥.

رسول الله ﷺ: أخوف ما أخاف على أُمّتي أئمّةُ الضلال؛ فقال كعب: والله، لا خوفَ على الأمّة إلّا منهم.[١] وجاء في خبر آخر أنّ كعباً «قام زمن عمر فقال:... ما كان آخر ما تكلّم به رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: سل عليّاً... فقال عليّ عليه السلام: أسندتُه إلى صدري فوضع رأسَه على مَنكِبي، فقال: الصلاةَ الصلاة. فقال كعب: كذلك آخر عهد الأنبياء، وبه أُمِروا وعليه يُبعَثون»[٢].

وكان كعب يتظاهر بأنّه يعلم بكتب الأنبياء جميعاً، وأنّه يستطيع أن يُقنع الناس بما ينقله من كتاب الله المُنزل. ويبدو أنّ أشخاصاً عرفوا لاحقاً أنّه لايمكن الاستناد إلى التوراة المحرَّفة، فكيف يتسنّى الأخذ بكلام كعب؟! ولحلّ هذا الإشكال اختلقوا خبراً يفيد بأنّه كان يعتمد على توراة غير محرّفة. وفي اللّحظات الأخيرة من حياة كعب الأحبار أعطى التوراة المذكورة رجلاً ليُلقيها في البحر، وتوجيه هذا العمل هو لئلّا يُستنَد إليها بعده يوماً ما! قال الذهبيّ بعد هذا الخبر: ليس في أيدينا اليوم هذه التوراة، ومن ثَمّ لايمكن الاستناد إلى التوراة الموجودة.[٣] هذا في وقتٍ كان ابن عبّاس يعتقد آنذاك أنّ التوراة محرَّفة، وكان يحذّر الناس من سؤال أهل الكتاب[٤].

وجاء في خبرٍ أنّ عمر أمر بإقامة الحدّ على شخصٍ. فقال ذلك الشخص أثناء إقامة الحدّ عليه: سبحان الله! فمنع عمر جلده، فضحك كعبُ الأحبار، فقال عمر: لِمَ تضحك؟! قال: والله، إنّ سبحانَ الله تخفيفٌ لِعذاب الله.[٥] وكان عمر وكعب واقفَين مرّةً، فأنشد الحُطَيئة قائلاً: من يصنع المعروف فلن يضيع

١ - مختصر تاريخ دمشق ٢١: ١٨١؛ معرفة الصحابة ١: ٢٣٣.
٢ - الطبقات الكبرى ٢: ٢٦٢.
٣ - سير أعلام النبلاء ٣: ٣٩٣ ـ ٣٩٤، نقلاً عن تاريخ ابن أبي خيثمة.
٤ - مصنّف عبد الرزّاق ٦: ١١٠ - ١١٢.
٥ - حلية الأولياء ٥: ٣٩٠.

جزاؤه؛ لأنّ المعروف ثابتٌ بين الله وخلقه، فقال كعب: والله جاء هذا في التوراة.[١] وورد في موضعٍ آخر أنّ عمر كان يسأل كعب الأحبار عن البلدان، فقال له كعب: لمّا خلق الله العالم وما فيه، قال العقل: أنا أذهب إلى العراق، فقال العلم: سأكون معك، وقال المال: أنا أذهب إلى الشام، فقالت الفتنة: أنا معك[٢].

ودخل كعب الأحبار على عمر وجلس على مدى منه، فسأله عمر عمّا منعه من الجلوس جنبه، فقال كعب وهو يذكر حكمةً للقمان: لاينبغي الجلوس عند صاحب السلطان جنباً إلى جنب؛ إذ لعلّ هناك من هو أعزُّ منك ويدخل في المجلس فتضطرّ إلى الرجوع وراءك، وحينئذٍ ستُستخفّ[٣]. وسأل عمر كعباً عن كيفيّة ذهاب العلم من صدر مَن تعلّمه، فقال كعب: بالطمع واستجداء الناس[٤]. وقال ذات مرّةٍ لعمر: الويل لسلطان الأرض من سلطان السماء! فقال عمر: إلّا أن يحاسب المرءُ نفسه، قال كعب: والله ورد هذا في التوراة بعينه.[٥] وطلب عمر منه مرةً أخرى أن يحدّثه عن التقوى،[٦] وقال له عمر حين استأذنه في التوجّه إلى الشام: ألا تتحوّل إلى المدينة؟ فيها مهاجر رسول الله ﷺ وقبره، قال كعب: إنّي وجدتُ في كتاب الله المنزّل أنّ الشام

١ – نفسه ٦: ٤٤؛ **المحاسن والمساوئ** ١: ١٢٣.

٢ – **معجم البلدان** ١: ٤٨؛ **المنتظم** ٨: ٧٠.

٣ – **بهجة المجالس** ١: ٤٨؛ **مختصر تاريخ دمشق** ٢١: ١٨٥؛ **الجوهر النفيس في سياسة الرئيس**: ١١٤.

٤ – **بهجة المجالس** ١: ١٥٩.

٥ – نفسه ١: ٣٦٨؛ **حلية الأولياء** ٥: ٣٨٩؛ **تاريخ الخلفاء**: ١٢٥. وكانت سياسة كعب تؤيّد عمر أو أبا هريرة أو غيرهما إذا تكلّموا بما يوافقه، ويقول: ورد هذا الكلام نفسه في التوراة. وكان يقول في أبي هريرة: ما رأيتُ أحداً لم يقرأ التوراة أعلمَ بما فيها من أبي هُريرة. انظر: **أضواء على السنّة المحمّديّة**: ٢٠٧، نقلاً عن (تذكرة الحفّاظ).

٦ – **مقامات العلماء بين يدي الخلفاء والأمراء**: ١٦٣.

كنز الله في أرضه.[١] وقُرِئت الآية: ﴿كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا﴾[٢]، فقال كعب: عندي تفسير لها يتعلّق بما قبل الإسلام، فقال عمر: قل، لكنّا لا نصدّق كلامك إلّا إذا وافق كلامَ النبيّ ﷺ، فقال كعب: ستُغيّر جلودهم مئةً وعشرين مرّةً في كلّ ساعة، فقال عمر: وأنا سمعتُ هذا من رسول الله ﷺ![٣] وسأله عمر في بيت المقدس عن مكان الصخرة، فحدّثه مفصّلاً.[٤]

وعلى الرغم من هذه الأخبار، فقد تفرّد أبو زرعة الدمشقيّ في خبر، قال فيه عمر لكعب: دعْ عنك حديث الأُول وإلّا أرسلتُك إلى أرض القرود.[٥] وفي موضعٍ آخر نُقِل عن عمر، عن رجلٍ من أهل الكتاب في بيان صفات الخلفاء في التوراة أنّه نهى الناس عن الرواية عن أهل الكتاب.[٦] وبلغه مرّةً أنّ رجلاً في الكوفة يطلب كتب دانيال، فأمر أن يُرفَع إليه، وبعد قدومه المدينة قنع أن يُحرق كلَّ ما لديه منها.[٧] وإذا سلّمنا أنّ عمر كان على هذه السيرة، فإنّه مع الأسف لم يتّخذ موقفاً حاسماً من كعب، والأمثلة المتقدّمة تدلّ على صحّة ما نقول. وجاء في موضع آخر أنّ كعباً حين حضر عند عمر واستأذنه في قراءة التوراة، قال عمر: إن كنت تعلم أنّ فيه التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام

١ - **مصنّف عبد الرزّاق** ١١: ٢٥١؛ أكثر كعب من الثناء على الشام في مقابل مكّة والمدينة، ولهذه القضيّة جذور دينيّة - يهوديّة، وشيء من البواعث السياسيّة نوعاً ما لتعزيز موقع معاوية. وربّما افترى الأمويّون أنفسهم معظم تلك المرويّات فيما بعد.

٢ - النساء: ٥٦.

٣ - **حلية الأولياء** ٥: ٣٧٥.

٤ - **البداية والنهاية** ٧: ٥٩.

٥ - نفسه ٨: ١١٠؛ **مختصر تاريخ دمشق** ٢١: ١٨٧؛ وذكر أبو ريّة في ضوء هذا الخبر أنّ عمر كان يستمع إلى كلامه في أوّل أمره، لكنّه عرف خبثه فيما بعد، انظر: **أضواء**: ١٥٢، ١٥٣.

٦ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ١٠٨١.

٧ - **مصنّف عبد الرزّاق** ٦: ١١٤.

بطور سَيناء، فاقرأها آناء اللّيل والنهار.[١]

وانتبه عمر مرّةً في أثناء هذه المشاورات إلى أنّ كعب الأحبار ما زال على أفكاره اليهوديّة. وفي السنة التي ذهب بها عمر إلى بيت المَقْدس صحبه كعب أيضاً، وفي هذه السفرة جرت محاورات مع أشخاص آخَرين كان فيهم أحد الرهبان[٢]، وطلب عمر من كعب أن يعيّن له مكانَ المحراب في بيت المقدس، وسأله: أين نجعل مصلّى المسجد؟ فقال كعب: إلى جهة الصخرة (قِبلة اليهود في بيت المَقْدس)! فقال عمر: ضاهيتَ اليهوديّة! ورأيتك حين دخلنا المسجد قد خلعت نعليك.[٣] لكنّه ظلّ محتفظاً بمنزلته عند الخليفة بعد ذلك.

ومن الطريف في هذا المجال زعمُ كعب الأحبار وغيره من أهل الكتاب وجودَ اسم الخليفة الثاني أو صفاته في الكتب السماويّة السابقة، فقد رُوي عن عبد الله بن مسعود أنّ عمر ركب فرساً، فألقاه الفرس إلى الأرض، فظهر فَخِذه، ولمّا نظر أهل نجران إلى شامة سوداء في فخذه قالوا: هذا الذي نجد في كتابنا أنّه يُخرجنا من أرضنا.[٤] وزعَم وهب بن منبّه فيما بعد أنّ صفة عمر جاءت في التوراة[٥]. وقال الأقرع، مؤذّن عمر: بعثني عمر إلى الأسقف فدعوته، فجعلتُ أُظلّهما من الشمس، فقال عمر: يا أسقف، هل تجدنا في الكتب؟

---

١ - **غريب الحديث** ٤: ٢٦٢؛ **الفائق في غريب الحديث** ١: ٦٥١.

٢ - **حلية الأولياء** ٦: ٧.

٣ - **تاريخ الطبريّ** ٣: ٦١١؛ **البداية والنهاية** ٧: ٥٧، ٦٠؛ وانظر: **المنار المنيف**: ٨٩ - ٩٠؛ **أضواء**: ١٦٦ ـ ١٦٧؛ وقال ابن عبّاس مرّة حين لمح كعباً: أما تركت اليهوديّة؟! انظر: الكاف الشاف: ١٣٩، نقلاً عن: **أضواء على السنّة المحمّديّة**: ١٦٥.

٤ - **معرفة الصحابة** ١: ٢٠٥، (وفي هامشه عن) **المعجم الكبير** ١: ٢٠؛ **مجمع الزوائد** ٩: ٦١؛ **الطبقات الكبرى** ٣: ٣٢٦.

٥ - **معرفة الصحابة** ١: ٢١٣.

قال: نعم! قال: فكيف تجدني؟ قال: أجدك قرناً! فرفع عليه الدِّرّة وقال: وعلى قرني مَه؟ قال: قرناً حديداً أميناً شديداً. قال: فكيف تجد الذي بعدي؟ قال: خليفةً صالحاً غير أنّه يُؤثِر قرابته... قال: فكيف تجد الذي بعده؟... قال: إنّه خليفةٌ صالح... والسيف مسلول والدم مهراق![1]

وهذا الخبر وإن كان موضوعاً مختلَقاً لكنّه يبدو أولاً: أنّ قسمه الأوّل صحيح، وأنّ الأسقف قال هذا في شخصيّة عمر وحده. ثانياً: حتّى إن فرضنا اختلاق هذا الخبر برمّته، فإنّ انتظار المختلقين يدلّ على أنّهم كانوا في صدد اختلاق الفضائل للخلفاء على أساس كلام الأساقفة والعارفين بكتب الأقدمين.

قال ابن شبّة بعد ذلك: في سفر عمر إلى الشام دنا شيخٌ كبير من الجيش في الطريق وشكا ثقل الخراج وأراد أن يكلّم الخليفة في ذلك، فقال له طلحة: أكنتم ترونه ينزل عليكم؟ قال: نعم، نجدُ صفة صاحبكم وصفة الذي قبله، وصفة نبيّكم. ثمّ بيّن تلك الصفات واحدةً واحدةً![2] ونُقل عن أمالي محمّد بن حبيب أنّ ابن عبّاس قال: تبرّم عمر بالخلافة في آخر أيّامه، وكان لايزال يدعو الله بأن يتوفّاهُ، فقال لكعب الأحبار يوماً وأنا عنده: أظنّ وفاتي قد دنت، فما تقول في عليّ؟ وأشر عليَّ في رأيك وأذكرني ما تجدونه عندكم فإنّكم تزعمون أنّ أمرنا هذا مسطورٌ في كتبكم، فقال كعب: أمّا من طريق الرأي فإنّه لايصلح، إنّه رجل متين الدّين، لايُغضي على عَورة، ولا يحلم عن زلّة، ولا يعمل باجتهاد رأيه، وليس هذا من سياسة الرعيّة في شيء. وأمّا ما نجده في

---

١ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ١٠٧٨ ـ ١٠٧٩؛ **تاريخ الخلفاء**: ١٢١، إنّ من اختلق هذا الخبر له رأيٌ وسط في عثمان وعليّ عليه السلام. وجاء في خبر مماثل أنّ عمر أرسل إلى كعب الأحبار وسأله: كيف تجد صفتي في التوراة؟ **حلية الأولياء** ٦: ٢٥ ـ ٢٦.

٢ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ١٠٧٩ ـ ١٠٨٠

كتبنا فنجده لا يلي الأمر ولا وُلْدُه... فقال عمر: فإلى من يُفضي الأمر تجدونه عندكم؟ قال كعب: نجده ينتقل بعد صاحب الشريعة والاثنين من أصحابه إلى أعدائه الذين حاربهم وحاربوه وحاربهم على الدين.[١] أي بني أميّة (وأوّلهم عثمان). وجاء شخصٌ من أهل الكتاب عند عمر وقال: السلام عليك يا ملك العرب، فقال له عمر: أتجدون هذا في كتابكم؟ أتجدون أنّ الأوّل هو النبيّ صلى الله عليه وآله، ثمّ الخليفة، وبعده أمير المؤمنين؟ قال: نعم.[٢] ونلحظ أنّ هذا الخبر ينطق باختلاقه الواضح وضوحَ الشمس في رائعة النهار. وقال كعب الأحبار في عهد عثمان لمن أنشد شعراً جاء فيه: «أنّ الأمير بعده عليٌّ»: كذِبتَ، فالخلافة ستكون لمعاوية.[٣] ونقل المؤرّخون أنّ كعب الأحبار كان منحرفاً عن الإمام عليّ عليه السلام. ووصفه الإمام عليه السلام بأنّه كذّاب[٤]. وكان كعب يقول بأنّه قرأ فتح البلدان في التوراة، وأنّ هذه الفتوحات ستكون على يد رجلٍ صالح[٥].

وأدّى تعرُّف عمر على أهل الكتاب ـ بخاصّة صداقته لكعب ـ إلى أن يقول ويعمل في بعض المواطن مستنداً إلى ما مرّ على أهل الكتاب. قال أحد الصحابة: صلّى رسول الله صلى الله عليه وآله العصر، ثمّ قام رجلٌ إلى الصلاة، فأخذ عمر لباسه وقال: اجلس، هلك أهل الكتاب لأنّهم كانوا يفصلون بين صلواتهم[٦].

---

١ - **شرح النهج** ١٢: ٨٠ - ٨١؛ وورد في خبر آخر: أنّ اليهود جاؤوا إلى عمر وقالوا له: تُلِيت عليكم آية لو كانت تُلِيت علينا لاتّخذنا ذلك اليوم عيداً، والآية هي: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**...﴾، فقال عمر: بلى، أذكُر أنّها نزلت على النبيّ(صلى الله عليه وآله) يوم عرفة. انظر: **القند في تاريخ سمرقند**: ٤٣٤ ـ ٤٣٥.

٢ - **مصنّف ابن أبي شيبة** ٧: ٥٢٩.

٣ - **مختصر تاريخ دمشق** ٢٥: ٢٤ ـ ٢٥؛ **تاريخ الطبريّ** ٤: ٣٤٣؛ **النزاع والتخاصم**: ٧٨؛ **أنساب الأشراف** ٤: ٤٩٥، الرقم ١٢٧٨؛ **البدء والتاريخ** ٥: ٢٠٨؛ **الكامل في التاريخ** ٣: ١٢٣.

٤ - **شرح النهج** ٤: ٧٧.

٥ - **الفتوح** ١: ٢٢٨.

٦ - **أسد الغابة** ٥: ١٩٩.

وكذلك تأثّر قراره المهمّ بمنع كتابة الحديث بأهل الكتاب أيضاً.[١] نقل الزهريّ عن عروة بن الزبير: أنّ عمر أراد أن يكتب السُّنن، فاستشار فيها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، فأشار عليه عامّتهم بذلك، فلبث شهراً... ثمّ أصبح يوماً... فقال: إنّي كنتُ قد ذكرتُ لكم من كتاب السنن... ثمّ تذكّرتُ فإذا أُناس من أهل الكتاب قبلكم، قد كتبوا مع كتاب الله كتباً، فأكبّوا عليها، وتركوا كتاب الله؛ وإنّي ـ والله ـ لا أُلبسُ كتاب الله بشيءٍ أبداً.[٢] وجاء في خبرٍ آخر أنّه جمع ما كتبه الآخرون ثمّ أحرقه وقال: «أُمنيّة كأُمنيّة أهل الكتاب»[٣]. وفي خبرٍ آخر: «مَثناة كمثناة أهل الكتاب»[٤]. ومهما كان، على الرغم من النهي الصريح للنبيّ صلى الله عليه وآله عن قراءة آثار أهل الكتاب، ومثاله الواضح خطابه لعمر نفسه[٥]، فإنّ من المؤسف أنّ أشخاصاً بثّوا هذه الأفكار بحريّة. ومن الطريف هو المنع من كتابة الحديث ونقله إلى جانب بثّ مثل هذه الأفكار[٦]، ولإكمال هذه الخطّة الّتي يجيزُ طرفٌ منها بثّ الأفكار اليهوديّة من جهة، وطرفٌ آخر يمنع نقل الحديث النبويّ من جهة ثانية، رووا حديثاً عن النبيّ صلى الله عليه وآله أو بتعبير أفضل؛ وضعوا حديثاً، يقول فيه: «لا تكتبوا عنّي شيئاً إلّا القرآن... وحدّثوا عن بني

١ – **بحوث مع أهل السنّة والسلفيّة**: ٩٧؛ **الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم** صلى الله عليه وآله ١: ٢٧.

٢ – **تقييد العلم**: ٥٠ (وفي هامشه عن:) **جامع بيان العلم** ١: ٦٤؛ **كنز العمّال** ٥: ٢٣٩؛ **ذمّ الكلام**: ٦٣؛ وأيضاً عن طريقٍ آخر في: **تقييد العلم**: ٥١؛ وانظر: **تذكرة الحفّاظ** ١: ٥ **كنز العمّال** ١: ١٧٤.

٣ – **تقييد العلم**: ٥٢.

٤ – قال الهرويّ: سألت كتابيّاً عن معنى المَثناة، فقال: وضع أحبار بني اسرائيل ورهبانهم بعد موسى كتاباً سمّوه: «المثناة». ينظر: **غريب الحديث** ٤: ٢٨٢.

٥ – انظر: **غريب الحديث** ٣: ٢٨ ـ ٢٩ ؛ ٤: ٤٨ ـ ٤٩.

٦ – قال أبوهريرة: لم نجرؤ على أن نقول: قال رسول الله، ما دام عمر حيّاً! **البداية والنهاية** ٨: ١١٠.

إسرائيل ولا حرج».[١] هذا في وقتٍ كان فيه بعض الصحابة كابن عبّاس وابن مسعود قلقين - بصراحة - من وجود آثار أهل الكتاب بيد المسلمين، وكانوا ينهونهم عن ذلك.[٢]

ومن الظواهر التي برزت في هذا العصر، ويتعيّن أن نعتبر أصلها من تبعات بثّ الإسرائيليّات ظاهرة «القَصَص»، فقد قام رجالٌ بوصفهم قصّاصين ينقلون القَصص التاريخيّة - الدينيّة لليهود، ويفيدون منها كتفسيرٍ للآيات التاريخيّة في القرآن، ومصدرهم الأصليّ: التوراة، والأخبار الشفويّة الشائعة بين أحبار اليهود والنصارى. وهؤلاء كانوا يتحدّثون إلى الناس قبل الصلاة أو بعدها، ولم تكن هذه الظاهرة موجودةً في عصر النبيّ ﷺ ولا في عهد أبي بكر، بل شاعت في عصر الخليفة الثاني، وبإذنه، ثمّ استمرّت بعده.

ومهما كان فإنّ أخباراً جمّةً تدلُّ على أنّ القَصَص بدأها تميم الداريّ أحد الصحابة بإذن الخليفة الثاني، ثمّ شاعت بعد ذلك - ككثيرٍ من المسائل المستجَدّة المألوفة - كسنّةٍ دينيّة بين عددٍ غفير من المسلمين على الرغم من مخالفاتٍ عديدة.

وكان التذكير، والوعظ، والخطابة، وقراءة الخطبة لصلاة الجمعة هي الأمور الشائعة قبلها، وكان هناك منبرٌ طبعاً يجلس عليه النبيّ ﷺ والخلفاء، ويزاولون الوعظ والتذكير؛ أمّا عمل القاصّ بما يتّصف به من رواية القصص وسردها المتمثّل بنقل قصص الأمم السالفة، فقد بدأها تميم في عصر الخليفة الثاني.

والسائب بن يزيد (م ٨٠ هـ) عن ابن سيرين قال: لم يكن يُقصّ على

---

١ - **تقييد العلم**: ٣١.

٢ - **غريب الحديث** ٤: ٤٨؛ **مصنّف عبد الرزّاق** ٦: ١١٠ - ١١٢.

عهد رسول الله ﷺ ولا أبي بكر ولا عمر، وكان أوّل من قصّ تميم الداريّ، استأذن عمر فأذن له، فقصّ قائماً![١] وجاء في خبرٍ آخر أنّ تميماً استأذنهُ مراراً فلم يأذن له[٢]، وفي خبرٍ غيره أنّه أذِنَ له بعد إصراره، إلّا أنّه عندما كان يمرُّ قريباً منه يعلو رأسه بالدرّة.[٣] واتّفقت جميع المصادر تقريباً على إذن عمر له، بيد أنّ بعضاً أراد - فيما بعد - أن يمتري في هذا الأمر دفاعاً عن الخليفة.

وورد في خبر آخر أنّ عمر أذن لتميم، وكان يجلس في مجلسه أيضاً، ويُصغي إليه.[٤] ونصّ الزهريّ ـ في سياق تأييده لسبقه في القَصَص ـ على زيادة المرّات التي كان يروي فيها القصص[٥] إلى ثلاث مرّات في الأُسبوع من عهد عمر إلى عهد عثمان، وذكر أنّه أذن له في الأيّام الأخيرة من حكومته ليحدّث الناس في الجُمُعات قبل خطبته، ثمّ أذن عثمان له أن يقصّ مرّتين أُسبوعيّاً.[٦]

وذهب عمر بن شَبّة إلى أنّه هو الذي شرع في رواية القصص، لكنّ الّذي يبدو هو أن خطأً بسيطاً - وربّما متعمَّداً - في عهد عثمان[٧] أدّى إلى أن يحلّ اسم عثمان مكان اسم عمر.

---

١ - **مسند أحمد** ٣: ٤٤٩؛ **تاريخ أبي زرعة الدمشقيّ** ٢: ٦٤٧؛ **الباعث على الخلاص**: ١٢٦؛ **القصّاص والمذكّرون**: ٢٢؛ **مختصر تاريخ دمشق** ٥: ٣٢١؛ **معرفة الصحابة** ١: ٤٤٨، ونصُّ الكلام فيه كالّذي ورد أعلاه؛ **الإصابة** ١: ١٨٦؛ **تاريخ المدينة** ١: ١٢.

٢ - **الباعث على الخلاص**: ١٢٧.

٣ - **تحذير الخواص**: ٢٤٠.

٤ - **القصّاص والمذكّرون**: ٣٢.

٥ - **الطبقات الكبرى** ١: ٧٥؛ **أسد الغابة** ٢: ٢١٥؛ **الإصابة** ١: ١٨٣ - ١٨٤.

٦ - **المصنّف** ٣: ٢١٩؛ **تاريخ المدينة** ١: ١١ - ١٢؛ **الخطط المقريزيّة** ٢: ٢٥٣؛ **الضوء الساري في خبر تميم الداري**: ١٢٩.

٧ - **تاريخ المدينة** ١: ١٠؛ **الخطط المقريزيّة** ٢: ١٥٣؛ وانظر: **الضوء الساري**: ١٢٩.

وذكر حميد بن عبد الرحمان أنّهُ كان يستأذن عمر عددَ سنين في نقل القِصص، إلى أن أذن له في آخر الأمر لينقلها قبل خُطبة الجمعة، ثمّ زاد عثمان عددَ المرّات التي ينقل فيها القِصص[١]. وكان تميم نصرانيّاً قد أسلم، واختُلِقت أحاديث كثيرة في فضلهِ ومناقبه، وفي بعض الأخبار أنّه تَعَلّمَ روايةَ القصص من كنائس الشام ووعّاظها.[٢]

ويُستشَفُّ من أخبار أُخرى أنّ رجالًا غيره كانوا يروون القصص أيضاً في أيّام عمر، ويسمّون أنفسهم المذكّرين، فقد ورد في خبرٍ أنّ عمر أدّب بدِرّتهِ قاصّاً كان يسمّي نفسه مذكّراً، وأمرَه أن يسمّي نفسه مرائياً مؤذياً.[٣]

ونعرف قاصّاً آخر مشهوراً في عهد عمر أيضاً، قال ثابت: كان عُبَيد بن عُمَير أوّلَ قاصٍّ بدأ عمله في عهد عمر بن الخطّاب.[٤] ونُقل عن عطاء بن أبي رباح أنّ عمر أمر عبيداً أن يُذكِّر في مسجد النبيّ ﷺ بالمدينة بعد صلاة الصبح والعصر.[٥] وذهب الفاكهيّ إلى أنّ عُبَيداً كان أوّلَ قاصٍّ بمكّة.[٦]

وجاء في خبر أيضاً أنّ الحارث بن معاوية جاء - من العراق كما يبدو - إلى عمر وسأله عن بعض المسائل؛ منها أنّ الناس طلبوا منه أن يقصّ لهم، فنهاه عمر؛ لكنّه أخبره أنّه يخشى أن يصيبه الكِبْر والغرور بسبب وقوفه وتحديثه الناس.[٧]

١ - **مختصر تاريخ دمشق** ٥: ٣٢١.
٢ - **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام** ٨: ٣٧٨.
٣ - **تاريخ المدينة** ١: ٩.
٤ - **القصّاص والمذكّرون**: ٢٢.
٥ - **تاريخ المدينة** ١: ١٣.
٦ - **أخبار مكّة** ٢: ٣٣٨.
٧ - **القصّاص والمذكّرون**: ٣٣؛ **تحذير الخواص**: ٢٢٧؛ **مسند أحمد** ١: ١٧؛ **مجمع الزوائد** ١: ١٨٩.

ولُوحظ أنّ بعض الذين كانوا يعارضون القَصص بشـدّة ويَرَونهـا بِدعـةً، حاولوا إنكار هذه الحقيقة التاريخيّة لئلّا يتدنّس ثوب الخليفة الثـاني بوصـمة البدعة! فقد نقل الطرطوشيّ عن ابن القاسم: أنّ أوّل قاصٍّ في المدينـة رجـلٌ نصبه عمر بن عبد العزيز لرواية القصص، ولـم يكـن فيهـا قـاصّ قبلـه.[١] ولا ريب في سقم هذا الخبر ومجانبته الصواب قطعاً.

وكان لكعب الأحبار الذي قصّ بالشام أيّام عثمان شـأن كبيـر فـي عهـد عمر، وقد طلـب منـه عمـر مـراراً أن يُبـدي لـه آراءه ومعلوماتـه فـي شتّى المسائل.[٢] ومن العجيب ما ذكرته بعضُ المصادر من نهي عمـر شخصـاً كـان استنسخ كتاباً عن دانيال بسبب موقفٍ للنبيّ صلى الله عليه وآله منه[٣]! هذا فـي الوقـت الـذي فُتن فيه عمر بكلمات كعب الذي كان ينقل له بعـض المواضـيع مـن التـوراة بانتظام.

ونال المصدر الأصليّ لهذه القصص - التوراة والتلمود - عنايـة الخليفـة. وحين أتاه كعب بكتاب التوراة واستأذنه ليقرأه، قال له عمر: إن كنتَ تعلم أنّ فيه (التوراة) التي أنزلها الله على موسى عليه السلام بطور سـيناء، فاقرأهـا آنـاء اللّيـل والنهار[٤].

وعلى الرغم من وجود الأخبار الكثيرة حول قَصص تميم الداريّ وسماح الخليفة الثاني له بذلك، والموارد الأخرى التي مـرّت بنـا، فـإنّ الكـلام الـذي يُنسَب إلى عبد الله بن عمر وفضيل بن عياض، ومفاده أنّ القَصص لـم يكـن

---

١ - **الحوادث والبدع**: ١٠٣.

٢ - انظر: **تاريخ سياسي اسلام** (التاريخ السياسيّ للإسـلام)، **تـاريخ الخلفـاء**: إذ ذكرنـا عشـرات الأمثلة من أسئلة الخليفة الثاني لكعب الأحبار.

٣ - **الإسرائيليّات والموضوعات في كتب التفسير**: ١٠٩.

٤ - **الفائق في غريب الحديث** ٢: ٢٣٦؛ **جامع بيان العلم وفضله** ١: ٥٣.

لها وجود في عصر أبي بكر وعمر وعثمان، [١] غير صحيح. وكذلك ما نقله الزبير بن بكّار من أنّ فريقاً من أهل العلم يعتقد أنّه لم يقصّ في زمان النبيّ[ﷺ] ولا زمان أبي بكر ولا زمان عمر، وإنّما القَصَص مُحدَث أحدثَه معاوية حين كانت الفتنة.[٢] فهذا الخبر لايصحّ أيضاً، كما ذهب إليه محمّد الصبّاغ مصحّح كتاب «تحذير الخواص»، إلّا إذا كان له معنًى آخر سيأتي بحثه في الحديث حول دور معاوية.

ومن الصحابة الذين كانوا مشغولين برواية القصص الأسود بن سريع، الذي قُتِل في معركة الجمل، وكان أوّلَ قاصٍ في البصرة.[٣]

وذكروا أيضاً أنّ شخصاً آخر استأذن عمر في رواية القصص، لكنّ عمر قال له: «أخشى عليك أن تقصّ فترتفع عليهم في نفسك، ثمّ تقصّ فترتفع حتّى يُخيَّل إليك أنّك فوقهم»[٤]، وقيل: إنّ هذا الكلام قاله لتميم الداريّ أيضاً[٥]، وتقدّم أنّ الأسود بن سريع صرّح به أيضاً، وإشكال عمر في هذا المجال كان من أجل أن لايغترّ هؤلاء بتبوّئهم كرسيَّ الكلام.

وعلى الرغم من موافقة عمر على رواية القصص، لايصحّ الخبر القائل بأنّ عمر طلب من ابن مسعود أن ينقل سنّة النبيّﷺ وحديثه ويتجنّب

---

١ - **ربيع الأبرار** ٣: ٥٨٨؛ **سنن ابن ماجة** ٢: ١٢٣٥؛ **القصّاص والمذكّرون**: ٢٣؛ **الباعث على الخلاص**: ١٢٥ عن: **سنن ابن ماجة** ٢: ١٢٣٥/ الرقم ٣٧٥٤. وتوجيه ابن الجوزيّ هو ربّما كان قصدهم أنّ القَصص لم يكن كثيراً آنذاك.

٢ - **تحذير الخواص**: ٢٣٥، ٢٤٥، وقد مرّ أنّ السائب بن يزيد نقل الجملة الأولى نصّاً إلى اسم «عمر»، ثمّ أضاف: أنّ تميماً الداريّ استأذن عمر في رواية القصص، فقصّ. انظر: **معرفة الصحابة** ١: ٤٤٨.

٣ - **معرفة الصحابة** ١: ٢٧٠؛ **أنساب الأشراف** ١٢: ٣٠٩.

٤ - **مختصر تاريخ دمشق** ٦: ١٦٦؛ وانظر: **تاريخ المدينة** ١: ١٠.

٥ - **مختصر تاريخ دمشق** ٥: ٣٢٢.

القَصص[١]، فنحن نعلم أنّ عمر حذّر الصحابة من نقل الحديث عادةً، وكان يقول: أقِلّوا الروايةَ عن رسول الله[٢]، وكان يطلب منهم أن ينقلوا القرآن، ولا شكّ في أنّ وصيّته لابن مسعود لا بدّ أن تحمل هذا الموضوع نفسه.

وفي خبر آخر أنّ عمر لمّا سمع أنّ رجلاً يقصّ في البصرة، كتب إليه: ﴿الر تِلْكَ آياتُ الكِتابِ المُبينِ *إنّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ *نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ...﴾[٣]، فلم يقصّ بعد أن رأى رسالةً أُخرى[٤]. ولو صحّ هذا الخبر، لكان إنكار عمر إمّا يخصّ شخصاً غيره، أو يخصّ زمناً آخر لم يأذن فيه لتميم الداريّ وسواه برواية القصص بعدُ.

على أيّ حال، كان خوف عمر يرتبط بنقل الحديث أكثر من أيّ شيء آخر، ولم يعترض على نقل الإسرائيليّات اعتراضاً يُذكَر، وعمر نفسه كان يسأل كعب الأحبار عن هذه المواضيع غيرَ مرّة، والشيء العُجاب ما تناقلته الأخبار من أنّ كعباً كان يجلس في المسجد - والقرآن والتوراة أمامه - ويقرأ القرآن ويفسّره بالتوراة[٥]!

إنّ المهمّ هو وجود أدلّة أخرى أيضاً تؤيّد إذْنَ عمر للقصّاصين، فقد ذكر عبد الله بن عمر أنّ عمر جاء المسجد فرأى حِلَقاً في المسجد، فقال: مَن هؤلاء؟ فقالوا: قُصّاص، فقال: وما القصّاص؟ سنجمعهم على قاصٍّ يقصّ لهم في يوم سبتٍ مرّةً إلى مثلها من الآخر، فأمَّر تميمُ الداريّ[٦]. وأشار هذا الخبر

١ - نثر الدرّ ٢: ٢٩.

٢ - انظر: سنن الدارمي ١: ٧٩؛ جامع بيان العلم وفضله ٢: ١٣٠؛ الطبقات الكبرى ٨: ١٠٧؛ البداية والنهاية ٨: ١٠٧؛ حياة الصحابة ٣: ٢٥٧ - ٢٥٨.

٣ - يوسف: ١-٣.

٤ - تحذير الخواص: ٢٤٨؛ التراتيب الإداريّة ٢: ٣٣٧.

٥ - تدوين السّنّة: ١١٠، عن الطبقات الكبرى.

٦ - تاريخ المدينة ١: ١١.

إلى وجود أرضيّة القَصص، يُضاف إلى ذلك التصريح برواية القصص في أيّام السبت، وهذا عجب عجابٌ ! لاسيّما إذا عرفنا أنّ السبت هو يوم اليهود! ومن الخليق بالذكر أنّ تميم الداريّ كان نصرانيّاً وأسلم، ونُقلت قصصٌ كثيرة في زهده، وهذا الزهد هو زهدٌ نصرانيّ شاع كثيراً بين المسلمين لاحقاً، فنجد أمثال هؤلاء الزهّاد الذين كانوا ينقلون أخباراً عن اليهود ورهبان النصارى في كتاب حِلْية الأولياء لأبي نُعَيم الأصفهانيّ. وقيل: إنّ تميماً الداريّ تعلّم القصص المذكورة في كنائس الشام ومن وعّاظها.[١]

وكان شخصٌ آخر يُدعى عبيد بن عمير استأذن عمر في رواية القِصص[٢]، وسنلحظ أنّ الإمام عليّاًعليه‌السلام كان شديدَ المخالفة لرواية القصص.

مقتل عمر

بناءً على بعض الأخبار، بخاصّة ما رواه الطبريّ، زعم بعض الأشخاص أنّ عمر قُتِل بدسيسة كعب الأحبار، وقد ورد هذا الخبر بضُروب مختلفة، ويبدو أنّ كلَّ شخص غيّرهُ بشكلٍ من الأشكال. وكان مؤرّخو أهل السُّنّة ومحدّثوهم يَرْوُونه في كتبهم لقُرونٍ، لكنّهم كانوا يعتقدون نبوءات وأخبار كعب وأمثاله اعتقاداً لم يرتابوا معه أيَّ ارتياب في دوره في قتل الخليفة. قال الجاحظ الذي كان ناقداً عقلائيّاً في ما نقله كعب عن التوراة (على الرغم من خلوّ التوراة من هذه الأخبار): وأنا أظنّ أنّ كثيراً ممّا يُحكى عن كعب أنّه قال: «نَجِد في الكتب» أو «مكتوبٌ في التوراة» إنّما يعني كتب الأنبياء، والذي يتوارثونه من كتب سليمان... وأشعياء، والذي يَرْوون عنه في صفة عمر... فإن كانوا صدقوا عليه (وكان الشيخ لايضع الأخبار) فما كان وجه كلامه عندنا إلّا

---

١ - **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام** ٨: ٣٧٨.

٢ - **القصّاص والمذكّرون**: ٢٢.

على ما قلتُ لك[١]. فعلى هذا لم يستطع الجاحظ العقلائيّ أن يشكّك في كعب الأحبار. ومهما كان، فالإخبار عن قتل عمر قبل وقوع الحادثـة، وقـول كعـب بأنّه رأى هذا الخبر في الكتب السابقة، لم يُلفتا نظر الصحابة وسائر المسلمين قطّ، وما قيل في هذا الموضوع هو من إفرازات السنين الأخيرة فحسب.

ونعتقد وجود شكّ في أنّ كعباً قد ذكر هذا الموضوع حقّـاً، فالّـذي دعـا إلى وضع هذا الخبر نقلاً عن كعب لم يكن إلّا رغبة بعـض البسـطاء فـي أنّ قتل الخليفة هي شهادة قد وردت في التوراة أو الكتب الأخـرى، بخاصّـة أنّ لقب الشهيد أُكّد تأكيداً خاصّاً. ويضاف إلى ذلك أنّ أخباراً كثيرةً حول إخبـار الآخرين بقتل عمر نُقلت في المصادر التي جمع ابـن سـعد بعضـها، وجـاء معظمها نقلاً عن «هاتف غيبيّ» أو «الجنّ». على سبيل المثال جاء في خبرٍ أنّ صوت القارئ كان يُسمَع لكن لم يُرَ أحد.[٢] وما ورد في بعض المتون هـو أنّ كعباً أخبر الخليفة قبل مقتله بأنّه وجد في التوراة إماماً عادلًا وشـهيداً، وكـان عمر قد قال بأنّه كيف يُقتَل في المدينة؟![٣] وبعد أن صرع عمـر فـي المسـجد جاءه كعب وقال: قد أنبأتُكَ أنّكَ شهيد![٤]

ولو انتهت الأخبار عند هذا الحدّ لهان الخطب ، لكنّ ابن سعد نقل خبراً آخر عن سعد الجاري الغلام الذي أعتقه عمر، أنّ أمّ كلثوم قالت لعمر: يقـول كعب اليهوديّ: إنّ عمر واقف على باب من أبواب جهنّم.

فأرسل عمر إلى كعب، فجاءهُ وقال له: والذي نفسـي بيـده لاينسـلخ ذو

---

١ – **الحيوان** ٤: ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

٢ – انظر: **الطبقات الكبرى** ٣: ٣٣٤ ـ ٣٧٤؛ **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ٨٨٨ – ٨٩١.

٣ – **حلية الأولياء** ٥: ٣٨٨، ٦: ١٣؛ انظر شكله الأكثر تفصيلاً في: **تاريخ المدينـة المنـوّرة** ٣: ٣٩٢؛ **تاريخ الخلفاء**: ١٣٣.

٤ – **الطبقات الكبرى** ٣: ٣٤٢؛ **شرح النهج** ١٢: ١٩١؛ **الإمامة والسياسة** ١: ٤٠.

الحجّة حتّى تدخل الجنّة، فقال عمر: أيُّ شيء هذا؟! مرّةً في الجنّة، ومرّةً في النار!... فقال: إنّا لَنجدك في كتاب الله على باب من أبواب جهنّم تمنع الناسَ أن يقعوا فيها، فإذا مِتَّ لم يزالوا يقتحمون فيها إلى يوم القيامة!![1]

وفي رأينا أنّ ما يكشف ماهيّة القضيّة هو رواية عن ابن سعد، فقد نقل في طبقاته عن كعب أنّه قال لعمر: كان في بني إسرائيل ملكٌ إذا ذكرناهُ، ذكرنا عمر... وكان إلى جنبه نبيّ... فقال لهُ مرّةً: اعهَدْ عهدك واكتب إليّ وصيّتك، فإنّك ميّت إلى ثلاثة أيّام... فقال: اللّهمّ إن كنتَ تعلم أنّي كنتُ أعدِلُ في الحكم... اتّبعتُ هواكَ... فزدني في عمري حتّى يكبر طفلي وتربو أُمّتي. فأوحى الله إلى النبيّ أنّه قد قال كذا وكذا... وقد زدتُ في عمره خمس عشرة سنةً... فلمّا طُعِن عمر قال له كعب: لئن سأل عمر ربَّه لَيُبقِيَنَّهُ الله. فأُخبِر بذلك عمر، فقال: اللّهمّ اقبضني إليك غير عاجزٍ ولا ملوم[2].

نرى أنّ الخبر المذكور قد حُرِّف، وكأنّ الذي حدث هو أنّ كعباً قال لعمر قبل مقتله بثلاثة أيّام (في الأصل قبل موته وبعد جرحه بثلاثة أيّام): ستموت بعد ثلاثة أيّام، اطلب من الله ألّا تموت. ومن الطريف ما قيل: إنّ كعباً جاء في اليوم الثاني فقال: بقي يومٌ واحد و... وهذا الخبر صحيح في رأينا.

وهنا ألفت انتباهك عزيزي القارئ إلى خبر الطبريّ المحرَّف لأصل الخبر، وهو مرويّ عن مُسوِر بن مَخْرمة، فقد قال: بعد أن تحدّث أبو لؤلؤة مع عمر حول الخراج، وطلب عمر منه أن يصنع رحى، توعّده أبو لؤلؤة، فلمّا كان من الغد جاءه كعب الأحبار فقال له: اعهد! فإنّك ميّت في ثلاثة أيّام. قال:

---

١ - **الطبقات الكبرى** ٣: ٣٣٢؛ وانظر: **تاريخ الخلفاء**: ١٤٠؛ **حلية الأولياء** ٦: ٢٣.

٢ - **الطبقات الكبرى** ٣: ٣٥٤؛ **تاريخ الخلفاء**: ١٥٤.

إنّك لتجد عمر بن الخطّاب في التوراة، قال: اللّهمّ لا، ولكنّي أجد صفتك وحليتك، وأنّه قد فني أجَلُك، وعمر لايحسّ وجعاً وألماً. فلمّا كان من الغد جاءه كعب، فقال: يا أمير المؤمنين، ذهب يوم وبقي يومان. قال: ثمّ جاءهُ من غد الغد، فقال: ذهب يومان وبقي يوم وليلة. فلمّا كان الغد هجم أبو لؤلؤة على عمر في المسجد وضربه ستّ ضربات[١].

ينصّ هذا الخبر على أنّ كعب الأحبار كان يعلم بمقتل عمر قبل وقته. ولكن عندما يقاس هذا الخبر برواية ابن سعد فإنّ الذي يمكن أن يفهم من أصل القضيّة هو كالآتي: جاء كعب إلى عمر بعد جرحه، وكان على علمٍ بالحكاية الإسرائيليّة حول الملك من بني إسرائيل والنبيّ الذي كان معه، وما دار بينهما، فنقل له تلك الحكاية وموضوع الأيّام الثلاثة، وصادف ذلك أنّ عمر مات بعد جرحه بثلاثة أيّام. وهكذا حدثت تغييرات آجلة في الخبر الذي ذكره ابن سعد، وعرض الموضوع بشكلٍ غير طبيعيّ، وكأنّ كعباً كان يعلم بقتل عمر. ويمكن أن يكون هذا العمل قد تحقّق عمداً، أي بالنظر إلى شغف المسلمين بالأخبار الغيبيّة لأهل الكتاب، فإنّ شأناً ما يُصنَع للخليفة الثاني، وكأنّ اسمَه ومواصفاته وكيفيّة موته قد وردت في الكتب السماويّة. وهذا الخبر الذي كان يصرّح به كعب بعد جُرحِ عمر، أنّه إذا طلب من الله تأخير أجله فإنّه سبحانه سَيؤخّره[٢]، دليلٌ على مقارنة كعب بين عمر وملك بني إسرائيل. وقد أوصى كعب عمر من وحي حبّه له بأن يطلب من الله تأخير أجله ليعيش خمسَ عشرةَ سنةً أخرى.

---

١ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ١٩١؛ **الكامل** ٣: ٢٦؛ **نهاية الإرب** ٩: ٣٧٤؛ ونقل ابن شبّة هذا الخبر باختلافٍ يسير، والشخص الذي جاء اسمه في سند الطبريّ وابن شبّة معاً هو عبد العزيز ابن عمر بن عبد الرحمان بن عوف. انظر: **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ٨٩١.

٢ - **الطبقات الكبرى** ٣: ٣٦١؛ **مصنّف عبد الرزّاق** ١١: ٢٢٥.

وتقدّم أنّ المؤرّخين لم يُسيئوا الظنّ بكعب الأحبار على الرغم من أنّهم رأوا خبر الطبريّ وصدّقوا أنّه كان عنده خبر قتل عمر من قبل، والكلام هو أنّ القضيّة أساساً كانت بشكلٍ آخر، والذي دفع المؤرّخين إلى أن يُحسنوا الظنّ بكعب الأحبار هو شدّة ثقتهم بكلماته واعتقادهم كرامات الخليفة. وفي الوقت نفسه ذهب بعض الباحثين المتأخّرين من أهل السنّة إلى أنّ الخبر المذكور دليلٌ على تآمُر اليهود ومشاركتهم في قتل عمر[1]. وذهب أحد الكتّاب إلى أنّ كعب الأحبار هو المخطّط الأصليّ لمؤامرة قتل عمر، فقال: إنّه هو الذي حرّض أبا لؤلؤة على هذا العمل، وسنده في ذلك خبر الطبريّ، والخبر الذي نقله ابن الأثير عن الطبريّ.[2]

إنّ ما صرّح به التاريخ من قتل الخليفة يدلّ على أنّ هذا الموضوع كان يرتبط بعمر وأبي لؤلؤة دون غيرهما، والباعث على ذلك في الأقلّ هو شعور القاتل بقساوة المعاملة التي عُومل بها، إذ كان يؤخَذ منه ضرائب كثيرة. وشكا ذلك إلى عمر، لكنّ الخليفة لم يهتمّ بشكواه، وقال: المال الذي يُؤخذ منه ليس كثيراً قياساً بقدرته ومهارته ودخله. وبعد حين وقعت حادثة الاغتيال، وهذا كان طبيعيّاً، إذ يرتبط تماماً بالجدال الذي دار بين القاتل والخليفة.

ونقل المسعوديّ كيفيّة الواقعة قائلاً: «وكان عمر لايترك أحداً من العجم يدخل المدينة، [3] فكتب إليه المُغيرة: إنّ عندي غلاماً نقّاشاً نجّاراً حدّاداً فيه

---

١ - لعلّ أبا ريّة سبق الجميعَ في ذكر هذا الأمر استناداً إلى خبر الطبريّ، **أضواء على السنّة المحمّديّة**: ١٥٣ ـ ١٥٥؛ **في العبور الحضاريّ** «كعب الأحبار»: ٢٠٠ ـ ٢٠٤.

٢ - **أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهليّة**: ٢٣٧، ٢٤٠.

٣ - نقلت المصادر أنّ عمر لم يأذن للبالغين من العجم في دخول المدينة، ومن الصُدفة أنّ هذا الشخص الذي حصل على إذن الدخول مدّ يده لقتل الخليفة. وبعد ذلك عاتب عمر الذين وافقوا على مجيء مثل هؤلاء إلى المدينة واعتبرهم السببَ في قتله. انظر: **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ٨٨٩، ٩٠٣، ٩٠٤؛ النهاية في **غريب الحديث** ٣: ٢٨٦. وكان معارضوه يقولون: لا

منافع لأهل المدينة، فإن رأيتَ أن تأذن لي في الإرسال به فعلتُ، فأذن له. وقد كان المغيرة جعل عليه كلَّ يومٍ درهمين... ثمّ أتى عمر يشكو إليه ثقل خراجه، فقال له عمر: وما تُحسن من الأعمال؟ قال: نقّاش نجّار حدّاد، فقال له عمر: ما خراجك بكثيرٍ في كُنه ما تُحسن من الأعمال... ألم أُحدَّث عنك أنّك تقول: لو شئتُ أن أصنع رحًى تطحن بالريح لفعلتُ، فقال أبو لؤلؤة: لأصنعنّ لك رحى يتحدّث الناس بها... فقال عمر: أمّا العلج فقد توعّدني آنفاً. فلمّا أزمع بالذي أوعد به أخذ خنجراً فاشتمل عليه، ثمّ قعد لعمر في زاوية من زوايا المسجد... فطعنه ثلاث طعنات إحداهنّ تحت سرّته وهي التي قتلته، وطعن اثني عشر رجلًا... فمات منهم ستّة وبقي ستّة، ونحر نفسه بخنجره[1]. وذهب المسعوديّ إلى أنّ أبا لؤلؤة كان مجوسيّاً، بيدَ أنّ بعض المصادر أكّد نصرانيّته.[2] وتدلّ هذه القضيّة على أنَّ لها بُعداً شخصيّاً.[3] ونُقل عن أبي لؤلؤة أنّه قال بعد أن لم يُجب عمرُ عن اعتراضه: كيف يشمل عدل الخليفة جميع الناس إلّا أنا؟![4]

ويمكن الالتفات أيضاً إلى دافع آخر من بين دوافعه، وهي أنّه كان في صدد الثأر بالفرس بسبب هزيمتهم عند مواجهة المسلمين، ولا دليل على إثبات هذا الدافع.

تعمر المدينة إلّا بدخول العلوج ، وهم العجم الذين كانوا يذكرون بهذا الاسم تحقيراً.

١ - **مروج الذهب** ٢: ٣٢٠ - ٣٢١؛ وانظر: **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ٨٨٨؛ **الطبقات الكبرى** ٣: ٣٤٥؛ **مناقب عمر** ، لابن الجوزيّ: ٢١٠.

٢ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ١٩٠.

٣ - وعلى ذلك لايُستساغ الدفاع عنه من أيّ فرقة وطائفة كانْ، وإن ذهب بعض قديماً إلى أنّه مسلم، وأنّ قتل الخليفة انطلق من الخلافاتً الدينيّة ًوالمذهبيّة. انظر: **البدء والتاريخ** ٥: ١٩٤.

٤ - **حياة الحيوان** ١: ٥١.

وفي سياق ذلك اتّخذ الشيعةُ ـ وهم الّذين لم تطب قلوبهم من سيرة الخليفة ـ موقفاً إيجابيّاً من أبي لؤلؤة. قال المقدسيّ: ترحّم رافضيٌّ على أبي لؤلؤة، فقيل له: كان مجوسيّاً، فهل تترحّم على مجوسيّ؟ فقال: «كانت طعنتُه إسلامَه».[1] وفي الآداب العاميّة للشيعة أيضاً أمثلةٌ تدلُّ على أنّه كانت له شعبيّةٌ بين عوامّ الشيعة، وقد ذكرنا بعض هذه الأشعار في كتابنا «الشيعة في إيران». ويضاف إلى ذلك أنّ في كاشان موضعاً يعدُّ مزاراً له، وقد صُمّم على أساس بعض القصص العاميّة، وليس له أيُّ سندٍ تاريخيّ.[2]

وهناك احتمالان حول المحرّض لأبي لؤلؤة على القتل، أحدهما: رأي عبيد الله بن عمر، فقد زعم هذا الرجل أنّ الهرمزان تواطأ مع أبي لؤلؤة، وكان عبيد الله قد رآهما معاً قبل الحادثة بيوم، فقتل الهرمزانَ، وزوجةَ أبي لؤلؤة، وبنتَه، ولم يكن له أيُّ مسوّغ لهذا العمل، ومن الطبيعيّ أنّه يجب أن يُقتصَّ من عبيد الله بن عمر بسبب قتله ثلاثةَ أشخاص لايمكن أن يحمي دماءهم إلّا الحكومة. قال اليعقوبيّ: كان عمر قد أوصى وهو جريح بقصاص عبيد الله،[3] لكنّ عثمانَ لم يفعل ذلك وقال: لو فعلتُ ذلك، لقال الناس: قتلوا الأبَ أمسِ واليوم يقتلون الابنَ.[4]

والآخر: رأي عمر نفسه، أنّه ربّما كان لبعض المهاجرين يدٌ في هذه الواقعة؛ لذلك أرسل إليهم ابنَ عبّاس ليسألهم: أعن ملاءٍ منكم؟ فقالوا: معاذَ

---

١ - **البدء والتاريخ** ٥: ١٩٤. وانتشرت حكايات عاميّة كثيرة في المتون القصصيّة وكذلك في آدابهم المنظومة في هذا المجال منذ القرن السادس والسابع فصاعداً.

٢ - ألّف الميرزا عبد الله أفندي في هذا الموضوع كتاباً مفصّلاً بعنوان «تحفه فيروزيّة» (التحفة الفيروزيّة)، وذكرنا خلاصته في كتابنا «**صفويه در عرصهى دين، فرهنگ وسياست**» (الصفويّة في ميدان الدّين والثقافة والسياسة) ١: ٤١٨ - ٤٨٠.

٣ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٦١.

٤ - **تاريخ گزيده** (منتخَب التاريخ): ١٨٦.

الله! ما عَلِمْنا وما اطّلَعْنا[1]. وفي التاريخ أنّ موت الخليفة كان في السادس والعشرين أو السابع والعشرين من ذي الحجّة سنة ٢٣هـ، وله من العمر خمس وخمسون سنةً،[2] وإن نُقل عن معاوية أنّ عمره كان ثلاثاً وستّين سنة[3]! ولعلّ هذا الاختلاق يعود إلى رغبتهم في أن يجعلوه تِرْبَ رسول الله ﷺ.

ويبدو أنَّ عمرَ حين كان جريحاً في الأيّام الأخيرة من عمره لم يكن راضياً كثيراً عن حياته الدنيويّة، فقد كان يقول مراراً: يا ليتني لم أكُ شيئاً، ليتَ أمّي لم تلدْني، ليتني كنتُ نَسْياً منسيّاً، يا ليتني كُنْتُ حائكاً أعيش من عمل يدي».[4]

استمرار الفتوحات في الشام ومصر

استمرّت الفتوحات بالشام بعد فتح دمشق، ودفعت الانتصارات المتكرّرة للعرب المسلمين كثيراً من المدائن إلى طلب الصلح، إذ كانت تحصل حينئذٍ على امتيازاتٍ أكثر. ففُتحت مدينة بعلبك في ربيع الأوّل سنة ١٥هـ صلحاً. وبعد ذلك تعرّضت مدينة حمص التي كانت في عداد كبرى مدائن الشام لهجوم المسلمين في ربيع الآخر من السنة المذكورة، وقد نقل البلاذريّ أنّ أهل حمص حين رأوا فرار هرقل من مدينتهم، وانتصارات المسلمين المتكرّرة وصبرهم وجَلَدهم، طلبوا منهم الأمان بعد أن لجأوا إلى داخل

---

١ – نفسه: ١٨٤؛ **الطبقات الكبرى** ٣: ٣٤٨؛ **مصنّف عبد الرزّاق** ٦: ٥٢؛ **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ٩٠٤.

٢ – **المعارف**، لابن قتيبة: ١٨٣، وللاطّلاع على الأقوال الأُخرى انظر: **معرفة الصحابة** ١: ١٩٤ فما بعدها.

٣ – **تاريخ خليفة بن خيّاط**: ٥٣.

٤ – **الزهد والرقائق**: ٧٩، ٨٠، ١٤٥، ١٤٦؛ **بهجة المجالس** ٢: ٣٩٩؛ **حياة الصحابة** ٢:١١٥؛ **الطبقات الكبرى** ٣: ٣٦٠ ـ ٣٦١؛ **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ٩٢٠؛ **أمالي الشيخ المفيد**: ٥٠ .

المدينة بعد قتال هيّن خارجها، وتقرّر في الصلح الذي عُقد بين الطرفين أن يبقى سور المدينة وكنائسها في سلامٍ مضافاً إلى ما حصلوا عليه من أمانٍ على أنفسهم وأموالهم، ولم يُستثنَ من هذا الأمر إلّا ربع من أرض كنيسة يوحنّا لبناء مسجد. وسكن المسلمون أيضاً في البيوت التي رحل عنها أهلها، وكذلك في المناطق المهجورة.[1]

وفي تلك البرهة قَسّم أبوعبيدة حكم المناطق المختلفة بين أُمراء الجيش، فحكم يزيد بن أبي سفيان دمشقَ، وشرحبيل بن حسنة الأردنَ، وعمرو بن العاص فلسطينَ، وعبادة بن الصامت حمص، وسار أبوعبيدة إلى حماة وشيزَر لتوسيع الفتوحات. وحاول هراكليتوس ـ أو هرقل الذي كان قد فقد مراكز الشام المهمّة مرّةً أُخرى ـ أن يسير إلى حرب المسلمين بعد تجهيز جيش عظيم من الروم وأهل الشام وأهالي الجزيرة وأرمينية، إلى جانب جذام ولخم وغيرهما من القبائل العربيّة. وقد ذكرت المصادر التاريخيّة هذه القبائل باسم «المستعربة»،[2] وحدثت هذه الحرب العظيمة في منطقة اليرموك، وهو اسم نهر، وكان عدد المسلمين أربعةً وعشرين ألفاً، وعدد العدوّ الروميّ وحلفائه مئتَي ألفٍ، ويمكن أن يكون عدد هؤلاء مبالَغاً فيه، لكن علينا أن لا ننسى أنّ هرقل بذل قُصاراه من أجل المحافظة على الشام. وبلغت هذه الحرب مبلغاً من الشدّة على المسلمين حتّى قيل: إنّ نساءَهم أُجبرنَ على القتال أيضاً،[3] وانتهت حرب اليرموك بانتصار المسلمين، وبعدها غادر هرقل أنطاكية متوجّهاً تلقاء القسطنطينيّة. وكان جبلّة بن الأيهم في هذه الحرب قائداً

---

١ – فتوح البلدان: ١٣٧.

٢ – انظر: فتوح البلدان: ١٤٠.

٣ – نفسه: ١٤١.

على مقدّمة جيش الروم، واختلفت المصادر في هذا الرجل، أأسلم أم لا؟ ولِمَ امتعض من عمر؟ ولماذا ندم عمر على موقفه منه؟[١]

وأفلح المسلمون بعد سنة من واقعة اليرموك في محاصرة بيت المقدس، وفي البداية دعاهم أبوعبيدةً إلى الإسلام أو دفع الجزية، ولمّا رفضوا الخيارين، حاصر مدينتهم، وحين استوبل نصاراها الوضع رضخوا للمصالحة، بشرط أن يأتي الخليفة نفسه إلى القدس ويوقّع معهم معاهدة الصلح[٢]. وتردّد عمر في الذهاب إلى القدس، فشاور بعض الصحابة، فعارض عثمان ذهابه، أمّا الإمام عليّ عليه السلام فقد شجّعه على الذهاب ورأى أنّ في ذلك مصلحةَ الإسلام والمسلمين، فقبل عمر رأيه واستخلفه على المدينة. ثمّ سار إلى القدس.[٣] ويُحتمل أنّه توجّه إلى الشام في السنة السادسة عشرة، أو السابعة عشرة على ما نقل البعض.[٤]

ووُقّعت عهود ومواثيق متبادلة في الصلح الذي عقده عمر مع نصارى الشام، وشرطَ الناس ألّا تُدمَّر كنيسةٌ ولا يُكسر صليبٌ مضافاً إلى الأمان على أرواحهم، وأموالهم، ودينهم. ومن الشروط المهمّة أنّ على المسلمين ألّا يسمحوا لليهود بالسكن في القدس، وألّا يكون إكراه في الدين. وتعهّد أهل القدس أيضاً أن يدفعوا الخراج كما يدفعه أهل المدائن، ويطردوا الروم من القدس، وفي الوقت نفسه أنّ الناس أحرار في أن يرحلوا بأموالهم إلى الروم

---

١ - نفسه: ١٤١ - ١٤٢.

٢ - **الأنس الجليل** ١: ١٢٦.

٣ - نفسه ١: ٢٥٠.

٤ - **فتوح البلدان**: ١٤٥؛ وقال جماعة: سافر عمر إلى الشام أربع مرّات أيّام خلافته. انظر: **فتوح مصر وأخبارها**: ٥٦ (الهامش).

أو إلى أيّ مكان شاؤوا[١]. وفي هذه السفرة دخل عمر المسجد وسأل كعب الأحبار عن موضع المحراب، فقال: ليجعلوا المحراب باتّجاه الصخرة حيث قبلة اليهود! فاضطرب عمر من جوابه وقال له: كلامك بكلام اليهود أشبه[٢].

وبعد رجوع عمر من الشام بمدّة فشا فيها طاعون فتّاك، وانتشر فيها هذا الطاعون المشهور بطاعون «عمواس» سنة ١٨هـ، وأهلك خلقاً كثيراً من المسلمين. وحسبنا أن نعلم أنّ أهمّ قادة الشام ماتوا فيه، وهم: أبوعبيدة بن الجرّاح، ومُعاذ بن جبل، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، والفضل ابن عبّاس، وسهيل بن عمرو، ومات يزيد بعد موت أبي عبيدة بقليل، وكان قد خَلَفَه.وولّى عمرُ معاويةَ مكانه، فشكره أبوسفيان الذي كان قد فَقَدَ بَصَرَهُ آنذاك؛ لصلته رَحِمَه[٣]، وحكم معاوية بلاد الشام بأسرها في السنين الأخيرة من خلافة عمر[٤].

ومن المدائن المهمّة التي فُتحت أيّام معاوية مدينة «قِيساريّة»، ويدور خلاف حول سنة فتحها، أكانت سنة ١٨ أم ١٩هـ؟[٥] وواصل الجيش العربيّ فتوحاته في سائر مناطق الشام، وكانت المدن الصغيرة في تلك الفترة هي التي تقبل الصلح، وأسلم كثير من العرب، كما كان للنصارى إقبال شديد على اعتناق الإسلام[٦].

ولمّا كان عمر بالشام، استأذنه عمرو بن العاص في أن يسير إلى فتح

---

١ - **الأنس الجليل** ١: ٢٥٣ - ٢٥٤.

٢ - نفسه: ٢٥٦ - ٢٥٧.

٣ - **فتوح البلدان**: ١٤٦.

٤ - **تاريخ خليفة بن خيّاط**: ١٥٧.

٥ - **فتوح البلدان**: ١٤٨.

٦ - نفسه: ١٥١.

مصر، وقيل: إنّه ذهب إليها للتجارة أيّام الجاهليّة، فكان على معرفة بها نوعاً ما، [١] وكان عمر يخشى من هذا العمل، ولم يرضَ به إلّا بعد إصرار عمرو الذي كان يحاول أن يستهين بهذا العمل. وسار عمرو إلى مصر بجيش يسير تراوح بين ثلاثة آلاف وخمسمئة، وأربعة آلاف رجل ، وذُكر أنّ عمر ندم إرسال عمرو إلى مصر بعد ذهابه ، فكتب إليه أن يرجع ما لم يدخلها، لكنّ عَمراً كان قد دخلها، ويبدو أنّ عثمان كان قد أراد باتّهامه عَمراً بحبّ الرئاسة أن يهوّل على عمر خطر إبادة الجيش العربيّ.[٢]

وكان حاكم مصر الذي يسمّيهِ العرب «المُقَوقِس» يحكمها نيابةً عن الرّوم، وكان قبطيّاً؛ ولذلك خاطبه رسول الله ﷺ في كتابه إليه بـ «عظيم القِبط». ودامت حروب المسلمين مع جند المقوقس سنتين، وفُتح كثيرٌ من المناطق خلال هذه المدّة، واستطاع المسلمون أن يستولوا على مدن ومناطق كثيرة. والعامل المهمّ في فتح مصر تَنازع المصريّين الأقباط مع الرّوم، وهذا ما حمل الأقباط على أن لايرغبوا كثيراً في الدفاع عن الروم. وكان المقوقس متردّداً في هذا الأمر، ومتربّصاً بما يؤول إليه الأمر. وكان أخوه بنيامين أُسقفَ الإسكندريّة. وجاء إلى مصر في هذه الفترة رجلٌ يدعى قيرس (cyrus) مبعوثاً من قيصر الروم من أجل إصلاح الشؤون الدينيّة في مصر، وتشدّد كثيراً في عمله، وكان لهذا الموقف تأثيره الخاصّ في ابتعاد الأقباط عن الروم[٣]. ويضاف إلى هذا أنّ خبر الانتصارات المتكرّرة للجيش العربيّ في الشام كان يرغّب الناس في الاستسلام[٤].

١ - **فتوح مصر وأخبارها**: ٥٣.

٢ - نفسه: ٥٧ _ ٥٨

٣ - **أطلس تاريخ الإسلام**: ١٣٣.

٤ - كان الرجل يقول للآخر: إنّ هؤلاء القوم لايتوجّهون إلى أحد إلّا ظهروا عليه، **فتوح مصر وأخبارها**: ٥٩.

وسبّب التأخير في فتح الإسكندريّة التي حاصرها المسلمون أربعة أشهر، يكمن في إرسال المَدَد إلى مصر،[١] وفي خاتمة المطاف وقعت هذه المدينة بيد المسلمين سنة ٢٠هـ . ويدور خلافٌ حول فتح مصر، أكان عَنْوَةً أم صلحاً؟ وهذا الخلاف قائم أيضاً حول كثيرٍ من المدن الأُخرى! وبعد الاستقرار جعل المسلمون مدينة الفسطاط ـ التي كانت معسكراً لهم ـ مركزاً لحكومتهم وتركوا الإسكندريّة، وكان هذا الانتخاب رائقاً من الوجهة العسكريّة والسياسيّة.

وكان بين جُند عمرو بن العاص طائفة من غير العرب أيضاً، وفيهم الذين كانوا يقال لهم: «الحمراء» وهم من أُصول روميّة، كما أنّ فيهم الفُرس الذين كانوا في اليمن وجاؤوا إلى هذه المناطق مع القبائل العربيّة من أجل الفتوحات، وأُسكنوا بعد فتح مصر في مكان، ذكر ابن عبد الحكم أنّ مسجدهم فيه كان – حتّى عصره – مشهوراً ومعروفاً في القرن الثالث[٢].

ويمكن أن نذكر أموراً كثيرةً حول أسباب بلوغ الفتوحات ذروتها، وطبيعيٌّ أنّ لفتح كلّ منطقة أسبابه الخاصّة . على سبيل المثال، كان لفتح إيران ظروفه التي تتفاوت وظروف الشام إلى حدٍّ ما، وفي الوقت نفسه أنّ هذه الفتوحات كانت تتحقّق في جميع المناطق على يد المسلمين العرب. فمن الطبيعيّ إذاً أن نعتبر عزمهم في هذا المجال العاملَ الأوّل للفتوحات المذكورة، وهذا العزم نابعٌ من إيمانهم الدينيّ من جهة، وقيادتهم من جهة أخرى، ونظامهم الإداريّ والقانونيّ فيما يرتبط بالغنائم من جهة ثالثة. وقد جعل الإسلام سهماً عظيماً للمقاتلين، وكان من الطبيعيّ للعرب الفقراء الجياع

---

١ – نفسه: ٦١.

٢ – نفسه ١٢٩.

الذين يشهدون ساحات الوغى أن يصير لهم ولأبنائهم مستقبل جيّد من الناحية الماليّة، وهذا مشروطٌ طبعاً بنجاتهم من الموت. من هنا لم يكن لهم أن يأتوا الحربَ رجاءَ المال والعرض والمتاع؛ فقد كانوا يرون الشهادة في هذا السبيل عطاءً عظيماً لهم، ولذلك لم يكونوا قلقين من هذا الأمر.

وكانت ثقة المسلمين بأنفسهم عاليةً، وقد وعدهم رسول الله ﷺ من قبلُ بالغلبة على الروم والفرس منذ اليوم الأوّل، وأمّلهم بأنّ كنوز قيصر وكسرى ستُصبح بأيديهم، فكانوا يذهبون إلى ميادين القتال بإرادة صلبة واثقين بصدق وعده ﷺ، ثمّ جعلتهم الانتصارات الأولى أقوى، وأكثر نشاطاً وثقةً واطمئناناً، كما مهّدت لفتوحاتٍ أكثر. والنقطة الأخرى هي أنّ قوّتهم غير رهينة بوجود خليفة خاصّ، إذ يشهد التاريخ أنّ كلّ خليفة ـ منذ العصر الأوّل للفتوحات إلى نهاية القرن الأوّل ـ إذا أُتيحت له الفرصة لمواصلة الفتوحات استطاع أن يَخضع مدائن كثيرةً لسلطة المسلمين. وفي هذا المجال يتعيّن علينا أن نأخذ بعين الاعتبار ثقة الناس بالحكومة كعاملٍ أصليّ في هذه الانتصارات، ولم تصدر أيّ معارضة عن أيّ قائد في المدينة إبّان السنين التي كان الناس فيها مشغولين بالفتوحات إلى ما قبل الثورة على عثمان، وكانت أوامر الخليفة مطاعةً تماماً. وعلينا ألّا نغفل عن أنّ الخلفاء الأوَل كانوا يختارون الأشخاص الذين هم من الجيل الثاني من الصحابة غالباً، وممّن يعطيهم القياد، بيد أنّ أهميّة الفتوحات من كلّ جهة منعت أصحاب الاختلاف في الآراء من تحويل اختلافهم إلى ثورة سياسيّة، وحينئذٍ كان جمهور الناس حين يرى مثل هذا الوضع يزاول الفتوحات ببال رخيّ.

لكنّ نجاح العرب في الشّام كانت له أسبابه الخاصّة ، منها: أنّ قسماً كبيراً من العرب القاطنين بالشام ـ على الرغم من نصرانيّتهم ـ كان لهم تعلّق واتّصال بالجزيرة العربيّة من الوجهة العرقيّة، وبالقدر نفسه كان بينهم وبين

الروم فاصل اجتماعيّ، حيث يرون أنفسهم بعيدين عنهم. ومنذ بداية الفتوحات التحق جماعة من قبيلتَي لخم وجذام بالمسلمين، لكنّهم لمّا رأوا بعد مدّة قصيرة أنّ الحرب قد احتدمت فرّوا إلى القرى المجاورة وتركوا المسلمين وحدهم.[١] وفي رأي جبلّة بن الأيهم أنّه ينتسب إلى الأنصار الذين كانوا في الأصل من القبائل الجنوبيّة، إذ خاطبهم بقوله: أنتم إخوتنا وبنو أبينا. وفي فتح قنّسرين أيضاً بعث أهلها رسالةً يذكرون فيها أنّهم عرب وليس لهم نيّة في حرب المسلمين، من هنا قَبِل خالد الصلح معهم.[٢] وكانت قبيلةُ تغلب تحارب إلى جانب الروم زمناً، حتّى قالت في سنة ١٣هـ: نحن نحارب قومنا.[٣] علماً أنّ بعض القبائل لازمَ الروم إلى النهاية، ولجأ إلى بلادهم بعد فتح المسلمين الشام. وإذا تخطّينا العرب الساكنين في الشام، والذين لم يشعروا بالانسجام مع الروم، فإنّ اليهود والأنباط والأقباط في مصر كانوا يعيشون نفس الوضع؛ بخاصّة أنّهم لمّا رأوا المعاملة اللّيّنة للمسلمين شعروا أنّ المسلمين يمكن أن يعاملوهم معاملةً أفضل ويضمنوا حقوقهم.

واستولى المسلمون على حمص حيناً، لكنّهم لمّا رأوا أنفسهم أنّهم سيخوضون حرباً كحرب اليرموك واحتملوا أنّهم سيُقتلون، أرادوا أن يُرجعوا إلى أهل حمص الخراج الذي كانوا أخذوه منهم لسنةٍ؛ لأنّهم أخذوه منهم لإقرار الأمن، والآن إذ تقرّر ألّا يبقوا فعليهم أن يُرجعوه. وقال أهل حمص: «لَولايتكُم وعدلكم أحبّ إلينا ممّا كنّا فيه من الظلم والغشم، ولندفعنّ جند هرقل عن المدينة مع عاملكم»[٤]. وصُرِّح بشأن الأنباط أنّهم كانوا يتعاونون مع

---

١ - تاريخ الطبريّ ٣: ٥٧١.

٢ - نفسه ٣: ٦٠١.

٣ - نفسه ٣: ٤٦٤.

٤ - فتوح البلدان: ١٤٣.

المسلمين تعاوناً وثيقاً، ولمّا لم يُسئ الروم الظنّ بهم فقد أخذوا يتجسّسون لمصلحة المسلمين.[1]

والنقطة الأخرى هي أنّ الخلافات الدينيّة كانت قائمة بين أهل الشام والروم، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل، وإذا قبلنا أنّ الروم لو لم يعاملوا هؤلاء الناس معاملةً حسنةً من الوجهة الدينيّة، وكذا من الوجهة الاقتصاديّة والسياسيّة على حدٍّ سواء، لَصَدَقَ كلام ويل ديورانت إذ قال: «حينما هاجم العرب الفاتحون مصر والشرق الأدنى في القرن السابع، فإنّ نصف سكّان هذه المناطق رحّبوا بقدومهم، لأنّهم كانوا يرونهم محرّرين لهم من أغلال الظلم الدينيّ والسياسيّ، والاقتصاديّ للعاصمة البيزنطيّة»[2]. ومهما كان، فإنّ مدائن كثيرة سلكت سبيل الاستسلام بعد امتداد الفتوحات بقليل.[3]

استمرار الفتوحات في العراق وفتح بلاد فارس

اقترنت خلافة عمر بالانتصارات التي حقّقها الجيش الإسلاميّ في سورية بعد فتح دمشق، ولا بدّ للعراق من إجراءات مماثلة أيضاً لسببين؛ الأوّل: تثبيت وضعه لمصلحة المسلمين، والآخر: توسيع الفتوحات. وكانت الحيرة قد خرجت من قبضة الفُرس آنذاك، ومن الطبيعيّ أنّ الفرس كانوا ينتظرون الفرصة لدرء الخطر الجديد. وكان أميرُ الجيش العربيّ المثنّى بنَ حارثة، بيد أنّ الخلافة في المدينة كانت تريد ـ كعهد أبي بكر ـ إيفاد أمير من الحجاز، بخاصّة من قبائله المعروفة، إلى العراق. والشخص الذي اختير لهذه المهمّة هو أبوعبيد بن مسعود الثقفيّ – والد المختار – من قبيلة ثقيف حليفة قريش

---

١ – **الفتوح** ١: ١٤٣ – ١٤٤.

٢ – **قصّة الحضارة** ٤: ٦٤، وانظر: **الشام في صدر الإسلام**: ٦٣ – ٦٤، الهامش.

٣ – انظر: **الشام في صدر الإسلام**: ٦٠ – ٧٠.

القديمة. فسار أبوعبيد في جيش قوامه خمسة آلاف[١]، ورغّب أثناءَ مسيره قبائل كثيرة في «الجهاد والغنيمة»، فصحبه خَلْق[٢]. وقُرِّر أن يعمل المثنّى بن حارثة تحت إشراف أبي عبيد، وعبّأ الفُرسُ في الجانب الشرقيّ من الفرات جيشاً بقيادة بهمن جادوَيْه (من رجال شاه حاجب)، واستقرّ جيش أبي عبيد في الجانب الغربيّ منه، وعبر جسراً على النهر من أجل الاشتباك، وبدأ القتال.

أجمعت المصادر على أنّ المسلمين ـ بالرغم من الشجاعة التي أبدوها ـ فرّت خيولهم من الميدان ، ومن ثَمّ انهزموا بسبب وجود الفِيَلة القويّة الضخمة في جيش الفرس. وبناءً على تضارب الأخبار، دمّر العرب أنفسهم ـ أو عدّوهم ـ الجسر الذي كان على النهر، فلم يمكنهم الرجوع لانسداد الطريق، وهذا ما سبّب في حدوث خسائر أكثر، ومع هذا نُصِب جسرٌ مؤقّت، وانهزم العرب في هذه الحرب التي عُرِفت بـ«يوم الجسر» بعد أن فقدوا (٤٠٠٠) من قوّاتهم.[٣] ونقل ابن أعثم هذه الحادثة بشكلٍ يتبيّن منه أنّ المسلمين استطاعوا أن يهزموا العجم ويرجعوا إلى معسكرهم.[٤] وما تركُ الفرس ملاحقةَ المسلمين إلّا دليلٌ على أنّهم لا استعداد عندهم لمثل هذا العمل، ويُحتمَل أنّ هذه الواقعة حدثت في شعبان أو شهر رمضان سنة ١٣هـ[٥].

قال أبومخنف وغيره: ظلّ عمر كاسف البال مضطرباً بعد واقعة الجسر

---

١ - **الفتوح** ١: ١٦٥.
٢ - **فتوح البلدان**: ٢٥١؛ **الأخبار الطوال**: ١١٣.
٣ - انظر: **تاريخ إيران**، كمبريج ٤: ١٥.
٤ - **الفتوح** ١: ١٧٠.
٥ - **الأخبار الطوال**: ١١٤؛ **أطلس تاريخ الإسلام**: ١٢٨. وَهِم مؤلّف الأطلس المذكور في اسم ملك إيران آنذاك في أنّه شهربراز، وبعده شيرويه، ثمّ بوران، ففي الأصل حلّ يزدجرد محلّهم منذ سنة ٦٣٢، وفي عصره بدأ فتح العراق.

بسنة، وفي هذه البرهة دعا المثنّى بنُ حارثة العرب إلى الجهاد. وبالتدريج فكّرَ عمر بمواصلة العمليّات. وبعد ذلك التحق بالجيش العربيّ في العراق سبعمئة بقيادة مِخْنَف بن سُلَيم (جدّ المؤرّخ الشيعيّ أبي مخنف) وألفٌ بقيادة عَدِيّ بن حاتِم من قبيلة طيّئ، وجماعة من بني تميم،[١] وأرسِلت قبيلة بُجيلة إلى العراق أيضاً على أمل أن يكون ربع الغنائم لهم.[٢] واشتبك الجيش العربيّ في منطقة البويب - نهرٌ متفرّع من الفرات - بالجيش الفارسيّ المؤلّف من اثني عشر ألفاً بقيادة مهران بن مهربنداد (مهرَوَيه الهَمَدانيّ)[٣]، فقتل مهران في هذه الحرب وهُزِم جيش الفُرس هزيمةً نكراء. وأسِر عددٌ كبير من جنوده، ووقعت غنائم كثيرة بيد المسلمين. أمّا المثنّى فقد أبدى في هذه الحرب شجاعةً فائقة، حتّى لَتُشَمُّ رائحة المدح والثناء لقيادة المثنّى بشكل واضح في شعر عروة بن زيد الخيل، فقد أنشد قائلًا:

ما إنْ رأينا أميراً بالعراق مضى مِثلَ المثنّى الذي مِن آل شيبانا[٤]

وبعد حينٍ من هذه الحادثة مات المثنّى بن حارثة إثرَ جرحه في واقعة الجسر.

ويدور خلافٌ حول سنة الواقعة، أكانت سنة ١٣ أم ١٤هـ؟ وإن أُشير إلى أنّ عمر لم يَقُم بأيّ عمل بعد الواقعة بسنة، فلا يمكن أن تكون قد وقعت قبل سنة ١٤هـ . وبعد هذا الانتصار ازدادت جرأة المسلمين، فكانوا يهاجمون

---

١ - **الأخبار الطوال**: ١١٤.

٢ - وعد جرير بن عبد الله البجليّ أفراد قبيلته أيضاً أثناء الحرب في أنّ البلاد، إن فتحها الله عليهم، فلهم فيها حظوة ليست لأحدٍ من العرب. **الأخبار الطوال**: ١١٥.

٣ - نفسه: ١١٤؛ قال ابن أعثم: كان مهرداد ملك آذربايجان. (**الفتوح** ١: ١٦٨).

٤ - نفسه: ١١٥.

باستمرار مناطق العراق المختلفة التي ما زالت خاضعة لسُلطة الفُرس، ومنها سوقٌ مهمّ نوعاً ما كان يُقام بجنب بغداد التي كانت آنذاك قرية صغيرة إلى جانبها سوقٌ كبير. وهذا يعني أنّ فارساً لم تستطع إقرار الأمن في العراق، فلابدّ أن تفكّر بحلٍّ لهذه المشكلة أسرع ما يكون.

وعلى ما نقله الدينوريّ، فإنّ سُوَيد بن قطبة (الذي كان بين الكرّ والفرّ في مناطق البصرة) حين سمع أخبار هذه الحروب من المثنّى، طلب من عمر أن يفكّر في جنوب العراق الذي كان ذا وضعٍ ضعيفٍ جداً، ويرسل إليه القوّات، ويبدو أنّ عمر لم يطمئنّ إلى توليته، فأرسل عتبةَ بن غزوان إلى هذه المنطقة على رأس ألفٍ من الجند، وشايعه عند خروجه من المدينة، وفي سياق تفكيره في عبور المسلمين من الفرات متوجّهين تلقاء المدائن، أوصاه بأن يسير إلى الأهواز ويردع أهلها عن مساعدة الجيش الفارسيّ في أطراف المدائن. وصل عتبةُ إلى الموضع الذي يُسمّى هذا اليوم بالبصرة، فلم يكن فيه إلّا دورٌ خربة. وكان مركزاً لحرّاس الثغور الفُرس من أجل الحَؤُول دون اعتداءات الأعراب [سكّان البادية].

وأوّل منطقةٍ تعرّضت للهجوم في البصرة هي الأُبُلّة فكانت الغلبة فيها للمسلمين، وتعتبر هذه المدينة مدخل العراق، فكتب عتبةُ إلى الخليفة يخبره بهذا النصر، ويذكر له أنّها مرسى سفن البحر من عُمان، والبحرين، وفارس، والهند، والصين[1]. ولمّا وصل هذا الخبر إلى المدينة سأل الناس مبعوثَ عتبة عن أوضاع المنطقة، فأخبرهم عن مقدار الذهب والفضّة في أيدي المسلمين،

---

١ - نفسه: ١١٦.

ممّا دفعهم إلى التقاطُر على تلك المنطقة[١]. وكانت الأُبُلّة على أربعة فراسخ من البصرة، ويبدو أنّها كانت عامرة حتّى القرن السابع[٢]، ثمّ تقلّص شأنها بعد نشوء البصرة أساساً، وقيل فيها وفي بعض المدن الأخرى مثل الخُرَيبة التي فُتحت بعدها بقليل: إنّها كانت مقرّاً للقوّات الفارسيّة الحدوديّة. وكانت الخُريبة حيّاً من أحياء البصرة التي تلتها في التأسيس بمدّة قصيرة، قال ياقوت الحمويّ: «بُنيت البصرة... إلى جانب مدينة عتيقة من مُدُن الفُرس، (كانت تُسمّى: وُهِشتاباد أردشير)، فخرّبها المثنّى بن حارثة الشيبانيّ بشنّ الغارات عليها، فلمّا قدمت العرب البصرة سمّوها: الخُريبة»[٣]. وبعد ذلك صارت الخريبة محلّةً من محلّات البصرة.

ويُستشفُّ من أخبار الدينوريّ أنّ فتح البصرة وتأسيسها كان قبل حرب القادسيّة، ويدلُّ تأسيس البصرة قبل الكوفة إلى حدٍّ ما على أنّ مجيء عتبة إلى جنوب العراق كان قبل القادسيّة. وقد ذكر ياقوت - مشيراً إلى هذا الموضوع - أنّ عتبة جاء إلى جنوب العراق وفَتَحَ البصرة بعد القادسيّة[٤]. والمهمّ هنا هو فتح جبهتين ضدّ بلاد فارس حوالَي سنة ١٥ و١٦هـ، إحداهما في الكوفة، إذ تقدّمت القوّات منها نحو المدائن، والأُخرى في البصرة، إذ تحرّك العرب للسيطرة على المناطق الجنوبيّة الفارسيّة في خوزستان. وهاتان الجبهتان هما السبب في تأسيس المدينتَين المهمّتَين في العراق: البصرة والكوفة، اللّتين شكّلتا فيما بعد - مع بغداد التي بُنيت في القرن الثاني - أساسَ العراق الإسلاميّ. وقيل: إنّ البصرة موضعٌ، وهي إذ ذاك حجارة سود

١ - نفسه: ١١٧.
٢ - **الطريق إلى المدائن**: ٢١٣.
٣ - **معجم البلدان** ٢: ٣٦٣.
٤ - نفسه ١: ٤٣٢.

وحصى[1]. وذكر ياقوت مشيراً إلى هذه التسمية نقلاً عن حمزة الأصفهانيّ: أنّ موبذ بن أسوهشت قال: البصرة مُعرَّب «بَسْ راهْ» [الطرق الكثيرة]، إذ كانت لها طرق عديدة[2].

واستأذن عتبة بن غزوان الخليفةَ بعد فتح الإبلّة في بناء مدينة لإسكان العرب المهاجرين، وكانت الضرورةُ لتأسيس مثل هذه المدينة مِن أجل استقرار العوائل المهاجرة التي كانت قد جاءت هذه المنطقةَ للجهاد واضحةً غايةَ الوضوح، فأذِن عمر في تأسيسها بعد حصوله على معلومات كثيرة حول وضع المنطقة، وهكذا تمصّرت البصرة. وبعد مدّة قليلة شعر عتبةُ أنّ سعد ابن أبي وقّاص يتأمّر عليه، فهو - الذي كان يرى نفسه قد نصبه عمر - اعترض عليه وذهب إلى المدينة، ولمّا سمع عمر شكواه سأله عن سبب رفضه إمارةَ قرشيٍّ من الصحابة، فقال عتبة بأنّه من مَوالي قريش أيضاً، وقد قال رسول الله ﷺ: مولى القوم منهم. ويبدو أنّ عمر طلب منه أن يرجع إلى البصرة، لكنّه مات بعد مدّة قصيرة[3]. وخَلّدَ لعتبة كلام خاطب به الناسَ في البصرة سنة ١٧هـ، فقال: إنّه لم تكن النبوّة إلّا تناسخها مُلْك، فأعوذ بالله أن يدركنا ذلك الزمان الذي يكون فيه السُّلطان مَلْكاً.[4]

وتقدّم أنّ حادثة البويب أفزعت الفُرس، فتعبّأ منهم هذه المَرّة جيش أعظم من ذي قبل بقيادة أقوى أمرائهم، وهو رستم فرخ زاد قائد القوّات الفارسيّة في آذربايجان؛ للحؤول دون هجوم العرب. وقد تحدّث ابن أعثم عن كيفيّة إرسال القوّات إلى ميدان الحرب، إذ أرسلها بهرام حاكم همدان،

---

١ - **الأخبار الطوال**: ١١٧.

٢ - **معجم البلدان** ١: ٤٣٠.

٣ - نفسه ١: ٤٣٢.

٤ - **الطبقات الكبرى** ٧: ٧.

وشيرزاد حاكم قمّ وكاشان، وبَنْدُران حاكم أصفهان، وخرشيد حـاكم الـريّ[١]. وكان على الخليفة أيضاً أن يُعبّئ جيشاً مقتدراً بقيـادة شـديدة البـأس، فعـزم عمر في البداية على أن يذهب هو نفسه إلى العـراق، بيـد أنّ أعيـان المدينـة حذّروه من ذلك، ورُشّح عدد من الأشخاص للقيادة، أحـدهم أميـر المـؤمنين عليّ عليه السلام، إذ تحدّث معه عثمان في هذا الشأن بوصيّة من عمر، لكنّ الإمام عليه السلام رفض ذلك، فاختير سعدُ بن أبي وقّاص للقيادة[٢] ومنَ الطريف أنّ سـعداً كـان مجروحاً في فخذه منذ الحرب السابقة، فلم يستطع أن يركب فرسه[٣]، لـذا لـم يحضر في ميدان القتال، بل كان يُشرف على القتال عن بُعـد. وحملـت هـذه الحرب التي انتهت بأنكى هزيمة للفُرس اسمَ «القادسيّة». «وكانـت القادسـيّة مدينة صغيرة تبعد خمسين ميلاً عن الكوفة، وتقع في حافّة صـحراء الطـفّ، وكانت ثغراً من الثغور، فيه قلعة وواحة ونخيلٍ وأراضٍ زراعيّة. وكانت محلّـة العُذَيب قريباً من القادسيّة على بُعد أربعة إلى ستّة أميال، وفيهـا عـين تفـور، وهي آخر مرحلة من مراحل الصحراء، فنصب سعد بن أبـي وقّـاص خيمتـه في العُذَيب، وخَيَّمَ رستم خارج القادسيّة»[٤].

وهنا اختلفت الإحصائيّات فـي عـدد القـوّات الفارسـيّة والعربيّـة حتّـى يصعب الجمع بينها، ويمكن أن نحدس - على سبيل الاحتمـال - أنّ قـوّات العرب كانت تتراوح بين عشرين وثلاثين ألفاً[٥]، وأنّ القـوّات الفارسـيّة كانـت

---

١ - **الفتوح** ١: ٢٠١.

٢ - **مروج الذهب** ٢: ٣١٠.

٣ - **الأخبار الطوال**: ١٢١.

٤ - **تاريخ إيران**، كمبريج ٤: ١٧.

٥ - **الأخبار الطوال**: ١١٩؛ (ذهب في البداية إلى أنّ العِدد عشرون ألفاً، لكنّه ذكر في تتمّة كلامـه القوّات التي التحقت بها من البصرة والمناطق الأخرى) وانظر: **الفتوح** ١: ١٧٥ (وفيه إحصـاء لأفراد القبائل).

ثلاثة أو أربعة أضعافهم، فيما ذكر ابن أعثم أنّ قوّات العرب كانت ستّين ألفاً[١]. وقد حاول رستم بإقامته أربعة أشهر في «دير الأعور»[٢] أن يعالج الموقف بنحو من الأنحاء، وكان يريد أن يُرضي العرب الذين ظنّ أنّهم جاؤوا الحربَ لسدّ رمقهم[٣]، فيصرفهم عنها عبر المفاوضات. يضاف إلى ذلك أنّ الأشهر الأربعة يمكن أن تُضني القوّات العربيّة وتهزلهم. وفي المقابل كان المسلمون مصرّين على ثلاثة شروط: إمّا اعتناق الإسلام؛ أو إعطاء الجزية؛ أو خوض القتال. ولم يتسنّ للدولة الفارسيّة العظمى أن تقبل الشرطين الأوّلين، بخاصّة قد صدرا عن العرب الذين لم تُقم لهم وزناً، فلا بدّ لرستم من خوض الحرب. وقد ذكر ابن أعثم أنّ سعداً بعث إلى المدائن جماعة استجابةً لطلب يزدجرد، وفيهم المُغيرة، فدخلوا بلاطه، فجلس المغيرة جنب الملك على العرش خلاف الآخرين الذين جلسوا على الأرض! فسأله الملك: ما هذا اللّباس؟ وما أنت لابس؟ فقال المغيرة: بُردٌ يمانيّ، فتشاءمَ الملك من هذا الجواب وقال ما معناه: «اكتَسَحوا العالَم»![٤] [لمّا سمع الملك كلمة «بُرد» وهي بالعربيّة تعني الثوب المخطّط، قال بالفارسيّة: (بُرْدَنْدْ)، وهي بمعنى: أخَذوا، واكتسحوا].

وبدأت حرب القادسيّة وطالت أربعة أيّام، وسُمّيَ كُلّ يوم باسمٍ خاصٍّ: «أرماث»، «أغواث»، «عَماس»، و«القادسيّة»[٥]، وانتهت الحرب بانتصار العرب، وقُتِل رستم فيها، وتقهقرت القوّات الفارسيّة إلى دير كعب، وجاءت هناك

---

١ - **الفتوح** ١: ٢٠١ .

٢ - **الأخبار الطوال**: ١٢٠.

٣ - نفسه: ١٢٠ - ١٢١. (أشير إلى هذه القضيّة بدقّة في تضاعيف كلام رستم مع المغيرة).

٤ - **الفتوح** ١: ١٩٧. نقل ابن أعثم نفس الكلمة الفارسيّة للملك، وهي (بُردند جَهانْ را).

٥ - ذكر ابن أعثم الأسماء بشكل آخر. **الفتوح** ١: ٢٠١.

قوّات جديدة لنُجدتهم بقيادة «نخارجان»، وتقدّم الفرس مرّةً أخرى بعد تجديد قواهم. هنا أشار الدينوريّ إلى مجيء هذا القائد إلى ميدان القتال، فذكر أنّه طلب البراز بندائه: «مَرْدْ، مَرْدْ»[١] [ألا مِن رَجُل! ألا من رَجُل]. وقُتِل نخارجان، قتله زهير بن سُلَيم (أخو مِخْنَف بن سليم). وتوسّع القتال وهُزِم العجم هذه المرّة أيضاً ففرّوا إلى المدائن، ولم تكن هزيمة الفُرس بهذه البساطة، بل قُسِر العرب على أن يتكبّدوا خسائر جسيمة في هذه الحرب. قيل: التفّ جماعة من الفُرس حول راية الجيش الفارسيّ وقالوا: لا نبرح موضعنا حتّى نموت، وهكذا فعلوا، [٢] وفي مقابل هؤلاء نجد ما أبداه العرب من الشجاعة ما جعل الموقف عويصاً. تحدّث أبو رجاء الفارسيّ عن الفزع الذي أحدثته سهام العرب في نفوس الفُرس نقلاً عن جدّه الذي شهد القادسيّة في الجيش الفارسيّ، وكيف ضيّقت عليهم الخِناق.[٣]

ويدور خلافٌ حول السنة التي وقعت فيها الحرب، فذهب الواقديّ إلى أنّها كانت في سنة ١٦هـ، [٤] وذهب المؤرّخ الأرمنيّ إلياس النصيبينيّ إلى أنّها كانت في جُمادى الأولى سنة ١٦هـ، في حين ذكر ابن إسحاق أنّها كانت في سنة ١٥هـ[٥]، ورأى محقّق آخر بعد نقل ما ذكر أنّ التاريخ المؤكّد لها كان شعبان سنة ١٥هـ[٦]. وفي هذه الحرب وقع العَلَم الكاويانيّ الذي كان شعار الجيش الساسانيّ في أيدي المسلمين[٧]، وهو ما يعبّر عن زوال الحكومة

---

١ - **الأخبار الطوال**: ١٢٣. (نقل الدينوريّ عين كلامه بطلب المبارز باللّغة الفارسيّة).

٢ - **فتوح البلدان**: ٢٥٩.

٣ - نفسه: ٢٦٠.

٤ - **تاريخ الطبريّ** ٣: ٥٩٠؛ **مروج الذهب** ٣: ٣١٩.

٥ - **تاريخ إيران**، كمبريج ٤: ١٧.

٦ - **القادسيّة**: ٢٢٦ ـ ٢٣٢.

٧ - **مروج الذهب** ٣: ٣١٩.

الساسانيّة.

وفي تلك البرهة بالذات شعر سعد بضرورة تأسيس مدينة باسم «دار الهجرة» للقبائل التي جاءت من جزيرة العرب للجهاد، وإذا كانت البصرة قد تمصّرت مبكّراً، فيمكنها أن تكون مثالًا للكوفة. وقد ذكر ياقوت قرابة عشرة وجوه لتسمية الكوفة، [1] وقيل: إنّ عدداً من الأماكن قد اقترح إلى أن وُجِد المكان المناسب الذي رجّحه عمر؛ لأنّه كان مناسباً للأغنام والخيول والجِمال[2]، والاسم الذي كان اختُير له هو سورستان[3]. وبعد أن عُيّن مكان المسجد ودار الإمارة، قُسّمت المواضع الواقعة في أطرافهما بين القبائل الشماليّة والجنوبيّة بالقُرعة.

وكان إنشاء هذه المدينة في البداية مؤقّتاً؛ لأنّ القبائل بَنت بيوتاً «كانت أخصاصاً من قصب، إذا غزوا قلعوها وتصدّقوا بها، فإذا عادوا بنوها، فكانوا يغزون ونساؤهم معهم». أضاف ياقوت قائلاً: «فلمّا كان في أيّام المُغيرة بن شعبة بَنَت القبائل باللَّبْن من غير ارتفاع، ولم يكن لهم غرف، فلمّا كان في أيّام إمارة زياد بَنَوا أبواب الآجرّ... وكتب عمر إلى سعد أن اختطّ موضع المسجد الجامع على عِدّة مُقاتلتكم، فخطّ على أربعين ألف إنسان»[4]. وهكذا صارت الكوفة مصراً من الأمصار الإسلاميّة الكبرى، وعندما كتب عمر إلى أهل الكوفة آنذاك خاطبهم بقوله: إلى أهل الكوفة، إلى رأس الإسلام. وكان يقول فيهم: هم رُمْح الله وكنز الإيمان وجمجمة العرب، وسمّى سلمانُ

---

١ - **معجم البلدان ٤: ٤٩٠ ـ ٤٩١.**

٢ - كتب عمر إلى سعد: أنّ العرب بمنزلة الإبل لا يُصلحها إلّا ما يُصلح الإبل. **فتوح البلدان** ٢٩٥.

٣ - نفسه.

٤ - **معجم البلدان ٤: ٤٩١.**

الكوفة أيضاً: قُبّةَ الإسلام.[١]

ولاحق المسلمون الفُرسَ بعد القادسيّة، وعسكروا غرب دجلة مقابل المدائن، فنقل الدينوريّ أنّهم أقاموا هناك ثمانية وعشرين شهراً حتّى أكلوا الرطب مرّتين![٢] وسيطر المسلمون على قسم من المدائن يومئذٍ، والمدائن في الحقيقة جمع مدينة، وكان الفرس يُسمّونها: طوسفون أو طيسفون Etesiphon، وهي سبع مدائن متجاورة، وكانت تحيط بها أسوارٌ عالية، وقد أُعدّت فيها بوّابات متقارنة، وكانت تقع في الجانب الغربيّ من دجلة مدائن: به أرْدشير (بالعربيّة: بِهَرْسير)، وسلوكيّة، ودرزيجان، وساباط، وماحوزة. وفي الجانب الشرقيّ منه: طيسفون، وأسبانبر، وروميّة التي كانت تُسمّى ويهانديوخسرو، وكان الملك يقيم في القصر الأبيض في طيسفون، وكان إيوان المدائن الذي تُقام فيه حفلات الضيافة والاستقبال يقع في أسبانبر.[٣]

استولى المسلمون على الجانب الغربيّ بعد اشتباكٍ يسير فاستقرّوا في بهرسير، وتوقّف العرب خلف دجلة مدّةً طويلةً بسبب تدمير الفرس للجسور،[٤] لكنّهم أفلحوا في نهاية الأمر فعبروا دجلة ودخلوا المدينة. وحينما رأى الفرسُ العربَ صاحوا: «ديوان آمدند، ديوان آمدند».[٥] [جاء الشياطين].

١ - **فتوح البلدان**: ٢٨٧؛ **الفتوح** ١: ٢٨٨.

٢ - **الأخبار الطوال**: ١٢٦؛ وانظر: **فتوح البلدان**: ٢٦٢.

٣ - **تاريخ إيران**، كمبريج ٤: ١٨. وذكر ياقوت أسماء المدائن السّبع كالآتي: أسفابور (أسفانبر): ووه أردشير (بهرسير)، و هنبوشافور (جنديشابور)، درزنيدان (درزيجان)، ووه جنديوخسر (رَوميه)، و نونيافاذ وكردافاذ. (وتتفاوت هذه الأسماء مع ما نُقِل عن تاريخ إيران إلى حدٍّ ما) و: المدائن في زماننا هذا قرية على بعد ستّة فراسخ عن بغداد، وأهلها يعملون في الزراعة غالباً، وهم على مذهب الشيعة الإماميّة، ويقع مزار سلمان الفارسيّ في المدينة الشرقيّة. **معجم البلدان** ٥: ٧٥.

٤ - **الفتوح** ١: ٢١٢.

٥ - **الأخبار الطوال**: ١٢٦؛ وانظر: **فتوح البلدان**: ٢٦٢. وقيل: إنّ استعمال الفرس لكلمة «ديوان»

وكان من المقرّر أن يبقى خرهزاد في المدائن ما كان ذلك ممكناً، لكنّه خرج من الباب الشرقيّ للمدينة متقهقراً إلى غرب إيران حين عبر العرب دجلة ووصلوا إلى خلف أسوار المدينة [1]. وكان دخول العرب إلى المدينة نصراً عظيماً لهم، إذ فُتِحت العاصمة الساسانيّة ووقعت في أيدي العرب غنائم لا تحصى، ومنها أشياء لم يكونوا رأوها حتّى ذلك الحين، كالكافور الذي ظنّوه ملحاً فألقوه في قدورهم! [2]

وقبل ذلك أخذ يزدجرد العائلة المالكة مع الخزائن والأموال المنقولة وفرّ إلى الجبال الواقعة في غرب إيران، فدخل قصر شيرين [3]، ومنها ذهب إلى حُلوان قريباً من «سَرْپل ذهاب» الحاليّة، وسارَ خرهزاد - الذي لم يستطع أن يحافظ على المدائن - في نفس الاتّجاه واستقرّ في جَلولاء. ولم يكن للعرب حيلةٌ إلّا ملاحقة هذا الجيش من أجل الحفاظ على المدائن، من هنا، بعث إليهم سعد بن أبي وقّاص جيشاً بقيادة هاشم بن عُتبة بن أبي وقّاص، فحفر الفُرس خندقاً في أطراف جلولاء، وكانوا ينتظرون المدد من يزدجرد والجبال وأصفهان، ولم ينتظر المسلمون هذا المدد فبدأوا هجومهم، وكان حجر بن عديّ في هذه الحرب أميراً على ميسرة الجيش الإسلاميّ. وهُزمت القوّات الفارسيّة في الحرب التي وقعت حتّى تراجعت إلى حُلوان، وبعد ذلك لم يَرَ يزدجرد مصلحةً في البقاء بحلوان، ففرّ إلى منطقة الجبال حيث قمّ وكاشان.

كان يقوم على أساس تصوّر حول عصر الحديد في القرن الأخير من الألف، وكانوا ينتظرونه حسب الدين الزرادشتيّ، وقد ورد شرحٌ بهذا الشأن في كتاب «**شناخت أساطير إيران**» (**معرفة أساطير إيران**): ١٦٥.

١ - **الأخبار الطوال**: ١٢٧.

٢ - **فتوح البلدان**: ٢٦٣.

٣ - **الفتوح** ١: ٢٧٨.

وكُلِّفت قوّة من العرب المسلمين قوامها أربعة آلاف بحراسة العراق للحؤول دون تغلغل الفُرس في جلولاء.[١] ودَخل المسلمون حينها شرق دجلة أيضاً، وشرعوا يفتحون مناطقها المختلفة، وفيها مِهرود وخانقين، فسيطروا على جميع المناطق في أطراف دجلة.[٢]

ولم يرغب سعد بن أبي وقّاص في استمرار الحرب حتّى حُلوان، ممّا أدّى إلى امتعاض بعض الجُند، فأمر بالتقدّم إلى حُلوان،[٣] ثمّ رجع إلى الكوفة وحكمها ثلاثَ سنينَ ونيّفاً إلى أن خلفه عمّار بن ياسر. وذكر اليعقوبيّ أنّ سعداً جاء الكوفة بعد فتح المدائن، وكانت حرب جلولاء بعدها بثلاث سنين، أي في سنة ١٩هـ[٤]، فيما ذهب البلاذريّ إلى أنّ عمليّات جلولاء وقعت في سنة ١٦هـ،[٥] وهو ما يبدو صحيحاً.

ووَرَد المسلمون إيران من ثلاثِ جبهات، فكانت المدائن تحت سيطرتهم من جهة، ومن جهة أُخرى توجّه أبو موسى الأشعريّ تلقاء الأهواز قادماً من البصرة، أمّا الجبهةً الثالثة التي فتحها في البحرين العلاء بن الحضرميّ منذ بداية حكومة عمر وحقّق بعض الإنجازات[٦]، فقد بدأت القوّات تحرّكاً جديداً حتّى استطاعت أن تتوغّل في بعض نقاط فارس.[٧]

ونظراً إلى هاتين الجبهتين الأخيرتين، فقد أصبحت منطقة فارس – التي كانت تُعدّ من المناطق الأصليّة في إيران – عُرضةً للهجوم، فطلب الهرمزان

١ – **الأخبار الطوال:** ١٢٩.
٢ – **فتوح البلدان:** ٢٦٤.
٣ – **الفتوح ١:** ٢٧٩ _ ٢٨٠.
٤ – **تاريخ اليعقوبيّ ٢:** ١٥١.
٥ – **فتوح البلدان:** ٢٦٥.
٦ – **البدء والتاريخ ٥:** ١٨٣.
٧ – **الأخبار الطوال:** ١٣٣.

من يزدجرد أن يوفده إلى خوزستان وفارس للمحافظة عليهما، لَعلّه يستطيع أن يُشكّل سدّاً للحؤول دون تقدّم العرب، بل يُعبّئ القوّات لمساعدة يزدجرد. وتوجّه الهرمزان إلى تُسْتَر (شوشتر) على رأس جيش، فبلغ المسلمين خبرُهُ، فهبّوا لإعداد قوّة قتاليّة، وكُلّف عمّار بن ياسر بأن يلتحق بأبي موسى مع نصفٍ من أهل الكوفة، وقَبل ذلك كان النعمان بن مُقرّن قد التحق به مع ألفٍ، وبادر إلى نجدتهم ثلاثةُ آلاف من القوّات العربيّة الحدوديّة التي كانت قد بقيت في جلولاء، وعدّتها أربعةُ آلاف، وسار الجيش الإسلاميّ متوجّهاً إلى تستر. وفي البداية نشبت معركة خارجَ المدينة أجبرت الهرمزان على أن يتقهقر إلى داخلها ويُغلق بوّاباتها، بعد قتل ألفٍ من جنوده وأسرِ ستّمئة منهم، واستُشهد من المسلمين جماعةٌ أيضاً وأشهرهم البَراء بن مالك، وحُوصرت المدينة برهةً إلى أن دلّهم أحد أشرافها على طريقٍ خفيّ لدخولها، فوردها مئتان من المسلمين عبر الطريق المذكور وفتحوا الباب للمسلمين بعد قتل الحرّاس، ففُتِحت المدينة، ولجأ الهرمزان إلى قصرٍ ولم يستَسلم إلّا بعد أخذ الأمان والاشتراط بأن يُرسَل إلى الخليفة في المدينة المنوّرة، فعفا عنه عمر، إلى أن قتله ابنُه عبيدُ الله بن عمر بعد مقتلِ أبيه لأسبابٍ واهية، منها أنّه رآه مع أبي لؤلؤة قبل قتل أبيه بيوم!

ورجع عمّار إلى الكوفة بعد الحرب، وانهمك أبوموسى في فتح المُدُن الأخرى في خوزستان ومنها شوش.[١]

وكان يزدجرد يومئذٍ في قمّ - على ما نَقَل الدينوريّ - فطلب من جميع أهل فارس أن يُنجدوه على العرب الذين كان حضورهم في كلّ لحظة آكد بل أقرب من ذي قبل، فأسرع إلى نجدته أناسٌ من: قُومِس (دامغان)،

١ - نفسه: ١٣٠ ـ ١٣٢.

وطبرستان، وجرجان، ودماوند، والريّ، وأصفهان... فتهيّأ جيشٌ عظيم وأزمع الحرب مع العرب الفاتحين. عندها كتب عمّار إلى عمر يُخبره بهذا الأمر، فصعد عمر المنبر وطلب من الناس أن يسيروا إلى العراق، وهناك طلب عثمان من عمر أن يُشخص جيش المسلمين من اليمن والشام إلى العراق، وفضلاً عن ذلك يتوجّه الخليفةُ نفسه إلى العراق، بيدَ أنّ الإمام عليّاً عليه السلام عارض هذا الاقتراح مصرّحاً بأنّ هذا الإجراء من شأنه أن يحفّز الروم على مهاجمة الشام، كما أنّ الجنود المسلمين إذا جاؤوا من اليمن فإنّها ستتعرّض لخطر هجوم الأحباش، كذلك عارض الإمام عليه السلام سفر الخليفة نفسه؛ لأنّ الأعاجم إذا سمعوا بحضور ملك العرب فإنّ ذلك سيكون أشدَّ لقتالهم.[1]

ومهما كان، فقد تهيّأ جيشٌ أوكِلت قيادته إلى النعمان بن مقرّن، وهو أحد الصحابة، وإذا استُشهد فالقيادة إلى حُذَيفةَ بن اليمان، ثمّ إلى جرير بن عبد الله، وبعده إلى المُغيرةُ بن شعبة، ثمّ إلى الأشعث بن قيس بالترتيب. واستقرّ الجيشان قريباً من نهاوند التي كانت بين جبهتين من جيش العرب ضدّ فارس، احداهما من جهة المدائن؛ والأُخرى من جهة الأهواز، واشتبك الجيشان وتقاتلا أربعة أيّام - من يوم الثلاثاء إلى يوم الجمعة - بشدّة، واحتدم القتال في اليوم الأخير، وعلى الرغم من استشهاد النعمان بن مقرّن فقد هُزم الجيش الفارسيّ[2]، وكان لهذا النصر شأنٌ عظيم عند العرب، لذا سمَّوه: فتح الفتوح[3]. ويُحتمَل أنّ هذه الحرب وقعت سنة ٢٠هـ، وفيها استُشهد عددٌ من العرب المسلمين من بينهم قائدهم، فدفنهم المسلمون في

---

١ - نفسه: ١٣٤ ـ ١٣٥.

٢ - نفسه: ١٣٦ ـ ١٣٧.

٣ - **البدء والتاريخ** ٥: ١٨٢.

مقبرةٍ ما زالت ماثلةً في تاريخ نهاوند تذكاراً لشهداء تلك الواقعة.

وتواصلت الفتوحات في شمال العراق أيضاً خلال الفترة الواقعة بين سنة ١٦هـ وسنة ٢٠هـ، فتقدّم المسلمون حتّى الموصل، وخضع العراق برمّته لسيطرتهم. وفُتِحت المُدن: حران، ونصيبين، وقرقيسياء، وسميساط، والرُّها، وكثير من المناطق الواقعة في أطراف الفرات.

فتح إيران

كان فتح بلاد فارس بتلك السرعة الفائقة، وسقوط الحكومة الساسانيّة وهي بتلك العظمة والثبات، أمراً عجيباً لايتيسّر تبريره غالباً، وإن كان قد وقع مثل هذه الحوادث في إيران وبلدان العالم، ودراسة موازِنة لها يمكن أن تساعد على إدراك الحقائق أكثر فأكثر. وبرأي ابن خلدون، فإنّ سقوط أغلب الحكومات يأتي بعد مصاعب الحياة المدنيّة وغزوات البدو المهاجمين الذين كانوا يدمّرون الحضارات، فيبيدونها طمعاً في الحصول على مزايا الحياة المدنيّة، ففي العراق وإيران أسقط البدو المغول حكوماتٍ وممكلات كثيرة بما فيها الحكومة العبّاسيّة التي طال زمنها، وكان يسهل إسقاطها. وهنالك فَرق في موردنا هذا، وهو أنّ العرب الذين كانوا هم أنفسهم البدوَ والمهاجمين وكانت تسودهم الأعراف التي ذكرها ابن خلدون، كانوا يحملون رسالةً سماويّة، وهذه الرسالة السماويّة هي الإسلام الذي استطاع أن يستمرّ في إيران حتّى بعد أن فَقَد العرب سلطتَهم السياسيّة. ولعلّ ما يُترجم هذا الهجوم هو شعر «ملك الشعراء بهار» [أحد شعراء الفُرس] فقد قال ما معناه: (على الرغم من أنّ العرب هاجمونا بغير حقّ، لكنّهم أتَوا إلينا بدِينٍ كريم)، ومن الطبيعيّ أنّ المغول لم يحملوا مثل هذه الرسالة في غاراتهم على العالم الإسلاميّ.

ومن المناسب هنا أن نُورد تقريراً حول الوضع السياسيّ للحكومة الفارسيّة بعد هزيمة قوّاتها على يد الحكومة الرُّومانيّة سنة ٦٢٨م، نقلاً عن أحد المصادر، فبعد هزيمة فارس في حربها مع الروم: «كان خسرو برويز يبحث عن أشخاص يُحمّلهم تَبعةَ هزيمته، فعزم على إعدام شهربراز، لكنّه سُجن بعد ثورةٍ قامت قبل أن يُحقّق هدفه، وقُتِل في آخر شباط سنة ٦٢٨م، فَجلس ابنه شيرويه على العرش باسم «كواد دُوُمْ» [كواد الثاني]، وكان شيرويه قد التحق بالثائرين ورَضِي بقتل أبيه. وطلب هذا الملك الجديد الصلح مع هراكليتوس فوراً، وعزم على أن يستدعي الجنود الساسانيّين من: مصر، وفلسطين، وسورية، وآسيا الصغرى، والجانب الغربيّ من بين النهرين، ويعترف بالحدود التي كانت قبل الحرب، وتقرّر استرداد جميع الأسرى وإعادة الصليب الحقيقيّ وسائر المذكّرات. وسُرّ الجانبان لانتهاء العمليّات الحربيّة التي أضنت الإمبراطوريّتين عدد سنين، بيدَ أنّ شهربراز لم يكن مسروراً بإقرار الصلح، ولمّا كان يتولّى قيادة جيشٍ عظيم، فإنّ الخطر بقي قائماً. ومن المحتمل أنّ كواد الثاني كان قد مات بالطاعون بعد حكمٍ لم يبلغ السنة، فخلفه نجله أردشير الثالث الذي كان طفلاً صغيراً، فأزمع شهربراز على السيطرة على التاج والعرش، فتوجّه تلقاء طيسفون في حزيران سنة ٦٢٩م يشدّ أزرَه هراكليتوس وهزم قوّاتِ أردشير وقتله مع أبرز أتباعه. ثمّ جلس على العرش، لكنّ عهده لم يَطُل، فقُتِل ولم يُتمّ شهرينِ من حكمه. وظهر مدّعٍ آخر في القسم الشرقيّ من الإمبراطوريّة، وهو ابنُ أخٍ خسرو، بيد أنّه قُتِل قبل أن يعتلي العرش باسم خسرو الثالث. ولمّا لم يبقَ من بني خسرو أحد على قيد الحياة، أجلس الأعيانُ ابنتَه بوران على العرش، وهي أوّل امرأة تسنّمت هذا المنصب، لكنّها ماتت أيضاً ولم تُكمل السنة من حكمها.

وتعاقب على العرش عدد من الملوك الذين حكم كلٌّ منهم بضعة أشهر، ولا نعرف منهم إلّا أسماءهم، وهم: آذرميدخت أختُ بوران، وبيروز الثاني، وهرمز الخامس، وخسرو الرابع. وختام الأمر أنّ الأعيان رفعوا في سنة ٦٣٢م يزدجرد الثالث ابن شهريارنام وحفيد خسرو الثاني - الذي كان آخر من بقي حيّاً من السلسلة الساسانيّة - على العرش، وكان يعيش متخفّياً تقريباً في اصطخر التابعة لمحافظة فارس [الحالية، وهي شيراز]، وهناك وَضَعَ آخرُ ملك ساسانيّ التاجَ الملكيّ على رأسه في معبد النار، المسمّى باسم أوّل ملك ساسانيّ»[1].

وحدثت هذه التطوّرات قبل فتح العراق، وكانت مدمِّرةً للوضع السياسيّ والعسكريّ في إيران طبعاً. ومن الواضح أنّ يزدجرد كان يتحيّن الفرصة لسنين حتّى يتمكّن من إصلاح الأوضاع في إيران التي ضُيِّق عليها داخليّاً وخارجيّاً، لكنّ هجمات العرب فوّتت عليه هذه الفرصة، ووجّهت إليه ضرباتٍ قاصمةً قبل أن يتحقّق الإصلاح. وكان فتح العراق القريب من طيسفون عاصمة الساسانيّين أوّل إنذار مخيف قرع العصا للحكومة الساسانيّة، ثمّ توالت الضربات حتّى قصمت ظهر هذه الحكومة الجوفاء وبدّدت فلولها.

وعلى الرغم من ضعف الحكومة الساسانيّة، فلا ينبغي أن نتلمّس الهزيمة كلّها في هذا الضعف، فقد بذلت الحكومة المذكورة ما في وسعها، وتحقّق جهد ملحوظ للحؤول دون تقدّم العرب اعتباراً من حرب القادسيّة حتّى فتح الفتوح نهاوند. واجتمعت في كلّ مرّة قوّات غفيرة بلغت أضعاف العرب، بيد أنّها رغم بسالتها وشجاعتها لم تصمد أمام إرادة العرب الذين كانوا على يقين بنصرهم. وأهمّ نقطة في إيمان العرب وثقتهم التامّة انتصار دينهم، كما أنّ بثّ

١ - **تاريخ إيران**، كمبريج ٣: ٢٦٧.

هذا الدين كان يعتبر من أهدافهم الأصيلة. قال شبولر: «لا مجال هذا اليوم للشكّ في أنّ دين التوحيد كان أقوى وأرسخ باعث للعرب على الفتوحات»[١].

ويجب ألّا نغفل عن أنّ العرب، مع حربهم من أجل التوحيد، كانوا ينتظرون الغنيمة بعد النصر، فقد ساروا إلى ساحات القتال ثقةً منهم بوعد رسول اللهﷺ في فتح كنوز كسرى وقيصر، وحين أراد عمر حثّهم على الجهاد قال لهم: «أيُّها الناس! إنّ الله عزّ وجلّ وعد نبيَّه محمّداًﷺ أن يفتح عليه فارسَ والرومَ، واللهُ لايُخلف وَعْدَه، ولا يخذل جنده، فسارِعُوا - رَحِمَكم الله - إلى جهاد أعدائكم من الفُرس، فإنّكم بالحجاز في غير دار مُقام، وقد وعدكم الله عزّ وجلّ كنوز كسرى وقيصر، والمواعيد من الله عزّوجلّ مضمونة وأمر الله تعالى مفعول، والقول من رسول اللهﷺ مقبول، وما لم يورثكموه الله عزّوجلّ اليوم يورثكموه غداً، وإنّكم لن تغنموا حتّى تَغيروا، ولن تستشهدوا حتّى تقاتلوا»[٢].

إنّ ظلم الحكومة الساسانيّة الذي أفضى إلى استياء الناس نوعاً ما، وبعبارة أُخرى إلى خمود حافز الدفاع عنها، كان عاملًا مؤثّراً في ضآلة النشاط العسكريّ للجند في ساحة القتال. وإذا استثنينا التعاون المؤقّت لبعض أشراف تُسْتر[٣] أو نهاوند[٤] في هداية الطريق لدخول المدينة - الذي يمكن أن يُحمَل على الخيانة - فإنّ التحاق أربعة آلاف من جيش القادسيّة بالعرب لايمكن أن يُحسَبَ خيانةً. قال البلاذريّ: كان مع رستم يومَ القادسيّة أربعة

١ - نفسه ١: ٧.

٢ - **الفتوح** ١: ١٦٥.

٣ - **الأخبار الطوال**: ١٣١.

٤ - نفسه: ١٣٧.

آلاف يُسمَّون جند شهانشاه.

ولمّا انهزم المجوس اعتزلوا، وليس لهم ملجأ. فرأوا أن يدخلوا في الإسلام، واستأمنوا على أن ينزلوا حيث أحبّوا ويُحالفوا من أحبّوا، فأعطاهم سعد ما سألوه. وكان لهم نقيب منهم يقال له: ديلم، فقيل: حمراء ديلم. والعرب تسمّي العجمَ: الحمراء، أي البيض، وشهد هؤلاء فتح المدائن وحرب جلولاء[١]، وأسلم جماعة من الدهاقين مع فلّاحيهم بعد هجوم المسلمين مباشرةً[٢]. كتب العلّامة القزوينيّ قائلاً: الفُرسُ خَوَنَةٌ ومتعرّبون! وما أن شعر بعض الولاة وحرس الثغور بتضعضع أركان الحكومة الساسانيّة والهزائم المتكرّرة للجيش الفارسيّ أمام الجيش العربيّ، حتّى ألقوا أنفسهم في أكناف العرب، ولم يؤازروهم في الفتوحات أو يدلّوهم على الحُلول فحسب، بل دعوا أمراءَهم إلى الاستيلاء على سائر أراضي فارس التي كانت في حوزتهم ولم يهاجمها العرب بَعدُ، فسلّموهم مقاليد القلاع والخزائن يداً بيدٍ على أن يتركهم العرب وشأنَهم في حكومة مناطقهم[٣]. وقال جلال آل أحمدﷺ: نحن الذين دَعَونا الإسلام قبل أن يأتي لمواجهتنا. وإذا تجاوزنا رستم فرخزادي الذي دافع عن الفروسيّة الساسانيّة والسُّنّة المجوسيّة المتحجّرة دفاعاً يائساً، فإنّ أهل المدائن وطيسفون وقفوا في الأزقّة لاستقبال العرب الذين جاؤوا لنهب القصر الملكيّ وأفرشة بهارستان، وبأيديهم الخبز والتمر.[٤]

إنّ الموقف المناسب للعرب الفاتحين من أهالي المدن يمكن أن

---

١ - **فتوح البلدان**: ٢٧٩.

٢ - **تاريخ إيران**، شبولر ١: ١٧.

٣ - **بيست مقاله قزويني** [المقالات العشرون للقزوينيّ] نقلاً عن كتاب «**خدمات متقابل إسلام وايران**»: ٧٩ [الإسلام وإيران].

٤ - **غرب زَدگي** [التغرّب]: ٤٨.

يُطمئنهم على صدق المسلمين ونزاهتهم، ولم تُجبر معاهدات الصلح الناس على ترك دينهم، بل لم يكن هناك إصرار على تخريب معابد النار، والضرائب التي كانت تُدفَع هي أقلّ - في أغلب الأحوال - من الأموال التي كانت تأخذها الحكومة الساسانيّة وحكّام الولايات من الناس، فَلِمَ يُضحّي هؤلاء بأرواحهم من أجل الحكومة الساسانيّة؟! وقد قيل في هذا المجال: «إنّ معاهدات الصلح التي عقدها العرب مع المدن والمناطق المختلفة، وخفّفت على الناس في كثير من الحالات عبء الضرائب التي كانوا يدفعونها إلى الحكومة الساسانيّة المركزيّة، حملت كثيراً من الفُرس على الاستسلام... فلم يرغبوا في الحرب من أجل البلاط الذي لم يعتن بهم كثيراً. فعليهم أن يستقبلوا السراة الجُدد الذين يأخذون منهم ضرائبَ أقلّ من الماضي، لا أن يحاربوهم... وهكذا كان انطباع كثير من الفُرس».[١]

ومن الطبيعيّ أنّ الإسلام قد تدرّج في نموّه بإيران، وكان أوّل المسلمين هم العرب الذين سكنوا أمصارها المختلفة، ثمّ تلاهم الأرقّاء الذين أُسِروا في الحروب ونشأوا في الأُسَر المسلمة، ثمّ الفُرس الذين دخلوا في الإسلام تدريجاً بفعل التبليغ الدينيّ ومعاشرة العرب المسلمين، واستغرق تقدّم الإسلام في إيران قُرابة أربعة قرون. وفي هذا الموضوع بَسَطَ بولت الكلام في كتاب «گرَوِش بِه إسلام در قرون مِيانه» [النزعة إلى الإسلام في القرون الوسطى].

١ - **تاريخ إيران**، كمبريج، ج ٢، القسم الأوّل، ص٢٧١.

الفصل الثالث

خلافة عثمان

الشورى واختيار عثمان

كان عمر يشاور الصحابة في مواطن عديدة، ولم يُلزم نفسه بالعمل بآرائهم، وهنا يتعيّن علينا أن نقول: إنّه كان يستهدي بآراء غيره إذا لم يكن له رأي في أمرٍ ما. فمثلاً آثر رأي الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في القضاء على رأيه عشراتٍ المرّات. وعلى الرأي المشهور فإنّهُ شاورَ الصحابة في وضع التاريخ الهجريّ، ثمّ أخذ برأي الإمام عليّ عليه السلام في تعيين الهجرة النبويّة مبدأ للتاريخ الإسلاميّ.[1] والمثالُ الآخر مشاورته الإمامَ عليه السلام بشأن أراضي العراق وقَبولُه برأيه.[2] والمثالُ الثالث مشاورته إيّاهُ عليه السلام وغيره في الخروج من المدينة لحرب الفُرس وتعيين قائد للجيش الإسلاميّ.[3] ونلحظ بين وصاياه وصيّته بالأنصار ومشاورتهم في الأعمال: «وأن يشاوَرُوا في الأمر».[4]

ونظراً إلى هذه المشاورات، قال بعض: إنّه كان له مجلس مشاورة في المسجد بشكلٍ منظّم، والنظام السياسيّ في عهده نوعٌ من الديمقراطيّة، وقريبٌ من النظام الجمهوريّ.[5] وهذا الرأي لاينسجم مع حقائق ذلك العهد

١ - يدور خلافٌ حولَ بداية التاريخ، أجعل النبيّ صلى الله عليه وآله الهجرةَ بدايةً له، أم كان ذلك في عهد عمر؟ ويبدو أنّ المسلمين اتّخذوا الهجرة مبدأً للتاريخ منذ السنين الأُولى للهجرة نظراً إلى أهمّيتها، إلّا أنّ هذا الأمر اتّخذ طابعاً رسمياً في عصر عمر.

٢ - **تاريخ اليعقوبيّ**، ٢: ١٥١ـ١٥٢.

٣ - **مروج الذهب** ٢: ٣٠٩ـ٣١٠.

٤ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٢٧.

٥ - **مختصر تاريخ العرب والتمدّن الإسلاميّ**، أمير عليّ: ٩٠.

وما نقله التاريخ، فالمشاورات الخاصّة هي غير مجالس الشورى التي تتبنّى رأي الأكثريّة وتتدخّل في الأمور بنحوٍ منظّم. ومصدر كلام أمير عليّ هو كلام القاضي أبي يوسف[١] الذي قال: إنّ مجلساً من الأعيان والأشراف كان موجوداً في المسجد، وفيهم رؤساء بعض القبائل الذين كانوا يأتون إلى المدينة. وسمّى هذا الجمع «أهل الشورى».

وقد ذكر الدكتور إبراهيم بيضون خطأ أمير عليّ في استعمال كلمات مثل المجلس بالمعنى الذي عُرف لهذه الكلمة في العصر الأخير، وقال: لم يكن شيء باسم «المجلس» كهيئة مستقرّة لها دورها في النظام الحكوميّ آنذاك، وكان لهذا الأمر تطبيقٌ أكثر بخاصّةٍ في عهد عمر بسبب نفوذه القويّ في الشؤون السياسيّة الداخليّة والخارجيّة وجميع الشؤون الحكوميّة، وهذه القضيّة في الحقيقة امتداد لما كان في عهد رسول الله ﷺ.[٢]

نُقِل عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّ المهاجرين كانوا يجلسون في المسجد عادةً، وكان عمر يُطْلعهم على الأخبار والمشكلات التي كانت تَرِد من مختلف المناطق. مثلاً سألهم عن الموقف من المجوس، فقال عبد الرحمان ابن عوف: عامَلَهم النبيّ ﷺ معاملة أهل الكتاب،[٣] وشاور عمر الصحابة أيضاً في أُمورٍ مثل كتابة الحديث، لكنّه - مع تأييدهم لكتابته - نهاهم عن ذلك لأسبابٍ واهية عرضها بنفسه.

ومن أمثلة مشاورتهِ، مشاورتُه حول مَن يخلفه، وقد اعترف - لأوّل مرّة - بحقيقةٍ حول انتخاب أبي بكر، فذكر أنّ الانتخاب الذي حصل في السقيفة

---

١ - كتاب الخراج: ٣٠.

٢ - من دولة عمر إلى دولة عبد الملك: ٨٩ ـ ٩١.

٣ - تاريخ المدينة المنوّرة ٣: ٨٥٣؛ فتوح البلدان: ٢٦٦ ـ ٢٦٧.

كان فلتةً لم يكن بمشورة المؤمنين، فلا بدّ للخلافة بعد ذلك أن تقوم على مشورتهم! وإذا بايع أحدٌ رجلًا بلا مشورةٍ فيجب قتلُ الاثنين كليهما[١]! وهذا الكلام أدّى إلى الاهتمام بأصل أنّ «الإمارة شورى» في الخلافة.[٢] ويدلّ ما صرّح به حول الخلافة على أنّه كان حائراً مضطرباً، وقد ودّ في البداية لو كان بعضُ أصحابه القدماء أحياء، مثل: مُعاذ بن جبل[٣]، وأبي عبيدة الجرّاح (ثالث مهاجر حضر في السقيفة)[٤]، وسالم مولى حُذَيفة الّذي لم يكن قرشيّاً أصلاً[٥]، فيقلّدَهم أمر الخلافة. والعجيب أنّه مع جميع سوابق مخالفته لخالد بن الوليد[٦]، نُقل عنه قوله: لو كان خالد بن الوليد حيّاً لَولّيته[٧]!! وهكذا يتبيّن أن لو كان أحد هؤلاء حيّاً لما كانت هناك شورى[٨]، ففكّر في الشورى بعد رحيلهم عن الدنيا!

قال عبد الرحمان القاري: كان عمر جالساً مع رجل من الأنصار؛ وحين

---

١ – ذكرنا مصادر هذا الخبر مفصّلًا سابقاً؛ وأيضاً بشأن رأيه في المشورة، انظر: **مصنّف عبد الرزّاق** ٥: ٤٤٥؛ **فتح الباري** ١٢: ١٢٤؛ **الطبقات الكبرى** ٣: ٣٤٤؛ **مسائل الإمامة**: ٦٣؛ **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ٨٨١؛ **مختصر تاريخ دمشق** ١٢: ٦٩؛ **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٢٧.

٢ – **مصنّف عبد الرزّاق** ٥: ٤٤٦؛ ٧: ٢٧٨؛ ١٠: ١٠٣.

٣ – **الطبقات الكبرى** ٣: ٥٩٠؛ **الإمامة والسياسة** ١: ٤٢.

٤ – **الفتوح** ٢: ١٦؛ **الإمامة والسياسة** ١: ٤٢؛ **الطبقات الكبرى** ٣: ٤١٢؛ **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٢٧.

٥ – **الطبقات الكبرى** ٣: ٣٤٣؛ **الفتوح** ٢: ٨٦

٦ – لمّا وَلِيَ عمر قال: أعزلُ خالد بن الوليد ليتبيّن أنّ الله ينصر دينه؛ **تاريخ خليفة بن خيّاط** ١: ١٠٦.

٧ – **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ٨٨٧؛ **الإمامة والسياسة** ١: ٤٢.

٨ – صريح كلامه: لو كان سالم حيّاً لَما جعلتُ الأمرَ شورى؛ **تاريخ أبي زرعة الدمشقيّ** ١: ٢٧٢؛ وقال: لو كان سالم حيّاً لما شككتُ في تفضيله على جميع الصحابة. انظر: **المقنع في الإمامة**: ٥٩. إذن، لم يكن عمر معتقداً للشورى التي صرّح بها يوم السقيفة، فعيّن أبا بكرٍ بموجبها حاكماً على المسلمين باسم خليفة رسول الله ﷺ!

اطمأنّ إلى مَن كان حاضراً، سأله عن رأي الناس في مَن يَخْلفه، فعدّد الأنصاريُّ رجالًا من المهاجرين ولم يُسمِّ علياًعليه السلام، فأنكر عمر نفسُه عليه وقال: فما لَهم من أبي الحسن؟ فوالله إنّه لأحراهم إن كان عليهم أن يُقيمَهم على طريقة من الحقّ[١]. قال المُغيرة بن شعبة: سألني عمر عمّن يَصلَح لخلافته، فقلتُ: عثمان، فعابه! وذكرتُ له الخمسةَ الآخرين من الشورى فعابهم، وفيهم عليّعليه السلام الذي عابه بالدُّعابة[٢]؛ لكنّه أضاف: إنّه لَو وَلِيَ لَهدَى الناس إلى الصراط المستقيم.[٣]

وكان كعب الأحبار من مشاوريه، فسأله عمر [وكان يعتقد أنه يتعاطى الكتب السماويّة][٤] عن الخليفة بعده، فقال: لايصلح عليٌّ لها، وأنه قرأ في الكتب أنّ الخلافة ستكون لمن حارب النبيّصلى الله عليه وآله على الدين[٥]. ويبدو أنه لم يقصد إلّا بني أُميّة، وأبرزهم عثمان، فقد كان لِعثمان جاهٌ ملحوظ في عصر أبي بكر وعمر.

وذات مرّة سأل عمر حُذيفةَ الذي كان يُعرَف بأنّه صاحب سرّ النبيّصلى الله عليه وآله: من ترى قومكَ يؤمِّرون بعدي؟ فقال حذيفة: رأيتُ الناس قد أسندوا أمرهم

١ – **مصنّف عبد الرزّاق** ٥: ٤٤٦.

٢ – نفسه ٥: ٤٤٧ – ٤٤٨. وانظر: **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ٨٨٠؛ **الأحكام السلطانيّة**: ١٢؛ **نثر الدرّ** ٢: ٤٩؛ **أنساب الأشراف** ٤: ٥٠١، الرقم ١٢٩١؛ **الفتوح** ٢: ٨٥ – ٨٦.

٣ – **أنساب الأشراف** ٤: ٥٠١، الرقم ١٢٩٠.

٤ – انظر: موضوع «أفكار الخليفة».

٥ – **شرح النهج** ١٢: ٨١؛ وانظر: **غريب الحديث** ٣: ٢٣٩؛ **الفائق في غريب الحديث** ٢: ١٦؛ **الفتوح** ٢: ٨٧. يُريد كعبٌ بني أميّة الذين كان عثمان منهم وإن لم يحارب النبيّصلى الله عليه وآله. وقال كعب الأحبار لاحقاً: إنّ معاوية هو الصاحب الأصليّ للخلافة بعد عثمان، وكأنّهُ كان يخبر هكذا عن الكتب السماويّة. انظر: **أنساب الأشراف** ٤: ٤٩٥/ الرقم ١٢٧٨.

إلى عثمان بن عفّان[١]. وكان استنباط حذيفة صحيحاً، كأنّ قريشاً كلّها كانت مُنحازةً إلى عثمان، وكلام حذيفة مِن باب الإخبار، لا الإقرار.

ودلّ عمر في السقيفة على أنّه لم يرغب أساساً في تولية بني هاشم، وحوارهُ مع ابن عبّاس في هذا المجال يشتمل على نقاطٍ طريفةٍ؛ فقد قال الطبريّ نقلاً عن محمّد بن إسحاق: قال عمر لابن عبّاس: أتدري ما منع قومَكم [قريشاً] منهم بعد محمّدﷺ؟ فقلت: لا أدري، فقال: كَرِهوا أن تُجمَع لكم النبوّة والخلافة فتَبجّحوا على قومكم بجحاً بجحاً، فاختارت قريش لأنفسها فأصابت ووُفّقت، فقلت: إن تأذنْ لي في الكلام تكلّمت، فقال: تكلّم يا ابن عبّاس، فقلت: أمّا قولك: اختارت قريشٌ لأنفسها... فأقول: لو أنّ قريشاً اختارت لأنفسها حيث اختار الله عزّ وجلّ لها لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود، وأمّا قولك: إنّهم كرهوا أن تكون لنا النبوّة والخلافة، فإنّ الله عزّوجلّ وصف قوماً بالكراهية فقال: ﴿**ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ الله فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ**﴾[٢]. فقال عمر: واللهِ يَا ابن عبّاس قد كانت تبلغني عنك أشياء كنت أكره أن أُقرّك عنها فتُزيل منزلتك منّي، فقلت: وما هي... فإن كانت حقّاً فما ينبغي أن تزيل منزلتي منك، وإن كانت باطلاً فمِثلي أماط الباطلَ عن نفسه، فقال عمر: بلغني أنّك تقول: إنّما صرفوها عنّا حسداً وظُلماً، فقلتُ: أمّا قولك: ظلماً؛ فقد تبيّن للجاهل والعليم، وأمّا قولك: حسداً؛ فإنّ إبليس حسد آدم فنحن وُلدهُ المحسودون، فقال عمر: هيهات! أبت والله قلوبُكم يا بني هاشم إلاّ حسداً ما يحول... فقلت: مهلاً لا تُصب قلوب قوم - أذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيراً - بالحسد والغشّ؛ فإنّ قلب رسول اللهﷺ من

---

١ - **الطبقات الكبرى** ٣: ٣٣٣.

٢ - سورة محمّدﷺ: ٩.

قلوب بني هاشم[١].

وكان عمر مُفرط الحسّاسيّة حيال بني هاشم، ولا سيّما الإمام عليّ عليه السلام بالذات، وسائرِ مَن عارض أبا بكر في الأيّام الأُولى لخلافته، ولمّا سمع أنّ أبا بكر أمّر خالد بن سعيد الذي كان قد عارض أبا بكر في الأيّام الأولى أيضاً، صرفه عن رأيه، ففي مثل هذه الظروف كان واضحاً أنّه لايمكن أن يرضى عمر عن الإمام عليّ عليه السلام ، والذي كان قد اعتزل طوال تلك المدّة وامتنع في البداية عن بيعة أبي بكر لشهور.

ومهما كان، فإنّ عمر قد حار في أمر استخلافه، ولمّا بلغ حفصةَ أنّ أباها عازمٌ على ألّا يستخلف قالت له: زعموا أنّك غير مُستخلِف... وأنّه لو كان لك راعي إبل أو راعي غنم ثمّ جاءك وتركها رأيتَ أن قد ضيّع، فرعاية الناس أشدّ، فقال عمر:... وإنّي إن لم أستخلف فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يستخلف، وإن أستخلف فإنّ أبا بكر قد استخلف[٢]. وكأنّ كلا العملين - على اختلافهما أصلاً ونوعاً - كان سنّةً شرعيّةً عنده! وكان يصرّح بأنّه قد تحمّل عبء المسؤوليّة في حياته، فلا يريد أن يفعل ذلك بعد مماته[٣]، مع هذا لم يستطع أن يترك أمر الخلافة. قال البلاذريّ: قال عمر: قيل: [وعمر نفسه كان قد قَبلَ ذلك] إنّ بيعة أبي بكر كانت فلتةً ولم تكن بمشورة أيضاً؛ فالأمر بعدي شورى[٤]. واختار ستّةً مكان أن يختار واحداً، ليتشاوروا - وفُوّضت مسؤوليّة

---

١ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٢٣ - ٢٢٤.

٢ - **مصنّف عبد الرزّاق** ٥: ٤٤٨ ـ ٤٤٩؛ استدلال حفصة هو من أبسط استدلالات الشيعة على لزوم تعيين النبيّ صلى الله عليه وآله خليفةً له، وبهذا الاستدلال أيضاً طلب الآخرون من عمر أن يستخلف. انظر: **الطبقات الكبرى** ٣: ٣٤٣.

٣ - **الأحكام السلطانيّة**: ١٣؛ **الطبقات الكبرى** ٣: ٣٤٢؛ **أنساب الأشراف** ٤: ٥٠١/ الرقم ١٢٩٠.

٤ - **أنساب الأشراف** ٤: ٥٠٠/ الرقم ١٢٨٨.

الشورى طبعاً إلى عبد الرحمان بن عوف[١] - فيختاروا واحداً من بينهم. وقال لهم عمر: إنّي نظرت فوجدتُكم رؤساءَ الناس وقادتهم، ولا يكون هذا الأمر إلّا فيكم[٢].

وتقدّم أنّ الخليفة قد عاب المرشَّحين الذين وقع اختياره عليهم فيما بعد إلّا عبدَ الرحمان بن عوف فإنّه قد أثنى عليه[٣]. ومع هذا كلّه عيّن أعضاء الشورى - الذين يريدهم - من هؤلاء، وبيّن بنفسه كيفيّة الاختيار، فعليهم أن يجتمعوا في بيتٍ ويراقبهم خمسون أنصاريّاً ليختاروا واحداً. ويبدو أنّ طلحة لم يكن بالمدينة (قال البلاذريّ: هذا هو القول الصحيح)، فإن استقام أمر خمسة منهم وخالف واحد، فليُضرَبْ عنقُه! وإن استقام أربعة واختلف اثنان تُضرَبْ أعناقهما! وإن استقرّ ثلاثة واختلف ثلاثة، فالاحتكام إلى عبد الله بن عمر!... فإن لم يرضوا بحكمه فليكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمان بن عوف، ويُقتَل الباقون!![٤] وكان دور عبد الله بن عمر في هذه الشورى السداسيّة دور المستشار، ولم يكن له أن يرشَّح للخلافة؛ لأنّهُ - برأي أبيه - لم يُحسن أن يطلّق امرأته![٥]

ويُضاف إلى هذا كلّه أنّ عمر كان قد قال: إنّ هذا «الأمر» لـ«أهل بدر» مادام فيهم حيٌّ يُرزَق، ثُمّ أهل أُحُد ما دام فيهم حيٌّ يُرزَق، أمّا الطلقاء وأبناؤهم ومُسلمة الفتح فلا حقَّ لهم.[٦] وسعى عمرو بن العاص كثيراً في أن

---

١ - نفسه ٤: ٥٠٥/ الرقم ١٣٠٣؛ **حياة الصحابة** ٢: ٣٣.
٢ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٢٨.
٣ - نفسه ٤: ٢٢٩؛ **شرح النهج** ١٢: ٢٥٨ - ٢٥٩.
٤ - **الإمامة والسياسة** ١: ٤٢؛ **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٢٩؛ **أنساب الأشراف** ٥: ٥٠٤/ الرقم ١٣٠٠، ١٣٠١.
٥ - **الطبقات الكبرى** ٣: ٣٤٣؛ **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٦٠.
٦ - **الطبقات الكبرى** ٣: ٣٤٢.

يدخل الشورى، لكنّ عمر قال له بأنّه لايولّي رجلاً سلّ سيفه على النبيّ صلى الله عليه وآله[١]، يريد عندما كان عمرو بن العاص كافراً!

وفي البداية طلب العبّاس من الإمام عليّ عليه السلام ألّا يدخل في الشورى، بيد أنّ الإمام عليه السلام قال بأنّه يخشى الشقاق أوّلا، وأنّه يشترك فيها ليُثبت خطأ عمر في كلامه لعبد الله بن عبّاس حين قال له: «إنّ قومكم كَرِهوا أن تجتمع لكم النبوّة والخلافة»[٢]. ولمّا استبانت تركيبة الشورى عرف الإمام عليّ عليه السلام أنّ الأمر سيكون لعثمان، ويتلخّص تحليله عليه السلام بما يأتي: قُرِنَ بي عثمان، وقال عمر: كونوا مع الأكثر... فسعد لا يُخالف ابن عمّه عبد الرحمان بن عوف [كلاهما من بني زُهْرة]. وعبد الرحمان هو صهر عثمان لايختلفان، فيولّيها عبدُ الرحمان عثمان[٣]، فلو كان الآخران [طلحة والزبير] معي لم ينفعاني، لترجُّح الثلاثة الذين فيهم ابنُ عوف[٤]. ويضاف إلى هذا أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان قد آخى بين عثمان وعبد الرحمان بن عوف[٥].

وأعلن عبد الرحمان أنّهُ لايريد الخلافة، والآخرون أيضاً لم يكونوا أهلاً لها طبيعيّاً، على سبيل المثال: ترك سعد بن أبي وقّاص أمر التصويت لعبد الرحمان بن عوف إلّا أنّه كان يرى أنّ عليّاً أفضل من عثمان،[٦] فانحصر أمر

١ - **أنساب الأشراف** ٤: ٥٠٣/ الرقم ١٢٩٥؛ وانظر: **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٣٠.

٢ - **شرح النهج** ١: ١٨٩.

٣ - قال الإمام عليه السلام في **نهج البلاغة**: «ومال الآخر إلى صهره». انظر: **شرح النهج** ١: ١٨٤. وبعد بيعة عبد الرحمان عثمان قال عليه السلام: «مال الآخر إلى صهره ونبذ دينه وراء ظهره»، **الجمل**: ١٢٣؛ كانت زوجة ابن عوف أختَ عثمان من أُمّه أمّ كلثوم بنت عُقبة بن أبي مُعَيط. انظر: **شرح النهج** ١: ١٨٩.

٤ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٣٠؛ **شرح النهج** ١: ١٩١؛ **أنساب الأشراف** ٥: ٥٠٥/ الرقم ١٣٠٤.

٥ - انظر: **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ٩٥٥.

٦ - **أنساب الأشراف** ٤: ٥٠٦/ الرقم ١٣٠٨؛ ولعلّ اعتزال سعد هو الذي دفع مكحولًا الشاميّ إلى

الخلافة بالإمامعليه السلام وعثمان... وهنا بالذات تبيّنت حقيقةُ شقاق المجتمع الذي كان يتبع قريشاً نوعاً ما. وقريش آنذاك لم تكن مجرّد قبيلة، بل كانت وحدةً سياسيّة ذات سلطة، وهي «قريش السياسيّة» الّتي نحّت بني هاشم عنها بعد وفاة النبيّصلى الله عليه وآله. جاء في رواية الطبريّ أنّ عبد الرحمان بن عوف كان يدور لياليه مشاوراً، فأشار عليه جميع أمراء الأجناد وأشراف الناس باختيار عثمان.[1] وبعد ثلاثة أيّام اجتمع الناس في المسجد صباحاً، وحضر عبد الرحمان قال - وفقاً لرواية الزهريّ - بأنّهُ سأل الناسَ فلم يعدلوا بعثمان أحداً.[2] قال الطبريّ: فقال عمّار: إن أردتَ [يخاطب عبد الرحمان بن عوف] ألّا يختلف المسلمون فبايعْ عليّاً، فقال المِقداد بن الأسود: صدق عمّار، وقال عبد الله بن سعد بن أبي سرح [طريد رسول اللهصلى الله عليه وآله]: إن أردت ألّا تختلف قريش فبايعْ عثمان. أضاف الطبريّ قائلًا: فتكلّم بنو هاشم وبنو أميّة.[3] وكان عمّار والمقداد إلى جانب بني هاشم، فقال عمّار في المسجد: أيّها الناس؛ إنّ الله عزّ وجلّ أكرمنا بنبيّه، وأعزّنا بدينه، فأنّى تَصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيّكم! فقال لعمّار رجلٌ من بني مخزوم [وكان حليفاً لبني أميّة في الجاهليّة، وكان أبوجهل

القول: لم يكن سعد في الشورى؛ **أنساب الأشراف** ٤: ٥٠٧/ الرقم ١٣٠٩.

١ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ٩٢٨؛ **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٣٠. قال الزهريّ: ما ترك ابن عوف تلك اللّيلة أحداً من المهاجرين والأنصار ولا غيرهم من ذوي الرأي إلّا استشارهم. انظر: **مصنّف عبد الرزّاق** ٥: ٤٨٢. لكنّنا نعلم أنّه حتّى لو استشارهم جميعاً فإنّه يراعى رأي قريش وحدها. قال عبد العزيز الدوريّ: هذه المشاورة دعمٌ لعثمان، وهي توحي بأنّ بني أميّة كانوا يسعون إلى استعادة نفوذهم منذ فتح مكّة، ونجحوا في ذلك نجاحاً كبيراً خلال فترة الخليفتين الأوّلين، وكان لشيخوخة عثمان أثر ملموس في تقديمه. انظر: **مقدّمة في تاريخ صدر الإسلام**: ٥٩.

٢ - **مصنّف عبد الرزّاق** ٥: ٤٧٧.

٣ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٣٣؛ **شرح النهج** ١٢: ١٩٤.

وخالد بن الوليد من هذه القبيلة، وهذا الرجل هو عبد الله بن سعد نفسه]: لقد عدوتَ طورَك يا ابن سُميّة؛ وما أنت وتأميرُ قريش لأنفسها؟![1]

فدعا عبد الرّحمان حينئذٍ عليّاًعليه السلام وقال: عليك عهد الله وميثاقه لَتعملنّ بكتاب الله وسنّة رسوله وسيرة الشيخين من بعده، فقال عليّ عليه السلام: أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي[2]. [وعند البلاذريّ: واجتهادي]، ثمّ دعا عبدُ الرحمان عثمانَ فقبل شروط ابن عوف. وهكذا نَصبَ عبدُ الرحمان عثمانَ خليفةً وبايعه، فقال الإمام عليّعليه السلام لعبد الرحمان: والله ما ولّيتَ عثمانَ إلّا ليردّ الأمرَ إليك[3]! ويشهد على كلام الإمام عليّ عليه السلام أنّ عثمان لمّا مرضَ دعا كاتبَهُ وقال له: أكتب لعبد الرحمان العهدَ مِن بعدي[4]، وبعد أن شُفي انتفى موضوع العهد، وظهرت بينه وبين ابن عوف عداوة.

قال المِقداد: ما رأيتُ مثل ما أُوتي إلى أهل هذا البيت بعد نبيّهم، إنّي لأعجب من قريش أنّهم تركوا رجلًا ما أقول: إنّ أحداً أعلم ولا أقضى منه بالعدل! وقال الإمام أمير المؤمنينعليه السلام محلّلًا الموضع تحليلًا واقعيّاً علميّاً: إنّ

---

١ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ٩٢٩ ـ ٩٣٠؛ **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٣٣؛ وفي خبر الشيخ المفيد (**الجمل**: ١٢٢) صاح المقداد: ... فلا تولّوها من لم يحضر بدراً، وانهزم يوم أحد ولم يحضر بيعة الرضوان [يريد عثمان]، فقال له عثمان: والله لئن وليتها لأردنّك إلى زيّك الأوّل؛ انظر: **أمالي المفيد**: ١١٤ ـ ١١٥.

٢ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٣٣، ٢٣٨؛ **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٦٢؛ قال اليعقوبيّ: قال الإمام لعبد الرّحمان في الشرط بالعمل بسيرة الشيخين: إنّ كتاب الله وسنّة نبيّه لايحتاج معهما إلى إجّيري أحد، أنت مجتهد أن تزوي هذا الأمر عنّي؛ **أنساب الأشراف** ٤: ٥٠٨، الرقم ١٣١١؛ **البدء والتاريخ** ٥: ١٩٢؛ **شرح النهج** ١: ١٨٨، ١٢: ١٩٤، ٢٦٤. لم يذكر الزّهريّ الفقرة المرتبطة بالإمام عليّعليه السلام واكتفى بقوله: عرض عبد الرّحمان هذا الشرط على عثمان، فقال: نعم. انظر: **مصنّف عبد الرزّاق** ٥: ٤٧٧.

٣ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ٩٣٠؛ **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٣٣ - ٢٣٤؛ **العقد الفريد** ٣: ٧٦.

٤ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ١٠٢٨، ١٠٢٩؛ **مختصر تاريخ دمشق** ٧: ٢٥٤.

الناس ينظرون إلى قريش، وقريش تنظر إلى بيتها، فتقول: إن وُلي عليكم بنوهاشم لم تخرج منهم أبداً؛ لكنّهم (بإخراج الخلافة من بني هاشم) يستطيعون أن يتداولوها بينهم. وقدم طلحة في اليوم الذي بُويع فيه لعثمان، فقال: أكلٌّ قريش راضٍ به؟ قالوا: نعم، وهو قد بايع أيضاً. وقال المُغيرة بن شعبة لعبد الرحمان: قدْ أصبت إذ بايعتَ عثمان، وقال لعثمان: لو بايع عبد الرحمان غيرك ما رضينا، فاتّهمه عبد الرحمان بالكذب[1]. وتدلّ رواية أخرى عن الطبريّ على أنّ كلّ شخصٍ من أعضاء الشورى قد تحدّث في المسجد، وجاء في كلام الإمام عليّ عليه السلام: «نحن بيت النبوّة، ومعدن الحكمة، أمانُ أهل الأرض، ونجاةٌ لمن طلب»،[2] وذهب عليه السلام إلى أنّ ذكرَ ابن عوف سيرةَ الشيخين خدعةٌ لإقصائه عن الخلافة.[3] واعتبر راوي هذا الخبر دور عمرو بن العاص في هذه الخدعة مؤثّراً، بيد أنّ الواضح هو أنّ هذا العمل لايتيسّر بدون قرار ابن عوف.

وكان العبّاس يعتقد أنّ الشورى قد اتّسقت بشكلٍ ستكون نتيجته خلافة عثمان؛ ولهذا طلب من الإمام عليّ عليه السلام أن لايدخلَ فيها[4]. قال ابن أبي الحديد: سأل عمر الستّةَ الذين اختارهم للشورى: أكلّكم يطمعُ في الخلافة بعدي؟... فأجابه الزُّبير وقال:... وُليتَها أنت فقمتَ بها، ولَسْنا دونك في قريش

---

١ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٣٣ - ٢٣٤؛ ٢٣٩؛ **أنساب الأشراف** ٤: ٥٠٢/ الرقم ١٢٩٤؛ وبشأن طلحة انظر: ص ٥٠٤/ الرقم ١٣٠٠. نال طلحة جزاءه وإن كان في عداد أعدى أعداء عثمان عند محاصرته. **أنساب الأشراف** ٤: ٥٠٦/ الرقم ١٣٠٦. وللاطّلاع على موقف المقداد، انظر: **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٦٣؛ **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ٩٣٠ - ٩٣١.

٢ - كتاب **الفتوح** ٢: ٩٦ - ٩٧؛ **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٣٦؛ **شرح النهج** ١٢: ١٩٥.

٣ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٣٨ - ٢٣٩؛ لعلّ المقصود من الخدعة هو ما نقله اليعقوبيّ عنه عليه السلام من أنّ ابن عوف أراد بهذا الشرط أن يصرف عنه الخلافة. **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٦٢.

٤ - **شرح النهج** ١: ١٨٩.

ولا في السابقة ولا في القرابة. وقال الجاحظ: والله لولا علمه أنّ عمر يموت في مجلسه ذلك لم يَقْدم على أن يفوه من هذا الكلام بكلمة، ولا أن يَنبس منه بلفظة[١]. ونقل الجاحظ نفسه أنّ الزبير كان إلى جانب الإمام عليّ عليه السلام[٢]. ومالَ طلحة إلى عثمان الذي كان ضدّ بني هاشم؛ لأنّهُ من قبيلة تيم وابن عمّ أبي بكر.[٣]

وعلى ما نقله ابن عبّاس، فإنّ عمر هدّد أهل الشورى بأنّهم إذا اختلفوا غلبهم على الأمر معاوية في الشام.[٤] وبعد انتهاء البيعة رجع الإمام عليه السلام إلى بيته، وعمّار ينشد قائلاً:

يا ناعيَ الإسلام قُم فَانعِهِ ... قد ماتَ عُرفٌ وأتى مُنكَرُ[٥]

نلحظ هنا بعض النقاط المهمّة اللّافتة للنّظر فيما يخصّ خلافة عثمان، وهي:

١- استقرار الخلافة في البيت الأمويّ الذي يمثّل الوجه السياسيّ لقريش منذ ذلك الحين. وكان عثمان يُمثّلهم آنذاك وهم يحبّونه حبّاً جمّاً. وفي المثل السّائر: أُحبُّك والرّحمان، حُبَّ قريشٍ عثمان[٦]. وفي المقابل كانت قريش تنصب العداء لعليٍّ عليه السلام، وعثمان هذا هو الذي كان يقول لعليّ عليه السلام: ما ذنبي إن لم تُحبّك قريش، وقد قتلتَ منهم سبعين رجلًا كانت وجوهُهم سيوفَ

١ - **شرح النهج** ١: ١٨٥.

٢ - نفسه ١: ١٨٧.

٣ - نفسه ١: ١٨٧ - ١٨٨؛ **نثر الدرّ** ٢: ٣٧.

٤ - **شرح النهج** ١: ١٨٧.

٥ - **البدء والتاريخ** ٥: ١٩٣. قال المقدسيّ: كان سلمان يقول يومئذ: فعلوا وما فعلوا، فعلوا وما فعلوا. (يبدو أنّ كلام سلمان هذا كان في السّقيفة، إذ لم يكن على قيد الحياة يومذاك).

٦ - **المعارف**: ١٩٢.

الذهب[١]. وكان اختيار عبد الرحمان بن عوف هو اختيار قريش أيضاً، وقوله بأنّه شاور المهاجرين الأوّلين وأمراءَ الأجناد والصحابة فما عدلوا بعثمان أحداً[٢]، كلامٌ باطل، وإنّما قريش هي التي كانت تبغي هذا الشيء.

وفي هذه المرّة طبعاً، وليَ الأمرَ فرعٌ من قريش كان ذا توجّه إترافيّ (أرستقراطيّ)، في حين لم يكن الأمر هكذا في عهد أبي بكر وعمر، فعُمر وإن كان ثريّاً، [٣] إلّا أنّ حياته لم تكن مترَفةً (أرستقراطيّة)، أمّا عثمان فقد كان مترفاً من نوع الإتراف الأمويّ، مزيجاً بسابقة إسلاميّة[٤]. وهكذا درجت الحكومة نحو الإتراف (الأرستقراطيّة) القرشيّ، واستفحال التوكُّؤ على المعايير القبليّة في انتخاب الخليفة.[٥] وقيل: إنّ أبا سفيان قال لعثمان ساعة الانتخاب: اجعل الأمر أمر الجاهليّة، ولم يقصد شيئاً إلّا الخلافة.[٦]

ومرَّ بنا أنّ شرط القرشيّة لم يكن شرطًا فقهيّاً للخلافة في نظر المسلمين، والاستناد إلى حديث «الأئمّة من قريش» لاينسجم مع كلام عمر حين ودّ لو كان سالم مولى حذيفة حيّاً فيستخلفه. وكَونُ القرشيّة لا شأن لها ولا اعتبار

---

١ - **معرفة الصحابة** ١: ٨٦/ الرقم ٣٣٨ (أبونُعَيم الأصبهانيّ، تحقيق عادل بن يوسف العزّاويّ، الرياض، دار الوطن، ١٩٩٨).

٢ - **تاريخ بغداد** ١٢: ٤٠٩.

٣ - **حياة الصحابة** ١: ٣٤٧ (عمر من أكثر قريش مالًا)، **كشف الأستار** ٢٠: ٣٠٣؛ **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ٩٣٥.

٤ - **مختصر تاريخ دمشق** ١١: ٦٧.

٥ - **مقدّمة في تاريخ صدر الإسلام**: ٥٨ - ٥٩.

٦ - لمّا سأل عمر ابنَ عبّاس عن عثمان، قال: جمع حبَّ الدنيا والآخرة في قلبه، ولو وُليَ لسلّط آل أبي مُعَيْط على الناس، **الإيضاح**: ٨٦. وحين كان عثمان يذهب إلى المسجد لصلاة العشاء في اللّيلة الأولى من الخلافة (بداية المحرّم سنة ٢٤ هـ) كانت الشموع بين يديه، فقال المقداد: ما هذه البدعة؟! (**تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٦٣)؛ إشارةً منه إلى بدء الشكليّات! ونقل ابن أعثم عن ابن عوف أنّه قال: رضيتُ بخلافة عميد بني أميّة. **الفتوح** ٢: ٩٩.

عند عمر، انتقادٌ كان الشيعة يوجّهونه من أوّل الأمر[1].

٢- جدّة الشورى والمشورة في أمر الخلافة، إذ عُرضت لأوّل مرّة، وكان لهذه الشّورى بُعدان؛ الأوّل: هو إطار الشورى السداسيّة الذين كانوا من رؤساء قريش والخلافة بأيديهم، وقد عيّن عمر ضوابط الانتخاب بين أعضاء الشورى فجعل الأكثريّة والأقليّة أساسها[2]، وعلى فرض التساوي فإنّ كفّة الميزان تثقل لمصلحة الثّلاثة الذين فيهم ابن عوف. والبعد الآخر: هو مشورة ابن عوف الناسَ، وقد دامت عدداً من اللّيالي كما قيل. ومع هذا كلّه، فإنّ مدى أخذِهِ المشورةَ المذكورةَ بنظر الاعتبار في اختياره لعثمان أمرٌ مثيرٌ للشكّ والارتياب. وكان متّهماً في اختياره بسبب قرابته لعثمان. من هنا يمكن أن تكون هذه المشورة للتغطية على ذلك. ويضاف إليه أنّهما كانا متآخيَين كما كان أبو بكر وعمر كذلك [أي آخى بينهما النبيّ صلى الله عليه وآله في عقد المؤاخاة المشهور]. وجديرٌ بالذكر أنّ خلافاً ظهر بين عثمان وابن عوف فيما بعد، حتّى مات ابن عوف وهو غاضبٌ عليه، فقد ضربه عمّال عمر ضرباً مبرّحاً[3]. والمهمّ هو دور «الشورى»، ففي الوقت الذي كانت الشورى منحصرةً في الستّة المعروفين، كانت حلّاً جديراً لاختيار واحدٍ من بينهم. وهذا الأسلوب هو نوعٌ من الشورى المحدودة بين عددٍ من النخب القرشيّين بحيث لم يحقّ

---

١ - **الإيضاح**: ١٢٧ - ١٢٨. ومضى أنّ شرط القرشيّة يعود إلى سيطرة الرّوح القبليّة. واختار عمر صُهيباً الروميّ للصلاة خلال الأيّام الثلاثة التي كانت الجماعة مشغولة فيها بالمفاوضات، وقال: هو من المَوالي، ولا ينازعكم في الخلافة. **الإمامة والسياسة** ١: ٤٢.

٢ - **أنساب الأشراف** ٤: ٥٠٣/ الرقم ١٢٩٨ (ليتّبع الأقلُّ الأكثر، فمَن خالفكم فاضربوا عنقه).

٣ - **شرح النهج** ١: ١٩٦؛ وانظر: **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ١٠٣٣. وقيل: إنّ عليّاً عليه السلام دعا على ابن عوف حين اختار عثمان. وقال أبوهلال العسكريّ: استجيبت دعوة عليّ عليه السلام في عثمان وعبد الرحمان. انظر: **شرح النهج** ١: ١٩٦.

لأحد سواهم أن يتدخّل! ولُوحظ تأثير هذا الأسلوب في العصور اللّاحقة في بعض المناوئين للإمام عليّ عليه السلام، وأيضاً في الزبيريّين الذين كانوا ضدّ الأمويّين، وسنتحدّث عن هذا الموضوع في موضعه.

٣- حول البيعة: امتنع الإمام عليّ عليه السلام عن بيعة عثمان بعد بيعة ابن عوف وسائر أعضاء الشورى، وقال له ابن عوف: بايعْ وإلّا ضربتُ عنقَك! فخرج عليه السلام مُغضباً، فلحقه أصحاب الشورى فقالوا له: بايع وإلّا جاهدناك! فأقبل معهم يمشي حتّى بايع عثمان[١].

وهنا قال المقداد للإمام عليه السلام: أتقاتل فنقاتل معك؟ فقال عليه السلام: فبمَن أقاتل؟! وتكلّمَ عمّار أيضاً.[٢] وكلام أعضاء الشورى مع الإمام عليّ عليه السلام قائم على أساس ما أوصى به عمر من ضرب عُنق كلّ من يتخلّف عن البيعة، وأشرنا سابقاً إلى أنّ عمر كان ممّن يعتقد أخذ البيعة قهراً[٣] على عكس ما نُسب إلى أبي بكر. ومن الطبيعيّ أنّ عمر كان يرفض من يريد التفرقة والشقاق، وقد أوصى عمر أعضاء الشورى منذ اليوم الأوّل الذي عيّنهم فيه بقتل من يخالفهم إذا اتّفقوا جميعاً على اختيار أحد[٤]. وسنرى لاحقاً أنّ الإمام عليه السلام لمّا ولي الأمر لم يأخذ البيعة بالقوّة ممّن لم يبايع طوعاً.

٤- إنّ من الآثار الجانبيّة للشورى رغبةَ أعضاء الشورى في الخلافة فيما

---

١ - **أنساب الأشراف** ٤: ٥٠٨/ الرقم ١٣١١؛ **شرح النهج** ٩: ٥٥، ١٢: ٢٦٥؛ **البدء والتاريخ** ٥: ١٩٣؛ **حبيب السير** ١: ٤٩٦. وذكر الإمام عليه السلام قولهم بمجاهدته إن لم يبايع، وأضاف: بايعتُ كُرهاً، **الغارات** ١: ٣١٨. مع هذا قال الرواة المتعصّبون في هذه الفرية: إنّ أوّل من بايع بعد ابن عوف هو عليّ عليه السلام! **الطبقات الكبرى** ٣: ٦٣.

٢ - **شرح النهج**: ١٢: ٢٦٥ - ٢٦٦؛ **الأمالي** ، للشيخ المفيد: ١١٥.

٣ - انظر: **الإيضاح**: ١٨٧ - ١٨٨.

٤ - **الفتوح** ٢: ٩١؛ **الطبقات الكبرى** ٣: ٦١.

بعد، فقد كانوا يتصوّرون بعد ما فعله عمر أنّهم أهلٌ للخلافة. وتقدّم أنّ الزبير قال لعمر: وما الّذي يبعدنا منها؟ وُلِيتَها أنت فقمتَ بها، ولسنا دونك في قريش ولا في السابقة ولا في القرابة[١]. وكان طبيعيّاً أنّ وجود مثل هذه التصوّرات جعل أعضاء الشورى يتوقّعون أشياء أكثر، ولذلك سعى عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة إلى إقحام أنفسهما في الشورى. ونتيجة مثل هذا التوقّع نشوب الاضطرابات اللّاحقة، وكذلك المعارضة التي واجهها عثمان، ثمّ الإمام عليّ عليه السلام. وكان تحليل معاوية هو أنّ شورى عمر سبّبت الخلاف بين المسلمين؛ لأنّ طلحة والزبير وسعد بن أبي وقّاص زعموا أنّهم للخلافة أهل.[٢]

وقال الشيخ المفيد أيضاً في سعد بن أبي وقّاص:... ليس له بأهلٍ وجرأة على مساماة أمير المؤمنين عليه السلام بإدخال عمر إيّاهُ في الشورى وتأهيله إيّاه للخلافة وإيهامه لذلك... وأفسد حاله في الدنيا والدين.[٣] ونَقل ابنُ أبي الحديد عن أستاذه مثل هذا التحليل المتمثّل بشعور كلّ عُضوٍ من أعضاء الشورى بأنّه يليق بالخلافة والمُلك؛ وما زال هذا الأمر يشغلهم حتّى بلغ مرحلة الخلافات التي ظهرت في ما بعد[٤]. وقد قال طلحة للإمام عليّ عليه السلام في حرب الجمل: اعتزل الخلافةَ لنجعل الأمر شورى، وأضاف: نحن كنّا في الشورى، ومات منّا اثنان كانا لايُريدانِك، ونحن ثلاثةٌ أيضاً، فقال له الإمام عليّ عليه السلام: لو

١ – **شرح النهج** ١: ١٨٥؛ وكان أبو بكر أراد من عمر أن يراقب المهاجرين؛ لأنّ كثيراً منهم يطمعُ في الخلافة. **نثر الدرّ** ٢: ١٦، ٢٢.

٢ – **العقد الفريد** ٤: ٢٨١؛ **مختصر تاريخ دمشق** ٩: ٨٥.

٣ – **الجمل**: ٩٧.

٤ – **شرح النهج** ٩: ٢٨ ـ ٢٩.

قلتَ هذا قبل البيعة، أمّا الآن فقد بايعتَ وما عليك إلّا أن تفي ببيعتك[١].

خلافة عثمان

كان عثمان في عداد المسلمين الذين أسلموا في السنين الأولى بدعوة أبي بكر، وكان من البيت الأمويّ، وإسلامه في بيتٍ مجمعٍ أكثرُه على معارضته للإسلام أمرٌ عجيب! وكان من المهاجرين إلى الحبشة، إلّا أنّه رجع إلى مكّة سريعاً وهاجر إلى المدينة. تزوّج فيها بنتَي رسول الله صلى الله عليه وآله[٢] اللّتين ماتتا بسرعة. ولم يشهد بدراً بسبب مرض زوجته، وأجمع المؤرّخون على غيابه عن ساحة معركة أحد. هذا، ولم يرد له بعد ذلك ذكرٌ إلّا في صلح الحديبيّة[٣].

وكان من المقرّبين إلى أبي بكر أيّام خلافته، وتولّى الكتابة له، وهو الذي كتب عهد عمر بتوجيه أبي بكر حين كان مغمًى عليه، وله مكانةٌ مكينة أيضاً في عهد عمر، حتّى عُدّ ممثّلًا لبني أميّة في تلك الظروف. وكما مرّ، فإنّ عثمان بوصفه ممثّلًا لبني أميّة، والإمام عليّاً عليه السلام بوصفه ممثّلًا لبني هاشم، كانا هما الرجلَين البارزَين اللّذينِ سيأخذان - كما يبدو - بزمام الأمور، ويُحتمَل أنّ عمر أدرك بأنّ المجال لعثمان أكثر لقيادة المجتمع الإسلاميّ بسبب جاهه وشعبيّته في قريش، أو أنّ عمر نفسه كان يميل إلى استخلافه. ومهما كان رأيه فلا يمكن أن نتخطّى رأيَ قريش فيه، إذ كانت تريده، وعثمان نفسه قال

١ - **الإمامة والسياسة** ١: ٩٥.

٢ - وذهب الشيخ المفيد والشريف المرتضى رضوان الله عليهما إلى أنّهما ربيبتاه. **الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم** صلى الله عليه وآله، للسيّد جعفر مرتضى العامليّ ١: ١٢٣.

٣ - انظر: بحث الحديبيّة في الجزء الأوّل من كتابنا: **سيرة رسول الله** صلى الله عليه وآله.

للإمام عليه السلام في مشاجرته له أيّام خلافته: ما ذنبي إن لم تُحبَّك قريش[1]. وصرّح ابن قُتيبة أيضاً بأنّ عثمان كان محبوباً عند قريش، ولذا قيل: أُحبُّك والرّحمان، حبَّ قريشٍ عثمان[2].

ولمّا تمّت بيعة عثمان في آخر ذي الحجّة سنة ٢٣هـ، صعد المنبر فجلس في الموضع الذي كان يجلس فيه رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان التفاوت بينه وبين مَن قبله هو أنّ أبا بكر وعمر لم يجلسا فيه، فقد جلس أبو بكر دونه بمرقاة، وجلس عمر دون أبي بكر بمرقاة، أمّا عثمان فقد خالفهما وجلس في الموضع المذكور[3]!

ولمّا جلس على المنبر لم يستطع أن يتكلّم، وتأمّل قليلاً ثمّ قال: أنتم إلى الإمام العادل أحوج منكم إلى الإمام المتكلّم. ثمّ نزل من المنبر وذهب إلى بيته[4]!

وأوّل عملٍ قام به هو عفوه عن قصاص عبيد الله بن عمر الذي كان قد قتل الهرمزان ـ بلا دليل شرعيّ ـ وامرأةَ أبي لؤلؤة وولدَه بتهمة ضلوعهم في قتل أبيه عمر بلا دليل أيضاً، وقد عفا عنه عثمان بوصفه حاكماً، واستبدل الدية بالقصاص، ووقف بوجه الاعتراضات التي ثارت ضِدَّه[5].

ويتعيّن علينا أن نعتبر خلافة عثمان بداية الخلافة الأمويّة، فقد سمّاهُ ابن أعثم: «عميدَ بني أميّة» نقلًا عن لسان ابن عوف[6]، وكان بنو أُميّة يُخيَّل إليهم

١ – **معرفة الصحابة** ١: ٨٦/ الرقم ٣٣٨.
٢ – **المعارف**: ١٩٢؛ **أنساب الأشراف** ٥: ١١.
٣ – **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٦٣.
٤ – **البيان والتبيين** ١: ٣٤٥.
٥ – انظر: **أنساب الأشراف** ٢: ٢٩٤ – ٢٩٥.
٦ – **الفتوح** ٢: ٩٩.

أنّهم رؤساء منذ الجاهليّة. قال أبو بكر الجوهريّ: لمّا بُويع عثمان، قال له أبو سفيان: كان هذا الأمر في تَيم [قبيلة أبي بكر] وأنّى لِتَيم هذا الأمر؟! ثمّ صار إلى عَدِيّ [قبيلة عمر] فأبعد وأبعد! ثمّ رجَعَت إلى منازلها، واستقرّ الأمر قرارهُ. وخاطب عثمان وبني أميّة قائلاً: تداولوها يا بني أميّة تداول الوُلدان الكُرة، فوالله ما من جنّة ولا نار![1] وفي رواية المسعوديّ أنّ عمّاراً حين سمع كلام عثمانَ هذا قام في المسجد مُستنكراً، وكذلك فعل المِقداد فعبّر عن قَلَقه من انصراف الأمر عن أهل البيت عليهم السلام[2].

ونقل ابن عساكر أنّ أبا سفيان قال يوماً لعثمان: إجعل الأمرَ أمر الجاهليّة[3]!

ومن الطبيعيّ أنّ هذه الشواهد تدلّ على عقيدة أبي سفيان لا عقيدة عثمان، إلّا أنّ أبا سفيان – على أيّ حالٍ – كان يأمل في خلافة عثمان عودة التسلّط الأمويّ. وكانت خلافته بدايةً لسلطة قريش الإترافيّة (الارستقراطيّة)، لذا قيل: كانت شعبيّته عند قريش أكثر من عمر[4]. وكان نزاع المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله هو في الحقيقة اصطدامَ المعايير الإسلاميّة بالمعايير القبليّة، فكان انتصار قريش يعتبر انتصاراً للمعايير القبليّة، وهذا الانتصار – وإن كان في عهد الخليفتين السابقين مزيجاً بالمعايير الإسلاميّة – إلّا أنّه يجب أن نعدّ ذلك مؤقّتاً؛ لأنّ قريشاً وَليَت الأمر بخلافة عثمان.

ولم يكن عثمان خليفةً ضعيفاً قطّ على عكس ما هو شائع، فقد قام

---

١ – **شرح النهج** ٢: ٤٤ – ٤٥ عن كتاب **السقيفة** ، لأبي بكر الجوهريّ؛ **الأغاني** ٦: ٣٥٦؛ **الفائق** ٢: ١١٧؛ **النزاع والتخاصم**: ٥٦.

٢ – **مروج الذهب** ٢: ٣٤٣.

٣ – **مختصر تاريخ دمشق** ١١: ٦٧.

٤ – **الطبقات الكبرى** ٣: ٦٤.

بالأمر مقتدراً منذ البداية، وقتله على يد الصحابة وغيرهم من المنكِرين لـه لا يعني أنّه لم يتمتّع بقدرة كافية، بل كانت المعارضة ضدّهُ بلغت ذروتها حتّـى أنّه وأنصاره لم يسَعْهم السيطرة على الوضـع. وكـذلك تفويضـه الأمـورَ إلـى أشخاص مثل مروان وغيره من العائلة السفيانيّة لا يعني ضعفه، بل كان يفكّـرُ تفكيراً أساسيّاً في تقليد بني أميّة، وإنّما قام بهـذه الأعمـال كمقدّمـة لإضـفاء الصبغة الأمويّة على جميع الشؤون السياسيّة. ومن البلاهة أنّه كـان يظـنّ أنّـه يعمل بدهاء، ذلك أنّه تصرّف في السنين الستّ الأُولـى مـن خلافتـه باتّئـاد، وسعى إلى توطيد موقعه، وبعد ذلك كشف عن سياسته الأصليّة فـي النصـف الثاني من خلافته، فتـدرّج فـي إحـداث التغييـرات علـى التركيبـة السياسـيّة لمختلف المناطق. وجهده في إرساخ النفوذ الأمـويّ أسـخط بعـض رؤسـاء قريش، فقد أخذ بعضَ الأعمال المهمّة - كإمارة مصـر- مـن يَـدِ عمـرو بـن العاص وسلّمها لعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وتوليتهُ الأمويّين مقاليدَ الأمور في المُدُن أثار غضب الكثيرين عليه، وحمل الناس علـى الثـورة ضـدّه شـيئاً فشيئاً.

إنّ أهمّ قضيّة في عهده هي الفتوحات، والأهمّ دراسة الثورة التـي قامـت ضدّه، وكان لها بالغ التأثير في العالم الإسلاميّ، فقـد انبثَـق معظـم الخلافـات المتأخّرة بين المسلمين على آرائهم في عثمـان ومعارضـيه، واتّخـاذه ذريعـةً للشقاق والفتنة.

أسباب الثورة على عثمان

وردت في الكتب التاريخيّة موضوعات كثيرة حول أسـباب الثـورة علـى عثمان، وفي غضون ذلك نلحـظ أنّ بعـض المـؤرّخين - كـالطبريّ وغيـره - آثروا التغطية على هذه الموضوعات وإخفاءهـا وجـدّوا فـي طمسـها، فـرأيُ

الطبريّ هو أنّ أخباراً رُويت في هذا المجال يكره نقلها[١]. وإنّ نقلَ جميع ما قاله الصحابة في عثمان يمكن أن يولّد مشكلةً لأهل السنّة بشأن رأيهم في الصحابة، بخاصّة الخلفاء. ويمكن لنا أن نعزو أسباب الثورة على عثمان إلى ثلاثة أمور:

١- القضايا التي دعت إلى اتّهامه بوضع البدع الدينيّة، فقد نُقِل عن عائشة أنّها كانت تقول له: سُرعان ما تركتم سُنّة نبيّكم[٢]! ولمّا بلغها خبر قتله قالت: قتلَتْه أعماله، إنّه أحرق كتاب الله وأمات سنّة رسول الله، فقتله الله[٣]. وزعم عبد الرحمان بن عوف أنّ عثمان تخلّف عن سنّة الشيخين، وحينَ اعترض عليه ضربه ضرباً مبرّحاً.[٤] وجاء في رسالة بعثها بعض الصحابة إلى الأمصار ليحرّضوا الناس على عثمان أنّ كتاب الله وسنّة رسوله قد غُيّرا كما تغيّرت أحكام الشيخَين[٥]. وإهمال عثمان دم الهرمزان الذي قتله عبيد الله بن عمر أسخط الناس عليه، فقد آمن قاتله بدل أن يقتصّ منه بسبب قتله ثلاثة أشخاص[٦]. وعاتبه الإمام عليّ عليه السلام على ذلك ولامَهُ قائلًا له: أمّا أنت فمطالَب بدم الهرمزان يوم يعرض اللهُ الخلق للحساب... فإنّني لَئن وقعت عيني على عبيد الله بن عمر لأخذت حقّ الله منه وإن رُغِم أنفُ مَن رُغم[٧]. ولمّا رأى عثمان ذلك استدعى عبيد الله ليلًا وأمره بالهرب... وأقطعه قريةً من قُرى

---

١ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٣٥٦، ٣٦٥؛ **الكامل في التاريخ** ٣: ١٦٧.

٢ - **أنساب الأشراف** ٥: ٤٨؛ **الأغاني** ٥: ١٣٠.

٣ - **الجمل**: ١٦١؛ **شرح نهج البلاغة** ، لابن أبي الحديد ٦: ٢١٦.

٤ - **أنساب الأشراف** ٥: ٥٧؛ **الكامل في التاريخ** ٣: ٧٠؛ **مصنّف ابن أبي شيبة** ١٥: ٢٢٣، (الهند)؛ **الفتوح** ٢: ٢١٥١.

٥ - **الإمامة والسياسة** ١: ٥٣.

٦ - **البداية والنهاية** ٧: ١٤٧؛ **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٤١.

٧ - **أنساب الأشراف** ٥: ٢٤.

الكوفة، وهي كوَيفة ابن عمر[١]، هكذا سُمّيت فيما بعد!

وحين كان عثمان يوسّع مسجد النبيّ ﷺ كان الناس يقولون: يوسّع مسجد رسول الله ويغيّر سنّته،[٢] فقد أتمّ الصلاة في منى خلافاً لسنّة النبيّ ﷺ، فاضطرب عليه عددٌ من الناس، ولمّا أنكروا عليه ذلك قال: هذا رأيي[٣]! وكان عمّار يقول، وهو من المعارضين المشهورين له: قتلناه كافراً[٤]. وهو الذي وقف أمام المتمرّدين يوم الجمل وقد انحازوا إلى عسكر عائشة وسألهم: ياهؤلاء، على أيّ شيءٍ تقاتلوننا؟ قالوا: إنّ عثمان قُتِل مؤمناً، فقال لهم: نحن نقاتلكم على أنّه قُتِل كافراً[٥]. وسُئِل زيد بن أرقم: علامَ كفّرتم عثمان؟ فقال: لثلاثة أشياء: أحدها العمل بغير كتاب الله[٦].

وذكر أبوالفرج الأصفهانيّ بعض المعارضين الذين كانوا يقولون لعثمان: خَفِ الله ولا تَدَعْ حدوده[٧]. وقال محمّد بن أبي بكر أيضاً في سبب معارضته لعثمان: إنّه غيّر كتاب الله[٨]، ونُقِل عنه أيضاً أنّه كان يقول: عمل عثمان بغير الحقّ، وغيّر حكم القرآن، ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئكَ هُمُ الْكافِرُون**﴾[٩]. وتاب عثمان ظاهراً أمام الناس بعد اعتراضهم عليه، وتعهّد لهم أن يعمل

١ – **الجمل**: ١٧٦؛ **معجم البلدان** ٤: ٤٩٦؛ **نهج السعادة** ١: ١٤٦.
٢ – **أنساب الأشراف** ٥: ٣٨.
٣ – انظر: **أنساب الأشراف** ٥: ٣٩؛ **البداية والنهاية** ٧: ١٥٤، ١٧١؛ **سنن النسائيّ** ٣: ١٢؛ **الموطّأ** ١: ٢٨٢.
٤ – **المعيار والموازنة**: ٧١.
٥ – **الجمل**: ٣٣٦.
٦ – **شرح النهج** ٣: ٥١؛ قال ابن أبي الحديد: نُقِل هذا الكلام عن زيد بطرقٍ مختلفة.
٧ – **الأغاني** ٥: ١٣١.
٨ – **البداية والنهاية** ٧: ١٧٥.
٩ – **الغارات** ١: ٢٨٤ (المائدة: ٤٤).

بكتاب الله وسنّة رسوله.[١] ونُقِل عن عائشة أنّها كانت تُسمّي عثمانَ نعثلاً، وتقول: اقتُلوا نَعْثَلاً فقد كفر[٢]! ونُقِل عن معاوية أنّه قال: كان عثمان يعمل في أوّل الأمر بما يُرضي الله، ثمَّ غيّر طريقه بعد مدّة[٣].

ومن الاعتراضات التي أُثيرت عليه هو توحيده المصاحف الموجودة آنذاك، فتفرّق الصحابة في الأمصار، حتّى أصبح تأثير اللّهجات العربيّة في قراءة القرآن سبباً في اشتداد الاختلاف في القراءات تدريجاً. فقيل: إنّ حُذيفة كتب إلى عثمان من آذربايجان يُخبره بأنّ القرآن سيُحرَّف إذا استمرّ الوضع على هذا المنوال، فعزم عثمان على جمع المصاحف كلّها، وتهيئة نصّ واحد منها وحرق الباقي. ولم يُشاور في هذا الأمر من كان يرى نفسه متخصّصاً فيه كابن مسعود، بيد أنّ زيد بن ثابت الذي كان صغير السنّ في عهد النبيّ ﷺ قد اختير لهذا العمل! فَلِمَ لَمْ يشاور ابنُ مسعود؟! وهل كان عمل عثمان في إحراق المصاحف صحيحاً؟! فهذان السؤالان ومثلهما أُمور يتعيّن بحثها وتحليلها.

٢- المجموعة الأُخرى من الاعتراضات على عثمان ترتبط بتوليته الأمويّين على الأمصار، وكان هذا الأمر طبيعيّاً إذا نظرنا إلى توصية أبي سفيان له في بداية خلافته، إلّا أنّه لم يَرَ المجال مناسباً لهذا العمل في السنين الستّ الأُولى من حكومته. إلّا أنّه جَهِد في زيادة القدرة السياسيّة والإداريّة لبني أُميّة إبّان النصف الثاني منها. والنمط الطبيعيّ للقضيّة هو أنّه كان - بلا شكّ - يمهّد لمعاوية أو لأحد أفراد الأُسرة الأُمويّة بعده، ولم تكن المشكلةُ مشكلةَ

١ - **الفتوح** ٢: ٢١٦.
٢ - **الكامل في التاريخ** ٣: ٢٠٦. ونعثل اسم رجل يهوديّ سيّئ السمعة.
٣ - **تاريخ ابن الورديّ**: ٢٠٣.

تعيين هؤلاء فحسب، بل كان لكلٍّ منهم مثالبه الخاصّة ، فعلى سبيل المثال: أنّه دعا الحكم بن أبي العاص إلى المدينة وكلّفه بجمع صدقات خُزاعة، والحكَم طريدُ رسولِ اللهﷺ، ولم يُرجعه الشيخان قبله.[١] ونصب الحارثَ بنَ الحكم مشرفاً على سوق المدينة[٢]، وولّى الوليدَ بن عُقبة بن أبي مُعَيط - أخاه لأمّه[٣] - على الكوفة، والوليد هذا هو الذي سمّاهُ اللهُ سبحانه في كتابه فاسقاً[٤]، ووعده رسول اللهﷺ بجهنّم[٥]، وكان شربه الخمر وشهادة الشهود عليه قد أوجبا إقامة الحدّ عليه، فرفض عثمان الشهادة في أوّل الأمر، فعاتبه الإمام عليّعليه السلام قائلاً: دفعتَ الشهود، وأبطلتَ الحدود! ولمّا قَبِلَ، كان الناس يخافون من عثمان بإجرائهم الحدّ عليه، فقام الإمامعليه السلام وضرب به الأرض وأجرى عليه الحدّ[٦].

قال خواند مِير [يُقرَأ: خانْدْ مِيرْ]: أمضى الوليدُ سِنِيهُ الخمس بالكوفة في نعيمٍ وسَعْدٍ، وكان يمدّ البساط ليلًا ويتجرّع الأقداح المُترعة بالخمر، وعند الفجر أصاب حظًّا من الخمرة الأرجوانيّة، فذهب إلى المسجد فاقد الوعي تماماً، وصلّى صلاة الصبح أربعاً وهي ركعتان. وفي رواية أنّه عبّر عن سروره فقال: أتريدون أن أزيدَكم[٧]؟! ووَلِيَ بعده سعيدُ بن العاص، وهو من تلك الأسرة أيضاً، فحاول بادئ الأمر أن يتصرّف بتُؤَدَة، إلّا أنّه لم يلبث طويلًا

١ - **مروج الذهب** ٢: ٢٣٥؛ **الفتوح** ٢: ١٥١.
٢ - **الفتوح** ٢: ١٥١.
٣ - **مروج الذهب** ٢: ٣٤٧.
٤ - انظر: كتب التفسير في تفسير قوله تعالى:﴿**إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا**﴾ الحجرات: ٦.
٥ - **مروج الذهب** ٢: ٢٣٥.
٦ - نفسه ٢: ٣٣٥، ٣٣٦؛ وانظر: **الفتوح** ٢: ١٦٨.
٧ - **حبيب السير** ١: ٤٩٨.

حتّى عاتبه الناس على إساءته إلى هاشم بن عُتبة [هاشم المرقال ﷺ] الذي فقد عينه يوم اليرموك، إذ نبزه عثمان بالعَوَر! والإشكال الأهمّ هو أنّه قال بالكوفة: إنّما السَّواد كلُّه [أرض العراق الخصبة] لقريش! فغضب مالك الأشتر من كلامه، فكتب سعيد إلى عثمان يخبره باعتراض مالك، وقال: «...ومعه [مع مالك] قوم يزعمون أنّهم القرّاء، وهم السفهاء!...»، وانتهى الأمر بنفي عثمان لمالك وجماعة معه إلى الشام[1]. وحين جاشت ثورة الناس بالكوفة أمر عثمان بنصب أبي موسى الأشعريّ عليها، وكان يحكمها أيّام عمر من قَبلُ.

ولم يكن وضع البصرة بأفضل من وضع الكوفة، فقد وَلِيها عبدُ الله بن عامر بعد عزل أبي موسى الأشعريّ، وهو ابن خال عثمان، وكان له من العمر يومئذٍ خمسٌ وعشرون سنة، وقد نقل ابن أعثم فيه أنّه حين صَعِد المِنبر في يوم الجمعة لإلقاء الخطبة، ورأى حشود المصلّين، اندهش وارْتجّ عليه، فبدأ كلامه فقال: الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض في ستّ سنين[2]!! والعمل الآخر الذي فعله عثمان هو عزل عمرو بن العاص من حكومة مصر، وتعيين عبد الله بن سعد بن أبي سَرح مكانه. والظلم الذي ارتكبه هذا الشخص الطريد (طريد النبيّ ﷺ) بحقّ أهل مصر، وهم أنفسهم شَكَوه، كان أحد أسباب ثورتهم على عثمان ومجيئهم إلى المدينة ومشاركتهم في قتله.

قال الإمام عليّ عليه السلام لعثمان:... ألا تَنْهى سُفهاءَ بني أُميّة عن أعراضِ المسلمين وأبشارهم وأموالهم؟ واللهِ لو ظَلَم عامل من عمّالك حيثُ تغرُبُ الشمس لكان إثمُه مشتركاً بينه وبينك[3]! وهذا هو الشيء الذي دعا بعضَ إلى

---

١ - **الفتوح** ٢: ١٧١ - ١٧٣.

٢ - نفسه ٢: ١٠١ (نقل المصحّح هذه الفقرة في الهامش عن الترجمة الفارسيّة)؛ **البيان والتبيين** ٢: ٢٥١. [لكنّ الجاحظ لم يذكر بداية خطبة ابن عامر في **البيان والتبيين**]. المترجم.

٣ - **شرح النهج** ٩: ١٥ عن «**كتاب الشورى**» ، للواقديّ.

أن يعبّر عنه أنّه «أوّل مَن جار في الحُكم، وعمل بغير الحقّ»[١]؛ لأنّه لم يمنع عمّاله من ظلم الناس.

وفي هذا السياق يجب أن نذكر إبقاء معاوية في الشام، والشام أساساً كانت تُعدّ مأمناً لعثمان، ولهذا كان يُرسل مُبْعَدِيهِ إليها. ومن الفوارق بينها وبين العراق أنّ معاوية ربّى أهلها من البداية على هواه، أمّا العراق فقد اهتمّ بتربية أهله رجالٌ من أمثال عمّار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وسلمان، ولهذا السبب ثار العراق على عثمان، في حين لم تتحرّك الشام أدنى تحرّك.

ذكر ابن كثير أنّ ممّا نَقِم به الناس على عثمان عَزْلَه الصحابةَ عن الأعمال[٢]، وكان عمّار يُخاطبه قائلًا: سلّطتَ علينا السفهاء[٣]!

وكان استعمالُ عثمان بني أميّة لإدارة شؤون البلاد، في كلّ حال، مَعْلَماً على ظهور نوعٍ من «السلطة الوراثيّة» في ميدان الخلافة الإسلاميّة، وهذا النهج في الحكم يعني إلغاءَ القيم الإسلاميّة وإرساخ الخصال القبليّة، حيث يُعَيَّن الأمراء [أبناء الملوك] في الحكم الوراثيّ على الولايات، وأنّى وجدوا أرضاً عامرةً امتلكوها. وقد مرّ بنا أنّ سعيد بن العاص الأمويّ حاكم الكوفة، سمّى أرض العراق «بستان قريش»[٤]، ومنه بدأ الناس ينقمون على عثمان[٥].

٣- المجموعة الثالثة من الاعتراضات الشعبيّة على عثمان تعود إلى عطاياه التي أغدقها على رجال البيت الأُمويّ، وكان نطاقها واسعاً جداً، علماً أنّها كانت في البداية لجميع أعيان قريش، ثمّ استأثر بها الأمويّون وحدهم.

---

١ - **الأغاني** ١٧: ١٥٢.

٢ - **البداية والنهاية** ٧: ١٧٠.

٣ - **مصنّف ابن أبي شيبة** ١٥: ٢٢١.

٤ - **أنساب الأشراف** ٤: ٥٢٩، الرقم ١٣٧٦.

٥ - **مختصر تاريخ دمشق** ٩: ٣٠٨.

ومعارضة طلحة والزبير كانت ناتجة من موقف عثمان الأخير في تحرّكه المطلق لمصلحة بني أُميّة؛ لذا كان عبد الله بن عمر يقول حقّاً لعدد من المعارضين:... ولكن هو هذا المال، إن أعطاكُموه رضيتم، وإن أعطى قرابتَه سَخِطتم[١]. يضاف إلى ذلك أنّ الإسراف والإتراف في الجهاز الحاكم سبّبا الاعتراض والنقمة على عثمان، فقد بنى عثمان داره في المدينة، فشيّدها بالحَجَر والكِلس، وجعل بابَها من الساج والعرعر[٢]، وهذا ما أثار دهشة الكثيرين مقارنة بظاهر سياسة عمر المالية، وحين أعتُرض عليه قال: بنيتُ هذه الدار من بيت المال، أليس هو لي ولكم[٣]؟! والأرض التي قيل: إنّها كانت من صدقات رسول الله ﷺ وهبها للحارث بن الحكم (أخي مروان)، وكذلك فدك ، التي دار حولها الخلاف بين السيّدة فاطمة الزّهراء عليها السلام وأبي بكر، وكانت قد سُلبت بعنوان أموال عامّة، أعطاها عثمان لصهره مروان بن الحكم[٤]. ووازن أحدُ الشُعراء بين موقفً الشيخين وموقف عثمان بشأن أموال بيت المال. وانتهى بالإشارة إلى إعطاء مروان بن الحكم خُمس غنائم أفريقية الّتي كانت تعادل خمسمئةَ ألف دينار قائلاً:

وأعطيتَ مروانَ خُمسَ العِباد فهيهاتَ شَأوُك مِمن سعى[٥]

قال ابن قتيبة: دفع عثمان إلى الحكم بن أبي العاص مئة ألف درهم[٦]، وفي قولٍ آخر: ثلاثمائة ألف درهم[٧]. وكذلك أعطى [عثمان] خالدَ بن أُسيد

---

١ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ١١١٥.

٢ - **مروج الذهب** ٢: ٣٣٢.

٣ - **الموفّقيات**: ٦٠٢.

٤ - **المعارف**: ١٩٥.

٥ - نفسه؛ وانظر: **أنساب الأشراف** ٥: ٢٧، ٣٨.

٦ - **المعارف**: ١٩٤.

٧ - **أنساب الأشراف** ٥: ٢٨. وكانت هذه الأموال من زكوات قُضاعة.

أربعمئة ألف درهم[١]، وأصاب عبدُ الله بن سعد بن أبي سرح حظًّا وافراً من غنائم أفريقية[٢]، وجعل عثمان لأزواجه مهراً عالياً.[٣] وقد قدّم العلّامة الأمينيّ؛ اعتماداً على معلوماتٍ تاريخيّة مثبّتة، قائمةً بهذه الأُعطيات التي وُهبت للمذكورين وغيرهم: كالزبير، وسعد بن أبي وقّاص، ويَعلى بن أميّة، وزيد بن ثابت، وعددٍ آخر سِواهم.[٤]

واصطدم عثمان ببعض الأشخاص فيما يرتبط بالأمور الماليّة، وأهمّهم أبو ذرّ. وقيل: إنّ أبا ذرّ هاجمه بشدّة استناداً إلى آية الكنز: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ...﴾[٥]. ونقل السيوطيّ أنّ عثمان حاول أن يرفع الواو من أوّل الآية، فتكون في أهل الكتاب فقط، لكنّه لم يستطع ذلك بسبب معارضة أُبيّ ابن كعب الشديدة له.[٦] واصطدم عثمان بأبي ذرّ أيضاً في أُمور ماليّة أُخرى[٧]، وما توصّل إليه بعد استفتاء كعب الأحبار هو أنّ بيت المال مُلْك للخليفة وله أن يفعل فيه ما يشاء!

وقال عثمان يوماً لابن مسعود الذي كان بيده بيت مال الكوفة: إنّما أنتَ خازنٌ لنا... فطرح ابن مسعود المفاتيح وقال: كنتُ أظنّ أنّي «خازن المسلمين»، فأمّا إذ كنتُ خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك. ولمّا قدم عبد الله ابن مسعود المدينة وسلّم المفاتيح، امتهنه عثمان كثيراً، وأمر بضربه ضرباً

---

١ - **المعارف**: ١٩٤، ١٩٥.

٢ - **البداية والنهاية** ٧: ١٧٢.

٣ - **أنساب الأشراف** ٥: ١٣.

٤ - **الغدير** ٨: ٢٨٦.

٥ - التوبة: ٣٤.

٦ - **الدرّ المنثور** ٣: ٢٣٢.

٧ - **مروج الذهب** ٢: ٣٣٩ - ٣٤٠.

عنيفاً وإخراجه من المسجد، فأنكر عليه الإمام عليّ‌عليه‌السلام ما فعل بابن مسعود. ثمّ أخذه الإمام إلى بيته. ومات ابن مسعود قبل عثمان بعامين، وأوصى أن يصلّي عليه عمّار، لا عثمان[1]، وحدَث مثل ذلك لعبد الله بن الأرقم، وذُكر أيضاً أنّه خازن للمسلمين، وإذ عَلِمَ أنه خازن للخليفة، لم يتحمّل هذه المسؤوليّة.[2]

واستفتى عثمان كعبَ الأحبار بمحضر أبي ذرّ قائلاً: يا أبا إسحاق! ما تقول في رجلٍ جمع هذا المال فكان يتصدّق منه، ويحمل في السبيل [للفقراء أبناء السبيل]، ويصل الرَّحم؟ فقال: إنّي لأرجو له خيراً! فغضب أبوذرّ، ورفع عليه العصا،[3] وكان أبو ذرّ يقول لعثمان: قال رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله: «إنّ أحبّكم إليّ وأقربكم منّي الذي يأخذ بالعهد الذي تركتُه عليه حتّى يَلحقَني»، وكلّكم قد أصاب من الدنيا غيري؛ فأنا على العهد وعلى الله البلاغ»[4].

وكان معاوية يسمّي أموال بيت المال: «مال الله» ليحصر التصرّف فيه بنفسه أو يستأثر به أساساً، وكان أبو ذرّ يقول مُنكِراً عليه: ما يحملك على أن تُسمّي «مال المسلمين» «مالَ الله»[5]؟! وحدث أنّ حكايةً أُخرى تؤيّد هذا الأمر، فقد قال الزُّهري: وكان في الخزائن سَفَط فيه حُليّ، فأخذ منه عثمان فحلّى به بعض أهله، فأظهروا عند ذلك الطعن عليه، وبلغه ذلك، فخطب فقال: هذا مال الله أُعطيه مَن شئت، وأمنعه مَن شئت!.. فأنكر عليه عمّار، فضربه حتّى

١ – **أنساب الأشراف** ٥: ٣١، ٣٦، ٣٧؛ **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٧١.

٢ – انظر: **أنساب الأشراف** ٥: ٥٨، ٨٨.

٣ – **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ١٠٣٦ – ١٠٣٧. ونفسه في الهامش عن: **الطبقات الكبرى** ٤: ٢٣٢؛ **حلية الأولياء** ١: ١٦٠؛ **تاريخ الطبريّ** ٥: ٢٨٦؛ **شرح النهج** ٢: ٣٧٦؛ ٣: ٥٤؛ **نهاية الإرب** ١٩: ٤٤٣؛ **التمهيد والبيان**/ الورقة ٧٠.

٤ – **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ١٠٤.

٥ – **تاريخ الطبريّ** ٤: ٨٣

غُشيَ عليه[١]. وفي السياسة العمليّة لعثمان وولاته أمثلةٌ من التوجّه الشديد إلى الدنيا؛ وكان معاوية يتصدّر هذه التوجّهات والنشاطات، إذْ أقام لنفسه بالشام سلطاناً، وسنبسُط الحديث عنه لاحقاً.

وتحدّث المَودوديّ تحت عنوان «من الخلافة الراشدة إلى الملكيّة» في تولية عثمان أقاربه على الولايات المهمّة، وحكومة هذه العناصر التي كانت من «الطلقاء» غالباً هي في رأيه نوعٌ من الحكومة القَبليّة على الأمّة الإسلاميّة[٢]. وذهب إلى أنّ من أخطاء عثمان تخويلَه معاويةَ الشام برُمّتها، وإبقاءَهُ حاكماً عليها عددَ سنين. وذكر المودوديّ أنّ هذا الأمر هو الذي سبّب استقلال معاوية بالشام ورفضه التبعيّة للحكومة المركزيّة.[٣] وتوجيهُ عثمان لأعطياته هذه هو أنّه كان يفعل ذلك من أجل صلة رَحِمه على عكس عمر[٤].

وما دام الأمر يرتبط بموقف عثمان وبطانته من بيت المال، يتعيّن علينا أن نعدّ أحد الأسباب المهمّة للثورة عليه هو قيام أعيان القبائل الذين كسبوا تلك الأموال لهم ولسائر المسلمين بالسيف، وها هم يشهدون الآن تأهّب قريش ـ بخاصّة بني أميّة ـ للاستيلاء عليها. وبَرزَ هذا النزاع عمليّاً بين قريش المتحضّرة صاحبة الحكومة وبين القبائل البدويّة المحاربة، وقد اعتبر أحد الباحثين ـ[٥] مشيراً إلى هذه النظريّة ـ أنّ الحكومة المركزيّة هذه كانت معلَماً

١ – **أنساب الأشراف** ٤: ٥٨٠/ الرقم ١٤٨٥؛ كان أبو ذرّ يقول: يريد معاوية أن يحتجبه دون المسلمين، ويمحو اسم المسلمين. وهذه رؤية رائعة. وسنرى أنّ إلحاق الخليفة بالله هو من أجل محو اسم الناس ومسؤوليّته – فضلاً عن الله – أمامهم.

٢ – **خلافت وملوكيت** [الخلافة والملكيّة]: ١١٩ – ١٢١.

٣ – نفسه: ١٢٩ – ١٣٠.

٤ – **ربيع الأبرار** ٣: ٥٧٥.

٥ – خير الدين السويّ، متأثّراً بأستاذه عبد العزيز الدوريّ، في كتاب «**تطوّر الفكر السياسيّ عند أهل السنّة**»: ٤٢ – ٤٣.

على الاتّجاه الإسلاميّ! وأنّ معارضة المدن كان اتّساقًا في استقلال القبائل والمعايير القبليّة، وذهب إلى أنْ قتل عثمان هو انتصارٌ لـ «المدن»، وفي الحقيقة انتصارٌ قبليّ. وما يبدو صائباً هو أنّ قريشاً كانت في صدد التحكّم بمصير الأمّة الإسلاميّة، ممّا سبّب تحريض القبائل، وعثمان أساساً كان - بمفهومٍ واحدٍ - اطّرادًا للعدول عن الاتّجاهات الإسلاميّة إلى المعايير القبليّة، لا أنّ قتله يعني زوالَ الاتّجاه الإسلاميّ وغلبة الاتّجاه القبليّ.

وفي عقيدتنا أنّ الرأي الصحيح هو أنّ تحكّم قريش بالخلافة أدّى إلى اعتراض القبائل التي اضطلعت بالعبء الأعظم من الفتوحات، وشهدت في الوقت نفسه احتكارها للحكم والثروة، وفي هذا الوضع رأت قبائل العراق نفسها مغبونةً. وحين قال سعيد بن العاص الأمويّ بالكوفة: السواد [أرض العراق الخصبة] بستانٌ لقريش، قال له مالك الأشتر: أتجعل ما أفاء الله علينا بظِلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستاناً لك ولقومك؟![1] ويعتقد الدكتور الدوريّ[2] أنّ التمييز الماليّ لقريش وغير قريش منبثق على السياسة الماليّة لعمر إلى حدٍّ ما؛ في حين أنّ أبا بكر كان يقسّم المال بالسويّة، ولم يفضّل أهل السوابق قائلاً: إنّما ذلك ثوابه على الله جلّ ثناؤه. وأمّا عمر فقد قسّم أموال بيت المال بحسب السوابق، وهذا ما أدّى إلى تفضيل المهاجرين والأنصار على العرب والقبائل التي اضطلعت بالعبء الأصليّ للفتوحات بعد رسول الله ﷺ، وثروةُ كبار الصحابة شاهدٌ على آثار السياسة الماليّة لعمر التي واصلها عثمان أيضاً. ولمّا بعث عثمان سعيد بن العاص إلى الكوفة حاكماً، كتب سعيد إليه يُخبِرُه

---

١ - **مروج الذهب** ٢: ٣٣٧؛ وانظر: **تاريخ الطبريّ** ٤: ٤٦٩ - ٤٧٠ (بشأن رأي أحد الناس في تحكّم المهاجرين باختيار الخليفة واحتكار ذلك).

٢ - انظر: **مقدّمة في تاريخ صدر الإسلام**: ٥٠ - ٥٨.

بأنّ أهل الشرف والبيوتات والسابقة والقُدمة غُلبوا، والغالب... روادف ردفت، وأعراب لَحِقت، فكتب إليه عثمان أن يفضّل أهل السابقة والقُدمة... وليكن مَن نزلَها بسببهم تبعاً لهم... وأن يحفظ لكلٍّ منزلته[١]. ويرى الدوريّ أنّ السبب الأصليّ للثورة على عثمان هو ثورة القبائل على قريش. ويجب أن نقول: إنّ عثمان كان استتباباً للاتّجاه القبليّ في ترجيح سلطة قريش ـ بخاصّة بني أميّة ـ على جميع العالم الإسلاميّ، في حين أنّ كثيراً من الثوّار كانوا من الهادفين المطالبين بانتصار الإسلام الأصيل، وتولّي الإمام عليّ عليه السلام أمر الخلافة شاهدٌ على ذلك. ويرى الدكتور بيضون أيضاً أنّ حركة المعارضين نوعٌ من الاتّجاه الإسلاميّ، وحركة عثمان اتّجاه قبليّ.[٢] ومن الطبيعيّ أنّنا يمكن أن نقول: إنّ من نتائج هذه الثورة إضعافَ الحكومة المركزيّة، وهذه مشكلةٌ كانت من أهمّ المشاكل التي واجهها الإمام عليّ عليه السلام. والكلام الأخير في هذا البحث هو فهرس للمخالفات التي ارتكبها عثمان، ويمكن ملاحظتها في رسالةٍ كتبها الصحابة إليه[٣].

المعارضون لعثمان

أدّت غلبة الرؤية العثمانيّة على الأمّة الإسلاميّة، منذ تسلّط الأمويّين (سنة ٤١هـ)، إلى تبرئة عثمان وتزكيته من كلّ تُهمة. وقد فرض الأمويّون هذه الرؤية على المجتمع الإسلاميّ، ولم يقاومها إلّا العراق مقاومةً ضئيلة. وهكذا تصوّر عامّةُ أهل السنّة ظُلامة عثمان وأحقّيّته أمام معارضيه، ومع وجود هذه الرؤية كيف كانوا يحكمون على المعارضين؟ فأحد الطرق إلى ذلك أنّهم

١ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٧٩.

٢ - انظر: **من دولة عمر إلى دولة عبد الملك**: ١٠٧.

٣ - **الإمامة والسياسة** ١: ٥٠.

عرفوا معارضيه بصورة واقعيّة واعتبروهم خصوماً لمذهبهم، وإذا كانوا يختارون هذا الطريق، فإنّ كبار الصحابة أصبحوا عُرضةً للتهمة. والطريق الآخر هو اعتبار معارضيه رجالًا جاؤوا من العراق ومصر ولم يكن فيهم أحدٌ من الصحابة، فأولئك اختاروا هذا الطريق، حتّى أنّهم في الحالات التي ورد فيها وجود بعض الصحابة بين المنتقدين لعثمان، باختلاق الخبر القائل: إنّهم أرسلوا أبناءهم إلى باب دار عثمان للدفاع عنه (ولا ندري لماذا لم يذهبوا هم أنفسهم!)، طفقوا يدافعون عن الصحابة لئلّا تُوجَّه إليهم تُهمةُ العداء لعثمان!

ولا بدّ أن نعلم بأنّ «المؤرّخ السنّي» كان يُلزم نفسه بالامتناع عن ذكر «مثالب الصحابة»، [١] وإذا نقل أحدٌ مثالبهم، فهذا يعني أنّه ذو عقيدة شيعيّة. ومن الواضح عندهم أنّه إذا كان أحد الصحابة قد اشترك في قتل عثمان، فإنّ هذا يُعدُّ من مثالبه، وبهذه السياسة التأليفيّة، ضاع كثيرٌ من الحقائق التاريخيّة المرتبطة بالمواقف السياسيّة للصحابة.

وفي غضون ذلك كان الاختلاق يَظهر في شكلين؛ الأوّل: الامتناع من كتابة الحقائق التاريخيّة، والآخر: وضع الأخبار المختلَقة. وفي حوادث تلك

١ - كان أحمد بن حنبل يمنع الرواة السنّة من نقل الأحاديث في مثالب الصحابة بشدّة، وكان يعتقد أنّ مَن ينقل هذه الأمور في الصحابة يجب تجنّبه. وأحمد نفسه كان يسمع الحديث من عبد الرزّاق الصنعانيّ، وعندما كان عبد الرزّاق يقرأ هذه الأخبار، يبتعد أحمد عنه، ثمّ يدخل في حلقة درسه إذا خرج الكلام من هذا النطاق. وفي حالات أخرى، حين كان يرد كلامٌ في مثالب الصحابة يضع أحمد إصبعيه في أذنيه، وكان يقول: لايمكن النقل عن عبيد الله بن موسى العبسيّ لأنّه يحدّث بأحاديث فيها تنقّص لأصحاب رسول الله ﷺ. ولم يُجوّز الرواية أيضاً عمّن يلعن معاوية، ولم يُجز أحياناً الرواية عن بعض الصحابة بذريعة أنّهم تحادثوا في حال الغضب، وقيل: إنّ سلام بن أبي مطيع أخذ كتاب أبي عوانة ومحا منه أحاديث الأعمش في مثالب الصحابة. وبشأن هذه الموضوعات والأخبار المشابهة انظر: **السنّة**، لأبي بكر الخلّال: ٥٠٠ ـ ٥١١.

الفترة أنكر سيف بن عمر المفتري حضورَ الصحابة أساساً، وألقى جميع هذه الوقائع الكبرى التي استمرّت شهوراً - وكانَ لجميع الأمصار الإسلاميّة بخاصّة مركز الخلافة، أي المدينة، دورٌ فيها - على عاتق شخصٍ مجهول ، وباحتمال قريب لليقين ـ مختلَق يُدعى عبد الله بن سبأ! وذكر سيفٌ بن عمر أنّ هذا الشخص حرّض الناس على عثمان من خلال سفره إلى مختلف الأمصار[١]، واستطاع تأليب الكوفة ومصر، وفي عقيدة سيف بن عمر أو اختلاقه أنّ عبد الله بن سبأ كان هو المؤسّس لمذهب الشيعة!

وإذا كان كلام سيف صحيحاً، فليس واضحاً ماذا علينا أن نقول في مجتمعٍ ضعيفٍ إلى هذا الحدّ حتّى أنّ شخصاً يهودياً يؤلّب ذلك المجتمع ضدّ الخليفة تأليباً يؤدّي إلى قتله؟ والثابت هو أوّلًا: أنّ سيفاً متّهم بالزندقة والكذب في الكتب الرجاليّة جميعها، وثانياً: أنّ الكتب التي هي في عداد المصادر الأُولى للتاريخ الإسلاميّ لم تذكر هذه الموضوعات قطُّ، بل لم تذكر اسم عبد الله بن سبأ أيضاً. بتعبيرٍ آخر نلحظ أنّ الطبريّ وحدَهُ ـ من بين المصادر الباقية من القرن الثالثٍ والرابع. أخذ عن كتب سيف، ولهذا حَفِظ أخباره المختلَقة. في حين لم تُذكَر هذه الحوادث في كتبٍ مثل الأخبار الطوال، والإمامة والسياسة، وأنساب الأشراف، وتاريخ خليفة بنِ خيّاط. ومن المؤسف أنّ المصادر المتأخّرة التي أخذت من الطبريّ مثل البداية والنهاية، والكامل في التاريخ لابن الأثير كرّرت هذه الأكاذيب والأباطيل، ولمّا كانت تنسجم مع عقائد أهل السنّة غالباً فقد نالت حظّها من القبول في العصور المتأخّرة. ونجد الآن أنّ كثيراً من الباحثين الشيعة والسنّة، وكذلك عدداً من المستشرقين ارتابوا كلّ الارتياب في هذه الموضوعات ورفضوها. ومنهم:

---

١ - تاريخ الطبريّ ٣: ٣٧٨ - ٣٧٩.

السيّد مرتضى العسكريّ[١] من الباحثين الشيعة، والدكتور طه حسين[٢] من الباحثين السنّة. ووضع هذه الأخبار واختلاقها بيّنٌ جليٌّ عند المستشرقين أيضاً، فقد قال برنارد لويس: نَسَبَ كثير من المؤرّخين المسلمين[٣] بدايةَ التشيّع الثوريّ إلى رجلٍ يُدعى عبد الله بن سبأ المعاصر لعليّ بن أبي طالبعليه السلام، وكان يهوديّاً يمانيّاً. ودعا إلى ألوهيّة عليّعليه السلام في عصره، وانتهى أمره إلى الحرق بسبب أعماله. وهكذا نسبوا بداية عمل الشيعة المتطرّفين أو الغلاة إليه، وعن طريقه إلى أصل يهوديّ؛ بيد أنّ الدراسات الحديثة دلّت على أنّ هذا نوع من الاستباق للحوادث صورة مُثِّل بها في الماضي وتخيّلها محدّثو القرن الثاني للهجرة من أحوالهم وأفكارهم. وذهب فِلْهَوزن وفريد ليندر إلى أنّ المؤامرة والدعوة والأعمال المنسوبة إلى ابن سبأ هي من اختلاق المتأخّرين. وذهب كايتاني أيضاً في فصلٍ مبرهَن إلى أنّ ما يُنسَب إليه من أعمال ضخمة ومؤامرة مثل هذه بهذا التفكير وهذا التنظيم، لايمكن أن يتصوّرها العالم العربيّ القبليّ المعروف عام خمسةٍ وثلاثين للهجرة بنظامه القائم على سلطان الأبوّة.[٤]

ومهما كان، فبمقدار ما يرتبط الأمر بمعارضي عثمان، يمكن العثور على حقائق كثيرة من خلال التنقيب في المصادر التاريخيّة والأدبيّة، وما ورد في هذه المصادر يفيد أنّ للصحابة ـ لا سيّما الأنصار ـ دوراً أساسيّاً في تأليب

---

١ - ناقش هذا الباحث وحلّل روايات سيف في كتابه «**عبد الله بن سبأ**» الذي يقع في ثلاثة أجزاء، وعرض نهج كتابته ـ التي تمثّل نوعاً من القَصص ـ جيّداً.

٢ - **الفتنة الكبرى**، الفصل المتعلّق بـ عبد الله بن سبأ.

٣ - أشرنا في نصّ الكتاب آنفاً إلى أنّ هذا «الكثير» هم الذين اعتمدوا على الطبريّ، وإلّا لم تذكر أمّهات المصادر في القرن الثالث هذه الوقائع أساساً.

٤ - **تاريخ اسماعيليان** [تاريخ الإسماعيليّين]: ٣٣.

الناس على عثمان. وقد ذكر العلّامة الأمينيّ أكثر من ثمانين صحابيّاً بين مُعارضي عثمان اعتماداً على مصادر عديدة. ومنهم: طلحة، والزبير، وعائشة، وعمّار، وأبو ذرّ، وعبد الرحمان بن عوف، وعبد الله بن مسعود، والمِقداد، وحُجْر بن عَدِيّ، وهاشم بن عُتبة، وسَهل بن حُنيف، وأبو أيّوب الأنصاريّ، وجابر بن عبد الله الأنصاريّ... ونقل العلّامة الأمينيّ أخبار مخالفتهم[١]. ويتعيّن علينا الالتفات هنا إلى أنّ هؤلاء لم يعتقدوا كلّهم قتل عثمان أو لم يروا المصلحة في قتله؛ إلّا أنّهم وجّهوا أشدّ انتقاداتهم إلى أعماله وسيرته السياسيّة والدينيّة. وكان أبوسعيد الخُدريّ يقول: شهد ثمانُمائة من الصحابة قتلَ عثمان[٢]. والكلام الشرس الذي خاطب به بُسر بن أرطاة أهلَ المدينة سنة ٤٠هـ، دليلٌ قويّ على حضور الأنصار القاطع في قتله،[٣] وقد أخرب هذا الشخص بيوت بعض الذين كانوا يعملون ضدّ عثمان[٤].

وكان طلحة والزبير في عِداد أشدّ الطاعنين على عثمان، وفيهما وفي نظائرهما قال أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام: وإنّهم لَيطلبون حقّاً تركوه، ودَماً سَفكُوه[٥]. وتحدّثت مصادر كثيرة عن عداء طلحة الشديد له،[٦] ولهذا رماه مروان بن الحكم بسهم وقتله حين رأى انكسار أصحاب الجمل، مع أنّه كان إلى جانبه يومَ الجمل؛ وبذا ثأر منه بعثمان. وقال ابنه عبد الملك بن مروان فيما بعد: لولا أنّ مروان أخبرني أنّه هو الذي قتل طلحة ما تركتُ من ولد طلحة أحداً إلّا

---

١ - **الغدير**، ج ٨ و٩.

٢ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ١١٧٥.

٣ - **الغارات**: ٢١٩. (من الترجمة الفارسيّة).

٤ - **جمهرة أنساب العرب**: ٣٣٤.

٥ - **نهج السعادة** ١: ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

٦ - **المعارف**: ٢٢٨؛ **أنساب الأشراف** ٥: ٨٠؛ **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ١١٦٩ (كان أشدّ الصحابة على عثمان طلحة بن عبيد الله).

قتلته بعثمان بن عفّان[١]! وقيل: لمّا حُوصرت دار عثمان، كان طلحة على حرس الدار يمنع كلّ أحد يجلب إلى عثمان شيئاً من الطعام أو الشراب[٢]. وحين سمع بوصول الطعام والشراب إليه قال: أيُّ حصار هذا والطعامُ والشراب ينفذ منه[٣]؟! وعندما حظر الماء على عثمان، رأى الإمام عليّ عليه السلام طلحةَ وكلّمه في الإذن بدخول الماء في داره، فرفض[٤]. وبعث عثمان رسولاً إلى الإمام عليّ عليه السلام يبلغه بأنّ طلحة يقتله عطشاً، والقتل بالسيف أحسن[٥]. وقد خصّص الشيخ المفيد فصلاً خاصّاً لمواقف طلحة حيال عثمان[٦].

وكان عمرو بن العاص من مخالفيه الأشدّاء أيضاً[٧]. وكانت عائشة تهاجم عثمانَ بحدّة منذ قُطع عطاؤها بأمره،[٨] وهي التي سمّته «نَعثلاً» بسبب لحيته العريضة[٩]. قال شاهد: كنتُ في المسجد فمرّ عثمان، فنادته عائشة: يا غُدَرُ، يا فُجَرُ! أخفرتَ أمانتَك، وضيّعت رعيّتك، ولولا الصلوات الخمس، لَمشى إليك الرجال حتّى يذبحوك ذبحَ الشاة! فقال عثمان يقرأ هذه الآية: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[١٠،١١]! ويبدو

---

١ – **الطبقات الكبرى** ٣: ٢٢٣؛ **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ١١٧٠.

٢ – **الجمل**: ١٤١. وانظر: **تاريخ الطبريّ** ٤: ٣٨٥؛ **العقد الفريد** ٤: ٢٩٠.

٣ – **الإمامة والسياسة** ١: ٥٧.

٤ – **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ١١٦٩.

٥ – نفسه ٣: ١٢٠٢.

٦ – يراجع: **الجمل**: ١٤٥ ـ ١٤٦.

٧ – **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ١٠٨٩.

٨ – **الفتوح** ٣: ١٢٣؛ **المعيار والموازنة**: ٢٧؛ **الطبقات الكبرى** ٣: ٣٧.

٩ – **المعيار والموازنة**: ٢٧.

١٠ – التحريم: ١٠، يذكّر فيها عائشةَ بخيانتها هي وصاحبتها حفصة لرسول الله صلى الله عليه وآله والغدر به!

١١ – **الجمل**: ١٤٨؛ **الفتوح** ٢: ٢٢٥؛ **شرح النهج** ٦: ٢١٥.. ويراجع **تفسير الثعلبيّ** في ظلّ الآية

أنّه كلّما كان يذهب إلى المسجد للصلاة في السنين الأخيرة من خلافته كانت عائشة تعاتبه، إذ كان بيتها مجاوراً للمسجد. ونقل البلاذريّ أنّ هذا العتاب - بل التوبيخ - أدّى مرّةً إلى النزاع بين مؤيّديهما ومعارضيهما حتّى اضطربوا بالنعال! وأضاف قائلاً: ذلك أوّلُ قتالٍ وقع بين المسلمين بعد النبيّ صلى الله عليه وآله[1]!

وكان محمّد بن طلحة يرى أنّ ثلث دم عثمان في عنق عائشة[2]، وقال سعد بن أبي وقّاص يوماً: قُتِلَ عثمان بالسيف الذي سلّته عائشة[3]! وبلغت الأخبار حول معارضة عمّار، وأبي ذرّ، وعبد الرحمان بن عوف، وكثيرٍ غيرِهم له مبلغاً لا تَدَع أيَّ مجال للشكّ.

وكان قلّ مَن بقيَ يؤيّد عثمانَ في المدينة حين بلغت الثورة عليه ذُروتها، بخاصّة لمّا اطّلع المسلمون على رسالته - والتي كانت بختمه - إلى حاكم مصر، يأمره فيها بقتل بعض الناس، ممّا أجّج غضبَ أهل المدينة عليه،[4] وقد قالت أمّ الخير لمعاوية حين سألها عن عثمان: «استخلَفَه الناس وهم كارهون، وقتلوه وهم راضون»[5]!

وكان الأنصار ـ وهم سكّانُ المدينة الأصليّين ـ لم يوافقوا قريشاً، وخطأهم الأوّل في السقيفة مسبَّب لموقفهم منها. وفي قضيّة قتل عثمان ـ

الشريفة.

١ - أنساب الأشراف ٥ : ٣٤ .

٢ - تاريخ المدينة المنوّرة ٣: ١١٧٣.

٣ - نفسه: ١١٧٤.

٤ - تاريخ الخميس ٢: ٢٦١.

٥ - صبح الأعشى ١: ٢٥١.

وهو حبيبهم ـ كان كثير منهم يخالفه، وسكت بعضهم أيضاً، وقليل منهم كان في زمرته وأتباعه. والحركة التي قامت ضدّه قادها الأنصار والمهاجرون، وبعض أهل الكوفة ومصر. ومع هذا، لمّا كانت المدينة مدينة الأنصار، اعتبرهم بنو أميّة المقصّرَ الأصليّ في الحادثة، وهذا ما أدّى إلى تفكيرهم بالانتقام منهم.

وكان يزيد يرى أنّ القمع الوحشيّ للمدينة في واقعة الحرّة ـ والتي اجترحها مسلم بن عَقَبة الملقَّب بمُسرِف لكثرة ما قتل فيها من الناس ـ هو ثأرٌ بدم عثمان من أهل المدينة[١]. قال ثابت بن عبد الله بن الزبير لعبد الملك: «وأمّا أهل المدينة، فخذلوا عثمان حتّى قُتل بينهم، لم يروا أن يدفعوا عنه»[٢]. وفي حين آخر سبّ ابن عبد الله بن الزبير أهل الشام، فقال له ابن عثمان: تسبّ أهلَ الشام لأنّهم قتلوا أباك، فقال له: نعم! ولكن اعلم يا ابن عثمان أنّ المهاجرين والأنصار قتلوا أباك[٣]. وقال سعد بن عبد الرحمان لحسّان: ذهب جماعة من الأنصار إلى معاوية في الشام، فقال لهم معاوية: قريش أنفع لكم أم أنتم أنفع لها؟... خذلتم عثمان وقتلتم صحبه يومَ الجمل[٤]. وبعد قتل عثمان، حَسِب عبد الله بن عامر والي البصرة ذلك باطلًا. وقال جارية بن قدامة: قُتِلَ عثمان وحوله المهاجرون والأنصار، ولم يفعلوا شيئاً بقاتليه[٥]. وقال الشاعر في هذا أيضاً:

١ - الأغاني ١: ٢٦.
٢ - الموفقيّات: ١٥٢؛ الإمتاع والمؤانسة ٣: ١٦٥.
٣ - الإمتاع والمؤانسة ٣: ١٦٥.
٤ - نفسه ٣: ١٦٨ ـ ١٦٩.
٥ - الفتوح ٢: ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

إنّ ابنَ عفّانَ أُصِيبَ وحولَهُ　　　　إخوانُه، وجماعةُ الأنصار[١]

ويعبّر هذا الشّاعر عن أسفه، إذ إنّهم لم يدفعوا عنه وهم يسمّون أنفسهم صحابة رسول الله ﷺ. وسأل معاوية يوماً أبا الطفيل: ألستَ مِن قَتَلة عثمان؟ قال: لا، ولكنّي ممّن حضره فلم ينصره، قال: فما منعك من نصره؟ قال: لم ينصره المهاجرون والأنصار[٢]. وكان الناس يسألون سعيد بن المسيّب عمّا حمل الصحابةَ على خذلان عثمان[٣]! وقال عبد الملك بن مروان لأهل المدينة: كلّما ذكرنا قتلَ بني أُميّة لا نُحبّكم، وإذا ذكرتم واقعة الحرّة فلا تحبّوننا[٤]. وعداء بني أُميّة للأنصار هو الذي حملهم على تحريض الأخطل الشاعر على هجائهم[٥]. ولمّا حوصر عثمان كتب إلى معاوية أنّ أهل المدينة كفروا وعصوا إمامهم، ونكثوا عهدهم[٦]! وذكر الشاعر حسّان بن ثابت - وهو من المدافعين عن عثمان بشدّة يومئذٍ - خذلانَ الأنصار له قائلًا:

خذلَتْهُ الأنصارُ إذْ حضر المَوْ　　　　تُ وكانت ولايةُ الأنصار[٧]

وذهب كذلك إلى أنّ طلحة، والزبير، ومحمّد بن أبي بكر، وعمّاراً اشتركوا في قتله. وعداء بني أُميّة للأنصار هو الذي دفع العثمانيّة إلى تفضيل الشام على المدينة.[٨] وسمّى يحيى بن الحكم بن أبي العاص المدينة «الأرض

١ - ربيع الأبرار ٣: ٣٤١؛ الفتوح ٢: ٢٦٣.
٢ - الموفقيّات: ١٥٤.
٣ - العقد الفريد ٤: ٢٨٧.
٤ - البصائر والذخائر ١: ١٨.
٥ - الأغاني ١٥: ١٠٧.
٦ - تاريخ الطبريّ ٣: ٤٠٢.
٧ - مروج الذهب ٢: ٣٤٧.
٨ - الإمامة والسياسة ١: ٤٢؛ الطبقات الكبرى ٣: ٧١؛ مصنّف ابن أبي شيبة ١٥: ٢٠٤، ٢٠٥، ٢١٢، ٢٢٣، ٢٢٧؛ تاريخ الطبريّ ٣: ٤٢١.

الخبيثة»، والشام «الأرض المقدّسة»[١]، وهذا التعبير يُبيّن عداءهم للإسلام أيضاً لا لأهل الإسلام فحَسْب!

وتدلّ هذه الأمثلة على أنّ للمهاجرين والأنصار قسطاً وافيًا في معارضة عثمان، فنقل المؤرّخون رسالة المهاجرين إلى الأمصار وطلبهم من أهلها القدومَ إلى المدينة لإصلاح أوضاعها، وجاء فيها: «من المهاجرين الأوّلين وبقيّة الشورى، إلى مَن بمصر مِن الصحابة والتابعين، أمّا بعد: أن تعالوا إلينا، وتداركوا خلافة رسول الله قبلَ أن يسلبها أهلها؛ فإنّ كتاب الله قد بُدِّل، وسنّةَ رسوله قد غُيِّرت، وأحكام الخليفتين قد بُدِّلت... فنُنشد اللهَ مَن قرأ كتابنا من بقيّة أصحاب رسول الله والتابعين بإحسان إلّا أقبل إلينا... فأقبلوا إلينا إنْ كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخِر... وكانت الخلافة بعد نبيّنا خلافة نبوّة ورحمة، وهي اليوم مُلكٌ عَضوض»[٢]! ويدلّ خبر آخر أيضاً على أنّ أُناساً من أصحاب النبيّ ﷺ اجتمعوا فكتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه عثمانُ من سنّة رسول الله ﷺ... وهذا الكتابَ الذي يُعدّ وثيقةً بالغة الأهميّة دفعه عمّار بن ياسر إلى عثمان، لكنّ جوابه لم يكن إلّا ضربَ عمّار ضرباً شديداً[٣]! ومن المناسب هنا أن ننقل كلاماً لهاشم بن عُتْبة المعروف بالمِرْقال، قاله بصفّين لشاميّ كان يقول: إمامكم لايُصلّي وقَتَل خليفتَنا، فقال له: وما أنت وابنُ عفّان؟! إنّما قتَلَه أصحابُ محمّد [ﷺ] وقرّاءُ الناس[٤].

وكان لعثمان في المدينة أيضاً رجال يؤيّدونه، إذ حصل كلٌّ منهم على ثروة بفضله، ومن هؤلاء عبد الله بن سلام الذي كان ممّن دخل في الإسلام

١ - **الأغاني** ١٦: ٣٣٤.
٢ - **الإمامة والسياسة** ١: ٥٣ ـ ٥٤.
٣ - نفسه ١: ٥٠.
٤ - **وقعة صفّين**: ٣٥٤.

من يهود المدينة، فقد أشرف على الناس الذين حاصروا عثمان مِن على سطح داره وقال لهم: «... وإنّي لأجده [اسم عثمان] في التوراة... خليفتكم المظلوم الشهيد... فقالوا له: أيا يهوديّ! أشْبعَ بطنَك، وكسا ظهرَك»[١]! ولا بدّ أن يكون هذا الخبر قد اختُلق فيما بعد، لاسيّما وقد وضعه مَن كان يحبّ أن يكون لعثمان عنوان الشهيد في التوراة. وذكرنا في موضعٍ سابق أنّ مثل هذا قد حصل للخليفة الثاني أيضاً، ومهما كان فإنّ ابن سلام كان من المدافعين عن عثمان بشدّة[٢].

ومنهم أيضاً: زيد بن ثابت، فلمّا هبّ للدفاع عن عثمان اتّهمه الناس بأنّ عثمان أشبع بطنَه فدافع عنه[٣]! وكان خازناً له، ثمّ نال حظّه من خزينة معاوية أيضاً[٤]. قال الواقديّ: لم يدافع أحدٌ من أصحاب رسول الله ﷺ عن عثمان إلّا زيد بن ثابت، وأبو أُسيد الساعديّ، وكعب بن مالك، وحسّان بن ثابت[٥]. وقال ابن إسحاق: لمّا هاجر عثمان إلى المدينة، نزل على أوس بن ثابت أخي حسّان، فأحبّه حسّان، وحين قُتل بكى عليه[٦]. وقال المسعوديّ: وكان حسّان عثمانيّاً منحرفاً[٧]. ويُضافُ إلى من ذكرهم الواقديّ أبوهريرة، إذ كان من المدافعين عنه أيضاً.[٨]

---

١ - **الإمامة والسياسة** ١: ٦١. ومن المحتمل قويّا أنّ الكلام بوجود اسمه في التوراة نُسب إلى ابن سلام فيما بعد، فكان على أيّ حال من المدافعين عنه.

٢ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ١١٧٥ ـ ١١٨٦.

٣ - **الفتوح** ٢: ٢٢٢.

٤ - **تاريخ أبي زرعة الدمشقيّ** ١: ١٩٠.

٥ - **أنساب الأشراف** ٥: ٦٠.

٦ - **سيرة ابن هشام** ٢: ٤٧٩.

٧ - **مروج الذهب** ٢: ٣٤٧.

٨ - انظر: **الطبقات الكبرى** ٣: ٨١، ١٧٠؛ ٤: ٣٤٠.

وإذا استثنينا هؤلاء القليلين، فإنّ عثمان مات بالمدينة غريباً حتّى لم يجرؤ أحد على دفنه بالبقيع، فتولّى جماعةٌ دفنه ليلًا في موضع يقال له: «حُشّ كوكب»، وألحقه معاوية بالبقيع فيما بعد[1].

موقف عثمان من المعارضين

لم يستسلم عثمان لمعارضيه الطاعنين عليه قطّ ما دام يرى نفسه في درجة رفيعة، بل كان يتعامل معهم بشدّة، ويحاول تذليلهم وتسكينهم بالضرب والنفي. وقضيّته المهمّة هي بنو أُميّة، فقد كان مسلّماً لهم، وبكلمة أوضح كان ضعيفاً أمامهم، بيد أنّه عامل كبار الصحابة الذين تفوق سوابقُ بعضهم سوابقَه بشدّة وامتهان، وهذا كان له عظيم الأثر في إثارة سائر الناس عليه. وكان من مواقفه حيال أعاظم الصحابة موقفُه من أبي ذرّ الغفاريّ الذي كان له في الأمّة موقعه الخاصّ المتميّز بفضل سوابقه ومكانته الأخلاقيّة والمعنويّة، فقد حاول هذا الرجل صدّ عثمان عن الإسراف، فاتّهمه عثمان بحبّ الفتنة قائلًا: أنت رجلٌ مُحِبٌّ للفتنة[2]، ونهاه عن الإفتاء، لكنّ أبا ذرّ صرّح بأنّه لايمتنع من نقل ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى لو وُضِع السيف في حلقه. وكان أبو ذرّ يدافع عن الإمام عليّ عليه السلام بكلّ صراحة ويقول: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إنّه ستكون فتنة، فإن أدركتموها فعليكم بكتاب الله وعليٍّ بن أبي طالب»، وسمعته يقول: «عليّ أوّلُ مَن آمن بي، وأوّلُ مَن يصافحني يومَ القيامة»[3].

واستفتى عثمانُ كعبَ الأحبار قائلًا: أيجوز للإمام أن يأخذ من المال، فإذا

---

١ - **المعارف**: ١٩٧. قال ابن قتيبة: الحُشّ: البستان... وكوكب رجل من الأنصار.

٢ - **الفتوح** ٢: ١٥٨.

٣ - **أنساب الأشراف** ٢: ١١٨.

أيسر قضى؟ فقال كعب: لا بأس بذلك! فقال أبو ذرّ لكعب: يا ابنَ اليهوديّة! أتُعلِّمُنا ديننا[١]؟! ولمّا رأى عثمان هذا، أشخص أبا ذرّ إلى الشام، ولم يتوقّف أبوذرّ عن اعتراضاته وانتقاداته فيها أيضاً، فكتب معاوية يخبر عثمانَ بخطر وجود أبي ذرّ في الشام؛ بل وفي العراق أيضاً، واستأذنه بإرجاعه إلى المدينة، فأجاز له عثمانُ ذلك، وأزعج أبو ذرّ إلى المدينة على أغلظ مركب وأوعره، [٢] وقد ذهب لحم فَخِذَيه، وكان اعتراضه على عثمان هو الذي حمل عثمان على تسييره إلى الربَذَة، وفيها توفّيَ أبو ذر وحيداً. وأبو ذرّ هذا هو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: ما أظلّتِ الخَضراء، ولا أقلّتِ الغبراء، ذا لهجة أصدقَ مِن أبي ذرّ، اتّهمه عثمان بالكذب[٣]! وهناك دافع عنه الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أيَّ دفاع، وقد أمر عثمان ألّا يشايع أحدٌ أبا ذرّ، لكنّ الإمام وابنَيه عليهم السلام شايعوه، وحين انبرى له مروان، هدّده الإمام ونحّاه عن طريقه. وخاطب الإمام عليه السلام أبا ذرّ قائلاً: «يا أبا ذرّ، إنّك غَضِبتَ لله فخافوك على دُنياهم»، وعند توديعه نظر أبو ذرّ إلى الإمام عليه السلام فقال: إنّي إذا رأيتُك ورأيتُ وُلدَك ذكرتُ قولَ رسول الله صلى الله عليه وآله فلم أصبر حتّى أبكي[٤]. وتُوفّيَ أبوذرّ في الربَذَة، وكان قد أوصى ألّا يجهّزه أحدٌ ممّن ينتسب إلى الحكومة من أميرٍ أو نقيب أو عريف أو بريد[٥].

وبلغ موقف عثمان من أبي ذرّ مبلغاً مِن الشدّة والإثارة حتّى قال

---

١ – نفسه ٥: ٥٢.

٢ – **المعارف**: ١٩٥؛ **الاستيعاب** ١: ٢١٤؛ **الفتوح** ٢: ١٥٨ ـ ١٨٩؛ **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ١٠٣٨. وقال ابن أعثم: قال عثمان لأبي ذرّ: اخرج عنّا مِن بلدنا... فقال أبو ذرّ: أرجع إلى الشام؟... قال: لا، فقال: فأخرجُ إلى العراق؟ قال عثمان: لا... ثمّ قال له: إلى بلدٍ هو أبغض إليك، قال: الربذة، قال: فاخرج إليها ولا تعدها.

٣ – **الفتوح** ٢: ١٥٧.

٤ – **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٧٣؛ وانظر: **الفتوح** ٢: ١٥٩ ـ ١٦٠؛ **أنساب الأشراف** ٥: ٥٤.

٥ – **نثر الدرّ** ٢: ٧٨.

الجاحظ: تلك الجماعة هم الذين قتلوا عثمان على أن سيّر رجلًا[١] [أبا ذرّ]. والمهزلة في هذه القضيّة هي ما كتبه بعض المتأخّرين من أنّ أبا ذرّ هو الذي ذهب إلى الربذة مختاراً، لا أنّه نُفي إليها!

ولم يُنْفَ أبوذرّ وحده، بل نُفي أيضاً كثيرٌ من الكوفيّين المعترضين على سعيد بن العاص إلى الشام بأمر عثمان الذي كان يرى الشام مأمناً، وكان عثمان يمارس القسم الأعظم من أعماله متوكّئاً على قوّة معاوية وسلطته بالشام. والمُبعَدون الذين كانوا معروفين بـ«قُرّاء» الكوفة هم: مالك الأشتر، وزيد وصعصعة ابنا صُوحان، وشُريح بن أوفى، وحُرقوص بن زهير، وجُندَب ابن زهير، وكعب بن عَبَده، وعَدِيّ بن حاتِم، وكِدام بن الحضريّ، ومالك بن حبيب، وقيس بن عُطارد، وزياد بن حفصة، ويزيد بن قيس، وآخرون غيرهم.[٢] وكان هؤلاء قد عارضوا سعيدَ بن العاص لقوله: إنّ العراق لقريش! وبعد رجوعهم إلى الكوفة قادهم مالك الأشتر وحال دون دخول سعيد الكوفة، حتّى أنّه أقام الجمعة أيضاً، وكان عثمان يعتقد أنّ الإمام عليّاً عليه السلام هو الذي حرّض هؤلاء الرجال على جميع هذه الأعمال[٣]. وأبعد عامر بن عبد قيس أيضاً بعد أن ذهب إلى عثمان لانتقاده[٤]. ومارس وجوه الصحابة والتابعين في الكوفة دوراً مهمّاً في تطوّرات ذلك العصر، فقيل: إنّ أوّل مَن تحدّث في خلع عثمان وتولية الإمام عليّ عليه السلام هو عمرو بن زُرارة بن قيس النَّخَعيّ، وكُمَيل بن زياد، ورجل من بني صُهبان.[٥]

---

١ – **الحيوان** ٤: ٢٧٧.
٢ – **أنساب الأشراف** ٤: ٣٩ ـ ٤٣.
٣ – نفسه ٥: ٤٥ ـ ٤٦؛ **مروج الذهب** ٢: ٣٣٧.
٤ – **الإصابة** ٣: ٨٥.
٥ – **أنساب الأشراف** ٥: ٣٠.

والرجل الآخر الذي اصطدم بعثمان هو: عمّار بن ياسر، فقد نقل ابن قُتيبة وغيره أنّ بعض الصحابة اجتمعوا وعزموا على الكتابة إلى عثمان ليُطْلعوه على أخطائه، وحين كتبوا الكتاب كلّفوا عمّارَ بن ياسر بإيصاله إليه، فامتنع عثمان من أخذ الكتاب من عمّار، فقال له عمّار: هذا كتاب كتبه جماعةٌ من الصحابة وفيه نصيحة لك، فقال عثمان: أنت تكذب يا ابنَ سُميّة! ثمّ أمر أن يُضرَب عمّار ويُخرَج من الدار، فضربوه وكسروا بعض أضلاعه، وبعد أن غُشي عليه من الضرب، جرّوه حتّى طرحوا هذا الصحابيّ المجاهد على باب الدار، وهناك قال مروان بن الحكم - المحرِّضُ الأصليّ على هذه الأعمال - لعثمان: إنّك إنْ قتلتَه نكّلتَ به مَن وراءه[1]! ومن آثار الضربات التي تلقّاها عمّار من عثمان أنّه لم يستطع أن يسيطر على بوله حتّى آخر عمره[2]، ويبدو أنّ ضربه كان قبل وفاة أبي ذرّ؛ لذلك قيل: إنّ أبا ذرّ كان يذكر ما جرى لعمّار في طعونه على عثمان[3].

وكان عبد الله بن مسعود أحد المحتجّين على عثمان أيضاً، وقد اصطدم بالوليد بن عقبة الفاسق بالكوفة، فكتب الوليد إلى عثمان يؤلّبه عليه، وكتب عثمان إليه يأمره بإشخاص ابن مسعود من الكوفة إلى المدينة. وحين قدم عبد الله بن مسعود المدينة حرمه عثمان حقّه من بيت المال ثلاث سنين[4]. وأوصى عبد الله بن مسعود لمّا حضره الموت أن يصلّي عليه عمّار، لا عثمان[5]!

---

١ - انظر: **الإمامة والسياسة** ١: ٥٠ ـ ٥١؛ **الفتوح** ٢: ١٥٢ ـ ١٥٥؛ **أنساب الأشراف** ٥: ٤٩.

٢ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ١٠٩٩ ـ ١١٠٠؛ وربما ضُرِب مرّتين. انظر: **أنساب الأشراف** ٥: ٤٨.

٣ - **الفتوح** ٢: ١٥٥.

٤ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ١٠٤٩.

٥ - **أنساب الأشراف** ٥: ٣١، ٣٦، ٣٧؛ **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٧١؛ **شرح النهج** ٣: ٤٢ ـ ٤٣. وفيه

وجمع عثمان بني أبيه وشاورهم لتدارك ما نقم به الصحابة عليه، فاقترح بعضهم إرسالَهم وسائرَ المحتجّين إلى جبهات الحرب الثانية كي يُؤمَن شرّهم، وعرض عليه بعضٌ أن يَزيد الناسَ أُعطياتِهم حتّى يهدأوا عنه. وكان ثابتاً له ولبني أبيه أنّ كلّ حلّ يتيسّر إلّا الخضوع للمعارضين وطلباتهم؛ فإنّه لايصلح. وأصرّ معاوية على عثمان أن يُعيد عمّاله السابقين إلى أعمالهم ولا يُصغيَ لكلام المعارضين[1]! وحاول ذاتَ مرّةٍ أن يُرسل إلى أبي ذرّ مالًا، لكنّ هذا الرجل أرجعه إليه[2]، ومعاوية نفسه بعث إليه أيضاً صرّةً من المال لخديعته[3]. وبعث عثمان إلى ابن أبي حُذَيفة -الذي كان من منتقديه الأشدّاء- بثلاثين ألفَ درهم وكسوة، فأمر به فوُضع في المسجد، وقال: يا معشر المسلمين، ألا ترون إلى عثمان يخادعني عنْ دِيني ويَرشوني عليه[4]! وأوصى عبد الله بن عامر عثمان أيضاً بأن يُرضيَ مُخالفيه بالمال[5]. وبعث سعيد بن العاص حاكمُ الكوفة هديّةً إلى الإمام عليّ عليه السلام، وأوصى مبعوثه أن يخبره بأنّه لم يُؤْثر عليه أحداً، فطرده الإمام عليه السلام بعد أن أجابه جواباً عنيفاً[6].

وكان عثمان يخال أنّه لا بدّ له من صرامة عمر ودهائه، لذا كان يُفضّل الفظاظة والغلظة، وهذا ما أغلق الباب بوجه كثير من المعترضين، وكان عثمان يزعم أنّه يقوم بالأعمال التي كان يقوم بها عمر ولم يعترض عليه أحد، لكنّه

تفصيل عن ضرب عبد الله واحتجاجاته على عثمان.

١ - انظر: **الفتوح** ٢: ١٧٨ ـ ١٧٩؛ **مروج الذهب** ٢: ٢٣٧ ـ ٢٣٨؛ **شرح النهج** ٢: ١٣٥؛ **البداية والنهاية** ٧: ١٦٧؛ **أنساب الأشراف** ٥: ٤٤.

٢ - **لباب الأدب**: ٣٠٥.

٣ - **أنساب الأشراف** ٥: ٥٣.

٤ - نفسه ٢: ٣٨٨ ؛ ٥: ٥١.

٥ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ١٠٥٩.

٦ - **شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف**: ١٠٧.

يُعتَرض عليه بسبب لين عريكته.[١] ويتعيّن علينا أن نقول: إنّ عمر كان قد أحدث في الدِّين بِدَعاً، كما أُشير سلفاً، بيد أنّه أوصد الباب بدهائه أمام المعترضين في القضايا الماليّة، وكان يتشدّد بشراسة على من لايروقه من عمّاله في هذا الموضوع، وفضلًا عن ذلك أنّه لم يُولِّ أقاربه على الأعمال، وإنّما كان يولّي أفراد منظومته السياسيّة، أمّا عثمان فإنّه جمع بين الإشكال في التصرّف الباطل بالمال وبين خشونة الطبع، وحين احتجّ عليه الإمام عليّ عليه السلام بسبب نفي أبي ذرّ، قال له عثمان: أنت أحقٌّ بالنفي!

والملاحظة الجديرة بالانتباه في هذه الأحداث هي أنّ الاحتجاج على الأعمال المناهضة للحكومة ليس أمراً جائزاً فحسب عند الصحابة، بل أمراً لازماً أيضاً، وقد قاوموا أيّ مقاومة في هذا المجال، وصمدوا حتّى التضحية بأرواحهم وروح الخليفة. وأصبحت هذه القضيّة التي اتّخذت عنوان الثورة على الحاكم قضيّةً كبيرة الأهمّيّة فيما بعد، لفتت أنظار جميع الفرق السياسيّة والدينيّة في العالم الإسلاميّ.

وكان السؤال المهمّ هنا هو: كيف ومتى يستطيع الناس مناهضة حاكمهم؟ وألَهُم حقٌّ في ذلك مبدئيّاً أم لا؟ وما صرّحت به الفرق الإسلاميّة من الآراء السياسيّة في هذا الشأن جمّ كثير، تتفاوت آراؤها في هذا المجال... فالشيعة والخوارج وفرق كثيرة من المعتزلة يَرَون ما لا يراه أهلُ السنّة الحاكمون. وجملة القول: إنّ ما وصل إلينا في الموضوع الآنف الذِّكْر هو ـ كغيره من القضايا ـ تابعٌ إلى حدٍّ كبيرٍ ممّا شهده عصر صدر الإسلام من حقائق ملموسة ووقائع سياسيّة. وهنا قضيّتان متباينتان، وبكلمة أُخرى متناقضتان، فلا بدّ من

---

١ - **الطبقات الكبرى** ٨: ١١٣؛ **البيان والتبيين** ١: ٣٧٧.

حلٍّ للخروج من مأزقهما:

الأولى: إذا أمر الحاكم بأمرٍ مخالفٍ لحُكْم الله، أفعلى الناس أن يطيعوه أم لا؟ والجواب هو: على أساس الأصول الدينيّة المعروفة، لايجوز إطاعة أمر الحاكم الذي يأمر بمعصيةٍ دينيّة. وفي هذا المجال نُقِلتْ رواية تقول: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله بعث عبدَ الله بنَ حُذافة - وهو رجل هزّال - على سريّة، [فلمّا قطعوا بعض الطريق، توقّفوا للاستراحة] فأمر أصحابَه فأوقدوا ناراً، [فقال لهم: أليس لي عليكم حقُّ الطاعة؟ قالوا: بلى، فقال: فإذا أمرتُكم بأمرٍ فأطيعوني، فرَضَوا]، ثمّ أمرهم أن يَثِبوها، [فأراد جماعة منهم أن يفعلوا، فقال: أردتُ المِزاحَ!]، فذُكِر خبره لرسول الله صلى الله عليه وآله، فقال:... مَن أمركم بمعصيةٍ فلا تُطيعوها[1]. فهذه هي سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله، تلخّصت في جملة قصيرة هي: لا طاعةَ لمخلوق في معصيةِ الخالق.

وذكر أبو بكرٍ ذلك في أوّل خُطبة له فصرّح «بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يُعصَم بالوحي، وكان معه مَلَك»، أمّا هو (أبو بكر) فقال: «وإنّ لي شيطاناً يعتريني، فإذا غضبتُ فاجتنبوني... فإن استقمتُ فأعينوني، وإن زِغْتُ فقوّموني»[2]. وكانت جرأة عمر وشدّته على درجة قلّ مَن استطاع معها معارضتَه. مع هذا، سبق أن ذكرنا أنّ رجالًا عارضوه فلم يستطع ردَّهم في بعض المواطن.

والقضيّة الأخرى التي تقف في مقابل المبدأ القائل: إنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق وتتعارض معه، هي أنّه إذا خالف أحدٌ أميراً من الأمراء

---

١ - **سيرة ابن هشام** ٤: ٦٤٠؛ **مصنّف عبد الرزّاق** ١١: ٣٣٥؛ **صحيح البخاريّ**، كتاب الأحكام/ الحديث الرابع؛ **مسند أحمد** ٣: ٦٧؛ **مختصر تاريخ دمشق** ٥: ١٧١؛ ١٢: ١٠٤؛ **الإمتاع** ١٠: ٦٣.

٢ - **مصنّف عبد الرزّاق** ١١: ٣٣٦.

فإنّه مهّد لشقّ وحدة المجتمع، أو ما يُصطَلَح عليه «الجماعة»، في حين أنّ الأمر بحفظ الجماعة ـ وهو أهمّ أصل في قوام المجتمع جوهريّاً ـ يعارض إعلان المخالفة والاحتجاج. ومن الطبيعيّ أنّه في الظروف غير المتوتّرة تُعالَج القضيّة إلى حدٍّ ما من خلال تساهل الطرفين، وأمّا إذا كان الوضع غير اعتياديّ، وأدّى الاعتراض إلى توتّر الأوضاع، فإنّ تعقيد القضيّة يتزايد. وقد فُتح في كتب الحديث باب لحفظ الجماعة، يقوم على قاعدة إطاعة الحاكم أساساً[1]، ومن الواضح أنّ مصالح الحكّام هي في رعاية أصل الجماعة أكثر منها في أصل «عدم الإطاعة وقتَ المعصية».

وفي ذلك أورد عبد الرزّاق الصنعانيّ في مصنّفه بعض الروايات والحكايات في عنوان «باب لزوم الجماعة»، نُشير إلى بعضها: روى أبوهُريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: مَن فارق الجماعة، وخرج من الطاعة فمات، فمِيتتُه جاهليّة. ومَن خرج على أُمّتي بسيفه فيضرب بَرَّها وفاجرها... فليس من أُمّتي. وقال ابن عبّاس: «من خرج من الطاعة شبراً فمات، فمِيتتُه جاهليّة». وأثر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: وأنا آمركم بخمسٍ: بالسمع، والطاعة، والجماعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله. فمَن خرج من الجماعة قيدَ شِبرٍ فقد خلع رِبقة الإسلام من رأسه... ونقل عمر أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال:... فمَنْ سرّه بحبوحةُ الجنّة فعليه بالجماعة. ونُقل عنه صلى الله عليه وآله أنّه قال: مَن خرج على أُمّتي وهم مجتمعون، يريد أن يُفرِّق بينهم، فاقتلوه كائناً مَن كان. ونُقل عن حُذَيفة أيضاً أنّه قال: «ما مشى قوم إلى سلطان الله في الأرض لِيُذلّوه، إلّا أذلّهم الله قبل أن يموتوا». وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال في «إمارة السُّفهاء»: أُمراء يكونون بعدي، لايهتدون بهَدْيي، ولا يستنّون بسنّتي. فمَن

---

١ - انظر: **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبويّ**، ج٤، كلمة «طوع».

صدّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فأولئك ليسوا منّي ولستُ منهم، ولا يَردون عليَّ حوضي. وقال‌ﷺ في حديث آخر: وما شيءٌ أفضل من كلمة عدل تُقال عند سلطان جائر، فلا يمنعنَّ أحدَكم اتّقاءُ الناس أن يتكلّم بالحقّ إذا رآه أو شَهِده. وبكى أبوسعيد الخُدريّ راوي هذا الحديث بعد نقله، وقال: «قد والله مَنَعَنا ذلك».

وجاء أبو ذرّ إلى عثمان فعابَ عليه شيئاً، ثمّ قام، فجاء عليّ‌عليه السلام معتمداً على عصاً حتّى وقف على عثمان، فقال له عثمان: ما تأمُرنا في هذا الكذّاب على الله وعلى رسوله؟ فقال عليّ: «أنزله منزلةَ مؤمنِ آل فرعون ﴿**إنْ يكُ كاذباً فعليه كَذِبُه، وإن يكُ صادِقاً يُصبْكم بعضُ الذى يَعِدُكم**﴾[1]. فقال له عثمان: اسكتْ، في فِيك التراب!! فقال عليّ: «بل في فِيك التراب، استأمرتَنا فأمرناك»[2].

وروى عبد الله بن مسعود أنّ رسول الله‌ﷺ قال له: كيف بك... إذا كان عليك أمراء يُطْفون السُّنّة، ويؤخّرون الصلاة عن ميقاتها! قال: فكيف تأمرني يارسول الله؟ قال رسول الله‌ﷺ: تسألني... كيف تفعل؟ لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الله[3].

وجاء في سياق هذا الحديث وقبله، أحاديثُ عديدة حول الأُمراء الذين يؤخّرون الصلاة عن وقتها. ولمّا رأى ابن مسعود مرّةً أنّ الوليد بن عقبة (والي عثمان) امتنع عن المجيء إلى الصلاة في أوّل وقتها أمر المؤذّن أن يؤذّن، فصلّى، ثمّ قال للوليد حين اعترضه: «...ولكن أبى علينا اللهُ ورسوله أن ننتظرك بصلاتنا وأنتَ في حاجتك»[4]. بينما ورد في علمائهم: كالحسن البصريّ،

١ - غافر: ٢٨.

٢ - **مصنّف عبد الرزّاق** ١١: ٣٣٩ - ٣٤٩.

٣ - نفسه ٢: ٣٨٣.

٤ - نفسه ٢: ٣٨٤.

والزُّهريّ، [١] وقَتادة أنّهم كانوا يصلّون مع الأمراء وإن أخرّوا الصلاة عن وقتها، فجاء بشأن عثمان نفسه: أنّ الحسن البصريّ سُئل: مَن أوّل من صلّى بعد الخطبة [صلاة العيد]؟ قال: عثمان صلّى ثمّ خطب، فرأى كثيراً من الناس يذهبون، فخطب، ثمّ صلّى. [٢]

هذه أمثلة من الأحاديث التي أوردها عبد الرزّاق الصنعانيّ في هذا الصدد، فحريّ بالذكر أنّ مخالفة الأمر بالمعصية قد عبّروا عنها بـ«جواز الانتقاد» تارةً، وبالثورة تارةً أُخرى، وما هو أكثر أهميّةً فيما يرتبط بمفارقة الجماعة هو الثاني... لا الأوّل. ونلحظ هنا قضايا كثيرة حول عثمان والتجربة التاريخيّة المتعلّقة بخلافته، وهو ذاته لم يُطِق المخالفة والانتقاد، فلمّا زاد في المسجد الحرام سنة ٢٦هـ، ووسّعه وابتاع من قوم وأبى آخرون هدم عليهم، ووضع الأثمان في بيت المال، فصيّحوا به، فأمر بهم بالحبس، وقال: أتدرون ما جرّأكم علَيّ؟ ما جرّأكم علَيّ إلّا حِلْمي، قد فعل هذا بكم عمر فلم تصيّحوا به! ثمّ كلّمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد، فأُخرِجوا. [٣] لكنّ الصحابة والتابعين يتذكّرون السيرة الماضية في جواز الانتقاد، لذا ما إن آتت الظروف حتّى طفقوا ينتقدونه، فوقف عثمان معانداً أمام الانتقادات والاعتراضات ولم يرضخ لها، وما أذعن لها إلّا حين تعرّض لضغط شديد - بسبب محاصرة داره - بيد أنّه عاد إلى استبداده في العمل بمجرّد فكّ الحصار. وحين شايع الإمامُ عليّ‌عليه‌السلام أبا ذرّ، قال له عثمان: ألم يبلغك أنّي قد نهيتُ الناسَ عن أبي ذرّ وعن تشييعه؟ فقال له الإمام‌عليه‌السلام: «أوَ كلُّ ما أمرتَنا به

١ - نفسه ٢: ٣٨٥؛ **الطبقات الكبرى** ٧: ٤٠٢ .
٢ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ٩٦٤؛ **مسند أبي داود** ١: ٢٩٧.
٣ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٥١.

مِن شيءٍ نرى طاعةَ الله والحقَّ في خلافه اتّبعنا فيه أمرك؟ بالله لا نفعل»، فغضب عثمان وقال له: ما أنتَ عندي بأفضلَ من مروان... فلمّا كان الغد واجتمع الناس إلى عثمان شكا إليهم عليّاً، وقال: إنّه يَعيبني، ويُظاهر مَن يَعيبني. يريد بذلك أبا ذرّ وعمّارَ بن ياسر وغيرهما... فدخل الناس بينهما حتّى اصطلحا. وقال له عليّ عليه السلام: والله ما أردتُ بتشييع أبي ذرّ إلّا اللهَ تعالى[١].

وقال مروان بن الحكم: شهدتُ عليّاً وعثمان بين مكّة والمدينة؛ فنهى عثمان عن العمرة في أشهر الحجّ، أو أن يُجمَع بينهما. فلمّا رأى ذلك عليّ أحلّ بهما جميعاً، وقال: لبّيك بعُمرة وحجّة معاً، فقال له عثمان: تراني أنهى عن شيء وتفعله؟! فقال: ما كنتُ لأدَعَ سُنّةَ رسول الله صلى الله عليه وآله لأحدٍ من الناس[٢]. وكان ابن مسعود من المعارضين الأشدّاء لعثمان أيضاً، في حين كان وقتاً ما ممّن يقول: لو صلّى عثمان بالناس بمِنًى أربعاً وهي ركعتان، فاعملوا، لأنّ الخلاف شرّ[٣]! وقال في خبر آخر: عثمان إمام ولا أُخالفه؛ لأنّ الخلاف شرّ[٤]، لكنّه حادّه فيما بعد[٥].

وأجمع صحابةٌ كُثْرٌ على معارضة عثمان، غيرَ أنّ أهل السنّة رفضوا عقيدة هؤلاء الصحابة في جواز مخالفة الحاكم بوصفها سيرةً سياسيّةً شرعيّة، وتظاهروا بأنّ لُمّةً من أراذل الناس قاموا عليه. وحين صلّى عثمان بمنى أربعاً في سنة ٢٩هـ - وهذا مخالف لسُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، ومخالف حتّى لعمل

---

١ - **مروج الذهب** ٢: ٣٤١ - ٣٤٢؛ **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٧٣.

٢ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ١٠٤٣، ١٠٤٤.

٣ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٦٨؛ **الغدير** ٨: ٩٩ نقلاً عن: **سنن أبي داود** ١: ٣٠٨؛ **الآثار**، للقاضي أبي يوسف: ٣٠؛ **الأمّ**، للشافعيّ ١: ١٥٩، ٧: ١٧٥؛ **السنن الكبرى**، للبيهقيّ ٣: ١٤٤.

٤ - **شرح النهج** ٣: ٤٢.

٥ - **أنساب الأشراف** ٤: ٥٢٤ ـ ٥٢٧؛ **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ١٠٤٩ ـ ١٠٥٤.

الخليفتين اللّذين سبقا – احتجّ عليه الإمام عليّ عليه السلام بسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال عثمان: رأيٌ رأيتُه.[١]

وكان استبداد عثمان مرحلةً جديدة في زرع الاستبداد في أجهزة الخلافة؛ مع هذا لم يستطع بكلّ إصراره وإبرامه أن يُخمد جذوة الاحتجاجات ضدّه، بسبب ما كانت تتمتّع به القيم الإسلاميّة من قوّة نسبيّة في المجتمع، بل على العكس، كانت تزداد على تواتر الأيّام حتّى قضت عليه بشكل قاطع، وكانت هذه تجربةً جديدة في تاريخ الخلافة الإسلاميّة، ثمّ تناولها الفقه السياسيّ الإسلاميّ في بحثٍ نظريٍّ مهمّ.

عثمان ومعاوية

فُتحت دمشق بجهد: أبي عبيدة بن الجرّاح، وخالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان. وبعد تصرّم جيلهم ترك عمر ميراثهم ليتصرّف به معاوية، ففكّر هذا في الخلافة منذ ذلك الحين، وتوطّد ملكه تماماً بعد استخلاف عثمان. وحاول معاوية أن يأتي بعثمان إلى الشام حين ضجّ الناس عليه؛ كي يتمكّن من تنظيم الأعمال بعده بنحو أيسر حسبما يشتهي، لكنّ عثمان ردّ ذلك[٢]. مع هذا نستبعد أن يخلو ذهن الخليفة من رغبته في بقاء الخلافة في بني أُميّة؛ نظراً إلى سياسته في توليتهم.

وكانت الثورة على عثمان ذات حدّين بالنسبة إلى معاوية، فماذا كان عليه أن يفعل أمام صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله؟ وقد عزم على ألّا يكون أُذُناً لدعوات عثمان المتكرّرة وطلباته الخاضعة منه لحمايته وإرسال المدد إليه، وأن يتربّص ليتبيّن مصير نزاعه الداخليّ مع الصحابة. بعبارة أُخرى: لو بقيَ عثمان،

---

١ – **تاريخ الطبريّ** ٤: ٢٦٧.

٢ – **الكامل في التاريخ** ٣: ١٥٧.

لَبقي معاوية متربّعاً على كرسيّ الحكم، ولوقُتل عثمان لتمهّد له الطريق إلى حرب داخليّة يأمل الانتصار فيها، حربٍ ذريعتُها الطلب بدم عثمان. وكان بيّناً لكثيرٍ من الصحابة آنذاك أنّ معاوية قعدٌ ينتظر قتلَ عثمان، فأدرك عثمان ذلك أيضاً، إلّا أنّه لم يستطع أن يتّخذ قراراً جادّاً في هذا الشأن. وما أن قُتِل عثمان وبعثت زوجته نائلة بقميصه الدامي إلى معاوية[1]، حتّى بدأ جهده باستخفاف أهل الشام لأهل المدينة وأصحاب النبيّ ﷺ، وعزم على الزواج بامرأة عثمان ليكون الطلب بدمه أيسرَ له، بيد أنّها رفضت، وكسرت أسنانها لتصرفه عن مراده[2].

ذكر اليعقوبيّ: أنّه لمّا حُوصر عثمان كتب إلى معاوية غيرَ مرّة مستنجداً، لكنّ معاوية لم يُرسل إليه أحداً، وبلغ تعلّله مبلغاً أنّ عثمان أدركً معه حقيقة الأمر. ثمّ أرسل معاوية إليه في أيّامه الأخيرة اثني عشر ألفاً من أهل الشام، إلّا أنّه أمر قائدَهم أن يبقى بمكان عيّنه له حتّى يأتيه أمره، وفي هذه الفسحة أرسل معاوية إلى عثمان رجلًا، ولمّا رآه عثمان سأله: أجئتَ بالمدد؟ قال: قد قدمتُ لأعرف رأيك وأعود إليهم... فقال عثمان:... ولكنّك أردتَ أن أُقتَل[3]! وبلغ الشامَ قتلُ عثمان بعد أيّام، فأُرجعت القوّاتُ إليها. قال جويرية: أرسل عثمان إلى معاوية يستمدّه، فبعث معاوية... وقال له: إذا أتيتَ ذا خُشب فأقم بها... فأقام... حتّى قُتل عثمان! وكان جويرية يقول: صَنَعه عمداً ليُقتَل عثمان فيدعو إلى نفسه.[4]

---

١ - جاء في خبر نقله البلاذري: أنّ أمّ حبيبة أخت معاوية وزوجة النبيّ ﷺ أتت بالقميص. انظر: **أنساب الأشراف** ٢: ٢٩١.

٢ - **نثر الدرّ** ٤: ٦٢؛ **بلاغات النساء**: ١٣٩؛ **العقد الفريد** ٦: ٩٠.

٣ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٦٥.

٤ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ١٢٨٩.

وكتب الإمام عليّ عليه السلام إلى معاوية رامياً إيّاه بالتعلّل في قضيّة عثمان، فقال: إنّك إنّما نصرتَ عثمانَ حيث كان النصرُ لك، وخذلتَه حيث كان النصر له.[١] وقال له في كتاب آخر: فأيُّنا كان أعدى له وأهدى إلى مقاتِله، أمَن بذلَ له نُصرتَه فاستقعدَه واستكفّه، أمّن استنصره فتراخى عنه وبثَّ المنونَ إليه حتّى أتى قدرُه عليه؟![٢] وقال له في كتاب آخر: ولَعَمْري ما قتلَه غيرُك، ولا خذَلَه سِواك[٣]. وقال أبوالطفيل لمعاوية أيضاً: فما منعك إذ تربّصت به رَيبَ المنون أن تنصره ومعك أهل الشام[٤]؟! وكتب أبو أيّوب الأنصاريّ من صفّين كتاباً إلى معاوية جواباً على اتّهامه الأنصارَ بقتل عثمان قائلاً: «إنّ الذي تربّص بعثمان وثبّط يزيدَ بن أسد وأهلَ الشام في نصرته لأنت»![٥] وهذا الرجل تعلّل في الذهاب بأمر معاوية. وكتب إليه شِبَثُ بن رِبْعيّ متّهماً إيّاه بالتقصير في حماية عثمان قائلاً: وقد علمنا أنّك قد أبطأتَ عنه بالنصر، وأحببتَ له القتلَ بهذه المنزلة التي تطلب[٦]! وكتب إليه ابن عبّاس أيضاً وقال له:... فقُتل كما كنتَ أردتَ...[٧] ومرّةً أخرى كتب ابن عبّاس إلى يزيد جواباً على اتّهامه بالاشتراك في قتل عثمان: إنّي كنتُ بمَعزِلٍ عن عثمان، ولكنّ أباك تربّص به وأبطأ عنه بنصره، وحبس مَن قِبَله عنه حين استصرخه واستغاث به[٨]! وصرّح

١ - **نهج السعادة** ٤: ١٦٩؛ **شرح النهج** ٤: ٥٧؛ **الحياة السياسيّة للإمام الحسن** عليه السلام: ١٤٦، نقلًا عن **النصائح الكافية**: ٢٠؛ **شرح ابن ميثم البحرانيّ على نهج البلاغة** ٥: ٨١.

٢ - **نهج البلاغة**، الكتاب ٢٨.

٣ - **نهج السعادة** ٤: ٢١٢.

٤ - **الموفقيّات**: ١٥٤؛ **الحياة السياسيّة للإمام الحسن** عليه السلام: ١٤٧ عن مصادر عديدة.

٥ - **وقعة صفّين**: ٣٦٨؛ **الإمامة والسياسة** ١: ١٣٠؛ **شرح النهج** ٨: ٤٤؛ **الغدير** ٩: ١٥١.

٦ - **وقعة صفّين** ١٨٧؛ **الغدير** ٩: ١٥١؛ **تاريخ الطبريّ** ٣: ٢٧٠.

٧ - **شرح النهج** ١٦: ١٥٥.

٨ - **أنساب الأشراف** ٤: ١٩.

الشهرستانيّ بأنّ جميع عمّال عثمان وأُمراءه قد «خذلوه، ورفضوه حتّى أتى قَدَرُه عليه»[١]. وهناك أمثلة أُخرى من رسائل لأشخاص آخرين في هذا المجال[٢]. ومعاوية نفسه قال: «ولقد ندمتُ على قعودي عن عثمان، وقد استغاث بي فلم أُجبْه»[٣]. وكان عمرو بن العاص أيضاً يتّهم معاوية بخذلان عثمان حين قعد عن نصره[٤]. ولمّا اجتمع أصحاب الجمل بالبصرة خطر في بالهم أوّلَ الأمر أن يذهبوا إلى الشام ويلتحقوا بمعاوية، لكنّ استنصار عثمان معاويةَ ولم ينصره استرهبهم وصدّهم عن التوجّه إليها. والنقطة الأخيرة في هذا المجال هي أنّ عبد الله بن سعد بن أبي سَرح ـ والي عثمان على مصر ـ ذهب إلى عسقلان بعد قتل عثمان فأقام فيها ولم يرغب أن يكون مع معاوية، وقال: ما كنتُ لأبايعَ رجلًا (معاوية) أعرفُ أنّه يهوى قتلَ عثمان.[٥]

الإمام عليّ عليه السلام وعثمان

لمّا أُقصي الإمام عليّ عليه السلام عن الخلافة في السقيفة، ولم يجد الناصرَ والمعينَ لاسترجاعها، جدّ واجتهد في المحافظة على أُصول الإسلام وفروعه، والحَؤول دون وقوع الأخطاء إلى حدٍّ ما، بفضل ما كان يتمتّع به من العِلم. وفي الوقت نفسه، كان يذكر حقَّه الضائع المنسيّ كلّما سنحت الفرصة وتهيّأ الجوّ المناسب. وعلى الرغم من تشدّد الخليفة الثاني في الإفادة من معارضيه، كان يسعى إلى الاستهداء بالقدرة العلميّة للإمام عليه السلام في علاج المشكلات

١ - الملل والنحل ١: ٢٦.

٢ - الغدير ٩: ١٤٩ - ١٥٠؛ و ١٠: ٣٣٣؛ تاريخ اليعقوبيّ ٢: ٢٢٣؛ العقد الفريد ٤: ٣٣٤؛ تذكرة الخواص: ٨٥ ١٠٢؛ الفتوح ٢: ٣٥٣.

٣ - الفتوح ٢: ٢٦٥.

٤ - أنساب الأشراف ٢: ٢٨٧.

٥ - المعرفة والتاريخ ١: ٢٥٤؛ تاريخ المدينة المنوّرة ٣: ١١٥٣.

القضائيّة والسياسيّة في بعض الحالات. وقد ذكرنا سلفاً أمثلةً من استشارته لهعليه السلام، وأوردت المصادر رواياتٍ وحكايات عديدةً بشأن الأمثلة القضائيّة، نقل العلّامة الأمينيّ بعضَها في الجزء السادس من الغدير في سياق البحث الذي أسماه «نوادر الأثر في عِلم عمر»، وفي أيدينا نصّ يدلّ على أنّ عمر كان يؤكّد العمل بكلّ ما يقوله الإمام في المسائل القضائيّة[1].

وكان غرور عثمان قد بلغ أقصاه، حتّى أنّنا لم نجد أدنى مثالٍ من الأمثلة التي شهدها عهد عمر، وربّما كان للخصومات القديمة بين الأمويّين والهاشميّين، وكذلك حرب بدر وأُحُد، وقتلى بني أُميّة، تأثيرُها في هذا المجال، لاسيّما أنّ استخلاف عثمان كان مصحوباً بإقصاء الإمام عليّعليه السلام عن الخلافة. وخروج عثمان عن الخطّ الصحيح، وإصرار الإمام على الدفاع عن الحقّ، أوغر صدر عثمان عليه، فاشتدّ عداؤه له. ولمّا أراد عثمان نفي عمّار ابن ياسر اعترض عليه الإمامعليه السلام، فقال له عثمان: أنت أحقُّ بالنفي منه![2] وله في مواطن أُخرى مواقف فظّة مع الإمام عليّعليه السلام. قال سعيد بن المسيِّب: شهدتُ عليّاً وعثمان وقد وقع بينهما كلام شديد، حتّى رفع عثمان الدِّرّة على عليّ... فحُلت دونه[3]. ونُقل كثيراً أنّ عثمان كان يشكو الإمامَ إلى ابن عبّاس[4]، وكان الإمام عليّعليه السلام لايسكت حيال فتاوى عثمان الخاطئة حتّى قال عثمان له يوماً: إنّك لكثيرُ الخِلاف علينا.[5] ونقل الإمام السجّادعليه السلام عن مروان أنّه رأى عثمانَ في الحجّ ينهى عن العُمرة أيّام الحجّ، لكنّ عليّاًعليه السلام أحرم للعمرة

---

١ - **خصائص الأئمّة**، للشريف الرضيّ: ٥٩.
٢ - **أنساب الأشراف** ٥: ٥٤ _ ٥٥.
٣ - نفسه ٢: ١٣٢.
٤ - **الموفقيّات**: ٦١١؛ **عيون الأخبار** ٣: ٩٢.
٥ - **مسند أحمد** ١: ١٠٠.

والحجّ، فقال له عثمان: تراني أنهى عن شيء وتفعله! فقال له عليّ: «ما كنتُ لأدَعَ سُنّة رسول اللهﷺ لأحدٍ من الناس»[١]. ويبدو أنّ الظروف السياسيّة في عصر عثمان كانت تسمح بالانتقاد الأكثر إلى حدٍّ ما، وربّما يعود ذلك في الأعمّ الأغلب إلى مجاراة الناس للحركات الانتقاديّة. وحين أُتي بالوليد بن عقبة إلى المدينة لإقامة الحدّ عليه، شعر الإمام بأنّ أحداً لايجرؤ على ذلك، فألقى الإمامُ الوليدَ على الأرض وجلده، مع اعتراض عثمان عليه بأن لا حقّ له أن يفعل ذلك[٢].

ويتبيّن من الثورة على عثمان أنّ كثيراً من المعارضين كان يدعم ترشيح الإمام للخلافة، وإن كان فيهم من يفكّر في مصالحه فحسب: كعمرو بن العاص، وطلحة، والزبير. وجاهُ الإمام عند المعارضين حمل عثمانَ على اتّخاذ موقف مزدوج منه، فقد كان من جهةٍ يشعر بأنّ الإمام هو المحرّضُ الأصليّ للأحداث، ومن جهة أُخرى، كان حينَ تُعييه السّبل يلجأ إليه ليتوسّط بينه وبين الناس فيهدّأهم، لأنّهم يسمعون له[٣]. ويُستشفّ من بعض الأخبار أيضاً أنّهعليه السلام اشتهر بـ «متكلّم القوم»[٤]، بيدَ أنّ هذا لايعني أنّ له السيطرة التامّة عليهم، كما لايعني أنّه كان يؤيّد جميع أعمالهم. والسؤال الأصليّ هو: ماذا كان رأي الإمام في عثمان؟ وينبغي الالتفات إلى أنّه كان بعد عثمان يعيش بين أُناس هم قتلوه، فلم يتيسّر له أن يتحدّث كما يريد.

وبشأن «رأيه السياسيّ» نتوقّع ونحتمل ببساطة أنّهعليه السلام لم يؤيّد قتلَه، ولم يَرَ في ذلك صلاحاً، وأدركعليه السلام أنّ هذا العمل لاينفع إلّا معاويةَ. ولذا بذل

١ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ١٠٤٣.

٢ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٦٥؛ **أنساب الأشراف** ٥: ٣٣.

٣ - **أنساب الأشراف** ٥: ٦١.

٤ - نفسه ٥: ٢٦.

جهده للحؤول دون قتله، بل حاول بادئ الأمر أن يُصلح بينه وبين الناس ويُخمد لهيب الثورة، حتّى قال مرّةً وهو يتحدّث حول محاولاته له: والله لَقد دفعتُ عنه حتّى خَشِيتُ أن أكونَ آثماً[١]! وقال فيما بعد ما مضمونه: أنتم قتلتم عثمانَ وأنا كنتُ في داري[٢].

والأفضل هنا أن نفصّل «موقفه الدينيّ والسياسيّ»عليه السلام. ومن المحتمل أنّه كان يرى أنّ عثمان مستحقّ لما فعله الناس به بسبب ما ارتكبه من أخطاءٍ متعمَّدة بشأن الإسلام وأحكامه، وما سبّبه من فساد الأوضاع الاجتماعيّة، وهذا ما نستطيع أن نجزم به، وقد أثرت عنه عليه السلام تعبيرات في هذا المجال، وهي تُيسّر طرح مثل هذا الانطباع.

سُئل مرّةً: هل مالأتَ في قتل عثمان؟ فقال: «الله قتلَ عثمانَ وأنا مع الله»[٣]، وقال في موطن آخر: «ما أحببتُ قتلَ عثمان ولا كَرِهتُه»[٤]، وقال: «ما سرّني قتلُ عثمان ولا ساءني»[٥]، وسمّاه في موضع آخر: «حمّالَ الخطايا»[٦]. وحين سُئل: أقُتِل عثمان مظلوماً أم لا؟ قال: استأثَرَ فأساء الأثَرَة، وجَزِعتم فأسأتُم الجَزَع[٧]. وكتب عليه السلام إلى أهل الكوفة يخبرهم بموقفه من عثمان، فقال: أمّا بعد، فإنّي أُخبركم عن أمرِ عثمان حتّى يكون سمعُه كَعِيانِهِ. إنّ الناس طعنوا عليه، فكنتُ رجلًا من المهاجرين أُكثِرُ استعتابَه، وأُقِلُّ عتابَهُ. وكان طلحة والزبير

---

١ - **نهج البلاغة**: الخطبة ٢٤٠.
٢ - **الجمل**: ٤١٧.
٣ - **عيون الأخبار** ٢: ٢٠٧.
٤ - **أنساب الأشراف** ٥: ١٠١؛ **الطبقات الكبرى** ٣: ٨٢.
٥ - **الغدير** ٩: ٢٩؛ **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ١٢٦٣. ما أمرتُ ولا نَهيتُ، ولا سرّني ولا ساءني قتلُ عثمان.
٦ - **الموفقيّات**: ١٣؛ **شرح النهج** ٩: ١٧.
٧ - **نثر الدرّ** ١: ٢٧٤؛ **الأغاني** ٦: ٢٣٣؛ **نهج البلاغة**، محمّد عبده: الخطبة ٢٩.

أهونُ سَيرهِما فيه الوجيف، وأرفقُ حِدائِهما العنيف، وكان من عائشة فيه فلتةُ غَضَبٍ، فأُتيح له قومٌ فقتلوه[١]! وحين استسفره الناس ليكلّم عثمان قال له: إنّ الناس ورائي وقد استسفروني بينك وبينهم، ووالله ما أدري ما أقول لك؟ ما أعرف شيئاً تجهلُه، ولا أدلُّك على أمر لا تعرفه... فلا تكوننَّ لمروانَ سيّقةً يسوقك حيث شاء بعد جلال السنّ وتقضّي العمر، فقال له عثمان: «كلِّم الناسَ في أن يؤجّلوني حتّى أُخرِجَ إليهم مِن مظالمهم»، فقال عليه السلام: ما كان بالمدينة فلا أجَلَ فيه، وما غاب فأجلُه وصولُ أمرك إليه[٢]. وكان عليه السلام يرى أنّ الباعث الأصليّ على هذه الاستفزازات هو مروان[٣]، وهو ما يتبيّن تماماً من الوقائع التي نقلها المؤرّخون[٤]. ومهما كان، فإنّ الإمام عليه السلام لم يؤيّد قتل عثمان، والسبب الأساس هو غلبة الناس على حاكمهم، وهو ما يستتبع الفوضى. وشعور الناس بأنّهم يستطيعون إزاحة كلّ حاكم بسهولة أمر هو في غاية الخطورة، وكان المسلمون سمعوا بتجربة بلاد فارس في العهد الساسانيّ، حيث استطاع أهلها تمليك بعض رجالها عليهم خلال سنين قليلة، وسرعان ما قُتِلوا، لذا كان عبد الله بن عمر يقول: «إنّما تريدون أن تجعلوها هِرَقْليّةً؛ كلّما غَضِبتُم على مَلِكٍ قتلتموه»[٥]!

إنّ استخلافَ أهلِ المدينة ومَن دخلها وبعضِ مَن كان له دور مهمّ في الثورة على عثمان للإمام عليه السلام، كلّ ذلك دفع بني أُميّة إلى الافتراء عليه بأنّه العامل الأصليّ في قتل عثمان. وبشأن عمرو بن الحَمِق الخزاعيّ، وهو من

١ - نفسه: الكتاب الأوّل.
٢ - **نهج البلاغة**، الخطبة ١٦٤.
٣ - **نهج السعادة** ٤: ٢٧.
٤ - **الفخري**: ٩٨.
٥ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ١١٧٥.

شيعة الإمام، اشتهر بأنّه كان أحدَ الأربعة الذين دخلوا على عثمان الدار[١]، وكذلك كان محمّد بن أبي بكر، ويضاف إليه أنّ الإمام عليه السلام صلّى بالناس صلاة العيد وعثمان محصور، ولمّا ولي عثمانُ كان يبدأ بصلاة العيد ثمّ يخطب كما كان مألوفاً من قبل، وحين علم أنّ الناس يقومون بعد الصلاة عزم على أن يخطب ثمّ يصلّي[٢]. وعندما صلّى الإمام عليّ عليه السلام وعثمان محصور شرع بالصلاة ثمّ خطب[٣]، والظاهر أنّه عليه السلام صلّى بلا إذن من عثمان، مع هذا، كان عثمان قد قال: «...ولأن يَلِيَها ابنُ أبي طالب أحبُّ إليَّ مِن أن يليها غيرُه»[٤]. وفي أيّام حصار عثمان كان سهل بن حُنيف يؤمّ الناس في الصلاة، ويبدو أنّ ذلك كان بأمر عثمان[٥]. وحضور الإمام علي عليه السلام المدينة في تلك الظروف أصبح ذريعةً للمتّهمين، لذا قيل: إنّ أُسامة بن زيد كان يصرّ على الإمام عليّ عليه السلام أن يخرج إلى يَنبُع أو مكّة[٦]. ومن الطبيعيّ أنّ مثل هذا القرار لم يكن منطقيّاً كثيراً في ذلك الوضع، لأنّه عليه السلام كان، في أيّ حال، عاملًا مهمّاً للسيطرة على الأوضاع.

ونفى الإمام عليّ عليه السلام أيّام خلافته أمر اشتراكه في قتل عثمان مراراً، لكنّ الدعايات العثمانيّة بلغت مبلغاً من الجدّ حتّى تمخّضت بكارثة الجمل وصفّين، وقد أنشد الوليد بن عقبة في بني هاشم قائلاً: هم قتلوهُ حتّى يكونوا

١ – **أسد الغابة** ٤: ١٠٠. استُشهد هذا الرجل على يد جلاوزة معاوية سنة ٥٠هـ، وأبرد برأسه إلى الشام، وبنى الحمدانيّون مزاراً له في الموصل، وبسبب هذا المزار حدثت اشتباكات دائمة بين الشيعة والعثمانيّين.

٢ – **مسند أبي داود** ١: ٢٩٧؛ **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ٩٦٤.

٣ – **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ١٢١٦.

٤ – نفسه ٣: ١٢٠٦.

٥ – نفسه ٣: ١٢١٨.

٦ – **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ١٢١١.

مكانَه[١]. والوليد هذا شاقّ الإمامَ في عهده واشتطّ في ذلك، وكان يرغّب معاوية في محاربة الإمام عليّ عليه السلام بأشعار كثيرة ذكرها نصر بن مزاحم، ويعود موقفه هذا إلى حقده على الإمام عليّ عليه السلام لقتله أباه في بدر، وإقامة الإمام نفسه الحدّ عليه بالمدينة لشربه الخمر، بخاصّة أنّ ذلك جرى على مرأى من الناس ومن عثمان[٢]. وعثمان نفسه أيضاً كان يرى الإمامَ مزاحماً له بسبب إقبال الناس عليه، حتّى عرّض به في شعرٍ له متّهماً إيّاه بأنّه ينتظر قتلَه[٣]. وهذا من نفثات مروان بن الحكم الذي كان يقول لعثمان*: إنّ قوماً قدموا من مصر فاستقلّ عليٌّ عُدّتهم، فأمرهم أن يجتمعوا فيكونوا أكثرَ ممّا هم[٤]. ونفى الإمام عليّ عليه السلام غيرَ مرّة أيَّ دور له في قتل عثمان، وقال: «لو أعلم أنّ بني أُميّة يُذهب ما في أنفسهم أن أحلف لهم لَحلفتُ خمسين يميناً مردَّدةً بين الركن والمقام أنّي لم أقتل عثمان...»[٥]. وكتب عليه السلام إلى معاوية: ولَعَمْري لَئِن نظرتَ بعقلِك دون هواك، لَتجدُنّي أبرأ قريشٍ مِن دم عثمان.[٦] وقال: «ما قتلتُ عثمان ولا أمرتُ بقتله»[٧]. وحقّاً ما قاله ابن سيرين أنّ الإمام عليه السلام لم يُتّهَم بقتل عثمان إلّا بعد أن وَلِيَ الخلافة[٨]! وخصّص ابن شبّة باباً لكلماته عليه السلام التي عبّر فيها عن

١ - **الكامل في الأدب** ٣: ٣٨؛ **أنساب الأشراف** ٥: ١٠٤.
٢ - **الفتوح** ٢: ٣٥٠.
٣ - **نثر الدرّ** ١: ٦٣؛ **أنساب الأشراف** ٥: ٦٢.
* - [ذكر المؤلّف أنّه كان يقول للناس، في حين أنّ الصحيح هو أنّه كان يقول لعثمان] المترجم.
٤ - **أنساب الأشراف** ٥: ٨٩.
٥ - نفسه ٥: ٨١.
٦ - **وقعة صفّين**: ٢٩.
٧ - **مصنّف ابن أبي شيبة** ١٥: ٢٢٨؛ وانظر: **أنساب الأشراف** ٥: ١٠٠.
٨ - **مصنّف ابن أبي شيبة** ١٥: ٢٢٩.

براءته مِن قتل عثمان[1].

والطريف هنا أنّ عثمان ـ مع جميع هـذا الكـلام وقـت الحصـار ـ كـان لايستغيث إلّا بالإمام عليّ[2] عليه السلام، وحين أمـر طلحـةُ بمنـع المـاء عـن عثمـان، استجار عثمان بالإمام عليّ عليه السلام، فذهب الإمام عليّ عليه السلام إلى طلحة وطلب منه أن يأذن بإرسال الماء إليه، وبعد ذلك، أعطى الإمامُ عليّ عليه السلام ابنَه إناءً فيـه مـاء ليوصله إلى عثمان[3]. ومع هذه الحال، أمر ابنُ زيـاد فـي كـربلاء بمنـع الإمـام الحسين عليه السلام الماءَ مستنداً إلى منع عثمان الماء أيّام حصاره!

وكان الإمام عليّ عليه السلام يساعد عثمان في ظـروفٍ لـم يكـن هنالـك رجـل يَقْدر أن يساعده، ولا رجل يجرؤ على ذلـك، وقـد عقـد ابـن شـبّة بابـاً فـي استعانة عثمان بالإمام علـيّ عليه السلام وأورد أخبارهـا[4]. والنقطـة الأُخـرى الحَريّـة بالعلم، هي أنّ مالكاً الأشتر ـ بوصفه أحدَ أنصار الإمام عليه السلام المتفـانين ـ سـعى في إخراج عثمان من المحاصرة بهـودج أُمّ حبيبـة بنـت أبـي سـفيان، لكـنّ المحاصِرين أبَوا أن يَدَعُوه يدخل الدار[5]، ويبدو أنّه كان في صدد إنقـاذه مـن أيدي المحاصِرين الغاضبين سرّاً. والكلمة الأخيرة في هذا الباب هي أنّ الإمام عليّ عليه السلام في حواره مع مبعوثي معاوية بصفّين أبى أن يقول بـأنّ عثمـان قُتِـل مظلوماً،[6] ويُفهَم من هذا أنّ عثمان كان مقصِّراً على أيّ حال.

١ - تاريخ المدينة المنوّرة ٣: ١٢٥٨.
٢ - الطبقات الكبرى ٣: ٨٢؛ ربيع الأبرار ١: ٤١٥.
٣ - تاريخ المدينة المنوّرة ٣: ١٢٠٢.
٤ - نفسه ٣: ١٢١٩ ـ ١٢٢٣.
٥ - نفسه ٣: ١٣١٣.
٦ - وقعة صفّين: ٢٠١ ـ ٢٠٢.

قتل عثمان

حينما احتدمت الاحتجاجات ضدّ عثمان بتواتر الأيّام، قام جماعة في المسجد أمامه وصرّحوا بإنكارهم لأعماله، وكان يميل إلى استخدام القوّة لإسكاتهم، ممّا أسفر عن نزاع شديد. قال عروة بن الزبير: رأيتُ عثمان دخل المسجد، فجذب الناسُ ثيابه يميناً وشمالًا، وناداه بعضهم: «يا نَعْثَلُ»... فصعد المنبر وبدأ يتحدّث، فقام جَهْجاهُ بن سعد الغِفاريّ - وكان ممّن بايع تحت الشجرة - معترضاً عليه، فلم يستطع عثمان أن يواصل كلامه، فنزل من المنبر، وصلّى بالناس يوم الجمعة سهلُ بنُ حُنيف[1]. ولمّا اصّاعدت الاحتجاجات عليه يمّم المدينةَ جماعةٌ من مسلمي الكوفة ومصر بطلب أصحاب رسول اللهﷺ، للاحتجاج على الحاكِمَينِ الأمويَّينِ للكوفة ومصر، وكان يقودهم عبد الرحمان بن عُدَيس البَلَويّ - وكان ممّن بايع تحت الشجرة [2] - ومحمّدُ بن أبي حُذَيفة. وقد نقل ابن شبّة رسالةً كتبها أهل مصر إلى عثمان قبل قدومهم المدينة، ذكّروه فيها بوجوب إقامة حدود الله استناداً إلى الآيات القرآنيّة، قائلين له: «...فإنّك تدّعي علينا الطاعة، وكتاب الله ينطق: لا طاعةَ لِمَن عصى الله، فإن تُعطِ اللهَ الطاعةَ نُؤازرْك ونُوقّرك، وإن تَأْبَ فقد علمنا أنّك تريد هلْكَتَنا وهلكتَك»[3].

ووجّه عثمان عمّارَ بن ياسر إلى مصر لتهدئة أهلها، غافلًا عن أنّ عمّاراً نفسه ذهب إليها وبدأ يؤلّب الناس عليه، حتّى كان ذهاب جماعة من أهل مصر إلى المدينة قد وقع بعد إخراج عمّار منها. وذُكر أنّ عدد الذاهبين كان

١ - تاريخ المدينة المنوّرة ٣: ١١١١.
٢ - نفسه ٣: ١١٥٥.
٣ - نفسه ٣: ١١٢١.

يتراوح بين أربعمئة وسبعمئة، فالتقى هؤلاء بعثمان أو بممثّله، وعرضوا مطالبهم، وأوّلها: إعادة المُبعَدين، والثاني: أداء حقّ المحرومين. والثالث: العمل بكتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله، فصرّح عثمان أمامهم بتوبته، وذكّرهم بتجنّب التفرقة[١]، وكُتبت أيضاً معاهدة بين الجانبَين بشأن تعهّداته لهم، وكان الإمام عليّ عليه السلام هو الواسطة بينهم وبينه. وقد وردت في المعاهدة خمسة شروط، أُشير إلى ثلاثة منها آنفاً. أمّا الرابع فهو العدل في القَسْم، وأن يُستعمَل أُولو القوّة والأمانة في إدارة الأعمال. وشهد على المعاهدة المذكورة جماعة من الصحابة[٢]، وبعد هذا رجع المصريّون.

وكانت الكوفة أيضاً هي المركز الآخر للمعارضين، فكتب سعيد بن العاص إلى عثمان يُخبره أنّ قِبَله قوماً يُدعَون «القرّاء»، وهم سفهاء! وثبوا على صاحب شرطته فضربوه... وشتموا سعيداً، واستخفّوا بحقّه، فكتب إليه عثمان أن يأتوا الشام ويُغزوا مغازيهم. فأتوها، واصطدموا فيها بمعاوية، فأشخصهم إلى حِمص، ولمّا اعتزم أهل الكوفة على إخراج سعيد، كتبوا إليهم فقدموا، وأحصى أهل الكوفة في رسالة مفصّلة خطيئات عثمان. وهذه الرسالة ورسالة أهل مصر تدلّان على مدى ما بذله الناس من جهد لتنبيه الخليفة، بيد أنّه لم يُدرك الحقيقة. وحمل رسالة الكوفيّين إلى المدينة أبو ربيعة العنزيّ، فكتب عثمان إلى سعيد يأمره بضربه عشرين سوطاً، وتسييره إلى جبل دَماوَنْد[٣].

ولمّا رجع أهل مصر إلى بلدهم، لَحِقهم غلامٌ لعثمان يُقال له: يُحَنَّة... فاستنزلوه ووجدوا عنده كتاباً عليه خاتَم عثمان، وهو مكتوب إلى عبد الله بن

---

١ - نفسه٣: ١١٣٥_ ١١٣٧.

٢ - نفسه: ١١٣٧، ١١٤٠.

٣ - نفسه ٣: ١١٥٠ ، ١١٥١، ١١٥٥.

سعد والي مصر. وكان أمَرَه فيه أن يقتل أشخاصاً من المعترضين، ويسجن آخرين!... وهذا ما حمل المعترضين على الرجوع إلى المدينة غاضبين، فأتوا الإمام عليّاًعليه السلام واسطة الصلح، فانطلق بالكتاب إلى عثمان، فأقسم عثمان أنّه لم يكتبه، ولم يعلم به. والطريف هنا أنّ الأمويّين وعثمان نفسه حمّلوا الإمامَ عليّاًعليه السلام الأمر بتهمة قائلين له: أنتَ كتبتَ هذا لِتُؤلّبَ الناس علينا[1]. وبلغ أهلَ الكوفة خبرُ رجوعِ المصريّين. فقدم المدينةَ مئتان منهم، ومن البصرة مئة... فحاصروا عثمان.

قال الزُّهري: قلتُ لسعيد بن المسيِّب: هل أنت مُخْبري كيف كان قتلُ عثمان؟... ولِمَ خَذَلَهُ أصحاب محمّدصلى الله عليه وآله؟... قال: إنّ عثمان لمّا وَلِي كَرِهَ ولايتَهُ نفرٌ من أصحاب رسول اللهصلى الله عليه وآله؛ لأنّ عثمان كان يُحِبُّ قومه، فولِيَ الناسَ اثنتي عشرة حجّةً، وكان كثيراً ممّا يُولي بني أُميّة ممّن لم يكن له مع رسول اللهصلى الله عليه وآله صُحبة، فكان يَجيءُ من أُمَرائِه ما يَكْرَهُ أصحابُ رسول اللهصلى الله عليه وآله... .

فلمّا كان في السِّتّ حِجَج الأواخِر استأثَر بني عَمِّهِ فولّاهم... وَلّى عبدَ الله بن أبي سَرح مصر، فمكث عليها سنين، فجاءَ أهلُ مِصْرَ يَشْكونَه ويتظلَّمُون منه. وقد كان قبل ذلك من عثمان هِناتٌ إلى: عبد الله بن مسعود، وأبي ذرٍّ، وعَمَّار بن ياسر، استاءت منها قبائِلُهم... وجاء أهل مصر إلى المدينة، وتوسّط الإمام عليّعليه السلام، وتقرّر إرسال آخَر مكان عبد الله بن سعد. واختِير محمّد بن أبي بكر، فكتب عثمان عهده وولّاه، فخرج ومن كان معه... ولقوا في الطريق فارساً ومعه رسالة فيها أمرٌ شديد وجّهَه عثمان إلى عبد الله ابن سعد. وبعد ذلك رجع المعترضون إلى المدينة غاضبين. وفي هذا الوقت

---

١ - نفسه ٣: ١١٥٠ـ ١١٥١، ١١٥٥.

نفسه كان أهل المدينة قاطبةً ساخطين على عثمان، وزاد عقدتَهم عليه ما جرى لعمّار وأبي ذرّ وعبد الله بن مسعود. وتوجّه الإمام عليه السلام وعدد آخر معه إلى عثمان، ودلّ خطُّ الرسالة أنّها من صنع مروان. وطلب المعترضون من عثمان أن يدفع إليهم مروان الذي أمر بالقتل والذبح بغير حقّ، فامتنع عثمان، ومن هذا المنطلق حاصروه ومنعوه الماء[1].

والملاحظة المهمّة أنّ المعارضين لم يفكّروا بقتل الخليفة بادئَ الأمر، بل طلبوا منه أن يعتزل الحكومة، بيد أنّه لم يرضخ لهذا الطلب. وهذه هي المرّة الأُولى التي يُطرَح فيها خلع الخليفة من الخلافة، فأنّى يستطيع الحاكم خلع نفسه من الخلافة؟ وهل للآخرين أيضاً حقّ عزله منها أو الطلب منه أن يعتزلها؟ وقد طُرحت هذه القضيّة مراراً في المسير التاريخيّ للخلافة، لكنّها من وجهة النظر التاريخيّة طُرحت أوّلَ مرّة يومَ طلب الثوّار من عثمان أن ينخلع من الخلافة ، وكان يقول مجيباً عن هذا الطلب: ما كنتُ لأخلع سربالاً ألبَسَنيهِ اللهُ. ونُقل عنه مُدّعاه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال له: «يا عثمان إنّ الله تعالى سيُقمّصك قميصاً بعدي، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعْه حتّى تلقاني»[2]!

وهذا الحديث موضوعٌ مفترًى لا محالةَ ومنسوبٌ إلى عثمان لا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله حتماً، بيد أنّ عثمان كان يحتجّ في الأصل على أنّ الخلافة سربالٌ ألبسهُ الله إيّاهُ فيأبى أن يخلعه، ويدلّ هذا على أنّه ـ بنسبته الخلافة إلى الله – يريد نفيَ أيّ دور وقرار للناس في خلعه. وحين طُلب منه أن

---

١ – نفسه ٣: ١١٥٩ـ ١١٦١؛ **شرح النهج**، لابن أبي حديد ١: ٢٢٩؛ **الغدير** ٩: ١٨٠.

٢ – **الإمامة والسياسة** ١: ٦١؛ **الطبقات الكبرى** ٣: ٦٦.

يعتزل الخلافة صرّح بأنّه لن يفعل ذلك حتّى لو ضُرِب عنقُه[١]! قال عبد الله بن عمر: «قال لي عثمان وهو محصور في الدار: ما ترى فيما أشار به علَيَّ المُغيرة بن الأخنس؟ قلتُ: ما أشار به عليك؟ قال: إنّ هؤلاء القوم يريدون خلعي، فإن خلعتُ تركوني وإن لم أخلع قتلوني، قال عبد الله بن عمر:... أرأيتَ إن لم تخلع هل يزيدون على قتلك؟ قال: لا، قلتُ: فلا أرى أن تُسَنَّ هذه السُنّةُ في الإسلام، كلّما سَخِطَ قومٌ على أميرهم خلعوه، لا تخلعْ قميصاً قمّصَكَهُ الله»[٢]!

وسُمِع بعض المحاصِرين أنّهم لايريدون قتله، بل يكتفون بعزله، فقال عثمان: أمّا عزلي فلا، وأمّا قتلي فلعلّ[٣]! وحين وجد المصريّون المعترضون في طريق رجوعهم رسالة عثمان إلى عبد الله بن سعد، والتي أمره فيها بإيذاء المعترضين وقتلهم، رجعوا إلى المدينة، فزعم عثمان أنّه لم يكتبها، وبعد أن استبان أنّ المقصّر الأصليّ هو مروان بن الحكم طلبوا منه خلع نفسه لضعفه في إدارة الحكومة، فأبى[٤]. ولاحقاً أيّد محمّد بن أبي بكر أنّهم طلبوا منه الاعتزال، لكنّه أبى[٥]. وجاء في خبر آخر أنّ عثمان دعا مالك الأشتر فقال له: «يا أشتر، ما يريد الناس منّي؟ قال: ثلاثاً ليس لك من إحداهنّ بُدّ، قال: وما هنّ؟ قال: يُخيّرونك: بين أن تخلع لهم أمرهم، فتقول: هذا أمرُكم فاختاروا له مَن شئتم، وبين أن تُقصّ من نفسك [ربّما فيه إشارة إلى قصاصه على ما آذى به ابنَ مسعود، وعمّار، وغيرهما]، فإن أبيتَ هاتين فإنّ القوم قاتلوك. قال:...

١ - **تاريخ خليفة بن خيّاط**: ١٧٠؛ وانظر: **تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين**: ٤٤٥.
٢ - **أنساب الأشراف** ٤: ٥٦٧، الرقم ١٤٤٥؛ **تاريخ خليفة بن خيّاط**: ١٧٠؛ **الطبقات الكبرى** ٣: ٦٦.
٣ - **أنساب الأشراف** ٤: ٥٦٧، الرقم ١٤٤٦.
٤ - **تثبيت دلائل النبوّة**: ٥٧٣.
٥ - **الغارات**: ١٠٤.

فما كنتُ لأخلع سربالًا سربَلَنيهِ الله... وأمّا أن أقصّ من نفسي، فوالله لقد علمتُ أنّ صاحبَيَّ [أبا بكر وعمر]... قد كانا يعاقبان وما يقوم بدّ من قصاص، وأمّا أن تقتلوني، فوالله لئن قتلتموني لاتتحابّونَ بعدي أبداً»[١].

واستمدّ عثمان خلال هذه الفترة شتّى الأمصار، فكتب إلى أهل مكّة رسالةً لتُقرأ يوم عرفة، وقال فيها: «أنا محصور لا آكُل من الطعام إلّا ما يُقيمني... فأُنشد اللهَ رجلًا سمع كتابي إلّا قَدِمَ علَيّ...»[٢]. وكانت عائشة تتجهّز للحجّ، فبعث إليها مروانَ لتردّ عنه الناس، فلم تُجبه[٣].

وحُوصِر عثمان تسعةً وأربعين يوماً إلى أن قُتِل عصر يوم الجمعة ١٨ ذي الحجّة سنة ٣٥هـ، ولم يُعرَف قاتِلُه على وجه اليقين، فذُكِر أنّه أسودانُ ابنُ حُمْرَان (أو سودان بن رومان أو أسود بن حُمران)، وهو من تُجيب مصر[٤]. وقال كنانة: رأيتُ قاتل عثمان في الدار رجلًا من أهل مصر باسطاً يده يقول: أنا قاتلُ نعثلَ، فلم يُبالِ أحد[٥].

ونقل عروة أنّ جنازة عثمان بقيت في «حَشّ كوكب» ثلاثة أيّام لم يُصلِّ عليها أحد[٦]. ثمّ تولّى أربعةٌ دفنه، وفيهم جُبَير بن مُطعِم وحكيم بن حِزام، فأخذوه ليلاً ودفنوه خارجَ البقيع[٧].

---

١ – الطبقات الكبرى ٣: ٧٢ – ٧٣؛ تاريخ خليفة بن خيّاط: ١٧٠؛ مصنّف ابن أبي شيبة ٧: ٤٤١ و٥٤١؛ تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين: ٤٤٦؛ وانظر: تاريخ المدينة المنوّرة ٣: ١٢٨٦.

٢ – تاريخ المدينة المنوّرة ٣: ١١٦٦؛ الإمامة والسياسة ١: ٥٤ ـ ٥٥؛ الفتوح ٢: ٢١٧.

٣ – تاريخ المدينة المنوّرة ٣: ١١٧٢.

٤ – نفسه ٣: ١٢٣١.

٥ – معرفة الصحابة ١: ٢٥٣؛ تاريخ المدينة المنوّرة ٣: ١٣٠٨.

٦ – معرفة الصحابة ١: ٢٥٩.

٧ – تاريخ المدينة المنوّرة ٣: ١٢٤١.

ومن المشتبَه بهم في بطانته غلامه حُمران بن أبان الذي أُسِرَ في واقعة عين التمر وصار من نصيب عثمان[١]، ويبدو أنّه كان من أصلٍ يهوديّ[٢]، وقد تزوّج امرأةً في عِدّتها، فسيّره عثمان إلى البصرة، ولزم فيها ابن عامر، ثمّ عاد إلى المدينة، ونَمَّ على من كان تُشَمّ منه رائحة المعارضة لعثمان[٣]، وكان يسعى في القيام بأعمال عثمان الخاصّة، ويأخذ رسائله إلى هذا وذاك، ومنهم العبّاس بن عبد المطّلب[٤]، وكان كاتبَه[٥]. وسكن البصرة فيما بعد، واستولى عليها سنة ٤١هـ، وبعد ذلك الحين بالذات بعث معاويةُ بُسرَ بن أرطاة إليها حاكماً[٦]. وكان حُمران يحظى ببالغ الاحترام عند الأمويّين، لاسيّما عند مروان وسعيد بن العاص، ومعاوية أيضاً[٧]. ولمّا استولى مصعب بن الزبير على العراق، كان حمران في عداد مَن دعا بهم إلى بلاطه، فخاطبه بقوله: «يا ابنَ اليهوديّة»! وقال له مذكّراً: إنّما أنت عِلجٌ نبطيّ سُبيتَ مِن عين التمر[٨]. وكان أبوعليّ الجبّائيّ المعتزليّ المعروف من نسل حُمران هذا[٩]. وروى حمران هذا أخباراً عن عثمان، خاصّة في بحث الوضوء[١٠].

١ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ٣٧٧، ٤١٥.

٢ - نفسه ٦: ١٥٤.

٣ - نفسه ٤: ٣٢٧.

٤ - نفسه ٤: ٤٠٠.

٥ - نفسه ٦: ١٨٠.

٦ - نفسه ٥: ١٦٧.

٧ - نفسه ٦: ١٦٥. وكان لحمران منزلة عند بني أُميّة.

٨ - نفسه ٦: ١٥٤.

٩ - أبوعليّ بن محمّد بن عبد الوهّاب بن خالد بن سلام بن صفوان بن أبان. انظر: **الاحتجاج** ١: ٣٠٩. وذهب بعض المصادر إلى أنّ ميل الجبّائيّ إلى عثمان يعود إلى هذا الانتساب. **سعد السعود**: ١٤٣.

١٠ - **مسند أحمد** ١: ٦٠. لا بأس بمراجعة: بحث سماحة الشيخ قيس العطّار حول هذه

استمرار الفتوحات في عهد عثمان

كان أهمّ هدف للخليفة الثاني هو توسيع الرقعة الجغرافيّة للبلاد الإسلاميّة، فاستنفر جميع القبائل لهذا العمل، ووجّه عدداً كبيراً منها إلى مناطق مختلفة. والهدف الرئيس لفتوحات هذا العصر في الشرق ومناطق من الغرب هو تثبيت سلطة العرب على المناطق المفتوحة. فقد تمرّدت الإسكندريّة سنة ٢٥هـ، وكانت تجدّ في الخروج على المسلمين من خلال اتّصالها الخفيّ بالروم، فاضطُرّ العرب إلى فتحها مرّةً أُخرى. وتمرّدت الريّ أيضاً، وكذلك كان أمر آذربايجان، ممّا حمل حُذيفةَ على تهدئتهما بالقوّة. وفي غرب بلاد الإسلام، فُتحت أفريقية سنة ٢٦ - ٢٧هـ، فانتشر الإسلام في عُمق القارّة الأفريقيّة.

وقد فُتحت هذه المناطق بسهولة تقريباً، ودرّت غنائمها بثروات طائلة للمسلمين. وبعد التمرّد الآخر لهذه المنطقة سنة ٣٣هـ، وفتحِها ثانيةً هدأ أهلها ولانوا، لكنّهم تمرّدوا مرّةً ثالثةً في العصر الأمويّ لِما تعرّضوا له من ضغطٍ لا يُطاق في عهد هِشام بن عبد الملك[١]. وفي سنة ٢٩هـ، سُمح للمسلمين لأوّل مرّة بعبور البحر وفتح قبرص. وفي السنة نفسها تمرّد أهالي فارس وأصطخر، فشنّ المسلمون حملةً عليهم وفتحوا المنطقتَين المذكورتين مرّة أُخرى. وبدأت في سنة ٣٠هـ، أُولى حملات المسلمين على طبرستان، وفُتحت فيها جرجان. وفي سنة ٣٢هـ، قتل أحدُ الطحّانين بمَرْو، يزدجردَ، وهو آخر ملك

الشخصيّة اليهوديّة الخطيرة في كتابه (**كتاب وعتاب** ٧٨ - ٨٧) تحت العنوانين: رواية صحاحهم عن حُمران بن أبان النمريّ= طويدا بن أبّا اليهوديّ التمريّ، ومَن هو حمران؟! والبحث الوافي لسماحة السيّد عليّ الشهرستانيّ بعنوان (**وضوء عثمان بن عفان من النشأة إلى الانتشار**) تلخيص وترتيب: الشيخ قيس العطّار.

١ - **الكامل في التاريخ** ٣: ٩٢ ـ ٩٣.

ساسانيّ، بعد أن قاسى التشريد كثيراً، فاجتثّ دابر هذه الأسرة إلى الأبد. وفُتحت خراسان مرّةً أُخرى بعد تمرّد أهلها، وكان قسم منها قد فُتِحَ من قبل. ومن الواضح أنّ الفُرس لمّا يرغبوا في سيطرة العرب عليهم، فكانوا يتمرّدون بين الفينة والأخرى، وإذْ لم يكن لهم قائد معيّن، فلم يصمدوا أمام قوى العرب المتماسكة المقتدرة. بعبارة أُخرى كانت بلاد فارس قد فقدت عصبيّتها الدينيّة والقوميّة والوطنيّة، ولهذا لم تستطع أن تقاوم حقّ المقاومة، وفي تلك السنين نكث أهل كرمان وسجستان عهدهم، إلّا أنّهم سُرعان ماهُزِموا.

آثار الفتوحات في الأُمّة الإسلاميّة

مثّلت الفتوحات تطوّراً بالغ الأهمّيّة للمسلمين من جهة، وللبشريّة عامّة من جهة أُخرى، فقد ولّدت هذه الحركة تطوّرات عظيمة في العالم البشريّ عنصريّاً ودينيّاً خلال قرن من الزمان وما ترتّب عليها في عدّة قرون، حيث غيّرت الهجرات الكثيرة الصبغةَ العنصريّة لكثير من المناطق، وتقلّصت أديان كبرى، فمضافاً إلى الهزيمة الساحقة تقريباً للدين المجوسيّ؛ شُلّت النصرانيّة في الغرب والبوذيّة في الشرق أيضاً، إذ استطاع الدين الجديد أن يسيطر على قسمٍ عظيم من أنحاء المعمورة، ويتركَ أثرَه الخاصّ فيه. ولا بدّ لنا أن نحلّل هنا عدداً من القضايا.

إذا تابعنا مُعطَيات الفتوحات للعرب الفاتحين، فإنّنا نجد أنّ قسماً كبيراً من العرب غادروا مناطقهم في شبه الجزيرة العربيّة متوجّهين إلى المناطق المفتوحة، ولم يحملوا معهم إلى معظم البلدان هديّةً إلّا القرآن الكريم، والحديث الشريف إلى حدٍّ ما. وإذا استثنينا هاتين الهديّتَين فإنّنا نرى عرباً ألِفُوا حياة البادية، وإذا هم ينعمون بأموال وثروات لا حصر لها، ولم تكن لهم حكومة في الجزيرة، وإذا هم يرثون حكومةً ساسانيّة واسعة الأطراف

والأكفاف. وكانت لهم على الصعيد الثقافيّ تقاليد قبليّة ذات شكاسة ، وإذا هم يواجهون - مُجبَرين - حياةً اجتماعيّة وإترافيّة جديدة في المناطق المفتوحة، فظهر إثر ذلك نوع من الازدواجيّة الثقافيّة في أكثر البلدان المفتوحة، فكان لابدّ لهم من موقفٍ محدَّد حيال ذلك. ومن الطبيعيّ أنّهم لم يكونوا يستطيعون أن يُنكروا وجود هؤلاء الأقوام أو يفرضوا عليهم الحياة العربيّة، والسبيل الذي سلكه عمر أكثر من غيره هو أنّه ردَعَ العرب عن التقليد وحذّرهم من التشبّه بالعجم، وذاك عمل عسير؛ لأنّ كثيراً من العرب كانت لهم جوارٍ روميّة وفارسيّة، وكان لهم منهنّ أولاد، فبدأ يظهر جيل جديد منهم بتواتر السنوات.

وحاول عمر من خلال المحافظة على وحدة العرب أن يقيهم من التنشّب في العجم، وقرّر أن تبقى الأراضي المفتوحة في العراق وفارس بيد أهلها ويُكتفى بأخذ خراجها منهم. وإنّ تسليم الأراضي للعرب لم يكن عملًا خاطئاً من الوجهة الفنّيّة - بسبب فقدانهم الخبرة - فحسب، بل كان مدعاةً إلى نشوء مشكلات سياسيّة لهم أيضاً. وجدّ عمر بدقّة في كسب أشراف العجم، فقد فرض لهم حصّة في العطاء كما كان للعرب حصّتهم. ذكر اليعقوبيّ حصّة نفر منهم كفيروز بن يزدجرد، ودهاقين الفلّوجة، والهرمزان، وبسطام بن نَرْسي دُهقان بابل [دهقان: رئيس الإقليم]. وأضاف أنّ عمر توخّى بعمله هذا تأليفَ قلوب الفُرس عبر كسب أشرافهم[1]، إلّا أنّه كان ـ في كلّ حال ـ يُفضّل العرب بوصفهم فاتحين مُحقّين، على مَن غيرهم من الأقوام، ويحذّر من امتزاجهم بسواهم، فلم يأذن أن يدخل المدينةَ، عاصمةَ الدولة

١ - تاريخ اليعقوبيّ ٢: ١٥٣ـ ١٥٤؛ المعارف: ٣٦١.

الإسلاميّة، أحدٌ من العجم (الذين كان يُسمّيهم «العُلُوج»، أي كفّار العجم)[١]. وقُدِّر له فيما بعد أن يُقتَل على يد «علجٍ عجميّ»كان دخل المدينة بوساطة المُغيرة بن شعبة! وكان عتابه وقتَ دنوّ أجله هو قوله: قد نهيتُكم أن تجلبوا علينا مِن علوجهم أحداً[٢]، وكان نفسه يعتقد أنّ أحداً من العرب لن يقتله[٣]. ويُضاف إلى ذلك أنّه كان يرى أن يُطلق جميع الأسرى الذين أُسِروا في حروب الردّة أو في فتح العراق والشام ما دام هناك أسرى غير عرب كثيرون[٤]، وكان يقول: «إنّه لقبيح بالعرب أن يملك بعضهم بعضاً وقد وسّع الله عزّ وجلّ وفتح الأعاجم»[٥]؛ ولهذا السبب دُفع مال كثير من بيت المال لإعتاق الرقيق العرب[٦]. وبينما كان عمر يطوف بالكعبة إذ سمع رجلين خلفه يرطنان، فالتفت إليهما، فقال لهما: ابتغيا إلى العربيّة سبيلاً[٧]. ومنع العرب من لبس ثياب العجم والتشبّه بهم[٨]. وكان يعتقد أنّ معاملة النصارى العرب يجب أن تختلف عن معاملة النصارى غير العرب[٩]، وكان يسمّي العربَ «مادّة الإسلام»[١٠]. وهذا التعبير كان صحيحاً في تلك الظروف طبعاً. وطلب من ولاته

---

١ - **مصنّف عبد الرزّاق** ٥: ٤٧٤، ٦: ٥١، ٥٤؛ **الطبقات الكبرى** ٣: ٣٤٥.
٢ - **الطبقات الكبرى** ٤: ٣٤٩ ـ ٣٥٠.
٣ - **مصنّف عبد الرزّاق** ٥: ٤٧٦.
٤ - أوّل فعل عمر ردّ سبايا العرب، قال: كرهتُ أن يسير السبي سُنّةً على العرب. **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٣٩؛ **مصنّف عبد الرزّاق** ٨: ٣٨٠.
٥ - **الكامل في التاريخ** ٢: ٣٨٢.
٦ - **الأموال**، لأبي عبيد: ١٣٣؛ **فتوح البلدان**: ١٠٤.
٧ - **ربيع الأبرار** ١: ٧٩٦؛ **مصنّف عبد الرزّاق** ٥: ٤٩٦ ـ ٤٩٧؛ **تاريخ جرجان**: ٤٨٦.
٨ - **حياة الصحابة** ٢: ٨٠٢.
٩ - **فتوح البلدان**: ١٨٥ ـ ١٨٦؛ **مصنّف عبد الرزّاق** ٦: ٩٩؛ **الخراج**: ١٢١.
١٠ - **الطبقات الكبرى** ٤: ٣٣٧ ـ ٣٣٩؛ **مصنّف عبد الرزّاق** ١: ٣٢٥.

على الأمصار ألّا يؤذوا العرب القاطنين في مناطقهم فيذلّوا[١]، ونهى عن زواج العربيّات بغير العرب بشدّة[٢]، واستشاط غضباً لاستخلاف نافع بن عبد الحارث مولًى (غير عربيّ) مكانَه وقدومه المدينة[٣]. قال المأمون لرجل نبطيّ كان قد صاح «واعُمَراهُ»: إنّ عمر كان يقول: من كان جاره نبطيّاً فاحتاج إلى ثمنه فليبعه، فإن كنتَ تطلب سيرة عمر فهذا حكمُه[٤]. وحين أراد سلمان أن يخطب ابنة عمر، لم يُفلح؛ لأنّ قومه أتَوه وطلبوا منه ألّا يفعل[٥]. وكان عبد الله ابن عمر يقول لمن يلقاه من العرب: السلام عليك، ويقول للأسود الزنجيّ: السلام عليك يا جُعَل[٦]! وكان طبيعيّاً أن يقول خالد بن صفوان في عقد عبده وأَمَتِهِ: «أمّا بعد، فإنّ الله أجلُّ وأعزّ من أن يُذكَر في نكاح هذين الكلبَين، وقد زوّجتُ هذه الفاعلة من هذا ابن الفاعلة»[٧]!

وواصل عثمان أيضاً هذا النهج إلى حدٍّ ما، وكان يرى أنّ أهمّ العوامل التي تنخر المجتمع الإسلاميّ ثلاثة، وهي: تكامل النِّعَم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم للقرآن[٨]. وكان إقبالُ العرب على الدنيا بعد رؤية الغنائم أمراً اعتياديّاً، حتّى إنّ عمر قد حذّر من ذلك في رسالته إلى أبي عبيدة[٩]. وسبّب هذا الأمر ضرراً كبيراً لرؤساء قريش الذين كانوا يعيشون في

---

١ – **تاريخ الطبريّ**: ٢٧٤١ (طبع ليدن)؛ **امتداد العرب**: ٢٢.

٢ – **امتداد العرب**: ٢٢.

٣ – **مصنّف عبد الرزّاق** ١١: ٤٣٩؛ **حياة الصحابة** ٢: ١٥٠.

٤ – **عيون الأخبار** ١: ٢٣٠؛ وانظر: **المحاسن والمساوئ** ٢: ٢٢٧.

٥ – **حلية الأولياء** ١: ١٨٦؛ **لطف التدبير**: ١٩٩؛ **الزهد والرقائق**، جزء نُعَيم بن حمّاد: ٥٢.

٦ – **الطبقات الكبرى** ٤: ١٦٠ «وزغ».

٧ – **البيان والتبيين** ٢: ٢٥٠.

٨ – **الفتنة الكبرى**: ٧٢.

٩ – **فتوح الشام** ٢: ٣٨.

المدينة وتصل إليهم الصلات والمنح. وأهمّ من ذلك قضيّة الامتزاج العنصريّ الذي ترك بصماته على العرب، وعامله الرئيس هو أنّهم لم تكن لهم ثقافة منضبطة ومنظّمة إلّا الآداب والتقاليد القبليّة، وفي الوقت نفسه كان للتركيبة القبليّة العربيّة التي عزّزها عمر عبر إنشاء الدواوين على أساس النظام القبليّ دورٌ مهمّ في المحافظة على الثقافة العربيّة. وكان تمصير المدائن العربيّة الخالصة حركةً من أجل استقرار القبائل العربيّة، وإن سكنها أسرى الحرب والمهاجرون غير العرب سريعاً. وقُسّمت المدائن المذكورة داخليّاً على أساس قبليّ أيضاً، وكان للعجم القاطنين فيها أحياؤهم الخاصّة. وشيّدت هذه المدائن الجديدة بمواصفات عربيّة وإسلاميّة أيضاً، ولذلك امتازت عن المدائن التي كانت من قبل.

وكان عدد العرب المهاجرين إلى العراق جمّاً كثيراً، ومعظمهم لم يبق فيه بل نزح إلى إيران. وقيل: كان لربيعة ومضر في الكوفة خمسون ألف بيت، ولسائر العرب أربعة وعشرون ألفاً، وبلغ عدد الذين وردت أسماؤهم في ديوان البصرة أيّام الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ستّين ألفاً[1].

وكان من الآثار المهمّة لاستيطان العربِ إيرانَ، تغلغلُ الإسلام فيها بأسرع ما يكون؛ فقد انتشر الإسلام في آذربايجان لكثرة العرب الساكنين فيها، وكانوا قد اشتروا أراضيَ جمّةً فيها وبدأوا يسكنونها بنحو دائم. وقيل: لمّا ذهب الأشعث بن قيس إليها وجد معظم أهلها مسلمين ويقرأون القرآن[2]. ومن المدن التي سكنها العرب لأهمّيتها مدينةُ الريّ، وقد ذكر اليعقوبيّ لاحقاً أنّ

---

١ - **امتداد العرب**: ٢٦.

٢ - **فتوح البلدان**: ٣٢٩؛ **امتداد العرب**: ٣٣.

عربها قليلون[١]، وصارت قزوين لأهمّيتها الحدوديّة حِذاءَ الديلم محلًّا لسكن العرب الذين هجروا الكوفة متوجّهين إليها.

وتطرّق اليعقوبيّ في كتابه «البلدان» إلى الجغرافية البشريّة للمدن من حيث العرب والعجم، وهي لافتة للنظر[٢]، حتّى جاء في بعض الأخبار أنّ مدينة قمّ كانت عربيّة من الأساس، وسكنها الأشعريّون وبعضٌ من قبيلة مَذْحج. وشهدت المناطق المختلفة في إيران بعد الفتوحات استيطان العرب الدائم فيها، بيد أنّه يتعيّن علينا أن نلتفت إلى أنّ إيران لم تتعرّب تماماً كمصر وشمال أفريقية، بل بالعكس إذ أصبح العرب الذين توطّنوها فرساً بالتدريج.

وكان للفتوحات تأثير عجيب في المسلمين من الوجهة الماليّة، وكان العرب قبل الإسلام يعيشون في حرمان شديد اقتصاديّاً، لكنّهم عاشوا في رفاهة من العيش ببركة الغنائم التي درّت بها الفتوحات. وكان لهذا الأمر تبعاته الأخلاقيّة الخاصّة، تلك التبعات التي أرست الفساد والضياع في المجتمع الإسلاميّ بسبب فقدان التربية الدينيّة المستمرّة. وحين فطن عمر لهذا الوضع حاول بتشدّده أن يحول دون تدنّس كبار الصحابة بالترف والإسراف. أمّا عثمان الذي كان نفسه من المترفين، فإنّه لم يستطع أن يسيطر على الوضع، فَمُنِيَ المجتمع في عهده بالفتنة والفساد. إلّا أنّ هناك نقطة طبيعيّة، وهي أنّ المجتمع الجديد كان يفقد القدرة اللّازمة للتعليم الدينيّ، وتلك مشكلة كانت تُعالَج نوعاً ما بفضل وجود ثلّةٍ من الصحابة، غير أنّ عددهم ومعلوماتهم ليسا بالمستوى الذي يمكن فيه استيعاب تلك البلاد

---

١ - **البلدان**: ٢٦٩.

٢ - ناقش الدكتور صالح العليّ في كتابه «**امتداد العرب في صدر الإسلام**» مراحل هجرة العرب إلى مُدُن إيران على أساس المعلومات التاريخيّة التي ذكرها اليعقوبيّ وغيرُهُ من المؤرّخين.

العريضة.

وكانت ثروة الصحابة في عهد عثمان طائلةً وافرة، قدّم بعض المصادر فيها أرقاماً وإحصائيّات عجيبة في هذا المجال، وقد أورد المسعوديّ معلومات مفيدة في كتابه[١]. وعمر الذي كان شديد المراقبة والمحاسبة في هذا الأمر سار في العطاء سيرةً حصل الصحابة البدريّون فيها على ثروة طائلة في غضون مدّة قليلة. وعرض عثمان ـ برجوعه إلى حياة الإتراف مثالًا مناسباً لترويج الإتراف بين سائر الصحابة. وشمل هذا الإتراف المهاجرين أكثر من غيرهم، إذ فُضِّلوا على الأنصار تبعاً لسياسة عمر في ترتيب الديوان[٢]. وواصل عثمان سياسة تفضيل قريش على مَن سواها[٣]. هذا في وقت كان الأنصار أفضل من قريش دينيّاً، وكان ابن عبّاس يقول: وجدتُ أكثر أحاديث رسول الله ﷺ عند الأنصار.[٤] وقيل: إنّ نساء الأنصار تفقّهنَ في الدين[٥]، وكنّ خيراً من نساء المهاجرين في الدين[٦]. ونُقل أيضاً أنّ قريشاً كان فيها حافظٌ واحدٌ للقرآن الكريم[٧]. وناقش طه حسين ميول عثمان القرشيّة، وتأثيرها في انعزال الأنصار وسيطرة قريش على سائر العرب[٨]. وترسّخت سياسة تفضيل المهاجرين على الأنصار، وقريش على غير قريش في المجتمع، إلى درجة أنّ الإمام عليّاًعليه السلام، بما أُوتي من جاهٍ ومنزلةٍ، لم يتسنَّ له إصلاحها، بل أخذوا

---

١ – **مروج الذهب** ٢: ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

٢ – **شرح نهج البلاغة**، لابن أبي الحديد ٨: ١١١.

٣ – **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ٩٨٩.

٤ – **سنن الدارمي**، المقدّمة، الباب ٤٦.

٥ – **مصنّف عبد الرزّاق** ١: ٣١٤ ـ ٣١٥.

٦ – **حياة الصحابة** ٢: ٨٧.

٧ – **الأذكياء**، لابن الجوزيّ: ١٠٢.

٨ – **الفتنة الكبرى**: ٦٥، ٨٥، ٨٦.

عليه مساواتَه وأنّه لم يسلك سبيل عمر في التفضيل بالعطاء[١]!

وبلغ الإتراف ـ مصحوباً بفقدان التربية الدينيّة ـ مبلغاً شهدت فيه الكوفة زنى حاكمها المُغيرة بن شعبة، وشربَ حاكمها الآخر الوليد بن عقبة الخمر. ولم يكن وضعُ معاوية في الشام بأفضل مِن غيره، بل الخليفة [عثمان] نفسه رفع «الواو» من أوّل آية الكنز لئلّا تشمله وليكون شأنُ نزولها أهلَ الكتاب[٢]. وذكر محمّد بن حبيب أسماء من أُقيم عليه الحدّ من قريش، وفيهم: أبو شَحْمة نجل عمر، الذي أقام عمر نفسُه عليه الحدّ لأنّه زنى بربيبة عمر! وأقام الحدّ أيضاً على ابنه الآخر عبيد الله لشربه الخمر. وجَلَدَ عثمانُ ابنَه الثالث [ابن عمر] عاصماً لشربه الخمر أيضاً[٣]، وكان الإمام الحسين عليه السلام هو الذي شهد عليه حتّى نقل محمّد بن حبيب أنّ هذه الشهادة كانت بداية العداء بين آل عمر وآل عليّ. وجُلد سهيل بن عبد الرحمان بن عوف أيضاً بسبب شربه الخمر[٤]! وتُلحَظ أسماء آخرين من أبناء الصحابة بين هؤلاء. والذين لم يُجلَدوا لم يكونوا بأفضل منهم، ومثالهم: عمر بن سعد بن أبي وقّاص الذي قتل الإمامَ الحسين عليه السلام في كربلاء. وقضيّة كربلاء وحدها تدلّ على عمق الانحراف والفساد الفكريّ والأخلاقيّ في الأمّة التي ربّاها الحكّام الأوائل.

وكان الخلفاء يتفاخرون بالفتوحات على أنّها جهاد مقدّس نشَرَ الإسلام وجلب للعرب غنائم لاتُحصى في آنٍ واحد، تلك الغنائم التي كان لها أن تُنقذهم من الجوع. وكانوا يرون أنّ هذا الجهاد يظلّ مقدّساً حتّى لو رافقه

١ - نهج السعادة ١: ١٩٧، ٢٠٠، ٢٠٧، ٢١٢، ٢٢٨، ٢٢٩؛ شرح النهج ٧: ٤١ ـ ٤٣.

٢ - انظر: الدرّ المنثور ٣: ٢٣٢.

٣ - المنمّق: ٣٦٥ - ٣٩٥.

٤ - نفسه ٣٩٧.

خَبْطٌ وشَطَطٌ كخبط وشطط خالد بن الوليد مع مالك بن نويرة، بحيث إنّ ذلك الخبط والشطط لم يسلباه اللّقب المزعوم سيف الله. ومن رأي الخليفة الثاني يجب أن تسقط فقرة «حيَّ على خيرِ العمل» من الأذان، ليعرف الناس أنّ الجهاد، لا الصلاة، أهمٌّ واجب مفروض عليهم.

وكان للفتوحات خاصيّة أُخرى، وهي انشغال الناس بها عن الشؤون الداخليّة. ولمّا واجه عثمان الثورة عليه، كان أحدُ الحلول التي عُرضت إرسالَ الثائرين إلى الثغور ليجاهدوا الأعداءَ[1]. وعلى العكس، فإنّ الذين أدركوا حقيقة القضيّة كتبوا إلى المرابطين في الثغور أنّ الجهاد الحقيقيّ هو في المدينة، لا في الديلَم[2]! واستخدم معاوية هذه الحَربة أيضاً لتفريق المعارضين[3].

ويتعيّن علينا في الحقيقة- من أجل التعرّف على الانحرافات التي وُجدت في المجتمع- أن ندرك مدى المصاعب التي واجهها الإمام عليّ عليه السلام، والذي كانت رسالته إصلاح المجتمع، فقد بلغ تعلّق الناس ببيت المال والعطاء حدّاً أنّ عمر كان يقول: «لو شئتُ أن أكفّر الناسَ لَكفّرتُهم! قالوا: وكيف ذلك؟ قال: أمنعهم حقوقَهم»[4]. قال أبوجعفر النقيب أيضاً: «ولو كان عثمان سلك سبيل عمر... ولو حوّل الصلاةَ من الكعبة إلى بيت المقدس، بل

١ - **الفتوح** ٢: ١٧٨، ١٧٩؛ **مروج الذهب** ٢: ٢٣٧؛ **الكامل في التاريخ** ٣: ١٤٩؛ **تاريخ المدينة المنوّرة** ٢: ١٠٩٦.

٢ - **الكامل في التاريخ** ٣: ١٥٠.

٣ - قال اليعقوبيّ: وكان إذا بلغه عن رجل ما يكره قطع لسانَه بالعطاء، وربّما احتال عليه فبعث به إلى الحروب، وقدّمه. **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٢٣٨.

٤ - **المعيار والموازنة**: ٨٧.

لو أسقط عن الناس احدى الصلوات الخمس واقتنع منهم بأربع، لما أنكر عليه أحد؛ لأنّ همم الناس مصروفة إلى الدنيا والأموال، فإذا وجدوها سكتوا»[١]. وهذا عمل كان يقوم به عمر في بعض الأحكام الشرعيّة، ولم يُنكِر عليه أحد. فالعصر هذا - كما صرّح الإمام عليّ عليه السلام - وما كان عليه المجتمع في بداية خلافته، عاد كعصر الجاهليّة[٢].

١ - شرح نهج البلاغة ١٢: ٩٠.

٢ - نهج السعادة ١: ١٨٩.

الفصل الرابع

إمامة عليّ عليه السلام

الإمام عليه السلام و النبيّ صلى الله عليه وآله[1]:

كان لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام فخر وشرف أنّه نشأ في كنف رسول الله صلى الله عليه وآله منذ نعومة أظفاره وهو ابن ستّ سنين[2] [3]، وفي هذا الشأن أخبار رائعة جمعها ابن أبي الحديد - الشارح المتميّز لنهج البلاغة، وهو السنّيّ المعتزليّ - في موضعٍ واحد، منها ما نُقل عن زيد بن عليّ بن الحسين عليهما السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يمضغ اللّحمة والتمرة حتّى تلين فيجعلهما في فم عليّ عليه السلام[4]. وإلى هذا القُرب، كان أوّل مَن صدّقه في الإسلام، حتّى قال عليه السلام: لم يَسْبقْني إلّا رسولُ الله صلى الله عليه وآله بالصلاة[5]. وبلغت الشواهد والأمثلة في هذا المجال مبلغاً لا تدع لمنصف أيَّ مجال للشكّ والامتراء، فجاء في إسلامه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله دعاه إلى الإسلام، وهذه آيةٌ على نضجه العقليّ[6]. قال المسعوديّ ما مضمونه: قلّل

---

١ - يشمل هذا الكتاب ستّة أقسام؛ الأوّل: يضمّ ترجمة الإمام عليه السلام وحروبه. وقد أُخذ من «**التاريخ السياسيّ للإسلام**» و«**تاريخ الخلفاء**» ـ مع بعض الإصلاحات ـ وأُدرج هنا. وتبعت القسم المذكور خمسُ مقالات (من ص ١٢٩ إلى ٢٣٧) «حول الغدير»، و«السيرة السياسيّة للإمام»، و«آفة الحكومة الدينيّة برأي الإمام»، و«منزلة الإمام عند أهل السنّة»، و«الإمام عليّ عليه السلام والناس».

٢ - «كان عليّ في حِجْر رسول الله صلى الله عليه وآله منذ كان عمره ستّ سنين». **بحار الأنوار** ٣٨: ٢٥٤.

٣ - **أنساب الأشراف** ٢: ٩٠.

٤ - **شرح النهج** ١٣: ١٩٨ـ٢٠١.

٥ - **نهج البلاغة**: الخطبة ١٣١.

٦ - **المعيار والموازنة**: ٦٨ ـ ٦٩؛ **أنساب الأشراف** ١: ١١٢.

فريقٌ عُمْر عليّ حين أسلم ليقولوا: كان طفلاً يومَ أسلم[١].

والحقيقة هي أنّ النبيّ ﷺ كان يستثمر كلّ فرصة مناسبة للتنويه بخصائص الإمام عليّ عليه السلام ومزاياه؛ كي يُعرِّف الناسَ قدره وشأنه تكريماً لمنزلته الرفيعة بين أصحابه، من الوجهة المعنويّة، والوجهة العلميّة والاجتماعيّة على حدّ سواء، وكذلك لتضحياته في ميادين متعدّدة. وأقواله ﷺ لطمسها هي الفضائل والمناقب التي وردت في المصادر الحديثيّة والتاريخيّة المهمّة بأسانيد موثوقة هي وثيقة، على الرغم من محاولات الأمويّين وسائر مناوئيه عليه السلام. وقد بلغ تسجيل مثل هذه الأحاديث وما رافق تدوينها من عداء مبلغاً أنّه حين صُنّفت كتبُ الحديث إبّان القرن الثاني، لم يطق جامعو هذه الكتب ورواتها نقل أيَّ فضيلة للإمام عليه السلام بسبب حميّتهم الطائفيّة المتأثّرة غالباً بالنزعة العثمانيّة، في حين كان أنصار الحكومة الأمويّة والرؤية العثمانيّة في العهد الأمويّ ينقلون ما اختلقوه بشأن الخلفاء والصحابة الذين كانوا يدافعون عنهم، وكان قسم من هذه الموضوعات أمويّاً تماماً، بل من فضائل الإمام عليّ عليه السلام في الأصل، لكنّه نُسب إلى الخلفاء. ولم تُثمر هذه التحريفات بشيء؛ لأنّ فضائله عليه السلام المأثورة كانت في الذروة، ورواتها من الأثبات الثقات حتّى خَلُدت في الكتب، وكان للرواة الكوفيّين قسط مهمّ في حفظ هذه الفضائل، حتّى قال أحمد بن حنبل: «ما لأحدٍ من الصحابة من الفضائل بالأسانيد الصحاح مِثلُ ما لعليّ»[٢]. وقال أيضاً: إنّ ابن أبي طالب لا يُقاس به أحد[٣]. ومن بين تلك الفضائل ما ورد في أحاديث لا يخالج الشكّ أحداً في صحّتها عند

---

١ - **التنبيه والإشراف**: ١٩٨.

٢ - **مناقب أحمد بن حنبل**، لابن الجوزيّ: ١٦٣؛ **طبقات الحنابلة** ١: ٣١٩.

٣ - **مناقب أحمد بن حنبل**: ١٦٣.

عرضها أبداً، وقد بلغ بعضها من الشأن والأهميّة درجةً أنّها وحدَها قادرةٌ على أن ترسم لنا شخصيّة عظيمة للإمام عليّ عليه السلام من خلال مدح رسول اللّه صلى الله عليه وآله.

كان أبو سعيد الخُدريّ يقول: كان لعليٍّ من النبيّ صلى الله عليه وآله دَخلةٌ ليست لأحـد، وكان للنبيّ صلى الله عليه وآله من عليٍّ دخلة ليست لأحدٍ غيره، فكانت دخلة النبـيّ صلى الله عليه وآله مـن عليّ أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يدخل عليهم كلَّ يوم[1]. وقال زيد بن ثابت يوماً للإمـام: أنتَ من رسول اللّه صلى الله عليه وآله بالمكان الذي لا يَعدِله أحد[2]، قال زيدٌ هذا وهو شـديد الانحياز إلى عثمان. وكانت للإمام عليه السلام معرفة برسـول اللّـه صلى الله عليه وآله لـم تكـن لسـائر الصحابة[3]. ومن آيات اعتنائه صلى الله عليه وآله به عليه السلام أنّه زوّجه ابنته فاطمة عليها السلام التي كانت من مصطفَيات العالَم، وكان أبو بكر وعمر قد خطباها قبـل ذلـك، لكنّـه صلى الله عليه وآله أبـى، منتظراً فيها أمر اللّه تعالى، وحين خطبها الإمام عليّ عليه السلام رضي صلى الله عليه وآله به، وقال له: لستَ بدجّال[4]! هي لك يا عليّ. ولمّا تزوّجها عليها السلام، طلب منه النبيّ صلى الله عليه وآله أن يجـد منزلًا، فوجد منزلًا بعيداً عن الموضع الـذي يسـكنه رسـول اللّـه صلى الله عليه وآله، وبعـد الزواج طلب منهما أن يكونا قـريبَين منـه، ولهـذا كـان بيتـه عليه السلام جنـب بيـت النبيّ صلى الله عليه وآله، وتحقّق هذا العمل بإيثار حارثة بن النعمان وتنازله عن بيته[5]. وربّمـا

---

١ – **مصنّف عبد الرزّاق** ١٠: ١٤٠؛ **أنساب الأشراف** ٢: ٩٨، وفي الهامش عـن: **تـاريخ دمشـق** ٣٨: ٣٣؛ **أمالي ابن الشيخ**: ٣٣ / الحديث الثالث ـ المجلس ٢٧.

٢ – **الفتوح** ٢: ١٦٥.

٣ – انظر: **سبل الهدى والرشاد** ٦: ٦٤٢.

٤ – **الطبقات الكبرى** ٨ : ٢٢ . ويمكن ضبط هذا الكلام بشكلَين: «لستُ...» و«لسـتَ...»، وضـبطه ابن سعد بالشكل الأوّل، وفسّره بقوله: يعني: لستُ بكذّاب . وذلك أنّه قد كان وعد عليّاً بها، وها هو الآن عند وعده. ويدلّ التنقيب في مرويّات الخطوبة على أنّه لـم يكـن هنـاك وعـد سابق. فماذا يعني كلام النبيّ صلى الله عليه وآله؟ ألا يمكن أن يكون الصحيح هو «لست» للخطاب، ويعني التعريض بمن خطبها قبله؟!

٥ – نفسه.

هذا هو الذي جعل عبدَ اللّه بن عمر يقول لرجل سأله أن يحدثه عن عليّ عليه السلام: «إنْ سرّك أن تعلم ما كانت منزلته من رسول اللّه صلى الله عليه وآله، فانظر إلى بيته من بيوت رسول اللّه»[١].

وفي عقد المؤاخاة اختاره رسولُ اللّه صلى الله عليه وآله أخاً له[٢]، وحين كان صلى الله عليه وآله يخطب، كان الإمام عليه السلام يحدّث الناس بكلامه صلى الله عليه وآله وهو في مكان بعيد[٣]. وإذا غضب صلى الله عليه وآله لم يجترئ أحد أن يكلّمه غير عليّ عليه السلام[٤]. وكان الناس يتشفّعون به عليه السلام إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله لقضاء حوائجهم[٥]. وقد نقل السنّة عن عائشة قولها: كان أحبُّ الناس إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله من النساء فاطمة، ومن الرجال عليّاً[٦]. وكان أوثق وأثبت فضيلة من فضائله عليه السلام هو حديث المنزلة، حيث جعله رسول اللّه صلى الله عليه وآله من نفسه كهارونَ مِن موسى عليهما السلام[٧]. وكلّما طرأت مشكلة واحتاجت إلى من يرسله رسولُ اللّه صلى الله عليه وآله لحلّها، كان ينتدب عليّاً عليه السلام لها[٨]. وسُئل عليه السلام يوماً عن إكثاره نقلَ الحديث قياساً بسائر الصحابة، فقال: لأنّي كنتُ إذا سألتُه أنبأني، وإذا سكتُّ ابتدأني[٩]. وكان عليه السلام يقول: وكان لا يمرّ بي من ذلك [الغامض المجهول] شيء إلّا سألتُه عنه، وحفِظْتُه[١٠]. ويقول: فما نَسِيتُ حديثاً أو شيئاً

---

١ - **أنساب الأشراف** ٢: ١٨٠ ـ ١٨١ .

٢ - **سنن الترمذي** ١٣: ١٧٠؛ **مصنّف ابن أبي شيبة** ١٢: ٦٢، ٨٢؛ **المستدرك** ٣: ١٤؛ **ربيع الأبرار** ١: ٨٠٧؛ **أنساب الأشراف** ١: ٢٧٠، ٢: ١٤٥.

٣ - **ربيع الأبرار** ٣: ٧٣٢ .

٤ - **أنساب الأشراف** ٢: ١٠٧؛ **المستدرك** ٣: ١٣٠.

٥ - **التراتيب الإداريّة** ١: ٥٦ ـ ٥٨.

٦ - **الاستيعاب** ١: ٣٧٨؛ **تاريخ جرجان**: ٢١٨.

٧ - لم يشكّ أحد في هذا الحديث قطّ، كما أُشير إلى ذلك في المتن.

٨ - **الطبقات الكبرى** ٧: ٤٣٥؛ **التراتيب الإداريّة** ١: ٤٤٣ ـ ٤٤٤؛ **بحار الأنوار** ٣٨: ٧٣ ـ ٧٥ .

٩ - **أنساب الأشراف** ٢: ٩٨ .

١٠ - **نهج البلاغة**: الخطبة ٢٠٣ .

سمعتُه من رسول اللّه صلى الله عليه وآله[١]. وقال في أحد كتبه: وأنا من رسول اللّه كالصِّنْو من الصِّنْو، والذراعِ مِن العَضُد[٢]. وقال: كنتُ أتبعُه اتّباع الفَصيلِ أثَرَ أمِّه[٣]. وقال: إنّي لم أردَّ على اللّه ولا على رسولِه ساعةً قطّ[٤]. وفي إعلان البراءة قال اللّه تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله بواسطة جبرئيل عليه السلام: لايبلغه الناسَ إلّا أنت أو رجلٌ منك. ولهذا أعفى صلى الله عليه وآله أبا بكر من الإبلاغ، وكان قد بعثه قبل ذلك، وكلّف الإمامَ عليه السلام بإبلاغه يومَ الحجّ الأكبر، أي يومَ عرفة[٥]. وللإمام عليه السلام كلمات بليغة يصف فيها قُربَه من النبيّ صلى الله عليه وآله، فقد قال في الخطبة القاصعة: وقَدْ عَلِمْتُم مَوْضِعي مِن رَسُول اللّه صلى الله عليه وآله بالقَرابة القَريبة، والمَنزلة الخَصيصة. وضَعَني في حِجْرِه وأنا وَلَد، يَضُمُّني إلى صَدْره، ويَكْنُفُني في فِراشِه، ويُمِسُّني جسَدَه، ويُشِمُّني عَرْفَه. وكانَ يَمضَغُ الشَّيءَ ثُمَّ يُلْقِمُنيه. وما وَجَدَ لي كَذْبَةً في قَول، ولا خَطْلَةً في فِعْل. ولَقَد قَرَنَ اللّه بِه صلى الله عليه وآله مِنْ لَدُنْ أنْ كانَ فَطِيماً أعظمَ مَلَكٍ مِن مَلائكَتِه، يَسلُكُ بِهِ طريقَ المَكارم، ومَحاسِنَ أخْلاق العالَم، لَيلَه ونَهارَه. ولَقَد كنتُ أتَّبِعُه اتّباعَ الفَصِيلِ أثَرَ أُمِّه، يَرفَعُ لي في كلِّ يَوْمٍ مِنْ أخْلاقِهِ عَلَماً، ويَأمُرُني بِالاقتداءِ بِه. ولَقَد كانَ يُجاوِرُ في كلِّ سَنة بِحِراءَ فأراه، ولا يَراه غَيري. ولم يَجمَعْ بيتٌ واحدٌ يَومئذٍ في الإسلامِ غيرَ رَسُول اللّه صلى الله عليه وآله وخديجةَ وأنا ثالثُهما. أرى نُورَ الوَحْيِ والرسالة، وأشُمُّ رِيحَ النُّبوّة[٦].

وكان عليه السلام شديدَ القرب من رسول اللّه صلى الله عليه وآله حتّى قال: واللّه ما نزلتْ آية إلّا

١ - **أنساب الأشراف** ٢: ١٢١.

٢ - **نهج البلاغة**: الكتاب ٤٥ .

٣ - **تصنيف نهج البلاغة**: ٣٥٥.

٤ - **نهج البلاغة**: الخطبة ١٩٥.

٥ - **أنساب الأشراف** ١: ٣٨٢، ٢: ١٢٣، ١٥٥.

٦ - **نهج البلاغة**: الخطبة ١٩٢.

وقد عَلِمتُ فيما نَزَلَت، وأين نزلت[1]. وكان ابن عبّاس يقول: «ما أنزل اللّه سورةً إلّا وعليٌّ أميرُها وشريفها، وقد عاتب اللّه أصحاب محمّدﷺ، ولم يذكر عليّاً إلّا بخير»[2].

وكان أحمد بن حنبل يقول لمن يَعجب من أن يكون عليٌّ قسيم الجنّة والنار: أليس روينا أنّ النبيّﷺ قال له: لا يُحبُّك إلّا مؤمن، ولايُبغضُك إلّا منافق؟! قالوا: بلى، قال: فأين المؤمن؟ قالوا: في الجنّة، قال: وأين المنافق؟ قالوا: في النار، قال: فعليّ قسيم الجنّة والنار[3]. وكان عبد العزيز بن مروان يقول لولده عمر (الحاكم الأمويّ): «أما إنّ هؤلاء الحمير لو يعلمون مِن عليٍّ ما نعلم ما اتّبَعنا منهم رجلان»[4]! وكان سلمان يقول: «أرى عليّاً يمرّ بين ظَهرانيكم فلا تقومون فتأخذون بحجزته، فوالذي نفسي بيده لا يُخبركم أحدٌ بسرِّ نبيّكم بعدَه»[5]. وحقّاً ما نطق به ابن أبي الحديد، إذ قال: «لم ينصر رسولَ اللّهﷺ أحدٌ نُصرةَ أبي طالب وبَنيه له»[6]. وحين شكا عليّاًعليه السلام رجلٌ إلى رسول اللهﷺ قالﷺ ، ثلاثاً: «دَعُوا عليّاً؛ فإنّ عليّاً مِنّي وأنا منه، وهو وليُّ كلِّ مؤمن»[7].

---

١ - **أنساب الأشراف** ٢: ٩٩.
٢ - **معرفة الصحابة** ١: ٢٩٨؛ **المعجم الكبير** ١١: ٢٦٤؛ **حلية الأولياء** ١: ٦٤.
٣ - **طبقات الحنابلة** ١: ٣٢٠.
٤ - **ربيع الأبرار** ١: ٤٩٩.
٥ - **أنساب الأشراف** ٢: ١٨٣ .
٦ - **شرح النهج** ٧: ١٧٤ . الكلام لجعفر بن مكّيّ الشاعر، وقد نقله ابن أبي الحديد للنقيب كما جاء في المصدر المذكور . المترجم.
٧ - **الأمالي في آثار الصحابة**: ٨٠ . والمصادر الأخرى لهذا الحديث في هامش المصدر المذكور هي: **مسند أحمد** ٤: ٤٣٧؛ **سنن الترمذي**، رقم ٣٧٩٦؛ **مسند الطيالسيّ**، الرقم ٨٢٩؛ **خصائص الإمام عليّ**عليه السلام ، للنَّسائيّ: ٦٥؛ **حلية الأولياء** ٦: ٢٩٤؛ **المستدرك** ٣: ١١٠؛ **المعجم الكبير** ١٨: ١٢٨؛ وانظر: **الاستيعاب** ٤: ٣٢٢.

وأنقذ عليه السلام حياة النبيّ صلى الله عليه وآله ليلةَ الهجرة[١]، وقتلَ قُرابةَ ثلاثين من المشركين ببدر، وثبت مع النبيّ صلى الله عليه وآله في أُحُد، وأنجى رسولَ اللّه صلى الله عليه وآله حين فرّ الكثيرون من ساحة القتال، وجعل صلى الله عليه وآله ضربةَ عليّ عمرو بن عَبْد وُدّ يومَ الخندق أفضلَ مِن عبادةَ الثّقَلين، وهذه الضربة هي التي سبّبت الهزيمة القاطعة للعدوّ[٢]. وكان عليه السلام حاملَ اللّواء في الحروب التي حضرها[٣].

ولا ريب في أنّ الصحابة لم يكن لهم علم الإمام عليه السلام ، وقد جاء هذا في كلام رسول اللّه صلى الله عليه وآله و إقرار الصحابة أنفسهم، والتاريخ يشهد عليه أيضاً. والكلام النبويّ المشهور: «أنا مدينةُ العلم وعليٌّ بابُها» خير شاهد عليه.

وكلام الإمام عليه السلام نفسه على المِنبر: سَلُوني قبلَ أن تَفْقدوني[٤] هو آية على علمه الباهر عليه السلام. وهذا ما لم يستطع ادّعاءَه أحد من الصحابة ، كما قال سعيد ابن المُسيِّب[٥]. وكلّفه النبيّ صلى الله عليه وآله أن يعلّم الناسَ الوضوء والسُّنّة[٦]. وكانت عائشة المعروفة بعدائها لفاطمة وعليّ عليهما السلام منذ عهد النبيّ صلى الله عليه وآله تقول: عليٌّ أعلمُ الناس بالسُّنّة[٧]. وكان عطاء التابعيّ المعروف يقول: «عليٌّ أفقهُ أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وآله»[٨]. وذهب عمر بن عبد العزيز إلى أنّه عليه السلام كان أزهد الصحابة[٩].

---

١ - **أنساب الأشراف** ١: ٢٦٠.

٢ - **تاريخ مختصر الدول**: ٩٥؛ **شرح النهج** ٥: ٧.

٣ - **أنساب الأشراف** ٢: ٩١، ٩٤؛ **حياة الصحابة** ٢: ٥١٤ ـ ٥١٥.

٤ - **نهج البلاغة**: الخطبة ١٨٩.

٥ - **تاريخ يحيى بن معين** ٣: ١٤٣.

٦ - **الطبقات الكبرى** ٤: ٥٢.

٧ - **التاريخ الكبير**، للبخاري ٢: ٢٥٥.

٨ - **مقتل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام**: ١٠٧.

٩ - نفسه . يمكن أن تُكتب في هذا الباب من خصائص الإمام عليّ عليه السلام وفضائله ومناقبه مئات الصفحات، لكنّنا اكتفينا بهذا المقدار؛ لأنّنا أردنا هنا أن نُلقي نظرة مقتضبة على حياته السياسيّة عليه السلام في كتابنا هذا.

الإمام عليّ عليه السلام والخلفاء

إن صحّ ما قيل من وجود تيّارَين سياسيَّين متباينَين بين المهاجرين في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، ووجود مَن يسعى إلى الخلافة، فلا بدّ أن نقرّ بأنّ العلاقات بين الإمام عليّ عليه السلام وبين الشيخَين لم تكُ طيّبةً منذ ذلك الحين. بيدَ أنّ أخبار السيرة لم تحدّثنا في نشوب نزاع بينهم، كما لا يُشَمّ منها ما يدلّ على صداقة مشهودة لهم. ويمكن أن يُعدّ عداء عائشة للإمام عليه السلام ـ الذي كان منذ عهد النبيّ صلى الله عليه وآله كما صرّح به بنفسه ـ مثالًا على وجود الخلاف بين آل أبي بكر وآل عليّ. وقيل: لمّا تُوفّيت فاطمة عليها السلام، شاركت نساءُ النبيّ صلى الله عليه وآله في عزاء بني هاشم إلّا عائشة! فإنّها تمارضت ولم تحضر العزاء، بل نُقِل عن الإمام عليّ عليه السلام أنّها عبّرت عن سُرورها[١]. وأيّاً كان، فإنّ خلافة أبي بكر وما تلاها، وإصرار الإمام على إثبات أحقّيّته في الخلافة، أفضيا إلى تكدّر علاقاتهما واكتنافها بالمشكلات. وإنّ الهجوم على بيت الإمام عليّ عليه السلام، وسخط الزهراء عليها السلام على الشيخين، ومنع الشيخين من حضور جنازتها[٢]، كلُّ ذلك عمّق الخلاف بين الجانبين . واعتزل الإمام عليّ عليه السلام بعد ذلك، وانشغل بحياته الدينيّة الخاصّة. وكانت الحكومة تتوقّع منه - كما بايع - أن ينسى الإشارة إلى نفسه بالإمامة، وأن يحمل السلاح لحرب معارضيهم من المرتدّين وغيرهم توطيداً لأركان سلطتهم، لكنّه رفض عليه السلام ذلك[٣]. وطبيعيّ بهذا الموقف

١ - **شرح النهج** ٩: ١٩٨.

٢ - انظر: **المستدرك** ٣: ١٦٢؛ **الطبقات الكبرى** ٨: ٢٩ ـ ٣٠؛ **التنبيه والإشراف**: ٢٥٠؛ **وفاء الوفا**: ٩٩٥ ـ ٩٩٦، ١٠٠٠.

٣ - جاء في خبر في **الفتوح** ١: ٧١ ـ ٧٢ أنّ عمر كان يخشى من رفض الإمام عليّ عليه السلام عرضَه لقيادة الحرب ضدّ المرتدّين، فلم يعرض عليه ذلك . ولم يكن بعضهم مرتدّين، بل معترضين على نزع الخلافة!

حاولت الحكومة أن تقلّل من قَدْره في عيون الناس، ويمكن لهذه السياسة أن تؤدّي إلى انعزاله أكثر.

قال عليه السلام داعياً على قريش: اللّهمّ إنّي أستعديك على قريش ومَن أعانَهم؛ فإنّهم قطعُوا رَحِمي، وصَغّروا عظيم مَنزلتي، وأجمعُوا على منازعتي أمراً هو لي[١]. وتابع عليه السلام كلامه قائلًا: فنظرتُ فإذا ليسَ لي رافد، ولا ذابٌّ ولا مُساعِد، إلّا أهلَ بيتي، فضَنَنْتُ بهم عن المنيّة، فأغْضَيتُ عَلَى القَذى، وجَرِعْتُ رِيقي عَلَى الشَّجا[٢]. وكلامه عليه السلام هذا إشارة إلى سياسة الخلفاء في استصغار قَدْره عليه السلام. وقال في الخطبة الشِّقْشِقيّة مشيراً إلى الشورى: حتّى إذا مَضى لِسبيله (عمر) جَعَلَها في جماعة زَعَمَ أنّي أحَدُهم. فيالَلّهِ ولِلشُّورى! متّى اعترضَ الرَّيبُ فيَّ مَعَ الأوّلِ مِنْهم، حَتّى صِرْتُ أُقْرَنُ إلى هذهِ النَّظائر[٣]!

إنّ جعل الإمام عليه السلام في عداد أشخاص كطلحة والزبير وعثمان هضمٌ له عليه السلام، مضافاً إلى ذلك أنّ هؤلاء صغّروا عظيم قدره ومنزلته أيضاً، والعجيب أنّ عمر حين اختار الستّة، عاب كلًّا منهم بصفة فيه، والصفة التي رمى بها الإمام صفة واهية لا أساس لها ولا مناسبة البتّةَ، وهي في الوقت نفسه ممضّة نابية! فقد اتّهمه بأنّه داعب، فقال: فيهِ دُعابة[٤]. وبه اقتدى معاوية[٥] وعمرو بن العاص فقالا: فيهِ تَلْعابة[٦]، فردّ عليه السلام تَقَوُّلَ ابن العاص بشدّة، وهو في الأصل ردٌّ

---

١ – **نهج البلاغة**: الخطبة ١٧٢؛ **الغارات** ١: ٣٠٩ ، والنصّ أعلاه من الغارات.

٢ – **نهج البلاغة**: الخطبة ٢١٧ . وردت هذه الخطبة مرّتين في نهج البلاغة، وفيها هنا إضافات . وانظر: **الجمل**: ١٢٣ . وفي هامشه عن: **الإمامة والسياسة** ١: ١٥٥؛ **الغارات**: ٢٠٤ .

٣ – **نهج البلاغة**: الخطبة ٣.

٤ – **تاريخ مختصر الدول**: ١٠٣.

٥ – **شرح النهج** ١: ٢٥.

٦ – **الإمتاع والمؤانسة** ٣: ١٨٣.

على كلام عمر[١].

وظلّ الإمام عليه السلام مغموراً بسبب إيثاره العُزلة بالمدينة، وكان الزمن يمرّ بسرعة، والإمام عليه السلام كان ـ بخاصّة ـ وجهاً معروفاً بين الصحابة القدامى، وفي المدينةً وحدها. أمّا في العراق والشام فلم يعرفه فيهما كثير، وتعرّف عليه بعض قبائل اليمن حين مكث هناك ستّة أشهر في عهد النبيّ صلى الله عليه وآله[٢]. قال جُنْدَب ابن عبد اللّه: «... فانصرفتُ إلى العراق [بعد بيعة عثمان] فكنتُ أذكر فضل عليّ على الناس فلا أُعدَم رجلًا يقول لي ما أكره، وأحسن ما أسمعه قولُ مَن يقول: دَعْ عنك هذا وخذ ما ينفعك؛ فأقول: إنّ هذا ممّا ينفعني وينفعك، فيقوم عنّي ويدَعُني»![٣]

ونقل ابن أبي الحديد تحليل محمّد بن سليمان، إذ قال: وأمّا السبب الثاني للاختلاف، فهو جَعْلُ عمر الأمرَ شورى في الستّة، ... فبقيَ في نفس كلّ واحد منهم أنّه قد رُشّح للخلافة وأُهّل للمُلْك والسلطة:... وكان طلحة ممّن ينتظر الخلافة... وساعده الزُّبير، وكان أيضاً يرجو الأمرَ لنفسه، وقد ساعدهما على رجائهما هذا أنّ أمير المؤمنين عليه السلام عُتِّم على حقّه وسُلب تراثه النبويّ، ودُفع عن مقامه من قبل الثلاثة الذين قبله، ثمّ مات الأكثر ممّن كان يعرف خصائصَه التي كانت في أيّام النبوّة وفضله، ونشأ قومٌ لا يعرفونه ولايرونه إلّا رجلًا من عرض المسلمين؛ ولم يبق له - بسبب غصب أولئك ومواقفهم وأحقادهم - ممّا يمتّ به إلّا أنّه ابن عمّ الرسول، وزوج ابنته، وأبو

---

١ - **نهج البلاغة**: الخطبة ٨٤؛ **أنساب الأشراف** ٢: ١٢٧، ١٤٥، ١٥١؛ **نهج السعادة** ٢: ٨٨.

٢ - انظر بهذا الشأن: **قبايل يمني وتشيّع** [القبائل اليمانيّة والتشيّع]، أصغر منتظر القائم، قمّ، دفتر تبليغات اسلامي [مكتب الإعلام الإسلاميّ]، ١٣٨٠ [٢٠٠١م].

٣ - **شرح النهج** ٩: ٥٨.

سبطَيْه، ونُسيَ ما وراء ذلك كلّه؛ واتّفق له مِن بغض قريش وانحرافها ما لم يتّفق لأحد، وكانت قريش بمقدار ذلك البغض تحبّ طلحة والزُّبير؛ لأنّ الأسباب الموجبة لبغضهم لم تكن موجودةً فيهما[1]. قال ابن أبي الحديد بعد الإشارة إلى انتظار الناس بصفّين حضور عمّار بن ياسر ليكون معياراً لحقّانيّة الجبهة التي يقاتل فيها: «واعَجَباه من قومٍ يعتريهم الشكّ في أمرهم لمكان عمّار، ولا يعتريهم الشكّ لمكان عليّ عليه السلام! ويستدلّون على أنّ الحقّ مع أهل العراق بكَون عمّار بين أظهرهم، ولا يعبأون بمكان عليّ عليه السلام!... ويرتاعون لذلك، ولا يرتاعون لقوله صلى الله عليه وآله:... لا يُحبُّك إلّا مؤمن، ولايبغضك إلّا منافق! وهذا يدلّك على أنّ عليّاً عليه السلام اجتهدت قريش كلّها من مبدأ الأمر في إخمال ذِكره وستر فضائله وتغطية خصائصه، حتّى حُجب فضله ومرتبته من صدور الناس كافّة إلّا قليلاً منهم»[2]. وقدّم ابن أبي الحديد تحليلًا رائعاً للأسباب التي حملت قريشاً على بغضه عليه السلام[3].

وذات مرّة قال قائل لأمير المؤمنين عليه السلام: «يا أمير المؤمنين، أرأيتَ لو كان رسولُ اللّه صلى الله عليه وآله ترك ولداً ذَكَراً قد بلغ الحُلم، وآنس منه الرشد، أكانت العربُ تُسلّم إليه أمرها؟ قال: لا، بل كانت تقتلُه إن لم يفعل ما فعلتُ. إنّ العرب كَرِهَت أمَر محمّدٍ صلى الله عليه وآله وحسدته على ما آتاه اللّه من فضله... وأجمعت مذ كان حيّاً على صرفِ الأمر عن أهل بيته بعد موته؛ ولولا أنّ قريشاً جعلت اسمه ذريعةً إلى الرئاسة، وسُلّماً إلى العزّ والإمرة، لَما عبدت اللّه بعد موته يوماً واحداً ولارْتدّت في حافرتها، ... ثمّ فتح اللّه عليها الفتوح، فأثْرَت بعد الفاقة،

١ - شرح النهج ٩: ٢٨.
٢ - نفسه ٨: ١٨.
٣ - نفسه ١٣: ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

وتموّلت بعد الجهد والمخمصة؛ فحَسُن في عيونها من الإسلام ما كان سَمْجاً، وثبت في قلوب كثير منها من الدين ما كان مضطرباً، وقالت: لولا أنّه حقّ لَما كان كذا؛ ثمّ نَسَبتْ تلك الفتوح إلى آراء وُلاتها، وحُسْن تدبير الأمراء القائمين بها، فتأكّد عند الناس نباهةُ قومٍ وخمولُ آخَرين؛ فكنّا نحن ممّن خَمل ذِكرُه، وخبتْ ناره، وانقطع صوتُه وصِيتُه، حتّى أكل الدَّهرُ علينا وشَرِب، ومضتِ السُّنونَ والأحقاب بما فيها، ومات كثير ممّن يعرف، ونشأ كثيرٌ ممّن لا يعرف؛ وما عسى أن يكونَ الولدُ لوكان! إنّ رسولَ اللّهصلى الله عليه وآله لم يقرّبْني ما تعلمونه من القربِ للنسبِ واللُّحمة؛ بل للجهادِ والنصيحة»[1]. وما جَهد الإمامعليه السلام في اغتنام كلّ فرصة ممكنة ليعرّف الناسَ بنفسه ومساعيه من أجل الإسلام في عهد رسول اللّهصلى الله عليه وآله إلّا لأنّه أصبح نسياً منسيّاً بين المسلمين[2].

وكانت علاقات الإمامعليه السلام بأبي بكر واهية جدّاً، ولم يُؤثَر في هذا المجال شيءُ يذكر. أمّا عمر فقد كانت له ذكريات كثيرة في التعامل معه، معظمها مساعداتهعليه السلام له في الشؤون القضائيّة، وأجوبته في بعض استشارات عمر إيّاه، وقد ورد بعضها في (نهج البلاغة). وتجنّب عمر ملاحاتَه للإمامعليه السلام علانيةً، وكان يرعى حرمته في الظاهر. وأمّا عثمان فلم يكن كذلك، إذ لم يتحمّل إبداء الإمامعليه السلام آراءَه، فقال له مرّة: «فواللّه ما أنت عندي بأفضلَ منه [من مروان بن الحكم]!»[3] وذكّر العبّاسُ عثمانَ باللّه في أمر الإمامعليه السلام، فقال عثمان: «أوّلُ ما أُجيبك به أنّي قد شفّعتك، إنّ عليّاً لو شاء لم يكن أحد عندي إلّا دونه»[4]! علماً أنّ الإمامعليه السلام لم يكن مستعدّاً– وإن غضب عثمان وبنو أُميّة – أن

١ – **شرح النهج** ٢٠: ٢٩٨ ـ ٢٩٩.
٢ – انظر على سبيل المثال: **نهج السعادة** ٢: ٢٢٢، ٣١٤.
٣ – **مروج الذهب** ٢: ٣٤٢.
٤ – **أنساب الأشراف** ٥: ١٤ .

يتغاضى عن تبيان انحرافاته وتوجيه الانتقاد إليه؛ ولهذا السبب كانت علاقاته به نُصحيّةً من جهة، وأكثر تدهوراً من جهة أخرى[١]، فقد حدث نزاع ذات يوم بين امرأة من الأنصار وأخرى من بني هاشم، واختصمتا إلى عثمان فأشرك بينهما في الميراث، وقال للهاشميّة: هذا رأي ابن عمّك! يعني عليّ بن أبي طالب[٢].

وكانت معارضة الإمام عليّ عليه السلام للحكومة أمراً عسيراً على عثمان، وقد حاول عليه السلام، لاسيّما في السنين الأولى، أن يتّخذ عزلته وسيلة لتجنّب مواجهة الحكومة. وكان مصير سعد بن عبادة تجربةً مُرّة، وفي الوقت نفسه مُثيراً للعِبرة، فهو لم يبايع أبا بكر، وإذا الخبر يصل إلى المدينة بأنّ الجنّ قتلته بالشام أيّام الخليفة الأوّل أو الثاني، وقد أشار بعض المصادر إلى أنّ قتله كان سياسيّاً![٣]

قال ابن أبي الحديد: «سألتُ النقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد رحمه الله[٤]، فقلتُ له: إنّي لأعجب مِن عليّ عليه السلام كيف بقي تلك المدّة الطويلة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وكيف ما اغتيل وفُتك به في جوف منزله، مع تلظّي الأكباد عليه! فقال: لولا أنّه أرغم أنفه بالتراب، ووضع خدّه في حضيض الأرض لَقُتل، ولكنّه أخمل نفسَه، واشتغل بالعبادة والصلاة والنظر في القرآن، وخرج عن ذلك الزيّ الأوّل وذلك الشعار، ونسي السيف، وصار كالفاتك يتوب ويصير

---

١ - **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣: ١٠٤٥ ـ ١٠٤٦.

٢ - نفسه ٣: ٩٦٧؛ **منتخب كنز العمّال** ٢: ٢٠٤ .

٣ - انظر: **شرح النهج** ١٧: ٢٢٣. ويحتمل قيام خالد بن الوليد بهذا العمل لا أبي بكر (أو عمر في الحقيقة)، ولايعتقد بحال من الأحوال أنّ الجنّ قتلوه. ونُقل خبر قتل الجنّ سعداً عن عبد العزيز بن سعيد بن سعد بن عبادة . وذكر مادلونغ أنّ عبد العزيز لم يدقّق في قتلهم إيّاه، أكان بأمر الله أم بأمر عمر؟! «**خلافة محمّد** صلى الله عليه وآله»: ٥٦.

٤ - انظر بشأنه: «**أبو جعفر النقيب**»، مصطفى جواد، بغداد، ١٩٤٩م.

سائحاً في الأرض، أو راهباً في الجبال. ولمّا أطاع القوم الذين وُلّوا الأمر، وصار لهم أذلّ... تركوه وسكتوا عنه... ولولا ذلك لَقُتل». ثمّ أشار إلى محاولة خالد قتله عليه السلام[1]. وسُئل مؤمن الطاق [محمّد بن النعمان أحد أصحاب الإمام جعفر الصادق عليه السلام]: لِمَ لم يطلب عليّ بحقّه بعد وفاة الرسول إن كان له حقّ؟ فأجاب مُتهكّماً بالقوم: خاف أن يقتله الجنُّ كما قتلوا سعدَ بن عُبادة بسهمِ المُغيرة بن شُعبة![2]

وهذا طبعاً لا يعني أنّه عليه السلام لم يستثمر الفرص المناسبة ولم يَسْعَ إلى بيان حقّه الضائع، وكان عليه السلام قد امتنع من البيعة في المرحلة الأولى لشهور[3]. ويضاف إليه أنّه أخذ بيد زوجته وأولاده في الأيّام الأولى وذهب إلى بيوت الأنصار لاستعادة حقّه المسلوب، وبلغ إصراره درجةً أنّه اتُّهم بالحرص على الخلافة، فقال عليه السلام: وقد قال قائل: إنّك على هذا الأمر يا ابنَ أبي طالب لَحريص! فقلتُ: بل أنتم والله لأحرصُ وأبعد، وأنا أخصّ وأقرب، وإنّما طلَبتُ حقّاً لي وأنتم تَحولون بَيني وبينَه[4]. وله عليه السلام مِثلُ هذا الاستدلال بكثرة، ومنه: يا معشرَ قريش! إنّا أهلَ البيت أحقُّ بهذا الأمرِ منكم، أما كان فينا مَن يقرأ القرآن ويعرف السُّنّة ويدين بدين الحقّ؟![5]

ويتعيّن علينا أن نقول في حكم الإمام عليّ عليه السلام على خلافة الثلاثة الذين سبقوه: لم يكن يوماً ما حُرّاً فيُدلي بحكمه على الشيخَين. أمّا عثمان فعلى

١ – **شرح النهج** ١٣: ٣٠١ ـ ٣٠٢.

٢ – **مناقب آل أبي طالب** ، لابن شهر آشوب ١:٢٧٠؛ **الاحتجاج** ٢:٣٨٠؛ **بحار الأنوار** ٢٩:٤٤٢/ ح٣٦ عن: مناقب آل أبي طالب.

٣ – **أنساب الأشراف** ١:٥٨٥؛ **الكامل في التاريخ** ٢:٣٢٥.

٤ – **نهج البلاغة**: الخطبة ١٧٢؛ **الغارات** ١:٣٠٨.

٥ – **الغارات** ١:٣٠٧.

العكس، إذ كان يتحدّث بما يعتقده، وسبب هذا أنّ جيشه بالكوفة ـ إلّا قليلاً منهم ـ كان يرضى الشيخين، فلم يسعه أن يتحدّث حولهما في أوساطهم، وحين سنحت الفرصة مرّةً، تحدّث في شيء من معاناته ومحنته، ثمّ أحجم عن الكلام بغتةً ولم يواصله، ولمّا طلب منه ابن عبّاس أن يواصل خطبته قال عليه السلام: تلك شِقْشِقةٌ هَدَرت![1]

ومع تلك التقيّة وذلك الاحتياط اللّذين انتهجهما الإمام عليّ عليه السلام، إلّا أنّه رفض شرط عبد الرحمان بن عوف لقبول الخلافة حين عرض عليه أن يعمل بكتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله وسيرة الشيخين [أبي بكر وعمر]، وإذا وافق فالخلافة له. فقال عليه السلام بأنّه يعمل بكتاب الله وسنّة رسوله وعلمه وجهده، وهذا ردّ واضح منه لسيرة الشيخين، إذ كان يرى أنّ قسماً كبيراً منها في الأقلّ كان مخالفاً للقرآن وللسنّة النبويّة، وقائماً على اجتهادٍ غير صحيح. وذكر أيضاً أنّه لايعارض أبا بكر إن أطاع الله[2]. وكلامه عليه السلام في أيّام خلافته، وتعامله مع مختلف القضايا يدلّان على أنّه لم يؤكّد سيرة الثلاثة. ولمّا ظنّه معاوية في رسالة له بحسده إيّاهم والبغي عليهم، قال في جوابه: وزعمتَ أنّي لكلّ الخلفاء حسدتُ، وعلى كلّهم بَغيتُ. فإن يكنْ ذلك كذلك فليست الجناية عليك، فيكون العذرُ إليك... وقلتَ: إنّي كنتُ أُقادُ كما يُقاد الجَمل المَخْشوش حتّى أُبايع؛ ولعَمْرُ الله لقد أردتَ أن تذمَّ فمدحتَ، وأن تَفضحَ فافتَضَحْتَ. وما على المسلمِ مِن غَضاضة في أن يكون مظلوماً ما لم يكنْ شاكّاً في دِينِه، ولا مُرتاباً بيقينِهِ؟!... وما كنتُ لأعتذر مِن أنّي كنتُ أنْقِم عليه أحداثاً[3] [على

١ - **نهج البلاغة**: الخطبة ٣؛ **نثر الدرّ** ١:٢٧٤.

٢ - **الغارات** ١:٣٠٧.

٣ - **نهج البلاغة**: الكتاب ٢٨؛ **وقعة صفّين**: ٨٦ – ٩١. وجاء فيه النصّ الكامل لكتاب معاوية وجواب الإمام عنه.

عثمان].

إنّ قدح الإمام الصريح ـ لاسيّما موقفه في الشورى ـ يدفع الاستناد إلى اتّخاذ شيءٍ من العلاقة السببيّة بينه وبين عمر معياراً لصحّة حكومتهم، بل أنّ مدحه لبعض الخلفاء قياساً ببعض آخر لا يقوم دليلًا على قبوله سيرتهم. وحين أدرك عُقم الاصطدام بذلك الحزب، وعرف أنّ خوض الكفاح ليس في مصلحة الإسلام، نهج سبيل المصالحة. وكان في مواطن عدّة يوجّه بيعته لأبي بكر وقبوله إيّاها، وما اصطُلح عليه من قبول المهاجرين والأنصار إيّاها أيضاً، بالضرورة لحفظ الوحدة بين المسلمين[1]. وكان عليه السلام يتوكّأ في توجيه سكوته على قول هارون لموسى عليهما السلام، إذ قال له: ﴿**إنّي خَشِيتُ أن تقولَ فرّقتَ بينَ بَني إسرائيل**﴾[2]. ورأيه في السقيفة يتجلّى في قوله: بَل عَرَفتُ أنَّ حقّي هو المأخوذ وقد تركتُه لهم، تجاوزاً عنهم[3]. ولم يكن أهل السنّة فيما سبق يرضون بأحقّية أهل البيت عليهم السلام بالخلافة من غيرهم، أي الخلفاء الأُوَل. بيد أنّ الذين تنوّروا منهم اليومَ رضُوا بأنّ بيعة الإمام عليه السلام لأبي بكر كانت من أجل حفظ الإسلام فحسب، وهو يرى نفسَه أحقّ بالخلافة منه[4].

ومهما كان، فإنّ حياته الاعتزاليّة في ذلك المجتمع آيةٌ على أنّه والخلفاء كانوا يعلمون بأنّهم لا يمكنهم التصادم، وهو ما يعني تأييد رأيه فيهم، بخاصّة في قضيّة الخلافة. وفي الوقت نفسه كان التردّد إلى المسجد، وإقامة العلاقات الحياتيّة العاديّة أمرين مألوفَين، حتّى لقد تزوّج الإمام عليّ عليه السلام بعد موت أبي بكر زوجته أسماء بنت عميس، وربّى ابنه محمّد بن أبي بكر في بيته، وكان

١ - انظر: **أنساب الأشراف** ٢: ٢٨١؛ **الغارات**: ١١٠ ـ ١١١.
٢ - طه: ٩٤؛ انظر: **المقنع**: ١٠٩.
٣ - انظر: **وقعة صفّين**: ٩١.
٤ - **تفسير المنار** ٨: ٢٢٤.

محمّد هذا من شيعته المخلِصين، وظلّ من أنصاره الأوفياء الموالين وولاته المخلِصين إلى أن استُشهد بمصر على أيدي جلاوزة معاوية.

نشاط الإمام وأنصاره في بسط التشيّع

يتسنّى لكلّ منصف في عصرنا هذا، وفي ظلّ البحوث التاريخيّة الدقيقة حول أحداث العصر الأوّل للخلافة، أن يُقرّ بوجود «حزب علويّ» و«حزب قرشيّ» منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وبعده في السقيفة وما تلاها، كما يقرّ المؤرّخ المعاصر الشهير عبد العزيز الدوريّ بوجودهما قبل السقيفة[1]. ولهذا الخلاف السياسيّ الذي شُهِد منذ البداية جذرٌ مذهبيّ أيضاً، ثمّ أُضيف إليه الخلاف المذهبيّ على كرور الأيّام. فمثلاً أنّ اعتقاد بعض الصحابة بحُجّيّة القرآن وحده لا غيره في بادئ الأمر موضوعٌ في غاية الأهمّيّة والخطورة. بكلمة أُخرى، إنكار حجّيّة الأوامر النبويّة ونهيُ الناس عن كتابة الحديث ونقلِه، أمرانِ مُهمّان كان لهما بالغ الأثر في علم الدين. وفي المقابل، حين شرط عبد الرحمان بن عوف تسليم الخلافة بالعمل بسيرة الشيخين، ورَفَضَ الإمام عليّ عليه السلام ذلك، فإنّ هذا دلّ على أنّ الخلافات المذهبيّة كانت آخذةً بالاتّساع تدريجاً. وكان عامّة الناس طوال خلافة عمر على فتوى الحكومة، إلّا أنصارَ الإمام عليّ عليه السلام، ولكن عندما أنكر قسم عظيم من الصحابة سيرة عثمان من الوجهة الدينيّة وما أتى به من البدع، احتار الناس في أمر دينهم، فمَن ذا الذي يعتبرون كلامَه ديناً؟ وبتعبير آخر: ممّن يأخذون دينهم ومَن يقلّدون؟

وحلّ الإمام عليه السلام محلّ عثمان، ولم تَنقَدْ له الشام من أوّل الأمر، وسلكت البصرة شيئاً فشيئاً طريقاً آخر وإن كان مؤقّتاً، وفي المدينة نفسها تمرّد نفر من

١ - مقدّمة في تاريخ صدر الإسلام: ٤٨.

الصحابة وإن قلّوا، على بيعة الإمام أو طاعته. وإذا تجاوزنا القضايا السياسيّة، فإنّ المهمّ هو تبيان الدين، لاسيّما في الموارد الخلافيّة أو المستحدثة، وهنا بالذات ظهرت كتلتان سياسيّتان، وطبعاً مذهبيّتان؛ الأولى: هي التي رَضِيت الإمام عليّاًعليه السلام ورأت طاعته فرضاً عليها، وجُلّ رجالها، بل كلّهم لم يرضَوا عثمان، والأُخرى: هي التي لم تخضع له، وناوءَتْه بذريعة ظُلامة عثمان، فلا تفاوت بين الناكثين والقاسطين من هذه الزاوية. ووُضِع هنا المصطلحان: المذهبيّ والسياسيّ ؛ أحدهما: «شيعة عليّ» الذي تميّز تدريجاً بالعنوان الشيعيّ أو «الشيعة»، والآخر: «شيعة عثمان» الذي اشتهر باسم «العثمانيّ» أو «العثمانيّة» شيئاً فشيئاً.

وقابل مصطلحُ الشيعة مصطلحَ العثمانيّة بنحو عامّ وجهاً لوجه، بيد أنّ إطلاق المصطلح على الأشخاص لم يكن على وتيرة واحدة. وكان بين الشيعة من يُسمَّون بهذا الاسم بمجرّد أنّهم ضدّ عثمان ومن مُوالي الإمام عليّ عليه السلام بوصفه الخليفة الشرعيّ، كما كان بينهم من يعتقد نصب رسول اللهصلى الله عليه وآله إيّاه، ويرى نوعاً من الحقّ الإلهيّ لإمامته. علماً أنْ لا ضرورة بأن يمتنع هؤلاء قبل ذلك من التعاون مع الخلفاء الأُوَل، ذلك أنّ الإمامعليه السلام نفسه سكت في تلك الظروف من أجل مصالح إسلاميّة، ونبّه على الأمر مراراً.

ويتعيّن علينا أن نقول بشأن العثمانيّة بأنّ بني أُميّة لم يرضوا خلافة الإمامعليه السلام من الأساس، فلم يعترفوا إلّا بخلافة الثلاثة الذين سبقوه. وهذه نظريّة رسّخوها في القسم الأعظم من الأمّة الإسلاميّة طوال التسعين سنة التي حكموا فيها، لكنّها لم تجد لها أنصاراً في العراق - إلّا البصرة - بل بالعكس، كانت في كلّ فرصة مناسبة تتظاهر في الميدان السياسيّ اعتقاد حقّ العلويّين. ولم يخضع الحجاز أيضاً لسلطة الأمويّين تماماً، بل حاول أن يحافظ على

نظريّة أُخرى تكتفي بسيرة الشيخين وشرعيّتها ودعمها. وطرأت تغييرات عامّة على هذا التقسيم خلال التطوّرات السياسيّة والدينيّة في القرون الثلاثة الأولى.

وما يرتبط ببحثنا هنا هو أن ندلّ على وجود اعتقاد «النصّ الإلهيّ» على إمامة الإمام عليّ عليه السلام - الأمر الذي يستوسق حقيقة المذهب الشيعيّ متميّزاً في أصل الدين - عند الفرقة التي كانت تُعرف بالشيعة في عصره عليه السلام. ونستعرض فيما يأتي النصوص التاريخيّة والأدبيّة؛ لنعرض الاعتقاد للنصّ والنصب الإلهيّ للإمام عليه السلام عند الصحابة وبعض التابعين.

فقد كان خزيمة بن ثابت يقول بعد بيعة الإمام عليه السلام: «إنّا قد تشاورنا واخترنا لديننا ودنيانا رجلًا اختاره لنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله فبايعناه».[1] وقال ابن عبّاس لعمر الذي كان يقول: «كَرِهَت قريشٌ أن تجتمع لكم النبوّةُ والخلافة»: «كرهوا ما أنزل الله».[2] وقالت دارمية الحجونيّة لمعاوية وهي تبيّن له سبب حبّها للإمام عليّ عليه السلام: واليتُ عليّاً على: حبِّه المساكين، وإعطائِه أهلَ السبيل، وفقهه في الدِّين، وبذلِه الحقَّ مِن نفسه، وما عقَدَ له رسولُ الله من الولاية.[3] وروى الطبريّ أنّ الإمام عليّ عليه السلام حين رجع إلى الكوفة بعد حرب صفّين وفارقه الخوارج، صمد معه الشيعة قائلين: في عنقنا بيعة أخرى نحن أولياءُ مَن واليتَ، وأعداءُ مَن عاديتَ.[4] وقال الإسكافيّ: بايع الناس عليّاً عليه السلام على كتاب الله وسنّة نبيّه، وبايعه شيعته على أنّهم أولياءُ مَن والى وأعداءُ مَن

---

١ - المعيار والموازنة: ٥١.

٢ - الإيضاح:٨٨؛ شرح النهج ١٢:٥٣.

٣ - الوافدات من النساء على معاوية:٤١.

٤ - تاريخ الطبريّ ٥:٦٤؛ أنساب الأشراف ٢:٣٤٨.

عادي[1]. وتأكيد هذه البيعة بوصفها البيعة الثانية، وكذلك مضمونها، علامتان على الاتّجاه الشيعيّ عند هذا الفريق من المبايعين، وفي أصل الخبر التأكيد أنّ «شيعة عليّ» هكذا بايعوا.

وكان أبو ذرّ الغفاريّ الذي تُوفّي في عهد عثمان يدعو الناس إلى أهل البيت عليهم السلام، ويُشيد بأهل البيت النبويّ قائلًا: أيُّها الناس، إن آل محمّدٍ هم الأُسرة من نوح، والآلُ مِن إبراهيم، والصفوةُ والسُّلالة من إسماعيل، والعترةُ الطيّبة الهادية من محمّد، فأنْزِلُوا آلَ محمّدٍ بمنزلة الرأس مِن الجسد، بل بمنزلة العينَين من الرأس، فإنّهم منكم كالسماء المرفوعة، وكالجبال المنصوبة، وكالشمس الضاحية، وكالشجرة الزيتونة، أضاء زيتُها، وبُورك زندُها. ومحمّدٌ وارثُ علمِ آدم وما فُضِّل به على النبيّين، وعليُّ بن أبي طالب وصيُّ محمّدٍ ووارثُ علمه. وخاطب الناسَ قائلًا: أيتُّها الأمّة المتحيّرة بعد نبيّها! أما لو قدّمتُم مَن قَدّم اللهُ، وأخّرتُم مَن أخّر اللهُ، وأقررتُم الولايةَ والوراثة في أهل بيتِ نبيِّكم، لأكلتُم مِن فوقِ رؤوسكم ومِن تحتِ أقدامكم[2]. وكان يقول أيضاً: «أيّها الناس! إنّه ستكون فتنة، فإن أدركتموها فعليكم بكتاب الله وعليٍّ بن أبي طالب».[3] ولمّا نُفيَ أبو ذرّ إلى الربذة، وشايعه الإمام عليّ وابناه عليهم السلام، نظر إلى الإمام عليّ عليه السلام فقال له: «إنّي إذا رأيتُك ورأيتُ وُلدَك ذكرت قولَ رسول الله صلى الله عليه وآله، فلم أصبر حتّى أبكي».[4]

وكان سلمان أيضاً يأسف على الناس لوجود الإمام عليه السلام بينهم وهم

١ - المعيار والموازنة: ١٩٤.
٢ - نثر الدرّ ٥ :٧٧؛ تاريخ اليعقوبيّ ٢:١٧١.
٣ - أنساب الأشراف ٢:١١٨.
٤ - تاريخ اليعقوبيّ ٢:١٧٣.

لايفيدون منه، ويقول: «فوَالذي نفسي بيده، لايخبركم أحدٌ بسرٍ نبيّكم بعده».[١]
ونقل المقداد عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّ «معرفة آل محمّد» براءةٌ من النار، و«حبّ آل محمّد» جوازٌ على الصراط، و«ولاية آل محمّد» أمانٌ من العذاب[٢]. وروى عمّار عنه عليه السلام أنّه قال: «أُوصي مَن آمن بالله وصدّقني بولاية عليّ بن أبي طالب، مَن تولّاه فقد تولّاني، ومن تولّاني فقد تولّى الله، ومن أحبّه فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبَّ الله عزّ وجلّ».[٣] ومثل هذه الأخبار المنقولة عن أبي ذرّ، وسلمان، وعمّار، والمقداد، والتي تدلّ على عقيدتهم الشيعيّة كثير جدّاً.

قال أبو حاتم الرازيّ في تعريف «الشيعة»: هذا لقبُ مَن والى عليّاً عليه السلام في حياة النبيّ صلى الله عليه وآله، مثل: سلمان، وأبي ذرّ الغفاريّ، والمقداد بن الأسود، وعمّار بن ياسر، وغيرهم. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله في هؤلاء الأربعة: «تشتاقُ الجنّةُ إلى أربعة: سلمان، وأبي ذرّ، والمقداد، وعمّار[٤]».

وقالت أم سنان بنت خيثمة بن خرشة في وصف الإمام عليّ عليه السلام تخاطبه:

قد كنتَ بَعدَ محمّدٍ خَلَفاً لَنا … أُوصى إليكَ بنا فكنتَ وَفيّا[٥]

وكانت أمّ الخير يوم صِفّين تحرّض جند الإمام على القتال قائلةً: هَلِمُّوا رَحِمَكُم اللهُ إلى الإمام العَدل، والتقيِّ الوفيّ، والصِّدّيق الوصيّ[٦]. وعنوان

---

١ - **أنساب الأشراف** ٢:١٨٣.
٢ - **سنن ابن ماجة** ٢:١٢٧٠، الرقم ٣٨٦٢.
٣ - **الموفقيّات**: ٣١٢؛ **ذخائر العقبى**:٩٥.
٤ - **كتاب الزينة**: ٢٥٩.
٥ - **الوافدات**:٢٤.
٦ - نفسه: ٢٩؛ **بلاغات النساء**: ٦٧؛ **تاريخ دمشق**، تراجم النساء:٥٣١.

«الوصيّ» الذي يطلقه هؤلاء وكثير من شيعة الإمام عليه السلام يعني أنّ تصوّرهم عنه يفوق عنوان الخلافة التي أتته بعد بيعة الناس، وقد وردت في المصادر أشعار كثيرة تدلّ على تداوله عند رجال مثل: حُجْر بن عَدِيّ، وابن التَّيِّهان، وابن عجلان، وسواهم من أنصاره وشيعته عليه السلام[1].

وعندما كان مالك الأشتر يدعو الناسَ إلى بيعة أمير المؤمنين عليه السلام، كان يقول: هذا وَصيُّ الأوصياء، ووارثُ علم الأنبياء[2]. وأنشد في صفّين:

مَن رأى عِزّةَ الوصيِّ عليٍّ   أنّه في دُجى الحَنادسِ نورُ[3]

وقالت أمّ عِربان في رثائه:

وكُنّا قبلَ مَقْتلِهِ بخيرٍ   نَرى«مولى رسول الله»فينا[4]

ولدينا أشعار كثيرة عن عددٍ من الصحابة الذين كانوا من حُماته عليه السلام في تفسير حديث الغدير بمعنى الولاية والقيادة، ومثالها: أشعار قيس بن سعد بن عُبادة، وحسّان بن ثابت، وأيضاً الأشعار المنسوبة إليه عليه السلام[5]، فلقيس بن سعد في الغدير قوله:

---

١ – **وقعة صفّين**: ١٨، ٢٣، ٤٦، ٣٨١، ٣٨٥، ٤١٦، ٤٣٦؛ **شرح النهج** ١:١٤٣ – ١٥٠؛ **مختصر تاريخ دمشق** ١١:٢٢٩؛ **الفصول المختارة**: ٢١٧ – ٢١٨؛ وانظر: **نهج الصباغة** ٣:٥٥ – ٥٧؛ **أنساب الأشراف** ٢:٢٤٦؛ **الفتوح** ٢: ٢٧٠، ٤٨٤ و ٣: ٢٤٦

٢ – **تاريخ اليعقوبيّ** ٢:١٧٩.

٣ – **الفتوح** ٣:٢٢٦.

٤ – **مقتل عليّ بن أبي طالب** عليه السلام، لابن أبي الدنيا، **مجلّة تراثنا**، العدد ١٢، صفحة ١٢٦.

٥ – انظر: **الغدير** ٢:٢٥، ٣٤، ٧٨ عن مصادر عديدة؛ **المقنع في الإمامة**: ٧٥ – ٧٦. وفي هامشه عن مصادر عديدة . ونُقل البيتان الآتيان عن حسّان في «**تاريخ اليعقوبيّ**» ٢:١٢٨؛ **والمقنع**:١٣٣، ومصادر أُخرى:

حَفِظْتَ رسولَ الله فينا وعهدَهُ   إليكَ، ومَن أولى بهِ منكَ مِنْ ومَنْ!

ألستَ أخاهُ في الإخا ووصيّهُ   و أعلَم فِهراً بالكتاب وبالسُّنَنْ!؟

عليٌّ إمامنا وإمامٌ لِسوانا أتى به التنزيلُ
يوم قال النبيُّ: مَن كنتُ مَولا هُ فذا مَولاهُ خَطْبٌ جَليلُ
إنّ ما قالَ النبيُّ عَلى الـ أمّة حتمٌ ما فيه قالٌ وقِيلُ[١]

وأنشد حسّان بن ثابت في يوم الغدير:

يُناديهِمُ يومَ الغديرِ نَبيُّهمْ بِخُمٍّ وأسمِعْ بالرسولِ مُناديا
فقالَ لهُ: قُمْ يا عليُّ فإنّني جَعلتُكَ مِن بَعدي إماماً وهاديا[٢]

ويدلّ مجموع هذه الأخبار على تبلور تيّار ينظر إلى الإمام عليّ عليه السلام - من خلال مصاديق عديدة - إماماً نصبه رسول الله صلى الله عليه وآله، ويعتقد أنّ حقّه يكمن في «وصايته» صلى الله عليه وآله، ويريد من الآخرين اتّباعه بوصفه عليه السلام وصيَّه صلى الله عليه وآله، وكان ابن التيّهان يقول: «إنّ الوصيَّ إمامُنا ووليُّنا»، وكان ابن عجلان يقول: «كيف التفرّقُ والوصيُّ إمامُنا[٣]!»، وكذلك كان حُجْر بن عَديّ يقول:

واحفَظْه ربّي واحفَظِ النبيّا فيه فقد كان له وليّا
ثمّ ارتضاه بعدَه وصيّا[٤]

والتقى بالخوارج رجل يُدعى «زادان فروخ» وكان حديث العهد بالإسلام، فسألوه ـ وهو في الطريق ـ عن الإمام عليه السلام، قال: «إنّه أميرُ المؤمنين، ووصيُّ رسول الله صلى الله عليه وآله، وسيّدُ البشر»[٥]، فقتلوه! ووصفه محمّد بن أبي بكر في رسالته المعروفة إلى معاوية بأنّه وارثُ رسول الله ووصيُّه[٦]. وأُثر عن عبادة ابن

---

١ - **الغدير** ٢:٦٨.

٢ - نفسه ٢:٣٤.

٣ - **شرح النهج**، لابن أبي الحديد ١ : ١٤٣ ، ١٤٩.

٤ - نفسه ١:١٤٥.

٥ - **الغارات**: ١٢٣.

٦ - **وقعة صفّين**: ١١٨ - ١١٩. وانظر بشأن استعمال كلمة الوصاية في مواطن عديدة أخرى: **معالم المدرستين** ١:٢٩٥ - ٣٢٨.

الصامت شعرٌ في وصايته عليه السلام، وكان قد أنشده يوم السقيفة[1].

وتُعدّ الأعمال التي قام بها الإمام عليه السلام نفسه لبثّ عقيدة «الإمامة الإلهيّة» من الأسباب الرئيسة لانتشار التشيّع منذ عصر خلافته عليه السلام فما تلاه، وكان عليه السلام قد أنشد في محتوى حديث الغدير وتفسيره بوجوب ولايته عليه السلام على الناس قائلاً:

فأوجَبَ لي ولايتَه عليكُمْ   رسولُ الله يومَ غديرِ خُمٍّ[2]

وأبان عليه السلام هذا الموضوع مفصّلًا في رسالة طويلة إلى معاوية، وتعرض هذه الرسالة نقاطاً رائعة حول دوره في نشر عقيدة الولاية الشيعيّة. ولمّا كان لها بالغ الشأن والأهميّة من وجهة «الاعتقاد الإماميّ»، فإنّنا ننقل فيما يأتي أقسامها الرئيسة:

«قال الله : ﴿**أَطِيعوا اللهَ وأَطيعُوا الرسُولَ وأُولى الأَمْرِ مِنْكُم**﴾، هي لنا أهلَ البيت، ليست لكم. ثمّ نهى [القرآن] عن المنازعة والفُرقة، وأمرَ بالتسليم والجماعة، فكنتم أنتم القوم الذين أقررتم لله ولرسوله بذلك، فأخبركم الله أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله لم يكُ أبا أحدٍ مِن رجالِكُم ولكنْ رسولَ اللهَ وخاتَمَ النَّبيِّين. وقال عزّ وجلّ: ﴿**أَفَإِن مّاتَ أَو قُتِلَ انْقلبتُم عَلى أعقابِكُم**﴾؟! فأنت وشركاؤك - يا معاوية - القومُ الذين انقلبوا على أعقابهم وارتدّوا، ونقضوا الأمر والعهد فيما عاهدوا الله ونكثوا البيعة، ولم يضرّوا الله شيئاً. ألم تعلم يا - معاوية - أنّ الأئمّة منّا ليست منكم؟! وقد أخبركم الله أنّ أُولي الأمر المستَنبطو العلم وأخبركم أنّ الأمر كلّه الذي تختلفون فيه يُردّ إلى الله وإلى الرسول وإلى أُولي الأمر المُستنبِطي العلم. ﴿**ومَن أوفى بما عاهد عليه الله**﴾، يجدِ الله مُوفياً بعهده... نحن

---

١ - **المقنع في الإمامة**:١٢٥. للاطّلاع على أشعار أخرى ينظر نفس المصدر: ١٢٦- ١٢٧.

٢ - **الغدير** ٢٥:٢، عن «**شرح النهج**» ٣٧٧:٢؛ **تذكرة الخواص**:٦٢ ومصادر أخرى.

آلُ إبراهيم المحسودون، وأنت الحاسدُ لنا... وطائفةٌ من بني إسرائيل ﴿**إذ قالوا لنبيٍّ لهم ابعَثْ لَنا مَلِكاً نُقاتلْ في سَبيلِ الله**﴾، فلمّا بعث الله لهم طالوتَ مَلِكاً حسدوه و﴿**قالوا أنّى يكونُ لَهُ المُلْكُ عَلَينا**﴾! وزعموا أنّهم أحقُّ بالمُلك منه. كلّ ذلك نقصّ عليك من أنباء ما قد سبق، وعندنا تفسيره وعندنا تأويله، وقد خاب مَن افترى. ونعرف فيكم... ألا ونحن أهل البيت آلُ إبراهيم المحسودون، حُسِدنا كما حُسِد آباؤنا مِن قَبلنا سُنّةً ومَثَلًا. قال الله: و﴿**آل إبراهيم**﴾ و﴿**آل لوطٍ**﴾ و﴿**آل عِمران**﴾ و﴿**آل يعقوب**﴾ و﴿**آل موسى**﴾ و﴿**آل هارون**﴾ و﴿**آل داود**﴾، فنحن آلُ نبيّنا محمّدٍ صلى الله عليه وآله. ألم تعلم يا معاوية ﴿**إنّ أولَى النّاسِ بإبراهيم لَلّذين اتّبعُوه وهذا النبيُّ والّذين آمنوا**﴾؟! ونحن أُولو الأرحام، قال الله تعالى: ﴿**النَّبيُّ أَولى بالمؤمنينَ مِنْ أنْفُسِهِم وأزواجُه أُمّهاتُهُم، وأُولُوا الأَرحامِ بَعضُهُم أَولى بِبعضٍ في كتابِ الله**﴾. نحن أهل البيت، اختارنا الله واصطفانا، وجعل النّبوّة فينا والكتابَ لنا، والحكمة والعلم والإيمان وبيت الله ومسكن إسماعيل ومقام إبراهيم، فالمُلْك لنا، وَيْلَك يا معاوية، ونحن أُولى بإبراهيم، ونحن آلهُ وآلُ عِمران وأُولى بعِمران... وآل محمّدٍ وأُولى به.

ونحن أهل البيت الّذينَ أذْهَبَ الله عَنْهُمُ الرِّجْسَ وطَهَّرَهُمْ تَطْهيراً. ولكلّ نبيٍّ دعوةٌ في خاصّة نفسه وذرّيّته وأهله، ولكلِّ نبيٍّ وصيّةٌ في آله. ألم تعلم أنّ إبراهيم أوصى بابنه يعقوب، ويعقوب أوصى بنيه إذ حضرَه الموت؟! وأنّ محمّداً أوصى إلى آله سنّة إبراهيم والنبيّين اقتداءً بهم كما أمره الله... .

وعلينا نزل الكتاب، وفينا بُعِث الرسول، وعلينا تُلِيت الآيات، ونحن المنتحلون للكتاب والشهداء عليه، والدُّعاة إليه والقُوّام به، ﴿**فبِأيِّ حَديثٍ بَعدَه يُؤْمِنُون**﴾؟! أفغيرَ الله - يا معاوية - تبتغي ربّاً، أم غير كتابه كتاباً؟! أم غير

الكعبة بيتِ الله ومسكن إسماعيل ومقامِ أبينا إبراهيم تبغي قبلةً؟! أم غيرَ ملّته تبغي ديناً؟! أم غير الله تبغي مَلِكاً؟! فقد جعل الله ذلك فينا.

فقد أبديتَ عداوتك لنا وحسدَك وبُغضك، ونقضَك عهد الله، وتحريفك آيات الله، وتبديلَك قولَ الله، قال الله لإبراهيم: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ**﴾[البقرة: ١٣٢]، أفتَرغبُ عن ملّتِه وقد اصطفاه الله في الدنيا وهو في الآخرة من الصالحين؟! أم غَير الله تبغي حُكماً؟ أم غَير المستحفظ منّا تبغي إماماً؟ الإمامة لإبراهيم وذُرّيّته، والمؤمنون تَبَعٌ لهم لا يرغبون عن ملّته، قال: ﴿**فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي**﴾ [إبراهيم: ٣٦] ».

واضطرب معاوية لنسبة الإمامعليه السلام نفسَه في الرسالة المذكورة إلى الأنبياء، واعتقادِه بقرابتهِ لهم جميعاً، فكتب إليه قائلاً: «و لم تَرضَ بقرابتك من محمّدصلى الله عليه وآله حتّى انتسبتَ إلى جميع النبيّين. ألا وإنّما كان محمّد رسولاً من الرسل إلى الناس كافّةً، فبلّغ رسالات ربّه لا يملك شيئاً غيره... فأخبرْنا ما فضلُ قرابتك؟ وما فضل حقّك؟ وأين وجدتَ اسمك في كتاب الله؟ ومُلكَك وإمامتك وفضلك؟ ألا وإنّما نقتدي بمن كان قبلنا من الأئمّة والخلفاء الذين اقتديت بهم، فكنت كمن اختار ورضي، ولسنا منكم».

ثمّ أشار إلى وراثته لعثمان!

فكتب إليه الإمامعليه السلام واصماً إيّاه بعداء الأنبياء، وحبّه لأجداده الكافرين، فقال له: «ألا وإنّما نحن أهلَ البيت كذلك، لا يحبّنا كافر، ولايبغضنا مؤمن... والذي أنكرتَ من إمامة محمّدصلى الله عليه وآله زعمتَ أنّه كان رسولاً ولم يكن إماماً، فإنّ إنكارك على جميع النبيّين الأئمّة، ولكنّا نشهد أنّه كان رسولاً نبيّاً إماماًصلى الله عليه وآله... والذي أنكرتَ مِن قرابتي وحقّي، فإنّ سهمنا وحقّنا في كتاب الله قسمه لنا

مع نبيّنا، فقال: ﴿وأعلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ ولِلرّسولِ ولِذى القُربى﴾[1]، وقال: ﴿فَآتِ ذَا القُربى حَقَّهُ﴾[2]، أوَلَيسَ وجدتَ سهمنا مع سهم الله ورسولِهِ، وسهمَك مع الأبعدين؟! وأنكرت إمامتي وملكي، فهل تجد في كتاب الله قوله لآل إبراهيم: واصطَفاهُم عَلَى العالمين[3]، فهو فضّلنا على العالمين... فإن استطعت أن تُفرّق بيننا وبين إبراهيم - صلوات الله عليه - وإسماعيل ومحمّد صلى الله عليه وآله في كتاب الله، فافعل[4]»!

وهذه الرسالة ذكرها أبو إسحاق الثقفيّ، أحد المؤرّخين الشيعة في القرن الثالث الهجريّ (م ٢٨٣هـ)، ويُلحظ فيها بوضوح بيان أمير المؤمنين عليه السلام للإمامة الإلهيّة وجوانبها الاستدلاليّة المتنوّعة، وأهمّ ما فيها إقرار الصلة بين النبوّة والوصاية والإمامة، وإثباتها كخطٍّ أصيل في تاريخ الأنبياء. ومن الملاحظات اللّافتة للنظر فيها إنكار معاوية إمامة رسول الله صلى الله عليه وآله . وفي أيّ حال، جَهَد الإمام عليه السلام في كثير من كلامه لإثبات أفضليّة «أهل البيت» على الآخرين، ووجود الحقّ الإلهيّ فيهم، وذهب عليه السلام من خلال إثبات هذا الحقّ إلى أنّ الإمامة شرطه، ومن الطبيعيّ أنّه منفيٌّ عن سائر الخلفاء غير أهل البيت الموصى بهم من قبل رسول الله، بأمر الله.

ومن الأدلّة الأُخرى أيضاً هو الهويّة الشيعيّة على أساس نوعٍ من الإمامة الإلهيّة في الآثار التي وصلت إلينا من الإمام عليه السلام، فقد قال في سياق خطبة له في أهل البيت عليهم السلام: هم مَوضعُ سِرِّه [سِرّ النبيّ صلى الله عليه وآله] ولَجأ أمرِه، وعَيبةُ علمِه،

---

١ - الأنفال: ٤١.

٢ - الروم: ٣٨.

٣ - إشارة إلى الآية ٣٣ من آل عمران: ﴿إنّ الله اصْطفى آدمَ ونُوحاً وآلَ إبراهيمَ وآلَ عِمرانَ عَلَى العالَمين﴾.

٤ - الغارات ١: ١٩٥ — ٢٠٤.

ومَوْئلُ حُكمِه، وكهوفُ كُتُبه، وجبالُ دِينِهِ، بِهم أقامَ انْحِناءَ ظَهْرِه، وأذهَبَ ارتعادَ فرائِصِه[1]. وقال في موضع آخر: فَأينَ تذهبون؟ وأنّى تُؤفكون! والأعلامُ قائمة، والآيات واضحة، والمَنارُ منصوبة. فأين يُتاهُ بكم؟ وكيفَ تَعْمَهون وبينَكم عِترةُ نبيِّكم؟! وهُم أزمّةُ الحقّ، وأعلامُ الدين، وألْسِنةُ الصِّدق! فأنْزِلوهم بأحسنِ مَنازل القرآن، ورِدُوهم وُرُودَ الهيم العِطاش[2].

وقال في موطن آخر: نحنُ شجرةُ النبوّة، ومَحَطُّ الرسالة، ومُختلَفُ المَلائكة، ومَعادِنُ العِلم، وينابيعُ الحُكم، ناصِرُنا ومُحبُّنا ينتظرُ الرحمة، وعدوُّنا ومُبغضُنا ينتظرُ السَّطْوة[3].

وجاء في محلّ آخر: هم عيشُ العِلم، ومَوتُ الجهل، يُخبرُكم حِلْمُهم عَن عِلمِهم، وظاهرُهُم عن باطِنِهم، وصَمتُهم عن حِكمَ مَنطقِهم. لا يُخالِفون الحقّ ولا يختلفون فيه. وهم دعائمُ الإسلام، وولائجُ الاعتصام. بهم عادَ الحقُّ إلى نِصابه، وانزاحَ الباطلُ عَن مُقامِه، وانقطعَ لسانُه عن مَنْبِته. عَقلُوا الدِّين عَقلَ وِعايةٍ ورِعاية، لا عَقْلَ سَماعٍ ورواية، فإنّ رُواةَ العِلمِ كثير، ورُعاتَه قليل[4].

وورد في موضع آخر: ألا إنّ أبرارَ عِترتي، وأطايب أرومَتي، أحلمُ الناسِ صغاراً، وأعلمُ الناسِ كباراً. ألا وإنّا أهلُ بيتٍ مِن علم الله عَلِمْنا، وبِحُكمِ الله حَكَمْنا، ومِن قول صادق سَمِعْنا. فإنْ تَتَّبِعُوا آثارَنا تهتدوا ببصائرنا، وإن لم تفعلوا يُهْلِكْكُم اللهُ بأيدينا. ومَعَنا رايةُ الحقّ، مَن تَبِعها لَحِق، ومن تأخّر عنها غَرِق[5].

---

١ – **نهج البلاغة**: الخطبة٢؛ **ربيع الأبرار**٣: ٥٣٦.

٢ – **نهج البلاغة**، الخطبة٨٧

٣ – نفسه، الخطبة ١٠٩.

٤ – نفسه، الخطبة ٢٣٩.

٥ – **نثر الدرّ** ١: ٢٧٢؛ **عيون الأخبار** ٢: ٢٣٦؛ **العقد الفريد** ٤: ١٥٧ (دار الكتب العلميّة)؛ **شرح**

وقال عليه السلام في موضع آخر: قَدْ خاضُوا بحارَ الفتن، وأخذوا بالبدعِ دُونَ السُّنن. وأرزَ المؤمنون، ونَطَق الضالّون المكذِّبون. نحن الشِّعارُ والأصحاب، والخَزَنَةُ والأبواب، ولا تُؤتَى البُيوتُ إلاّ مِن أبوابها، فمَنْ أتاها مِنْ غيرِ أبوابها سُمِّي سارقاً. ومنها: فيهم كرائمُ القرآن، وهم كُنوزُ الرحمن. إنْ نطقُوا صَدَقوا، وإن صَمَتوا لم يُسبَقوا[1].

وجاء في موطن آخر: أينَ الذينَ زَعَموا أنَّهُم الراسخونَ فِي العِلمِ دونَنا كَذِباً وبَغْياً علينا، أن رفَعَنا اللهُ ووَضَعَهُم، وأعطانا وحَرَمَهُم، وأَدْخَلَنا وأخرَجَهم؟! بنا يُستعطَى الهُدى، ويُستجلَى العَمى. إنَّ الأئمّةَ مِن قُريش غُرِسُوا في هذا البطنِ مِن هاشمٍ، لا تَصلُحُ على سِواهُم، ولا تَصلُحُ الوُلاةُ مِنْ غيرِهِم[2].

نلحظ في هذه الكلمات والرسالة التي سبقها أنّ الإمام عليه السلام يعرض فيها نوعاً من «الوراثة النبويّة» لانتقال حقّ الإمامة والقيادة، وهذه الوراثة ليست الوراثة التي تُستعمَل لانتقال الحقوق المادّيّة، بل هي الوراثة الإلهيّة المقرونة: بالوصاية، والعلم، والحكمة، والطهارة، والعصمة. وهي العقيدة التي أقرّها القرآن الكريم للأنبياء، وطلبها إبراهيم عليه السلام لِبَنيه عليهم السلام، فقال تعالى:﴿**لايَنالُ عهْدِي الظّالِمِين**﴾و عرّف سبحانه الأنبياء عليهم السلام بأنّهم ذُرّيّةٌ بعضُها مِن بعض، إلّا أنّ لمفهوم الاجتباء في ذلك دوراً محوريّاً[3]. وحَسِب بعضُ المناوئين أنّ هذه الوراثة نوع من الوراثة الأُسَريّة العاديّة، فاتّهموا الشيعة بمثل هذه النظرية في باب الإمامة، في حين أنّ الشيعة تعتقد النصّ على الإمام من الله تعالى وتبلور

النهج ١:٢٧٦؛ **البيان والتبيين** ٢:٥٢.

١ - **نهج البلاغة**، الخطبة ١٥٤.

٢ - نفسه، الخطبة ١٤٤.

٣ - انظر: الأنعام: ٨٤ – ٨٧، آل عمران: ٣٨، مريم: ٥٨، العنكبوت: ٢٧، الحديد:٢٦.

هذا النصّ طبعاً في إطار الوراثة الإلهيّة في الأنبياء، والمذكورة في العقيدة القرآنيّة أيضاً. قال الإمام أمير المؤمنينعليه السلام في رسالة تحدّث فيها حول نزاعه لقريش وهو يذكر تأكيده للخلافة: أأنا أحرصُ إذا طلبتُ تُراثي وحَقّي الّذي جَعَلَني اللهُ ورسوله أولى به[١]؟! وجاء التراث والحقّ الإلهيّ في هذا التعبير متقارنَين.

والأوضح ممّا سبق استناد الإمام أمير المؤمنينعليه السلام إلى حديث الغدير، ففي بدء دخوله الكوفة – بعد قمع الناكثين في الجَمل[٢] – جمع أهلَها ومَن تبقّى من الصحابة الذين كانوا معه في مسجد الكوفة، كما صرّحت به عشرات المصادر السنّيّة، واستشهدَ من شهد الغدير وسَمِع حديثَه من رسول اللهصلى الله عليه وآله [طلب منهم أن يقوموا مِن مكانهم فيشهدوا أنّهم حضروا الغدير وسمعوا حديثه عن النبيّصلى الله عليه وآله]، فشهد عددٌ كبير منهم بصحّته، وفيهم اثناعشر بدريّاً[٣]. والاستناد إلى هذا الحديث بين عامّة الناس لا يعني إلّا أنّ الإمامعليه السلام كان يتحدّث عن «حقّه الإلهيّ» في باب «الولاية» ويستند إليه[٤]. وثقافة «الحُجّة» في القرآن الكريم تؤيّد رؤيته الولائيّةعليه السلام أيضاً. وهذا مفهوم طبّقه الإمامعليه السلام في الأنبياء وغيرهم، أي الذين جعلهم الله تعالى في عدادهم بين الناس. قالعليه السلام: لم يُخْلِ اللهُ سبحانه خَلْقَه مِن نبيٍّ مُرسَل، أو كتابٍ مُنزَل، أو

١ – **الغارات** ١:٣٠٨.

٢ – كان السنّة دائماً يتملّصون من التفاعل مع المعنى الصحيح للولاية وحديث الغدير، والخبر الآتي مثال صريح على هذا التملّص، قال أبو طالب أحمد بن حميد المشكانيّ: قلتُ لأحمد ابن حنبل: ما وجهُ قول النبي صلى الله عليه وآله لعليّ: مَن كنتُ مَولاه فعليٌّ مولاه؟ فقال: «لا تتكلّم في هذا، دع الحديث كما جاء». انظر: **السنّة**، ابن الخلال ١:٣٤٦ – ٣٤٧ ، ٣٤٨

٣ – **الغدير** ١:٦٦ عن مصادر سُنّيّة عديدة، وانظر:**أنساب الأشراف** ٢:١٥٦.

٤ – استند الإمام عليه السلام قبل ذلك بحديث الغدير إلى طلحة يوم الجمل. انظر: **مختصر تاريخ دمشق** ١١:٢٠٤.

حُجّة لازمة، أو محجّة قائمة.[١]

وقال عليه السلام في موضع آخر: اَللّهمَّ بلى! لا تَخْلُو الأرضُ من قائمٍ لله بحُجّة، إما ظاهراً مَشْهوراً، وإمّا خائفاً مَغْموراً، لئلّا تبطُلَ حُجَجُ الله وبيِّناتُه.[٢] وحين كتب إلى أحد مسؤولي الصدقات يعلّمه كيف يتعامل مع الناس، أمره أن يذهب إلى القبائل ويقول: عبادَ الله، أرسلَني وليُّ الله وخليفتُه لآخذ مِنكُم حقَّ الله في أموالِكم.[٣] وقوله: وليُّ الله وخليفتُه الذي أطلقه على نفسه، مفهومان شيعيّان تماماً.

ومهما كان، فإنّ اعتقاد النصّ عقيدة تبلورت إبّان خلافة الإمام عليّ عليه السلام وهي تؤلّف في الأصل الهويّة الأصليّة للفكر الشيعيّ في باب الإمامة. وكان عليه السلام - خلال سِنيّ خلافته، وفي خطب عديدة يشير فيها إلى ما سيقع في المستقبل تحت عنوان «الملاحم والفتن» - يرسم له صورة تُنبئ عن أنّه لم يكن في مستوى خليفة عاديّ، فكان عليه السلام يخبر عن المستقبل بنحو خاصّ، وليس بوصفه مُحلّلًا سياسيّاً، بل إماماً وصيّاً محدَّثاً. وكانت جاذبيّة شخصيّته عليه السلام للعارفين والصوفيّين تضرب جذورها في عمق العرفان الإلهيّ، كما مثّلت انطباعاً عرّفه للجميع كشخصيّة جديرة بالمعنى الكامل للولاية ولهذه كلّها عمقٌ في سلوكه وكلماته عليه السلام، حتّى إنّه كان على المنبر يصرّح بأنّه يعلم كلّ شيء، ويطلب من عامّة الناس أن يسألوه قبل أن يفقدوه عن كلّ شيء.[٤]

ومن المناسب في ختام هذه الأمثلة أن نذكر موضوعاً مهمّاً آخر أيضاً،

١ - **نهج البلاغة**: الخطبة ١.

٢ - نفسه، **الكلمات القصار**: الحكمة ١٤٧.

٣ - **نهج البلاغة**: الكتاب ٢٥.

٤ - انظر: **نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة** ٢:٣١٤، ٦٢٧.

فحينما تهيّأت عائشة للتمرّد على الإمامعليه السلام، حاولت المرأة الرزينة، أمّ المؤمنين أمُّ سَلَمَة أن تصدَّها عن الذهاب، فأنكر عليها عبد الله بن الزبير ذلك وقال: «إنّنا عَرَفنا عداوتكِ لآل الزبير! فقالت أمّ سلمة: ... أتطمع أن يرضى المهاجرون والأنصار بأبيك الزبير وصاحبه طلحة، وعليٌّ بن أبي طالب حيّ، وهو وليٌّ كلِّ مؤمنٍ ومؤمنة»؟! [كما قال فيه رسول اللهصلى الله عليه وآله ذلك]، فقال عبد الله ابن الزبير: «ما سَمِعنا هذا من رسول الله ساعةً قطّ»، فقالت أمّ سلمة: «إن لم تكن أنتَ سَمِعتَه، فقد سَمِعَتْه خالتُك عائشة، وها هي فاسألها، فقد سمعتهصلى الله عليه وآله يقول: عليٌّ خليفتي عليكم في حياتي ومماتي، فمَن عَصاه فقد عصاني، أتشهدين يا عائشة بهذا أم لا؟ فقالت عائشة: اللّهمّ نعم[1]. [أي أنّها سَمِعتهصلى الله عليه وآله يقول ذلك].

وفي ضوء ما تقّدم ينبغي أن نقول في تفسير عبارات من «نهج البلاغة» أشارت إلى بيعة المهاجرين والأنصار: كان مبدأ اختيار الخليفة لعامّة الناس حتّى ذلك الحين بيعة المهاجرين والأنصار التي كان للإمامعليه السلام حظٌّ فيها أيضاً، وكانَ مجبراً على الاستناد إلى هذا المبدأ أمام معارضة الناكثين والقاسطين. وباستدلاله هذا تَبعه كثير من الناس، وحاربوا معه أعداءَه. ونُقل شعر لأحد أنصاره أنشده لإثبات حقّهعليه السلام ولزوم رعاية الناس حرمته، وشبّه عهدَه بعهد مَن سبقه من الخلفاء، فقال:

لَهُ في رِقابِ الناسِ عَهْدٌ وذِمّــةٌ كعهدِ أبي حفْصٍ وعَهْدِ أبي بكرِ
فبايعْ ولاتَرجِعْ عَلَى العقبِ كافراً أُعيذُكَ باللهِ العـزيز مِن الكُفْرِ![2]

غير أنّه عليه السلام كان لا يرى ذلك الأسلوب أسلوباً يمنح الإمامة الشرعيّة ، ولا

---

١ - الفتوح:٢ ٢٨٢-٢٨٣.

٢- وقعة صفّين: ٤٦.

أصحابه المقرّبون ـ الذين كانوا يرون إمامته فوق بيعة المهاجرين والأنصار، ولها أصالة أكثر منها ـ يرضونه.

وكان للخلافات التي ظهرت في السقيفة حتّى استشهاده عليه السلام تأثيرٌ في كثير من المجالات الفكريّة الإسلاميّة، بيد أنّ ما يرتبط ببحثنا هو القضايا المتعلّقة بالخلافة والحكومة، وستكون لنا هنا نظرة مُجملة في تأثير هذه الحوادث في تبلور الآراء السياسيّة. ومن الثابت هو أنّ التشيّع امتدّ نوعيّاً وكمّيّاً أثناء الأحداث التي تمخّضت عن قتل عثمان وخلافة الإمام عليه السلام، وكان قبل ذلك مقصوراً على عددٍ قليلٍ من الصحابة الذين عبّروا عنه في حياتهم، إلّا أنّه انتشر في العراق بجهده عليه السلام وجهد أنصاره، وسُمّي هذا الاتّجاه: الاتّجاه العلويّ والشيعيّ، وغايته الدنيا رفضُ عثمان، وإثبات خلافة أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام، وأمّا غايته العليا فإثبات إمامته بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وأفضليّته على سائر الخلفاء، وبرزت في هذه الفترة أيضاً الاتّجاهات المتطرّفة التي بثّها الغُلاة، وحول نوعها وحجمها خلاف.[1] وكان الاتّجاه الآخر هو الاتّجاه العثمانيّ، وقد تبلور في حرب الجمل وصفّين، وهُزم في الجمل، وإن ظلّت آثاره في البصرة التي عُرف أهلها بأنّهم «عثمانيّو المذهب»[2]، وغلب في الشام إبّان العصرالأمويّ، وحكم في العراق. وكانت حكومة بني أُميّة تبلوراً لغلبة المذهب العثماني، الذي لم يعتبر خلافة الإمام عليه السلام شرعيّةً، وذريعتُه أنّ الخليفة الثالث قتله الإمام أو قُتِل بتحريضه، مضافاً إلى أنّ جميع الناس لم يجتمعوا على الإمام [كما زعموا]، وكانت هذه العقيدة شائعةً بين السلف من أهل السنّة الذين كانوا يُسَمَّون «بالعثمانيّة». وتناظر المصطلحان الشيعيّ والعثمانيّ

١ – انظر: **مقتل الإمام أمير المؤمنين** عليه السلام، لابن أبي الدنيا:٩٢.

٢ – جاء في البصرة أنّها «قطعة من الشام نزلت بيننا». **الطبقات الكبرى** ٦:٣٣٣.

آنذاك، وكانت العثمانيّة تعتقد أنّ الحاكم بعد عثمان هو معاوية، وارتباط شرعيّتهما ادّعاءُ معاوية بقرابته من عثمان وتقديم نفسه وليّاً لدمه[1]. وعُرفت البصرة والكوفة ذاتا النزعتين العثمانيّة والشيعيّة بتنافسهما، وعظمت هويّة التشيّع أمام المذهب العثمانيّ في حرب الجمل، فقد قال فيها قاتل زيدِ بن صُوحان أحدِ أنصار الإمامعليه السلام : إنّه قتل زيداً وهو على «دِين عليّ» وفي المقابل، برز عمّار بن ياسر وهو يقول:

لا تبرحِ العَرْصةَ يا ابن اليثْربيْ حتّى أُقاتِلْك على «دِينِ عليْ»
نحنُ وبيتِ الله أولى بالنبيْ[2]

ووُضع مصطلح «دِين عثمان» في مقابل مصطلح «دِين عليّ»، فقد قال شاعر شاميّ في جيش معاوية:

ثمانين ألفاً «دِينُ عثمان» دينهُمُ كتائبُ فيها جَبرئيلُ يَقودُها[3]

ووصف شاعر شاميّ بصفّين نفسه قائلاً:

أنا ابنُ أربابِ المُلوكِ غَسّانْ والدائنُ اليومَ بـ «دِينِ عثمانْ»[4]

وأنشد رفاعة بن شدّاد أيضاً:[5]

أنَا ابنُ شَدّادٍ على «دِينِ عليْ» لستُ لعثمانَ بنِ أروى بوليْ

وقيل في وصف جيش الشام: ثمانون ألفاً دِينُهم «دِين عثمان»[6]

وكان هنالك اتّجاه ثالث في مقابل الاتّجاهين الشيعيّ والعثمانيّ، وهو

---

١ - الغارات: ٧٠.
٢ - الجمل: ٣٤٦.
٣ - وقعة صفّين: ٥٥٦.
٤ - تاريخ الطبريّ ٥:٤٣.
٥ - أنساب الأشراف: ٥:٢٣٣.
٦ -انظر: مختصر تاريخ دمشق ٨ : ٥٢ .

اتّجاه «القاعدين»، وقد وصف بعض الكتّاب القدامى الذين صنّفوا كتباً حول أصحاب الفِرق والمذاهب، هذا الفريقَ باسمَين واتّجاهين متباينَين؛ أحدهما: «الحُلَيسيّة»، وهم الذين كانوا يقولون: كُونوا أحلاسَ بُيوتكم عند الفتنة. [الحِلْس: المُلازم لبيته لا يبرحه]، وكان هؤلاء يُضلّلون الفريقَين: الشيعيّ والعثمانيّ، ويحسبونهما من أهل جهنّم، ويعتقدون أنّ «القعود» عن الحرب «دِين»، و«الدخول» فيها «فتنة»، وكان عبد الله بن عمر، ومحمّد بن مسلمة، وسعد بن أبي وقّاص في عِداد هؤلاء. الآخر: المعتزلة، وكانوا يعتقدون أنّ أحد الفريقَين على حقّ والثاني على باطل، إلّا أنّه لم يتبيّن لهم مَن كان على الحقّ، ومِن هؤلاء أبو موسى الأشعريّ، وأبو سعيد الخُدْريّ، وأبو مسعود الأنصاريّ، ونصّت بعض المصادر القديمة على تسمية هؤلاء بالمعتزلة، ثمّ جاء بعدهم: واصل بن عطاء، وعمرو بن عُبَيد، وكانا يعتقدان في طلحة والزبير نفس الاعتقاد[١]. والمفهوم المهمّ الذي كان يستعمله الفريقان في تحليل أوضاع تلك الفترة هو «الفتنة»، وكانا يقولان: كن في الفتنة «عبدَ الله المقتول»، ولا تكن «عبدَ الله القاتل».[٢]

بيعة الناس الإمام عليّاً عليه السلام

ليس هناك أدنى شكّ في أنّ الإمام عليّاً عليه السلام لم يساهم مساهمةً سياسيّة فعّالة في الشؤون الجارية أيّامَ الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه، ولم يسجّل حضوراً جادّاً في الميدان السياسيّ، إلّا ما أشار به حين كان يُستشار في بعض الشؤون القضائيّة، وأقلّ منها في القضايا السياسيّة. وبعبارة أُخرى، لم يكن منتمياً في التركيبة الحكوميّة إلى الخلفاء، ويمكن أن نقول: إنّه عُرِف كأحد

١ - **مسائل الإمامة**: ١٦ - ١٧؛ وانظر: **الزينة**: ٢٧٣؛ **تاريخ الطبريّ**٥: ٥٧ - ٥٨.
٢ - **مسائل الإمامة**:١٦.

المعارضين لحكومة عثمان، وكان موضعَ ثقة لبعضهم نوعاً ما. واختياره بعد عثمان يعني غلبةَ المعارضين لقريش، وانتصارَ النهج المضادّ للأمويّة إلى حدّ كبير، وكان هؤلاء المعارضون يحظَون بدعم القبائل العراقيّة والمهاجرين المصريّين ، ومجاراة الأنصار والأصلاء من أهل المدينة إيّاهم أيضاً. وفي هؤلاء عدد من المهاجرين أيضاً، وعلى رأسهم عمّار بن ياسر، وهم يؤلّفون فئة من مناوئي عثمان، ومعهم أيضاً جماعة من قريش نفسها، ثمّ التحقت بهم جماعة بسبب إهمال عثمان لها، واهتمامه الخاصّ للأمويّين. وعلى رأسها: طلحة، والزبير، وعائشة، ونشط عمرو بن العاص ضدّ عثمان لعزله من حكومة مصر، وجميع هؤلاء طبعاً كانوا يدّعون أنّ عثمان ابتعد عن سُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله. وهكذا، كان الاتّجاه العامّ لتلك الثورة هو الرجوع إلى السيرة النبويّة، ورعاية العدل والإنصاف وترك الظلم والإجحاف بحقّ الناس.

وعُرف بعض كبار الصحابة الذين كانوا من أعضاء الشورى السداسيّة التي عيّنها عمر - بخاصّة طلحة الذي كان يحظى بدعم عائشة أيضاً - بأنّهم مرشَّحون للخلافة، وكان التحاقهم بالمعارضين يمثّل نقطة أمل ورجاء لبلوغ الخلافة. ومع السمعة التي كانوا يتمتّعون بها في العراق والحجاز، إلّا أنّهم لم يبلغوا شأوَ الإمام عليّ عليه السلام في سوابقه ومنزلته العلميّة، وزهده بخاصّة، وأنّى لهم ذلك! ويضاف إلى ذلك أنّ طبيعة الأمور بعد مقتل عثمان (ممثّل الحزب القرشيّ) تتطلّب حكم وجه بارز للمعارضين ممّن يجمع بين الاعتدال وبين تأييد عثمان لوساطته، ولم يكن هذا الوجه **إلّا** الإمامُ عليّ عليه السلام، الذي كان معارِضاً للخطّ الحاكم منذ البداية.[1]

١ - يُستشَفّ من خبر موضوع نقله الطبريّ في **تاريخه** (٤:٤٣٧ - ٤٣٨) تحليلٌ يفيد أنّ الإمام عليّ عليه السلام سيتّخذ موقفاً مضاداً تماماً لقريش، واختلاق هذا الخبر سنداً ومتناً بيّن جليّ، والمهمّ هو تفكير مَن قدّم مثل هذا التصوّر عن الأوضاع.

وكان الإمام عليّ عليه السلام الواسطةَ بين الناس وعثمان مذ بدأت احتجاجاتهم عليه، وبكلمةٍ أخرى: كان وجهَ المحتجّين ومتحدّثهم وناقل احتجاجاتهم إليه، وفي الوقت نفسه حافظ عليه السلام على الاعتدال في وساطته. وهو، وإن كان يُنكر على عثمان بعض أعماله المَشينة[1]، كان يراعي وضعه أيضاً أثناء الوساطة، كما كان يهدّئ المحتجّين بأخذ التعهّد منه في مراعاة أحوالهم. وحين يُقتَل عثمان، ويَحكم الإمام بعده، فمن الطبيعيّ أن يتّهمه بنو أُميّة وبعض أجنحة قريش في هذا المجال، والحال لم يكن له أيُّ دور في تلك الحادثة. ومع هذا، فإنّ كثيراً ممّن أصبح من أنصار الإمام عليّ عليه السلام المقرّبين كانوا من المعترضين على عثمان، بل كانوا من المتّهمين بدورهم المباشر في قتله، والذين أرادوا الإمام عليه السلام للخلافة، وكلُّهم كانوا ضدّ عثمان. وهذا - كما أُشير إليه - هو بدء نضج التشيّع عند الكوفيّين الذين بلوروا أوّل نشاطهم السياسيّ المهمّ ضدّ الرجل الحاكم آنذاك، أي عثمان. إذ إنّ إشكالاتهم على أبي بكر وعمر كانت خافية ولم تصل إلى حدّ الحراك السياسيّ.

ومهما كان، فإنّ قوّة الجناح المناصر للإمام عليّ عليه السلام، المؤلّف من الأنصار، وكثيرٍ من الصحابة، وقرّاء الكوفة أيضاً، بلغت مبلغاً لم تسمح معه لطلحة والزبير بأن يبرزا، وكذلك لم يرد ذِكرٌ لسعد بن أبي وقّاص[2]، وورد في سياق خبر طويل لسعيد بن المسيِّب حول القضايا المرتبطة بقتل عثمان أنّ الإمام عليه السلام حين جاء إلى داره، وهجم الناس جميعاً عليها، وهتفوا بخلافته، طلبوا منه أنَ يَمُدَّ يده للبيعة، فقال لهم - ليلزمهم بما ألزموا به أنفسهم في

---

١ - قال سعيد بن المسيِّب ما مضمونه: شهدتُ نزاعاً كلامياً حاداً جرى بين عليٍّ وعثمان، حتّى أنّ عثمان رفع سوطه عليه، وأصلحت بينهما. انظر: **أنساب الأشراف**: ٤:١٣٢/ الرقم ١١٢.

٢ - كان سعد خلال فتنة التحكيم يقول: أنا أحقّ الناس بهذا الأمر، لم أشرك في دم عثمان ولم أحضر شيئاً من أمور هذه الفتنة. انظر: **أنساب الأشراف** ٢:٣٤٤.

بيعتهم للسابقين - ما مضمونه: البيعة ليست من شأنكم، بل هي من شأن «أصحاب بدر»، فمن بايعوه للخلافة لم يصحّ نقضهم لها من بعد، وبعد ذلك جاءه جميع من كان حيّاً من البدريّين وأرادوا بيعته عليه السلام.[1]

وحين أصرّ عليه الصحابة بقبول الخلافة امتنع عليه السلام من ذلك. نقل الطبريّ عن محمّد ابن الحنفيّة أنّه قال: كنتُ مع أبي حين قُتل عثمان حتّى دخل بيته، فأتاه ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، فقالوا:... ولا نجد اليومَ أحداً أحقّ بهذا منك... فقال:... فإنّي أكون وزيراً خيرٌ من أن أكون أميراً، فقالوا: لا، والله ما نحن بفاعلين حتّى نبايعك،[2] فقال: ففي المسجد، فإنّ بيعتي لا تكون خفيّاً، ولا تكون إلّا عن رضى المسلمين. قال ابن عبّاس: فلقد كَرِهتُ أن يأتيَ المسجد مخافةَ أن يُشغَب عليه.[3] فلمّا دخل المسجد، دخل المهاجرون والأنصار فبايعوه. ونُقل عن أبي بشير العابديّ: أنّ الناس اختلفوا إليه بعد ما قُتِل عثمان مراراً، إلى أن أكرهوه على الخلافة، فصَعِد المِنبرَ فقال: إنّي قد كنتُ كارهاً لأمركم، فأبَيتُم إلّا أن أكون عليكم، ألا وإنّه ليس لي أمرٌ دونكم. وذكر أنّه سيلي أمرَهم إذا تعهّدوا بأن يكونوا معه.

وجاء في هذه الروايات أنّ طلحة والزبير كانا مع الناس، ولمّا اجتمعوا في المسجد، كان طلحة أوّل من بايعه، وامتنع سعد بن أبي وقّاص من البيعة وقال: لا أُبايع حتّى يبايع الناس، وامتنع عبد الله بن عمر من البيعة أيضاً.وفي «تاريخ الطبريّ» رواية تذكر: أنّ طلحة والزبير بايعا خوفاً من سيف مالك

١ - **أنساب الأشراف** ٤:٥٥٩ - ٥٦٠ / الرقم ١٤١٩.

٢ - **تاريخ الطبريّ** ٤:٤٢٩، انظر: **أنساب الأشراف** ٢:٢١٩.

٣ - جاء في نقل الإسكافيّ: أنّ ابن عبّاس قال: إنّي والله لمتخوّف أن يتكلّم بعض السفهاء، أو مَن قتل عليٌّ أباه أو أخاه في مغازي رسول الله صلى الله عليه وآله فيقول: لا حاجة لنا بعليّ بن أبي طالب، فيمتنع من البيعة . **المعيار والموازنة**: ٥٠.

الأشتر، وهي تتعارض مع أخبار أُخرى في هذا المجال. وطلب الإمام عليه السلام منهما أن يختارا أحدهما للخلافة ويبايعه، لكنّهما لم يجدا في أنفسهما ما يؤهّلهما لها، فرضيا ببيعته كي يحصلا على موقع لهما في الحكومة الجديدة عن هذا الطريق. ويتبيّن من كلامٍ لهما لاحقاً أنّ قصدهما من البيعة بالإكراه هو أنّهما لم يحصلا على أحدٍ بالمدينة يبايعهما، في حين كان للإمام عليّ عليه السلام أنصار كُثْر فيها، وتشهد المصادر على أنّه عليه السلام لم يُكرِه أحداً على البيعة، ولم يأخذها من أحدٍ بالقوّة، بل كان يرفض هذا الأسلوب، كما لم يأخذ البيعة من مروان حين قال: إنّه لن يبايع إلّا بالقوّة، وذلك بعد فتنة المتمرّدين في الجمَل.

وطلب طلحة والزبير من الإمام عليّ عليه السلام بعد البيعة مباشرةً أن يُولّيهما البصرة والكوفة، فرفض ذلك... قال محمّد ابن الحنفيّة: «... وبايعتِ الأنصارُ عليّاً إلّا نُفَيراً يسيراً». وهؤلاء هم: حسّان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومَسْلمة ابن مخلّد، ومحمّد بن مَسْلمة، وآخرون غيرهم، وكلّهم كانوا من «العثمانيّة». ومن غير الأنصار يمكن أن نشير إلى عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأُسامة بن زيد، وجميعهم كانوا من المتنعّمين بمائدة عثمان، قال الطبريّ: «ولم يتخلّف أحد من الأنصار إلّا بايع فيما نعلم»[1]. فمن المحتمل أنّ الذين لم يبايعوه عليه السلام هم ممّن لم يشهد الجمل وصفّين والنهروان فيما بعد، لا أنّهم لم يبايعوه بالخلافة أيضاً[2]. وروى الدياربكريّ: أنّ جميع الذين شهدوا بدراً

---

١ - انظر: **تاريخ الطبريّ** ٤: ٤٢٧ - ٤٣١. وانظر: ص٤٣٤ للاطّلاع على كلام الإمام عليه السلام مع طلحة، وانظر: **أنساب الأشراف** ٢: ٢١٨ للاطّلاع على طلب طلحة والزبير حكومة الكوفة والبصرة.

٢ - سترد أمثلة لهذا الرأي. قال اليعقوبيّ: «وبايَع الناسُ إلّا ثلاثةَ نفرٍ من قريش» خالف أحدُهما أوّلاً ثمّ بايع. **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٧٨ - ١٧٩.

وكانوا أحياءً حتّى ذلك الحين قد بايعوه عليه السلام[١]. ونُقل عن عبد الرحمان بن الأبزيّ أنّه قال: نحن ثمانمئة ممّن حضر بيعةَ الرضوان، شَهِدنا صفّين، وقُتل منّا ثلاثة وستّون، منهم عمّار بن ياسر.[٢]

وروى ابن أعثم أنّ الإمام عليه السلام رفض البيعة في البداية وقال: «...فإنّي أرى أمراً له وجوه لا تقوم لها القلوب، ولا تثبت عليها العقول». ثمّ انطلق مع الناس إلى طلحة، وعرض عليه – إتماماً للحجّة – أن يتولّى الحكم! فقال له طلحة: أنت أُولى بهذا الأمر، وعرض على الزبير أيضاً، وكلاهما عاهده على أن لا يفعلا ما يكرهه[٣]. وتحدّث ابن أعثم عن دور الأنصار في أخذ البيعة من الناس له عليه السلام، وما تكلّم به ممثّلوهم في المسجد، وفي السامعين بعض المهاجرين العراقيّين والمصريّين. فقال لهم الناس: أنتم أنصار الله، فإنّنا قد قَبلنا منكم فأشيروا علينا... فأمرونا بأمركم. فعرّفوا لهم الإمام عليه السلام للخلافة، فرَضُوا به طائعين. ثمّ انصرفوا، فلمّا كان من غدٍ أقبلوا إلى المسجد، وجاء عليه السلام... ثمّ قال: «... فاختاروا لأنفسكم من أحببتم وأنا سامع مطيع لكم». فصاح الناس من كلّ ناحية، وقالوا: نحن على ما كنّا عليه بالأمس... وقام طلحة فبايعه، وكان به شلل، فتشاءم الناس! ثمّ بايع الزبير، وتتابع الناس بعد ذلك بالبيعة من المهاجرين والأنصار ومَن حضر من العرب والعجم والمَوالي[٤].

---

١ – **تاريخ الخميس** ٢٦١:٢. انظر بشأن بيعة المهاجرين والأنصار: **الجمل**: ١٠٢ – ١١٠.

٢ – **تاريخ خليفة بن خيّاط**:١٩٦.

٣ – كانت فكرة الخلافة تخامر هذين الرجلين... وكان أحدهما ـ وهو طلحة ـ كان يحظى بدعم عائشة. قال البلاذريّ: كانت عائشة في مكّة لمّا قُتل عثمان، وفي طريقها إلى المدينة بلغها أنّ الناس بايعوا طلحة فسُرّت؛ لكن لمّا بلغها بيعة عليّ، رجعت إلى مكّة، ونادت بالثّأر لدم عثمان! **أنساب الأشراف** ٢١٨:٢.

٤ – **الفتوح** ٢٤٢:٢ – ٢٤٥.

وبشأن إبائه عليه السلام بيعةَ الناس وسبب ذلك، يُلحَظ أنّ كلامه في هذا الأمر أنطقُ من كلّ شيء، وأوّل ما نراه هو أنّه عليه السلام كان يرى الوضع الموجود في المجتمع أفسَدَ مِن أن يكون قادراً على تحمّل خلافته، وتحقيق قيمه وأهدافه، فقد قال عليه السلام في اليوم الأوّل من بيعته: دَعُوني والْتمِسُوا غَيري، فإنّا مُستقبلون أمراً له وجوهٌ وألوان، لا تقومُ لَه القُلوب، ولا تَثْبُتُ عَلَيه العُقول. وإنَّ الآفَاقَ قد أغامَتْ، والمَحجّةَ قَد تَنكَّرَت. وأعلموا أنّي إنْ أجَبْتُكم رَكِبْتُ بِكُم ما أعلم، ولم أُصْغِ إلى قَولِ القائل وعَتْبِ العاتب.[١]

وكان يعلم أنّه لا يمكن قيادة المجتمع في خضمّ تلك الفتن بسلام، ولمّا أحسّ أنّهم لا يتركونه، أراد بإنكاره أن يتعهّدوا له باتّباعه اتّباعاً تامّاً ويُذعنوا لما يُريده منهم.[٢]

وأبانت الحوادث اللّاحقة تصوّره بعُسر العمل في «الفتنة» و«الشبهة»! فقال ذات مرّة: لَو ظننتُ أنّ الأمرَ يَبلغُ ما بَلَغ ما دخلتُ فيه.[٣] ثمّ قال فيما بعد بشأن البيعة: حتّى إذا نَقِمتُم على عثمانَ أتيتُموه فقتلتُموه، ثمّ جئتُموني لتبايعُوني، فأبيتُ عليكم، وأمسكتُ يدي فنازعتُموني ودافعتموني، وبسطتُم يَدِي فكففتُها، ومَددتُم يدي فقبضتُها، وازدحمتُم عَلَيَّ حتّى ظَننتُ أنّ بعضكم قاتلُ بعضٍ، أو أنّكم قاتلي! فقلتُم: بايِعْنا لا نجد غيرَك، ولا نرضى إلّا بك، فبايعنا لا نفترق ولا تختلف كلمتُنا، فبايَعْتُكم، ودعوتُ الناسَ إلى بيعتي، فمَن بايع طائعاً قَبِلْتُه منه، ومَن أبى لم أُكْرِهْه وتركتُه، فبايَعَني فيمَن بايعني طلحةُ والزُّبير، ولو أبَيا ما أكرهتُهما، كما لم أُكرِهْ غيرَهما.[٤]

---

١ – **نهج البلاغة**: الخطبة ٩٢.

٢ – **تاريخ الطبريّ**:٤:٤٢٨ .

٣ – **أنساب الأشراف** ٢:٢١٣.

٤ – **الغارات**:١:١١٢.

وحين رأى عليه السلام بالكوفة رجلاً يُدعى أبا مريم، سأله عن سبب قدومه إليها، فقال: «إنّي لم آتِك لحاجة، ولكنّي أراك لَو ولّوك أمرَ هذه الأمّة أجزأته»، فقال عليه السلام: إنّي صاحبُك الذي عَهدتَ، ولكنّي مُنيتُ بأخبثِ قومٍ على وجهِ الأرض، أدعوهم [إلى الأمر] فلا يتّبعُوني...[1].

وفيما يأتي عدد من النقاط الجديرة بالاهتمام حول اختيار الناس إيّاه عليه السلام لقيادة المجتمع:

الأُولى: كان اشتراك الناس في اختيار الخليفة الأوّل محدوداً في البداية بالحاضرين في السقيفة، وثمّة قرائن تدلّ على نوع من مؤامرة مُبيَّتة، أو- كحدّ أدنى - على تفاهم الحزب المعارض لبني هاشم قبل البيعة وتنسيقهِ[2]. وكان اختيار عمر بالاستخلاف، واختيار عثمان بشورى محدودة. وقياساً بهم، كان اختيار الإمام عليّ عليه السلام بذلك الشكل الواسع مطلب الأكثريّة بالمدينة، والحقّ أنّ بيعته هي البيعةُ الوحيدة التي يتسنّى لنا أن نَعدَّها بيعةً شعبيّة عامّة حتّى ذلك الحين.

والجديد في هذه البيعة هي اشتراك مُمثّلي أهل العراق ومصر فيها، فضلًا عن المهاجرين والأنصار. ولم يكن لرأيهم في تلك الفترة طبعاً شأن في السُّنّة الأوّليّة العرفيّة المترسّخة التي كانت لا تقيم وزناً إلّا لرأي المهاجرين والأنصار، بيد أنّ حضورهم على أيّ حال يرفع الرصيد الشعبيّ لاختياره عليه السلام. ولم يكن هذا الأمر ظاهرةً غير معروفة عند الإمام عليّ عليه السلام وغيره، قال عليه السلام في إحدى خطبه: لَم تكُنْ بيعتُكم إيّاي فلتةً، وليسَ أمري وأمرُكم واحداً، إنّي

---

١ - **أخبار البلدان**، لابن الفقيه الهمداني: ٤ - ٥ (طبع سزكين).

٢ - رفض عبد العزيز الدوريّ رأي لامنس الذي ذهب إلى أنّ السقيفة اتّفاق الثلاثة: أبي بكر، وعمر، وأبي عبيدة، لكنّه يؤيّد وجود التفاهم السابق عند الحزب المعارض لبني هاشم. انظر: **مقدّمة في تاريخ صدر الإسلام**: ٥٦.

أُريدُكم لِلّه، وأنتم تُريدونَني لأنفسكم.[١] وكلامه عليه السلام هـذا، كمـا عبّـر ابـن أبـي الحديد ـ[٢] تعريضٌ ببيعة أبي بكر التي سمّاها عمر«فلتة»! ولم يبايع عليه السلام النـاسَ في بيته، لئلّا يخال أحدٌ وجودَ مـؤامرة، وقـد قـال عليه السلام: فـإنَّ بَيعتـي لا تكـونُ خِفْيةً، ولا تكون إلّا عن رضى المسلمين.[٣] وقال: فإذْ أبيتم فإنّ بيعتي لا تكون سِراً، ولكنْ أخرجُ إلى المسجد، فمَن شاء بايَعَني. فخرجَ إلى المسجد، فبايَعَه الناس.[٤] وهذا أحد الأسباب التي دعت إلى تريّثه فـي قبـول الطلـب الشـعبيّ لبيعته.

الثانية: إذا عَدَونا ما كان مطروحاً بشأن اعتقاد الإمام عليه السلام وشيعته المخلَصين إمامته، فإنّ النهج الجاري قد تبلور على أسـاس سُـنّة البيعـة، ولـم يكـن عليه السلام ليحيد عنه. وهذا النهج مستمسك رائع للإمام، الذي تقلّد الأمر بإقبـال شـعبيّ منقطع النظير أمام معارضيه. نقل الدينوريّ أنّه قال عليه السلام بعد البيعة: أيُّها النـاس، بايعتُموني على ما بُويع عليه مَن كان قَبلي، وإنّما الخيارُ قبـل أن تقـع البيعـة، فإذا وقَعَت فلا خِيار، وإنّما على الإمام الاستقامة، وعلى الرعيّـة التسـليم. وإنّ هذه بيعةٌ عامّة، مَن ردّها رَغِب عن دِين الإسلام، وإنّها لم تكـن فَلْتـةً[٥]! ومـع هذا كلّه، كان عليه السلام عازماً على أن لا يأخذ البيعة من أحدٍ بالإكراه، حتّى أنّـه لـم يُؤاخِذ الذين بايعوه ولم يأبهوا لأمره في الخروج إلـى العـراق لتبيـين وضـع الناكثين. ولمّا تشبّث سعد بن أبي وقّاص، وعبـد الله بـن عمـر، ومحمّـد بـن مسلمة، وأُسامة بن زيد بذرائع واهية لمعصـية أمـره، قـال لـه مالـك الأشـتر:

---

١ ـ **نهج البلاغة**: الخطبة ١٣٦.

٢ ـ **شرح النهج** ٩:٣١.

٣ ـ **تاريخ الطبريّ** ٤:٤٢٧.

٤ ـ **أنساب الأشراف** ٢:٢١٠.

٥ ـ **الأخبار الطوال**:١٤٠؛ انظر: **المعيار والموازنة**: ١٠٥.

«ياأمير المؤمنين، إنّا وإن لم نكن من المهاجرين والأنصار، فإنّا من التابعين بإحسان[١]، وإنّ القوم وإن كانوا أولى بما سبقونا إليه فليسوا بأولى ممّا شَرِكْناهم فيه. وهذه بيعة عامّة، الخارج منها طاعن مُستعتَب، فحُضّ هؤلاء الذين يُريدون التخلّفَ عنك باللّسان، فإن أَبَوا فأدّبْهم بالحبس»، فقال عليه السلام: بل أدَعُهم ورأيَهمُ الذي هُم عليه.[٢]

وحين أُسِر مروان في معركة الجمل بعد أن كان بايعه عليه السلام غِبَّ قتلِ عثمان، استشفع الحسن والحسين عليهما السلام إلى أبيهما صلوات الله عليه، فكلّماه فيه، فخلّى سبيله، فقالا له: يُبايعُك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: أوَلَم يُبايعْني بعد قتل عثمان؟! لا حاجةَ لي في بيعته! إنّها كفٌّ يهوديّة، لو بايَعَني بكفِّه لَغَدَر بسُبّتهِ[٣]. ونقل البلاذريّ عن مروان أنّه قال للإمام عليه السلام بعد الجمل: «فإنّي لا أُبايعُك حتّى تُكرِهَني[٤]». ومن الواضح أنّ الامتناع من البيعة ليس إلّا التمرُّد بعينِه. وإذا بايع الناس رجلاً وفق المعايير المقبولة، وتحقّقت «البيعة العامّة»، وعارض أحدٌ متمرّداً أو زعم الخلافة، فلا بدّ من إسكاته، وإلّا فما معنى الخلافة[٥]؟ ومع هذا كان من شرف الإمام عليه السلام وفخره وتساميه أنّه لم يُكرِه أحداً على بيعته[٦]. قال عَديّ بن حاتِم لمعاوية أيضاً: «... تهافَتَ الناسُ على

١ - إشارة إلى الآية ١٠٠ من سورة التوبة.

٢ - **الأخبار الطوال**: ١٤٣؛ **المعيار والموازنة**: ١٠٦.

٣ - **نهج البلاغة**: الخطبة ٧٣.

٤ - **أنساب الأشراف** ٢:٢٦٣.

٥ - كتب الإمام عليّ عليه السلام إلى معاوية:... وأمّا تمييزُك بينَ الشام والبصرة، وبينَ طلحة والزبير، فلَعَمري ما الأمرُ فيما هناك إلّا واحد، لأنّها بيعةٌ عامّة لايُثنّى فيها النظر، ولايُستأنفُ فيها الخِيار. انظر: **وقعة صفّين**: ٥٨.

٦ - **المعيار والموازنة**: ٥٢؛ **الجمل**: ١٣١، وجاء في الكتاب الأوّل من كتب **نهج البلاغة**: وبايَعَني الناسُ غيرَ مُستكرَهين، بل طائعين مُخيَّرين. وحاول الرواة من ذوي النزعة الأُمويّة والطريقة

عليٍّ بالبيعة تَهافُتَ الفَراش...فلم يَستكرِهْ أحداً[١]».

الثالثة: أنّ الأسلوب المقبول في البيعة المتمثّل ببيعة المهاجرين والأنصار أمرٌ استندت إليه الأمصار فرضيت الإمامَ بموجبه خليفةً، ورفضت الناكثين للبيعة[٢]، بل قيل: حتّى لو كان الإمام عليّ عليه السلام هو الذي قتل عثمان [فهو خليفة؛ إذ] بايعه المهاجرون والأنصار، وهم الحكّام على الناس[٣].

ويستبين جيّداً أنّ الإمام عليه السلام إذا كان قد استند إلى هذا النهج في البيعة، فإنّه أراد أن يُقنع معارضيه الذين كانوا يعتبرون بيعة الخلفاء السابقين شرعيّةً استناداً إلى النهج المذكور. وكان ممثّلو قبائل العراق وأهل مصر قد شَهدوا بيعته عليه السلام مع مَن شهدها من المهاجرين والأنصار، وهذه ملاحظة لفتت نظرَ مالك الأشتر أيضاً[٤]. كتب الإمام عليه السلام إلى معاوية قائلاً: إنّه بايَعَني القَومُ الّذين بايعُوا أبا بكرٍ وعُمَرَ وعثمان على ما بايعوهُم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يَرُدّ، وإنّما الشُّورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجُلٍ وسمَّوْه إماماً كان لله رضىً، فإن خرج عن أمرهم خارجٌ بطعنٍ أو بدعة ردّوهُ إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتّباعه غيرَ سبيل المؤمنين وولّاهُ اللهُ ما تولّى[٥].

ووقع هذا المبدأ موقع القبول فيما يخصّ الخلفاء الأوَل، إلّا أنّ العثمانيّة استندوا فيما بعد إلى امتناع بعض الصحابة من البيعة، وتذرّع أولئك باقتتال

العثمانيّة أن يُبرّزوا دور مالك الأشتر ويُصرّحوا بأنّ خوف الناس منه أكرههم على البيعة.

١ – **وقعة صفّين**:٦٥.

٢ –نفسه: ١٦.

٣ – **وقعة صفّين**: ٤٥.

٤ – **الأخبار الطوال**: ١٤٣ / الرقم ١٠.

٥ – **نهج البلاغة**: الكتاب ٦.

الإخوة المسلمين فراراً من أمر الإمام عليّ عليه السلام في حرب مناوئيه[١]. قال معتمر ابن سليمان: «قلتُ لأبي: إنّ الناس يقولون: إنّ بيعة عليّ لم تتمّ، قال: يا بُنيّ بايعَه أهلُ الحرمين، وإنّما البيعةُ لأهل الحرمين»[٢].

الرابعة: على أيّ شيءٍ تمّت البيعة؟ ونحن نعلم أنّ عثمان قد نُبذَ بسبب مخالفته أحكامَ الله تعالى. وكان العمل بكتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم مبدأ مقبولاً في عصر الخلفاء الأوَل، وإن لم يعتنِ بعضهم بجوانب من السيرة النبويّة، بل من القرآن الكريم ذاته. وفُرضت سيرة الشيخين شرطاً في البيعة بعد عمر، وهو ما رفضه الإمامُ عليّ عليه السلام. وقد نقل الطبريّ أنّ إقامة كتاب الله في القريب والبعيد، والعزيز والذليل، شُرطت في بيعة الإمام عليه السلام[٣]، وهذا الاتّجاه انعكاس لما جرى في عهد عثمان. وذكر ابن أعثم أنّ رجلاً من أهل مصر يُقال له: سودان بن حُمران المراديّ – الذي قيل فيه: إنّه قاتلُ عثمان – تقدّم إلى الإمام عليه السلام فقال له: يا أبا الحسن، إنّنا قد بايعناك على إن عَمِلتَ فينا كما عَمِل عثمان قتلناك، فقال عليه السلام: اللّهمّ نعم؛ فبايَعه الناس على كتاب الله عزّوجلّ، وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله[٤]. وأصرّ رجلٌ آخر على سيرة الشيخين شرطاً آخر للبيعة مع العمل بكتاب الله سبحانه وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله، فأبى عليه السلام، وذكر «أنّ أبا بكر وعمر لو عَمِلا بغير كتاب الله وسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكونا على شيءٍ من الحقّ[٥]».

---

١ – انظر: **أنساب الأشراف** ٢:٢٠٧.

٢ – **أنساب الأشراف**:٢٠٨. لمّا اجتمع أهل المدينة قال لهم أهل مصر: أنتم أهلُ الشُّورى، وأنتم تعقدون الإمامة، وأمرُكم عابرٌ على الأمّة. **تاريخ الطبريّ** ٤:٤٣٤.

٣ – **تاريخ الطبريّ**٤:٤٣٥.

٤ – **الفتوح**٢: ٢٤٦ –٢٤٧.

٥ – **تاريخ الطبريّ** ٥:٧٦.

وكان عليه السلام لا يرى نفسه مُستسلِماً إلّا أمامَ القرآن الكريم والسنّة النبويّة لا يتخطّاهما، وكذلك كان أصحابه وأمراؤه، فقد خاطب قيسُ بن سعد الناسَ قائلاً: «أيّها الناس، إنّا بايَعنا خيرَ مَن نعلم بعد نبيّنا صلى الله عليه وآله، فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنّة نبيّه، فإن نحن لم نعمل فيكم بكتاب الله وسنّة رسوله فلا بيعة لنا عليكم[1]». وخاطب محمّد بن أبي بكر حاكمُ مصر الناسَ قائلاً: «... فإن يكنْ ما تَرَون من آثاري وأعمالي لله طاعةً وتقوى، فاحمدوا اللهَ على ما كان من ذلك، فإنّه هو الهادي له، وإن رأيتم مِن ذلك عملاً بغير حقّ فادفعوه إليّ وعاتبوني عليه...[2]». والإمام عليه السلام نفسه رفض الشرط الذي تقدّم به بعض أقارب عثمان حين أرادو بيعته، إذ عرضوا عليه أن يعفو لهم عمّا في أيديهم، فقال: «... ولكن لكم أن أحملَكم على كتاب الله وسنّة نبيّه»[3].

القاعدون وفقدان الجماعة اتّساقها

لم يتحقّق الاتّفاق في بيعة الإمام عليه السلام كما حصل في بيعة الشيخين، وإن حصلت بيعة المهاجرين والأنصار، ففي بيعة أبي بكر عارض رجال، إلّا أنّ الجماعة اتّسقت، إذ بايع المعارضون أيضاً فيما بعد. وهناك كان زَعْم عمر أنّ على المعارضين أن يدخلوا في «الجماعة»، ولم تواجه هذه «الجماعة» إشكالاً في عصر عمر. وما تمزّقت الجماعة لأوّل مرّة إلّا في عهد عثمان حين استطفّت الثورة عليه، وموقفه غير السديد هو الذي سبّب الانشقاق والتفرّق في الأمّة الإسلاميّة، وخطّأه الكوفيّون والقسم الأعظم من المصريّين آنذاك، ولو لم يتنازلوا عن قتله لَما رأوه أهلاً للخلافة أيضاً. وكان لهذه العقيدة جذرٌ

١ - **الغارات** ١: ٢١١.

٢ - نفسه ١: ٢٢٦.

٣ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٧٨ - ١٧٩.

راسخ في الكوفة، ولم يكن عثمان مرضيّاً عند أهلها قطّ. ولاحقاً اشتهر أنّ من أراد «الشهادة»(!) فليذهب إلى محلّة دار البطِّيخ بالكوفة ويترحّم على عثمان[١]. وكان أهل الحجاز متردّدين في هذا الشأن. وقيل فيهم: إنّهم بكريّون وعمريّون، ولم يركّزوا على عثمان تركيزاً خاصّاً، كما لم يتّفقوا معه أيضاً.

وما عَرَضَ قداسةَ عثمان ورعاها إلّا أهلُ الشام وبنو أُميّة، وهم الذين كانوا أرسَوا دعائم مذهب «العثمانيّة»[٢] الذي يُذكر بعنوان مذهب «النابتة والنواصب». ورضي عامّة السنّة بعثمان على مرّ الزمان وتواتر القرون متأثّرين بهذا المتعصّب الأُمويّ ابن التسعين، كما رضي العثمانيّة - الذين اتّخذوا اسم أهل السنّة والجماعة تدريجاً - بالإمام عليّ عليه السلام منذ القرن الثالث. وفي كلّ حال، كانت «الجماعة» راسخةً حتّى عهد عمر ومنتصف حكومة عثمان[٣]، ثمّ آل أمرُها بعد ذلك إلى الافتراق والانشقاق. ولم ترجع هذه الجماعة بمعناها التامّ إلى الأمّة حتّى عصر معاوية الذي أخمد كلّ أنواع المعارضة «بالقوّة» و«الخديعة»، بيد أنّ البيّن هو أنّ تلك الجماعة تتفاوت والجماعةَ السابقة تفاوتاً كبيراً في الأسس والمبادئ. وكانت بيعة الإمام عليه السلام تحمل شروط البيعة الصحيحة، فقد بايعه المهاجرون والأنصار، وممثّلو مصر والعراق،إلّا أنّ الجماعة بمعناها الكامل لم تتّسق بسبب ما أبداه القاعدون، والناكثون، والقاسطون، والمارقونَ من المعارضة، وإن حملت الجماعة المذكورة صفة الشرعيّة بمقدار معيّن برأي أكثر الصحابة، إذ يتسنّى بدعمها الوقوف أمام المعارضة، وتسمية بُناتها «بُغاة» و«متمرّدين». وأقرّ أهل السنّة بهذه القضيّة، إلّا

---

١ - **تاريخ يحيى بن معين** ٢:٢٣٨.

٢ - وكان يقال لهذه الفرقة أيضاً: «السُّفيانيّة»، و«النابتة»، و«النواصب» .

٣ - انظر: **الرسالة النابتة في رسائل الجاحظ** (الرسائل الكلاميّة): ٢٣٩.

أنّهم عَدّوا أساس التمرّد والفتن المذكورة التي تولّى الصحابة أمرها «اجتهاداً» فبرّأوهم، غير أنّهم لم يعدّوا عمل الخوارج كذلك، بل عدّوه فتنة وتمرّداً حقيقيّاً. ورصيد وقوف «الجماعة الشرعيّة» أمام «التمرّد» آيةٌ قرآنيّة كريمة في سورة الحجرات، وفي قوله تعالى:﴿**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾[١] قال أبو حنيفة فيما بعد: «لولا سيرةُ أمير المؤمنين عليه السلام في أهل البغي، ما كنّا نعرف أحكامَهم»[٢].

وكان رأي أمير المؤمنين عليه السلام أنّ الامتناع من البيعة نفسه، بل إبداء المعارضة في حدّ الكلام لا يمكن أن يسوّغ جهادهم. وقد صدرت أوّل معارضة عن القاعدين، أولئك الذين يُحتمَل أنّهم بايعوه عليه السلام، لكنّهم امتنعوا من المسير معه لقتال الناكثين والقاسطين، وتدلّ رواية البلاذريّ على أنّهم لم يبايعوه، وقال بعضهم كعبد الله بن عمر: لا أُبايع حتّى يجتمع الناس عليك[٣]. وكان هؤلاء يرون أنّ الجماعة لم تطّرد. وقال سعد بن أبي وقّاص: يا أبا الحسن، إذا لم يبق غيري بايعتُك[٤]. وخلّى عليه السلام سبيلَ هؤلاء. والملاحظة التي يتعيّن علينا الالتفات إليها هنا هي أنّنا يجب أن نميّز بين البيعة الخاصّة والبيعة العامّة في الإكراه على البيعة، ففي الحقيقة إذا بايع الخاصّة، ثبتت الخلافة،

---

١ – الحجرات:٩.

٢ – **شرح الأصول الخمسة**:١٤١؛ انظر: **البحر الرائق** ٥:١٥١، ١٥٣؛ **أحكام القرآن**، للجصّاص ٤٠٠:٣؛ **جواهر الكلام** ٢١:٣٣٢.

٣ – **أنساب الأشراف** ٢:٢٠٧.

٤ – نفسه. وجاء في خبر الإسكافيّ: أنّهم لم يمتنعوا من بيعته، ولكنّهم يكرهون قتال أهل الصلاة معه! فقال عليه السلام: فإنّ أبا بكر قد استحلّ قتالَ أهل الصلاة [يريد عليه السلام الذين امتنعوا من إيتاء الزكاة وسمّاهم – ظلماً – بأهل الردّة]. انظر: **المعيار والموازنة**: ١٠٦. وواضحٌ أنّهم لم يَحروا جواباً أمام حُجّته عليه السلام.

وبعدها ينبغي حضور الجميع في البيعة العامّة، وهذا ما يُستشَفّ من كلام مالك الأشتر عند معارضة القاعدين، ولكنْ لم يرضَ الإمامعليه السلام الإكراه هناك أيضاً. [1] وقيل في إنكار الخوارج أيضاً: إنّهم إن سكتوا تركَهم وشأنَهم؛ وإن تكلّموا حاجَجَهم، وإن خرجوا عليه قاتَلَهم. وقالعليه السلام لهم: لا نَمنعُكُم مساجدَ الله أن تَذكروا فيها اسمَه، ولا نمنعُكم الفَيءَ ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نُقاتلُكم حتّى تبدأونا. [2]

وذهب القاعدون إلى أنّ «الجماعة» ناقصة، تبريراً لمخالفتهم، وطعنوا في خلافة الإمامعليه السلام طبعاً، وكانوا يرون أهل الشام مكمِّلين لهذه الجماعة، في حين كانت بيعة أهل الحرمين كافيةً وافية حتّى ذلك الحين. وأنكر معاوية الذي كان خَلْق كثير من أهل الشام تحت تصرّفه استطافّ الجماعة إلى جانبهعليه السلام، وأنكر خلافته عادةً، وكتب إليه بعد أن دعاه الإمام إلى الطاعة والجماعة، قائلاً: هذه الجماعة التي تذكرها هي عندنا أيضاً. وافترى على الإمامعليه السلام بأنّه قتل خليفتهم [عثمان] وفرّق جماعتهم [3]. ولا توجيه منطقيّ لعمل الناكثين، وتدلّ الشواهد والقرائن على أنّهم نابذوا الإمام خلافاً للعهد الذي كانوا عليه في البيعة، وما نابذوه إلّا حبّاً للسلطة. وبذل الإمام صلوات الله عليه غاية جهده لاستتباب الأمن، ولم يبدأ أحداً بقتال قطّ، بل كان يرى بدءَ الطرف المقابل بالحرب إذناً له بقتالهم [4]. وبغضّ النظر عن جميع البواعث والأمور الباطنيّة، أدّت أحداث تلك البرهة من الخلافة إلى ظهور اتّجاهات

١ – **تاريخ الطبريّ** ٥:٧٢ – ٧٣.

٢ – نفسه ٥:٧٣، **الأخبار الطوال**:١٤٣ [ذكر المؤلّف «**المعيار والموازنة**» مكان «**تاريخ الطبريّ**» وهو غير صحيح، إذ لم يرد في المعيار...] المترجم .

٣ – **مختصر تاريخ دمشق** ٢٥:٣٥. [ولم يرد فيه: هذه الجماعة التي تذكرها...] المترجم.

٤ – انظر: **أنساب الأشراف** ٢:٢٤٠، **المعيار والموازنة**:١٥٨.

ونزعات مذهبيّة مختلفة خلّفت آثارها، ليس في الموضوعات العقائدية والفقهيّة فحسب، بل في مباحث الإمامة أيضاً. ثمّ تمخّضت النزعات عن «الجماعة السياسيّة» مرّة أُخرى، وسمّى أهل السنّة ـ الذين كانوا يرون أنفسهم خارج «أهل البدعة»، ولم يقيموا وزناً لحضورهم في الجماعة أو غيابهم عنها ـ أنفسَهم: «أهل الجماعة». قال أبو حاتم الرازيّ في اصطلاح الجماعة عند العامّة (السنّة): «كان السواد الأعظم وعامّة الناس مجتمعين على بني أُميّة أيّام معاوية، وبعده على ولده، ثمّ بعد ذلك على بني مروان، فادّعت العوامّ من التابعين هذا الاسم، وقالوا: نحن أهل الجماعة... مَن خالَفَنا فقد شقّ العصا، وخالف الأمّة، وترك السنّة، ونحن أهل السنّة والجماعة، يعنون أنّهم مجتمعون على إمامٍ واحد مع اختلافهم في المذاهب والآراء»[1]. والدور المحوريّ في «الجماعة» هي الإمامة نفسها، والملحوظ في الفكر السنّيّ أنّ الإمام، كيفما تقلّد الأمر، إذا اتّفق عليه الجميع تحقّقت الجماعة، ولهذا الإمام شرعيّة تامّة في الفكر المذكور. ومن الطبيعيّ أنّ المثاليّ عندهم هو الإمام الذي يحرز جميع الشروط العلميّة والأخلاقيّة اللّازمة، كما أنّ كثيراً منهم يشترط الاجتهاد. أمّا في الفكر الشيعيّ، فإنّ الإمام فوق الإجماع السياسيّ، وللجماعة فيه طبعاً معناها الخاصّ. وتمّت بيعة الإمام عليه السلام يوم الجمعة، الثامن عشر من ذي الحجّة سنة ٣٥هـ*.

مِحَن الإمام عليه السلام

لمّا ولِيَ الإمام عليه السلام الخلافة، كان أمامه سيل من المشكلات والمصاعب.وكلّها ـ مع الأوضاع السياسيّة المضطربة التي طرأت بعد قتل

---

١ - كتاب الزينة:٢٢٥.

* - [ذكر المؤلّف سنة (٣٦)، وهو سهو، إذ الصواب سنة (٣٥) هـ] المترجم.

عثمان ـ كانت تصوّر مستقبلاً مظلماً قاتماً. فلنستعرض المشكلات أولاً، ثمّ نعرّج على الحلول التي عرضها الإمامعليه السلام. ولا بدّ لنا أن نعلم سلفاً أنّ المشكلات المذكورة تتضاعف بالنسبة إلى رجلٍ كالإمامعليه السلام الذي كان حسّاساً أكثر من غيره في رعاية الأصول والفروع. وكان كلّ خليفة قبل ذلك الزمان قد فتح ـ على النحو المؤقّت وفي إطار توسيع الفتوحات غالباً ـ طريقاً لعلاج ما أعضل في المجتمع الجديد بخاصّة كثرة الأعراب والمهاجرين إلى المدن، بيد أنّ الذي تبيّن بعد حين هو أنّ كثيراً من تلك الطرق لم يطابق المبادئ القِيَميّة. على سبيل المثال، جعَلَ عمر تنظيم الديوان على أُسس قبليّة، وقد استبانت آثاره وتبعاته السلبيّة الاجتماعيّة بل السياسيّة بعد خمس عشرة سنةً. ونستعرض فيما يأتي مِحَن الإمامعليه السلام والمصاعب التي واجهها في عدد من المجالات استيساقاً لبحثنا هذا :

١- العدالة الاقتصاديّة

إنّ أوّل مشكلة واجهها الإمامعليه السلام هي رعاية العدالة الاقتصادية، فقد كان عمر قد جعل الديوان على أساسين هما: السابقة الدينيّة للأشخاص، والتركيبة القبليّة، فالصحابة الذين أسلموا مبكّراً كانوا يأخذون سهماً أكثر ، وهكذا كان الوضع في عهد عثمان. وفضلًا عن ذلك بدأ يبذل ويقدّم أُعطياته الخاصّة ممّا وسّع الهوّة بين الطبقة الغنيّة والفقيرة في المجتمع. وهذه الأموال جميعها تتعلّق بخُمس الغنائم، والخراج، والجزية التي كانت تؤخذ من الأراضي المفتوحة كضريبة بنسبة واحدة سنويّاً، وترتبط بالناس جميعاً. وحين تقلّد الإمام الأمر، عرض تقسيم هذه الأموال بالسويّة، ودافعُه إلى هذا العمل هو أنّ رسول اللهصلى الله عليه وآله كان يفعله.

وأشارعليه السلام في أوّل خطبة له إلى البدء بسياسته الماليّة مذكّراً بأنّه سيطبّق

سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وحدها، وإنّي حاملُكم على منهج نبيّكم صلى الله عليه وآله، وعدّ فضل المهاجرين والأنصار على غيرهم فضلاً معنوياً محفوظاً عند الله، وأجرُه على الله، وأيّما رجل استجاب لله وللرسول في هذه الدنيا، ودخل في الإسلام، واستقبل قبلة المسلمين، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده. وأضاف عليه السلام قائلاً: فأنتم عبادُ الله، والمالُ مال الله، يُقسَّم بينكم بالسويّة، لا فضلَ فيه لأحدٍ على أحدٍ، وللمتّقين عند الله غداً أحسنُ الجزاء. وقال مؤكّداً سياسته:... ويستنكرون ويقولون: حَرَمَنا ابنُ أبي طالب حقوقَنا[1].

وأمر في غدِ ذلك اليوم عبيدَ الله بن أبي رافع قائلاً:... وأعطِ كلَّ رجلٍ ممّن حضر ثلاثة دنانير... فقال سهل بن حنيف: يا أمير المؤمنين، هذا غلامي بالأمس، وقد أعتقتُه اليوم، فقال: نُعطيه كما نُعطيك، فأعطى كلّ واحدٍ منهما ثلاثة دنانير، ولم يفضّل أحداً على أحد. وتخلّف عن هذا القَسْم رجال من بني أُميّة، وطلحة، والزبير اعتراضاً عليه، وجاء في غد ذلك اليوم الوليد بن عقبة مع جماعة، وأشار إلى قتل الإمام أباه عقبة يوم بدر، وكذلك قتل والد سعيد بن العاص هناك، وتسخيفِ الحَكَم والدِ مروان عند عثمان، وأمورٍ أُخرى، طلبوا منه أن يضع عنهم ما أصابوه من المال في أيّام عثمان، وأن يقتلَ قَتَلَتَه، فرفض ذلك كلّه، فافترقوا على إظهار النفاق وإشاعة الخلاف.

وخطب عليه السلام مرّة أخرى بعد أن بلغه خبرهم، وذكر حازماً أنّ معياره في تقسيم الأموال كتابُ الله، ونزل عن المنبر، فصلّى ركعتين، ثمّ بعث بعمّار بن ياسر وعبد الرحمان بن حسل القرشيّ إلى طلحة والزبير، وهما في ناحية المسجد فأتياهما فدَعَواهما، فقاما حتّى جلسا إليه عليه السلام. وخلاصة كلامهما هو أنّه لايستشيرهما في الأمور، ثمّ خاطباه بقولهما: خلافك عمر بن الخطّاب في

---

١ - **الكافي** ٨: ٣٦٠؛ **بحار الأنوار** ٣٢: ١٦، ٢٧؛ **أمالي الشيخ الطوسيّ**: ٧٢٩؛ **شرح النهج** ٧: ٣٦ – ٣٧.

القَسْم، إنّك جعلتَ حقَّنا في القَسْم كحقّ غيرِنا، وسوّيتَ بيننا وبين مَن لايُماثلُنا... فذكر لهما أنّه لايحتاج إلى مشورتهما في أمر وَرَد حُكمُه في كتاب الله، ولو وقَعَ حكمٌ ليس في كتابِ الله بيانُه، ولا في السنّة برهانه، واحتيج إلى المشاورة فيه لشاورتُكما فيه. وأمّا القَسْم والأسوة، فإنّ ذلك أمرٌ لم أحكم فيه باديَ بدء! قد وجدتُ أنا وأنتما رسولَ اللهﷺ يحكم بذلك، وكتاب الله ناطقٌ به[1]. فقال الزبير: «هذا جزاؤنا من عليّ! قمنا له في أمر عثمان حتّى قُتِل، فلمّا بلَغَ بنا ما أراد جعل فوقَنا مَن كنّا فوقَه[2]». وذهب ابن أبي الحديد بعد هذا الحوار إلى أنّ ما أَلِفه الناس من منهج عمر هو السبب الأصليّ لإنكار الصحابة عليه، في حين أنّ أبا بكر عمل كما عمل رسول اللهﷺ، ولم ينكر عليه أحد، وقد قال الإمامعليه السلام للصحابة الذين أنكروا عليه مستندين إلى سنّة عمر: أفسُنّةُ رسول الله أُولى بالاتّباعِ أم سُنّةُ عمر[3]؟!

وبلغت المعارضة لهذا النهج مبلغاً من الجدّ حتّى مشى طائفة من أصحاب الإمامعليه السلام إليه، وطلبوا منه أن يفضّل الأشرافَ من العرب وقريشاً على الموالي والعجم، فرفض عرضهم وقال لهم: أتأمُروني أن أطلبَ النصرَ بالجور[4]؟! ولاحقاً كتب ابن عبّاس إلى الإمام الحسنعليه السلام قائلاً: واعلمْ أن عليّاً أباكَ إنّما رَغِب الناسُ عنه إلى معاوية أنّه... وسوّى بينَهم في العطاء، فثَقُلَ عليهم[5]»، وصرّح بعضهم بأنّ سبب معارضتهم له هو أنّه لم يُراعِهم في تقسيم

١ – **شرح النهج**٧: ٣٧– ٤٢؛ **المعيار والموازنة**:١١١ – ١١٤؛ **دعائم الإسلام** ١:٣٨٤؛ **نهج السعادة** ١: ٢٠٠ ـ ٤١٥. وفيه عن **تحف العقول**:١٢٥؛ **أمالي ابن الشيخ**: المجلس ٤٤:٩٩ / الرقم ٥؛ **روضة الكافي** / الرقم ٥٥١

٢ – **شرح النهج** ٧:٣٧ ـ ٤٢.

٣ – **دعائم الإسلام**:١:٣٨٤؛ **نهج السعادة** ١:٢٢٩.

٤ – **الغارات** ١:٧٥؛ **نثر الدرّ** ١:٣١٨.

٥ – **شرح النهج** ١٦:٢٣؛ **الفتوح** ٤:١٤٩.

الأموال[1]. ومهما كان، فإنّ من خصائصه التي اشتهر بها هي أنّه قَسَم بالسَّويَّة، وعدَلَ في الرعيّة.[2]

٢- النزعات العنصريّة والقَبليّة

أشرنا في موضعٍ سابقٍ إلى أنّ مِن تبعات الفتوحات امتزاجَ العناصر والأجناس المختلفة العربيّة والفارسيّة والنبطيّة والروميّة والبربريّة، وأُخذ معظم هؤلاء ـ أو هم ذهبوا ـ إلى مناطق أخرى قصداً للهجرة أو للحرب، وكان كثير منهم أيضاً أسرى حرب لَحِقوا بالقبائل العربيّة، وأُتيَ بهم إلى الشام، والعراق، والحجاز من مناطق مختلفة، وكان يُدعى الطلقاء من الأسرى: «الموالي»، وهذا يعني أنّ الواحد منهم يعود إلى قبيلة من القبائل العربيّة، فهو الآن يرتبط بها بنحو من الأنحاء. وكان طبيعيّاً أنّ درجة الموالي أوطأ من درجة العرب، وأنّهم يتمتّعون بحقوق أقلّ، وكان من المصاعب التي واجهتها الحكومة هي كيفيّة علاجها لهذا الموضوع. ومن الثابت أنّ الإمام عليه السلام حينما ولي الأمر كان المجتمع قد فرض تفضيل العرب على الموالي كمبدأ مسلَّم به، وهذا يمثّل محنةً عسيرة لروح العدالة التي كان يحملها الإمام، وهو لا يرى دليلاً من الوجهة الدينيّة على صحّة التمييز المذكور، بل بالعكس، كان لرعاية المساواة بين جميع المسلمين أدلّتها الواضحة في القرآن والسنّة.

وبينا كان عمر يُطلق سَبْيَ العرب من بيت المال[3]، وأقرّ بذلك التمييزَ بين الأعراق المتنوّعة، كان الإمام عليّ عليه السلام يرفض أدنى تمييزٍ أو تفريق بينها... حتّى نُقل أن امرأتين أتتا إليه عليه السلام فقالتا: «يا أمير المؤمنين، فقيرتانِ مسكينتان،

---

١ - **بهج الصباغة** ٢:١٩٧ ـ ٢٠٣.

٢ - **المعيار والموازنة**:٢٢٧؛ وانظر: **حياة الصحابة** ٢:١١٣.

٣ - **الطبقات الكبرى** ٣:٣٤٢.

فقال: قد وجب علينا وعلى كلّ ذي سَعة من المسلمين إنْ كنتُما صادقتين، ثمّ أمر رجلاً قائلاً: انطلقْ بهما إلى سوقنا فاشترِ لكلّ واحدة منهما كرّاً من طعام وثلاثة أثواب، (فذكر رداءً وخماراً وإزاراً)، وأعط كلّ واحدة منهما من عطائي مئة درهم. فلمّا ولّتا سفرت إحداهما وقالت: يا أمير المؤمنين، فضّلني بما فضّلك الله به وشرّفك، قال: وبماذا فضّلَني الله وشرّفني؟ قالت: برسول الله صلى الله عليه وآله، قال: صدقتِ، وما أنتِ؟ قالت: امرأة من العرب، وهذه من المَوالي. فتناولَ شيئاً من الأرض، ثمّ قال: قد قرأتُ ما بين اللّوحين فما رأيتُ لولدِ إسماعيل على ولد إسحاق عليه السلام فضلاً ولا جَناحَ بعوضة[1]». ولمّا نوى الإمام عليّ عليه السلام تقسيم المال، قال: إنّ آدم لم يلد عبداً ولا أمَةً، وإنّ الناسَ كلّهم أحرار...ألا وقد حضر شيءٌ ونحن مُسوُّون فيه بين الأسود والأحمر[2]. وكَبُر على العرب رعايةُ المساواة بينهم وبين العجم، فجاءت الإمامَ عليّاً عليه السلام يوماً أُختُه أمّ هاني لأخذ عطائها، فأعطاها عشرين درهماً. ثمّ جاءته بعدها مولاتها العجميّة، فأعطاها المبلغ نفسه، فسخطت أمّ هاني لمّا بلغها ذلك، وذهبت عنده، فأجابها بأنّه لم ير في القرآن فضلاً للعرب على العجم[3]. وقال عليه السلام في موضع آخر وهو يخاطب المهاجرين والأنصار بأنّه لن يُعطيَ أحداً مالاً سُدىً، وقال: ولأسَوِّيَنَّ بين الأسود والأحمر.[4] وتعاملُه العادل ذاك مع الموالي والعجم سبّب اعتراض بعض المتعصّبين كالأشعث بن قيس الكِنديّ، فحين كان الإمام عليّ عليه السلام يخطب على المنبر قال له الأشعث: غَلَبْتَنا عليك هذه الحمراء!

---

١ - **أنساب الأشراف** ٢:١٤١؛ **الغارات** ١:٧٠. (وفي الهامش عن **وسائل الشيعة**، و**شرح النهج**، و**بحار الأنوار**)؛ **تاريخ اليعقوبيّ** ٢:١٨٣.

٢ - **نهج السعادة** ١:١٩٨.

٣ - نفسه ١:٢١٢.

٤ - **نهج السعادة** ١:٢١٢، ٢١٣؛ عن **الاختصاص**: ١٥١؛ و**بحار الأنوار** ٤١:١٠٦؛ و**المستدرك** ١١:٩٣.

فغضب عليه السلام، فقال ابن صُوحان: «ليبيّن اليوم من أمر العرب ما كان يخفى»، فقال عليه السلام: مَن يَعذرُني مِن هؤلاء الضَّياطرة يُقيل أحدهم يتقلّب على حشاياه، ويهجّر قومٌ لذِكر الله؟! فيأمرني أن أطردَهم فأكونَ مِن الظالمين. والّذي فلَقَ الحبّة وبرأ النَّسَمة، لقد سمعتُ محمّداً صلى الله عليه وآله يقول: لَيضربنّكم والله عَلَى الدِّين عَوْداً، كما ضَرِبتُموهم عليه بَدْءاً[1]. قال المُغيرة الضَّبّيّ: «كان عليٌّ عليه السلام أمْيلَ إلى الموالي وألطفَ بهم، وكان عمر أشدَّ تباعداً منهم[2]». ونُسب إليه عليه السلام شعرٌ يَنفي تأثير القضايا العنصريّة في الشرف الإلهيّ والإنساني:

لَعَمْـرُك مـا الإنسـانُ إلّا بدِينِـهِ   فلا تَتْرُكِ التقوى اتّكالاً على النَّسَبْ
فَقَد رَفَـع الإسلامُ سَلمانَ فـارسٍ   وقد هَجَن الشِّركُ الشريفَ أبا لَهَبْ؟![3]

٣ـ الانحرافات والشبهات الدينيّة

كانت الانحرافات وما اتّهم به الصحابةُ عثمانَ من البِدع، عقبةً أهمّ من غيرها في طريق الإمام عليّ عليه السلام، وإذا تخطّينا البدع، فإنّ المشكلة المهمّة الأخرى هي أنّ كثيراً من الناس لم يتحلَّ بوعيٍ دينيٍّ سليم، ولم يكن ليتحقّق أيّ عمل لتثقيفهم بالمعلومات الدينيّة. ونتحدّث فيما يأتي عن بعض الأمثلة

---

١ - **الغارات** ٢:٤٩٨ - ٤٩٩؛ **غريب الحديث**، أبو عبيد ٣:٤٨٤؛ **شرح النهج** ١٩:١٢٤.

٢ - **الغارات** ٢:٤٩٩.

٣ - **مختصر تاريخ دمشق** ١٠:٤٦، وفي ديوانه: وقَدْ وضَع الشركُ الشريفَ أبا لَهَبْ

كذا جاء في ديوانه الشريف قوله:

مـا للفتـى حَسَـبٌ إلّا إذا كَمُلَـتْ   أخلاقُه وحَـوَى الآدابَ والحَسَبا
لله دَرُّ فتًـى أنسـابُهُ كَـرَمٌ   يـا حبّـذا كـرمٌ أضحى لـه نَسَبا

و قوله:

كُن ابنَ مَن شِئتَ واكتسبْ أدَباً   يُغْنيـك محمـودُه عـنِ النَّسَبِ
إنّ الفتـى مَـن قـال: هـا أنَـا ذا   ليس الفتـى مَـن قـال: كـان أبي

الملحوظة للانحرافات التي واجهها الإمام عليه السلام:

لقد ثبت آنفاً أنّ رجالًا من الصحابة وبعض الخلفاء كانوا ـ مع وجود القرآن والسنّة ـ يعرضون أحكاماً على أساس المصلحة التي يرونها، وفي غضون هذا التوجّه، كان إهمال السنّة قد أصبح ذا شكل أوضح، فجاء في المصادر الحديثيّة والتاريخيّة بأدلّة أكثر، ولعلّ تعبير أبي جعفر النقيب أجلى تعبير أدلى به سُنّيّ معتدل في هذا المجال، فقد قال: «وقد أطبَقَت الصحابةُ إطباقاً واحداً على ترك كثير من النصوص [كلمات رسول الله صلى الله عليه وآله] لمّا رأوا المصلحة في ذلك كإسقاطهم سَهمَ ذوي القربى وإسقاط سهم المؤلّفة قلوبهم»[1]. وانتقد الإمام عليّ عليه السلام هذه الرؤية في خُطبة مفصّلة، وصرّح بالتزامه بالسنّة النبويّة، وقال مشيراً إلى اختلاف الآراء من أجل حلّ إحدى المسائل، ومجيء أصحابها إلى الحاكم، وتصويبه لها جميعاً:... وإلهُهُم واحد، ونبيُّهم واحد، وكتابهم واحد، أفأمَرَهُمُ اللهُ – سبحانه – بالاختلافِ فأطاعُوه، أم نهاهُم عنه فعَصَوه؟ أم أنزلَ اللهُ سبحانه دِيناً ناقصاً فاستعانَ بهم على إتمامِه، أم كانوا شُركاء لهُ، فلَهُم أن يقولوا وعليه أن يرضى؟! أم أنزلَ اللهُ سبحانه دِيناً تامّاً فقصّر الرسولُ صلى الله عليه وآله عن تبليغه وأدائِه، واللهُ سبحانَه يقولُ: ﴿**ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ**﴾؟![2] ويعبّر الإمام عليه السلام في خطبة أخرى عن عجبه من أخطاء مختلف الفئات، وأنّهم لايَقْتصُّونَ أثَر نَبيّ، ولايَقتدون بعملِ وَصيّ... يَعملُونَ في الشُّبُهات، ويَسيرون في الشَّهوات! المعروفُ فيهم ما عَرَفوا، والمنكرُ عِندَهم ما أنكرُوا. مفزعُهم في المُعضِلاتِ إلى أنفسِهم، وتَعويلُهم في المُهمّاتِ على آرائِهم، كأنّ كلَّ أمرئٍ منهم إمامُ نفسِه، قد أخذَ منها فيما يرى بعُرىً ثِقات،

---

[1] – **شرح النهج** ١٢:٨٢.

[2] – **نهج البلاغة**: الخطبة ١٨. والآية ٣٨ من سورة الأنعام.

وأسباب مُحكَمات.[١]

إنّ الطريف هنا هو أنّ الخليفة الثاني والثالث كانا يعتقدان أنّ لهما حقّ التشريع الخاصّ في بعض الأمور، وحقّ نبذ السُّنّة، كصلاة عثمان تامّةً بمنى، على عكس ما فعله النبيّ صلى الله عليه وآله والخليفتان اللّذان سبقاه، كما أنّ المسلمين أقرّوا بأفعال الخلفاء تدريجاً كسُنّة شرعيّة لا يجوز تخطّيها. وعمر نفسه قال ساعة احتضاره: «إن أستخلِفْ فسُنّة، وإلّا أستخلفْ فسنّة! تُوفّيَ رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يستخلف! وتُوفّيَ أبو بكر فاستخلف»[٢]، فعملُ أبي بكر سُنّة أيضاً عنده. وشَرَطَ عبد الرحمان بعد موت عمر أن يسلّم الخلافة لمن يعمل بسنّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسيرة الشيخَين.

ومن الأمثلة الواضحة على موقف الإمام عليّ عليه السلام من البِدَع، موقفُه من صلاة التراويح التي سنّها عمر مع اعترافه بأنّها بدعة ، ووجّهها بأنّها نِعمتِ البِدعة، على حدّ تعبيره ، فلمّا كان عليه السلام بالكوفة، أتاه جماعة، فطلبوا منه أن يجعل لهم إماماً يصلّي بهم الصلاة المذكورة في شهر رمضان، فنهاهم عن ذلك، فارتفعت الأصوات ليلاً: وارَمَضاناه! واعُمراه! فأتى الحارث الأعور في أناس فقال: «يا أمير المؤمنين، ضجَّ الناسُ وكَرِهوا قولَك»، فقال عليه السلام: دَعوهم وما يُريدون، لِيُصلِّ بهم من شاؤوا[٣]. ويكشف هذا الخبر مَن كان يعايش الإمام عليه السلام ويتعامل؟ وعلى أيّ مدىً كانوا يتّبعونه؟ وأعاد عليه السلام فقرة حيَّ على خير العمل إلى الأذان، وكان عمر قد أسقطها، وما زال الأذان ناقصاً عند أهل السنّة، وقد ذكر ابن رشد الأندلسيّ أذانَه عليه السلام، وفيه «حيَّ على خيرِ العمل»،

---

١ – نفسه:الخطبة ٨٨

٢ – **الطبقات الكبرى**٢:٣٤٢.

٣ – **مستطرفات السرائر**: ١٤٦، وفي هامشه عن **بحار الأنوار** ٣٨:٩٦؛ **وسائل الشيعة** ١٩٣:٥؛ **تفسير العيّاشيّ** ١٧٥:١. [و ليس في المصدر المذكور كلمة «واعُمَراه»] المترجم.

وعليه أجاز بعض الفقهاء السنّة ذِكْرَها[١].

وكانعليه السلام قد قال في عهده إلى مالك الأشتر مُشيراً إلى اختيار الصالحين للأعمال، وهو يذكر طلب أهل الدين الدنيا: فإنّ هذا الدِّين كان أسيراً في أيدي الأشرار، يُعمَل فيه بالهوى، وتُطلَب به الدُّنيا[٢]!

ومن الانحرافات المهمّة التي سبّبت إيجاد انحرافات أُخرى مبدئيّاً، منعُ رواية الحديث وتدوينه، وقد أشار رشيد رضا إلى أنّ هذا الأمر وَجّه ضربةً لا تُعَوَّض إلى الثقافة الإسلاميّة.[٣] وهذا العمل ـ كما أشرنا إليه في موضع سابق ـ يعود إلى الاستخفاف بالسنّة. وجَمْعُ الخلفاءِ القرآنَ وإهمالُهم القرآنَ الذي جمعه الإمامعليه السلام ـ وفيه تفسيره وشأن نزول الآيات ـ مَعْلَمُ أخر للاستخفاف بكلمات النبيصلى الله عليه وآله، والتي كان الإمام قد سجّلها وضبطها.

وذهب الإمام عليّ عليه السلام إلى أنّ السبب الأصليّ لنشوب الحروب بين المسلمين هو رسوخ الشبهة والاعوجاج في أذهان الناس، فقال: ولكنّا إنّما أصبَحْنا نُقاتِلُ إخوانَنا في الإسلام على ما دخَلَ فيه مِن الزَّيغ والاعْوجاجِ والشُّبهة والتأويل[٤]. ولهعليه السلام تأكيد خاصّ لمفهوم الشبهة، فقد قالعليه السلام في موضع آخر: وإنّما سُمِّيتِ الشُّبْهةُ شُبهةً لأنّها تُشْبهُ الحقّ[٥].

٣- الفساد الاجتماعيّ وحبّ الدنيا

كانت المشكلة الأُخرى التي واجهها الإمام عليٌّعليه السلام هي الفساد الاجتماعيّ، فإنّ نزوع الناس إلى الترف الشديد أدّى إلى إضعاف القيم الدينيّة

١ - **مستفاد الرحلة والاغتراب**، قاسم بن يوسف التجيبيّ (م٧٣٠)، تونس، الدار العربيّة للكتاب.
٢ - **نهج البلاغة**: الكتاب ٥٣.
٣ - **المنار** ٦:٢٨٨.
٤ - **نهج البلاغة**: الخطبة ١٢٢.
٥ - نفسه: الخطبة ٣٨.

في المجتمع، فلم يُقيموا للدِّين وزناً يُذكر إلّا بشكل ظاهر. وحين تمرّغ الخليفة الثالث في النعيم الجسيم، ظهرت هذه الروح في رعيّته أيضاً، فأوقعت المجتمع في مأزقٍ من الوجهة الدينيّة بالتدريج، ومُنيَ الناس بالفتنة والفساد، فلم يتسنّ لهم أن يبلغوا التوازن الأخلاقيّ بسهولة. وقد وصف الإمام عليّ عليه السلام المجتمع القائم في إحدى خطبه بأنّه مجتمع جاهليّ، فقال: ألا وإنّ بَليَّتَكُم قَد عادَتْ كهيئتِها يومَ بَعَثَ اللهُ نَبيَّهُ صلى الله عليه وآله. وتحدّث فيها عن انقلاب القيم في ذلك المجتمع، ووجوب التغيير فيه، فكان لا بدّ من غربلته، بعد أن أصبح أسفله أعلاه وأعلاه أسفله، وليسبق سابقون كانوا قصّروا، وليُقصّر سبّاقون كانوا سبقوا [كما عبّر عليه السلام].

وقال عليه السلام في موضع آخر: واعلَمُوا أنّكُم صِرتُم بعدَ الهجرةِ أعراباً، وبعدَ المُوالاة أحزاباً. ما تتعلّقُون مِنَ الإسلام إلّا باسمِه، ولا تعرفُون مِنَ الإيمانِ إلّا رَسْمَه... ألاوَقَد قَطَعْتُم قيدَ الإسلام، وعَطَّلتُم حدودَه، وأمَتُّم أحكامَه،[١]

وقال عليه السلام في فساد أهل الزمان: واعلَمُوا يَرحَمَكُم الله أنّكم في زمانٍ القائلُ فيهِ بالحقّ قليل، واللّسانُ عنِ الصِّدق كَلِيل، واللّازمُ للحقّ ذليل؛ أهلُه مُعتكِفُون عَلَى العِصيان، مُصْطَلِحُون عَلَى الادِّهان، فَتاهُمْ عارِم، وشابُّهم آثِم، وعالِمُهُم منافق، وقارِئُهم مُماذِق، لايُعظِّمُ صغيرُهُم كبيرَهم، ولا يَعُولُ غَنيُّهم فقيرَهم[٢].

إنّ ظهور معاوية بوصفة رجلاً دجّالاً منافقاً في ميدان السياسة الإسلاميّة، لأعظم فتنة وفساد في المجتمع. وكذلك التيّار العثمانيّ في البصرة، ثمّ الخوارج في الكوفة... فهذه تيّارات فاسدة، إمّا كانت تعلم أنّها على باطل، وإمّا كانت تغالط أنّها تسير في طريق الحقّ، فأغلقت الباب بوجه طلّاب

١ - **نهج البلاغة**: الخطبة ١٩٢.
٢ - نفسه: الخطبة ٢٣٣؛ **ربيع الأبرار** ١: ٩٦.

الحقّ. وكان الإمام عليّ عليه السلام يرى فتنة معاوية - كما عبّر عنها - بقوله: وقَدْ قَلَّبْتُ هذا الأمرَ بَطْنَه وظهَره حتّى مَنَعَني النوم، فما وجدْتُني يَسَعُني إلّا قتالُهم، أو الجحودُ بما جاء به محمّد صلى الله عليه وآله[١].

إحياء السيرة النبويّة والإصلاح الشامل، سياسة الإمام المبدئيّة

كان الإمام عليّ عليه السلام يرى أنّ رسالته الأساسيّة هي إصلاح أوضاع المجتمع، ويعود هذا التوجّه إلى تمسّكه بالدين والسنّة. يضاف إلى ذلك أنّنا يتعيّن علينا أن نلتفت إلى أنّ الذين قلّدوه الأمرَ أساساً هم الأشخاص الذين قتلوا الخليفة السابق لفساده، وكانوا يرجون قيام الخليفة الجديد بإصلاح ما فسد، وتناسب هدفهم مع شخصيّة الإمام عليّ عليه السلام كان أحدَ البواعث الأصليّة على توجّههم إليه. وكانت سياسةُ الخلفاء السابقين توسيعَ الفتوحات، وهذا العمل ـ بمقدار ما وسّع رقعة الإسلام، وفيه امتياز لهم ـ ملأ جيوب الناس بالدراهم والدنانير أيضاً.

ولا بدّ للإمام عليه السلام أن يستدرك مواضع العطب، وذاك أمر عسير يجعله عليه السلام في مواجهة كثيرٍ من الوجهاء النفعيّين. وسنستعرض هنا أعماله الإصلاحيّة، وينبغي أن نعرفَ بادئ ذي بدء أنّها تنقسم إلى قسمين ؛ الأوّل: الأعمال التي تجسّدت بالكلمة والتثقيف الاجتماعيّ الهادئ، والآخر: الأعمال التي تحقّقت عن طريق الحرب. والحرب بينه من؟ وبين من لم يراعُوا الحقوق الشرعيّة السائدة للمجتمع، وتمرّدوا باغين عاصين، مُصرّين محاربين. وننقل فيما يأتي أمثلةً للقسم الأوّل.

إنّ من المشاكل الأخلاقيّة التي شغلت الإمام عليّ عليه السلام بشدّة هي

---

١ - **نهج البلاغة**: الخطبة ٥٤.

التوجّهات الدنيويّة للعرب الفاتحين وطلبهم الرفاهية والمزيد، وهذا الأمر قد أذهلهم وأنساهم أنفسهم. ويمكن أن نقول على سبيل المثال: إنّ حرب الجمل كانت نتيجةَ امتناع الإمام عليّ عليه السلام من إعطاء طلحة والزبير سهماً أكثر من بيت المال. وفي مثل هذه الظروف، عزم الإمام عليّ عليه السلام على أن يتحدّث عن هذا الموضوع مفصَّلاً في خطبة ويحذّر الناس من حبّ الدنيا. وعلى هذا المنوال، كان ينهى عمّالَه في رسائله عن الجلوس على الموائد ذات السرف التي كانت طبيعيّة جدّاً في عهد عثمان. وإذا جمعنا كلماته عليه السلام في ذمّ الدنيا كوّنت كتاباً مفصّلاً[1]. ونهج البلاغة زاخر بها، ممّا يدلّ على أنّه عليه السلام كان يصرّ إصراراً خاصّاً على هذا الأمر، ونجد مثال الإنسان المتّقي الذي يقدّمه الإمام ماثلاً في الخُطبة المعروفة بخطبة همام. ونلحظ في بعض خطبه أنّه يصرّح بذمّ مخاطَبيه بسبب تعلّقهم بالدنيا. قَدْ غابَ عَن قُلُوبكم ذِكْرُ الآجال، وحضَرَتْكُم كواذِبُ الآمال، فصارَتِ الدُّنْيا أملَكَ بِكُم مِنَ الآخرة، والعاجلةُ أذْهَبَ بِكُم مِنَ الآجلة.[2]

وجعل تبيان الدّين على رأس أعماله الإصلاحيّة، وسعى في هداية المجتمع نحو الإصلاح من خلال عرض السُّنّة النبويّة الشريفة، وإحياءِ أُصول الدين وفروعه المنسيّة، فقال وهو يتحدّث عن نشاطاته لإصلاح المجتمع: ألَمْ أعمَلْ فيكُم بالثَّقَلِ الأكبر، وأتْرُكْ فِيكُم الثَّقَلَ الأصغر، قد ركَزْتُ فيكم رايةَ الإيمان، ووقَفْتُكم على حُدودِ الحَلالِ والحَرام، وألبَسْتُكُمُ العافية مِن عَدْلي، وفَرَشْتُكُمُ المعروفَ مِن قولي وفعلي، وأرَيْتُكُم كرائمَ الأخلاقِ مِن نفسي؟![3]

---

١ - ذكر الزمخشريّ عدداً منها في كتابه **ربيع الأبرار**: ٤١ فما بعدها.

٢ - **نهج البلاغة**: الخطبة ١١٣.

٣ - نفسه: الخطبة ٨٧.

وطالمـا أكّـدﷺ فـي خُطبـه تأكيـداً خاصّـاً للعمـل بكتـاب الله وسـنّة الرسولﷺ، وكان وفاؤه للسـنّة النبويّـة الكريمـة عـاملاً مهمّـاً فـي سياسـاته الإصلاحيّة، وكان يـرى مبـدئياً أنّ تخطّـي السـنّة أحـدَ العلامـات الصـريحة الواضحة للانحراف، بل هو مصدر الانحرافات. ولمّا عتب طلحة والزبير عليه لترك مشورتهما في الأيّام الأُولى من خلافتـه، قـال: والله مـا كانـتْ لـي فـي الخلافة رغبة، ولا في الوِلاية إرْبة، ولكـنّكُم دَعَوتُمـوني إليهـا، وحَمَلتُمـوني عَليها، فَلمّا أفضَتْ إليَّ نظرتُ إلى كتابِ الله وما وَضَعَ لنا، وأمَرَنا بـالحُكْم بـه فاتّبعتُه، وما استَنَّ النبيُّﷺ، فاقْتَدَيْتُه، فَلَم أَحْتَجْ في ذلك إلى رأيكُما، ولا رأيِ غيركما[1]. وقالﷺ في رعاية سنّة رسول اللهﷺ حـين عـارض عثمـانَ حـول الإحرام بالعمرة في أيّام الحجّ، أو الإحرام بالعمرة والحجّ معـاً: مـا كنـتُ لأدَعَ سُنّة رسول اللهﷺ لأحد مِن الناس[2]. ومَرِض عثمان في إحـدى السـنين التـي كانَ يتمّ فيها الصلاة بمنى. فطلب من الإمام عليّﷺأن يصلّي بالناس، فأخبره الإمام أنّه يصلّي بهم كصلاة النبيّﷺ، فلم يقبل عثمان بـذلك وطلـب منـه أن يصلّي كصلاته، فأبىﷺ [3].وكانﷺ نفسه يقول: أرأيـتم لَـو أنّـي غِبْـتُ عـنِ الناس، مَن كان يَسير فيهم بهذهِ السِّيرة؟![4]

وقال مُطرِف بن عبد الله: «صلّيتُ أنا وعمران بن حصين خلف عليٍّ بـن أبي طالب... فلمّا انصرفنا أخذ عمران بيدي، فقال: لَقَد صلّى صلاة محمّد، أو:

١ - **نهج البلاغة**: الخطبة: ٢٠٥.

٢ - **تاريخ المدينة المنوّرة**:٣: ١٠٤٣ ـ ١٠٤٤، وانظـر: **الـنصّ والاجتهـاد** ، للسـيّد شـرف الـدين الموسويّ صفحة ٢٨٤ ـ ٢٨٩ / الفصل الثالث.

٣ - **الأمالي في آثار الصحابة**: ٥٠ .

٤ - **مصنّف عبد الرزّاق** ١٠: ١٢٤.

لَقَد ذكّرني صلاةَ محمّد صلى الله عليه وآله[1].

وصلّى أبو موسى الأشعريّ خلفه عليه السلام أوّل دخوله الكوفة، فقال: ذكّرنا عليُّ بن أبي طالب صلاةَ النبيّ صلى الله عليه وآله[2]. وكان إحياء السيرة النبويّة أمراً بالغ الأهميّة في سياسات الإمام عليّ عليه السلام الإصلاحيّة، وقد أدرك هذه الحقيقة أيضاً المخلَصون من أصحابه عليه السلام، فقال عمّار بن ياسر في ذِكر أعماله البنّاءة عليه السلام: لَو أنّ عليّاً لم يَعملْ عملاً ولم يصنع شيئاً إلّا أنّه أحيى التكبيرتَين عند السجود، لَكان قد أصاب بذلك فضلاً عظيماً[3].

وأعلن الإمام عليه السلام من على المنبر في مقابل سياسة عمر وعثمان المتمثّلة بترك كتابة الحديث: أنّ مَن أراد أن يكتب العِلم فَلْيأتِ بورق وقلم، فاشترى الحارث الأعور صُحُفاً بدرهم، ثمّ جاء بها عليّاً عليه السلام فكتب لَه عِلماً كثيراً[4]، وبعده أوصى الإمام الحسن عليه السلام بَنيه أن يكتبوا أحاديث النبيّ صلى الله عليه وآله[5]. ونحن نعلم أنّ الإمام عليّاً عليه السلام نفسه كان يكتب أحاديث النبيّ صلى الله عليه وآله، وتداول الأئمّة بعده دفاتره، وكانوا ينقلون الحديث لشيعتهم من «كتاب عليّ» بانتظام[6]*.

---

١ - **أنساب الأشراف** ٢:١٨٠.

٢ - **التاريخ الكبير**، البخاريّ ٤:٣٣؛ **الغدير** ٩:٦٦، ١٠:٢٠١.

٣ - **أنساب الأشراف** ٢: ١٧٩؛ **مصنّف ابن أبي شيبة** ١:٢٠٤ (طبعة الهند).

٤ - **تقييد العلم**:٩٠؛ **ربيع الأبرار** ٣:٢٢٦، ٢٩٤؛ **تاريخ بغداد** ٨:٣٥٧؛ **التراتيب الإداريّة** ٢:٢٥٩، **الطبقات الكبرى**٦:١١٦. [والذي ورد في المصدر المذكور هو قوله عليه السلام: «مَن يشتري منّي علماً بدرهم ؟ لا كما ذكر المؤلّف في المتن] المترجم.

٥ - **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٥٦.

٦ - أُعِدّت الأقسام الباقية من هذا الكتاب في كتاب «**مكاتيب الرسول**» للمرحوم الأستاذ أحمديّ ميانجي، قمّ، دار الحديث . وبهذا الشأن انظر أيضاً: كتاب **عليّ والتدوين المبكّر للسنّة النبويّة الشريفة**، لمصطفى قصير العامليّ، قمّ، مجمع أهل البيت، ١٤١٥هـ .

*- وفي شأن منع تدوين الحديث النبويّ الشريف، هنالك دراستان وافيتان في بحث هذه الظاهرة وبيان أسبابها ونتائجها:

وكنّا لاحظنا في عهد الخليفة الثاني حَظْرَ كتابة الحديث ومنعه، وفي حين أُذِن للقصّاصين بتحديث الناس في المسجد بقصص اليهود حول الأنبياء السابقين ورهبان النصارى، فاتّخذ الإمام عليّ عليه السلام موقفه من الظاهرة القَصَص، إذ نهى الناس عنها بشدّة، بيد أنّه شجّع على كتابة الحديث. وكان عليه السلام يعارض نقل الآثار اليهوديّة أساساً، فاصطدم بمن كان ينقل قصّة داود عليه السلام وأوريا من مصادر اليهود، وأنذر بحدّ مَن يفعل ذلك[1]. ونحن نعلم أنّه نُسب إلى داود عليه السلام قتلُ العمد والزنى في هذه القصّة الكاذبة المُفتراة. ولمّا قَدِم الإمام عليّ عليه السلام إلى البصرة طرد القصّاصين من المسجد[2]. ونهى الإمام الحسن عليه السلام عن القَصَص أيضاً[3]، كما نهى الإمام السجّاد عليه السلام الحسنَ البصريّ، الذي كان قصّاصاً يوماً ما ـ عن القَصَص، فامتَثَل[4].

وقال الإمام عليّ عليه السلام في أُولى خُطبه: وإنّي حامِلُكم على مَنْهجِ نَبيِّكُم صلى الله عليه وآله[5]. ولمّا كان الإمام عليّ عليه السلام مقتدياً برسول الله صلى الله عليه وآله ومتأسّياً به لا كغيره، فإنّ معظم وصف أخلاقه وشمائله صلى الله عليه وآله نُقل عنه عليه السلام، ولهذا اختزنت

الأولى: طرحها سماحة السيّد محمّد رضا الحسينيّ الجلاليّ في كتابه الفاخر (**تدوين السنّة الشريفة** – نشر: مكتب الإعلام الإسلاميّ سنة ١٤١٣ هـ).

والثانية: طرحها سماحة السيّد عليّ الشهرستاني في كتابه العلميّ (**منع تدوين الحديث – قراءة في منهجة الفكر وأصول مدرستي الحديث عند المسلمين**) ضمن دراساته حول التشريع وملابسات الأحكام عند المسلمين - نشر: دار الغدير سنة ٢٠٠٠ م و٢٠٠٥/ ١٤٢٥هـ

١ – **مجمع البيان** ٨:٤٧٢.

٢ – **قُوت القلوب** ٢:٣٠٢؛ **وسائل الشيعة** ٢:٥١٥؛ **التهذيب** ٢:٤٨٢؛ **الكافي** ٢:٣١٢؛ وانظر:**نثر الدر** ١:٣١٢؛ **أخبار أصفهان** ١:٨٩.

٣ – **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

٤ – **وفيات الأعيان** ١:٧٠. وبشأن مواقف سائر الأئمّة انظر: «**قصه خوانان در تاريخ اسلام وإيران**» [القصّاصون في تاريخ الإسلام وإيران] للمؤلّف، قمّ، نشر دليل، ١٤٢٠هـ.

٥ – **شرح النهج** ٧:٣٦.

ذاكرتُه عليه السلام جميعَ حالاته صلى الله عليه وآله منذ البداية، ثمّ طفق يصفه صلى الله عليه وآله بأبلغ الكلمات وأفصحها[١].

قال الحسن البصريّ لمن سأله عن الإمام عليّ عليه السلام: أراهُمُ السَّبيل، وأقام لهم الدّينَ إذ اعوجّ[٢]. وكلامه هذا دقيقٌ وزين تماماً ومطابق حقّاً للسياسة التي انتهجها الإمام عليّ عليه السلام إبّان خلافته. وخاطبه أحدُ الشعراء قائلاً:

أوضحتَ مِن دِينِنا ما كان مُشْتَبَهاً   جَزاكَ ربُّك عنّا فيه إحسانا[٣]

وقال أبو ذرّ الغفاريّ في وصفه عليه السلام: عليٌّ زرُّ الدّينِ، أي: قوامه[٤]. وكان عليه السلام يصرّ على مطابقة سيرته سيرةَ النبيّ صلى الله عليه وآله، وقال في موقفه من أهل البصرة بعد حرب الجمل: سِرْتُ في أهلِ البصرة سيرةَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله في أهلِ مكّة[٥]. وذكر أنّ أحد واجبات القائد إحياءُ السُّنّة[٦]، وذهب في موضع آخر إلى أنّ أفضلَ عبادِ الله عندَ الله إمام عادلٌ هُدِيَ وهَدى، فأقامَ سُنّةً مَعلومة... وإنّ شرَّ الناسِ عندَ الله إمامٌ جائرٌ ضَلّ وضُلَّ به، فأماتَ سُنّةً مَأخوذة[٧]. وجملة القول، كان الإمام عليّ عليه السلام يتجنّب البدعة تجنّباً جادّاً، حتّى قال في ذلك: وما أُحْدِثَتْ بِدْعةٌ إلّا تُرِكَ بِها سُنّة[٨]. وعرض الإمام عليّ عليه السلام في وصيّته نقطتين تمثّلتا في

---

١ – انظر مثالها المفصّل في: **نهج السعادة** ١:٧٤ – ٧٩، والمصادر الواردة فيه. ونحن ذكرنا مصادر أُخرى في الجزء الأوّل من كتابنا، ذيل بحث: الدور التاريخيّ لرسول الله صلى الله عليه وآله .

٢ – **مصنّف ابن أبي شيبة** ١٢:٨٣.

٣ – **نقض**:٤٩٦؛ **تحف العقول**: ٣٣٨ – ٣٤٢؛ **مسند الإمام الهادي**: ٢٠٧؛ **بحار الأنوار** ٣٨: ٢٤٥ .

٤ – **الفائق في غريب الحديث** ٢:١٠٨. [في المتن: «رزّ الدين»، ولعلّه تصحيف] المترجم. الزرّ: جمعه أزرار القميص، والزرّ: مصدر زَرّ: شدّ . والرِزّ والرزّة: الحديدة التي يُدخَل فيها القفل.

٥ – **أنساب الأشراف** ٢:٢٧٣.

٦ – **نهج البلاغة**: الخطبة ١٠٥.

٧ –نفسه:الخطبة ١٦٤.

٨ – نفسه: الخطبة ١٤٥.

قوله: فَاللهَ لا تُشْرِكوا به شَيئاً، ومحمّداًﷺ فلا تُضيِّعُوا سُنّتَه[١]. ويرى الإمام عليّ عليه السلام أنّ المنافقين هم الذين قَدْ خاضُوا بحارَ الفِتَن، وأخَذُوا بالبِدَعِ دُونَ السُّنَن[٢]. وأنّ أولياء الله هم الذين يُحْيُون سُنَنَ الله وسُنَن رَسُوله[٣]، وفي كلام آخر له عليه السلام يقسّم الناس إلى: مُتَّبِعٌ شِرْعةً، ومُبْتَدِعٌ بدْعةً[٤]، وتدلّ هذه الكلمات وأمثالها في نهج البلاغة على استحكام موقفه في اتّباع السنّة واجتناب البدعة، وهذا الموقف يقابل موقف الذين أحدثوا البدع في كثير من المواطن، وعندما كان يُنكَر عليهم، يقولون: إذا كانت بدعة، فنِعمتِ البدعةً[٥].

ولم يداهن الإمام عليّ عليه السلام في أمر الدين قطّ، وكان يقول في ذلك: واللهِ ما أدْهَنْتُ في دِيني[٦]. وذات مرّة أُتي إليه برجل من بني أسد لإجراء الحدّ عليه، فطلب منه قومه بنو أسد أن لايحدّه، فقال عليه السلام: لاتَسألُوني شيئاً أملِكُه إلّا أعطيتُكم، فخرجوا وهم راضون... فأخرجه الإمام عليه السلام فحدّه، ثمّ قال: هذا لله لستُ أملِكُه[٧].

وقال عليه السلام في جهده لهداية الأمّة: أيُّها الناس، إنّي قَدْ بَثَثْتُ لكُمُ المواعظَ الّتي وعَظَ الأنبياءُ بها أُمَمَهم، وأدّيتُ إليكم ما أدَّتِ الأوصياءُ إلى مَن بَعدَهُم، وأدّبتُكُم بِسَوطي فلم تستقيموا، وحَدوتُكم بالزَّواجِرِ فلم تَستَوْسِقوا، لله أنتُم! أتَتَوقّعُون إماماً غَيري يَطَأُ بِكُم الطريق، ويُرشِدُكُم السبيل[٨]؟! وقال عليه السلام في

١ – **نهج البلاغة**: الخطبة ١٤٩.
٢ – نفسه: الخطبة ١٥٤.
٣ – نفسه: الخطبة ١٩٢.
٤ – نفسه: الخطبة ١٧٦.
٥ – انظر: **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ذيل مدخل «بدع»
٦ – **نهج السعادة** ٢: ٥٣٧.
٧ – **ربيع الأبرار** ١: ٥٣٠.
٨ – **نهج البلاغة**:الخطبة ١٨٢.

نفسه: إنّما مَثَلي بينَكُم كمَثَلِ السِّراجِ في الظُّلْمَة، يَستضيءُ به مَن وَلَجَها[١].

ومهما كان، فإنّه عليه السلام كان مصراً بالغَ الإصرار على التطبيق الدقيق للسنّة النبويّة، بل كان يسعى إلى أن تكون حركاته وسكناته جميعها كحركات النبيّ صلى الله عليه وآله وسكناته، وحين طُلِب منه أن ينخل الدقيقَ، إذْ كان يأكل الخبز مع نُخالته، في حين كان يُطعم الناسَ طيّبَ الطعام في المسجد، بكى، ثمّ قال: والله ما عَلِمتُ أنّه كان في بيتِ رسول الله صلى الله عليه وآله مُنْخُلٌ قَطّ[٢]، ومفهوم هذا الكلام أنّه عليه السلام كان يجهد في أن يكون طعامه كطعام رسول الله صلى الله عليه وآله.

الإمام عليه السلام أَمامَ الناكثين [حرب الجمل]

ما أن مضت بضعة أشهر على خلافة الإمام عليه السلام سنة ٣٥هـ، حتّى نشبت أوّل حرب داخليّة بين المسلمين بتأليب لُمّة من الناكثين يقودهم: طلحة والزبير وعائشة، وذلك في جُمادى الآخرة من سنة ٣٦هـ[٣]. ومن المناسب هنا أن نستعرض فيما يأتي الاتّجاهات السياسيّة الموجودة في المدينة آنذاك، لتتبيّن الأرضيّة التاريخيّة لهذا الحادث المرير بنحو أفضل.

أشرنا في الحوادث التي تلت وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله إلى وجود اتّجاهين: أمويّ، وهاشميّ بين المهاجرين، وكلاهما لم يستطع أن يلي أمرَ الخلافة بعده صلى الله عليه وآله. أمّا الاتّجاه الأمويّ، فلِعنادِه الطويل للإسلام، وأمّا الاتجّاه الهاشميّ فلحسد قريشٍ الهاشميّين، بخاصّة ما أشكل والتبس بينها وبين الإمام عليه السلام. ونتيجةُ إزاحةِ هذا الفريق هي سيطرةُ الجناح الوسط في قريش، أعني أبا بكر وعمر على الخلافة. ومهما كان في عهدهما، فإنّ القاعدة المناسبة في قريش

١ - **نهج البلاغة**: الخطبة ١٨٧.

٢ - **أنساب الأشراف** ٢:١٨٧.

٣ - سنذكر لاحقاً أنّ البلاذريّ ذهب إلى أنّها كانت في جُمادى الأُولى.

جميعها قد تمهّدت لخلافة عثمان الذي كان من بني أُميّة، وكان حبيبَ قلوب القرشيّين بولع شديد. وحين لم يعبأ عثمان إلّا بالأمويّين من قريش، فإنّ الاتّجاه الوسط اعتراه هوى الخلافة مرّة أخرى، ومنه طلحة الذي كان من قبيلة أبي بكر، تَيم، فقد أراد الاستيلاء على الخلافة بدعم عائشة، وكان الزبير أيضاً يساعده بمقدار معيّن، وقد هجست الخلافة في صدره حيناً، ولمّا نشبت معركة الجمل، قال ابن عبّاس للزبير: «يا ابنَ صفيّة، هذه عائشة تملك المُلْك لطلحة، فأنت على ماذا تقاتل قريبَك[1]»؟!

ولم تُتَحْ لهذا الاتّجاه فرصة في المدينة، ورأى عليّاًعليه السلام من بني هاشم قد وَليَ الخلافة بعد تزحزح الأمويّين، فماذا عليه أن يفعل؟ بادئَ ذي بدء رضي بالحكومة العلويّة الجديدة ظانّاً أنّه سيحظى بحصّة الأسد فيها، فسأل طلحةُ والزبيرُ الإمامَ أن يُؤمِّرَهُما على البصرة والكوفة أو الشام، فأخبرهما ببصيرته أنّه يحتاج إليهما في المدينة أكثر[2]. فلم يتحقّق هذا الهدف، وتوجّها ـ وهما رئيسا الاتّجاه الوسط ـ إلى مكّة قاصِدَين في ظاهرهما العمرةَ، كي يتحدّثا مع عائشة في هذا الموضوع، وكانت قد ذهبت إلى مكة قبل قتل عثمان ولم ترجع بعد.

فإلى هنا كانت ثلاثة اتّجاهات سياسيّة: الاتّجاه الهاشميّ، والاتّجاه الأمويّ، والاتّجاه الوسط لقريش الذي ظهر في خروج عبد الله بن الزبير لاحقاً، وهو يحمل عنوان «أبناء المهاجرين»، وحركةُ الجمل هي استتباب لقدرة الاتّجاه المذكور الذي يرى نفسه تابعاً لأبي بكر وعمر. وقد استطاع طلحة والزبير إقناع عائشة في مكّة بمسايرتهما، وهذا أكبر نجاح لهما... من

---

١ – **أنساب الأشراف** ٢٥٢:٢ (الهامش) عن: **تاريخ دمشق** ٦٧:٢٨؛ **تهذيب تاريخ دمشق** ٣٦٤:٥.

٢ – **تاريخ الطبريّ** ٤٢٩:٤؛ **أنساب الأشراف** ٢١٨:٢.

جهة أُخرى، كانت لعائشة علاقات عائليّة بطلحة، وهو من قبيلتها، كما كانت تُشفق على ابن أُختها عبد الله بن الزبير، وفي سفرهم المقصود كان لعبد الله هذا تأثير بالغ في تَسْيِيرها معهم، فاستطاعوا تعبئةَ ثلاثة آلافٍ من الناس، حينَها يمّموا البصرة.

وكان أوّل مستمسك للناكثين أنّ عثمان قُتِل مظلوماً، وحُكي هذا في وقتٍ كان لطلحة وعائشة والزبير القسطُ الأكبر في إيقاد الثورة على عثمان التي انتهت بقتله، ثمّ زعم هؤلاء فيما بعد - وبكلّ وقاحة وصلافة - أنّ عثمان كان قد تاب، وها هُم يثأرون لدم الخليفة المظلوم تداركاً لما فعلوه معه من قبل! ومن الثابت المقطوع به أنّ طرح هذا الأمر كان من أجل تسفيه وتضليل جمهور المسلمين الذي لم يكن له علم بحقيقة الحادثة. ومستمسكهم الآخر هو أنّهم بايعوا الإمامَ عليّاًعليه السلام في المدينة مُكرَهين، فلم تصحّ البيعة، وأنّ حكومة الإمام عندهم غيرُ شرعيّة، كما لا تعهّدَ لهم بطاعته، لزعمهم أنّ البيعة كانت إكراهاً. والحلّ الذي بسطوه هو الرجوع إلى ما كان فعله عمر في آخر حياته، أي الشُّورى، ولمّا سألت عائشةُ طلحةَ والزبير عمّا ينبغي أن تفعل، قالا لها: «تُعْلِمينَ الناسَ أنّ عثمانَ قُتِل مظلوماً، وتَدْعيهم إلى أن يجعلوا الأمَر شُورى بين المسلمين، فيكونوا على الحالة التي تركَهم عليها عمر بن الخطّاب[1]». وعَرَضُ الشورى - التي كان طلحة والزبير فيها - هي نافذةُ أملٍ لحُلْمهما بالخلافة، كما أنّ وجود تلك الشورى جعلهما وسعدَ بن أبي وقّاص يخالون أنّهم للخلافةِ أهل، حتّى قال الزبير للإمامعليه السلام أثناء حرب

---

١ - **أنساب الأشراف** ٢:٢٢٣. المصدر الرئيس لحرب الجمل هو كتاب «**الجمل**»، للشيخ المفيد، وكان صنّفه من عشرات المصادر التي كانت قريبة المتناول آنذاك، وقد استندنا إلى هذا الكتاب وإلى غيره من الكتب التي صُنّفت قبله.

الجمل: «إنّي لا أراك لهذا الأمرِ أهلاً ولا أولى به مِنّا[١]».

وأسرع الأمويّون المقيمون بالحجاز إلى دعم هذا الفريق من دافع الانتهازيّة، وفيهم: مروان بن الحكم، وعبد الله بن عامر، وعبد الرحمان بن عتّاب بن... أبي العاص، وكذلك سعيد بن العاص، وكانوا ممّن ألّبَ الناسَ على الإمام. وبعد ذلك بقليل اعتزل سعيد بن العاص، والمغيرة بن شعبة الثقفيّ الذي كان في البداية من المدافعين عن هذا التحرّك[٢]. وكانت مصاحبة الأمويّين في تلك البرهة تنطلق من انتهازيّتهم وحدها، لا من اعتقادهم كلام طلحة أو الزبير. ونحن نعلم أنّ مروان ثأر بدم عثمان حين رمى طلحةَ بسهمٍ وقتله في الساعة الأخيرة من الحرب.

وينبغي التأمّل أكثر فيما يخصّ عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وآله، فقد كانت لها مكانةٌ خاصّة في خلافة أبيها وخلافة صاحبه عمر، وكان عمر يُعطيها من بيت المال سهماً أكثر من سائر نساء النبيّ صلى الله عليه وآله، ويعود عمله هذا إلى دورها المهمّ في تطوّرات خلافته[٣]، وقيل: كان لها حقٌّ كبير على عاتق عمر[٤]. وفي المقابل، كانت عائشة تقول: «سمعتُ ليلاً ما أراه إنسيّاً نعى عمر»[٥]. بل بلغ الأمر أنّها قالت: «ما زال بي ذِكرُ عمر وترديدي فيه حتّى أُتِيتُ في المنام فقيل لي: عمر ابن الخطّاب نبيّ هو؟! فظننتُ أنّي دعوتُ بذلك»[٦]. واحتفظت بشأنها هذا

---

١ – **أنساب الأشراف** ٢:٢٥٥.

٢ – نفسه ٢:٢٢٢ – ٢٢٣؛ **الطبقات الكبرى** ٥:٣٤.

٣ – أشرنا في القسم الأوّل من كتابنا هذا إلى أنّ الإمام عليّاً عليه السلام كان يرى في صلاة أبي بكر الوحيدة مكان النبيّ صلى الله عليه وآله، أنّ الذي عرّف أبا بكر للصلاة من داخل البيت على لسان النبيّ صلى الله عليه وآله هو عائشة!

٤ – **حياة الصحابة** ٢:٣٠٠.

٥ – **الطبقات الكبرى** ٣:٣٧٤.

٦ – **تاريخ المدينة المنوّرة** ٣:٩٤٢.

حتّى آخر عمرها مستثمرةً استعدادها في نقل الحديث، وكونها زوجة النبيّ صلى الله عليه وآله، وإن لم تكن علاقتها بمعاوية حسنةً. وحاولت في تلك السنين أن تُبرز نفسها كأعزّ امرأة في نساء النبيّ صلى الله عليه وآله، وتترك لها ولأبيها صورةً مَرْضيّة، حتّى ذكرت أنّ عمرها عند عقدها كان ستّاً أو سبعَ سنين، وعند زواجها تسعَ سنين[1]. وعلى الرغم من وجود الأخبار الدالّة على أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله طَلَب من أبي بكر أن يعذره منها[2] [يُطلّقها]، كانت تقول: إنّ زواجها كان من السماء[3]! في حين نحن نعلم أنّ زينب بنت جحش كَانت الزوجةَ الوحيدة التي نالت هذا الشرف وبه كانت تتباهى[4]. وخليق بالذكر أنّ أكثر من ٩٠ ٪ من أخبار الإفك نُقِل عن عائشة نفسها، كما أنّ ما يربو على هذا العدد أيضاً من الأخبار التي نقلتها حول صلاة أبيها في الأيّام الأخيرة من حياة النبيّ صلى الله عليه وآله، وهذا كلّه طبعاً موضعُ شكٍّ جدّاً!

واصطدمت عائشة بعثمان أيَّ اصطدام! وذلك في الأيّام الأخيرة من خلافته، وكان تأثُّرها بالمعارضة التي نشبت ضدّه، وما وجّهت إليه من انتقادات، قد حَملاها على الوقوف أمامه وجهاً لوجه، وقد خاضت في السياسة منذ البداية على خلاف نساء النبيّ صلى الله عليه وآله، ولم تستطع ـ وهي ذات شخصيّة سياسيّة ـ أن تسكت حيال الثورة التي قامت على عثمان.

والنقطة الجديرة بالدراسة والتحليل هي الدوافع التي ساقتها إلى اقتراف ذلك العمل السياسيّ الخطير جدّاً، أي إيقاد نار حرب الجمل على الرغم من

---

١ – انظر: **حديث الإفك**: ١٥٨ فما بعدها للاطّلاع على الأقوال المخالفة وعلى ما ذكرته عائشة نفسها في مناقضة هذا الرأي.

٢ – **الطبقات الكبرى** ٨: ٨١.

٣ – نفسه ٨: ٦٣.

٤ – نفسه ٨: ١٠٣.

وجود العقبات الكثيرة في طريقها، فما هي الدوافع التي حملتها على توريط نفسها في تلك القضيّة؟ إنّ ما نراه هو أنّ الأمر ما دام مرتبطاً بمعارضتها للإمام عليّ عليه السلام، فالباعث الأصليّ الوحيد على اشتراكها في تلك الفتنة هو الحقد الذي كانت تكنّه منذ أيّام النبيّ صلى الله عليه وآله لبني هاشم، وعلى رأسهم فاطمة وعليّ عليهما السلام، وقد ذكر الشيخ المفيد أمثلةً على بغضها لأمير المؤمنين وضغنها عليه[١]، وإلّا فإنّا نعلم أنّها كانت أدرى الناس ببراءة الإمام عليّ عليه السلام من كلّ ما يتعلّق بقتل عثمان، كما كانت تعلم جيداً أنّ لها قسطاً كبيراً في هذا العمل[٢].

ويضاف إلى ذلك، أنّها كانت راغبة في إعادة الخلافة إلى بني تَيم، ولمّا اشتدّت المعارضة لعثمان، كانت قد ذهبت إلى مكّة لأداء فريضة الحجّ. وهناك سمعت بقتله وتَولّي طلحة الأمرَ بعده، فسرّها الخبر كلَّ السرور، وتوجّهت تلقاء المدينة، حتى إذا وافت منطقة «سَرَف» عرفت أنّ الناس بايعوا عليّاً عليه السلام، فعادت إلى مكّة ونادت بظُلامة عثمان[٣]! وحين بلغها بيعةُ الناس عليّاً عليه السلام قالت: «والله لأنْمُلة- أو قالت: لَلَيلة- من عثمان خيرٌ من عليّ الدهرَ كلّه»[٤]! ولمّا استُشهد الإمام عليّ عليه السلام، سمّت طفلاً أُتي به إليها: عبد الرحمان[٥]! [حبّاً لعبد الرحمان بن مُلجَم قاتل عليّ عليه السلام، كما قالت هي نفسها حين سُئلت عن سبب التسمية!]، وقالت لابن عبّاس بعد هزيمة الجمل: «ما خلق الله بلداً هو أبغض إليّ من بلدٍ أنتم به يا بني هاشم»[٦]. وكانت تقول في مجيء

١ - **الجمل**: ١٥٧ —١٦٠ .

٢ - انظر في هذا الشأن: موضوع «المعارضون لعثمان».

٣ - **أنساب الأشراف** ٢:٢١٧ – ٢١٨، ٥:٩١؛ **شرح النهج** ٦:٢١٥.

٤ - **أنساب الأشراف** ٥:٩١.

٥ - **الجمل**:١٦٠.وفي الهامش عن: **الشافي** ٤:٣٥٦؛ **بحار الأنوار** ٣٢:٣٤١.

٦ - **الفتوح** ٢:٣٣٧؛ **نثر الدرّ** ٤:٢١.

النبيّ صلى الله عليه وآله إلى [المسجد] في الأيّام الأخيرة من حياته: «فخَرَج رسولُ الله معتمداً على العبّاس[١]، وعلى رجل آخر! ورجلاه تخطّان في الأرض...»، قال راوي الخبر: «أتدري من ذلك الرجل؟! هو عليّ بن أبي طالب. [ولكنّ عائشة لا تطيب لذِكره نَفْساً][٢]، علماً أنّها كانت تُقرّ أحياناً بأنّ أعزّ الرجال إلى النبيّ صلى الله عليه وآله هو عليّ، وأعزّ النساء إليه فاطمة، وحين سُئلت عمّا حملها على ما فعلت، ألقت طرف خِمارها على وجهها، وقالت: حَدَث ما كان!!

وقد وردت أسباب حقدها على الإمام عليّ عليه السلام في كلام للإمام نفسه. أوّلاً: فضّله رسول الله صلى الله عليه وآله على أبيها في مواطنَ مختلفة، ثانياً: اختصّه بإخوّته صلى الله عليه وآله واختار لأبيها عمرَ في عقد المؤاخاة، ثالثاً: أغلق النبيّ صلى الله عليه وآله جميعَ أبواب الصحابة المتّصلة بالمسجد، وترك باب الإمام عليّ عليه السلام مفتوحاً، رابعاً: أعطاه الرايةَ يوم خيبر، وكان قد أعطاها لأبيها قبل ذلك اليوم فلم يستطع أن يفعل شيئاً، خامساً: بعث صلى الله عليه وآله أباها إلى مكّة بسورة براءة، ثمّ ردّه بأمر الله سبحانه، وسلّمها إلى الإمام عليّ عليه السلام، سادساً: كانت عائشة تمقت خديجة رضي الله عنها حتّى تعدّى مقتها إلى ابنتها فاطمة عليها السلام، سابعاً: حبّه صلى الله عليه وآله عليّاً عليه السلام، إذ دخل الإمام عليه صلى الله عليه وآله ذات يوم، فأجلسه بينه وبين عائشة، وأثنى عليه جواباً لها عن استيائها، فازدادت غيظاً عليه صلوات الله عليه[٣]. وكان الشيخ المفيد قد خصّص في القسم الأخير من كتابه «الجمل» فصلاً آخر لأسباب بغضها على الإمام عليّ عليه السلام[٤]. وحينما أراد بنو هاشم دفن الإمام الحسن عليه السلام جنب جدّه صلى الله عليه وآله

---

١ - ذكر المؤلّف اسم قثم بن العبّاس. وهو وهم، المترجم.

٢ - **مسند أحمد** ٦:٣٤، ٣٨.

٣ - **الجمل**:٤٠٩ - ٤١٢.

٤ - نفسه: ٤٢٥ - ٤٣٤.

عارضت، وقالت: «ما لكم ولي، تريدون أن تُدخلوا بيتي مَن لا أُحبّ»[1]! وقد عرض أحمد أمين بعض التوضيحات عن أسباب حقدها على فاطمة سلام الله عليها.[2]

وجاء طلحة والزبير مكّة، وأدركا أنّ أمرهما لايستقيم إلّا بعائشة[3]، فقالا لها: «إنّ أهل البصرة لو قد رأوكِ لكانوا جميعاً يداً واحدةً معكِ»[4]، وقال فيها الإمام عليّ عليه السلام: أطوعُ الناس في الناس[5]. وبعد مشاورات عديدة، وافقت عائشة على الذهاب معهما إلى البصرة.ولم يكن ذهابُها أو ـ بتعبير آخر ـ أخذُها باليسير، فعليها بالدرجة الأُولى أن تُجيب عن مخالفتها الصريحة البيّنة للقرآن الكريم، إذ أمر نساء النبيّ صلى الله عليه وآله بالتقرار في بيوتهنّ وعدّه واجباً شرعيّاً عليهنّ، فقال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[6]، فهذه الآية نهت نساءه صلى الله عليه وآله بصراحة عن الخروج من البيت، ذلك الخروج الذي يتجلّى مصداقه في خوض المنازعات السياسيّة، حتّى قيل: إنّ عمر كان شاكّاً في الإذن لهنّ بالذهاب إلى الحجّ، ولم يأذن لهنّ طوال سِنيّ خلافته العشر إلّا مرّة واحدة مع قيود كثيرة، وبعضهن كسَودة وزينب، لم يذهبن إلى الحجّ بسبب فهمهنّ لهذه الآية[7]. وبذلت أمّ سَلَمة غاية جهدها لصدّ عائشة عن مرادها، والطريف أنّ عائشة أرادت منها أن تذهب معهم إلى البصرة قائلةً لها: «أخبرني عبد الله بن عامر أنّ بالبصرة مئة ألف سيف... فهل لكِ أن تسيري بنا إلى البصرة، لعلّ الله تبارك

---

١ – **الجمل**: ٤٣٨.

٢ – **ظهر الإسلام** ٤:٣٨ – ٣٩.

٣ – **تاريخ الطبريّ** ٤:٤٥١.

٤ – **الأخبار الطوال**:١٤٤.

٥ – **أنساب الأشراف** ٢:٢٣٨.

٦ – الأحزاب:٣٣.

٧ – انظر: **المعجم الكبير** ٢٤:٣٤.

وتعالى أن يصلح هذا الأمر على أيدينا»؟ فقالت لها أمّ سلمة: «... بدم عثمان تطلبين! والله لقد كنتِ من أشدّ الناس عليه، وما كنتِ تسمّينه إلّا نعثلاً»! ثمّ ذكرت لها شذرات من فضائل الإمام عليه السلام، وطلبت منها ألّا تخالف رجلاً بايعه المهاجرون والأنصار، وممّا أشارت إليه هو قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «عليٌّ وليُّ كلِّ مؤمن ومؤمنة. وكان عبد الله بن الزبير على الباب يسمع ذلك كلّه... فقال: «ما سَمِعنا هذا من رسول الله قطّ»، فقالت أمّ سلمة: «إن لم تكن أنت سَمِعتَه فقد سَمِعَتْه خالتك عائشة، وها هي فاسألها، فقد سَمِعَتْه صلى الله عليه وآله يقول: عليٌّ خليفتي عليكم في حياتي ومَماتي، فمَن عصاه فقد عصاني، أتشهدين يا عائشة بهذا أم لا؟ فقالت عائشة: اَللّهمّ نعم»[1]. وكلام عائشة هو أنّها تخرج لإصلاح أمور المسلمين! وجدّت في أخذ حفصة معها، «وأرادت حفصة الخروج فأتاها عبد الله بن عمر فطلب إليها أن تقعد فقعدت، وبعثت إلى عائشة: أنّ عبد الله حال بيني وبين الخروج»[2].

وكتبت أمّ سلمة ـ وهي من محبّي أهل البيت عليهم السلام ـ وإلى الإمام عليه السلام تخبره بعزم المتمرّدين على الخروج، وقالت: «... تالله لولا ما نهى الله عزّ وجلّ عنه من خروج النساء من بُيوتهنّ، وما أوصى به رسولُ الله صلى الله عليه وآله، لَشخصتُ معك، ولكنْ قد بعثتُ إليك بأحبّ الناس إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وإليك ابني عمرَ بن أبي سَلَمة، والسلام»[3]. وبدأت تدعو أهل مكّة إلى الإمام عليّ عليه السلام وتقول: «أيّها الناس، آمركم بتقوى الله، وإن كنتم تابعتُم عليّاً فارضَوا به، فوالله ما أعرف في زمانكم خيراً منه»[4]. ولمّا سمعت زوجة النبيّ صلى الله عليه وآله الأخرى ميمونة

---

١ - **الفتوح** ٢: ٢٨٢ – ٢٨٣.

٢ - **تاريخ الطبريّ** ٤: ٤٥١؛ **الفتوح** ٢: ٢٨٤.

٣ - **الفتوح** ٢: ٢٨٤.

٤ - **أنساب الأشراف** ٢: ٢٢٤.

خبرَ تَمرّد طلحة والزبير، قالت لمن أخبرها: «... فالحقّ به [بعليّ عليه السلام] فوالله ما ضلّ ولا ضُلَّ به حتّى قالتها ثلاثاً»[1]. وكتبت أمّ الفضل بنت الحارث [زوجة العبّاس بن عبد المطّلب] إلى الإمام عليه السلام سِراً تخبره بتأهّب المتمرّدين لقتاله، ودفعت الكتاب إلى رجلٍ من جُهينة ليوصله إليه خفيةً[2]. وهكذا أعرب عدد من نساء النبيّ صلى الله عليه وآله عن دعمهنّ للإمام عليه السلام.

وكانت المدينة تحت أمر بني هاشم يومئذٍ، ولم يستطع المتمرّدون أن يعودوا إليها. وكانت الشام في قبضة معاوية، فبيّن أنّ ذهابهم إليها لا طائل لهم فيه،[3] لأنّ معاوية مطاع فيها وأهلها كالدُّمى بيده. من جهة أخرى، كان هدفهم المشترك مع معاوية هو الحؤول دون خلافة الإمام عليه السلام. وإذ كانت الشام في قبضة معاوية، فعليهم إخراج العراق من سلطته عليه السلام، وحينئذ لن تقدر الحجاز أن تفعل شيئاً. وكان عبد الله بن عامر- وهو يريد حكومة البصرة- يصرّ على ذلك أكثر. وقيل: إنّ الوليد بن عقبة نهاهم عن التوجّه إلى الشام لاعتقاده الصحيح أنّ معاوية الذي خذل عثمان، كيف يسلّم الأمرَ إلى طلحة والزبير[4]؟! ومعاوية نفسه لم يرغب في قدومهم إلى الشام، لذا كتب إلى الزبير كذباً أنّه أخذ له البيعة من أهل الشام، وطلب منه أن يملك العراق، والشام جاهزة له أيضاً، وعند ذلك لن يبقى لعليّ عليه السلام شيء. ونتيجة المفاوضات اختيار البصرة، رجاءَ أن يعجّل أصحاب طلحة والزبير البصرة والكوفة[5]

١ - **المعجم الكبير** ٢٤:١٠؛ **مجمع الزوائد** ٩:١٣٥.
٢ - **الفتوح** ٢:٢٨٦.
٣ - **أنساب الأشراف** ٢:٢٢١.
٤ - **الفتوح** ٢:٢٧٩- ٢٨٠.
٥ - **أنساب الأشراف** ٢:٢٢١ – ٢٢٢.

لنصرهم. ووضع يعلى بن منية[١] جميع الأموال الوفيرة التي أتى بها من اليمن تحت تصرّفهم، وأعدّوا بدعاياتهم جماعةً، وركبوا خيل يعلى المذكورة وتحرّكوا صوب البصرة.

وجهدت عائشة في اجتذاب الناس إلى المتمرّدين، مشيرةً إلى أنّها «أُمّ المؤمنين»، وأنّ لها حقّ الأمومة على المسلمين[٢]. ولمّا وافَوا البصرة، قعد عنهم كعب بن سور رئيس الأزد، فأتته عائشة ودعته، وكان في البداية مصرّاً على الاعتزال، لكنّه أجابها قائلاً: «أكرهُ ألّا أُجيب أمّي»[٣]. ومهما كان، فإنّ اسم عائشة كان شديد التأثير في كسب السُّذّج من الناس، حتّى استغلّه طلحة فقال في خطبته بالبصرة: «يا معشر المسلمين إنّ الله قد جاءكم بأُمّ المؤمنين، وقد عرفتم بحقّها ومكانها من النبيّ صلى الله عليه وآله، ومكان أبيها من الإسلام»!

وأعلن أهل البصرة أنّهم سيدافعون عن المتمرّدين لأجل عائشة وحدها[٤]، وقال طلحة في ساعة الصِفر: «يا أهل البصرة! إنّ عليّاً... يُريد سفك دماء المسلمين... ولا تقولوا ابنَ عمّ رسول الله، فهذه معكم زوجة الرسول... وابنةُ الصدّيق الذي كان أبوها أحبَّ الخلق إلى رسول الله صلى الله عليه وآله[٥]»! وأنشد يومَ الحملة بصريٌّ من أنصارهم قائلاً:

نحنُ نُوالي أمَّنا الرضيّة　　　و ننصرُ الصحابةَ المَرْضيّة[٦]

وفي البصرة جلب عبد الله بن حكيم التميميّ لطلحة كتبه التي كان كتبها

---

١ – في المتن: يَعلى بن أميّة، والصحيح هو يعلى بن منية . المترجم

٢ – **نثر الدرّ** ٤:١٥ – ١٦.

٣ – **الأخبار الطوال**:١٤٤؛ **الجمل**:٣٢٢.

٤ – **الجمل**:٣٠٤.

٥ – نفسه: ٣٢٩.

٦ – نفسه: ٣٤٥.

إلى البصريّين، وحرّضهم فيها على عثمان، وقال لـه: «أتعـرف هـذه الكتـب؟ قال: نعم، قال: فما حَمَلك على التأليب عليه أمس والطلبِ بدمه اليوم؟! فقـال: لم أجد في أمر عثمان شيئاً إلّا التوبة، والطلب بدمه»[١]!

وسار جيش الجمل، وفـي منتصَـف الطريـق، حيـث منطقـة «الحَـوْأب»، نبحت عائشةَ كلابُها، فتذكّرت كـلامَ رسـول الله ﷺ حـين حـذّر نسـاءه مـن الوقوع في فتنةٍ يسمعن فيها نبحَ كـلاب الحـوأب، «فعزمـت علـى الرجـوع، فأتاها عبد الله بن الزبير فقال: كذب مَن زعم أنّ هـذا المـاءَ الحـوأبُ، وجـاء بخمسين من بني عامر فشهدوا، وحلفوا على صدق عبد الله[٢]». وكـان عثمـان ابن حُنيف والي الإمام علـيّ عليه السلام علـى البصـرة، فبعـث أبـا الأسـود الـدُّؤليّ وعمران بن حصين إلى أصحاب الجمل الذين كـانوا قـد وصـلوا قريبـاً مـن البصرة، فقالا لهم: فيما قَدِمتم؟ فقالوا: نطلب بـدم عثمـان، وأن نجعـل الأمـرَ شورى. فأمر عثمان بن حُنَيف بتسليح الناس، وكـان المتمـرّدون قـد دخلـوا منطقة المِرْبَد في البصرة. وتحـدّث طلحـة فـي البدايـة عـن ظلامـة عثمـان، وأضاف قائلاً: ما بايَعْنا عليّاً إلّا بقوّة السيف، وعليه أن يعتـزل، ويكـون الأمـر شورى على سنّة عمر بن الخطّاب[٣]! وخطب الزبير وعائشة أيضاً، فقال قائلون لعائشة: صدقتِ، وقـال آخـرون: كـذبتِ! حتّـى تضـاربوا بالنِّعـال، وتمـايزوا فصاروا فرقَتين، وانتهى الأمر بالقتال[٤]. وصاح أحد المعترضين وهو من عظماء

---

١ - **أنساب الأشراف** ٢:٢٢٩ – ٢٣٠؛ **الجمل**: ٣٠٥.

٢ - **مصنّف عبد الرزّاق** ١١:٣٦٥؛ **أنساب الأشراف** ٢:٢٢٤؛ **المستدرك** ٣:١٢٠؛ وانظر: **الاستيعاب** ٤:٣٦١. (قال ابن عبد البرّ: هذا الحديث من أعلام النبوّة، وسنده أصحّ من أن يحتاج إلى بحث) ؛ **فتوح البلدان**:٥٤٩؛ **الفتوح** ٢:٢٨٨؛ **نثر الدر** ١:٢٢٧؛ **مجمع الزوائد** ٧:٢٣٤.

٣ - **الجمل**:٣٠٦.

٤ - **أنساب الأشراف** ٢:٢٢٦ – ٢٢٧.

عبد القيس: «إنّ عائشة وطلحة والزبير كانوا أشدَّ الناس على عثمان حتّى قُتِل، وبايع الناسُ عليّاً وبايعه في جملتهم طلحةُ والزبير، فجاءنا نبؤهُما لبيعتهما له فبايعناه... فصاح عليه طلحة والزبير، وأمرا بقَرْض لحيته فنتفوها حتّى لم يبق منها شيء»![1] ونقل ابن خيّاط أنّ عدداً من الناس رموهم بالحجارة في طريق دخولهم البصرة[2].

ووقّعوا – بعد استيلائهم النسبيّ على البصرة – عقداً مع عثمان بن حُنيف، جاء فيه أن يصبروا حتّى يأتي الإمام عليّ عليه السلام، بشرط أن تبقى دار الإمارة وبيت المال والمسجد بيد عثمان بن حنيف، لكنّهم لم يفوا بعهدهم إذ نكثوه، مضافاً إلى استعجالهم خوفاً من وصول الإمام عليه السلام فلا يستطيعون مقاومته، فهاجموا المسجد ليلاً وعثمان بن حنيف يصلّي العشاء، فقبضوا عليه، ونتفوا شعر رأسه ولحيته، وأرادوا قتله، بيدَ أنّهم خافوا من أخيه سهل ابن حُنيف الذي جعله الإمام عليه السلام مكانه في المدينة، فلم يفعلوا[3]، وأخرجوه من البصرة، ولمّا رأى الإمام عثمانَ بن حنيف على تلك الحال بكى[4]. وسلب المتمرّدون بيت المال بعد قتل قُرابة خمسين[5]، وقُتل خزّان بيت المال، ولمّا نظر طلحة والزبير إلى أموال بيت المال قالا: هذا ما وَعَدَنا اللهُ ورسولُه[6]!! وفي خبرٍ أنّ طلحة حين دخل البصرة، بحث عن الدراهم التي كان وُعِدَ بها[7]!

ولمّا استولى المتمرّدون على البصرة نسبيّاً، حدث خلاف بين طلحة

١ – **الجمل**:٣٠٧.
٢ – **تاريخ خليفة بن خيّاط**:١٨٢.
٣ – **الجمل**:٢٨٤.
٤ – **نفسه**:٢٨٥.
٥ – **المعارف**:٢٠٨.
٦ – **الجمل**:٤٠١.
٧ – **مصنّف ابن أبي شيبة** ١٥:٢٨٣.

والزبير حول الصلاة، فتدافعا، ثمّ تصالحا على أن يصلّي الزبير يوماً، وطلحة يوماً. ونفر حُكَيم بن جَبَلَة آمر القوّات الخاضعة لعثمان بن حنيف إلى قتالهم، مع سبعمئة رجل، وانتهى القتال بشهادته وثلاثة من إخوته[١]. وكتبت عائشة من البصرة كتباً إلى المدينة واليمامة، ودَعَتهم إلى نصرة أصحابها، وجاء في كتابها إلى أهل اليمامة: «و إنّ ابن حُنيفٍ الضالَّ المُضلّ كان بالبصرة يدعو المسلمين إلى سبيل النار، وإنّا أقْبَلْنا إليها ندعو المسلمين إلى كتاب الله»! كتبت هذا الكتاب لتبرير جرائم المتمرّدين المشاغبين في واقعة البصرة قبل قدوم الإمامعليه السلام إليها[٢]. وكتبت كتاباً آخر أيضاً إلى أهل المدينة تُعْلِمُهم فيه بنصر المتمرّدين في البصرة، وتاريخه هو الخامس من ربيع الأوّل سنة ٣٦هـ[٣].

وحين بلغ الإمامَعليه السلام نبأ ذهاب المتمرّدين إلى البصرة استخلف سهلَ بن حُنيف على المدينة، وعجّلعليه السلام المسير إلى العراق في عددٍ كبير من الصحابة وسائر أهل المدينة، الذين قيل: إنّ عددهم كان أربعة آلاف[٤]، فيما نقل سعيد ابن جبير أنّ ثمانمئة من الأنصار وأربعمئة من الذين شهدوا بيعة الرضوان كانوا مع الإمامعليه السلام في الجمل[٥]. ولمّا وجّهعليه السلام من الربذة هاشمَ بن عتبة بن أبي وقّاص إلى الكوفة ليخبر أبا موسى الأشعريّ باستنفار الناس للالتحاق بالإمامعليه السلام، امتنع أبو موسى من استنهاض الناس، وقال: أيّها النّاس! هذه فتنة، النائم فيها خيرٌ من القائم[٦]! ولم يأذن لأهل الكوفة بالإسراع إلى نجدة

---

١ - **الجمل**: ٢٨٣ - ٢٨٤.

٢ - نفسه ٣٠١ - ٣٠٢.

٣ - - نفسه ٢٩٩ - ٣٠٠ .

٤ - **تاريخ خليفة بن خيّاط**:١٨٤.

٥ - نفسه.

٦ - **الأخبار الطوال**:١٤٥.

الإمام عليه السلام، والأنكى من ذلك أنّه هدّد هاشم بن عتبة أيضاً، فرجع هاشم إلى الإمام، فوجّه عليه السلام عبد الله بن عبّاس ومحمّد بن أبي بكر لاستنفار أهل الكوفة، وهما أيضاً لم يستطيعا أن يفعلا شيئاً أمام مكائد أبي موسى، فوجّه عليه السلام ابنه الحسن عليه السلام وعمّار بن ياسر إليها، وعَزلَ أبا موسى وولّى مكانه قَرَظة بن كعب الأنصاريّ، وخطب الإمام الحسن عليه السلام في أهل الكوفة خطاباً حماسيّاً، فأجاب منهم بسبب خطابه تسعةُ آلاف وستُّمئة وخمسون، فالتحقوا بالإمام عليه السلام[1]. ودعا حُجْر بن عَدِيّ الكنديّ ـ وكان من أفاضل أهل الكوفة ـ الناسَ إلى نصرة الإمام عليه السلام، وبعد دعوته هذه عزم الناس على دعم إمامهم في كلّ حال[2]. وكان لحضور الإمام الحسن عليه السلام – بوصفه سبطَ النبيّ صلى الله عليه وآله – دورٌ مهمّ في حثّ أهل الكوفة. وكذلك، عندما كان عمّار والياً على الكوفة بُرهةً من الزمن اشتهر بالزهد والتقوى، وكان الناس يعرفونه معياراً للتمييز بين الحقّ والباطل على أساس الحديث النبويّ الشريف: «عمّار مع الحقّ، يدورُ عمّار مَع الحقّ أينما دار»[3،4]، ووافى جيش الكوفة الإمام عليه السلام بذي قار، وساروا تلقاءَ البصرة.

وانقسمت قبائل البصرة ثلاثة أقسام: فكانت ربيعة مع الإمام عليه السلام، وكان بنو ضَبّة مع عائشة، واعتزل الحربَ قسمٌ فيه الأحنف بن قيس من رؤساء بني تَميم[5].و يدلّ اعتزال عدد كبير من القبائل على أنّ اتّخاذ القرار كان عسيراً على كثيرٍ من الناس. واستتبع حضورَ بعض القبائل في الجانبين نزاعاتٌ قبليّة

١ – **الأخبار الطوال**:١٤٥؛ **أنساب الأشراف** ٢:٢٣٤ – ٢٣٥.

٢ – **الأخبار الطوال**:١٤٥.

٣ – **تاريخ ابن عساكر** ٤٣:٤٧٦. ويُعنى بالحقّ عليٌّ عليه السلام.

٤ – قال الدينوريّ في ص١٤٧ من «**الأخبار الطوال**»: إن الزبير لمّا علم أنّ عمّاراً مع عليّ رضي الله عنه ارتاب بما كان فيه، لقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «الحقّ مع عمّار، وتقتلك الفئة الباغية».

٥ – انظر: **أنساب الأشرف** ٢:٢٣٧. للاطّلاع على القبائل ومواقفها.

نوعاً ما، وخطب طلحة ساعةَ الحرب، فقال: «وقد اجتمع معه [مع الإمامعليه السلام] منافقو مُضَر، ونصارى ربيعة، ورَجّالة اليمن»! وأثار كلامه هذا اعتراض بعض الذين كانوا يخالون أنّهم جاؤوا إلى الحرب دفاعاً عن هدف المتمرّدين، فاعتزلوا الحربَ[1].

وظنّ رجالٌ كُثر أنّ تيّار التمرّد على حقّ بسبب وجود طلحة والزبير وعائشة في قيادته، فقد قال الحارث بن حوط للإمامعليه السلام: «أترى أنّ طلحة والزبير وعائشة اجتمعوا على باطل»؟! فقالعليه السلام: «يا حار إنّك مَلْبوسٌ عليك، إنّ الحقَّ والباطلَ لايُعرفان بأقْدار الرجال، اِعرفِ الحقَّ تعرفْ أهلَه، واعرفِ الباطل تعرفْ مَن أتاه[2]». وصحبَ الإمامَعليه السلام عددٌ كبير من القبائل البصريّة، وخلقٌ كثير من أهل المدينة، وفيهم عددٌ وافر من الصحابة[3]، مضافاً إلى جيشهعليه السلام الذي كان قوامه اثني عَشَرَ ألفاً: عشرةَ آلاف كوفيّ، وألفين من عبدالقيس.

ولم يرغب الإمامعليه السلام في إيقاد نار الحرب أو البدء بها قطّ، لذلك مكث ثلاثةَ أيّام بعد دخوله البصرة وهو يبعث نداءاته المتكرّرة إلى المتمرّدين طالباً منهم أن يعودوا إلى «الجماعة» و«الطاعة»، لكنّه لم يلقَ منهم جواباً مُرضياً[4]. ثمّ بعث صَعصعةَ بن صُوحان في كتابٍ إلى البصرة، فتكلّم هذا الرجل مع طلحة والزبير، وحينما تحدّث مع عائشة، شعر أنّها أسرعُ الاثنين إلى الشرّ. وبعد رجوعه وجّهعليه السلام عبدَ الله بن عبّاس إلى البصرة، فقال لطلحة: ألم تبايع؟ قال: كان السيف على رأسي، فقال ابن عبّاس: كنتُ شاهداً أنّك بايعتَ طائعاً. وتحدّث طلحة عن دم عثمان، فقال له ابن عبّاس: «ألم تعلم أنّك حصرتَ

---

١ - **الجمل**: ٣٣٠.

٢ - **أنساب الأشراف** ٢: ٢٣٩، ٢٧٤.

٣ - انظر: نفسه ٢: ٢٦٧، ٢٦٩. (الهامش) للاطّلاع على حضور صحابة النبيّصلى الله عليه وآله.

٤ - **الأخبار الطوال** ٢: ١٤٧.

عثمانَ حتّى مكث عشرة أيّام يشرب من ماء بئره وتمنعه من شرب الماء الفرات، حتّى كلّمك عليٌّ عليه السلام في أن تُخلّي الماء له وأنت تأبى ذلك»؟ ثمّ تحدّث ابن عبّاس مع عائشة أيضاً. وكانت عائشة مطمئنّة بنصرها إلى درجة أنّها لم تُبدِ أيّةَ مرونة من نفسها. وحاول ابن عبّاس باستدلالاته الوثيقة الرصينة أن يحذّرهم من الخطر الذي ينتظرهم، فأبوا[1].

على أيّ حال، كان الإمام عليّ عليه السلام يُصرّ على أن لاتنشب الحرب، ومنع عليه السلام أصحابه من أن يبدأوا القوم بقتال، وأعلن أنْ لا حقّ لأحدٍ أن يبدأ القتال[2]. حتّى أنّه أعطى ابن عبّاس مصحفاً في يوم اضطرام الحرب قبل الظهر ليذهب به إلى طلحة والزبير ويدعوهما إلى القرآن؛ فتحدّث ابن عبّاس معهما، لكنّ عائشة لم تأذن له أن يتكلّم، وقالت له: «قل لابن عمّك: ما بيننا وبينك إلّا السيف». قال ابن عبّاس: «فوالله ما رُمت مِن مكاني حتّى طلع عليّ نُشّابُهم كأنّه جرادٌ مُنتشر»![3]

وتهيّأ جيشُ الإمام عليّ عليه السلام في اليوم العاشر من جمادى الأُولى[4] صباحاً للقتال، وكانت الخريبةُ منطقةَ القتال، وهي واقعة قبل البصرة، ثمّ صارت حيّاً من أحيائها. وقف الإمام عليه السلام أمامَ الجيش المتمرّد ذلك اليوم حتّى الظهر ينصحهم، وخاطب عائشة قائلاً: إنّ الله أمرَكِ أن تَقَرّي في بيتِك؛ فاتّقي الله وارجعي، وعنّف طلحةَ والزبيرَ على جلبهما عائشة. وكان مالك الأشتر على

---

١ - **الجمل** ٣١٤ – ٣١٨.

٢ - **وقعة الجمل**:٣٦.

٣ - **الجمل**: ٣٣٦ – ٣٣٩.

٤ - نفسه: ٣٣٦. ونقل البلاذريّ أن الحرب كانت في العاشر من جُمادى الآخرة . انظر: **أنساب الأشراف**:٢٣٨. وتاريخ كتاب الإمام عليه السلام إلى أهل الكوفة الذي أخبرهم فيه بالفتح والظفر على أصحاب الجمل هو جمادى الأولى . انظر: **الجمل**: ٣٩٩.

ميمنته، وعمّار بن ياسر على ميسرته، والنُّعمان بن ربْعي الأنصاريّ ـ وعلى قول جُنْدَب بن زهير الأزديّ ـ على الرجّالة، واللّواء مع ولده محمّد ابن الحنفيّة. وخطبعليه السلام جيشه خطبةً حماسيّةً هيّأهم فيها لقتال المتمرّدين[1].

وفي ذلك الجانب كانت عائشة في هودجٍ على جمل وقد أُلبِس دروعاً، فحضرت في ساحة الحرب وبدأت تخطب، وتُكثر من الكلام عن ظُلامة عثمان. وأعطى الإمام عليّعليه السلام في البداية شابّاً من عبد القيس مصحفاً، وأمره أن يذهب إلى الميدان ويدعوَ المتمرّدين إلى القرآن، ويحذّرهم من التفرقة والتشتّت. فرَمَوه بسهم فاستُشهد!«وكانت أمّه حاضرةً فصاحت وطرحت نفسها عليه وجرّته من موضعه، وأعانها جماعةٌ من عسكر الإمامعليه السلام على حمله، حتّى طرحوه بين يديهعليه السلام»[2]، ولمّا استُشهد هذا الشابّ أمر الإمامعليه السلام محمّد ابن الحنفيّة أن يزحف إلى المعتدين، بعد أن كانعليه السلام يرفض حتّى ذلك الوقت أن يبدأ جيشُه القتال[3]. ونشب القتال بين الجانبين من الظهر إلى المساء، وكان استعار الحرب حول جَمَل عائشة، إذ جاء في بعض الأخبار أنّ سبعين يداً آخذة بزمام جملها قد قُطِعت! وحاولت عائشة التمويه على الناس، فأخذت تراباً - كما فعل رسول اللهصلى الله عليه وآله في معركة بدر - وحثته في وجوه أصحاب الإمامعليه السلام، وقالت: «شاهتِ الوجوه!» فقال لها الإمامعليه السلام: «وما رَمَيتِ إذ رَمَيتِ يا عائشة، ولكنّ الشيطانَ رَمى»[4]! وحين أشرف الجيش المتمرّد على الهزيمة، أصاب مروانُ بن الحكم طلحةَ بسهمٍ فقتله، وكان

١ - **الجمل**:٣٣٤.

٢ - نفسه:٣٣٩ – ٣٤٠؛ **مصنّف ابن أبي شيبة** ٧:٥٣٧؛ **أنساب الأشراف** ٢:٢٤١.

٣ - **أنساب الأشراف** ٢:٢٤٠ – ٢٤١.

٤ - **الجمل**: ٣٤٨؛ **شرح النهج**:٢٥٧.

لايرى أحداً قَتلَ عثمان غيرَه[١]. والعجيب أنّ ابن خيّاط ذهب إلى أنّ الحرب حين بدأت كان طلحة أوّلَ قتيلٍ فيها[٢]! وهذا يدلّ على أنّ مروان ما جاء إلى الحرب إلّا لقتل طلحة ، وكان مروان فيما بعد يفتخر بذلك، كما نقل هو نفسُه هذا الموضوعَ للإمام السجّادعليه السلام[٣]. وقيل: إنّ الإمام عليّاً عليه السلام نادى طلحةَ في ميدان الحرب، وقال له: «يا أبا محمّد! تذكر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال فِيّ: اَللّهمّ والِ من والاه، وعادِ مَن عاداه»؟! فقال طلحة: أستغفر الله، ولو كنتُ ذكرتُ ذلك لَما خرجتُ[٤].

وبقيَ الزبير في الجيش بإصرار ابنه عبد الله، ولم يترك الميدانَ رغم كلام الإمام عليّ عليه السلام معه ونصحه إيّاه، ورغم ما نُسِب إلى الزبير من الشكّ والتذكّر والحيرة في تلك اللّحظات، حيث ذكّره الإمامعليه السلام في موضعٍ من المواضع بكلام النبيّ صلى الله عليه وآله إذ قال لعليّعليه السلام: «لَيُقاتلَنَّك ابنُ عمّتك وهو لك ظالم»، فأيّد الزبير هذا الخبر![٥] وثمّة خلاف بين المصادر في موقفه، أفرّ مِن ساحة القتال[٦]، أم تركها نادماً؟ وهذا محتمل، إذ قصد الانصراف بعد حديث الإمامعليه السلام معه؛ لكنّه عاد إلى القتال مرّة أخرى بإصرار ابنه عليه وحثّه وخداعه، ولمّا هُزم جيشه فرّ، فزعمت المصادر المعنيّة أنّه ندم، وذلك تنزيهاً منها له؛ في حين أنّه لو كان نادماً حقّاً لاتّخذ قراراً جادّاً في الرجوع منذ البداية... وعندما غادر

---

١ - **أنساب الأشراف** ٢:٢٤٦ – ٢٤٧.

٢ - **تاريخ خليفة بن خيّاط**:١٨٥.

٣ - **الجمل**: ٣٨٣.

٤ - **وقعة الجمل**، للغلابيّ: ٤٢، **مختصر تاريخ دمشق** ١١:٢٠٤.

٥ - **أنساب الأشراف**٢:٢٥٥. **الأخبار الطوال**:١٤٧.

٦ - قال أبو مِخْنَف: مضى الزبير حين هُزم الناسُ، يريد المدينة، ... فقُتِل . **أنساب الأشراف** ٢:٢٥٤. وهذا الكلام لا يعني إلّا الفرار وحدَه.

ساحة الحرب، أتبعه شخصٌ يُدعى ابنَ جرموز، فقتله حين انتهز الفرصة. وفيه قال الإمام عليّ عليه السلام: وإنّ الزبيرَ كان أقربَ إليّ مِن طلحةَ، وما زال مِنّا أهلَ البيت حتّى بلَغَ ابنُه المشؤوم عبدُ الله، فقطع بينَنا[1].

وكان لمالك الأشتر جهدٌ عظيم في هذه الحرب، وكان العدوّ يهتمّ بالغ الاهتمام من أجل قتله؛ بحيث إنّه لمّا اشتبك مع عبد الله بن الزبير وأوشكَ أن يُهلكه، وثب إلى ابن الزبير أصحابُه ليخلّصوه من القتل، وكان قد صاح: «اقتلوني ومالكاً»[2]، وكان هدفه هو أن يُقتَل مالك الذي كان له دورٌ مهمّ في جيش الإمام عليّ عليه السلام. كما كان شديد الولاء للإمام عليه السلام. وكان عَدِيّ بن حاتِم الطائيّ من المدافعين عن الإمام عليه السلام، وقد ذهبت عينُه في هذه الحرب، واستُشهد ابنُه. وكان عَمْرو بن الحَمِق الخُزاعيّ من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد قاتل في هذه الحرب إلى جانب أمير المؤمنين عليه السلام، وفيه قال الدينوريّ: «كان من عُبّاد أهل الكوفة، ومعه النُّسّاك»، وذكر أنّهم قاتلوا معه قتالاً شديداً[3].

ولمّا نظر الإمام عليّ عليه السلام إلى مقاومة البصريّين في أطراف الجمل، أمر بعقره... فأحاط به عددٌ من أصحابه عليه السلام، فعقروه، وكانت عائشة تقول فيما بعد: «كنتُ أنظرُ مِن داخل الهودج إلى عليّ بن أبي طالب يباشر القتال بنفسه، وأسمعه يصيح: الجملَ الجمل![4] وجاء الإمام عليه السلام إلى الهودج وعَذَلَ عائشةَ قائلاً: يا شُقَيراء[5]! ومن الحريّ بالذّكر هنا أنّها كانت تنظر من ثقب قد صُيِّر لها في الهودج، «فقالت لرجلٍ من ضَبّة وهو آخذٌ بخِطام جملها: أينَ ترى عليّ

---

١ - **الجمل**:٣٨٩؛ **مختصر تاريخ دمشق** ٩:٢٤.
٢ - **الأخبار الطوال**:١٥٠.
٣ - نفسه.
٤ - **الجمل**:٣٧٩.
٥ - نفسه: ٣٦٩.

ابن أبي طالب؟ فقال لها: هو ذاك رافعاً يَدَيه إلى السماء... فنظرت عائشة إليه ثمّ قالت: ما أشبهَهُ بأخيه! فقال الضَّبّيّ: ومَنْ أخوه؟ قالت: رسولُ الله صلى الله عليه وآله، فَنَبَذَ خِطامَ جَملِها من يده، ومال إلى عليٍّ كرمّ الله وجهَه»[1]!

ولمّا انتهت الحرب أخرجت عائشة من هَودجها كالجثّة الهامدة، وأُرسلت مع أخيها محمّد بن أبي بكر إلى البصرة؛ وبعد أيّام أشخصها الإمام عليّ عليه السلام إلى المدينة مع نساءٍ ورجالٍ من أهل البصرة[2]. وكانت تُعرِب عن ندمها على ما فعلت مراراً[3]، وعندما كانت تقرأ الآية الكريمة: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ تبكي حتّى تُبلّ خمارَها[4]. قال ابن قتيبة: «دخلت امرأة على عائشة فقالت: يا أمَّ المؤمنين، ما تقولين في امرأة قتلت ابناً لها صغيراً؟ قالت: وجبت لها النار، فقالت: فما تقولين في امرأة قتلت من أولادها الأكابر عشرين ألفاً؟! قالت: خذوا بيد عدوّة الله»[5]. وقالت عند وفاتها: «إنّي قد أحدثتُ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فادفنوني مع أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله» (لا مع النبيّ صلى الله عليه وآله)[6]. وجاء في خبرٍ أنّها كانت تقول: «ولو لم أشهد الجمل لكان أحبَّ إليّ من أن يكون لي من رسول الله صلى الله عليه وآله عشرة أولاد ذكور»[7].

وقد قُتل في هذه الحرب عددٌ كبير من قبائل البصرة. فنقل البلاذريّ أنّ الّذين قُتلوا من الأزْد ألفانِ وخمسُمئة واثنان وخمسون، ومن بكر بن وائل

١ - سمط النجوم العوالي ٢:٤٤٠.
٢ - أنساب الأشراف ٢:٢٤٩.
٣ - نفسه ٢:٢٦٥.
٤ - نفسه ٢:٢٦٦.
٥ - عيون الأخبار ١:٢٠٢.
٦ - الطبقات الكبرى ٨:٧٤.
٧ - الفتوح ٢:١٣٤؛ الطبقات الكبرى ٥:٦.

ثمانمئة، ومن بني ضَبّة خمسمئة، ومن بني تميم سبعمئة [١]. ووردت إحصائيّات أخرى أيضاً، وهي مُبالَغٌ فيها كما يبدو، فقد قيل:إنّ قتلى الجمل جميعاً عشرون ألفاً [٢]، وجاء في خبرٍ آخر عن عبد الله بن الزبير أنّهم خمسة عشر ألفاً، وذهب الشيخ المفيد إلى أنّ العدد عشرون ألفاً [٣]، ونقل رجل يُدعى أبا حاتِم عن جدّته أنّهم عشرون ألفاً، [٤] ولا يصحّ هذا العدد على الظاهر، فحربٌ استمرّت خمسَ ساعات أو ستَّ ساعاتٍ لا يمكن أن تبلغ خسائرها هذا الحجم. وقيل: إنّ الشهداء من جيش الإمامعليه‌السلام كانوا بين أربعمئة إلى خمسمئة شخص [٥].

والوجوه المعروفة البارزة منهم ستّة: زيد وسيحان ابنا صُوحان، وصقعب وعبد الله أخَوا سُلَيم بن مخْنَف (جدّ أبي مِخنف المؤرّخ)، وعلباء بن الحارث السُّدوسيّ، وهند الجمليّ [٦]. ومن الثابت أنّ هذه الهزيمة السريعة لجيش البصرة (خمسمئة قتيل مقابل أكثر من تسعة عشر ألفاً من المتمرّدين) كانت تدلّ على أنّ الجيش المتمرّد كان يفتقد الحوافز القويّة على الحرب، بالرغم من وجود «أمّ المؤمنين» بين ظهرانيه. والمشكلة الرئيسة هي أنّ طلحة وعائشة ـ مع اشتهارهما في قضيّة عثمان ـ كانا أسوأ سُمعةً من أن يستطيعا خُداع أهل البصرة ويعرّفا أنفسهما طالبَين بدم عثمان.

ولمّا انتهت الحرب، أمر الإمامعليه‌السلام أن لا يُلاحَق مُدبِر، ولايُقتَل مستسلمٌ

١ - **أنساب الأشراف**٢:٢٤٨.

٢ - نفسه ٢:٢٦٥.

٣ - **الجمل**:٤١٩.

٤ - **تاريخ خليفة بن خيّاط**:١٨٦.

٥ - نفسه.

٦ - نفسه:١٩٠.

طارحٌ للسلاح، ولا يُجهَز على جريح. بل أطلق عليه السلام رجالاً مثل مروان وأبناء عثمان. وقال مروان للإمام في تلك اللّحظة: «إنّي لا أُبايعك حتّى تُكرِهني»، فقال له الإمام عليه السلام فإنّي لا أُكرِهك. وذكر عليه السلام أنّه حتّى لو بايع مروانُ فإنّه سينقض البيعة كاليهود[١]. ولم يغنم عليه السلام من أموالهم إلّا ما قاتلوا به وعليه، ولم يأذن في أخذ الأموال الخاصّة للمقتولين والمنهزمين. وكان هذا الأمر عجيباً عند أناسٍ كانوا حتّى ذلك الحين يأخذون غنائم كثيرة بعد كلّ حربٍ يغلبون فيها على عدوّهم! ، واعترضوا على الإمام في هذا المجال، فذكر لهم أنّه لو قسّم الأموال، فمَن الّذي تكون عائشة في سهمه؟! فأخجلهم بكلامه هذا. بَيْدَ أنّ المسألة ظلّت بلا حلٍّ عند العرب البسطاء، إذ قالوا للإمام عليه السلام: «كيف حلّ لنا قتالهم، ولم يحلّ لنا سبيهُم وأموالهم»[٢]؟!

وتفقّد الإمام عليه السلام القتلى، ولمّا وقف على كعب بن سور (قاضي عمر السابق على البصرة)، رأى المصحف في عنقه، فقال عليه السلام: نَحُّوا المِصحفَ وضَعُوه في مواضع الطهارة. ثمّ أمر أن يُجلَس أمامه، فأُجلس، فتكلّم معه ككلام النبيّ صلى الله عليه وآله مع قتلى قريش يوم أُحد، فقال له: يا كعب بن سور، قد وَجدتُ ما وعَدَني ربّي حقّاً، فهل وجدتَ ما وعدَك ربُّك حقّاً؟![٣]

وجاء عليه السلام إلى المسجد الجامع بعد فتنة الجمل، وبدأ يذمُّ أهل البصرة الناكثين، إذ كانوا أوّل قومٍ خلعوا طاعة إمامهم، فسمّاهم جُنْدَ المرأة، وأتْباع البهيمة[٤].

---

١ - **أنساب الأشراف** ٢:٢٦٣. (المتن والهامش)

٢ - **الأخبار الطوال**:١٥١.

٣ - **الجمل**:٣٩٢.

٤ - **الأخبار الطوال**: ١٥١؛ **الجمل**:٤٠٧؛ **ربيع الأبرار**:٣٠٨.

وكتبعليه السلام إلى المدينة والكوفة كُتباً يُخبر فيها أهلهما بواقعة البصرة[١]، ثمّ أمر بفتح بيت المال، وقسَّمه بين أصحابه بالسويّة، وكانوا على ما قيل: اثني عشر ألفاً. وخاطبعليه السلام الأموال على عكس ما خاطبها طلحة والزبير حين نظرا إليها قائلَين: هذا ما وَعَدَنا اللهُ ورسوله»، فقالعليه السلام: يا صَفْراء، يا بيضاء، غُرّي غَيري[٢]. ومكثعليه السلام في البصرة حيناً، ثمّ توجّه إلى الكوفة في يوم الإثنين الثاني عشر أو السادس عشر من رجب سنة ٣٦هـ[٣]، بعد أن استعمل عليها عبدَ الله بن عبّاس. وذُكر أنّ دخوله في الكوفة كان يوم الإثنين الثاني عشر من شهر رجب[٤].

استقرار الإمامعليه السلام في الكوفة

توجّه الإمامعليه السلام إلى الكوفة بعد إخماد تمرّد الناكثين، وأقام فيها حتّى استشهاده. ومن المستبعَد أنّه قصدعليه السلام ترك المدينة إلى الأبد، وإن كان بعيداً إمكانُ رجوعه إليها بعد استقرارهعليه السلام في الكوفة. ويتعيّن علينا أن نَعُدَّ ذهابه إلى الكوفة نوعاً من الهجرة لحفظ الدين من يد الناكثين والمفسدين كمعاوية، وكان للعراق موقعٌ حضاريّ مهمّ يومئذٍ.

وتلا الفتوحاتِ واتّساعَ نطاقِ الإسلام تفوّقُ الشام والعراق على المدينة، وبتعبيرٍ آخر، على الحجاز. والذي سبّب زيادة أهميّتهما أمران؛ الأوّل: هجرة

---

١ - **الجمل**:٣٩٥ – ٣٩٩.
٢ - نفسه:٤٠١ – ٤٠٢.
٣ - **الفتوح** ٢:٣٧٤؛ **الأخبار الطوال**:١٥٢؛ **أنساب الأشراف** ٢:٢٧٣؛ ومن الجدير بالذكر أنّ كتاب الإمام عليه السلام إلى قرظة بن كعب حاكم الكوفة حول خبر الفتح كان في رجب من هذه السنة. انظر: **الجمل**: ٤٠٤. ومن الواضح أنّ هناك خلافاً في تاريخ هذه الوقائع، وأنّ تحليلها ودراستها يحتاج إلى تحقيقٍ مستقلّ.
٤ - **الأخبار الطوال**:١٥٣.

عدد كبير من قبائل الجزيرة العربيّة إليهما، وفيهم جمعٌ كثير من الصحابة أيضاً، والثاني:أنّ مساحة الإقليمَين المذكورَين، وإمكانيّاتهما، وطاقاتهما الكامنة لا يُقاس ما في الحجاز بمثلها. ولمّا بدأ المتمرّدون الناكثون زحفهم في مكّة، أدركوا أنّ عليهم أن يسبقوا الإمام عليّاًعليه السلام إلى الاستيلاء على العراق، فتوجّهوا إليه. ولو أفلحوا في السيطرة على الكوفة والبصرة، لانتهى أمرُ الحجاز. ومشكلتهم أوّلاً: أنّهم سيطروا على البصرة وحدها سيطرةً ناقصةً، وثانياً: أنّ الكوفة كانت خارجةً من قبضتهم تماماً. وفي المقابل استطاع الإمامعليه السلام - ولو بجهدٍ جهيد - أن يُخضِع الكوفةَ، ويجعلها للمستقبل قاعدةً لشيعته. ومن المؤسف أنّ عمل المتمرّدين الناكثين لم يؤدِّ إلى إقبال البصرة على المذهب العثمانيّ فحسب، بل أدّى إلى ظهور عداءٍ دائمٍ بينها وبين الكوفة، وإلى تبديد وحدتهما أيضاً.

إنّ خروج الإمام عليّ عليه السلام من مدينة النبيّصلى الله عليه وآله لم يكُ أمراً يسيراً، كما لم يكن فراراً منها؛ كخروج رسول اللهصلى الله عليه وآله من مكّة، إذ غادرها رغم ما كانت عليه من قداسة، وشعوره بحبّ الوطن. ولم يكن لهصلى الله عليه وآله فيها أنصارٌ يُشارُ إليهم يومئذٍ، وعلى عكسها كانت المدينة بإمكانيّاتها الاقتصاديّة والبشريّة مستسلمةً له. وأدرك الإمامعليه السلام في الشهور الأُولى من خلافته أنّ له عدوَّين غدّارين: استولى أحدهما على الشام، والآخر على البصرة، وها هو يحاول أن يُخرِج الكوفة من قبضتهعليه السلام. وكان الاستيلاءُ على البصرة والكوفة يعني أنّ جميع منطقة الشرق الإسلاميّ بإمكانيّاتها الاقتصاديّة كلّها هي تحت يدهم. ولم يكن الإمام عليّعليه السلام بالرجل الذي لا يبالي حيال هذه المشاكل فيعتزل الخلافة؛ وهذا تفكيرٌ كان يخامر المتمرّدين الذين كانوا يظنّون أنّهعليه السلام، برؤيته هذا الوضع، سيجعل الأمر شُورى. وعلى العكس كانعليه السلام عازماً على قتال

المتمرّدين، لذا سار صوب العراق مسرعاً، والسبب الرئيس لهذا الأمر هو أنّ المدينة لا قِبَل لها بمواجهة أعدائه عليه السلام، وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: فقدان الحجاز القدرةَ على مواجهة العراق أو الشام من الوجهة الاقتصاديّة. فالمدينة، التي كانت أفضل منطقة فيه، عاجزة عن إشباع أهلها، فكيف تستطيع تموينَ جيشٍ عظيم؟ ثانياً: عجز المدينة -باعتبار طاقتها البشريّة ـ عن خوض حرب شعواء مع الشام، فالحدّ الأعلى لعدد الجند المدنيّين الذين كانوا معه عليه السلام في حرب الجمل هو أربعة آلاف، [1] ومِثلُ هذا العدد لايستطيع أن يعالج مشاكل الخلافة في مواجهة أعدائها الكثيرين. ثالثاً: رغبة أهل المدينة ـ إلّا الأنصار ـ عن الإمام عليه السلام، فلم يكونوا محبّين له كثيراً، إذ كان القسم الأعظم منهم يتكوّن من المهاجرين وأبنائهم، وأيضاً المكّيّين الذين هاجروا إليها بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله، ولم يأذن قرابة الأمويّين، وكذلك قرابة الناكثين، في تعاون أهلها التامّ مع الإمام عليه السلام. وكان حبّ النّاس المُفرِط للرفاهية والنعيم الذي أحسّوا به في عهد عثمان قد أفقدهم الروحَ الثوريّة والشعبيّة والدينيّة والحربيّة. ويجب هنا أن نضيف إلى هذه المطالب نقطةً أخرى أيضاً، وهي أنّ أهل المدينة، بخاصّة بعض الصحابة المبرَّزين كعبد الله ابن عمر، وسعد بن أبي وقّاص، ومحمّد بن مسلمة، وأسامة بن زيد، وزيد ابن ثابت، وكثير مثلهم لم يحملوا أدنى حبٍّ للإمام عليه السلام، وكانوا يرون أنفسهم أعلم وأكثر اجتهاداً من أن يسمعوا كلامه. وحينما كان عليه السلام في الكوفة، كتب إليه واليهِ على المدينة سهل بن حُنَيف يُخبره بذهاب كثير من النّاس إلى معاوية، فكتب عليه السلام في جوابه: أمّا بعدُ، فَقد بَلَغَني أنّ رجالاً مِمَّنْ قِبَلَك يَتسلّلُون إلى مُعاوية، فلا تَأسفْ على ما يَفوتُك مِنْ عددِهم، ويَذهبُ عنكَ مِنْ

---

١ - تاريخ خليفة بن خيّاط:١٨٤.

مَدَدِهِمْ، فكفى لَهم غَيّاً، ولكَ مِنهمْ شافياً، فرارُهُم مِنَ الهُدى والحقّ، وإيضاعُهُم إلى العَمى والجَهل؛ وإنّما هُم أهلُ دُنيا مُقبلون عليها، ومُهْطِعون إليها، وقد عَرَفوا العدل ورأوه، وسَمِعوه ووَعَوهُ، وعَلِمُوا أنَّ النّاس عندَنا في الحقِّ أُسْوة، فهَرَبوا إلى الأثَرة، فَبُعْداً لَهُم وسُحْقاً[1]. ولم يكن أهل مكّة بأفضلَ من أهل المدينة، فلمّا كتب الإمام عليه السلام إلى خالد بن العاص بأخذ البيعة منهم، أبَوا[2].

أمّا الكوفة فقد كانت من جهاتٍ متعدّدة ذاتَ ظروف مناسبة تماماً في مقابل المدينة. والعراق في الوهلة الأُولى يخلو من المشكلة السكّانيّة، فقد كانت تعيش فيه قبائل كثيرة، وهي القبائل التي عبّرت عن قوّتها العسكريّة أثناء فتح بلاد فارس. ومن الوجهة الاقتصاديّة أيضاً، كان سَواد العراق أهمّ مصدر لثروة أهله، ويضاف إلى هذا أنّ خراجاً وجزيةً جمّةً من فارس والعراق كانت بيد المسلمين، وهي تُعَدّ ثروةً لا حصر لها. وعندما طلب عُقبة ابن عامر من الإمام عليه السلام أن لايغادر المدينة، وأن يرسل إلى العراق والياً من قبله، قال عليه السلام: إنّ الأموال والرجال بالعراق[3]، وهذه ملاحظةٌ كانت واضحةً للآخرين أيضاً. ولمّا أراد عبد الله بن عامر أن يترك البصرة إلى مكّة بعد قتل عثمان، قال له الوليد بن عقبة:

تركتَ العراق وفيها الرجال وجئت إلى البلدة الخاملة[4]!

وأظهر ابن أعثم أهميّةَ العراق بنحوٍ كأنّ الشّام صُقْعٌ واحد من أصقاعه[5].

---

١ - **نهج البلاغة**: الكتاب ٧٠.

٢ - **أنساب الأشراف**:٢ ٢١٠ ـ ٢١١.

٣ - **الأخبار الطوال**:١٤٣؛ **الفتوح** ٢:٢٦٨؛ **المعيار والموازنة**:٩٨.

٤ - **الفتوح** ٢:٢٧١.

٥ - نفسه ١:١٣٤.

وكان الموقف الأساس للإمامعليه السلام، بعد قمع التمرّد الجمليّ، مواجهةَ معاويـة، وهذا العمل كان متعذّراً بدون حضورهعليه السلام العراق الذي كان قريباً من الشـام[1]. يضاف إلى هذا أنّ للإمامعليه السلام بين القبائل اليمانيّة أنصاراً كُثْراً يَفْدُونهعليه السلام حقّـاً، وكان لهم دورٌ مهمّ عندما وَلِيَعليه السلام الخلافة، وشَهِد كثير منهم حروبه جميعاً حتّى اللّحظة الأخيرة. وبشأن خصائص أهل الكوفة، يتعيّن علينا أن نلتفت إلى أنّهم عُرِفوا بأنّهم أكثر النّاس جدلاً في صغار الأُمور وسفاسفها، وكانوا أُولي حماسٍ من جهة، ومن جهةٍ أخرى أُولي مواقف متضعضعة غير متّزنة. فضلًا عن ذلك فإنّ قوّة رؤساء القبائل كانت من المشاكل الجادّة التي واجهها الإمامعليه السلام في سِنِيّ خلافته.

محاربة القاسطين في صِفِّين

لمّا قدم الإمامعليه السلام الكوفة، لم ينزل في قصر الإمارة ، وقد صُيِّر القصر المذكور، خلال سنين عديدة، قصراً للمترفين. وعندما طلب الناس منهعليه السلام أن ينزل فيه، قال: قَصْر الخَبَال لا تُنْزِلُونِيه، ثمّ ذهب إلى رحبة مسجد الكوفة وأقام فيها مؤقّتاً، وبعد ذلك نزل في بيت جعدة بن هُبَيرة المخزوميّ، ابن أُخته أمّ هاني[2].واستقبل أهل الكوفة الإمامعليه السلام وجيشه بوصفه الجيشَ الظافر في حرب البصرة استقبالاً حقيقاً بهم[3]. وشغلت الشام بالهعليه السلام كأهمّ قضيّة آنذاك.

---

١ - **معجم البلدان** ١:٤٧.

٢ - **وقعة صفّين**:٣،٥؛ **الفتوح** ٢:٣٤٩. من الخليق بالذكر أنّ أشمل مصنَّف وأوسعه في واقعة صفّين هو الكتاب القيّم **وقعة صفّين** لنصر بن مزاحم المنقريّ المتوفّى سنة ٢١٢ هـ ، وقد أفاد منه كثيراً ابنُ أعثم في أخبار صفّين، ولخّصه. ونقل أصحاب بعض المصادر كـ **الطبريّ** والبلاذريّ، القسم الأعظم من أخبارهم، إلّا أخباراً متفرّقةً، عن أبي مِخنف.

٣ - **الفتوح** ٢:٣٤٧.

وكانت قد ارتبطت بالأمويّين قبل تولّيه عليه السلام الخلافة بسنين، وربّما سلّمها عمر ليزيد بن أبي سفيان، ثمّ لأخيه معاوية، ظانّاً بأنّ بني أُميّة إذا لم يكن لهم حقّ الخلافة، فمن المناسب أن تكون لهم الشام باعتبارهم من رؤساء قريش. لذا ـ كما ذكرنا سابقاً ـ لم يُجرِ عمر عليها أيّ تغيير، بل لم يؤاخذ معاويةَ أدنى مؤاخذة. وترسّخ موقع معاوية في الشام تماماً أيّام خلافة عثمان، وكان ينظر إليها كمُلكٍ له، ولم يخطر في باله أن يُزاحَ عنها يوماً ما، وكان شديد المراقبة لأهلها حتّى لايؤثّر فيهم أحدٌ غيره تأثيراً فكريّاً... ومن هذا المنطلق، لم يسمح لأبي ذرّ الغِفاريّ رضوان الله عليه ـ الّذي كان عثمانُ نفاه إلى دمشق ـ بالبقاء فيها. وكلّ من كان يأتي الشام، ويعرف معاويةُ أنّ أفكاره يمكن أن تنبّه أذهان أهلها أو تفسدها على حدّ تعبيره، يُخرجه منها[1]. وكانت ثورة الصحابة وسائر الناس على عثمان حمَلَت معاويةَ هذا على أن يحتاط في موقفهِ منها. ومن جهة، كان لا يرى الوقوف أمام الصحابة... وفي هذه الحالة كان يرجو أن لو وَلِيَ أحدٌ الأمر فلا تكن له حجّةٌ في خلعه، لدعمه الخليفة المنحرف. ومن جِهةٍ أخرى، كان يستطيع من خلال ثقته بأهل الشام أن يركّز في هذه النقطة، وهي وجود ذريعة له للثورة، على فرض عزله من إمارةِ الشام وهكذا حدث أيضاً.

ولمّا وليَ الإمامُ عليّ عليه السلام الخلافةَ، عزم على إرسال عبد الله بن عبّاس إلى الشام حاكماً عليها. ومهّد لذلك بأن كتب إلى معاوية كتاباً أعلَمهُ فيه بأن الناس قد قتلوا عثمان عن غير مشورة، منه، وأنّهم بايعوه عليه السلام عن مشورةٍ واجتماع، وطلب منه أن يفد إليه مع أشراف أهل الشام، فلم يُجبهُ معاويةُ، واكتفى بإرسال صحيفةٍ بيضاء إليه، وعنوانها: «مِن معاوية بن أبي سفيان إلى

---

١ - الفتوح ٢: ٣٦٠ - ٣٦١.

عليّ بن أبي طالب»، قال القادم بكتابه إلى الإمام عليّ عليه السلام «إنّي أتيتُك مِن قِبلَ قومٍ يزعمون أنّك قَتلتَ عثمان، وليسوا براضين دون أن يقتلونك به»[١]. وتقارنت هذه القضيّة مع بدء تمرّد أصحاب الجمل الذي شغل الإمامَ حتّى حين. وفي هذه الفرصة، مهّدت قضيّة الجمل مجالاً آخر لدعايات معاوية، فاستطاعَ باستناده إلى تمرّد طلحة والزبير، وكذا عائشة بوصفها زوجةُ النبيّ صلى الله عليه وآله، أن يثبّت في أذهان الشاميّين ضلوع الإمام عليّ عليه السلام مع من قتل عثمان أفضل من ذي قبل. وإذا كان هؤلاء يعتبرونه عليه السلام حتّى ذلك اليوم قاتلاً لعثمان، فإنّهم يعتبرونه الآن قاتلاً لصحابة النبيّ صلى الله عليه وآله أيضاً؛ كما أنّه ـ عندهم ـ الرجل الذي وقف أمام زوجة النبيّ صلى الله عليه وآله وبنتِ الخليفة الأوّل أيضاً.

واستقرّ الإمام عليه السلام في الكوفة بعد واقعة الجمل؛ إذ كان بيّناً أنّه سيصطدم بجيش الشام عاجلاً، وحينئذٍ ليس إلّا العراق وحده يكون قادراً على أن يضطلع بهذا العمل. وفي اللّحظة التي دخل الإمام عليّ عليه السلام الكوفة، أنشد شنّ ابن عبد القيس قائلاً:

قُلْ لِهذا الإمامِ قد خَبَتِ الحَرْ ... بُ، وتمّت بذلكَ النَّعْماء
وفَرَغْنا مِن حربِ مَنْ نقضَ العَهْـ ... ـدَ، وبالشّام حيّةٌ صَمّاءُ
تَنْفُثُ السُّمَّ ما لِمَنْ نهشَتْهُ ... فَارْمِها قبلَ أنَ تَعَضَّ، شِفاءُ[٢]

وينبغي الالتفات إلى أنّ التنافس بين الشام والعراق كان يعود في الأصل إلى العصر الساسانيّ، فقد اصطدم العرب الساكنون فيهما مراراً، إذ إنّ كلّاً منهما كان يتبع احدى القوّتين العُظميَين آنذاك، أي الرُّوم، والفرس (الساسانيّين). ثمّ قدم هذه المنطقة مهاجرون جُدُد، وتفاوتت الحوافز

١ - أنساب الأشراف٢: ٢١١ – ٢١٢.
٢ - وقعة صفّين: ٨.

والدوافع مع الماضي، بيد أنّ السوابق القديمة ذات تأثير في الحاضر أيضاً. واستسلام الشام يعني أنّ الشاميّين استسلموا للعراقيّين، كما أنّ العكس بالعكس، وقد أنشد كعب بن جُعَيل قائلاً:

أرَى الشامَ تَكْرهُ مُلْكَ العِراق وأهلَ العْراقِ لَها كارهونا
وكلٌّ لِصاحِبهِ مُبْغِضٌ يَرى كلَّ ما كانَ مِن ذاك دِينا[1]

وهذه المواجهة لم تكن أمراً يسيراً، وكان واضحاً منذ البداية أنّ أيّاماً عصيبةً تنتظر العراقيّين والشاميّين معاً. وذات مرة كتب عمرو بن العاص إلى ابن عباس في خضمّ القتال يومَ صفّين أنّ الوضع متوتّر جدّاً، وقال له: واعلمُوا أنَّ الشام لا تُمْلَك إلّا بهلاك العراق، وأنّ العراق لا تُملَك إلّا بهلاك الشام[2]. واعترض شُرَحبيل بن السمط أيضاً على مبعوث الإمام عليّ عليه السلام إلى الشام قائلاً: «... وأردتَ أن تخلط الشام بالعراق»[3]!

وكانت الأمصار في هذه الفترة قد بايعت الإمام عليّاً عليه السلام إلّا الشام[4]، وعيّن الإمام عليه السلام في الكوفة ولاةً لمختلف مناطق العراق وفارس، وأوفدهم إليها[5]. فأوفد مالكَ الأشتر إلى الجزيرة (وهي تشمل، الموصل، ونصيبين، ودارا، وسنجار، وآمِد، وهِيت، وعانات)، واتّسمت هذه المنطقةُ بحسّاسيّة خاصّة؛ لأنّها قريبةٌ من الشام، وكان الضحّاك بن قيس حاكماً عليها من قِبل معاوية، وهوى أهْلِها لعثمان[6]. ولجأ إلى بعض مناطقها الّتي كانت خاضعة لسلطة

---

١ - نفسه:٥٦؛ **الفتوح** ٢:٤٣٢؛ **الأخبار الطوال**:١٦٠.
٢ - **وقعة صفّين**:٤١١.
٣ - **الفتوح** ٢:٤٠٣.
٤ - **أنساب الأشراف** ٢١٢.
٥ - **وقعة صفّين**:١٢ – ١٣.
٦ - **الفتوح** ٢:٣٥٠.

معاوية رجالٌ من «العثمانيّة»، كانوا قد هربوا من الكوفة والبصرة[1]. والمناطق الّتي كانت خاضعة لسلطة الضحّاك هي: الرقّة، والرُّها، وقرقيسيا. ولمّا توجّه الأشتر إليها، عبّأ جيشاً، وهجم على حرّان، وحدث في هذه الواقعة الّتي عُرِفت بواقعة «مرج مرنيا» قتالٌ شديد مع جيش الضحّاك، واستطاع مالك أخيراً أن يسيطر على هذه المنطقة[2].

ومن الجدير ذِكرُه أنّ الإمام عليّاً عليه السلام حين دخل الكوفة جدّ في تنوير أهلها وإطْلاعهم على شتّى القضايا، وهيّأهم لإسناده ودعمه في التطوّرات القادمة، وتحدّث مع الأكابر والأشراف وأعدّهم لِتأييده في مواجهة معاوية. وكان العراق يومئذٍ تحت سلطة هؤلاء الأشراف، ولرؤساء قبائله سلطةٌ أكثر من حاكم المدينة، ولم يكن من السهل الميسور أن تُنظّم الأعمال بدون اجتذابهم وشدّهم إليه عليه السلام. وفي الوقت نفسه كان نهجُه عليه السلام مشاورةَ النّاس في الأعمال، وهذا الأمر كان يزرع في نفوس أُولي الوعي السياسيّ شوقاً أكثر إلى الاستجابة والتعاون، فقالوا له حين أخبرهم بعزمه على الكتابة إلى معاوية ودعوته إلى طاعته عليه السلام: «يا أمير المؤمنين، افعل في ذلك ما أحببتَ، وأمْرُنا بأمرك، فأمركَ فينا سمعاً وطاعةً، وما طاعتك فينا إلّا كطاعة النبيّ صلى الله عليه وآله»[3].

وكذلك عزم الإمام عليه السلام أن يُطْلع ولاةَ الأمصار الّذين كان قد نصبهم عثمان وليس عليهم مؤاخذةٌ خاصّة، على حقيقة الأمر. ومن هؤلاء: جرير بن عبد الله البجليّ والي هَمَدان، والأشعث بن قيس حاكم آذربايجان. قال الدينوري: «وكانت ولاية (الأشعث) ممّا عتب النّاس فيه على عثمان؛ لأنّه ولّاهُ عند

---

١ - أنساب الأشراف٢:٢٩٧.

٢ - الفتوح ٢:٣٥٠؛ وقعة صفّين:١٣؛ الأخبار الطوال:١٦٧.

٣ - الفتوح ٢:٣٥٢.

مصاهرته إيّاه، وتزويج ابنة الأشعث من ابن عثمان[١]». وأراد الأشعث أن يهرب من هناك إلى الشام، لكنّه استحيا من بطانته، وهم قد عارضوه أيضاً، فبقي في الكوفة[٢]. ودخل أشراف الكوفة وبعض المناطق الأخرى على الإمام عليّ عليه السلام، يعتذرون إليه من قعودهم عن نصرته في الجمل، وجدّدوا بيعتهم له عليه السلام، وجرى في هذا الحوار كلامٌ حول التأهّب للذهاب إلى معاوية. ومن ذلك، اصطحاب الأحنف بن قيس للإمام عليه السلام، وقد أدّى إلى قدوم طائفة بني سعد من بني تميم من البصرة إلى الكوفة، وكان لهذا الأمر عظيم التأثير في تثبيت موقع الكوفة[٣].

وحاول الإمام عليّ عليه السلام بإرساله أحدَ الكتب من الكوفة إلى معاوية أن يُقنعه بطاعة إمام المسلمين، وذكر له بأنّ خلافته عليه السلام قائمة على أساس المعايير السائدة يومذاك، فلا قَدْحَ فيها، وعليه أن يُقرّ بها. وممّا قال له: أمّا بعد، فإنّ بَيعتي بالمدينة لَزِمَتْك وأنت بالشام؛ لأنّه بايَعَني القومُ الذين بايعو أبا بكر وعمرَ وعثمان على ما بُويعوا عليه، فلم يكن للشاهدِ أن يختار، ولا للغائب أن يَردّ، وإنّما الشُّورى للمهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجلٍ فَسَمَّوه إماماً كان ذلك لله رضىً...[٤] فإنْ تعرّضتَ له (ولم تَرْعَوِ عن التمرّدِ والعصيان) قاتلتُك واستعنتُ اللهَ عليك. وقد أكثرتَ في قَتَلَة عثمان، فادخلْ فيما دخلَ فيه المسلمون، ثمّ حاكِمِ القوم إلَيّ أحملْك وإيّاهُم على كتابِ الله...

---

١ - **الأخبار الطوال**:١٥٦.

٢ - **وقعة صفّين**:٢١. **الفتوح** ٢: ٣٧٠ - ٣٧١.

٣ - **وقعة صفّين**:٢٧.

٤ - قال عبد الرحمان بن غنم الأزْديّ الّذي كان يُدعى «أفقهَ أهل الشام» لشُرْحبيل في الشام: فإن يَكُ (عليّ) قتلَه (عثمانَ)، فقد بايعه المهاجرون والأنصار، وهم الحكّام على الناس. انظر: **وقعة صفّين**:٤٩.

واعلمْ أنّك مِن الطُّلَقاء الّذين لا تَحِلّ لهمُ الخلافة، ولاتَعرض فيهمُ الشُّـورى[١].
ولمّا أعطى جريرُ بنُ عبد الله معاويةَ كتابَ الإمامعليه السلام، وطلـب منـه أن يكـفّ عن الفتنة ويدخل في جماعة المسلمين، دعا معاويةُ الناسَ إلـى أن يجتمعـوا في المسجد، وقال في سياق ثنائه على الشام بأنّها الأرضُ المُقدَّسة«إنّي خليفةُ عمر بن الخطّاب، وخليفةُ عثمان بن عفّان عليكم... وإنّي وليُّ عثمان وقد قُتِل مظلوماً... وأنا أُحبّ أن تُعْلموني ذاتَ أنفسِكم في قتل عثمان. فقام أهل الشام بأجمعهم فأجابوا إلى الطلب بـدم عثمـان، وكـان هـذا هـو جـواب معاويـةَ للإمامعليه السلام. وأطرفُ ما في كلام معاوية هذا هو أنّ عمـر سَـلَّطَه علـى الشـام[٢].
وكان عثمان يقول أيضاً: كيف أعزل معاوية من الشام وعمر هو الّذي نصبه؟! في حين كان عثمان قد عزل كثيـراً مـن عمّـال عمـر![٣] واسـتطاع معاويـة أن يحصل على دعم عددٍ كبير من أهـل الشـام بخُداعِـهِ شُـرَحبيلَ بـن السـمط الكِنديّ الّذي كان من أشرافهم، ومن رؤساء اليمانيّين فيها[٤].وكـان يُكثـر مـن إيفاد الرُّسُل إليه ليشهد على أنّ عليّاًعليه السلام قتل عثمان. والتعليق على هذا الخداع أنّه مَعْلَمٌ على حُمق شُرَحبيل ومَن تبعه وتبع معاويةَ[٥].

وقال معاوية لجرير بن عبد الله الذي كان قدم إليه مبعوثاً مـن الإمـامعليه السلام: «اكتُبْ إلى صاحبك يجعلْ ليَ الشام ومصر جبايـةً، فـإذا حضـرتْهُ الوفـاةُ لـم يجعل لأحدٍ بعده بيعةً في عنقي، وأُسلِّمُ له هذا الأمر، وأكتبُ إليهِ بالخلافـة»،

---

١ - **وقعة صفّين**:١٩؛ **الفتوح** ٢:٣٧٤ – ٣٧٥؛ وانظر: **الأخبار الطوال**: ١٥٧.
٢ - **الفتوح** ٢:٣٨٠.
٣ - **وقعة صفّين**: ٣٢ .
٤ - نفسه ٢:٤١١؛ كان لايفتخر بشاميّته، بل بيمانيّته.
الفتوح٢:٤٠٦ – ٤٠٧؛ **الأخبار الطوال**:١٦٠.
٥ - **وقعة صفّين**: ٤٤ – ٥٢؛**الفتوح**٢:٣٩٧- ٤٠١؛ **أنساب الأشراف** ٢:٢٧٥ – ٢٧٦ (الهامش)؛ **الأخبار الطوال**:١٥٩.

فكتب جرير إلى الإمام عليه السلام بذلك، فأجابه عليه السلام قائلاً: «وإنّ المغيرة بن شعبة قد كان أشار عليَّ أن أستعمل معاويةَ على الشام وأنا بالمدينة، فأبيتُ ذلك عليه، ولم يكنِ الله لِيراني اتَّخِذُ المُضلِّينَ عَضُداً»[1]. وكان معاوية في الحقيقة يريد أن تبقى له الشام بلا جدال ولا نقاش، حتّى لو كان الإمام عليه السلام خليفةً فهي تبقى تحت يده كسلطنة مستقلّة.

وخطب معاوية مرّةً بالشام فقال: «يا هؤلاء! أخبِروني بما صار عليٌّ بن أبي طالب أولى بهذا الأمر منّي؟!.. وإن كان بايعه أهل الحجاز وأهل العراق، فقد بايعني أهل الشام، وإنّ هؤلاء في الأمر سَواء». وكتب مرّةً إلى الإمام عليه السلام قائلاً: «... وإنّما كان أهل الحجاز هم الحكّام على الناس حين صار الحقُّ فيهم؛ فلمّا تركوهُ صار أهلُ الشام هم الحكّام على أهل الحجاز وغيرهِم من الناس»[2]، فكتب الإمام عليه السلام إليه قائلاً: وأمّا قولُك: إنّ أهل الشام همُ الحكّام على أهل الحِجاز فهاتِ رجلاً مِن قريش الشام يُقبَل في الشُّورى أو تَحُلُّ له الخلافة، فإن زعمتَ ذلك كذّبك المهاجرون والأنصار... لأنّها بيعةٌ (بيعته عليه السلام) عامّةٌ لايُثَنّى فيها النظر، ولايُستأنَفُ فيها الخيار[3]. وكان معاوية يدعى في الشام يومذاك أميراً، لا«أمير المؤمنين»، مع هذا كان هناك مَن أطلق عليه هذا الاصطلاح، وأوّل من سمّى معاويةَ «أمير المؤمنين» هو الحجّاج بن خُزَيمة، إذ خاطبه في أوّل لقاءٍ به قائلاً: يا أميرَ المؤمنين، أتعرِفُني؟... ثمّ قال:

إنّ بَني عمِّك عبدِ المطّلبْ   هُمْ قَتَلُوا شيخَكُمْ غيرَ كَذِبْ[4]

---

١ - وقعة صفّين ٥٢؛ الفتوح ٢:٣٩٢.

٢ - الفتوح ٢:٤٢٩ - ٤٣٠.

٣ - وقعة صفّين: ٥٨؛ الفتوح ٢:٤٣٢.

٤ - وقعة صفّين:٧٧.

ورجع جرير بن عبد الله البَجَليّ من الشام إلى الكوفة بعد أربعة أشهر، أمضاها هناك[١]، وقد عنّفهُ مالك الأشتر، واتّهمه بأنّه باعَ دينَه لمعاوية في الشام. وبعد قليلٍ غادر جرير الكوفة إلى قرقيسيا ومعه أناسٌ من قومه بُجَيْلَة، غيرَ تسعةَ عَشَرَ، وبعد رحيله أحرق الإمام عليه السلام دارَهُ، ودارَ ثُوير بن عامر الّذي كان قد لَحِق به[٢].

وكان عمرو بن العاص في فلسطين يومئذٍ، إذ اعتزل السياسةَ، وذهب إليها بعد مخالفته المتكرّرة لعثمان، تلك المخالفة النابعة من استبدال عبد الله ابن سعد بن أبي سرح - حاكماً على مصر - به، وهناك أخذ يُؤلّب الناسَ- حتّى الرعايا - على عثمان[٣]، وقيل: قال لابنَيه بعد مقتل عثمان:... فإلى مَن تَرَيان أن أصير؟ فقال له ابنُه عبد الله: صِرْ إلى عليّ، فقال: إنّ عليّاً يقول [لي إذا أتيتُه]: أنتَ رجلٌ من المسلمين، لك ما لهم وعليك ما عليهم، ومعاوية يخلطني بنفسه ويُشركني في أمره»[٤]!

وشعر معاوية أنّه يمكن أن يكون عمرو له سنداً مهمّاً، وكدأبه ودَيدَنِه في جميع الحالات طلب منه أن يلتحق به، واضعاً إصبعه على نقطة ضعفٍ مهمّة في شخصيّة عمرو، أي حكومة مصر. وقيل: إنّ معاوية بعد تسلّمه كتابَ الإمام عليه السلام الّذي جاء به جرير، أراد من عمرو أن يعجّل اللّحاق به[٥]. وقيل: إنّ

---

١ - **الفتوح** ٢:٤٠٤.

٢ - **وقعة صفّين**:٦١، وعدّ الإمام الصادق عليه السلام المسجد المشهور في الكوفة بمسجد جرير بن عبد الله البجليّ (ومسجد ثقيف، ومسجد الأشعث بن قيس) من المساجد الملعونة. انظر: «**تهذيب الأحكام**» ، للشيخ الطوسيّ ٣:٢٤٩.

٣ - **أنساب الأشراف** ٢:٢٨٣.

٤ - نفسه ٢:٢٨٤؛ **الأخبار الطوال**:١٥٧.

٥ - **الفتوح** ٢:٣٨٢.

ابنه عبد الله حذّره من هذا الأمر[١]، أمّا ابنه الآخر محمّد فقد شجّعه على ذلك. وعبَّر عمرو في شعرٍ له عن بداية تذبذُبه في هذا الأمر[٢].

وكان عمرو بن العاص أفسدَ مِن أن يَغُضَّ النظرَ عن حكومة مصر، وكان منذ البداية في بطانة أبي بكر وعمر، وترأس الجيوشَ في الفتوحات، ثمّ عزله عثمان لاستعماله أقاربه، وكان في الأصل من أركان الحزب القرشيّ المعادي لبني هاشم، وقد تعجّل في اتّخاذ قرار التحاقه بمعاوية. وما أن اطمأنّ إلى ضمان دنياه المتمثّلة عنده في حكومة مصر، بعد بيع دِينه - ولم يكن له دِين - حتّى وضع يده بيد معاوية، وخاطبه قائلاً:

معاويَ لاأُعطيك دِيني ولَم أَنَلْ ... بذلك دُنيا، فانظرْ كيف تصنعُ
فإن تُعطِني مِصراً فأربحْ بصفقة ... أخذتَ بهاشيخاً يَضرُّ وينفعُ[٣]

وكان التحاقه بالشام يُعدّ نجاحاً كبيراً لمعاوية.

وأوّل مشورة لمعاوية له كانت حول جيش الرُّوم، فأشار عليه بالصلح معهم قائلاً له: إنّهم سيرضَون به سريعاً[٤]. ورأى معاوية أنّ هذا العرض عمليٌّ، وذكر الإمامُ عليه السلام هذا أيضاً في إحدى خُطبه[٥].

---

١ - أرادت المصادر السنّيّة أن تدافع عن عبد الله بن عمرو بن العاص باعتباره من محدّثي الصحابة، في حين أنّه كان مع أبيه يومَ صفّين ملاصقاً له، وكان على ميمنة أهل الشام «**وقعة صفّين**»: ٢٠٦. وقيل: إنّ أباه حينما أمره أن يأخذ الراية، أبى في البداية قائلاً: لا أفعل، فإنّك تُقدّمني إلى حرب رجلٍ ما كفر بالله ساعة قطّ، فغضب عمرو ثمّ قال: لَتأخُذَنّها أو لأضربنَّ بهذا السيف ما بينَ قرطيك، فقال عبد الله: والله لولا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي: أطِع أباك يا عبد الله، لَما أطعتُك في هذا الأمر أبداً. انظر: **الفتوح** ٣:٣٥.

٢ - **وقعة صفّين**:٣٥؛ **أنساب الأشراف** ٢:٢٨٥؛ **تاريخ اليعقوبيّ**٢:١٨٥.

٣ - **وقعة صفّين**:٣٩؛ **أنساب الأشراف** ٢:٢٨٨؛ **تاريخ اليعقوبيّ** ٢:١٨٦.

٤ - **وقعة صفّين**: ٣٧،٤٤؛ **الفتوح** ٢:٣٨٦.

٥ - **الفتوح** ٢:٤٤١.

والتحق عبيد الله بن عمر بن الخطّاب بمعاوية في الشام خوفاً من أن يقتصَّ منه الإمام عليه السلام، لقتله الهرمزان وشخصين آخَرَين في المدينة [١]، فاكتملت ذريعة معاوية بوجود ابن الخليفة الثاني معه، وكان لهذا الأمر أهمّيّة بالغة من الوجهة الدعائيّة عند معاوية الذي كان يهتمّ بهذه المسائل [٢]. وبدأ معاوية عمله التبليغيّ الدعائيّ المُظلّل في خُداع أهل المدينة ومكّة، وأعلام الرجال في مختلف المدائن، فكتب إلى أهل المدينة قائلاً: «وإنّما نطلب بدمه (عثمان) حتّى يدفعوا إلينا قتلتَه فنقتلهم بكتاب الله، فإنْ دفَعَهم عليٌّ إلينا كَفَفْنا عنه، وجعَلْنا شُورى بين المسلمين على ما جعلها عليه عمر بن الخطّاب، وأمّا الخلافة فلَسنا نطلبُها»! واضطرب أهل المدينة لحديث معاوية وعمرو عن الخلافة، ونُبِّهوا على مبدأ مهمّ يتمثّل في أنّ الطلقاء لا حقّ لهم في الحديث عن الخلافة [٣]. وحاول معاوية أن يخدع رجالاً آخرين: كسعد بن أبي وقّاص، وعبد الله بن عمر، ومحمّد بن مَسْلمة، وأُسامة بن زيد، إذ بلغه أنّهم لم يُبايعوا الإمامَ عليّاً عليه السلام، أو أنّهم لم يَتْبعوه في حروبه. وأكثَرَ معاوية في كتبه إليهم من الحديث عن الشورى، ولم يُجبه هؤلاء جميعاً بما يُحبّ، فكتب إليه سعدُ بن أبي وقّاص: «أمّا بعد، فإنّ عمر لم يُدخِلْ في الشورى إلّا مَنْ يَحِلُّ له الخلافة مِن قريش، فلم يكن أحدٌ منّا أحقَّ بها من صاحبه... غيرَأنّ عليّاً قد كان فيه ما فينا، ولم يكُ فينا ما فيه... فأمّا طلحة والزبير فلو لزما بيوتَهما كان خيراً لهما» [٤]. ونحن نعلم أنّ محصّلة كلام سعد هي أنّ الخلافة حقٌّ له؛ لأنّ المجتمع لايتّفق مع عليّ عليه السلام [بزعمه]، وماتَ الآخَرون، أي طلحة، والزبير، وعبد

١ - أنساب الأشراف ٢: ٢٩٤؛ الأخبار الطوال: ١٦١.
٢ - وقعة صفّين: ٨٢ - ٨٣؛ الفتوح ٢: ٤١٣.
٣ - وقعة صفّين: ٦٣؛ الفتوح ٤١٦ - ٤١٧.
٤ - وقعة صفّين: ٧٥؛ تاريخ اليعقوبيّ ٢: ١٨٧؛ الفتوح ٢: ٤٢١.

الرحمان بن عوف. وبقي سعد بن أبي وقّاص فقط! ورأيُ الإمام عليّ عليه السلام في القاعدين أنّهم خذَلُوا الحقّ، ولم يَنْصُروا الباطل[١]. وكتب معاوية إلى عبد الله بن عمر قائلاً: «... فإنّي لستُ أُريد الإمارة عليكَ، ولكنّي أُريدها لك»، فرفض عبد الله دعوته[٢].

وتراسل الإمام عليّ عليه السلام ومعاوية في تلك الفترة، ومن مراسلاتهما كتابان مفصّلان اشتملا على نقاطٍ مهمّة، فقال معاوية في كتابه: «فكُلّهم [الخلفاء الثلاثة بعد النبيّ صلى الله عليه وآله] حَسَدْتَ، وعلى كُلّهم بَغيتَ. عرفنا ذلك في نظرات الشَزْر، وفي قولك الهُجْر، وفي تنفّسك الصُعَداء، وفي إبطائِكَ (البيعة) عن الخلفاء، (وكنّا نراك) تُقادُ إلى كُلٍّ منهم كما يُقادُ الفحلُ المخشوشُ[٣] حتّى تبايع (قهراً وجبراً) وأنتَ كاره». وتحدّث في هذا الكتاب عن عداء الإمام عليه السلام لعثمان، وأنّه قُتِل في جنب دارِه، ولم يُعلن إنكارَه، ولو أراد الإمام لاستطاع أن يحول دون قتله، وقال: «فإنْ كنتَ صادقاً فأمْكِنّا مِن قَتَلَتِهِ... ونحن أسرعُ الناس إليك [للبيعة] ».

فكتب الإمام عليّ عليه السلام إليه في جوابه منبّهاً على نصر الله سبحانه لنبيّه صلى الله عليه وآله، وكَبْتِهِ أعداءَه، وقال: وكان أشدَّ الناس عليه ألبةً أُسْرتُه. وأضاف عليه السلام:إنّ محمّداً صلى الله عليه وآله لَمّا دَعا إلَى الإيمان والتوحيد كنّا أهلَ البيت أوّل مَن آمنَ به، وصَدَّقَ بما جاءَ به، فأرادَ قومُنا قتلَ نبيِّنا، واجتياحَ أصلِنا، وهَمُّوا بنا الهُموم، وفَعَلوا بنا الأفاعيل، فمَنَعُونا المِيرةَ، وأمسَكُوا عَنَّا العَذْبَ، وأحْلَسونا الخوفَ، وجَعَلُوا علينا الأرصادَ والعُيون، واضْطَرُّونا إلى جَبَلٍ وَعْرٍ،

١ - **نهج البلاغة:** قصار الكلمات الرقم ١٨.

٢ - **الفتوح** ٢:٤١٨ - ٤١٩.

٣ - المخشوش: الذي جُعل في عظم أنفه الخِشاش، والخِشاش: عُوَيد يُجعَل في أنف البعير يُشَدّ به الزمام ليكون أسرع في انقياده. ينظر: **ترتيب جمهرة اللغة** ١: ٥٢٤.

وأوقدُوا لَنا نارَ الحرب، وكتبُوا علَينا بينَهم كتاباً لا يُواكِلُونا ولايُشارِبُونا ولايُناكِحُونا ولايُبايعُونا، ولانَأمنُ فيهم حتّى ندفعَ النبيّ ﷺ فيقتلوه ويُمثِّلوا به. وأضاف عليه السلام مُذكّراً بجهده في غزوات النبيّ ﷺ قائلاً: وذكرتَ حَسَدِيَ الخلفاءَ، وإبطائي عنهم، وبَغْيي عليهم، فأمّا البغيُ فمَعاذ الله أن يكون، وأمّا الإبطاءُ عنهم والكراهةُ لأمرِهم فلستُ أعتذرُ منه إلى الناس. وذكر عليه السلام أنّ سبب هذا الأمر هو أحقيّته بالخلافة، ثمّ نَفى أيَّ دورٍ له في دم عثمان. وأورد كلام أبي سفيان في السَّقيفة حين طلب منه أن لا يفسح المجال لأبي بكر بالخلافة، وأراد منهُ أن يبايعه، فقال عليه السلام:... كنتُ أنَا الَّذي أبَيتُ، لِقُربِ عهدِ الناس بالكُفْر، مَخافةَ الفُرْقة بينَ أهلِ الإسلام[1].

وهذا الكتاب وثيقةٌ مهمّة تدلّ على موقفه عليه السلام من الخلفاء، ورأيهِ في أحقّيّته بالخلافة. ثمّ كتب عليه السلام كتُباً إلى: معاوية، وعمرو بن العاص، وحاول أن يصدَّهما عن طريق الباطل الذي سلكاه[2].

وكان عليه السلام عازماً على جهاد معاوية، وطالما كان يقول: أُمِرتُ بقتال: الناكثين، والقاسطين، والمارقين[3]. وها هو دور قتال القاسطين، ليعجل عليه السلام إلى جهادهم، ودعا عليه السلام البارزين من أصحابه الذين كانوا من المهاجرين والأنصار، وطلب منهم أن يُشيروا عليه في الذهاب إلى الشام، فقال هاشم بن عُتبة، ابن أخي سعد بن أبي وقّاص: «كذبوا، ليسوا بدمه [عثمان] يثأرون، ولكنّ الدنيا يَطلِبون، فسِرْ بنا إليهم»، وأصرّ عمّار بن ياسر أيضاً على أنّ الإمام عليه السلام «إن استطاع أن لا يُقيمَ يوماً واحداً، فَلْيفعل»، وأنشد يقول:

١ - **وقعة صفّين**: ٨٦ - ٩١؛ **أنساب الأشراف** ٢: ٢٧٧ - ٢٨٢؛ **شرح النهج** ١٥: ٧٣؛ **الفتوح** ٢: ٤٧٤ - ٤٧٥؛ **نهج السعادة** ٤: ١٨٥.

٢ - **وقعة صفّين**: ١١٠ - ١١١؛ **الفتوح** ٢: ٤٧٧ - ٤٨٠.

٣ - **الفتوح** ٢: ٤٦٠.

سِيرُوا إلَى الأحزابِ أعداءِ النبيّ   سِيرُوا فخَيرُ الناسِ أتْباعُ علـيّ[١]

وقال قيس بن سعد أيضاً: «... فوالله لَجهادُهم أحبُّ إليّ من جهاد التُّـرك والروم»، وأعلن سهل بن حُنَيف عن تأهّب الأنصـار لطاعـة الإمـام علـيّ عليه السلام والسير معه، وقام رجل من فزارة فقال: «يا عليّ، أتريد أن تغزوَ بنا أهل الشام، فنقتلهم كما قتلنا إخوانَنا من أهل البصرة»؟! فبدأ الناس يوبّخونه، فخرج هارباً فلحقه الناس، فوطئوه وضربوه حتّـى مـات، [٢] فقـال مالـك الأشـتر: «يـا أميـر المؤمنين، لايَهدنّك ما رأيتَ، ولايؤيسنّك مِن نصرنا ما سمعتَ من مقالـة هـذا الشقيِّ الخائن، جميع من ترى من الناس شيعتُك»[٣]. وهكذا كـان جـوّ الكوفـة مناسباً يومئذٍ، إلى درجة أنّ أحـداً لـم يجـرؤ علـى المعارضـة أو إبـداء رأيٍ مناهض، وكان اتّخاذ بعض الرجال موقفَ الاعتزال عاراً على كثير من القبائل، ومن هؤلاء: حنظلة بن الربيع، فهذا الرجل تعرّض لضغطٍ شـديد مـن رجـال قبيلته حتّى فرّ إلى معاوية ليلاً، وإن لم يشترك في حرب صفّين[٤].

مع هذا، كان الشكّ يُخامر حتّى بعض الأشخاص الصالحين إلى حـدٍّ مـا، فقد طلب أبو زُبَيب بن عوف من الإمام عليه السلام أن يشـهد لـه بصـراحة علـى أنّ السبيل الذي سلكه في السير الـى أهـل الشـام هـو سـبيل الحـقّ، فشـهد لـه الإمام عليه السلام، وبعد ذلك شهد له عمّار بن ياسر أيضاً، فاطمأنّ هـذا الرجـل إلـى طريقه استناداً إلى شهادتيهما[٥]. وأتى جماعةٌ من أصحاب عبد الله بن مسـعود

١ - **وقعة صفّين**:١٠١؛ **الفتوح** ٢:٤٦٠.

٢ - **أنساب الأشراف** ٢:٢٩٣؛**الفتوح** ٢:٣٦٢؛ **الأخبار الطوال**:١٦٤. ودَفَع الإمام عليه السلام ديته مـن بيـت المال.

٣ - **وقعة صفّين**:٩٢ – ٩٦.

٤ - **وقعة صفّين**:٩٨ – ٩٩؛ **الفتوح** ٢:٤٤٤.

٥ - **وقعة صفّين**:١٠٠ – ١٠١.

- الذي كان مسؤولَ بيت المال في الكوفة مدّة - إلى الإمامعليه السلام، فقالوا له: «إنّا نخرج معكم، ولا ننزلُ عسكرَكم، ونعسكر على حِدَة حتّى ننظر في أمركم، وأمر أهل الشام، فمَن رأيناه أراد ما لايحلّ له، أو بدا منه بغيٌ، كنّا عليه»، فقال الإمامعليه السلام: «مرحباً وأهلاً». وأتاه أربعُمئة رجلٍ يقودهم ربيع بن خُثَيم، فقالوا: «يا أمير المؤمنين، إنّا شكَكْنا في هذا القتال على موقفنا بفضلك... فولّنا بعضَ الثغور نكون به»، فوجّههم الإمامعليه السلام على ثغر الريّ [أو خُراسان][1]، ووجّهعليه السلام رجالاً من باهلة ـ كان يُبغضهم ويُبغضونه، وأخذوا منه عطاءهم ـ إلى الديلم[2].ويدلّ هذا الخبر على وجود بعض التضارب في الآراء بالكوفة ، ذلك التضارب الذي ولّد الأزمات اللّاحقة فيما بعد باتّئاد.

وخاطب عبدُ الله بن بُدَيل الإمامَعليه السلام مؤيِّداً موقفَه، فقال: «... وعداوةً يَجدونها في صدورهم لوقائع أوقعتَها يا أمير المؤمنين بهم قديمة...»، ثمّ التفت إلى الناس فقال: «فكيف يبايع معاويةُ عليّاً وقد قتلَ أخاه حنظلةَ وخالَه الوليدَ وجدَّهُ عتبةَ في موقفٍ واحدٍ»؟![3] وخرج حُجرُ بن عَدِيّ وعمرو بن الحَمِق يُظهران البراءةَ واللّعنَ من أهل الشامِ، فأرسل إليهما الإمامُعليه السلام: «أنْ كُفّا عمّا يَبلُغُني عنكما»... وقالعليه السلام: كَرِهْتُ لكم أن تكونُوا لَعّانين شَتّامين... ولو قلتُم مكانَ لعنِكم إيّاهم وبراءتِكُم منهم: اَللّهمَّ احقنْ دماءنا ودماءَهم، وأصلِحْ ذات بَينِنا وبينِهم...فأكدّ عمرُو بن الحَمِق ولاءَه للإمامعليه السلام في كلّ حال، فدعا

---

١ - ذهب بعض الباحثين إلى أنّ مزاره هو الموضع المشهور هذا اليوم بخواجه ربيع - «**مزارات خراسان**»، كاظم مدير شانهچي، مشهد ١٣٤٥ ش / ١٩٦٦ م، ص ٣ -١٧ [يقرأ بالعربيّة خاجَهْ ربيع].

٢ - **وقعة صفّين**: ١١٥؛ **الأخبار الطوال**:١٦٥. ويدلّ بعض التخمينات على أنّ مِن هؤلاء خواجه ربيع الذي له اليوم مزار في مدينة مشهد.

٣ - **وقعة صفّين**: ١٠٢؛ **الفتوح** ٢:٤٤٧.

الإمامُ عليه السلام له[1]. وثبت هذا الرجل على عهده إلى أن استُشهد بعد مضيّ خمسَ عشرةَ سنةً على صفّين، قتَلَه ابنُ أمّ الحَكَم حاكم معاوية على الجزيرة، بأمرٍ من معاوية نفسه.

ولمّا اطمأنّ الإمامُ عليه السلام إلى أنّ معاوية لا يفهم إلّا لغة القوّة، ومن جهةٍ أخرى كان أكابر الكوفة حُماتَه في قتال أهل الشام، دعا الناس إلى الجهاد في خطبة عامّة خطبها. ثمّ خطب الإمام الحسن عليه السلام بعده، فكان ممّا قال:... فاحتشِدوا في قتال عدوِّكُم: معاويةَ وجنودِه، فإنّه قد حضر. ولا تَخاذَلوا؛ فإنّ الخذلان يُقطِّع نياطَ القلوب؛ وإنّ الإقدام على الأسنّة نجدةٌ وعصمة (من الهزيمة). وخطب بعده الإمام الحسين عليه السلام، فحثّ الناس على قتال أهل الشام[2]. وكتب الإمام عليه السلام إلى ابن عبّاس ليدعو أهل البصرة إلى متابعته، فلبّى كثيرٌ من أهلها دعوته وقَدِموا الكوفة مع ابن عبّاس، وبعد أن نصب أبا الأسود الدُّؤليّ مكانه. وكتب عليه السلام إلى مخنَف بن سليم ليولّي أحداً مكانه على أصفهان، ويلحق به، وقد فعل ذلك.

وكان محمّد بن أبي بكر حاكماً على مصر من قِبل الإمام عليه السلام يومذاك، فكتب إلى معاوية كتاباً مفصّلاً عنّفه فيه على مناهضته للإمام عليه السلام، وقال مشيراً إلى سابقته المشرقة عليه السلام: «... وقد رأيتُك تُساميه وأنتَ أنتَ، وهو هو المبرَّز السابق في كلّ خير، أوّلُ الناس إسلاماً، وأصدقُ النّاس نيّةً، وأطيبُ الناس ذُرّيّةً، وأفضلُ الناسِ زوجةً، وخيرُ الناس ابنَ عمٍّ. وأنت اللّعين ابن اللّعين. ثمّ لم تزل أنت وأبوك تبغيان الغوائل لِدِين الله، وتَجهدان على إطفاء نور الله، وتجمعانِ على ذلك الجموع، وتبذلانِ فيه المال، وتُحالفانِ فيه القبائل

---

١ - وقعة صفّين: ١٠٣؛ الفتوح٢: ٤٤٧ - ٤٤٨؛ الأخبار الطوال: ١٦٥.

٢ - وقعة صفّين: ١١٤ - ١١٥.

(المناوئة للإسلام). على ذلك مات أبوك، وعلى ذلك خَلَفْتَه، والشاهد عليك بذلك مَن يأوي ويلجأ إليك من بقيّة الأحزاب، ورؤوس النفاق والشِّقاق لرسول الله ﷺ. والشاهد لعليّ مع فضله المُبين وسَبقه القديم، أنصارُه الّذين ذُكِروا بفضلهم في القرآن فأثنَى اللهُ عليهم، من المهاجرين والأنصار، ... فكيف - يا لَك الويل - تعدل نفسَك بعليّ، وهو وارثُ رسول الله ﷺ، ووصيُّه وأبو وُلْده، وأوّل الناس له اتّباعاً، وآخرهم به عهداً، يُخبره بسِرّه، ويُشركه في أمره».

وكتب معاوية في جوابه قائلاً: «... إلى الزاري على أبيه... أمّا بعد، فقد أتاني كتابك... ولأبيك فيه تعنيف... وقد كنّا - وأبوك معنا في حياة من نبيّنا ﷺ - نرى حقَّ ابن أبي طالب لازماً لنا، وفضلَه مبرَّزاً علينا... (بعد النبيّ ﷺ) فكان أبوك وفاروقُه أوّل من ابتزّه وخالفه. على ذلك اتّفقا واتّسقا، ... لا يُشركانه في أمرهما، ولا يُطلعانه على سرّهما، حتّى قُبضا وانقضى أمرهما... فإن يكن ما نحن فيه صواباً فأبوك أوّله، وإن يكُ جَوراً فأبوك أسّسَه، ونحن شركاؤه، وبهَدْيه أخذْنا، وبفعله اقتدينا. ولولا ما سَبَقَنا إليه أبوك ما خالَفْنا ابنَ أبي طالب وأسْلَمنا له، ولكِنّا رأينا أباك فعَلَ ذلك فاحتَذَينا بِمِثاله، واقتدينا بفِعاله[1].

وتأهّبت الكوفة لحرب الشام، وأمر الإمام عليه السلام أن يُعسكِر المقاتلون في النُّخَيلة، وهي معسكرٌ قريب من الكوفة. وحمل هذا الأمرُ معاويةَ على أن يُلبس مِنبرَ دمشق قميصَ عثمان وهو مخضّبٌ بالدّم، وحول المنبر سبعون

١ - نفسه :١١٨- ١٢١؛ **أنساب الأشراف**:٣٩٣ - ٣٩٧ وفي الهامش عن: **شرح النهج** ٣:١٨٨؛ **مروج الذهب** ٣:١٠؛ **سمط النجوم العوالي** ٢:٤٦٥.

ألفَ شيخٍ يبكون، وهيّأ أهلَ الشام لمواجهة جيش العراق[١]. وكان خروجه عليه السلام من النخيلة في الخامس من شوّال سنة ٣٦هـ[٢]. وأوّلُ خلافٍ حدث في جيش الإمام عليه السلام هو النزاع حول رئاسة القبائل اليمانيّة. وعزل الإمامُ عليه السلام الأشعثَ وولّى مكانه حسّانَ بن مخدوج، فظهر الخلاف بين ربيعة وكِندة بسبب ذلك. ولمّا بلغ معاويةَ خبرُ هذا الخلاف دفع أحدَ شعراء كِندة إلى أن يؤلّب الأشعثَ على الإمام عليه السلام، لكنّه لم يُفلِح، وانتهى الأمر بنصبه على ميسرة جيش العراق[٣]. ومن المؤسف أنّ نفس الأشعث الضعيفة الفاسدة الانتهازيّة سوّلت له مناوأة الإمام عليه السلام تدريجاً. وقيل: لمّا استدعاه الإمام عليه السلام مِن آذربايجان، وأمر بمحاسبته على الأموال، كاتب معاويةَ[٤]، وقد نبّه اليعقوبيّ على اتّصاله بمعاوية في قضيّة رفع المصاحف[٥].

ودخل الإمامُ عليه السلام المدائنَ في طريقه إلى صفّين، وأراد من أهلها أن يلحقوا به، وبعد رحيله عنهم، تَبِعه ثمانمئة مع قيس بن سعد، وبعده بقليل قُرابة أربعمئة مع ابنه يزيد. ورفض الإمام عليه السلام في طول الطريق هدايا دهاقين الفُرس، وحذّرهم من أن يستقبلوا الأُمراء بمثل ذلك[٦]. واستجابةً لطلب أصحاب الإمام عليه السلام، كتب عليه السلام كتاباً آخر إلى معاوية، دعاه فيه إلى كتاب الله وسُنّة رسوله صلى الله عليه وآله وحقْنِ الدماء. بَيْدَ أنّ معاويةَ أجابه شِعراً مفادُه أنْ ليس بينهما إلّا السيف[٧].

---

١ - **وقعة صفّين**:١٢٧.
٢ - نفسه:١٣١.
٣ - **الفتوح** ٣:١٠٥ - ١٠٧.
٤ - **أنساب الأشراف** ٢٩٦: - ٢٩٧.
٥ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢:١٨٨ - ١٨٩.
٦ - **وقعة صفّين**:١٤٤؛ **الفتوح** ٢:٤٦٨.
٧ - **وقعة صفّين**: ١٥٠ -١٥١؛ **أنساب الأشراف** ٢:٢٩٧.

ووصل الإمام عليه السلام أثناء عبوره العراق إلى كربلاء، وأخبر عمّا سيجري فيها على أهل البيت عليهم السلام من واقعة أليمة نكراء[١]. وفي مسيره عليه السلام مرّ بالرقّة، وكان أهلها على مذهب العثمانيّة[٢] وهواهم لمعاوية، فطلب منهم أن ينصبوا جسراً على النهر ليعبر الجيش، فأبَوا ولم ينصاعوا لهذا الأمر إلّا بتهديد مالك الأشتر. وأمر الإمام عليه السلام مالكاً أن يقف في ثلاثة آلاف حتّى يعبر الجيش كُلُّه، ثمّ عبر هو عليه السلام ومالكٌ آخرَ الناس[٣].

واصطدمت مُقدّمة عسكر الإمام عليه السلام في ثغور الروم، شمال العراق وسوريّة - بعد عبور: هيت، وقرقيسيا، والرّقّة - بمقدّمة الشام الّتي كان يقودها أبو الأعور السُلَميّ، فبعث الإمام عليه السلام مالكاً إليهم وأكّد أن لا يبدأهم بقتال. وبمجيء مالك بدأ جيش الشام الحرب، فاشتبك الجانبان ساعةً، ثمّ تقهقر جيشُ الشام.

ويُلحَظ في الأخبار تناقضاتٌ حول الزمن الدقيق لحرب صفّين، ويُذكر هنا قولان أساسيّان: فقد ذهب البلاذريّ إلى أنّ دخول الإمام عليه السلام صفّين كان في شهر ذي الحجّة (سنة ٣٦هـ)[٤]، وبدأ في أخبار الحرب من الشهر المذكور، وأشار في سياقها إلى اشتباكات شهر ذي الحجّة، ثمّ تحدّث في شهر صفر الذي أُجمع على أنّ الحرب الأصليّة كانت فيه[٥]. فيما ذهب اليعقوبيّ إلى أنّ القضايا المرتبطة بالماء وقعت في ذي الحجّة سنة ٣٦هـ، وقال: «كانت الحرب في سنة ٣٧، وأقامت أربعين صباحاً»، ومع هذا قال: إنّ التحكيم كان

١ - **الفتوح** ٢:٤٦٢ - ٤٦٦؛ **وقعة صفّين** ١٤٠ - ١٤٢.
٢ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢:١٨٧.
٣ - **أنساب الأشراف** ٢:٢٩٨؛ وانظر: **الفتوح** ٢:٤٨٧ - ٤٨٨.
٤ - **أنساب الأشراف** ٢:٢٩٩.
٥ - نفسه ٢:٣٠٣.

في شهر رمضان سنة ٣٨[1]. ومفهوم كلامه أنّ التحكيم كان بعد حرب صفّين بسنة ونصف تقريباً، أي كان في صفر سنة ٣٧! وفي ضوء هذا الخبر تكون الاتّفاقيّة قد عُقِدت في صفر، وتقرّر أن تنتهي الحرب في شهر رمضان. وذهب ابنُ الأثير إلى أنّ حوادث صفّين بدأت في ذي الحجّة سنة ٣٦، وانتهت في صفر سنة ٣٧، وذكر التحكيمَ في سياق حوادث هذه السنة[2]. أمّا خليفة بن خيّاط فقد نقل أنّ حرب صفّين استمرّت من اليوم السابع من صفر حتّى العاشر منه سنة ٣٧، بشدّة[3]... والظاهر أنّ أيّام الحرب كانت أكثر ممّا ذكر.

وثمّة رأيٌ آخر، وهو لنصر بن مزاحم، فأوّل تاريخ عرضه هو أنّ الإمام عليه السلام حين وافى صِفّين، كانت له فيها مراسلات مع جيش الشام خلال شهور: ربيع الآخِر، وجمادى الأولى، وجمادى الآخرة[4]، ثمّ أورد ابن مزاحم حوادث شهر رجب، ودام هذا الوضع حتّى ذي الحجّة، وحدثت في هذه الفترة منازلات بين أشخاص من الجانبين، وتوقّفت الحرب في المحرّم، وجرى القتال الأصليّ في صفر[5]. ومن الطبيعيّ أنّ ذِكر ربيع الأوّل والجمادَين لايمكن أن يعود إلى سنة ٣٦، لأنّ الإمام عليه السلام دخل الكوفة في رجب من تلك السنة. وأخبار نصر تفيد أنّ الحرب بدأت في الشهر الثاني من سنة ٣٧هـ وانتهت في صفر من السنة التي تلتها... فالتاريخ الذي عرضه ابن مزاحم يزيد سنةً على ما عرضه البلاذريّ وبعض المؤرّخين غيره، وما عرضه الدينوريّ

١ - تاريخ اليعقوبيّ ٢: ١٨٨-١٩٠.
٢ - الكامل في التاريخ ٣:٢٩٣-٣٢١.
٣ - تاريخ خليفة بن خيّاط:١٩١.
٤ - وقعة صفّين: ١٩٠.
٥ - نفسه:١٩٦.

هو نفس ما أورده ابن مزاحم تماماً[١]، في حين أنّ الدينوريّ ـ على الرغم من ذكر ربيع الأوّل وجُمادَين ـ ذهب إلى أنّ تاريخ التحكيم كان في صفر سنة ٣٧هـ[٢]. وهذا شيءٌ لا يصحّ على أساس ما عرضه قبل ذلك، بل كما ذكر مصحّح كتابه أنّ المحرّم الّذي توقّفت فيه الحرب يتعيّن أن يكون المحرّم من سنة ٣٨ [٣]. ومن الجدير بالذكر أنّ ابن أعثم ذهب إلى أنّ دخول قوّات الإمام عليه السلام صفّينَ كان في المحرّم سنة ٣٨ [٤]، فلا يمكن أن يكون صحيحاً.

وإذا صحّ ما قيل: «إنّ الخوارج اجتمعوا في منزل زيد بن حُصَين، واختاروا عبد الله بن وهب الراسبيّ رئيساً لهم ليلةَ الجمعة لعشر ليال بقين من شوّال سنة ٣٧، وقاتلوا الإمام عليه السلام في صفر سنة ٣٨»[٥]، فلا جَرَمَ أن نُقرّ بأنّ رأي نصر بن مزاحم غير صحيح، ويتعيّن علينا أن نقول: إنّ الأكثريّة ترى أنّ الاشتباكات الأصليّة كانت في صفر سنة ٣٧.

وكان موضعُ القتال منطقةَ صفّين التي من أجلها سُمّيت الحرب المذكورة بهذا الاسم، وصفّين: «قريةٌ خراب من بناء الروم، منها إلى الفرات غَلوةٌ [قدرُ رميةٍ بسهم]، وعلى شطّ الفرات ممّا يليها غَيضةٌ مُلْتفّة [أَجَمَةٌ ومجتمع الشجر في مَغيض ماء]، فيها نزور طولها نحواً من فرسخَين، وليس في ذَينك الفرسخين طريقٌ إلى الفرات إلّا طريقٌ واحد مفروش بالحجارة»[٦].

ولمّا وافى جيش العراق جيشَ الشام، عَلِم أنّ أهل الشام استقرّوا في

١ - **الأخبار الطوال**: ١٦٩ – ١٧٢.

٢ - نفسه: ١٩٦.

٣ - نفسه: ١٧١.

٤ - **الفتوح** ٢: ٤٩٥.

٥ - **أنساب الأشراف** ٢: ٣٦٢.

٦ - **الأخبار الطوال**: ١٦٨.

المنطقة، واستولوا على الطريق المفروش بالحجارة الذي كان معبراً من الوحل، وأوقفوا الرُّماة والخيّالة على طريق الشريعة، ليمنعوا من أراد السلوك إلى الماء من أهل العراق.

وقيل: إنّ قوامَ جيش الشام مئةٌ وعشرون ألفاً[1]، وقوام جيش الإمام عليه السلام حين خرج من الكوفة ثمانون ألفاً، وزاد في الطريق بالتحاق جماعة من أهل المدائن به[2]. ووجّه الإمام عليه السلام صَعْصعةَ بن صُوحان إلى معاوية ليقول له: إنّ جيشك بدأ القتال، وإنّ الإمام عليه السلام يكره القتال قبل الإعذار، وقد حُلتم بيننا وبين الماء ولايمكن لأهل العراق أن يسكتوا. مع هذا لم يُرد الإمام عليه السلام أن يبدأ القتال، لكنّ معاوية ردّ كلام صعصعة، فعارض عمرُو بن العاص معاويةَ، وتحدّث له عن شجاعة الإمام عليه السلام، قائلاً له: «وقد سَمِعتُه أنا وأنتَ يقول: لو استمكنتُ من أربعين رجلاً، فذكر أمراً، يعني لو أنّ معي أربعين رجلاً يوم فُتِّشَ البيتُ، يعني: بيت فاطمة عليها السلام ...»[3]! لكنّ معاوية لم يستجب، وانتهى الأمر بالاشتباك... وقضيّة منع الماء ترتبط بمنع وصول الماء إلى عثمان من جهة[4]، وبواقعة كربلاء من جهة أُخرى.

واستولى جيش العراق على الماء في حملةٍ بفضل شجاعة مالك الأشتر[5]، لكنّ الإمام عليه السلام أمر أن لايحول أحدٌ بين الماء وبين أهل الشام. وحمل معاويةُ جيشَ العراق على تغيير موضعه بعد انتشار خبرٍ حول تفجير الفرات في المنطقة الّتي كانت تحت يد الإمام عليه السلام (وتمّ ذلك برمي سهمٍ إلى عسكر

---

١ - **الفتوح** ٢:٤٣٩.

٢ - **الأخبار الطوال**: ١٦٦ – ١٦٧.

٣ - **وقعة صفّين**: ١٦٣.

٤ - **أنساب الأشراف** ٢:٢٩٨؛ **الفتوح** ٣:٢.

٥ - **الفتوح** ٣:١٣.

الإمام عليه السلام وفيه كتاب لم يُعرف مُرسِلُه، وربّما هو صديق موال) ! وكان الإمام عليه السلام يعارض تغيير موضع العسكر، لكنّ أهل العراق غلبوه على رأيه، وبعد ذلك استطاع جيش العراق من خلال حرب أُخرى أن يُسيطر على الماء. وبشأن هذه الحوادث تفاوت ما نقله ابن أعثم مع ما نقله ابن مزاحم قليلاً[1]. وكان لمالك في هذه الحوادث جميعها دورٌ محوريّ، وقد أبلى بلاء حسناً في قتال أهل الشام[2]. وقُتِل عددٌ كبير من الجانبين في هذا الاشتباك، وذكر نصر ابن مزاحم ما دار بينهما من الأراجيز والكلمات، والحملات. وحال بينهما بعض قُرّاء الشام والعراق، وحاولوا حلّ الخلاف بالمفاوضات، واستمرّت مساعي الوساطة هذه برهةً من الزمن.

وأشرنا سابقاً إلى أنّ المحرّم قد حان بعد انتهاء ذي الحجّة، وتَقرّر توقّف الحرب[3]، ولم تُثمر المفاوضات بين مبعوثي الإمام عليّ عليه السلام ومعاوية، وكان الشرط الأصليّ لمعاوية هو قتل: عمّار بن ياسر، وعَدِيّ بن حاتِم، ومالك الأشتر، ومَنْ له ـ بزعمهِ ـ دور في قتل عثمان. وهذا أمرٌ مرفوضٌ تماماً عند الإمام عليه السلام وعند قبائلِ العراق على حدٍّ سواء. يضاف إلى ذلك أنّ المذكورين لم يكن لهم أيّ دور في قتل عثمان، وإن كانوا من مُعارضيه. وذات مرّة طلب الإمام عليّ عليه السلام في الكوفة من الناس - أمام أبي مسلم الخولانيّ - أنْ يقوم منهم مَن كان مِن قَتَلَة عثمان، وكان المسجد غاصّاً بالناس، فقالوا بأجمعهم: «كلّنا قَتَلَةُ عثمان[4]»! وجرت هذه القضيّة في صفّين أيضاً، واعتزل من عسكر

---

١ - نفسه ٢:١٥.

٢ - قال نصر بن مزاحم: وكان أكثر القوم حروباً الأشتر. **وقعة صفّين**:١٩٥.

٣ - **وقعة صفّين**:١٩٦.

٤ - **الأخبار الطوال**: ١٦٣.

الإمام عليه السلام زُهاء عشرينَ ألفَ رجلٍ، فصاحوا: «نحنُ جميعاً قتَلْنا عثمان[١]».
وكان إصرار معاوية على هذا الشرط يعود إلى علمه بأنّهم لايستجيبون لهذا الطلب الباطل أبداً. وحاول معاوية أن يخدع الذين جاؤوا كمبعوثين، وعندهم استعداد للانحراف، فقال لزياد بن حفصة[٢]: «... وإنّي أسألك النُّصرةَ عليه [على الإمام عليه السلام] بأسرتك وعشيرتك، ولك عَلَيَّ عهدُ الله وميثاقهُ إذا ظهرتُ أن أولّيَك أيَّ المِصْرينِ أحببت»، فقال زياد: «أمّا بعد، فإنّي لَعلى بيّنةٍ من ربّي، وبما أنعمَ عليّ، فلن أكون ظَهيراً للمُجرمين»[٣].

وانتهت الأشهر الحرُم بعد مضيّ المحرّم، وبدأت حرب صفّين بشدّة في يوم الأربعاء، أوّل يوم من صفر، بين مالك الأشتر وحبيب بن مُسلمة[٤]. وكان الإمام يُوصي جُندَهُ جميعاً ليلة الحرب أن: لا تُقاتلوا القومَ حتّى يَبدؤوكم[٥]، وكان هدفه عليه السلام هو أن يُتيح الفرصة - حتّى اللّحظة الأخيرة - لرجوع أهل الشام إلى الحقّ. وهذه هي وصاياه لعسكره: لا تُقاتلوا القومَ حتّى يَبدؤوكم؛ فإنّكم بحمد الله على حُجّة، وترككُم إيّاهم حتّى يَبدؤوكم حُجّةٌ أخرى لكم عليهم، فإذا قاتلتُموهم فهزمتُموهم فلا تقتُلوا مُدْبراً، ولاتُجْهزوا على جريح، ولا تَكشفوا عَورةً، ولاتُمثِّلوا بقتيلٍ. فإذا وصلتُم إلى رجالِ القوم فلا تهتكوا سِتْراً، ولا تَدخُلوا داراً إلّا بإذني، ولاتأخُذوا شيئاً مِن أموالهم إلّا ما وجَدْتم في عسكرهم، ولاتُهيجوا امرأةً بأذىً، وإن شتّمْنَ أعراضَكم، وتناولْنَ أُمراءَكم وصُلحاءَكم؛ فإنّهنّ ضِعافُ القُوى والأنْفُسِ والعقول. ولقد كنّا وإنّا لَنُؤمَر

---

١ - نفسه: ١٧٠.
٢ - في كتاب، «**وقعة صفّين**»: «خَصَفة» وليس «حفصة». المترجم.
٣ - **وقعة صفّين**:١٩٩.
٤ - نفسه: ٢١٤؛ **أنساب الأشراف** ٢:٣٠٣.
٥ - **الفتوح** ٣:٤٤ — ٤٥.

بالكفّ عنهُنّ وإنّهن لَمُشرِكات[1].

ومهما كان، فإنّ الحرب بدأت في يوم الأربعاء الأوّل من صفر[2]، واقتَتَل الجانبان قتالاً شديداً. ويبدو في كلّ يوم كان أحدُ أُمراء الإمام عليه السلام يقود الحرب في خطّ المواجهة المباشرة للعدوّ. فقادها في اليومَ الأوّل مالكُ الأشتر، وفي اليوم الثاني هاشمُ بن عُتبة المِرقال، وفي اليوم الثالث عمّارُ بن ياسر، وفي اليوم الرابع محمّدُ ابن الحنفيّة، وفي اليوم الخامس عبدُ الله بن عبّاس[3]. واشتدّت الحرب في يوم الخميس التالي، وانهزمت ميسرةُ الإمام فيها، لكنّ الإمام عليه السلام ومالك قد تداركاها بهمّتهما وشجاعتهما سريعاً[4]. وكان الإمام عليه السلام نفسه حاضراً، ويدعو أصحابه إلى الصمود بأدعيتهِ وخُطَبهِ عليه السلام[5]. وقد جمع نصر بن مزاحم أكثر أدعية وخُطب الإمام عليه السلام وأصحابه بدقّة، وصوّر مشاهِدَ القتال والمنازلات الفرديّة جُهدَ المستطاع. وكان قيس بن سعد يتحدّث إلى الأنصار كلّ يوم يحثّهم على قتال أهل الشام[6]، ويتوكّأ في كلامه على وجود صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله بينهم، فقال: «إنّ معنا من البدريّين سبعين رجلاً... وإنّما رئيسُنا ابنُ عمّ نبيّنا، بدريٌّ صِدْقٌ»[7]. وذكر اليعقوبيّ أنّ في جيش الإمام عليه السلام

---

١ - **وقعة صفّين** ٢٠٣ – ٢٠٤.

٢ - على الرغم من أنّ هذا التاريخ قد جاء في عدد من المصادر، فإنّ البلاذريّ (في **أنساب الأشراف** ٢:٣٢٣) ذهب إلى أنّ الثاني عشر من صفر كان يومَ الجمعة، وهو ما لا يناسب هذا التاريخ، إلّا أنّه يصحّ نظراً إلى خبر نصر بن مزاحم القائل بأنّ التحكيم كان في يوم الأربعاء، السابع عشر من صفر.

٣ - **أنساب الأشراف** ٢:٣٠٣ – ٣٠٥.

٤ - نفسه ٢:٣٠٥ – ٣٠٦.

٥ - نفسه: ٢٣٠ – ٢٣٢.

٦ - نفسه: ٤٤٧.

٧ - **وقعة صفّين**:٢٣٦. وقال الأشتر في كلامٍ له أيضاً: إنّ معهم من البدريّين قريباً من مئة بدريّ. نفسه: ٢٣٨.

سبعين بدريّاً، وسبعمئة من المبايعين بيعة الرضوان؛ وأربعمئة من المهاجرين والأنصار. ولم يكُ مع معاوية من الأنصار إلّا النعمانُ بن بشير ومسلمةُ بن مخلد[١]. وحين جمع الإمام عليه السلام الأنصار مرّةً وتوجّه بهم نحو أهل الشام، هيّأ معاوية هذين الاثنين وتقدّم بهما[٢]!

وكان عمّار بن ياسر صريحاً جدّاً في النَّيل من معاوية، فلمّا سأله رجل: كيف تقاتل هؤلاء وهم مسلمون؟! «...ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وآله: قاتِلُوا الناس حتّى يُسْلموا، فإذا أسلموا عَصَموا منّي دماءَهم وأموالهم؟! قال: بلى، ولكنْ والله ما أسلموا، ولكن استسلموا، وأسَرُّوا الكفر حتّى وجدوا عليه أعواناً»[٣]. وأكّد عمّار [رضوان الله عليه]، بحقٍّ، في خطبة أُخرى خطَبَها بصفّين أنّ هؤلاء خاضوا في دم عثمان مكيدةً منهم ليكونوا بذلك جبابرةً وملوكاً[٤]. وكان عمّار [رضوان الله عليه] لكثيرٍ من الناس بصفّين آيةً على تمييز الحقّ من الباطل، فقد سبق أن قال له رسول الله صلى الله عليه وآله [في حديث متواتر]: تقتلُك الفئةُ الباغية[٥]. وهذا الحديث المتواتر دفع جماعةً إلى أن يتربّصوا لينظروا في أيّ جبهة يُستشهَد [هذا العبد الصالح]، وكان عمرو بن العاص نفسه قد روى هذا الحديث! وأنكر عليه معاوية ذلك وعمّا حمله على نقله، فأنشد عمرٌو شعراً ذكر في سياقه أنّه كان لا يعلم بأنّ هذا سيقع في صِفّين[٦]. وسبّب الحديثُ مشكلةً لأهل الشام حتّى قُرِّر أن يتحاور عمرو وعمّار وجهاً لوجه بمحضر

---

١ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢:١٨٨.

٢ - **الفتوح** ٣:١٨٠ - ١٨١.

٣ - **وقعة صفّين**: ٢١٥.

٤ - نفسه: ٣١٩.

٥ - انظر بشأن مصادر الحديث: **أنساب الأشراف** ٢:٣١٢ - ٣١٣ (الهامش) وتكرّر في الصفحات التالية من الكتاب نقد الحديث المذكور عن عمرو بن العاص.

٦ - **الفتوح** ٣:١٣١.

عددٍ من الجانبَين، فقال عمّار لحظة تَشَهُّدِ عمرو: «فقد تركتَها في حياة محمّدﷺ وبعد موته». ثمّ قال له عمّار بعد أن واربه عمرو في كلامٍ قال فيه: «إنّما جئتُ لأنّي رأيتُكَ أطوعَ أهل هذا العسكر فيهم. أُذكّرك الله إلا كففتَ سلاحَهم وحقنتَ دماءَهم... فعلامَ تُقاتلُنا؟: «...وسأخبرك علامَ قاتلتُك عليه أنت وأصحابك، أمرني رسول اللهﷺ أن أُقاتل الناكثين، وقد فعلتُ؛ وأمرني أن أُقاتل القاسطين، فأنتم هم؛ وأمّا المارقون (الخوارج) فما أدري أُدركُهم أم لا؟ أيّها الأبتر، ألستَ تعلم أنّ رسول اللهﷺ قال: مَن كنتُ مَولاه فعليٌّ مولاه، اللّهمَّ والِ مَن والاه، وعادِ مَن عاداه...؟! فقال له عمرو متهرّباً مِن هذه الحقيقة العظمى: فما ترى في قتل عثمان؟ قال: فتح لكم بابَ كلّ سوء! قال عمرو: فعليٌّ قَتَلَه؟ قال عمّار: بلِ اللهُ ربُّ عليٍّ قَتَلَه... قال عمرو: أكنتَ فيمَن قَتلَه؟ قال: كنتُ مع مَن قتَلَه، وأنا اليومَ أُقاتل مَعَهم...».[1] فقال عمرو لمَن معه من أهل الشام: «ألا تسمعون؟! قد اعترف بقتل عثمان»! واستُشهد عمّار [رحمه الله] في يومٍ شديد القتال، فادّعى عدّة من الشاميّين أنّهم قتلوه[2]، وكما قيل: إنّ جماعةً منهم صلّوا عليه[3]! وعدّ معاوية قتله «فتح الفتوح».[4] وأُثر عن عمّار بيتٌ رائع في قتال أهل الشام وتوجيهه الدينيّ، وهو قوله:

نحنُ ضَرَبناكُم على تنزيلِهِ فاليومَ نضربُكُم على تأويلِهِ[5]

ومفهومه أنّ أهل الشام، وإن رضُوا القرآن والإسلام ظاهراً، إلّا أنّهم لم يعترفوا بحقائقه. وكان المسلمون يستعملون مفهوم البغي أيضاً، فقد قال

---

١ – وقعة صفّين:٣٣٩؛ الفتوح ٣:١٢٤ – ١٢٥.
٢ – أنساب الأشراف ٢:٣١١ – ٣١٣.
٣ – مختصر تاريخ دمشق ٥:٢٣٦.
٤ – المحبّر: ٢٩٦.
٥ – وقعة صفّين: ٣٤٠؛ أنساب الأشراف ٢:٣١٠.

المُغيرة بن الحارث بن عبد المطّلب:

أهلُ الصلاةِ قتَلْناهُم ببغيِهِمُ والمشركون قَتلْناهُم بما جَحَدُوا[١]

وأعطى الإمامُ عليه السلام، في خضمّ القتال، فتىً من جيشه مِصحفاً ليذهب به إلى أهل الشام ويدعوَهم إلى تحكيم القرآن، لكنّ أهل الشام قتلوه[٢]. وكان تفوّق جيش الإمام عليه السلام واضحاً تماماً، فقد تقدّم عبد الله بن بُدَيل حتّى وصل قريباً من مقرّ معاوية فأجبره على التقهقر من ذلك المكان، وانهزم عتبة بن أبي سفيان مرّةً عشرين فرسخاً عن موضع المعركة[٣]، وتضعضعت ميسرة جيش العراق أو ميمنته في بعض المواطن مؤقّتاً. وجاء في الأخبار أنّ الإمام عليه السلام اشتبك مع عددٍ من الأشخاص فقتلهم، ومن هؤلاء حُريث الذي كان من موالي معاوية، وكان قويّاً جدّاً، وهو الذي طلب من الإمام عليه السلام البراز، فخرج إليه الإمام عليه السلام فضربه، فقتله[٤]. وطلب البرازَ أيضاً عروةُ الدمشقيّ، فضربه الإمام عليه السلام، فشقّه نصفين[٥]. وورد في خبرٍ أنْ كان في رأس الإمام عليه السلام ثلاث ضربات، وفي وجهه الكريم ضربتان، قال نصر بن مزاحم بعد نقل هذا الخبر: «وقد قيل: إنّ عليّاً لم يُجرَح قطّ»[٦]. وطلب الإمام عليه السلام من معاوية أن يتبارزا، فأيّهما قتل صاحبه فالأمر إليه، فردّ معاوية ذلك[٧]! وواجه الإمام عليه السلام مرّةً عمرَو ابن العاص، لكنّ عمْراً كشف عورته لينجوَ بها، فاستطاع أن يهرب من

١ - **الفتوح** ٣:٢٧١.

٢ - **وقعة صفّين**:٢٤٤.

٣ - نفسه:٣٦٠.

٤ - **الفتوح** ٢:٤١؛ **الأخبار الطوال**:١٧٦.

٥ - **الفتوح**٣:١٨٧.

٦ - **وقعة صفّين**:٣٦٣.

٧ - نفسه ٢٧٤؛ **الأخبار الطوال**:١٧٦.

المعركة مستغلّاً حياءَ الإمامعليه السلام، إذ صَرف وجهه الكريم عنه[١]. وحدث مثل هذا أيضاً لبُسر بن أرطاة[٢]!

وكان القتال في تلك الأيّام شديداً غاية الشدّة، حتّى اشتبك في حملة واحدة أكثرُ من خمسمئة (أو ألف) من جيش العراق بنفس العدد من جيش الشام، فلم يرجع من هؤلاء ولا من هؤلاء أحد[٣]! وكانت حرب صفّين ذات تركيبة قبليّة، فقد تواجه كثير من القبائل التي كان نصفها في العراق ونصفها في الشّام، وضحّت قبيلتا ربيعة[٤]، وهَمْدان التي كان رئيسها في الحرب سعيد ابن قيس، أكثر من غيرهما، أمّا هَمْدان فقد بلغ الأمر مبلغاً أنشد فيها الإمامعليه السلام قوله:

فَلَو كنتُ بَوّاباً على باب جَنّة ... لَقُلتُ لهمْدانَ: ادخُلُوا بسَلامِ[٥]

وأمّا ربيعة فقد قيل فيها أيضاً: وكان عليّعليه السلام لايَعدِل بربيعةَ أحداً مِن شدّة محبّته لهم[٦].

وكان معاوية يوصي جيش الشام أن لا يستهدفوا في الحرب إلّا الهَمْدانيّين؛ لأنّهم أعداء عثمان[٧]! والحقيقة أنّ معاوية كان يخافهم، ويبتغي إضعافهم، وقد قُتِل عبيد الله بن عمر الذي كان من أُمراء جيش الشام في إحدى الحملات على يد رجل من القبيلة المذكورة. وكان ذو الكِلاع من

---

١ - وقعة صفّين:٤٠٧؛ أنساب الأشراف ٢:٣٣٠؛ الأخبار الطوال:١٧٧.
٢ - الفتوح ٣:١٧٣ - ١٧٤.
٣ - وقعة صفّين:٢٩٣؛ الفتوح ٣:٥٥.
٤ - أنساب الأشراف ٢:٣٢٥؛ الأخبار الطوال:١٨٦.
٥ - وقعة صفّين ٤٣٧؛ أنساب الأشراف ٢:٣٢٢؛ الفتوح ٣:٤٣ - ٤٤.
٦ - الفتوح ٣:٣٦١.
٧ - نفسه ٣:١٦٣.

أكبر أُمراء الشام، قُتِل هو الآخر في صفّين، وقيل: إنّه سمع عمرَو بن العاص[١] في عهد عمر يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: عمّار تقتلُه الفئةُ الباغية، لذا كان يُقاتل وهو شاكّ، وتمنّى معاوية أيّ تَمَنٍّ قَتْلَ صاحبه ذي الكلاع؛ لِئلّا يُثير مشكلةً لجيش الشام في روايته في عمّار.

وفي المقابل استُشهد كثيرٌ من الرجال البارزين في جيش الإمام عليه السلام، ومن هؤلاء: أُوَيس القَرَني[٢]، العارف المشهور الذي كانت له وما زالت منزلةٌ رفيعةٌ بين المسلمين، وذكره ابن أعثم في سياق حديثه حول استشهاده بصفّين[٣]. وكان هاشم بن عتبة المعروف بهاشم المِرْقال ـ الذي ذهبت إحدى عينيه في الفتوحات ـ من أكثر أصحاب الإمام عليه السلام تفانياً وتضحيةً، فاستُشهد في صفّين أيضاً، وهو ابنُ أخي سعد بن أبي وقّاص، وقد صمد مع الإمام عليه السلام وهو على يقينٍ تامٍّ إلى أن استشهد على عكس موقف عمّه الذي كان من القاعدين[٤]. ومن أصحاب الإمام عليه السلام الّذين استُشهدوا في صفّين خُزَيمة بن ثابت، أحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله قد أجازَ شهادتَه بشهادتين؛ لذلك اشتهر بـ«ذي الشهادتين». وإذا كان هؤلاء [الأبرار] قد استُشهدوا، فما زالت الشخصيّات الوجيهة موجودةً في جيش الإمام عليه السلام، كمالك الأشتر (الذي سمّاهُ معاوية: الأسد الأسود)[٥]، وعَدِيّ بن حاتِم، وقيس بن سعد.

---

١ - ويبدو أنّه سمعه من رجلٍ يُدعى أبا نوح، نقله له عن عمرو بن العاص في صفّين. نفسه ٣: ١١٩- ١٢٠.

٢ - **وقعة صفّين**:٣٢٤. **أنساب الأشراف** ٢:٣٢٠. ذكر البلاذريّ خبر استشهاده متردّداً. وذكر المصحّح الكريم مصادر عديدة نقلت هذا الخبر الّذي لايقبل الشكّ، ص٣٢٠ – ٣٢٢.

٣ - **الفتوح** ٢:٤٥١ – ٤٩٠.

٤ - جاءت أخباره المفصّلة في كتاب «**وقعة صفّين**» كما في: ص٣٤٦ – ٣٥٦.

٥ - **الفتوح** ٢:٦٧. ورد الكلام في هذا المصدر لعبيد الله بن عمر بن الخطّاب لا لمعاوية. المترجم.

وكان عدد من الكوفيّات في صفّين أيضاً، وكُنَّ يُحرّضــنَ جـيشَ العـراق على أهل الشّام بالأشعار التي كنَّ ينشدنها، ويمدحن فيها الإمـامعليه السلام ذاكـراتٍ فضائلَه، ومنهنّ: سَودة بنت عُمارة الهَمْدانيّة، وأمّ سنان[1] والزرقاء بنـت عَـدِيّ الهَمْدانيّة[2]، وغيرهَنَّ اللاّئي وردت ترجمتهنّ في مصادر عديدة... فقد خاطبت أمُّ سنان الإمامَعليه السلام يوم صفّين بقولها:

قد كنتَ بَعدَ محمّـدٍ خَلَفـاً لنـا أُوصى إليـك بنـا وكنـتَ وَفيّـا[3]

وقالت إحداهنّ، وهي أمّ الخير، يوم صفّين: إنّها إحَـنٌ بدريّـة، وضَـغائنُ جاهليّة، وأحقادٌ أُحُديّة، وثَبَ معاويةُ عند الغفلة لِيُدركَ بها الفُرصةَ مِن ثـارات عبدِ شمس[4]. وقالت جروة بنت مرّة بن غالب التميميّة حين استدعاها معاوية إلى الشام، وسألها عن الإمامعليه السلام: حازَ واللهِ الشـرفَ حتّـى لايُوصَـف، وغايـةً حتّى لاتُعرَف[5].

وكان معاوية يتوسّل بطرق أخرى غير الحـرب مـن أجـل دحـر جـيشِ العراق، فقد كتب كتباً مختلفةً إلى: أبي أيّوب الأنصاريّ، وعبد الله بن عبّـاس، وآخرين غيرهما، وحاول أن يحملهم على معارضة الإمـامعليه السلام بذريعـة حقـن الدماء، حتّى أنّه وعد ابن عبّاس بالخلافة[6]! ويتوسّل أيضًـا برشـاواه المتكـرّرة لجنده، وجعل الوضعَ بنحو: لم يَبقَ مِن أهل العراق أحدٌ في قَلبـه مـرضٌ إلّا طَمَعَ في معاوية! وهذا الوضع قد ساءَ عليّ الإمامَعليه السلام[7].

---

١ - نفسه ٢:١٠١.

٢ - نفسه ٣:١٤٢.

٣ - نفسه ٣:١٠٣.

٤ - **الوافدات من النساء على معاوية**:٢٩.

٥ - نفسه:٣٦.

٦ - **أنساب الأشراف** ٢:٣٠٧.

٧ - **وقعة صفّين**: ٤٣٥؛ **الفتوح** ٣:٢٢١ _ ٢٢٢.

وكتب معاوية إلى الإمام عليّ عليه السلام كتاباً أيضاً طلب فيه أن يترك الإمامُ لـه الشامَ على ألّا تُلزمه للإمام طاعةٌ... وهذا الطلبُ هو نفس الطلـب الـذي أراده من الإمام عليّ عليه السلام سابقاً، ونحن أشرنا إلى أنّ قصده هو إيجاد سلطنة أمويّـة مستقلّة في الشام، فرفض الإمام عليّ عليه السلام هذا الطلب أيضاً[1]. وفي هذه الفينـة أكثَرَ أهلُ الشّام من الكلام حول إراقة الدماء، وتظاهروا بـأنّهم يريـدون إنْهـاء الحرب، ولم يكن عملهم هـذا إلّا مـن أجـل الحـؤول دون هزيمـة فاضـحة للشام، وأحياناً من أجل إثارة الخلاف بين العراقيّين وشقّ عَصاهم، وهذا عملٌ أخفق معاوية في تحقيقة مراراً، إلّا أنّه ، كمـا سـنرى ظفـر بمنيتـه فـي نهايـة المطاف! ففي يومٍ من أيّام الحرب خرج رجلٌ من أهل الشـام بـين الصّـفّين، وعرض على أن يعود جيش العراق إلى العراق، وجيش الشام إلى الشام حقناً للدماء، فقال له الإمام عليه السلام مؤيّداً صِدقه: لَقَد عَرَفتُ، إنّما عرضتَ هذا نصيحةً وشفقةً، ولقد أهمّني هذا الأمرُ وأسهَرني، وضربتُ أنفَه وعينَيه، فَلَـم أجِـدْ إلّا القتال أو الكفرَ بما أنزَلَ الله على محمّد صلى الله عليه وآله ، إنّ الله تبارك وتعالى لـم يـرضَ مِن أوليائِه أن يُعصى في الأرض وهم سَكوتٌ مُذْعِنون، لايأمرون بـالمعروفِ ولايَنْهون عن المنكر، فوجدتُ القتال (بما فيه من شـدائد) أهـونَ عَلَـيَّ مـن مُعالجة الأغلالِ في جهنّم![2]

واحتدم القتال في يومٍ من الأيّام الأخيرة للحرب أيَّ احتدام، إذ بـدأ مِـن صلاة الصبح إلى منتصف الّليل، وكان مالك الأشتر [رضـوان الله عليـهِ] أثنـاءَ هذه المدّة يحثّ الجيش ويشجّعه على القتال، حتّى سُمّيت تلك الّليلـة «ليلـةَ الهَرير»، ثمّ تجدّد القتال من منتصف تلك الّليلة إلـى ظهـر اليـوم الثـاني. قـال

---

١ - وقعة صفّين:٤٧٠ ـ٤٧١.

٢ - نفسه :٤٧٤؛ الفتوح ٣:٢٦٤ـ٢٦٥.

الإمامعليه السلام في خطبةٍ له يصف العصاة المناوئين: ولَم يَبقَ مِنهُم إلّا آخِرُ نَفْس.

ولمّا رأى معاوية وعمرو أنّ الوضع قد تناهى، وفقدا الأمل في جيش الشام، احتالا [برفع المصاحف] وفي غدِ ليلة الهرير، إذِ استمرّ القتال حتّى ظهر ذلك اليوم[١]، رفع أهل الشام خمسمئة مصحف على أطراف الرماح، ثمّ علا النداء: «يا معشر العرب! اللهَ اللهَ في نسائكم وبناتكم، فمَن للروم والأتراك وأهل فارس غداً إذا فَنِيتم»[٢]؟!

وأدّى هذا العمل إلى أن يُسمَع بين العراقيّين أنّ العدوّ قَبِل تحكيم القرآن، فلا حقّ لنا في قتالهم! ووقف الإمام عليّعليه السلام مِن هذا الكلام موقفاً شديداً معلناً أنّه ليس إلّا مكيدة وخُدعة. وكان صعصعة يقول: كان عمل معاوية هذا بعد سماعه الأشعث بن قيس يقول في ليلة الهرير: «إنّا إن نحن تواقفَنا غداً، إنّه لَفَناء العرب وضَيعة الحُرُمات»[٣]، وكان أوّل معارض حقيقيّ للإمامعليه السلام في استمرار الحرب هو الأشعث. وأشرنا سابقاً إلى أنّ خبر مكاتبته لمعاوية بعد عزله من ولاية آذربايجان قد ورد في الأخبار التاريخيّة، وصرّح اليعقوبيّ هنا أيضاً أنّ معاوية قد استماله، وكتب إليه ودعاه إلى نفسه[٤].وكان عمل الأشعث هذا مصحوباً بميل اليمانيّة معه[٥]، وأقلّ ما يمكن أن يُقال عن الأشعث هو أنّه كان مستعدّاً للانحراف منذ البداية، ثمّ زاد ذلك الاستعداد تدريجاً، وفي متناول أيدينا كلمات نطق بها ضدّ معاوية في جَلَبَة القتال حاضّاً

١ – **أنساب الأشراف** ٢: ٣٢٣.
٢ – **وقعة صفّين**: ٤٧٣.
٣ – نفسه: ٤٨١.
٤ – **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٨٨ – ١٨٩.
٥ – نفسه ٢: ١٨٩.

جيشَ العراق على الحرب[1]، وحريٌّ بالعلم أنّ للتلاحيات القبليّة دَوراً مهمّاً، وربّما ساء الأشعثَ عنايةُ الإمام عليّ عليه السلام بمالك الأشتر!

وعَسُر الأمر غايةَ العُسر باحتدام الخلاف داخل جُند الامام عليه السلام، فشعر عليه السلام أنّه ليس آمراً بل الأمراء هم رعيّته الذين غلّوا يديه، مع هذا قام عليه السلام فقال:... عبادَ الله، إنّي أحقُّ مَن أجاب إلى كتابِ الله، ولكنّ معاويةَ وأصحابَه لَيسُوا بأصحابِ دين ولا قرآن. إنّي أعرَفُ بِهم مِنكم، صَحِبتُهم أطفالاً وصَحِبتُهم رجالاً، فكانوا شرَّ أطفال وشرَّ رجال... فجاء زَهاء عشرين ألفاً من جيشه إليه، ونادَوه باسمه لا بأمرة المؤمنين، وطلبوا منه عليه السلام أن يَقبل التحكيم، وفيهم عصابةٌ من القرّاء كانوا يُرضُون أنفسهم بقراءة القرآن، فصاروا «خوارج» مِن بعدُ[2].

وكان مالك الأشتر حينها يقاتل في خطّ المواجهة قريباً من خيمة معاوية، فطلب معارضو الحرب من الإمام عليه السلام أن يأمره بالرجوع، فبعث إليه الإمام عليه السلام يزيدَ بن هاني ليأتيه، فقال مالك: «ليس هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تُزيلني فيها مِن موقفي»، فقال المعارضون يخاطبون الإمامَ عليه السلام: «ما نراك إلّا أمرتَه بقتال القوم»، وإذا لم يرجع الأشتر قتلناك، فرجع مالك ووضعت الحرب أوزارها! وكتب الإمام عليّ عليه السلام إلى معاوية يخبره بقبول التحكيم، قائلاً له:ولقد عَلِمْتُ أنّك لستَ مِن أهل القرآن، ولستَ حُكْمَه تُريد، واللهُ المستعان، وقد أُجَبْنا القرآنَ إلى حُكمه، ولَسْنا إيّاك أجَبْنا[3]. وانفلت جيش معاوية بعد أن كان أشْرَفَ على الهزيمة والهلاك.

---

١ - الفتوح ٢:٧٤.

٢ - وقعة صفّين:٤٨٩.

٣ - نفسه ٤٩٠ - ٤٩٤.

وذهب الأشعث إلى معاوية وسأله عن كيفيّة إجراء حكم القرآن، فقال له: يجلس رجلٌ منّا ورجلٌ منكم، ويُريان ما يحكم به القرآن. فنقل رأيه إلى الإمام عليّ عليه السلام، وبعد ذلك وقف جمعٌ من قرّاء الشام والعراق بين الصفّين ومعهم المصحف، فنظروا فيه وتدارسوه، وأجمعوا على أن يُحْيوا ما أحيا القرآن، وبعد ذلك اختار أهلُ الشام عمرَو بنَ العاص، وقال الأشعث والقرّاء الذين صاروا خوارج فيما بعد: فإنّا قد رضينا واخترنا أبا موسى الأشعريّ. فأبى الإمام عليه السلام اختيارهم لمخالفته للإمام في حرب الجمل، لكنّهم أصرّوا عليه. وأراد عليه السلام ابنَ عبّاس أو الأشتر حكماً، فقالوا: «وهل سعّر الأرض علينا غيرُ الأشتر؟! ولا نرضى بابن عبّاس؛ لأنّ عمرو بنَ العاص من مُضر، فلا بدّ أن يكون الآخَر يمانياً. (لا والله لايحكمُ فيها مُضريّان حتّى تقوم الساعة)[١]! فرأى عليه السلام أنّ الإصرار لا معنى له، فقال: فاصنعُوا ما أردتُم، [٢] وكان ابن عبّاس يقول فيما بعد: «... ولو كان معه [مع الإمام عليه السلام] مَن يصبر على السيف لَكان الفتح قريباً[٣]»! وهكذا قُرّر أن تُكتب المعاهدة.

وجاء فيها بعد الإشارة إلى اختيار أهل الشام والعراق هذين الرجلين، أن يحكما في ما اختلفا فيه: «على أنّ عليّاً ومعاوية أخذا على عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهدَ الله وميثاقه، وذمّته وذمّة رسوله أن يتّخذا القرآنَ إماماً، ولا يَعْدُوَا به إلى غيره في الحكم بما وَجَداه فيه مسطوراً، وما لم يجدا في الكتاب ردّاه إلى سُنّة رسول الله الجامعة، لايتعمّدان لها خلافاً، ولا يبغيان فيها بشُبهة» وقُرّر أيضاً أنّه إذا تُوفّي أحد الحكمين قبل التحكيم فلأميره أن يختار

١ - من المؤسف أنّ المنافسة المضريّة واليمانيّة سبّبت المشاكل في حرب صفّين. انظر: **الفتوح** ١٦٣:٣.

٢ - **وقعة صفّين**: ٤٩٩- ٥٠٠.

٣ - **أنساب الأشراف** ٣٣٧:٢.

مكانه رجلاً آخر، وإن مات أحدُ الأميرين، فلشيعته أن يُولّوا مكانه رجلاً يرضَون عدله. وجاء فيها: «وعلى الحكَمين عهدُ الله وميثاقه ألّا يألُوا اجتهاداً (في مقابل نصّ القرآن) ولا يتعمّدا جوراً، ولا يَدخُلا في شُبهة، ولا يَعْدُوَا حُكمَ الكتابِ وسُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، فإن لم يفعلا بَرِئتِ الأمّةُ من حُكمهما، ولا عهدَ لهما ولا ذمّة». وتاريخ التحكيم انقضاءُ شهر رمضان (أي بعد مضيّ ثمانية أشهر، وهي الفترة ما بين صفر ورمضان). وقُرّر على أيّ حال أن تُحسَم القضيّة إلى موسم الحجّ القادم: «فإنْ هما لم يحكما بكتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله إلى انقضاء الموسم، فالمسلمون على أمرهم الأوّل في الحرب، ولا شرط بين واحدٍ من الفريقين». وتاريخ العهد المذكور كان يوم الأربعاء (عند أبي مِخْنَف: يوم الجمعة)[١]، السابع عشر من صفر سنة ٣٧هـ[٢].

ووُضعت حقوقٌ متساوية للإمام عليه السلام ومعاوية، وجاء اسم الإمام عليّ عليه السلام أوّل الأمر بعنوان «أمير المؤمنين»، وهو ما لم يستجب له معاوية، وأصرّ الأشعث على محوه، فقال الإمام عليه السلام: سبحان الله؛ سنّةٌ كسنّة النبيّ صلى الله عليه وآله، حيث أصرّ سهيل بن عمرو مبعوثُ المشركين على محو عنوان «رسول الله» في صلح الحديبيّة[٣]!

ولم تُعقَد معاهدةٌ أُخرى بعد هذه المعاهدة بين الإمام عليه السلام ومعاوية حتّى استشهاد الإمام عليه السلام، كما يبدو. وهذا على عكس ما رواه الطبريّ عن زياد بن عبد الله، عن أبي إسحاق في حوادث سنة ٤٠هـ، إذ قال: «لمّا لم يُعطِ أحدُ الفريقين صاحبَه الطاعة، كتب معاويةُ إلى عليّ: أمّا إذا شئتَ فلك العراق ولي

١ - نفسه؛ وانظر: ص٣٣٨.

٢ - **الأخبار الطوال**:١٩٤ - ١٩٦؛ **وقعة صفّين**: ٥٠٤ - ٥٧٠؛ وانظر: **أنساب الأشراف** ٢:٣٣٤ - ٣٣٥.

٣ - **وقعة صفّين**:٥٠٨؛ **تاريخ اليعقوبيّ** ٢:١٨٩.

الشام، وتكفّ السيفَ عن هذه الأمّة، ولا تُهْريق دماء المسلمين. ففعل ذلك، وتراضَيَا على ذلك، فأقام معاوية بالشام جنوده يجْبيها وما حولها، وعليٌّ بالعراق يجبيها ويقيمها بين جنوده»[١].

كُتبت المعاهدة ـ على أيّ حال ـ في التحكيم، لكنّ فتنةً قد نشبت بين فريقٍ من أصحاب الإمام عليّ عليه السلام، وهي الفتنة التي مهّدت لظهور الخوارج، فعارض بعض الرجال المعاهدة وقتها، إلّا من كان مِن شيعة الإمام عليه السلام المخلَصين، فقد تحمّل التحكيم لأجل الإمام، ومن هؤلاء مالك الأشتر [رضوان الله عليه]، ولمّا بلغ الإمامَ عليه السلام أنّ مالكاً غير راضٍ عن التحكيم لأنّ الإمام عليه السلام ظُلِم فيه، قال عليه السلام: إنّ الأشتر لَيرضى إذا رَضِيتُ، وقد رضيتُ ورضِيتُم... وأمّا الّذي ذكرتُم مِن تركِه أمري وما أنا عليه، فليس مِن أُولئك، وليس أتخوّفُه على ذلك، ولَيتَ فيكُم مِثْلَه اثنَين، بل ليت فيكم مِثْلَه واحداً يرى في عدوّه مثلَ رأيه[٢].

ورجع الإمام عليّ عليه السلام إلى الكوفة مع جيشه في ربيع الأوّل سنة ٣٧هـ[٣]، وارتفعت أصوات البكاء والنحيب من بيوت الكوفة، فسلّاهم الإمام عليّ عليه السلام بشهادته على استشهاد قتلاهم، وبعث عليه السلام أبا موسى في آخر الأمر إلى محلّ التحكيم، وأوفد معه أربعمئةٍ بقيادة شُريح بن هانئ، وعيّن عبدَ الله بن عبّاس

---

١ - **تاريخ الطبريّ**٥:١٤٠. **تجارب الأمم** ١:٥٦٥. من الطبيعيّ أنّ نقل صاحب هذا الكتاب (**تجارب الأمم**) ليس نقلاً مستقلّاً؛ لأنّه اكتفى في هذه الأقسام بذكر خلاصة موضوعات الطبريّ. ويمكن أن يكون قد خلط الراوي هذه المعاهدةَ بالمعاهدة التي أجَلُها سنةٌ واحدة في قضيّة التحكيم.

٢ - **وقعة صفّين**:٥٢١؛ وانظر: **أنساب الأشراف** ٢:٣٣٦.

٣ - **أنساب الأشراف** ٢:٣٣٧.

إماماً لهم في الصلاة وكان أبو موسى يعلم برجاسة معاوية، وقد نصحه كثيراً[1]. وفي هذه البرهة، جاء: عبد الله بن عمر، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن الزبير إلى معاوية، وحضروا لقاء عمرو بن العاص وأبي موسى[2]. وتحدّث ابن العاص في لقائه بأبي موسى عن فضائل مزعومة في معاوية! وذكر أنّه وليُّ دم عثمان، وأنّ الله جعل لوليّ الدم سلطاناً، وركّز أبو موسى في إحياء سنّة عُمر في الشورى. وتكلّم عن عبد الله بن عمر أيضاً، فقال له عمرو بن العاص: إنّه رجل ضعيف ولايصلح للخلافة. ولنا أن نتساءل قائلين: ما هي المبادئ التي يتعيّن أن تتّسق بموجبها الشورى التي تشبّث بها المعارضون؟ ومَن هم الذين يجب أن يكونوا من أعضائها؟ وكان عمر، بما يتمتّع به من سلطة خاصّة، قد جعل الخلافة في الستّة الذين عيّنهم ليختاروا واحداً منهم، فما علاقة هذا الأمر بجعل الخلافة في التحكيم «شورى بين المسلمين» ليختاروا خليفةً لهم؟ وكان أبو موسى يُصرّ على هذا المطلب، ولذلك كان يعتقد إخراج الخلافة من الإمام عليّ عليه السلام ومعاوية أوّلاً، ثمّ اختيار رجل آخر لها، فالأولويّة عنده في خلعهما. وقَبِل عمرو بن العاص بهذا العرض مكراً منه وكيداً. ولمّا أعلن أبو موسى على المنبر خَلْعَ الإمام عليّ عليه السلام، أعلن عمرو بعده خلع الإمام عليه السلام أيضاً فقط، وثبّت معاوية! قائلاً: «...وأنا أخلع صاحبَه [الإمامَ عليّ عليه السلام] كما خلعه، وأُثْبِتُ صاحبي معاوية [في الخلافة]!» فاعترض أبو موسى عليه، ووصفه بالغَدر والفجور، وقال له: «إنّما مَثَلُك مَثَلُ الكلب...»، فقال عمرو: «إنّما مَثَلُك مَثَلُ الحِمار يَحملُ أسفاراً»! وتبلبل المجلس. وهكذا، تمخّض التحكيم ـ كالشورى العُمَريّة السداسيّة ـ عن خلاف آخر بين الشام والعراق، بلا ذكرٍ

---

١ ـ نثر الدرّ ١ :٤٢١.

٢ ـ وقعة صفّين: ٥٤٠ ـ ٥٤١.

لكتاب الله وسنّة رسولهﷺ، بل تذرّع بسُنّة عمر وحدها[١]. وبعد ذلك، سمّى أهل الشام معاويةَ «أمير المؤمنين»، وهذه أهمّ نتيجة للتحكيم عند أهل الشام. قال أبو مخنف: «خرج الناس إلى صفّين وهم أحبّاءٌ مُتوادّون، ورجعوا وهم أعداءٌ متباغضون». وكان الخوارج يقولون: «أدهنتم في أمر الله»، وقال آخرون: «فارقتُم إمامَنا وجماعتَنا، » فاغتمّ الإمامعليه السلام لتباغضهم واختلافهم[٢].

قتال الخوارج المُفْرِطين

لمّا أخذ الأشعث بن قيس كتاب التحكيم وقرأه على مختلف القبائل، صاح عددٌ من الجند بوجهه:لا حُكْمَ إلّا لله[٣].نقل نصر بن مزاحم أنّ رجالاً من: بني مراد، وبني راسب، وبني تميم كرهوا نداء تحكيم الرجال في دِين الله وقالوا: «لا حُكْمَ إلّا لله». وكان عروة بن أُدَيّةَ (وفي خبرٍ آخر:عروة بن جُدير)[٤] بين المعارضين، فحمل على الأشعث ووقع سيفه على عَجُز دابّته. وجاء الأشعث إلى الإمام عليّعليه السلام وأخبره برضى الناس جميعاً إلّا قليلاً منهم، فارتفعت الصيحات أكثر: «لا حُكْمَ إلّا لله»، وكانوا يسألون: فأين قتلانا يأشعث؟! إنّ الله قد أمضى حكمه في معاوية وأصحابه أن يُقتلوا. ومن الواضح أنّ عدداً كبيراً من جيش العراق لم يستسلم لأهل الشام بكلام الأشعث وأمثاله، وإذا حاول فريقٌ أن يفرض رأيه على الإمامعليه السلام، فلماذا لايفرضه فريقٌ آخر عليه؟ وطلب هؤلاء من الإمامعليه السلام أن يتخلّى عن التحكيم، وأن يتوبَ [بزعمهم] ويرجع عن رأيه الأوّل الذي جرّ إلى الكفر! فقال

١ - نفسه : ٥٤٥ – ٥٤٦؛ الأخبار الطوال: ١٩٩ – ٢٠١؛ أنساب الأشراف ٢:٣٥٠ – ٣٥١.
٢ - أنساب الأشراف ٢:٣٤٢.
٣ - الأخبار الطوال:١٩٦.
٤ - أنساب الأشراف ٢:٣٣٩.

لهم عليه السلام: وَيْحكُم! أبعدَ الرضى [والميثاق] والعهـد نرجـع؟! أوَلـيسَ اللهُ تعـالى قال: ﴿أَوفُوا بِالْعُقُود﴾؟! قد أعطيتُهم ميثاقاً إلـى مـدّة فـلا يَحِـلُّ قتـالُهم حتّـى تنقضيَ المُدّة[١]. وقال لهم [للذين دَعَوا إلى الحرب]: يا قوم قد تَـرَونَ خـلافَ أصحابِكم، وأنتُم قليلٌ في كثير، ولَئنْ عُدتم إلَى الحربِ لَيكونَنّ [هؤلاء] أشـدَّ عليكَم مِن أهل الشام[٢].

وانقسم الناس في رجوعهم مـن صـفّين فـرقتين: فرقـة كانـت معارضـة للتحكيم، وفرقة أُخـرى اتّهمتهـا بمفارقـة الجماعـة[٣]. وانفصـلت، قريبـاً مـن الكوفة، جماعةٌ عن الجيش تدريجاً، وتوجّهت تلقاء منطقة حَرُوراء على بُعـد نصف فرسخ عن الكوفة[٤]، ولذلك سُمّي هؤلاء: الحَرُوريّة.

وأبرز وجوه الخوارج هم: حَرْقوص بن زهير التَّميميّ، وشُرَيح بن أوفـى العَبْسيّ، وفَرْوة بن نوفل الأشجعيّ، وعبد الله بن شجرة السُّلميّ، وحمـزة بـن سنان الأسديّ، وعبد الله بن وهب الراسبيّ. ولمّا دخل الإمام عليه السلام الكوفة، جاءه هؤلاء وطلبوا منه أن لا يوجّه أبا موسى إلى التحكـيم، فقـال عليه السلام لهـم: فارَقْنـا القومَ على شيءٍ فلا يجوزُ نقضُه[٥]. ويُستَشَفـّ من أسماء هؤلاء غيابُ مشـاهير العراق عن أوساطهم، بل على العكس، كان معظمهم من القبائل البدويّة: كبكر ابن وائل، وبني تميم[٦]. فأكثر الخوارج من البدو الـذين لـم يكـن لهـم وعـيٌ

---

١ – **وقعة صفّين**: ٥١٣ – ٥١٤؛ **أنساب الأشراف** ٢:٣٥٧.

٢ – **أنساب الأشراف** ٢:٣٣٧ – ٣٣٨.

٣ – نفسه ٢:٣٤٢. في هذا المصدر: ثلاث فرق: فرقة رجعت إلى منازلهـا فأقامـت فيهـا؛ وفرقـة أقامت متأنّيةً ما يصير شأنه؛ وفُرقة شهدت على الإمام وأصحابه بالشرك، وهم أهل النهروان. المترجم.

٤ – **تاريخ اليعقوبيّ** ٢:١٩١.

٥ – **أنساب الأشراف** ٢:٣٥٩.

٦ – نفسه ٣:٣٥٠.

للإمامة والسياسة كأمر يفوق القبليّة، وكانوا يعبّرون عن اتّجاهم هذا في فَهْمٍ منحرف لشعار: «لا حُكْمَ إلّا لله»، وكان في الخوارج عتريس بن عرقوب الشيبانيّ صاحب عبد الله بن مسعود[١].

وأثار الخوارج ثلاث مسائل مهمّة على الإمام عليّ عليه السلام : الأولى: تحكيمه الرجال في دين الله، والثانية: رضاه بمحو اسمه من لقب الخلافة، أي إمرة المؤمنين، وإشكالهم هذا، على حدّ تعبير اليعقوبيّ، هو أنّه عليه السلام ضيّع - برضاه المذكور- «الوصيّة»[٢]! الثالثة: منعُه عليه السلام تقسيمَ الغنائم بعد ظهوره وتغلّبه على الناكثين، فكيف قاتلهم، ولم يُجزْ أخذَ أموالهم[٣]؟

واستند الإمام عليّ عليه السلام في محو لقب: «أمير المؤمنين» إلى محو لقب: «رسول الله» في صلح الحديبيّة، وقال عليه السلام في التحكيم ما مضمونه: كنتُ كارهاً للتحكيم، ثمّ رضيتُ به بعد إلجاء الناس، وشرطتُ على الحكمين أن يحكما بحكم القرآن، فإن حكما به فليس لنا أن نخالف ما حكما به، وإنّما حكّمْنا القرآنَ ولم نُحكّم الرجال. ثمّ أعلن عليه السلام عزمه على قتال الشام ثانية بعد جمع الخراج! وهكذا ثاب إليه كثيرٌ من الذين كانوا مع الخوارج[٤]. بيدَ أنّ الذين ظلّوا متمسّكين بعقيدتهم كثيرون، وقد عارضوا التحكيم متوكّئين على شعار: لا حُكْمَ إلّا لله. وكان من خصائص الخوارج أنّهم تمسّكوا بالظواهر، وأفرطوا في تصوّراتهم وانطباعاتهم من خلال زعمهم: «ضرب القرآن بعضِه ببعض» وقد قال الإمام عليه السلام لفرقة اعترضت عليه في المسجد رافعةً هذا الشعار: كلمةُ حقٍّ يُرادُ بها الباطل، وقال عليه السلام في موقفه من الخوارج المعارضين: «فإنْ سكتُوا

---

١ - نفسه ٢:٣٦٣.
٢ - تاريخ اليعقوبيّ ٢:١٩٢.
٣ - أنساب الأشراف ٢:٣٦٠.
٤ - نفسه ٢:٣٤٩.

تَركناهُم - أو قال: عـذَرْناهُم- وإن تكلّمُوا حَجَجْنـاهم، وإن خرجُـوا علينـا قاتَلْناهم»، فقام أحد الخوارج وقال: «اللّهمّ إنّا نعوذُ بك مِن إعطاء الدنيّـة فـي ديننا، فإنّ ذلك إدهان، وذا يرجع إلى سخط الله»[1].

وجاء في خبرٍ آخر أنّ مواصلة الخـوارج اعتراضـاتِهم التـي طالـت سـتّة أشهر بعد رجوع جيش الكوفة من صفّين حملت الإمامَ عليه السلام على إرسال عبـد الله بن عبّاس وصعصعة بن صُوحان إليهم من أجل محاورتهم، فلم يستجيبوا لطلبهما القاضي بالرجوع إلى الجماعة، فطلب عليه السلام منهم أن يُعيّنوا اثنـي عشـر نقيباً، وهو عليه السلام يعيّن من أصحابه مثلهم، وجلس عليه السلام يتحدّث معهم، فذكر فـي البداية آياتٍ من القرآن الكريم حـول التحكـيم، وقـال:... فخَشِـيتُ إنْ أَبَيـتُ الّذي دَعَوا إليهِ مِن القرآن والحُكْم، أن يَتأوّلُوا علَيّ [آياتٍ قرآنيّة معيّنة][2]، فقام خطيب الخوارج وقال: «دعوتَنا إلى كتاب الله والعمل بـه فأجبنـاك وبايعنـاك، [و] قد قُتِلَت في طاعتك قتلانا يومَ الجمل وصفّين، ثمّ شـككتَ فـي أمـر الله وحكّمتَ عدوّك، ونحن على أمرك الذي تركتَ وأنت اليوم على غيره، فلسـنا منك إلّا أن تتوب منه وتشهد على نفسك بالضّـلالة»! فقـال عليه السلام: أمّـا أنْ أشـهدَ على نفسي بالضّلالة فَمَعاذَ الله أن أكون ارتَبْتُ منذ أسـلمتُ، أو ضَـللتُ منـذ اهتدَيتُ، بل بنا هَداكمُ الله مِن الضلالة؛ واستنقذكم مِن الكفر، وعصَمَكم مـن الجَهالة، وإنّما حَكَمتُ الحاكمين بكتابِ الله والسُّنّة الجامعة غير المفرِّقة، فـإن حَكَما بكتابِ الله كنتُ أُولى بالأمر مِن حُكمهما، وإنْ حَكَمـا بغيـرِ ذلـك لَـم يكنْ لَهُما علَيّ وعليكُم حُكْم.

---

١ - نفسه ٢:٣٥٢.

٢ - آل عمران:٢٣؛ المائدة:٩٥؛النساء: ٣٥؛ وفي المصدر المذكور: «أن يتـأوّلوا علَـيّ قـولَ الله ...، ويتأوّلوا عليّ قوله ...، ويتأوّلوا عليّ قوله...».

واعتزل ابنُ الكَوّاء الذي كان يقودهم ومعه خمسمئة من الخوارج[1]. وقال بعض المؤرّخين: إنّه كان مع الخوارج في النهروان، ودار النقاش بينه وبين الإمام عليه السلام هناك[2]. وكان إشكال الخوارج هو أنّهم اعتبروا قبول التحكيم كفراً، فطلبوا من الإمام عليه السلام أن يشهد على نفسه بالكفر ويتوب منه[3]، إذ لم يعتبروه مرتكباً مجرَّدَ ذنب بسيط؛ لذلك قال الإمام عليه السلام:

يا شاهِدَ اللهِ عَلَيَّ فاشهَدِ ... آمنتُ باللهِ وليٌّ أحمدِ

مَن شَكَّ في اللهِ فإنّي مُهْتدِ[4]

ومهما كان، فإنّ الكلام المتكرّر للإمام عليه السلام وأصحابه لم يَصُدَّ بعضَ الخوارج عن الطريق الذي سلكوه، فاجتمع الخوارج في شوّال سنة ٣٧هـ - أي بعد انتهاء التحكيم في رمضان من تلك السنّة - في منزل زيد بن حُصَين، واختاروا عبدَ الله بن وهب الراسبيّ قائداً لهم[5]، ونظّموا وضعهم السياسيّ والعسكريّ. وبعد التحكيم، لم يُجيزوا البقاء في الكوفة، فتركوها إلى المدائن من باب وجوب الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان! ومن هناك كتبوا إلى مَن يتّفق معهم فكريّاً من البصريّين، ودَعَوهم إليهم، ولم يستحسن بعضهم الذهاب إلى المدائن بسبب وجود شيعة الإمام عليه السلام فيها، فاختاروا النَّهْروان[6].

ولمّا أُعلِنَت نتيجةُ التحكيم، أعلن الإمام عليه السلام معارضتَه لها، وطلب من الناس أن يجتمعوا في المعسكر لقتال القاسطين[7]، وكتب إلى الخوارج

---

١ - **أنساب الأشراف** ٢:٣٥٤.

٢ - **الأخبار الطوال**:٢٠٩ .

٣ - **أنساب الأشراف** ٢:٣٦١.

٤ - نفسه ٢:٣٥٦، ٣٦٩.

٥ - نفسه ٢:٣٦٤.

٦ - **الأخبار الطوال**: ٢٠٣ — ٢٠٤.

٧ - **أنساب الأشراف** ٢:٣٦٦؛ وفي هامشه عن: **الإمامة والسياسة** ١:١٤٣.

يُخبرهم أنّ الحكمَين خالفا القرآن، وأنّه عليه السلام متوجّهٌ إلى الشام، وأراد منهم أن يُقبلوا إليه[١]، فأجابوه أنّه لايجوز لنا أن نتّخذك إماماً. وبعد اجتماع الناس في النُّخيلة، سار جيش العراق نحو الأنبار، وأخذ يسير إلى قرية «شاهي»، ثمّ إلى قرية «دباها»، ثمّ إلى «دمما»[٢]. والتقى الخوارج ـ الّذين اجتمعوا في النهروان يومئذٍ في طريقهم ـ بعبد الله بن خبّاب بن الأرَتّ، فسألوه عن رأيه في الإمام عليه السلام، فقال: «إنّه أميرُ المؤمنين، وإمامُ المسلمين»، فقتلوه وزوجتَه التي كانت حاملاً. وقيل: إنّهم كانوا كلّما التقوا في طريقهم بأحدٍ يسألونه عن رأيه في التحكيم، فإذا لم يتّفق معهم قتلوه![٣] فحمل عملُهم هذا الإمامَ عليه السلام على مواجهتهم وقتالهم[٤]؛ وسبب ذلك أنّه عليه السلام لم يَسَعْه أن يترك الكوفة، وفيها النساء والأطفال، لهؤلاء الجُناة المجرمين المتظاهرين بالقداسة، فسار عليه السلام إلى المدائن، ومنها إلى النهروان... وكتب إليهم يَدْعوهم إلى الرجوع إلى الجماعة، فأجابه عبد الله بن وهب مشيراً إلى ما أرادوه منه سابقاً بأن يعترف بأنّه شكّ في دينه وعليه أن يتوب. وواجههم قيس بن سعد وأبو أيّوب الأنصاريّ، وطلبا منهم الالتحاق بهم لقتال معاوية، فأجابوه بأنّهم لايرضون إمامة الإمام عليه السلام. وأنّهم لايتابعون جيشه إلّا إذا كان لهم قائدٌ مثل عمر[٥].وحين عرف الإمام عليه السلام أنّهم لايستجيبون، عبّأ جنوده، وكانوا أربعة عشر ألفاً، واعتزل الخوارجَ في هذه الأثناء فروةُ بنْ نوفل مع خمسمئة منهم، وأقام في

---

١ – الأخبار الطوال: ٢٠٦.

٢ – أنساب الأشراف ٣٦٧.

٣ – الأخبار الطوال: ٢٠٦

٤ – أنساب الأشراف ٢: ٣٦٢، ٣٦٨.

٥ – نفسه ٢: ٣٧٠ – ٣٧١؛ الأخبار الطوال: ٢٠٧.

البَنْدَفِيجَين والدَّسْكرة[1]، واعتزل آخرون غيرهم تدريجاً، حتّى بقي مع عبد الله بن وهب ألفٌ وثمانمئة فارس، وألف وخمسمئة راجل[2]. وفي هذه المرّة أيضاً أمر الإمامعليه السلام أصحابه أن لايبدأوهم بالقتال[3]، لكنّ الخوارج بدأوا به، وسرعان ما تقوّضوا وهلك قادتهم، واستُشهد من جيش الإمام عليّعليه السلام أقلُّ من عشرة[4]، و«وجد الإمامعليه السلام ممّن به رمق أربعمئة فدفعهم إلى عشائرهم ولم يُجهز عليهم». وحدثت هذه الواقعة في التاسع من صفر سنة ٣٨هـ[5].

ولمّا انتهت الحرب، أمر الإمام عليّ عليه السلام الناسَ بالرحيل إلى الشام لقتال القاسطين، لكنّهم تظاهروا بالتعب، وتكلّم الأشعث بن قيس كلاماً حمل الإمامَعليه السلام على الرجوع إلى النُّخيلة، وتوجّه الناس منها إلى الكوفة، ولم يبقَ معهعليه السلام إلّا ثلاثمئة[6]. وعادعليه السلام إلى الكوفة أيضاً، إذ لا محيصَ من العودة إليها، وظلّ يدعو الناس إلى جهاد عصاة الشام بين حينٍ وآخر، بيد أنّ أحداً لم يُجبه. وهنا طفقعليه السلام يذمّ أهلَ الكوفة ويتحدّث عن غدرهم مراراً في خطبٍ طويلة كان يُلقيها، وواصلها حتّى نهاية حياته الشريفة.

ويتعيّن علينا هنا أن نلتفت إلى تحرّكٍ آخر أيضاً يُشبه تحرّك الخوارج

---

١ - **الأخبار الطوال**:٢١٠.

٢ - **أنساب الأشراف** ٢:٣٧١.

٣ - **الأخبار الطوال**:٢١٠.

٤ - من هؤلاء يزيد بن نويرة الأنصاريّ الذي شهد له رسول الله صلى الله عليه وآله بالجنّة مرّتين. (**الإصابة** ٦:٣٤٨). وذكر ابن أعثم في كتاب **الفتوح** ٤:١٢٧، وابن أبي الحديد في **شرح نهج البلاغة** ٢:٢٩ فهرساً بأسماء شهداء هذه الحرب . انظر: **أنساب الأشراف** ٢:٣٧٤ (الهامش) للاطّلاع على روايتهما مع أسماء الشهداء.

٥ - **أنساب الأشراف** ٢:٣٧٤ – ٣٧٥. وجاء في كتاب **الفتوح** ٣:٢٧٧: أنّ الإمام عليه السلام لمّا فرغ من حرب الخوارج قدم الكوفة لسبع عشرة ليلةً بقين من شهر رمضان.

٦ - **أنساب الأشراف** ٢:٣٧٩.

إلى حدٍّ ما، فحين رجع الخرّيت بن راشد إلى الكوفة، بعد أن اشترك في صفّين، اعترض على الإمام عليّ عليه السلام، وقال له: لا أُصلّي خلفك، واعتراضه هذا يُشبه كلام الخوارج، وخطّأ الخرّيتُ التحكيمَ، وخرج من الكوفة مع أصحابه ليلاً وتوجّه نحو كسْكَر. وكتب قَرَظة بن كعب حاكم السواد كتاباً إلى الإمام عليه السلام يخبره فيه بقدوم جيش من الكوفة إلى منطقته، وأنّ الجيش المذكور سأل رجلاً من دهاقين أسفل الفرات يُدعى زاذان فرّوخ عن دينه، فقال لهم: مسلم، فقالوا: ما قولُك في عليّ بن أبي طالب؟ فقال«قولي فيه خيرٌ: إنّه أمير المؤمنين، ووصيُّ رسول الله صلى الله عليه وآله، وسيّد البشر»، فقالوا له: «كفرتَ يا عدوّ الله»، ثمّ حملت عليه عصابةٌ منهم فقطّعوه بأسيافهم![1] وعملُهم هذا يماثل عمل الخوارج مع عبد الله بن خبّاب، فكتب الإمام عليه السلام إلى زياد بن خَصَفَة يأمره بمناجزة بني ناجية بقيادة الخرّيت بن راشد، فاشتبك بهم، وبعد قتال شديد قُتِل فيه خمسةٌ من أصحاب الخرّيت، واستُشهد من جيش الإمام عليه السلام اثنان[2]، توجّهوا تلقاء الأهواز، وانضمّ إليهم هناك بعض أهلها وجماعة من الأكراد، فأشخص الإمام عليه السلام قوّةً مستقلّةً لقطع دابرهم. واختير معقل بن قيس الرياحيّ لهذه المهمّة، فسار إليهم على رأس القوّة المذكورة. ولمّا تحرّك هؤلاء المتمرّدين نحو رامهرمز، وافاهم معقل وقاتلهم، فقُتل سبعون من بني ناجية، وثلاثمئة من الأكراد وسائر أبناء المنطقة معه، فسار الخرّيت إلى الجنوب قاصداً سواحل البحر، واستطاع أن يخدع جماعةً من بني عبد القيس، فكتب الإمام عليه السلام إلى أهل تلك الديار يدعوهم إلى «الطاعة»، فتفرّق عن الخرّيت عامّةُ من اتّبعه من الناس. واشتبك به معقل مرّةً أخرى، فقتل الخرّيتَ

١ - الغارات ١: ٣٤٠؛ أنساب الأشراف ٢: ٤١٢.
٢ - الغارات ١: ٣٤٦.

وأكثر الّذين كانوا معه، وقد نقل البلاذريّ أنّ الخرّيت «كان يوهم للخوارج أنّه على رأيهم، ويوهم العثمانيّة أنّه يطلب بدم عثمان»[١].

الخوارج: نشوءهم وصفاتهم

كان ظهور الخوارج، كفرقة من الفرق الدينيّة، أحدَ التطوّرات السياسيّة والفكريّة المهمّة في التاريخ الإسلاميّ، ويمثّل ظهور هذه الفرقة في الحقيقة رمزَ الاتّجاه المتطرّف المُفْرِط في العالم الإسلاميّ ضمن دائرة السياسة والفكر، تلك الفرقة التي جَهَدت من أجل أن تحصل على موقعٍ لها في الميدان السياسيّ عبر توظيف آرائها المتطرّفة خلال قرنين أو ثلاثة قرون، لكنّها لم تظفر بأيّ امتياز بسبب تطرّفها وإفراطها.

والسؤال المهمّ هو: كيف ظهر هذا التيّار؟ يتعيّن علينا بصوره عامّة أن نقول: عندما ظهرت الخلافات في المجتمع الإسلاميّ، كانت هناك مواقف متنوّعة من القضايا الخلافيّة، وكان لبعض المواقف بُعدٌ مبدئيّ، وتحدّد بعضها في إطار الإفراط والتفريط. وإذا فصلنا انحراف الناكثين والقاسطين عن التيّار الإسلاميّ، فإنّ موقف القعود الذي اتّخذه رجالٌ مثل عبد الله بن عمر وسعد ابن أبي وقّاص وغيرهما، يُعدّ نوعاً من الموقف التفريطيّ، وإلى جانب ذلك كان موقف الإمام عليّ عليه السلام واقعيّاً ومبدئيّاً. وفي البرهة التي لم تستطع فيها هذه الحركة أن تواصل طريقها الطبيعيّ، بسبب معارضة فريق من الناس لها، كشفت عن اتّجاهها المتطرّف المفرط، وكان على هذا الاتّجاه أن يقف أمام التيّارات جميعها. وإذا تجاوزنا القاسطين، فإنّ هذا الموقف ـ حتّى أمام الحركة المبدئيّة للإمام عليّ عليه السلام ـ كان يتّجه في كلّ لحظةٍ نحو التمادي في

١ - أنساب الأشراف ٢: ٤١٣ – ٤١٨.

الإفراط، وكان مضطراً إلى أن يعزل جميع المعارضين له ـ من خلال لَمْزِهِم بوصمة الكفر ـ فيُسوّغ جهاده ضدّهم.

ولم يكن النزوع نحو الإفراط عند الخوارج معلولًا للتيّارات الفكريّة والسياسيّة فحسب، بل كانت له أبعاده الاجتماعيّة والنفسيّة الخاصّة. ومن أجل فهم الظروف التي سبّبت في إيجاد هذا الانشقاق في المجتمع، يتعيّن علينا الالتفات إلى النقاط الآتية:

١- حينما جاء المهاجرون البدو العرب إلى العراق، حقّقوا انتصارات باهرة، واستولوا على غنائم لا حصر لها في كلّ مرّة يشتركون بها في الفتوحات. وكانت الجبهة التي تواجههم هي جبهة الكفر التي يَسُوغ قتالها شرعاً، ويمكن توجيه هذا القتال بسهولة، فَهُم الحقّ المحض، وتلك الجبهة هي الباطل المحض. وكانت حرب الجمل أوّلَ عملٍ اصطدم فيه المسلمون بأبناء دينهم، ومع وجود النصر في هذه الحرب، لم تكن فيها غنائم تُوزَّع، فأوجدت هذه القضيّة مشكلةً للقبائل المذكورة، وكان سؤالهم هو: كيف يجوز سفكُ دمِ أحدٍ ولايجوز أخذُ ماله؟[1] وبرزت هذه المشكلة في حرب الجمل فحملت البدو المسلمين، بشكلٍ طبيعيّ، على أن يُمنى وعيُهم للجهاد وللقوّات المواجهة لهم بالتغيّر والتبدّل. وعرض الخوارج الإشكالَ المذكور في سياق اعتراضاتهم على الإمام عليه السلام، وأدّت هذه القضيّة فيما بعد إلى أن لا يَدَعُوا حدّاً وسطاً بين الكفر والإيمان، فليس عندهم فاسق غير مؤمن وكافر، أو حتّى فاسق مسلم، بل حسموا الأمر، فذهبوا إلى أنّ هناك: فرقة - تشملهم وحدهم - هي مؤمنة، وفرقة - تخالفهم - هي كافرة، فَيَحلّ سفك دم الكافر، كما يحلّ أخذ أمواله على حدّ سواء.

١ - الفائق ٤: ١٢٩.

٢ - المشكلة الأخرى انبثقت من أسباب الثورة على عثمان، وقتله في نهاية المطاف؛ فقد وُصِم عثمان بإحداث البِدع، وسبّبت مواقفه إيجاد تصوّرين متفاوتين عن الإسلام بين مؤيّديه ومعارضيه. ولم يكن لهذا الأمر سابقة قبل ذلك، فقُلِبَ بسببه النسق الفكريّ الموحَّد الذي كان عليه المسلمون دينيّاً، ومُني بالتبدّل، وأثار شبهة حول تشخيص الإسلام الصحيح، أي أين الإسلامُ الصحيح؟ ومن الواضح أنّ هذه القضيّة تستتبع مواقف تظهر في دائرتي الإفراط والتفريط لا محالة. وسبّب مقتل عثمان في إخراج القيادة الدينيّة للأُمّة من قبضة الحكومة لتقع بأيدي أشخاص يزعمون معرفة الدين، ومن هؤلاء: قُرّاء الكوفة والشام[١] الذين اتّكأوا على قراءة القرآن، فلم يحضروا الحرب، ووقفوا بين الصفّين ليروا أيَّ الفريقين على حقّ! وضلوع هؤلاء القرّاء في التطوّرات التي انتهت بظهور الخوارج، بل حضور جماعة منهم بين الخوارج، مَعْلَمٌ على هذه النقطة. وكذلك جرى الحديث حول المواقف المستقلّة لتلاميذ عبد الله بن مسعود الذين لم يتّبعوا إمامة الأمّة، وشهد هؤلاء موقفَ عبد الله نفسه من عثمان، ومع وصيّته بألّا يُصلّي عليه عثمان، فشكّكوا في شرعيّته تشكيكاً حقيقيّاً. ودلّ الخوارج بإنكارهم الإمامة أنّهم متأثّرون بهذه الملاحظة، أي أنّهم يعتقدون أنّهم هم أنفسهم يجب أن يتّخذوا القرار بشأن الدين، بل بشأن سائر الأمور السياسيّة، فلا حاجة بهم إلى الإمام، والتوجيه الظاهر لهذا الأمر هو أنّ القرآن يُغْنيهم عن الإمام! وهذا منبثق عن الرؤية المفرِطة للقرّاء الذين كانوا يَرَون أنفسهم أفضل من الآخرين، وأنّهم شخّصوا طريقهم بنحو أصحّ.

٣ - أنّ مشكلة غلبة القبائل على الحكومة المركزيّة أمرٌ لايمكن تجاوزهُ

١ - انظر: **وقعة صفّين**، القرّاء في فهرس القبائل والطوائف.

بسهولة، ويعود اطّراد هذا الأمر إلى أنّ القبائل لم ترضَ بسلطة قريش، حتّى أنّها حين رضيت بالإمام عليه السلام بمدى معيّن فإنّ رضاها يعود إلى أنّ الإمام عليه السلام كان على قريش[1]، لا لها، وهذا بيّنٌ جليٌّ من كلامه عليه السلام، فقد كان عليه السلام يرى أنّ قريش عدوّه[2]. لكنْ في نهاية المطاف، لم ترضَ قبائل العراق أيضاً به عليه السلام؛ لأنّ أحقادها كانت أشدَّ مِن أن ترضى بشخص قرشيٍّ. ويتعيّن علينا ألّا ننسى أنّ الخوارج كانوا فرقةً لم تشترط القرشيّة في الخلافة[3]. ومن عوامل الثورة على عثمان في الحقيقة هو قلق قبائل العراق ومصر من التسلّط المطلق لقريش ـ بخاصّة الأمويّين ـ على مقدّرات المسلمين، لاسيّما على شؤونهم الماليّة. وحافظت التركيبة القبليّة في المجتمع الإسلاميّ الجديد على قوّتها. وكانت غلبة السلطة المركزيّة في السنين الأولى، مستهدية بالدين، قد قلّصت نفوذ المعايير القبليّة إلى حدٍّ ما، ولمّا تضاءلت الفتوحات، اهتمّت قبائل العراق بنفسها، وزادت قدرتها بعد الثورة على عثمان. وإذا أمكن إزاحة الخليفة لمخالفاتٍ ارتكبها، فمن اليسير الوقوف أمام الخليفة الذي يليه وتهديده بالقتل، وهذا ما ابتُلي به الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقد قدم العراق لإخماد تمرّد الناكثين؛ فكانَ عليه السلام بحاجة طبعاً إلى قوّة القبائل الكوفيّة، وقد أعانوه على إخماد الفتنة المذكورة. وبعدٍ ذلك، استغلّ رؤساء القبائل نفوذهم الكبير في قبائلهم، فاستعملوا ذلك النفوذَ ورقةَ ضغطٍ في موقفهم من الإمام عليه السلام، وقد أضعف هذا الأمر قدرة الحكومة المركزيّة، ومن ثمَّ هزّ عسكرها أمام العدوّ الشاميّ.

---

١ – الحقيقة هي أنّ قريشاً خالفته وناوأته عليه السلام، وهو أرفع من أن يناوئ أو يخالف أحداً إلّا لله. المترجم.

٢ – انظر: **الإرشاد** ١: ٢٥٤.

٣ – **مقالات الإسلاميّين**:٤٦١.

وكانت كلّ قبيلة في حرب صفّين تقف أمام العدوّ بشكلٍ منظّم محافِظةً على تركيبتها القَبَليّة، وقامت التركيبة السكّانيّة للكوفة على هذا الأساس منذ تمصيرها. وكان نفوذ رؤساء القبائل واسعاً جدّاً، وهو منزلة حكومة في داخل حكومةٍ أخرى، في حين لم يُعهَد من القبائل - باستثناء المرتدّين - تمرّدٌ ضدّ الخليفتين الأوّلين. ووقف عثمان أمام القبائل بنفس ما كان في عهد مَن سبقه، لكنّ مقتله دلّ على أنّه هُزم أمام القبائل. وحريٌّ بالعلم أن هذا الوضع قد تكرّر في خلافة الإمام عليّ عليه السلام، فحين رُفعت المصاحف على رؤوس الرماح، قال له الأشعث بن قيس رئيس قبيلة كِنْدة: «لتُرسِلَنّ إلى الأشتر فليأتينّك، أو لنقتلنّك كما قتَلْنا ابن عفّان[1]». والأشعث نفسه، ومَن صار في عداد الخوارج لاحقاً أصرّوا على الإمام عليه السلام بإرسال أبي موسى الأشعريّ ممثّلاً له[2]. ووقفت جماعةٌ أخرى كانت تُعرَف بالقرّاء ـ وبهذا العنوان أيضاً كانت في قتل عثمان ـ أمامَ الإمام عليه السلام، وطلبت منه أن يرضى بدعوة أهل الشام إلى القرآن. وهؤلاء الذين صاروا خوارج في ما بعد هدّدوه بالقتل، كما فعلوا مع عثمان، إذا لم يستجب لِدعوتهم[3]. وهكذا فُرِض التحكيم خلاف رأي الإمام عليه السلام، فذكر عليه السلام إكراهه وقَسره عليه مراراً وتكراراً[4]، وكان يرى أنّ مشكلته هي أنّه لا أمرَ لِمَن لا يُطاع[5]. وعرض ابن أبي الحديد تصويراً رائعاً لقوّة القبائل بالكوفة في الأيّام الأخيرة من خلافته عليه السلام، فقال: «فكان الرجل يخرج من

١ - تاريخ الطبريّ٥: ٥٠.

٢ - نفسه ٥: ٥١.

٣ - نفسه ٥: ٤٩؛ وقعة صفّين: ٤٨٩ - ٤٩٠؛ مختصر تاريخ دمشق ١٠: ٥٦، ٦٠، ٢٩٣ تطوّر الفكر السياسيّ عند أهل السنّة: ٤٣ - ٤٤.

٤ - تاريخ الطبريّ ٥: ٨٤ - ٨٥.

٥ - نهج البلاغة: الخطبة ٢٧.

منازل قبيلته فيمرّ بمنازل قبيلة أخرى، فيُنادي باسم قبيلته... نداءً عالياً يقصد به الفتنة وإثارة الشرّ، فيتألّب عليه فتيانُ القبيلة التي مرّ بها... ويُقْبلون إلى ذلك الصائح فيضربونه، فيمضي إلى قبيلته فيستصرخها، فتُسلّ السيوف وتثُور الفتن»[1]! ووصف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كُبراءَ القبائل بأنّهم قواعدُ أساسِ العصبيّة، ودعائمُ أركانِ الفتنة[2]. وبعد ذلك ابتُليَ عليه السلام بطمع أولئك الرؤساء، ووقفت أمامه مجموعاتٌ من عرب العراق، وهم الخوارج الذين لم يقفوا أمامه فحسب، بل جرحوا بعده ابنَه الإمامَ الحسن عليه السلام أيضاً، متوهّمين بأنّه لم يهتمّ بطلبهم لقتال معاوية.

٤ – حدثت جميع هذه القضايا في منطقة كانت قبل الإسلام تعجّ بأفكارٍ متنوّعة: مسيحيّة، ومجوسيّة، ومَزدكيّة، وبضُروب الاتّجاهات المسيحيّة واليهوديّة، فكان لها تأثيرٌ مهمٌّ في الاضطرابات الفكريّة الموجودة في تلك الديار. ولا عجب أن ظهرت معظم الاتّجاهات الطائفيّة في العراق، حتّى إنّ الاتّجاهات الكلاميّة والفقهيّة المتباينة بين أهل السنّة هي حصيلة الجهد العلميّ لحواضر العراق. وفي هذا المجال، لاتُقاس الشام بالعراق أبداً، فقد اختارت، بحكم سيطرة الأمويّين عليها، طريقاً خالياً من التغيّرات وفقاً لما كان يدعو إليه الأمويّون. وأدّى هذا الأمر إلى أن تسيطر الشام على العراق بلا متاعب لها ولحكّامها، وتفوّقها هذا مَدينٌ لاتّحادها. ولا بدّ أن نلتفت أيضاً إلى أنّ عدد الصحابة الذين ذهبوا إلى العراق، لم يذهب مثلهم إلى الشام، فكان لهذه القضيّة تأثيرها في إيجاد التيّارات المختلفة والمتعارضة في العراق.

٥ – المفهوم المهمّ الذي يمكن أن يعبّر عن هذه الاضطرابات الفكريّة

---

١ – **شرح النهج** ١٣:١٦٧ – ١٦٨.

٢ – **نهج البلاغة**: الخطبة ١٩٢.

والسياسيّة هو مفهوم الفتنة، الذي كان كلّ فريقٍ يفيد منه لمصلحته، وكان مناوئو الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام يعتبرون - بزعمهم - أنّ حربه عليه السلام للناكثين ليست إلّا فتنةً، وكانوا يقولون: كن في الفتنة عبدَ الله المقتول، لا عبد الله القاتل[1]. وكان الإمام عليه السلام يرى أنّ الفتنة هي مخالفة الشرع، فيكون بها اضطراب الأوضاع السياسيّة وعصيان خليفة المسلمين، ويُستشفّ من استعمال الفتنة في نهج البلاغة أنّ الإمام عليه السلام كان يسمّي التيّارات التي أجّجت الجملَ وصفّينَ والنهروانَ: أهلَ الفتنة،[2] وأراد من الذين كانوا في الجانب الآخر أن يكونوا في الفتنة «كابن اللَّبُون، لا ضَرعٌ فيُحلَب، ولا ظَهْرٌ فيُركَب[3]»؛ وهذا يعني أنّ تركَ جماعة متمرّدة اتّباعَ الإمام يُسمّى أيضاً فتنةً[4]. والمفهوم المماثل له هو «الشبهة»، حيث يلتبس الحقّ بالباطل، ويظلّ الحقّ مجهولاً[5].

وهكذا ينبغي أن نعدّ حرب الجمل وصفّين من أهمّ الأحداث التي تركت أثرها في الأفكار السياسيّة للمسلمين، وبسبب الشبهات التي ظهرت فيما بعد، صَعُب عليهم الحكمُ والتقويم أكثر من ذي قبل. وكان لظهور الشبهة والفتنة تأثيرٌ مهمّ في ظهور الفِرق المتطرّفة، تلك الفرق التي كانت تسعى إلى حسم الأمور من خلال رسم خطوطٍ صريحةٍ زاعمةً أنّها تُخرج المجتمع من الفتنة والشبهة. واستعمال المفاهيم الملتَبسة في الحقيقة كان يزيد الشبهة، كما أنّ التطرّف في استعمال مفهوم الكفر كان ينبثق من هذه الظروف والملابسات.

---

١ - **مسائل الإمامة**:١٦.

٢ - يُنظر: **نهج البلاغة**؛ الخطب ٩٣، ١٠١، ١٢١، ١٩٢، و**الكتابان**:١، ٦٥، و**قصار الحكم**: ١.

٣ - نفسه: **الكلمات القصار**:١.

٤ - للاطّلاع على الفتنة يُنظر: مقالة **مفاهيم انقلاب در إسلام** [مفاهيم الثورة في الإسلام]، برنارد لويس مجلة تحقيقات إسلامي س ٢/٧، ص٩٣-٩٤.

٥ - **نهج البلاغة**: الخطبة ٣٨، ١٢٢، **قصار الحكم**: ١١٣.

٦ – المشكلة الأصليّة في ظهور الخوارج تقوم على مفهومين يترتّب أحدهما على الآخر؛ الأوّل: هو أنّ «الحكم» لله وحده، وأنّ تحكيم الرجال خطأ، الثاني: هذا الخطأ ليس أمراً بسيطاً، بل هو في حدّ «الكفر»، وقد كفر الذين حكّموا الرجال، ونُسب هذا الكفر في البداية إلى أمير المؤمنين عليه السلام وبهذا التفكير، كما كان طبيعيّاً، لا بدّ من اعتبار عثمان كافراً أيضاً، وكذلك الحكم على طلحة والزبير بنفس الاعتبار، وهكذا استأثر مفهوم الكفر بدورٍ مهمّ في فكرهم.

والمشكلة في شعار «لا حُكْمَ إلّا لله» هي معنى الحكم، وتدلّ القرائن على أنّهم فسّروا «الحُكم» بالحاكم، ونتيجة هذا الأمر هي أنّ تحكيم أبي موسى الأشعريّ وعمرو بن العاص لم يُرفض فَحسب، بل أُثير الشكُّ حول وجود «الحاكم الإسلاميّ» وضرورته أيضاً. ويبدو أنّ هذا الأمر كان غير طبيعيّ، لكنّه قد صُرِّح به، واستنكره أمير المؤمنين عليه السلام يومئذٍ، وقال عليه السلام لمّا سمع قول الخوارج: لا حُكْمَ إلّا لله: كلمةُ حقٍّ يُرادُ بها باطل! نعم إنّه لا حُكْمَ إلّا لله، ولكنّ هؤلاء يقولون: لا إمْرةَ إلّا لله، وإنّه لا بُدّ للناس مِن أمير: بَرٍّ أو فاجر[1]. فهل يمكن أنْ ينبثق تصوّر الخوارج في الاستغناء عن الإمام من روحهم القبليّة والبدويّة؟! حريٌّ بالعلم أنّهم كانوا يستدلّون بأدلّة قرآنيّة، إلّا أنّ تصوّراتهم المتسرّعة النابعة من روحهم الفظّة الخشنة ولّدت الابتعاد عن المعاني المتَّفَق عليها بين المسلمين للآيات القرآنيّة[2]. ولم تكن لهم في عصر

١ – **أنساب الأشراف** ٢: ٣٦١ – ٣٧٧؛ **نهج البلاغة**: الخطبة ٨٠.

٢ – على سبيل المثال كانوا يرون، استناداً إلى قوله تعالى: **﴿وَمَن لَم يَحْكُمْ بما أنْزَلَ اللهُ فَأولئكَ هُمُ الكافِرُونَ﴾** أنّ جميع الذين رضُوا بالتحكيم، والذين لم يكفّروا عليّاً عليه السلام كانوا كفّاراً، وحكموا بقتل نساء مُخالفيهم وأطفالهم، بناءً على قوله تعالى: **﴿رَبِّ لاتَذَرْ عَلَى الأرْضِ مِنَ**

الإمام عليّ عليه السلام فرصةً لعرض آرائهم الأخرى، بيد أنّهم عرضوا آراءهم الجديدة في القضايا السياسيّة، لاسيّما قضيّة الإمامة، لاحقاً. ومن الخليق بالذكر أنّ عقيدتهم في «الكفر» تركت تأثيراً عميقاً في الأبحاث الكلاميّة إلى درجة أنّها أرغمت جميع الفرق الإسلاميّة على إبداء ردود فعل حيال التعريف الدقيق للإيمان والكفر لقرون عديدة. وإفراطهم في تعميم مفهوم الكفر حملَ الفِرق كافّةً على الإدلاء بآرائها في هذا المجال، ومن هذه الفرق: المُرْجئة الذين قالوا: لا يمكن لنا أن نبيّن الحقّ والباطل تبييناً دقيقاً، ويجب أن نعتبر الجميع مسلمين ومؤمنين، ويُترك النزاع الشيعيّ - العثمانيّ، وكذلك الحُكم على مرتكبي الكبيرة، إلى الله. وقال الشاعر المرجئيّ ثابت بن قُطْنَة:

تُرجَى الأُمورُ إذا كانتْ مُشَبَّهةً ... ونُصْدِقُ القَولَ فيمَنْ جارَ أو عَنَدا[1]

وجهد هذا التيّار في عدّ المخالفين كلّهم مسلمين، فقلّص الخلافات بذلك[2]. ومن الطبيعيّ أنّ قتال الخوارج لم يَكُ أمراً يسيراً، فقد كان معظمهم من القرّاء، ومن أهل القرآن والصلاة في الظاهر، وكان قائدهم عبد الله بن وهب مشهوراً بذي الثَّفَنات (وهو مَن ظهرت على جبهته آثار السُّجود)، لكنّ الإمام عليه السلام كان أزهدهم جميعاً [بل لايُقاس بزهده زُهدُ زاهدٍ]، لذلك استطاع بكلّ سهولة أن يُقنع أهل الكوفة وشيعته بقتالهم، فنرى في خطب عديدة رأيه عليه السلام فيهم، وبين هذه الخطب خطبةٌ رائعة [وكلُّ خطبه رائعةً]، فقدْ

الْكافِرينَ دَيّاراً﴾، وهو دعاء نوح [على نبيّنا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام] يُنظر: **مسائل الإمامة**:١٩.

١ - **الأغاني** ١٤:٢٦٩.

٢ - بشأن أفكارهم، ينظر: (**مُرجئة: تاريخ وأنديشه**) [المرجئة: تاريخاً وفكراً]، المطبوع في «المقالات التاريخيّة»، الدفتر العاشر، وهو من كتاباتنا.

سُئل عليه السلام عنهم، «فقيل له: أكفّارٌ هُم؟ قال: مِن الكفر فرّوا، قيل: أفمُنافقون هم؟ قال: إنّ المنافقين لايذكرون الله إلّا قليلاً، وهؤلاء يذكرون الله بكرةً وأصيلاً، وقيل: ما هم؟ قال: قومٌ أصابتهم فتنةٌ فَعَمُوا وصُمُّوا»[1]. ونَقل عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال له: يا عليّ، إنّ القوم سيُفتَنون بأموالهم، ويَمُنّون بدينِهم على ربِّهم، ويتمنَّون رحمتَه، ويأمَنون سَطوتَه، ويَستحلّون حرامَه بالشُّبُهات الكاذبة، والأهواءِ الساهية، فيستحلّون الخمر بالنَّبيذ، والسُّحتَ بالهديّة، والرِّبا بالبيع. قلتُ: يا رسول الله فبأيّ المنازل أُنزلُهم عند ذلك: أبمنزلة ردَّة، أمْ بمنزلة فتنة؟ فقال: بمنزلة فتنة[2]. وكلام النبيّ صلى الله عليه وآله هذا هو الذي عزّز رأي الإمام عليه السلام في الفتنة، إلى درجة أنّه صلى الله عليه وآله حلّل - بحقٍّ - التيّارات التي واجهته في دائرة مفهوم الفتنة، ولم يكن بمقدور الخوارج أن يُدركوا هذا المعنى، وكانوا يتوقّعون أنّ جميع الناس: إمّا مؤمنون، أو كافرون.

ومهما كان، فلعلّ ما تظاهر به الخوارج من زهدٍ وعبادة جعل قتالَهم أصعبَ وأعسر، وإن كان نطاقُ فتنة معاوية أشدَّ وأقوى وأفظع من نطاق فتنتهم أضعافاً مضاعفة؛ لذا قال الإمام عليه السلام في موضعِ آخر:... فإنيّ فَقَأتُ عينَ الفتنة، ولم يكن لِيجترئَ عَلَيها أحدٌ غيري بعدَ أنْ ماجَ غَيْهَبُها، واشتدّ كَلَبُها... إنّ الفتنَ إذا أقبلَتْ شَبَّهت، وإذا أدبَرَتْ نَبَّهَت؛ يُنْكَرْنَ مُقْبلات، ويُعرَفْنَ مُدْبِرات، يَحُمْنَ حَوْمَ الرِّياح، يُصِبْن بَلَداً، ويُخْطِئْنَ بلداً. ألا وإنّ أخْوفَ الفِتن عندي عليكُم فتنةُ بَني أُميّة؛ فإنّها فتنةٌ عَمياءُ مُظْلِمة[3]. ومن هذا المنطلق أمر عليه السلام شيعته ألّا يُهدروا قُواهم في حرب الخوارج بعده، فقال: لاتُقاتِلوا

---

١ - **لسان العرب** ٤:٤٦١ ذيل مادّة: «دين»

٢ - **نهج البلاغة**: الخطبة ١٥٧.

٣ - نفسه: الخطبة ٩٣.

الخوارجَ مِن بَعدي؛ فليسَ مَن طَلَبَ الحقَّ فأخطأه كمَن طَلَبَ الباطلَ فأدرَكَه[١]. وقصده عليه السلام من الفريق الثاني- كما يرى الشريف الرضيّ- هم معاوية وأصحابه أهل الشام. وكلامه في الخوارج لمّا قيل له: هلك القومُ بأجمعهم، هو قوله: كلّا والله، إنّهم نُطَفٌ في أصلابِ الرجال، وقراراتِ النساء. كلّما نَجَمَ منهم قَرْنٌ قُطِع، حتّى يكونَ آخِرُهُم لُصوصاً سَلّابين[٢]! أجل والله، فمن تبقّى من الخوارج لجأوا إلى المدن القاصية، وسلبوا ونهبوا كلَّ مكان بذريعة التكفير. وآلَ أمرهم إلى سِجستان، وأصبحوا ممّن يُسمُّون أنفسهم بـ: الشُّطّار.

وما ينطبق عليهم وعلى أمثالهم من المتطرّفين هو أنّهم يمكن أن يتظاهروا بأن هدفهم أعلى وأرفع لأسبابٍ معيّنة، لكنّ أسلوب عملهم كان بنحوٍ لايتسنّى معه لجماهير الناس أن ينسجموا معهم. واعتقادهم أنّ مرتكب الكبيرة كافر أمرٌ لا يمكن للأمّة أن ترضاه، حتّى أنّ المعتزلة الذين كانوا أقلّ إفراطاً منهم في هذه المسألة، إذ لم يعتبروا مرتكب الكبيرة مؤمناً ولا كافراً، بل فاسقاً، لم يستطيعوا أن يستحوذوا على قلوب الناس. ومن مواصفات الخوارج الأُخرى ظاهريّتهم وحركتهم السطحيّة، فكانوا من قرّاء القرآن، بل كان بعضهم مِن عُبّاد الكوفة، وإنّ مثل هذه الفئة الاجتماعيّة منذَرةٌ بالتهديد لِما تتّسم به من خطر التطرّف والإفراط.

انتهاكات جيش الشام وغاراته

أشرنا من قبل إلى أنّ الإمام عليه السلام جَدَّ بعد النهروان في استنفار أهل العراق وتعبئتهم من أجل قتال أهل الشام، بيد أنّ المستجيبين له منهم كانوا قليلين،

١ – نفسه: الخطبة ٦١.
٢ – نفسه: الخطبة ٦٠.

فطلب عليه السلام من الناس في خُطَبِهِ أن يصحبوه، لكنّه لم يلق جواباً شافياً إلّا قليلاً، وقال عليه السلام في خطبة له: مُنِيتُ بمَن لايُطيعُ إذا أمرْتُ، ولايُجيب إذا دَعَوتُ. لا أبا لكم! ما تَنتظِرون بنصركم ربَّكم؟ أما دِينٌ يجمعكم، ولاحَمِيّةٌ تُحمِشُكُم! أقومُ فيكم مُستَصرِخاً، وأُناديكُم مُتغوِّثاً، فلا تسمعونَ لي قَولاً، ولاتُطيعُون لي أمراً، حتّى تَكشَّفَ الأُمورُ عن عَواقبِ المَساءة. فما يُدرَكُ بكُم ثأر، ولايُبلَغُ بكُم مَرام. دعوتُكُم إلى نَصْرِ إخوانِكُم فَجَرْجَرْتُم جَرْجَرَةَ الجَمل الأسَرّ، وتَثاقَلْتُم تَثاقُلَ النِّضْوِ الأدْبَر[1].

وقال عليه السلام في خطبة أُخرى: أيَّتُها النُّفوسُ المُختلِفة، والقلوبُ المُتشتِّتة، الشاهِدةُ أبدانُهم، والغائبةُ عنهم عقولُهم، أظأرُكُم عَلَى الحقِّ وأنتم تَنفِرُون عنه نُفُورَ المِعْزى مِن وَعْوَعةِ الأسد! هيهاتَ أنْ أطْلَعَ بِكُم سَرارَ العَدل، أوْ أُقيمَ اعْوِجاجَ الحقّ[2].

وقال عليه السلام في خطبة أُخرى: أيَّتُها الفِرقةُ الّتي إذا أمرْتُ لَم تُطِعْ، وإذا دَعَوتُ لم تُجبْ إنْ أُمهِلْتُم خُضْتُم، وإنْ حُورِبْتُم خرتُم، وإنِ اجتمعَ النّاسُ على إمامٍ طَعَنْتُم، وإن أُجِئْتُمْ إلى مُشاقّة نَكَصْتُم. لا أبا لِغيركم! ما تنتظِرون بنصرِكم والجهادِ على حَقّكُم؟ الموتَ أوِ الذُّلَّ لكم؟ فوَالله لَئنْ جاء يومِي - ولَيأتيَنّي - لَيُفرّقَنَّ بَيني وبينَكم وأنا لِصُحْبَتِكُم قال، وبكم غيرُ كثير. لله أنتُم! أما دِينٌ يجمعكم! ولا حَمِيّةٌ تَشْحذُكُم! أولَيسَ عَجَباً أنّ معاوية يَدعُو الجُفاةَ الطَّغامَ فيتّبعُونَه على غيرِ معونة ولا عطاء، وأنا أدعُوكُم - وأنتم تريكةُ الإسلام، وبقيّة النّاس - إلى المعونة أوْ طائفةٍ مِن العطاء، فَتَفرَّقُون عنّي

١ - نفسه: الخطبة ٣٩.

٢ - نفسه: الخطبة ١٣١.

وتَختلفون عَلَيّ؟!... وإنَّ أحبَّ ما أنا لاق إليَّ الموتُ[١]!

هذه الكلمات هي أمثلةٌ من كلماته الكثيرة عليه السلام والتي خاطب بها النّاس سنة ٣٩ و٤٠هـ، وهي تُرشد إلى عزمه الراسخ على مواجهة القاسطين. وكان معاوية يعلم بأوضاع العراق ويعرف خَورَ أهله، فعزم على إضعاف سلطة الإمام عليّ عليه السلام فيه، والتمهيد لغزوه عبر غاراته على مختلف المناطق الخاضعة لِسلطة الإمام في شبه الجزيرة العربيّة، والعراق. وقد عبّر معاوية عن هدفه من الغارات على المناطق المذكورة قائلاً: «إنّ هذه الغارات... على أهل العراق تُرهِب قلوبَهم، وتُجرّئ كلَّ مَن كان له فينا هَوىً ويرى فراقهم، وتدعو إلينا كلَّ من كان يخاف الدوائر... »[٢]. وكانت هذه الغارات تتكرّر بين حين وآخر، وكان يُستشهَد، في كلّ منطقة تُشَنُّ عليها، شيعةُ الإمام عليه السلام المخلَصين. ذكر أبو إسحاق الثقفيّ الشيعيّ (م ٢٨٣هـ) فهرساً للغارات المذكورة في كتاب صنّفه في القرن الثالث الهجريّ بهذا العنوان، أي الغارات، ومن حُسن الحظّ أنّ هذا الكتاب اليومَ في متناول أيدينا. وقد نقلت المصادرُ التاريخيّة الأخرى أخبار هذه الغارات والانتهاكات أيضاً.

وكانت مصر أوّلَ منطقة تعرّضَت لغارة من تلك الغارات، وحين وليَ الإمامُ أمير المؤمنين عليّ عليه السلام الخلافة نصبَ قيس بن سعد بن عُبادة والياً على مصر، ولمّا توجّه إلى العراق لقمع الناكثين، أمر عليّ عليه السلام قيساً بأن يرجع من مصر[٣]، فرجع ويمّم المدينةَ، ومنها ذهب إلى العراق[٤]، وشهد حرب صفّين.

---

١ – نفسه: الخطبة ١٨٠.

٢ – **الغارات** ٢:٤٦٦ – ٤٦٧.

٣ – انظر في هذا الشأن: **أنساب الأشراف** ٢:٣٩٠ – ٣٩٢.

٤ – في خبر البلاذريّ (**أنساب الأشراف** ٢:٣٠٠ – ٣٠١) أنّ قيساً لمّا قدم المدينة، كتب الإمام عليه السلام إلى سهل بن حُنيف ليأتي الكوفة . وكان مروان والأسود بن أبي البُختريّ يعملان

ولمّا اضطربت أوضاعُ مصر بعد صفّين، وقويَ التمرّد على محمّد بن أبي بكر حاكمها بعد قيس، عزم الإمام عليه السلام على أن يوجّه إليها مالك الأشتر، وكان مالك قد عاد إلى حكومة الجزيرة بعد مرجعه من صفّين، فتسلّم كتاب الإمام عليه السلام الذي يأمرُه فيه بالتوجّه إلى مصر، ولمّا بلغ معاويةَ هذا الخبرُ كتب إلى مسؤول الخراج في القِلْزم ليقضيَ على مالك بنحوٍ من الأنحاء، وإذا فعل ذلك فلن يأخُذَ معاوية منه ما بقي في ذمّته من الخراج، فسمّ هذا الشّخصُ مالكاً بعسلٍ سقاه إيّاهُ[1]، وكانت المنطقة التي استُشهد فيها مالك تُدعى: «عينَ شمسٍ»[2]، فقال معاوية بعد سماعه خبر شهادة مالك: «كان لعليّ بن أبي طالب يدانِ يمينان، فقُطعت إحداهما يومَ صفّين - يعني عمّار بن ياسر -، وقُطعت الأخرى اليوم - وهو مالك الأشتر -»[3]. و«ذمّ رجلٌ الأشترَ، فقال له رجلٌ من النَّخَع: اسكتْ، فإنّ حياته هزمت أهل الشام، وموته هزم أهل العراق[4]!» وحين بلغ الإمامَ عليه السلام خبرُ شهادته رضوان الله عليه، ظلّت آثار الحزن على وجهه الشريف أيّاماً، وقال في رثائه: لله دَرُّ مالك..! وما مالك..! لو كانَ جَبلاً لكان فِنْداً، ولو كان حَجَراً لكان صَلْداً، أمَا والله لَيَهدّنّ موتُك عالَماً، ولَيُفرحنّ عالَماً،

بالمدينة ضدّ الإمام عليه السلام يومئذٍ، فتوعّدا قيساً بالقتل. لذلك لم يرَ قيس في البقاء مصلحةَ له، فسار إلى العراق. ويدلّ هذا الخبر على مناوأة المدينة للإمام عليه السلام إلّا مَن صَحِبه من الأنصار إلى العراق.

١ - **أنساب الأشراف** ٢:٣٩٨ - ٣٩٩.

٢ - الموضع الذي فيه قبر مالك الآن هو منطقة القلج التي تبعد عن القاهرة قُرابة أربعين كيلومتراً، ويُعرف قبره هناك بقبر السيّد العجميّ، ويبدو أنّ آغاخان قام بإعماره وتجديده في السنين الأخيرة، وجاء في النقوش الّتي عليه: «هذا مقام السيّد الجليل، والقائد السبيل، مالك بن الأشتر النخعيّ الشهير بالسيّد العجميّ. من مات غَرَب، مات شهيداً».

٣ - **الغارات** ١:٢٦٤؛ وجاء في **أنساب الأشراف** ٢:٣٩٩ اسم قيس بن سعد سهواً.

٤ - **البيان والتبيين** ٣:٢٠٧ - ٢٠٨ (طبعة دار إحياء التراث).

على مِثْل مالكٍ فَلْتَبكِ البواكي، وهل مَوجودٌ كمالك؟![1]

وأصبحت مصر قريبة المنال من الشام التي أسكرها النصر، وكانت دانيةً منها جغرافيّاً، كما كان فيها كثيرٌ من العثمانيّة الذين يمكن أن يساعدوا جيش الشام. ويضاف إلى ذلك أنّ معاوية كان قد وعد عمرو بن العاص المحتال المكّار ولايةَ مصر، فلا بدّ له الآن بعد تلك الحوادث أن يفي بعهده، وكان محمّد بن أبي بكر والياً على مصر آنذاك، فسار إليها عمرو بن العاص ـ الذي كان قادَ المسلمين يومَ فتحِها ـ على رأس جيشٍ جرّار، وكتب إلى محمّد كتاباً يطلب فيه أن يستسلم لئلّا يصل إليه مكروه! وفي الوقت نفسه كتب إليه كتاباً آخَر باسم معاوية يتوعّده فيه بالموت، وجاء في هذا الكتاب أنّ معاوية لا يرى أحداً كان أعظم على عثمان بغياً ولا أشدّ عليه خِلافاً من محمّد، وحان وقت الانتقام منه. فكتب محمّد كتاباً إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ومعه كتابا عمرو ومعاوية، فأجابه الإمام عليه السلام موصياً إيّاه بالمقاومة، وأمره أن يوجّه كنانة بن بِشْر (وهو الذي ضرب عثمانَ بن عفّان بعمودٍ على رأسه)[2] إلى جيش عمرو، ويبقى هو مع جيشٍ آخر في مصر، وخرج كنانة في ألفَي رجُل، وبقي محمّد في مصر ومعه نفس العدد أيضاً، فاستُشهد كنانة وأصحابه بعد أن قاتَلَ أهل الشام قتال الأبطال الشجعان. وفي مصر أيضاً تفرّق الناس عن محمّد بن أبي بكر، فلجأ وحده إلى خَرِبة، وكان معاوية بن حُديج قائداً لمقدّمة جيش الشام، فوجد محمّداً في الخَرِبة، فضرب عُنُقه، ثمّ جعله في جوف حمار، وأحرقه بالنّار[3]. وهذا هو دأبُ أصحاب معاوية وأمثالهم، إذ

١ – الغارات ١:٢٦٥.

٢ – أنساب الأشراف ٢:٤٠١.

٣ – الغارات ١:٢٧٦ – ٢٨٩.

كانوا يقتلون أولياء الله بهذا الشكل ثأراً لدم عثمان بزعمهم.

ولمّا بلغ الإمامَ أمير المؤمنين عليه السلام خبرُ شهادة محمّد بن أبي بكر جزعَ عليه أشدَّ الجزع، وخطب في أهل الكوفة خطاباً وبّخهم فيه، مشيراً إلى أنّه دعاهم أكثر من خمسين ليلة إلى غياث أصحابهم بمصر، فلم يخرج إليه منهم إلّا جُنَيد ضعيف[1]، وفي خطابه هذا قال عليه السلام لهم: ألا دِينٌ يجمعُكم؟ ألا حَمِيّةٌ تُغْضِبُكم؟![2] وقيل له عليه السلام: لَشَدَّ ما جَزِعتَ على ابن أبي بكر؟! فقال:... كنتُ أعدُّه وَلَداً[3]. ولمّا فُجع عليه السلام بمالك ومحمّد، وأوشك أن يفقد مصرَ، كتب كتاباً إلى المسلمين في مختلف الآفاق شرح فيه ما جرى عليه بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله، وهذا الكتاب وثيقة مهمّة تمثّل نظراته الباصرة في التطوّرات التي تلت وفاتَه صلى الله عليه وآله وامتدّت قُرابة ثلاثين سنةً، وفي سياق حديثه عن الجور الذي حلّ بأهل البيت عليهم السلام وما لاقَوه من عَسف وإجحاف بعد رحيل النبيّ صلى الله عليه وآله، أشار إلى بيعة الناس له، وتطرّق إلى نكث الناكثين، وظُلم القاسطين وخروج المارقين، ثمّ تكلّم عن معاذير الناس[الواهية] قائلاً: ...فقُلتُم: كَلَّتْ سيوفُنا، ونَفِدت نِبالُنا، ونَصَلَتْ أسنّةُ رماحِنا، وعادَ أكثرُ قَصْداً، فارجعْ بنا إلى مِصرنا لنستعدَّ بأحسن عُدّتِنا... أمرتُكم أن تَنزلُوا بالنُّخَيلة، وأنْ تَلزمُوا معسكرَكُم... فنزلَتْ طائفةٌ منكم مَعذرةً، ودخلت طائفةٌ منكم المصرَ عاصيةً، فلا مَن بقيَ مِنكم ثَبتَ وصَبَر، ولا مَن دخلَ المِصرَ عادَ إليّ ورَجَع، فنظرتُ إلى مُعسكري وليس فيه خمسون رجلاً، فلمّا رأيتُ ما أتيتُم دخلتُ إليكم فما قَدِرتُ على أن تَخرجُوا

١ - **أنساب الأشراف** ٢:٤٠٤.

٢ - **الغارات** ١:٢٩١.

٣ - **أنساب الأشراف** ٢:٤٠٤. كانت أمّ محمّد أسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبي طالب، ولمّا استُشهد تزوّجها أبو بكر فولدت له محمّداً، وبعد موته، تزوّجها أمير المؤمنين فنشأ محمّد وتربّى في بيته.

معي إلى يومِنا هذا. فما تَنتظرون؟ أما تَرَون [إلى] أطرافِكم قد انتَقَصَت، وإلى أمصارِكُم قد افتُتِحَت، وإلى شيعتي بها بعدُ قد قُتِلَت، وإلى مَسالِحِكم تُعْرى، وإلى بلادِكُم تُغْزى؟!...

وأمر الإمام عليّ عليه السلام الناس في أثناء كلامه أن يتأهّبوا للعدوّ[1].

وذهب معاوية إلى أنّ قتل محمّد بن أبي بكر رفع رؤوس أشياعهم «العثمانيّة» أينما كانوا في البلاد[2]، وهكذا خرجت مصر من قبضة الحكومة الشرعيّة، وحكَمَها عمرو بن العاص الذي باع دينه بدنياه، أربع سنين (حتّى هلاكه سنة ٤٣هـ).

وعقد معاوية على البصرة أيضاً أملاً كبيراً، لاسيّما أنّ طائفةً من العثمانيّة فيها كتبوا إليه يستمدّونه، وكان يعلم بحقد أهل البصرة على الإمام عليّ عليه السلام، لأنّ عدداً كبيراً منهم قد قُتل في حرب الجمل. وفي خبر الثقفيّ: أنّه حين كتب إلى عمرو بن العاص يستشيره في أمر البصرة، قال له: «... وليس أحدٌ ممّن رأينا أكثر عدداً ولا أضرّ خلافاً على عليٍّ من أولئك [أهل البصرة]، فعزم معاوية على إرسال عبد الله بن عامر الحضرميّ إلى البصرة ليجمع فيها أشياع معاوية وينادي بالثأر لدم عثمان، وبعد اجتماع الناس، يستولي عليها. فذهب المذكور عند قبيلة بني تميم، واجتمع العثمانيّة هناك، فتحدّث إليهم، ولمّا ذكر الطلب بدم عثمان، قام إليه الضحّاك بن عبد الله الهلاليّ وقال له: «أفتأمرُنا الآنَ أن نختلع أسيافَنا من أغمادها ثمّ يضرب بعضُنا بعضاً، ليكون معاوية أميراً وتكون له وزيراً، ونعدل بهذا الأمر عن عليّ عليه السلام؟! والله لَيومٌ من أيّام عليّ عليه السلام مع النبيّ صلى الله عليه وآله خيرٌ من بلاد معاوية وآل معاوية لو بقوا في الدنيا ما الدنيا

١ - الغارات ١:٣٢٢ .
٢ - نفسه ٢:٣٧٧.

باقية»؟ فأيّد بعض الحاضرين عبدَ الله بن عامر، وبعضهم الآخر الضحّاك بن عبد الله... لكنّ جماعة الناس ـ إلّا رجالاً منهم مثل الأحنف بن قيس الذي اعتزل ـ أيّدوا ابنَ عامر جملةً، ونشب النزاع بين المضريّة واليمانيّة . وكان معاوية قد أوصى ابن عامر بأن يثق بالمضريّة ويعتمد عليهم، وهذا ما أزعج الأزْد، وكان زياد بن عُبيد نائباً على البصرة، فلجأ إلى صَبرة بن شيمان الأزْديّ، وكتب إلى عبد الله بن عبّاس والي البصرة، الذي كان في الكوفة، كتاباً يُخبره فيه بما حدث، فشاع خبر البصرة في الكوفة. واستثمر زياد دعم الأزد، فأقام الجمعة ودعا الناسَ إلى نصر أمير المؤمنين عليه السلام الذي يصحبه الأنصار والمهاجرون، وطلب منهم أن يقفوا أمام بني تميم. وفي ذلك الجانب عبّأ ابن عامر جيشاً في البصرة أيضاً، واستولى على بعض الأموال فيها، وسبّب خبر دعم الأزد لزياد، ودعم بني تميم لابن عامر، خلافاً في الكوفة، فطلب شَبثُ بن رِبْعيّ من الإمام عليه السلام أن لايسلّط الأزدَ على بني تميم. وفي المقابل دافع مخنف بن سليم عن الأزد أيضاً، ودعاهم الإمام عليه السلام إلى حماية أصل الدِّين، فقال:... تَناهَوا أيُّها الناس، ولْيَردَعْكُمُ الإسلام ووقارُه عن التَّباغي والتَّهاذي، ولْتجتمعْ كلمَتُكم. ثمّ بعث عليه السلام زياد بن ضبيعة التميميّ إلى البصرة ليصرف بني تميم عن حماية ابن عامر، فسعى سعيه وصرف عدداً منهم. مع هذا كان على فراشه ليلاً، فدخل عليه جماعةٌ من الخوارج، فخرج من بيته، فلحقوا به ، فقتلوه.

ووجّه الإمام عليه السلام جاريةَ بن قُدامة إلى البصرة ومعه خمسون من بني تميم، فجاء إلى شيعة الإمام عليه السلام فيها، وقرأ عليهم كتابه الذي أشار عليه السلام فيه إلى بيعة الناس له، وخاطبهم قائلاً:... فإن تَفُوا ببَيعتي، وتقبلوا نصيحتي، وتَستقيمُوا على طاعتي، أعملْ فيكم بالكتابِ [والسُّنة] وقصدِ الحقّ وأُقِمْ

فيكم سبيلَ الهُدى، فوَالله ما أعلمُ أنّ والياً بعدَ محمّدٍ ﷺ أعلمَ بذلك منّي [ولا أعمَلَ]، أقول قولي هذا صادقاً غيرَ ذامٍّ لمَنْ مَضى، ولا مُنتقصاً لأعمالِهم، وتوعّدهم أنّهم إذا نابذوه يريدون خلافه فإنّه سيهاجمهم بجيشه. وأعلن الأزد عن استعدادهم لقتال ابن عامر تداركاً منهم لما فعلوه يوم الجمل، فشبّت الحرب، على أيّ حال، وهُزم بنو تميم فيها، وحاصرهم جارية حيناً، ثمّ أمر بحرق الدار على العثمانيّة. وكتب زياد إلى الإمامعليه السلام يُخبره بأنّ منهم من أُحرق بالنار، ومنهم من ألقيَ عليه الجدار، ومنهم من هُدِم عليه البيت من أعلاه، ومنهم من قُتل بالسيف، [وسلم منهم نفرٌ أنابوا وتابوا، فصفح عنهم][1].

ومن غارات أهل الشام الأخرى: غارة القائد المشهور الضحّاك بن قيس، فقد نقل الثقفيّ أنّ عُمارة بن عقبة بن أبي مُعَيط كتب إلى معاوية بعد تمرّد الخوارج على الإمامعليه السلام يُخبره فيه بأنّ «عليّاً خرج عليه عِلْيةُ أصحابه ونسّاكهم، فخرج عليهم فقتلهم، وقد فسد عليه جنده وأهل مصره، ووقعت بينهم العداوة وتفرّقوا أشدَّ الفُرقة»، فسُرّ معاوية بهذا الخبر، وسرّح الضحّاك ابن قيس إلى العراق فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف، وأمره بالغارة على كلّ مكان يصل إليه وقتل أصحاب عليٍّ، وإذا أصبح في بلدة فليُمْسِ في أخرى. فأقبل الضحّاك إلى أطراف الكوفة ينهب أموال الناس، وأغار خيله على الحاجّ، وقتل جماعة. فصعد الإمامعليه السلام المِنبر في الكوفة، وأمر الناس أن يدافعوا عن حريمهم، لكنّهم ردّوا عليه ردّاً ضعيفاً، ورأى منهم عَجْزاً وفشلاً، فقال: وَالله لَوَدِدْتُ أنّ لي بكلٍّ مائة مِنكُم رَجلاً مِنهم، وتمنّىعليه السلام في خطابه هذا مرةً أخرى الموت! ثمّ دعا حُجْرَ بن عَدِيّ الكنديّ وعقد له رايةً على أربعة آلاف، ثم سرّحه، فلقي حُجرَ الضحّاك في تَدْمُر، واقتتلوا ساعةً، فقُتل

1 - نفسه ٢: ٣٧٣ – ٤١٢.

من أصحاب الضّحاك تسعة عشر رجلاً، واستُشهد من أصحاب حُجر رجلان، وفرّ الضحّاك من ساحة القتال ليلاً، فانتهت بذلك غارةٌ أُخرى من غارات الشام.

وكتب عقيل بن أبي طالب كتاباً إلى الإمام عليه السلام، طلب فيه أن يُعْلمه بوضعه، فأجابه ذاكراً بأنّ غارة الضحّاك ليست شيئاً ذا بال، وفصّل له الكلام عن قريش وظلمها له عليه السلام، وممّا قال له: اَللّهُمّ فاجْزِ قريشاً عنّي الجَوازي؛ فقد قَطَعَتْ رَحِمي، وتظاهرَتْ عَلَيّ، ودفعَتْني عن حَقّي، وسَلَبَتْني سلطانَ ابنِ أُمّي، وسلّمَتْ ذلك إلى مَن ليس مِثْلي في قَرابتي مِن الرسولِ وسابِقتي في الإسلام! ويتبيّن من هذا الكتاب أنّ الإمام عليه السلام كان يبيّن في كلّ فرصةٍ ـ لاسيّما في تلك الأيّام الأخيرة ـ حقّه الضائع[1].

ومن الغارات الأخرى لأهل الشام على العراق: غارة النعمان بن بشير في اثني عشر ألفاً على عين التمر حوالَي الفرات، وهذا الرجل هو الأنصاريّ الوحيد الذي بان أنّه عثمانيّ الهوى، علماً أنّ طائفةً من الأنصار امتنعت من دعم الإمام عليه السلام أيضاً، إلّا أنّها لم تنضمّ إلى معاوية. وتقرّر أن يُغير النعمان على مناطق الفرات، وكان مالك بن كعب مُرابطاً هناك يومئذٍ مع زُهاءِ مئةِ رَجُل، فلمّا بلغه خبرُ غارة النعمان، استعان مِخْنَف بن سليم الذي كان مسؤولاً عن صدقات هذا الجانب من الفرات، وحين علم الإمام عليه السلام بخبر الغارة المذكورة وشاهد ضعف الناس، أنكر على أهل الكوفة ضعفهم في كلامٍ له قال فيه: ياأهلَ الكوفة، المَنْسِرِ مِن مَناسِرِ أهل الشام، إذا أظلّ عليكُم أغلقْتُم أبوابَكُم، وانْجحرتُم في بُيوتِكُمُ انْجحارَ الضَّبّة في جُحْرِها، والضَّبُعِ في وِجارِها، الذّليلُ واللهِ مَن نصرتُموه.

---

١ - نفسه ٢:٤١٦ – ٤٤٢.

وبعث مِخنف بن سليم إلى مالك بن كعب خمسين رجلاً مع ابنه عبد الله لإعانته، وإذ خاف جيشُ الشام وصول المدد من الكوفة إلى مالك بن كعب قاتل قليلاً، ثمّ فرّ من ساحة القتال، وكان معاوية قد صرّح بأنّ قصده من تسريح الجيش هو «ترهيب أهل العراق»، وهكذا أخفقت هذه الغارة في تحقيق هدفها أيضاً.

ولمّا فرغ الإمام عليّ عليه‌السلام من كلامه المذكور، لم يَسِرْ إلى النُّخَيلة إلّا عَدِيُّ بن حاتِم مع ألفٍ من قبيلة طيّئ، ولحق به ألفٌ آخر أيضاً، فساروا نحو شاطئ الفرات، وأغاروا في أداني الشام[1]. ووجّه معاوية جيشاً إلى دَومة الجَندل ليأخذ زكاة أهلها الذين لم يكونوا في طاعة عليّ عليه‌السلام ولا معاوية. وسرّح الإمام عليّ عليه‌السلام إليها أيضاً جيشاً بقيادة مالك بن كعب، فاقتتل الجانبان، وأمضَيا يوماً واحداً في القتال، فلمّا كان الغد رجع جيش الشام، وأقام مالك ابن كعب عشرة أيّام في دومة الجندل يدعو أهلها إلى الصلح، فلم يستجيبوا، فرجع أيضاً[2].

ومن الغارات الأُخرى على العراق: غارة سُفيان بن عَوف الغامديّ الذي سار إلى هيت على رأس ستّة آلاف رجل، ثمّ أغار منها على الأنبار، وكان صَحب الإمام عليّ عليه‌السلام قليلين في هذه المدينة، وفيهم مَن لم يرغب في الحرب أيضاً، فلم يقاومهم إلّا عددٌ معدود مع أشرس بن حسّان البكريّ، إلى أن استُشهدوا، وسلب المُغيرون ونهبوا مدينة الأنبار، ثمّ رجعوا. ولمّا بلغ الإمام علي عليه‌السلام خبرُهم صعد المنبر وأمر الناس أن يجتمعوا في النخيلة، ويسيروا منها مسرعين إليهم، فلم ينبس أحدٌ منهم بكلمة، فخرج عليه‌السلام من

---

١ - **الغارات ٢**:٤٤٥ – ٤٥٩.

٢ - نفسه ٤٥٩: - ٤٦١.

المسجد، وبعث سعيدَ بن قيس الهَمْدانيّ بثمانية آلاف، لكنّ أهل الشام قد فاتوه، إذ دخلوا أرضهم. ولمّا رجع سعيد إلى الكوفة، اعتلّ الإمام عليه السلام شديداً ولم يُطق على صعود المنبر، وكتب إلى الناس كتاباً، ودفعه إلى سعد مولاه وأمره أن يقرأه على الناس، وجلس الإمام عليه السلام على باب السُّدّة التي تصل إلى المسجد، وعاتب عليه السلام الناسَ في هذا الكتاب، فقال: ... ولَو وَجدتُ بُداً مِن خِطابكُم والعتابِ إليكُم ما فعلتُ... أيّها الناس، إنّ الجهادَ بابٌ مِن أبواب الجنّة [فَتَحه اللهُ لخاصّة أوليائِه، وهو لباسُ التقوى ودِرْعُ الله الحَصينة، وجُنّتُه الوثيقة]، ألا وإنّي قد دَعوتُكُم إلى جِهادِ عَدوِّكُم ليلاً ونهاراً، وسرّاً وجَهْراً، وقلتُ لكم: اغزُوهُم قبلَ أن يَغزُوكُم... فَتواكَلْتُم وتَخاذَلتُم، [وثَقُل عليكم قولي فَعصَيتم، واتّخذتُموه وراءَكُم ظِهْريّاً]، حتّى شُنّتْ عليكُم الغاراتُ في بلادِكُم، [ومُلِكَت عليكمُ الأوطان]، وهذا أخُوغامدٍ قد وَرَدْت خَيلُه الأنبار، فقَتَلَ بها أشرسَ بنَ حسّان، فأزالَ مَسالحَكُم عن مَواضعِها، وقتَل مِنكم رجالاً صالحين. وقد بَلَغني أنّ الرجلَ مِن أعدائِكُم كان يَدخلُ بيتَ المرأة المُسلمة والمُعاهِدة فيَنتزعُ خلخالَها مِن ساقِها، ورعَثَها من أُذُنِها، فلا تمتنعُ منه، ثمّ انصرفوا وافِرين لم يَكْلَم مِنهم رجلٌ كَلْماً! فَلَو أنّ امرأ [مُسلماً] ماتَ مِن دون هذا أسَفاً ما كان عِنْدي مَلوماً، بل كانَ عِندي به جَديراً! فيا عَجَباً عَجَباً واللهِ يُميت القلب، ويَجلب الهَمّ، ويُسعر الأحزان، مِنِ اجتماعِ هؤلاء على باطِلِهم، وتفرُّقِكُم عن حقِّكم!!... يا أشباهَ الرِّجالِ ولا رجالٌ، ويا طَغامَ الأحلامِ أحلامِ الأطفال، وعقولَ ربّاتِ الحِجال، اللهُ يعلم لقد سَئِمتُ الحياةَ بينَ أظْهُرِكُم، ولَوَدِدْتُ أنّ اللهَ يَقبِضُني إلى رحمتِه من بينِكُم!...[١]

ولم يجتمع في النخيلة بعد كلامه عليه السلام هذا إلّا ثلاثُمئة رجلٍ، ولم تَنفع

١ - نفسه ٢: ٤٧٤ – ٤٧٧، **الأخبار الطوال**: ٢١١ – ٢١٢.

معهم خُطبه التي خطبهاعليه السلام فيما بعد[١].

وبعث معاوية جيشاً إلى مكّة بقيادة يزيد بن شجرة الرهاويّ قبل موسم الحجّ سنة ٣٩هـ؛ ليدعوَ الناس إلى معاوية أيّام الحجّ، فعلم الإمامعليه السلام بهذا الخبر عن طريق عيونه، فبعث جيشاً إلى مكّة بقيادة معقل بن قيس الرِّياحيّ، وكان قُثَم بن عبّاس حاكماً على مكّة يومئذٍ، فشعر أنّ أهل مكّة لن يدافعوا عنه، فعزم بادئ ذي بدء على أن يخرج منها، إلّا أنّه بقي فيها ثقةً منه بأنّها الحَرَم. ودخل جيش الشام مكّةَ في اليوم السابع من ذي الحجّة، وقيل: إنّ قائده كان راعياً لحُرمة الحرم، فتجنّباً منه للقتال أرسل إلى قُثَم عارضاً عليه أن يتنحّى الاثنان عن إمامة الجماعة ليختار الناسُ لأنفسهم مَن أحبّوا. ورجع جيش الشام بعد مناسك الحجّ، ودخل مَعقِل بن قيس مكّة بعدَهم بقليل، ولاحقَ جيشَ الشام حتّى وادي القرى، فأسَروا نفراً منهم، وهؤلاء هم الأسرى الذين فادى بهم الإمامعليه السلام أسارى كانوا له عند معاوية. وقالعليه السلام للناس بعد هذه الواقعة: ما أرى هؤلاء القومَ (يعني أهل الشام) إلّا ظاهِرين عليكم... أرى أمورَهم قد عَلَت، وأرى نيرانِكُم قد خَبَت، وأراهُم جادِّين، وأراكُم وانين، وأراهُم مُجتمِعين، وأراكُم متفرِّقين!..[٢].

وكان من أشدّ الغارات وأدهاها: غارة بُسْر بن أرطاة على الحجاز واليمن، إذ كان هذا رجلاً قاسياً جانياً مجرماً، فأوصاه معاوية بأن يقتل شيعة الإمامعليه السلام أنّى ثَقِفَهم. وسبب إيفاده إلى اليمن هو وجود أنصار لعثمان فيها، ولمّا وَضُح لهم ضعف أهل العراق، تمرّدوا على واليهم عبيدِ الله بن عبّاس بن عبد المطّلب، فكتبوا إلى معاوية طالبين منه العون والمدد. ودخل بُسر المدينةَ أوّل

---

١ - **الغارات** ٢:٤٦٤ – ٥٠٣.

٢ - نفسه ٢:٥٠٤ – ٥١٦.

الأمر، وعاملُ الإمامعليه السلام عليها يومئذٍ أبو أيّوب الأنصاريّ، فخرج منها؛ لأنّه لم تكن معه قوّة، فأحرق بُسر دارَه ودُور جماعة غيره، ثمّ أخذ البيعة من الناس عَنوةً، ونصب أبا هُرَيرة حاكماً عليها! وتوجّه إلى مكّة، ومن مكّة خرج قُثم ابن عبّاس أيضاً، وذهب بسر إلى الطائف، ومنها أرسل رجلاً من قريش إلى تَبالة؛ لأنّ فيها جماعةً من شيعة الإمامعليه السلام، فأمر بقتل جميع الناس في مكّة ونهب أموالهم، فهرب أهل مكّة خوفاً منه، ومن الهاربين: زوجة عبيد الله بن عبّاس، وابناها سليمان وداود اللّذان أسَرَهما بسر، ثمّ ذَبَحهما أمام أُمّهما [تبّاً لتلك القسوة والوحشيّة] ! قال بعض: إنّ قتلَهما كان في اليمن، وكانا قد اختفيا في بيت أحد أبناء الفُرس، وذهب بسر إلى نجران وهو يواصل مذابَحه، فقتل فيها عبدَ الله بن عبد المُدان، والدَ زوجة عبيد الله بن عباس، ولهذه الحادثةَ موقعٌ مهمٌّ جدّاً في الحياة السياسيّة المَشينة المُخزية لمعاوية، ثم توجّه بسر إلى اليمن، فهرب عبيد الله منها، ودافع ثلّةٌ من الشيعة قليلاً، واستُشهد كثيرٌ منهم، وارتكب بسر هناك المذابحَ بحقّ شيعة الإمامعليه السلام، واقترف جرائم لاتُعدّ ولا تُحصى، منها: أنّه ذبح مئةَ شيخ من أبناء فارس، وبعد ذلك سار إلى حضرموت التي قيل: إنّ فيها شيعةً كثيرين، وقال: إنّه يقتل من كلّ أربعة واحداً! ولمّا سمع الإمامعليه السلام بخبره، سرّح إليه جاريةَ بن قُدامة على رأس كتيبة من شيعته، فلاحَقَه جارية، وحين علم أنّه دخل مكّة، توجّه إليها، لكنّ بسراً كان قد خرج منها. وقيل: استُشهد الإمامعليه السلام قبل أن يصل جارية إلى الكوفة، وعندما بلغ الكوفَة بايع الإمامَ الحسنَعليه السلام.

وعانى الإمامعليه السلام أشدَّ المُعاناة من أهل الكوفة، ودعا عليهم أبلغ الدعاء، و ما ذلك إلّا أنّهم لم يُسرعوا إلى نُصرة إمامهم، وليس هذا فحسب، بل لم يحفظوا عِرضَهم ولا كرامتهم، فسمحوا لأرجاس الشام أن يتسلّطوا عليهم.

ونقل فيما يأتي أحد أدعيتهعليه السلام عليهم كآخر فقرة في هذا القسم، فقد قال أبو صالح الحنفيّ: «رأيتُ عليّاًعليه السلام يخطب، وقد وضع المصحف على رأسه حتّى رأيتُ الورق يتقعقع على رأسه.قال: فقال: اَللّهمَّ قَدْ مَنعُوني ما فيه [ما في القرآن] فأعْطِني ما فيه. اَللّهمّ قَد أبغضْتُهم وأبغضوني، ومَلَلْتُهم ومَلُّوني، وحَمَلُوني على غيرِ خُلقي وطبيعتي، وأخلاق لم تكن تُعرَفُ لي. اَللّهمّ فأبْدِلْني بِهِم خَيراً مِنهم، وأبدِلْهم بي شَرّاً مِنّي. اَللّهمّ مُثْ قُلوبَهم كما يُماثُ المِلحُ في الماء[١].

مجمل نظرة الإمامعليه السلام إلى المجتمع الدينيّ في عصره

إنّ خُطب الإمامعليه السلام وكتبه بشأن التحدّيات والمِحَن التي واجهها في حياته الشريفة، سواءً كانت قبل تولّيه الخلافة أم بعد ذلك، هي أفضل وثيقة تاريخيّة، فشهدعليه السلام قبل خلافته تجربةَ سقوط حكومة من الحكومات: وهو سقوط عثمان بثورة الناس عليه، أولئك الناس الذين قَدِموا المدينة من مختلف الأمصار الإسلاميّة، فقضوا على جهاز خلافته غاضبين كارهين، ساخطين عليه.

ومواقف الإمامعليه السلام من سقوطه ـ لاسيّما في مجتمعٍ دينيّ ـ كانت حقّةً ورائعة؛ مراعياً فيها أحوال عصره وظروفه، يُضاف إلى هذا، أنّ مؤاخذاتهعليه السلام للحكومات السابقة كانت تفتح الطريق أمامنا لعرض نظراته حول تلك الفترة وإجمالها.

ولا شكّ في أنّ قتل عثمان كان حادثةً عجيبةً فتحت الباب لقتل الخلفاء في مجتمع صدر الإسلام، وصحيحٌ أنّ عمر كان قد قُتِل أيضاً، إلّا أنّ قتله قد

١ - نفسه٢:٤٥٨- ٤٥٩.

وُجِّه في الظاهر بكَونه قد جرى على يد رجلٍ أجنبيّ غير مسلم، لا على يد جماعة المسلمين الساكنين في المدينة الذين كانوا يُسمّون بالأنصار. وإذا كانت هذه الحادثة بدايةً للحوادث والوقائع التي جرت في عصر الإمام عليه السلام وآذت حكومتَه أيضاً، فحينئذٍ سيكون لتحليله عليه السلام للمشكلة الأساسيّة قيمةٌ لافتةٌ للنظر. وسنرى أنّ المشكلة التي اهتمّ بها الإمام لم تكن زوالَ حكومة عثمان، بل التصدّع الذي حدث في أركان الخلافة الإسلاميّة فيما بعد؛ فبلغ مبلغاً أنّه أثّر في الخلافة الإسلاميّة، التي جَعَلَت الحكومة الإسلاميّة أقرب إلى النظام الملكيّ طبعاً، وأحلّت السلطنة الإسلاميّة مَحَلّها، تلك السلطنة التي ابتعدت عن الحكومة الإسلاميّة المثاليّة، أي النظام الولائيّ أضعافاً مضاعفة، ويتعيّن علينا الالتفات إلى أنّ سقوط عثمان لم يكن ذا بُعدٍ دينيٍّ مباشر فقط. صحيحٌ أنّ من أهمّ الاعتراضات والاحتجاجات عليه هو أنّ الدين قد مُنيَ بالتحريف في عهده، بَيد أنّ قسماً من المشكلة يعود إلى مواقفه الشاذّة من الانتقادات الجزئيّة للمعارضين، والتي أصبحت فيما بعد أزمةً حادّةً شيئاً فشيئاً. ولم يتحمّل عثمان أيّ انتقاد، وحين تراكمت الانتقادات وتراكمت أكثر فأكثر، أصبحت كالسيل الجارف الذي جَرف بيت عثمان ودار حكومته، وقطع دابر كلّ شيءٍ يعود إليه. وكانت المشاكل القبليّة من محَن الإمام عليه السلام ومصاعبه، ومهما كان، فهذا بحثٌ يجب متابعته في موضعٍ آخر. ويقوم تحليل الإمام عليه السلام على ما عرضه من شرحٍ وتوضيحٍ لأربعة مفاهيم وما يرتبط بها.

تعريف الإمام عليه السلام للمفاهيم السلبيّة الأربعة: البِدعة، والفِتنة، والشُّبهة، والتَّفْرقة

يبدو أنّ هذه المفاهيم الأربعة كان لها من الوجهة الدينيّة أهميّةٌ بالغةٌ في التفكير الدينيّ - السياسيّ للإمام أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام، ومن الضروريّ قبل

الحديث عنها أن نشير إلى أنّ رؤيتهعليه السلام للإمام والقائد في المجتمع تقوم على ركنين أصليّين، الأوّل: تطبيق الشريعة؛ والثاني: تطبيق العدالة. وتطبيق الشريعة عند الإمام عليّعليه السلام يَشمل التركيز في كتاب الله والسيرة النبويّة؛ وعند فقدان النصّ القرآنيّ والحديثيّ فإنّ الاجتهاد على أساس الأصول وظيفةٌ من وظائف الإمام. وتطبيق العدالة وإصلاح المجتمع على أساس كتاب الله وسنّة رسوله واجتهاد الإمام نقطةٌ ثانيةٌ حازت اهتماماً في المنهج العملي للإمام فيما يخصّ وظائف الإمام. والأمثلة التي ننقلها فيما يأتي من كلمات الإمامعليه السلام في هذا المجال ناطقة مُعبّرة، فمن ذلك قولهعليه السلام: إنّ أحقَّ النّاسِ بهذا الأمر: أقواهُم عليه، وأعلمُهم بأمرِ الله فيه[1].

وقولهعليه السلام في حقّ الناس على الإمام: ولكُم عَلَينا العملُ بكتابِ الله تعالى وسيرةِ رسول اللهصلى الله عليه وآله، والقيامُ بحقّه، والنَّعشُ لِسُنّته[2].

وقولهعليه السلام في الخطبة الثالثة من خطب نهج البلاغة حول توجيه وجود الحكومة المطلوبة: لَولا حضورُ الحاضِر، وقيامُ الحُجَّة بوجودِ النّاصر، وما أخَذَ اللهُ عَلَى العُلماء ألّا يُقارُّوا على كِظَّة ظالمٍ ولاسَغَبِ مظلوم، لألْقَيتُ حَبْلَها على غاربِها، ولَسَقيتُ آخِرَها بكأسِ أوَّلِها، ولألْفَيْتُم دُنياكُم هذهِ أزْهَدَ عِنْدي مِن عَفْطَةِ عَنْزٍ[3]!

وقولهعليه السلام معتبراً إنصاف المظلوم من الظالم واجبَه الأصليّ، بشرط أن يُؤازره الناس: أيُّها النّاس، أعينُوني على أنفسِكُم، وأيْمُ الله لأُنْصِفَنَّ المَظْلومَ مِن ظالِمِه، ولأَقُودَنَّ الظالمَ بِخِزامتِه حتّى أُورِدَه مَنْهَلَ الحقِّ وإنْ كانَ كارِهاً[4].

---

١ – **نهج البلاغة**: الخطبة ١٧٣.

٢ – نفسه: الخطبة ١٦٩.

٣ – نفسه: الخطبة ٣.

٤ – نفسه: الخطبة ١٣٦.

وجاء الجمع بين هذين الهدفين في تعبيرات عامّة أُخرى، والهدف من الحكومة هو إحياءُ الدِّين، وإصلاح البلاد. قال عليه السلام في ذلك: اَللّهمَّ إنّكَ تعلمُ أنَّه لَم يَكُنِ الذي كان مِنّا مُنافسةً في سُلطان، ولا التماسَ شَيءٍ مِن فُضول الحُطام، ولكنْ لِنَردَ المَعالِمَ مِن دِينِك، ونُظهِرَ الإصلاح في بلادِك، فيأمَنَ المظلومونَ مِن عبادِك، وتُقامَ المُعطَّلةُ مِن حُدودِك[1].

وما أكثر الأمثلة التي تبيّن أنّ واجب الإمام هو العمل بكتاب الله، وسنّة رسوله، ورعاية العدالة وحماية المظلومين! وما يُبتغى هنا الآن هو شرح المفاهيم السلبيّة الأساسيّة الأربعة في رأي الإمام عليه السلام ونظرته.

١ـ البدعة

إنّ تطبيق الشريعة ـ ومبدئيّاً مفهوم الدين السماويّ ـ هو تطبيق الأحكام الإلهيّة؛ وهي الأحكام التي بلّغها اللهُ والرّسول الناسَ مِن أجل العمل والتطبيق، ويتعيّن علينا أن تتّخذ طابع السُّنّة في المجتمع الدينيّ. والسنّة هنا هي الأحكام الثابتة التي لا يحقّ تغييرها أو تعطيلها بلا ضرورة. وتطبيقُها والاهتمام بها طبعاً من المحاسن الأصليّة للمجتمع المذكور؛ وبذلك القَدْر فإنّ النقطة التي تقابلها هي البدعة، وهي العمل السلبيّ الذي يُضعضع أساس المجتمع الدينيّ. والشريعة في الدرجة الأُولى هي الأحكام الإلهيّة التي لايحقُّ حتّى للرّسول أن يَضَعَ شيئاً من عنده في مُقابلها، حتّى خاطبه القرآنُ الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ * لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ * وإنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2]، كما خوطب

---

١ – نفسه: الخطبة ١٣١.

٢ – الحاقّة: ٤٤ – ٤٨.

النبيّ ﷺ بصراحة في قوله تعالى: ﴿واسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلاتَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتابٍ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿فاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ وَلاتَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِفَاتَّبِعْها ولا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[٣]، وآيات أخرى كثيرة، وهي تأمر النبيّ ﷺ بالعمل بما أنزل الله، والابتعاد عن وضع أحكام مِن عنده، أو تنهاهُ عن اتّباع الكفّار والمنافقين، أو الإصغاء إلى عروضهم.[٤] وحريٌّ بالعلم طبعاً أنّ الله سبحانه عدَّ عمل نبيّه - بسبب عصمته ﷺ - حُجّةً، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجوا اللهَ والْيَومَ الآخِرَوذَكَرَاللهَ كَثِيراً﴾[٥]، كما كان إبراهيم عليه السلام أُسوةً[٦]. وبَلغت السنّةُ الإبراهيميّة مبلغاً من القوّة أنّها ترسّخت في الأمّة الإسلاميّة.

وإنّما يتحقّق شأن المجتمع عبرَ إقباله على القرآن والسنّة، والمقصود طبعاً هو السُّنن الدينيّة الأصيلة المنبثقة من روح الشريعة. وفي هذه الحالة، تكون الحركة في إطار السُّنن حركةً إصلاحيّة، في حين أنّ البدعة مبدأ سلبيّ رفَضته عشرات الأحاديث الواردة في المصادر الحديثيّة، وليس هنا موضِعُ ذكره[٧]. ولا يتسنّى هنا مواصلة هذا البحث، لأنّ هدفنا هو عرض هذا البحث

---

١ - الشورى: ١٥.

٢ - المائدة: ٤٨.

٣ - الجاثية: ١٨.

٤ - الرعد: ٣٨؛ ﴿وما كانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلّا بِإِذْنِ اللهِ﴾، يراجع: (البقرة: ١٢٠، ١٤٥؛ المائدة: ٤٩؛ القلم: ٨ -١٢؛ الكهف: ٢٨؛ الأحزاب: ٤٨؛ الإسراء: ٧٣ — ٧٥؛ الأنعام: ٩٣، ١٥٠).

٥ - الأحزاب: ٢١.

٦ - المُمتحِنة: ٤.

٧ - القيمة التي يطرحها المتجدّدون اليوم هي أنّ الإقبال على السنّة يعني الجمود ومقارعة

برأي الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، الذي كان شعاره الأصليّ هو إحياء السنّة، ومكافحة البدَع.

وإذا استعرضنا أقواله عليه السلام في نهج البلاغة، علمنا أنّه عليه السلام كان يركّز في تطبيق السنّة وتجنّب البدعة بالغ التركيز[1]، والسنّة التي يقصدها هي سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، وتجنّب البدع التي أُحدثت في مقابل السنن الدينيّة. ونكتفي هنا ببعض الأمثلة، ثمّ نعرّج على أهميّتها في تحليلاته التاريخيّة اللّازمة في الحكومة الدينيّة.

فقد أوصى عليه السلام الناسَ بقوله: أمّا وصيّتي: فالله لا تُشركُوا به شيئاً، ومحمّداً صلى الله عليه وآله فلا تُضيِّعُوا سُنّتَه.أقيمُوا هذَينِ العمودَين، وأوقِدُوا هذَينِ

الحركيّة والاجتهاد. ويرون أنّ الدين يجب ألّا يتحوّل إلى سنّة، لأنّ العقلانيّة وحركيّة المجتمع تزولان وفي هذه الحالة . وهذا التحليل، بخاصّة استنادهُ إلى جهاد الأنبياء للعقائد الجوفاء المنحطّة في أمَمِهم، نوعٌ من المغالطة . ويدور بحثنا هنا حول السنن الدينيّة الأصيلة التي يجب أن تُحفَظ، ويجب أن يُحفَظ الإقبال على السنّة كمبدأ مهمّ . ومن الطبيعيّ أنّ سنّة من السنن إذا كانت سقيمة، فهي بدعةٌ قد وُضعت، ولابدّ من مُكافحتها. والمهمّ ليس قِدَم العمل والمعيار والقيمة زمنيّاً، بل المهمّ انسجام هذه الأشياء مع المتون الدينيّة الأصليّة . ففي ضوء هذا، وعلى عكس قول هؤلاء (ينظر: **پگاه حوزه** [فجر الحوزة] العدد ١١، ص١٨، تحليل آغاجري) الذين يَرَون «أنّ أحد العوامل الدينيّة المضرّة هو إحياء السنّة وتبدّل الدِّين إلى سنّة»، فإنّ كلامهم هذا غطاء للدعوة إلى البدع الجديدة، والتجدّد في عمق وجودهم هو شعار أصحاب البدع، قال النبيّ صلى الله عليه وآله: سيأتي زمان، وسيأتي أناس السُّنّة فيهم بدعة والبدعةُ فيهم سُنّة! (**مستدرك الوسائل** ١١:٣٧٥).

١ – إنّ لاتّباع السنّة النبويّة في السياسة الدينيّة للإمام عليه السلام منزلةً رفيعة مبدئيّاً، على عكس مَن سبقه من الخلفاء، إذ لم يعتمدوا على هذا المبدأ كَما اعتمد عليه الإمام، في الأقلّ . ومثال تأكيده عليه السلام هذا ملحوظ في الخطبة ١٦٠ من **نهج البلاغة**، فقد قال: فَتأسَّ بنبيِّك الأطيَبِ الأطهَرِ صلى الله عليه وآله فإنّ فيهِ أُسْوةً لِمَن تأسّى، وعزاءً لِمَن تعزّى. وأحَبُّ العِبادِ إلى الله المتأسّي بنَبيِّهِ، والمُقْتصّ لأثرِه... ولَقَد كان في رسولِ الله صلى الله عليه وآله ما يَدُلّك على مساوئِ الدُّنيا وعُيوبِها.

المِصباحَين[١].

وقال في موضعٍ آخر: وما أحْدِثَتْ بِدْعةٌ إلّا تُرِكَ بها سُنّة. فاتَّقُوا البِدَعَ، والْزَمُوا المَهيَع. وإنّ عَوازِمَ الأمورِ أفضَلُها، وإنّ مُحَدثاتِها شِرارُها[٢].

وقالعليه السلام: وإنّما الناسُ رجلان: مَتّبعٌ شِرْعةً؛ ومَبْتدِعٌ بِدْعةً... ليس مَعه مِن الله سبحانَه برهانُ سُنّة، ولا ضِياءُ حُجّة[٣].

وذهبعليه السلام في موطن آخر إلى أنّ من الذنوب التي تُسخط اللهَ سبحانه إظهارَ المرء بدعةً في دينه من أجل مصالحه الخاصّة، قالعليه السلام: يَسْتَنْجح حاجةً إلَى الناسِ بإظهارِ بدعة في دِينِه[٤].

والنقطة التي تُضاف في هذا المجال، بشأن أزمة الخلافة في الثورة على عثمان، أنّ عثمان اتُّهم بإحداث البدع التي استتبعت ثورة المتديّنين عليه، وبدّدت نَظْم الأمور، وحين ذهب الإمامعليه السلام إليه لينقل إليه مؤاخذات الناس عليه، ذكّره بأنّهعليه السلام وكذلك هو، كانا مع النبيصلى الله عليه وآله فسمعا منه كلّ شيء: فاعلم! أنّ أفضلَ عبادِ الله عندَ الله إمامٌ عادلٌ هُدِيَ وهَدى، فأقامَ سُنةً معلومةً، وأماتَ بِدْعةً مجهولة. وإنّ السُّنَنَ لَنَيِّرةٌ لها أعلام، وإنّ البدعَ لَظاهرةٌ لها أعلام. وإنّ شرَّ النّاسِ عندَ الله إمامٌ جائر، ضلَّ وضُلَّ بِه، فأماتَ سُنّةً مأخوذةً، وأحْيى بدعةً متروكة.

وركّزعليه السلام بعد ذلك في الظلم، ونقل إلى عثمان حديثاً عن النبيصلى الله عليه وآله حول عذاب الحاكم الظالم[٥].

---

١ – **نهج البلاغة**: الخطبة ١٤٩، والكتاب ٢٣.

٢ – نفسه: الخطبة ١٤٥.

٣ – نفسه: الخطبة ١٧٦.

٤ – نفسه: الخطبة١٥٣.

٥ – نفسه: الخطبة ١٦٤.

وقال عليه السلام في موضع آخر مشيراً إلى رسالة النبيّ صلى الله عليه وآله، وأنّه صلى الله عليه وآله جاء من الله تعالى بكتاب حقّ وشريعة مستقيمة: وإنّ المبتَدعاتِ المُشبَّهاتِ هُنّ المهلكاتِ إلّا ما حَفِظ الله مِنها[1]. وفي بيانه عليه السلام لشروط الوالي في موطنٍ آخَر، أشار إلى هذا الشرط: ولا المُعَطِّلُ لِلسُّنّة فيُهلِكَ الأمّةَ[2].

٢ و٣: الفتنة والشُّبهة

المفهومان الأساسيّان الثاني والثالث في الرأي الدينيّ - السياسيّ للإمام عليه السلام هما مفهوما: الفتنة والشبهة، اللّذان يُلحَظان في كلماته عليه السلام بأشكال متنوّعة. وتتمثّل هذه الفتنة في ضياع معالم الحقّ حين اضطربت الأوضاع إبّانَ ثورة الناس على عثمان وقتله. وتحليله عليه السلام في الواقع هو أنّ عثمان، باهتمامه بالبدع من جهة، وظلمه للناس من جهة أُخرى، جعل الأوضاعَ بشكلٍ هاج الناس فيه عليه، ولو استمرّ هذا الاضطراب فإنّ الأوضاع تسوء أكثر بعده، وتظهر ملابسات الفتنة حتّى قد تأتي على معالم الحياة الإسلاميّة، وهذه الفتنة هي التي عصفت بحكومته وصعّبت على عامّة الناس اختيار الطريق المستقيم.

وهذا هو ما حدث عمليّاً، وقد نقل الإمام عليه السلام في الخطبة (١٦٤)[3] حديثاً عن النبيّ صلى الله عليه وآله بعد تأكيده خطورة البدعة والظلم، فيه شرح لذلك الوضع غير المستساغ الذي طرأ على حياة المسلمين. قال عليه السلام: يُقتَل في هذهِ الأُمّة إمامٌ يَفتَحُ عليها القتلَ والقتال إلى يوم القيامة، ويَلْبِسُ أمورَها عليها، ويَبُثُّ الفتنَ فيها، فلا يُبصرونَ الحقَّ مِنَ الباطل، يَمُوجون فيها مَوجاً، ويَمْرجُون فيها مَرْجاً.

---

١ - نفسه: الخطبة ١٦٩.

٢ - نفسه: الخطبة ١٣١.

٣ - وهي كلامه الذي خاطب به عثمانَ أيّامَ حصاره.

وتحدّثعليه السلام في مواطنَ عديدة حول مواصفات الفتنة واستغلال الظالمين لها، وهذا ما يعبِّر عن عصره بدقّة، وفي هذه الفتن التي إذا اتّسع نطاقها، ظهرت الشبهات... وهكذا تتبيّن الصلة التي تربط الشبهة بالفتنة.

وخاطبعليه السلام العرب، وهم مسلمو زمانه، قائلاً: ثُمَّ إنّكُم معشرَ العربِ أغراضُ بَلايا قدِ اقتَربَت، فاتّقُوا سَكراتِ النعمة، واحذَرُوا بَوائقَ النِّعمة، وتَثَبَّتُوا في قَتام العِشوة، واعوجاجِ الفتنة عندَ طلوعِ جَنينِها، وظُهورِ كمينِها، وانتصابِ قُطْبِها، ومَدارِ رَحاها.

تبدأ في مَدارجِ خَفِيّة، وتَؤولُ إلى فَظاعة جَليّة. شِبابُها كشِبابِ الغُلام، وآثارُها كآثار السِّلام. يَتوارثُها الظَّلَمَةُ بالعُهود! أوّلُهم قائدٌ لآخِرِهم... ثمّ يأتي بعدَ ذلك طالعُ الفتنة الرَّجُوف، والقاصمة الزَّحُوف، فتَزيغُ قلوبٌ بعدَ استقامة، وتَضِلُّ رجالٌ بعدَ سَلامة، وتختلفُ الأهواءُ عند هُجومِها، وتَلْتبسُ الآراء عندَ نُجومِها... وتَثْلِمُ منارَ الدّين، وتَنقُضُ عَقْدَ اليقين... بَريُّها سَقيم، وظاعِنُها مُقيم[1].

ويستبين من كلامهعليه السلام هذا أنّ من أوضح الأبعاد العمليّة للفتنة سلبَ اليقين من الناس، وإيجادَ جوٍّ من الشكّ والتردّد والحيرة.

والصفة الأخرى للفتنة هي أنّ الكذّابين يجدون فرصةً للبروز والظهور، فيُثيرون الشبهة بكلامهم الباطل... قال الإمامعليه السلام: قد خاضُوا بحارَ الفِتن، وأخذُوا بالبدعِ دونَ السُّنن، وأرَزَ المؤمنون، ونَطَقَ الضّالّون المُضِلّون[2]، وفي هذا الكلام تتبيّنُ الصلةُ بين الفتنة والبدعة جليّةً. ويقدّمعليه السلام بعد كلامه المذكور معياراً للأمّة، وهو اتّباعُ أهل البيتعليهم السلام. والنتيجة الطبيعيّة للفتنة والشبهة هي الاختلاف الذي أشارعليه السلام إليه في مواضع شتّى، وبيّن تأثيره في

١ – نفسه: الخطبة ١٥١.
٢ – نفسه: الخطبة ١٥٤.

اضمحلال المجتمع الدينيّ.

ترابط هذه المفاهيم

إنّ أفضل مثال من كلام الإمام عليه السلام ـ الذي ورد فيه الارتباط المنطقيّ بين المفاهيم الأربعة: البدعة، والفتنة، والشُّبهة، والتفرقة ـ هو الخطبة الخمسون من «نهج البلاغة»، فقد ذهب عليه السلام فيها إلى أنّ بدء الفتنة يتمثّل في الابتداع، وأنّ هذا التيّار ينتهي بالشبهة، وبتعبير آخر، بالتباس الحقّ بالباطل: إنّما بَدْءُ وُقوعِ الفتنِ أهواءٌ تُتَّبَع، وأحكامٌ تُبتَدع؛ يُخالَفُ فيها كتاب الله، ويَتَولّى عَلَيها رجالٌ رجالاً على غير دِين الله. فلو أنّ الباطل خَلَصَ مِن مِزاجِ الحقّ لم يَخْفَ عَلَى المُرتادين، ولو أنّ الحقّ خَلَصَ مِن لَبْسِ الباطل انقَطَعتْ عنه ألسُنُ المُعاندين، ولكنْ يُؤخَذ مِن هذا ضِغْثٌ ومِن هذا ضِغْث، فيُمزَجان! فهنالك يَستولي الشيطانُ على أوليائه، وينجو الذين سَبَقَتْ لَهُم مِنَ الله الحُسْنى[1].

وقال عليه السلام في موضعٍ آخر بشأن العلاقة بين الفتنة والشبهة: فذكر أنّ الفتن إذا أقبلَتْ شَبَّهتْ وإذا أدبَرَتْ نَبَّهَتْ[2]. وبعبارة أخرى، يتعيّن أن نقول: إنّ إثارة الفتنة هي عين إثارة الشبة؛ فهما مفهومان مستقلّان إلّا أنّهما مترابطان، فإذا ظهرت الفتنة بُثّتِ الشُّبهات، وبثّ الشبهة هو نفسه نزوعٌ إلى الفتنة.

٤- الجماعة والتفرقة

تقدّم أنّ العامل الرئيس لزوال الخلافة الإسلامية هو الاختلاف والتفرقة بين الأمّة، اللّذان يُزعزِع وجودُهما أركانَ كلّ نظام، ومن ثَمّ يُقوّض النظام الذي يحكمها تدريجاً، كما قال تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ

---

١ – نفسه: الخطبة ٥٠.

٢ – نفسه: الخطبة ٩٢.

آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وأَطِيعُوا اللهَ ورَسُولَهُ وَلاتَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ واصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصّابِرِين﴾[١].

والنقطة المهمّة هي أنّ مفهوم الجماعة والتفرقة من المفاهيم التي تُستعمَل في السياسة بشكلٍ مكثّف، ويُمنى عادةً بنوعٍ من الانحراف أيضاً. ومن الطبيعيّ أنّ رعاية الجماعة وتجنّب التفرقة أمران يصبّان في مصلحة الناس؛ مع هذا يُمكن أن يُساء استخدامهما أو يُغالط في استعمالهما، بتعبيرٍ آخر: أنّ وجود الجماعة والوئام بين الناس أمرٌ ضروريّ للتقدّم والتنمية؛ وبنفس المقدار يُمكن أن تحلّ التفرقة عَقد المجتمع ورباطه، بخاصّة إذا كانت ذاتَ أبعادٍ أعمق في المجتمع. وفي الوقت نفسه، يُمكن أن يلقى كلّ نوعٍ من أنواع الاعتراض والانتقاد لسيرة الحكّام تجافياً من خلال وصمة إيجاد التفرقة، وقد يُتّخذ منه موقف حادّ. وإنّ معرفة حدّ الجانبين في هذه القضيّة أمرٌ عسير نوعاً ما، ويَتْبع الظروف المختلفة القائمة في المجتمع.

وقد بُذرت بذرة التفرقة والاختلاف في المجتمع بعد مقتل عثمان، وتلا ذلك اتّساعُ نِطاق هذا الاختلاف أكثر فأكثر بسبب تمرّد أصحاب الجمل، وعُتوّ معاوية، واندلاع حرب الجمل وصفّين. وتَمزّق اتّحاد العراق الذي كان قد تخلخل في حرب الجمل بنشوب الخلاف بين الكوفة والبصرة، في نهاية حرب صفّين، وطرأت خلافات جديدة على هذا الاتّحاد بظهور الخوارج. وكان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يرى ـ وهو الخليفة الشرعيّ الّذي استدلّ على شرعيّة خلافته للنبيّ صلى الله عليه وآله مراراً ـ أنّ تصدّع الجماعة هو أحد المصاعب الأصليّة الموجودة في المجتمع الإسلاميّ، وكان يَجهد، قولاً وعملاً، في تمهيد الطريق إلى رجوع الجماعة والوحدة من خلال القضاء على المتمرّدين

١ ـ الأنفال ٤٥ ـ ٤٦.

وعلى أسباب الخلاف. ويجب أن نقول في نهاية المطاف: إنّ هذه التفرقة قطعت عُرى الخلافة، وأوجدت نظاماً جديداً تحت عنوان: «السلطنة» التي كانت تسمّى «الخلافة»، زوراً وتخرّصاً، وهذا يعني أنّها في هذا المُستوى من الاتّساع يُمكن أن تستأصل أساسَ النظام فيما بعد.

إنّ أبْيَنَ تحليلٍ للإمام عليه السلام في هذا المجال قد ترجَمَته الخطبةُ القاصعة؛ فقد تحدّث عليه السلام فيها حول الوضع الشاذّ الذي سادَ عصرَه، مشيراً إلى دور الاتّحاد والتفرقة في الأمم السابقة، وتأثير الفُرقة في زوال الحكومات القائمة يومذاك، وبدأ الحديث في عصر الاتّحاد والوحدة بينها، ثمّ ذكر التفرقة وتأثيرها: فانظُروا كيفَ كانُوا حيثُ كانتِ الأملاءُ مُجتمِعة، والأهواءُ مُؤتلِفة، والقلوبُ مُعتدِلة، والأيدي مُترادِفة، والسُّيوفُ مُتناصِرة، والبصائر نافذة، والعزائمُ واحدة. ألم يكُونوا أرباباً في أقطارِ الأرَضين، ومُلوكاً على رقاب العالَمين؟! فانظُروا إلى ما صاروا إليه في آخِرِ أُمورهِم، حينَ وقعتِ الفُرْقة، وتَشتّتتِ الأُلفة، واختَلفتِ الكلمةُ والأفئدة، وتَشَعَّبُوا مُخْتلِفين، وتفرّقوا مُتحاربين، قَد خلَعَ اللهُ عنهم لِباسَ كرامتِه، وسَلَبَهم غَضارةَ نَعمتِه، وبَقيَ قَصَصُ أخبارِهِم فيكُم عِبَراً لِلمُعتبرين[1].

وقال عليه السلام مُشيراً إلى أنّ القرآن مهجورٌ بين الناس: فالكتابُ وأهلُه (يعني أهلَ القرآن، وهم أهل البيت عليهم السلام) في ذلك الزَّمانِ في الناسِ ولَيسا فيهم، ومَعَهم وليسا مَعَهم! وقال عليه السلام قبل هذا الكلام: فالكتابُ يَومئذٍ وأهلُه طَريدان مَنْفيّان. ثمّ قال: لأنّ الضّلالةَ لاتُوافِقُ الهُدى وإن اجتَمعا، فاجتَمعَ القومُ عَلَى الفرْقة، وافترَقُوا علَى الجماعة، كأنّهم أئمّةُ الكتابِ وليس الكتابُ إمامَهم، فلَم

---

١ - **نهج البلاغة**: الخطبة ١٩٢.

يَبقَ عندهَم منه إلَّا اسمُه، ولايَعرِفون إلَّا خَطَّه وزبْرَه[١].

إنّ من بين الخلافات التي تظهر في المجتمع الدينيّ ما تكون تحت لواء السيادة الدينيّة، ولها أهمّيّة أكثر هي الخلافات الفكريّة. ومن الطبيعيّ أنّ قسماً من الخلافات في حيّز الاجتهاد يُمكن تحمّله، لكنّ اتّساعه ـ بخاصّة إذا كان له جذرٌ في الأهواء النفسيّة ـ يُمهّد لتفرقة شديدةٍ في المجتمع، ويُعتبر من الأركان المُتلِفة للسيادة الدينيّة في ذلكَ المجتمَع. وحين طُرِحَ الإسلام العثمانيّ، والإسلام العلويّ، فإنّ هذا كان يعني أنّ المَتديّنين في المجتمع فريقان، ويتطلّبان طبعاً نوعين من الحكّام، وهذا هو أوّل النزاع والتعارض، وتبدأ الحرب ليتبيّنَ مَنِ المنتصر. قال الإمامعليه السلام في هذا الشأن: ولكنّا إنَّما أصبَحْنا نَقاتِلُ إخوانَنا في الإسلام على ما دخَلَ فيه مِنَ الزَّيغ والاعوجاج، والشُّبهة والتأويل[٢]!

إنّ الخلاف في الدين يُوَلّدُ صعوبةً بالغة للسيادة الدينيّة ما دام تابعاً للأغراض والأهواء الفاسدة، وكان الإمامعليه السلام يعتقد أنّ الدين كان أسيراً بيد لُمّة من الأشرار الذين كانوا يتعاملون معه مِن وحي أهوائهم النفسيّة الدنيويّة: فإنّ هذَا الدِّينَ كانَ أسيراً في أيدي الأشرار، يُعمَل فيهِ بالهَوى وتُطلَبُ بهِ الدُّنيا[٣].

وإلى جانب هذا الخلاف الفكريّ، كان هناك نوعٌ آخر من الخلاف، وهو الخلاف العنصريّ والقبليّ... وهذا ما تحدّث حوله الإمامعليه السلام أيّ حديثٍ في الخطبة القاصعة، فقال: فَأطْفِئوا ما كَمَنَ في قُلوبِكُم مِن نيرانِ العَصبيّة، وأحقادِ الجاهليّة[٤].

١ – نفسه، الخطبة ١٤٧.

٢ – نفسه ١٢٢.

٣ – نفسه: الكتاب ٥٣(عهده إلى مالك الأشتر رضوان الله عليه).

٤ – نفسه، الخطبة ١٩٢.

وعرض عليه السلام في إحدى خطبه بعد التحكيم ـ مُجيباً أحد أصحابه الذي كان قد قال له: «نَهيتَنا عن الحكومة ثمّ أمرتَنا بها» ـ شرحاً للمصاعب والمِحَن الموجودة، فذهب إلى أنّ نَكْث الناس عهدهم هو سببُ هذه المصائب، وفي نهاية المطاف، بيّن عليه السلام أنّ زوال الجماعة واستبدال الفُرقة بها هي صفةُ مجتمعه، لاسيّما أنّ الشيطان يسعى إلى حلّ دينهم عُقدةً عُقدة، وقال: ويُعطيكُم بالجماعة الفُرقة، وبالفُرقة الفتنة[1]!

وقال عليه السلام في موضعٍ آخر مشيراً إلى نفوذ الشيطان في الناس، وأنّه يميل بهم أنّى شاء: والْزَمُوا السَّوادَ الأعظم، فإنّ يدَ الله معَ الجماعة، وإيّاكُم والفُرقة، فإنّ الشاذّ مِن الناسِ للشيطان، كما أنّ الشاذّ مِن الغَنَمِ للذئب[2]. فهو عليه السلام يؤكّد حفظ الجماعة والوحدة، ويرى أنّ الابتعاد عن الجماعة هو كابتعاد الشاة عن القطيع، فتقع في حِبالة الذئب.

ويعتقد عليه السلام أنّ الطريق إلى رفع الخلاف وتشتّت الآراء هو طاعة الناس لـ «سلطان الله»، وهذا تعبير استعمله هو عليه السلام كما في قوله: وإنّ في سُلطان الله عِصمةً لأمركم، فأعطُوه طاعتَكم غيرَ مَلُومة ولامُستكرَهٍ بها. ثمّ قال عليه السلام: والله لَتفْعَلُنّ أو لَيَنْقُلَنّ اللهُ عنكُم سُلطانَ الإسلام، ثمّ لايَنقلُه إليكم أبداً حتّى يأرِزَ الأمرُ إلى غيركُم[3].

ويتعذّر عنده عليه السلام إقامةُ العدل وإصلاح الاعوجاج الذي طرأ على الحقّ، مع وجود الاختلاف والتفرقة بين الأمّة: أيّتُها النفوسُ المُختلفة، والقلوبُ المتشتّتة، الشاهدةُ أبدانُهم، والغائبةُ عنهم عقولُهم، أظْأرُكم علَى الحقّ وأنتم

---

١ – نفسه : الخطبة ١٢٠.

٢ – نفسه: الخطبة ١٢٧.

٣ – نفسه: الخطبة ١٦٩.

تَنْفِرُون عنه نُفورَ المِعزى مِن وَعْوعـةِ الأسَـد! هيهـات أن أُطْلَـعَ بِكُـم سَـرارَ العدل، أو أقيمَ اعْوِجاجَ الحقّ[١].

الفساد في المجتمع الدينيّ ممهِّد لانحلال السيادة الدينيّة

جاء تركيز الإمام عليه السلام فـي انتشـار الفسـاد فـي ذلـك المجتمـع بتعبيـرات متنوّعة، وأيّ فساد؟ إنّه الفساد النابع من ضعف التـديّن فـي المجتمـع وقلّـة اعتناء الناس بأحكام الشريعة. وسبّب رواج المنكرات وترك التناهي عنها فـي بروز الفساد بين الناس، وفي تضعضع قواعد المجتمع الـدينيّ عمليّـاً. وكلّمـا فشا الفساد في أركان المجتمع، أصبحت الحكومة الدينيّـة تواجـه الصـدمات أكثر فأكثر. وللإمام عليه السلام تعبيـرات صـريحة فـي الخطبـة (١٢٩) حـول انتشـار الفساد في المجتمع؛ ذلك الفساد الذي يُخرج المجتمـع مـن قداسـته للـدين، ويستتلي الفقرَ والإجحافَ، والتعدّي على حقوق الآخرين، والصممَ عن سماع النصائح والمواعظ. فمثل هذا المجتمع لايمكن أن يتحمّل رجلاً مثـلَ الإمـام عليّ بن أبي طالب. وقد قال عليه السلام في الخطبة المذكورة: وَقَد أصبَحْتُم في زَمـنٍ لايزدادُ الخيرُ فيه إلّا إدباراً، ولا الشرُّ فيه إلّا إقبالًا، وهنا يطمـع الشـيطان فـي هلاك الناس، وتقوى عُدّتُه، وبتعبيره عليه السلام [وحينئذٍ]: اضرب بطَرْفِك حيثُ شِئتَ مِن النّاس، فهَل تُبصِر إلّا فقيراً يُكابدُ فَقـراً، أو غَنيّـاً بـدّل نعمـةَ الله كُفْـراً، أو بخيلاً اتّخَذَ البُخْلَ بحقِّ الله وَفْراً، أوْ مَتمرِّداً كأنّ بأذُنِه عن سمعِ المَواعظ وَقْراً! وبعد ذلك، استقصى عليه السلام الأَخيار والصُلحاء، وأكّد في النهايـة خطـورة انتشـار الفساد، وقال: ظَهَرَ الفسادُ فَلا مُنكِرٌ مُغيِّر، ولا زاجِرٌ مُزْدَجِر، أفَبِهذا تُريدونَ أن

١ – نفسه، الخطبة ١٣١.

تَجاوِرُوا اللهَ في دارِ قُدْسِه، وتكونوا أعزَّ أوليائِه[1]؟!

شهادة الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام

لمّا كان الإمام عليه السلام يتهيّأ للتوجّه تِلقاءَ صفّين من أجل خوض حربٍ جديدة ضدّ معاوية، ضربه أشقى الناس عبد الرحمان بن مُلجَم المراديّ في فجر اليوم التاسع عشر من شهر رمضان المبارك سنة ٤٠هـ، وبعد ثلاثة أيّام استُشهِد صلواتُ الله عليه في الحادي والعشرين من الشهر المذكور.

نقل ابن سعد في طبقاته: أنّ ثلاثةً من الخوارج، وهم: عبد الرحمان بن ملجم المراديّ، والبرك بن عبد الله التميميّ، وعمرو بن بُكَير التميميّ، تعاهدوا وتعاقدوا ليَقتُلُنَّ: عليَّ بن أبي طالب، ومعاويةَ بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص. فقال عبد الرحمان: «أنا لكم بعليّ بن أبي طالب». فقَدِم الكوفة، «فلَقِي أصحابه من الخوارج فكاتَمَهم ما يريد، فكان يزورُهم ويزورونه، فَزارَ يوماً نفراً من «تيم الرباب» فرأى امرأةً منهم يُقال لها: «قطام بنت شجنة بن عَدِيّ»، وكان عليّ قتل أباها وأخاها يومَ النهروان، فأعجبَتْه فَخَطَبها، فقالت: لا أتزوّجكَ حتّى تُسمّي لي، فقال:لاتسأليني شيئاً إلّا أعطيتُكِ، فقالت: ثلاثة آلاف دينار، وقتل عليّ بن أبي طالب، فقال: والله ما جاءَ بي إلى هذا المِصر إلّا قتلُ عليّ بن أبي طالب[2]». وكان قد سمّ سيفه غير مرّة، فضربه به على رأسه الشريف، فاستُشهد عليه السلام لعمق الجُرح وسمِّ السيف. وقيل: إنّ ابن ملجم كان في تلك اللّيلة عند الأشعث بن قيس في بيته[3].

وهناك أخبارٌ مغرضة بأنّ الإمام عليه السلام تعرّض لهجوم ابن ملجم في مدخل

---

١ - نفسه: الخطبة ١٢٩.

٢ - **الطبقات الكبرى** ٣:٣٥ - ٣٨.

٣ - **مقتل الإمام أمير المؤمنين** عليه السلام:٣٦/ الرقم ١٣.

المسجد (داخل المسجد)[١]. وجاء في أخبارٍ أخرى مثلها أنّه هُوجم وهو يوقظ الناس للصلاة[٢]. وتشير المصادر التاريخيّة الموجودة إلى الخبر الأوّل غالباً. ويقابل ذلك أخبارٌ أخرى كثيرة وأكيدة تُفيد أنّه عليه السلام هُوجِمَ وهو مشغولٌ في صلاته. وقد أُثِرَ عن ميثم التمّار أنّ الإمام عليه السلام بَدأ بصلاة الصبح، فضربه ابن ملجم بالسيف بعد أن قرأ إحدى عشرة آيةً من سورة الأنبياء[٣]. وفي خبرٍ آخر عن أحد أحفاد جَعدة بن هُبيرة[٤]: أنّ ابن ملجم ضربه وهو عليه السلام في الصلاة[٥]، ونقل الشيخ الطوسيّ روايةً تُؤيّد هذا الخبر أيضاً.[٦] ونقل المتّقي الهنديّ أيضاً روايةً جاء في سياقها: أنّ ابن ملجم ضربه والإمام رافعٌ رأسه من السجود[٧]. وورد خبرٌ آخر عن ابن حنبل[٨]، وهو ما رواهُ ابن عساكر[٩] أيضاً، يدلّ على ما رُوِيَ آنفاً. وذهب ابنُ عبد البَرّ إلى وجود خلاف في ضربة ابن ملجم للإمام عليه السلام، أكانت في الصلاة أم قبلها؟ وأيضاً في إمامة الناس، أعيّن الإمام أحداً مكانه أم هو نفسه أتمّ الصلاة؟ ورأي الأكثريّة أنّه عيّن جَعدة بن هُبيرة مكانه لإتمام الصلاة. ونُقلت روايات كثيرة عن طريق أهل البيت عليهم السلام وأهل السنّة تدلّ على الوضع الروحيّ الخاصّ للإمام عليه السلام في تلك اللّيلة التي ضُرب في فجرها، منها: روايةٌ عن الإمام الباقر عليه السلام نقلها ابن أبي الدنيا، وهي تُخبر

---

١ - نفسه : ٢٩ / الرقم ٤،٣٥ / الرقم ١٢.

٢ - نفسه: ٢٨،٣٣/الرقم ١١.

٣ - نفسه: ٣٠/ الرقم٥.

٤ - جعدةٌ هذا هو ابن أمّ هاني، وكان يُصلّي مكان الإمام عليه السلام أحياناً، وجاء في بعض الأخبار أنّه أمّ الناسَ بعد ضربة الإمام عليه السلام، وواصل الصلاة.

٥ - نفسه: ٣٠/ الرقم ٦.

٦ - **أمالي الطوسيّ**:٢ / الرقم ١٨.

٧ - **كنز العمّال** ١٥:١٧٠. (الطبعة الثانية)؛ **الأمالي في آثار الصحابة**: ١٠٣-١٠٤.

٨ - **الفضائل**: ٣٨/ الرقم ٦٣ (طبع قمّ).

٩ - **ترجمة الإمام عليّ بن أبي طالب** ٣:٣٦١ (الطبعة الثانيّة).

بكلّ وضوحٍ وصراحةٍ عن علم الإمام عليه السلام بشهادته[١]، ولمّا ضُرب عليه السلام صاح: فُزْتُ وربِّ الكعبة[٢].

ونقل ابن أبي الدنيا وصيّة الإمام عليه السلام عن طرقٍ مختلفة، ويشمل قسمٌ منها القضايا الماليّة، وقسمٌ الوصايا الدينيّة، وقد أوصى عليه السلام فيها بوصايا، منها: صلة الرَّحِم، والأيتام، والجيران، والعمل بالقرآن، وإقامة الصلاة بوصفها عمودَ الدين، والحجّ، والصيام، والجهاد، والزكاة، وأهل البيت النبويّ الكريم عليهم السلام، والعباد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وجاء في هذا الخبر أنّه عليه السلام عَجِل إلى لقاء معبوده سبحانه وتعالى في أوّل اللّيلة الحادية والعشرين من شهر رمضان، وهو يقول: لا إلهَ إلّا الله، ويقرأ قوله تعالى: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ**﴾[٣]. وجاء في خبرٍ آخر: أنّ الإمامينَ الحسنَين عليهما السلام، ومحمّد ابن الحنفيّة، وعبد الله بن جعفر، وعدّةً من أهل البيت نقلوا جثمانه الطاهر ليلاً إلى خارج الكوفة - وهو الموضع الذي سُمِّيَ بالنجف - ودفنوه سرّاً، لئلّا ينبش الخوارج أو غيرهم - كبني أميّة - قبرَه الشريف[٤].

وورد في أخبار شهادته عليه السلام أنّ طائفةً من الغُلاة في المدائن لمّا سمعوا خبر شهادته لم يصدّقوا وردّوا ذلك. وهذه الطائفة تشبّث بها بعض وقالوا إنّها هي منشأ أفكار الغلوّ بين الناس. ويدلّ عدد من الأخبار المنقولة عن ابن أبي الدنيا على وجود شخصٍ يُدعى: ابن السوداء من قبيلة هَمْدان، وكانوا

---

١ - **الاستيعاب**: ٣٣ - ٣٤/ الرقم ١٢؛ ونقل أبو نُعَيم روايةً (نقلها غيره كثيراً): أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان أخبر الإمامَ عليه السلام بشهادته. (**معرفة الصحابة** ١:٢٩٥ - ٢٩٦) .

٢ - نفسه: ٣٩/ الرقم ٢٠، وفي هامشه عن: **الإمامة والسياسة**: ١٦٠، و**أنساب الأشراف** ٢:٤٩٩.

٣ - **مقتل الإمام أمير المؤمنين** عليه السلام: ٤٥ - ٤٦، والآيتان في سورة الزلزلة : ٧ و ٨ .

٤ - نفسه: ٧٩/ الرقم ٦٨.

يسمّونه: عبدَ الله بن سبأ. وذُكر في خبر آخر: عبد الله بن وهب السبئيّ، وأنّه هو الذي ادّعى ذلك الادّعاء في المدائن[١]. ويدلّ هذان الخبران على أنّ هذا الشخص ـ بل اسمه ـ مجهول لايُعرَف ، ووضّحنا ذلك سابقاً.

سيرة الإمام عليّ عليه السلام

لايتيسّر لنا هنا أن نَدرُس حياة الإمام عليه السلام ـ بوصفها أُسوةً ـ دراسةً شاملةً، بيَد أنّا نُشير فيما يأتي إلى نُبَذٍ قصيرةٍ منها يتبرّك كتابنا بذكرها.

إنّ الحياة السياسيّة والاجتماعيّة للإمام عليه السلام أسوةٌ في مُستوى المدينة الفاضلة، يُلحَظ فيها أمثلة ونماذج من صموده وثباته على حكم الله، وهي تبدو أنّها عسرة التطبيق على الآخرين، كما أشار عليه السلام نفسه إلى هذه النقطة في كتاب من كُتبه[٢]. من هنا، فإنّ حياته أسوةٌ بالغة الروعة لمن يريد التمسّك بها؛ كما أنّنا يجب أن نستلهم منها الدروس دوماً وأبداً، وما زال الطريق طويلاً إلى بلوغ ذلك. وبتعبير آخر أنّ سيرته عليه السلام هي أفضل السِّير التي خَبَرها الناس حتّى الآن على طول الحياة البشريّة، إنّها حياةُ إنسانٍ كامل ومثال حقيقيّ للإنسان الرّبانيّ، وفي عداد النوادر الذين يحقّ أن يُطلقَ عليهم اسم الإنسان بمعنى الخليفة الإلهيّ في الأرض، وقد بلغت هذه الحياة من الجذّابيّة مبلغاً أنّها حملت المُوالي على أن يبلغ به عليه السلام أعلى حدٍّ من الولاء، كما حملت المعادي على أن يبلغ بعدائه له الدرجة القصوى من العداء، فهو الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: يَهْلكُ فيك رجلان: مُحِبٌّ مُفْرِط، ومُبغِضٌ مُفرِط[٣]! فأبغضه العدوّ حتّى

---

١ - نفسه:٩٢/ الرقم ٨٥ و٩٦/ الرقم ٩١.

٢ - **نهج البلاغة**: الكتاب ٤٥.

٣ - هذا الحديث من الأحاديث التي تكرّرت في المصادر المعنيّة، والإمام عليه السلام قال أيضاً: يَهلِكُ فِيَّ رجلان: مُحِبٌّ مُفرِط ... ومبغضٌ مُفْرِط. **نهج البلاغة**: الخطبة ١٢٧.

أفرط في بغضه، لثباته عليه السلام على طريق الحقّ؛ وأحبّه المُوالي بسبب ذلك حُبّاً أفضى به إلى الإفراط.

ومن أحبّه عليه السلام ارتقى إلى درجة الشيعة المخلصين، وإذا غفل قليلاً، فإنّه يُمنى بالغلوّ. وقلّما نُسبت الألوهيّة إلى أحدٍ من الناس، لكنّ عليّاً صلوات الله عليه أصبح هدفاً لمثل هذه النسبة في مجتمع أبلغ الله سبحانه وتعالى تأكيد بشريّة رسوله الكريم صلى الله عليه وآله، بين ظهرانيه، وإن وقف الإمام عليه السلام من ذلك موقفاً شديداً.

ومن أهمّ المظاهر في حياة الإمام عليه السلام زهده الذي ملأ حياته كلّها، إنّه الزاهد الذي كان عنده كلُّ شيء، وله أن يملك كلَّ شيء، بيد أنّه أعرض عن كلّ شيء. وذات مرّة تحدّث جماعة عند عمر بن عبد العزيز عن الزهّاد، وتساءلوا عن أزهد الناس، فقال بعضهم: أبوذرّ، وقال غيرهم: عمر، فقال: عمر ابن عبد العزيز: أزهدُ الناس عليُّ بن أبي طالب عليه السلام[1].

وكان عليه السلام مَجْمعُ الفقراء حوله، يعاملهم برفقٍ ورحمة[2]. «وكان ربّما حضرت الصلاة، وقد غسل قميصه، فلا يكون عنده غيره فيلبسه قبل أن يجفّ، فيجفّفه وهو يخطب[3]». وذكر عليه السلام حياته البسيطة في «نهج البلاغة» مراراً، ولمّا رأى أحدُ أصحابه بساطة طعامه، قال له: يا أمير المؤمنين، أبالعراق تصنعُ هذا؟! العراق أكثرُ خيراً وأكثرُ طعاماً[4]... وكان الإمام عليّ عليه السلام أفضل مصداق للعمل بما كان يقوله في نهج البلاغة، حين أنكر على عثمان بن حُنَيف إجابته لوليمةٍ مثلاً، أو بما كان يقوله للناس في خُطَبه العامّة حول

١ – **المعيار والموازنة**: ٢٤٠.

٢ – نفسه: ٢٤٠.

٣ – نفسه: ٢٤١.

٤ – نفسه: ٢٤٩.

الدنيا.

قال الأسود بن قيس: «كان عليٌّ يُطعِم الناسَ بالكوفة بالرَّحبة، فإذا فَرَغ أتى منزله فأكل، فقال رجل من أصحابه: قلتُ في نفسي: أظنّ أمير المؤمنين يأكل في منزله طعاماً أطيب من طعام الناس، فتركتُ الطعام مع العامّة، ومضيتُ معه... فنادى: يا فضّة. فجاءت... فقال: غدّينا. فجاءت بأرغفة وبجرّة فيها لبن، فصبّتها في صحفة وثردت الخبز. [قال] فإذا فيه نُخالة، فقلتُ: ياأمير المؤمنين، لو أمرتَ بالدقيق فنُخِل، فبكى، ثمّ قال: واللهِ ما عَلِمتُ أنّه كان في بيتِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله مِنخَلٌ قطّ»[1].

وقال عُقْبة بن عَلقمة: «دخلتُ على عليّ عليه السلام فإذا بين يديه لبنٌ حامض آذتْني حموضته، وكِسَرٌ يابسة، فقلت: يا أمير المؤمنين، أتأكل مثل هذا؟! فقال: يا أبا الجَنُوب، رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يأكل أيبسَ مِن هذا، ويلبس أخشنَ مِن هذا [وأشار إلى لباسه]، فإن أنا لم آخذْ بما أخذ به خِفتُ أن لاألحقَ به»[2].

وأُتيَ عليه السلام بفالوذج فأبى أن يأكله، وقال: شيءٌ لم يأكلْ مِنه رسولُ الله صلى الله عليه وآله لا أُحبّ أن آكلَ منه»[3]. وهذا لايعني أنّ أكل هذه الأشياء غير صحيح، بل كان مهمّاً عنده عليه السلام اقتداؤه المحض لرسول الله صلى الله عليه وآله في كلّ شيء.

وحفل كتاب الغارات وغيره من المصنَّفات بأمثلة جمّة من هذا الغِرار. وقوله عليه السلام: أنا الّذي أهَنْتُ الدُّنيا[4]، آيةٌ على موقفه عليه السلام من الدنيا.

والبعد الآخر من حياته عليه السلام موقفُه من ولاته وعمّاله، والذي نعرف أمثلةً وافرةً منه في النصوص التاريخيّة، فقد كان عليه السلام مراقِباً لهم من كلّ جهة، وقد

---

١ - **أنساب الأشراف** ٢:١٨٧؛ وانظر: **الغارات** ١:٨٥، ٨٧، ٨٨.

٢ - **الغارات** ١:٨٥.

٣ - نفسه: ٨٨ - ٨٩ وانظر: هوامش الصفحتين المذكورتين.

٤ - **حياة الصحابة** ٢:٣١٠.

شهدت مدّة حكمه القصيرة كتباً عديدةً وبّخ بعضهم فيها. وجاءت يوماً سَودةُ بنت عُمارة الهَمْدانيّة إلى معاوية بعد شهادة الإمام عليه السلام، وكانت ممّن شهد حرب صفّين، فتحدّث معها حول صفّين شيئاً، وطلبت منه أن يعزل بُسْرَ بن أرطاة الذي ظلمهم وجار عليهم، فرفض! «فأطرقت إلى الأرض ساعةً، ثمّ رفعت رأسها»، وانشدت بيتَين من الشعر في مدح الإمام عليّ عليه السلام غيرَ مصرِّحة باسمه، فقال لها: «وَمَن هذا يا سودة؟ فقالت: هو واللهِ أميرُ المؤمنين عليّ بن أبي طالب، والله لقد جئتُه في رجلٍ قد كان ولّاه صدقاتِنا، فجار علينا، فجئتُ إليه فأصبته قائماً يصلّي... ثمّ أقبل عَليٌّ برأفة وتعطُّف، فقال: ألكِ حاجة؟ فقلتُ: نعم، وأخبرته الخبر، فبكى... ثمّ أخرجَ من جيبه قطعةَ جلد، وكتب إليه برعاية العدل. وقال فيه: فإذا قرأتَ كتابي هذا فاحفَظْ بما فيه، وبما يَدَيك مِن عملِنا حتّى يَقْدِمَ عليك مَن يقبضُه منك. ثمّ دفع الرقعة إليَّ... فجئت بالرقعة إلى صاحبه، فانصرف عنّا معزولاً»[1].

حبّ الإمام عليه السلام وطاعته للنبيّ صلى الله عليه وآله وتأثير ذلك فيه

بلغ الإمام عليه السلام الذُّروة في طاعته لرسول الله صلى الله عليه وآله، حتّى أمكننا أن نقول واثقين جازمين: لم يبلغ صحابيٌّ من الصحابة المخلصين ما بلغه عليه السلام من حبّه وطاعته له صلى الله عليه وآله. ولعلّ تصريح آية المباهلة بأنّه عليه السلام نفسُ النبيّ صلى الله عليه وآله مَسبَّب لهذا الأمر.

وكان عليه السلام يعبِّر عنه: خليلي، ويقول: فأمّا أنا فأصنعُ كما صنَعَ خليلي[2]. وإذا

---

١ - **الفتوح** ٣: ٩٠ – ٩٣. هكذا ورد في المصدر المذكور لا كما ذكره المؤلّف. المترجم

٢ - **الغارات** ١: ٤٨، وانظر: **الكافي** ٢: ٢٣٦. ومن الجدير ذكره أنّ أبا ذرّ وسلمان كانا أيضاً يستعملان كلمة «خليلي» حين ينقلان حديثاً عنه صلى الله عليه وآله. بشأن أبي ذرّ، انظر: **سبل السلام**، لابن حجر ٣: ٦٦؛ **فقه السنّة**، لسيّد سابق: ٤٢٢. وبشأن سلمان، انظر: **السرائر**، لابن إدريس

أراد الناس منه أن ينقل حديثاً عنهﷺ قال: سَمِعتُ أُخي، أو: سَمِعتُ خَليلـي، تعبيراً عن مراده[١].

وكانعليه السلام ينقل عنهﷺ الحديث في بعض المواطن قائلاً: سَمِعتُ حَبيبي[٢]. ولم يسلكعليه السلام في طاعته هذه طبعاً مسلكاً أخبارياً. وما ورد في نهـج البلاغـة أيضاً يدلّ على ما نقول. وجاء في الكلمة السابعة عشرة من كلماته القصارعليه السلام في نهج البلاغة لمّا سُئل عن قول رسول اللهﷺ: «غيِّروا الشَّـيب، ولا تَشَـبَّهوا باليهود»: إنّما قالﷺذلك والدِّينُ قُلّ، فأمّـا الآنَ وقـد اتّسـعَ نطاقُـه، وضَـرَب بجرانِه، فامرؤٌ وما اختار.

ويتسنّى لنا أن نتلمّس عشق الإمامعليه السلام، ومن ثمّ طاعته للنبيّﷺ في نهـج البلاغة، فقد كان رسول اللهﷺ مرادَه الحقيقيّعليه السلام، وكانعليه السلام يجدُ في التعريف بهﷺ بوصفه الموجودَ الأعلى والخاصّ، والأُسوة، والحقيق بالعشق والطاعة.

وسوف يستبين ما كان عليه الإمامعليه السلام من مواقف وتوجّهات خاصّة حيال النبيّﷺ حين نتعرّف على مواقف المخـالفين للطاعـة، أولئـك الـذين كـانوا لايرعَون حُرمةً للنبيّﷺ حتّى في كثيرٍ من المواقف الظاهريّـة ، ولـم يراعـوا

٦٥١:٣. بشأن عمّار بن ياسر: انظر: **وقعة صفّين**: ٣٤٢.

١ - **فضائل الأشهر الثلاثة**:١٠٩؛ **أمالي الشيخ المفيـد**: ٣٣٩؛ **خصـائص الأئمّـة**: ٦٢؛ **شـرح الـنهج** ٢٨٨:٢. وكان أبو هريرة يقول أحياناً: قال لي خليلي كذا . فغضبت عائشة منكلامـه وقالـت: خليله أبو بكر وحده! انظر: **عوالي اللآلئ** ٨٨:٣ (الهامش). وجاء في خبر آخر أنّ أبـا هريـرة حين قال: حدّثني خليلي، أنكر عليه الإمام علـيّ عليه السلام قـائلاً لـه: متـى كـان رسـول الله ﷺ خليلك؟ انظر: كتاب (**أبو هريرة**) ، للسيّد شرف الدين: ١٨٩ (عن **تأويـل مختلـف الحـديث** ، لابن قتيبة).

٢ - **كتاب من لا يحضره الفقيه** ٤١١:٤.

أيضاً أدب التعامل الإنسانيّ، أو أنّهم كانوا يتجاهلون أوامرَه صلى الله عليه وآله بذرائع واهية، كما تدلّ على ذلك أمثلة كثيرة، إذ كانوا يرونها صادرةً عنه بصفته الروحيّة البشريّة الخاصّة، ويقولون: إنّه يغضب ويسخط كسائر الناس، وليس كلامه كلُّه حجّةً علينا! أمّا الإمام عليه السلام، فهو على العكس، إذ لم ينظر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله نظرة الطاعة الشرعيّة فحسب، بل نظرة المريد العاشق للمراد المعشوق أيضاً وهو يراه منزَّهاً معصوماً عن كلّ شائبة، وكان عليه السلام يجهد في أن تكون أشياؤه كلّها كالتي كانت عند النبيّ صلى الله عليه وآله. ولم يقتصر هذا الأمر على الطاعة وحدها، بل على تحليل الوقائع الحادثة في عصره قياساً بحياة النبيّ صلى الله عليه وآله ودوره أيضاً.

ومن أهمّها معرفته التاريخيّة في موازنة زمن الجاهليّة بعصر البعثة والنبوّة، إذ كان عليه السلام يحاول أن يدلّ على دوره العظيم صلى الله عليه وآله في التطوّر الهائل الرائع الذي أوجده، وكيف غيّر ذلك المجتَمع الجاهليّ الطاغوتيّ إلى مجتمعٍ إسلاميّ. ولهذه النقطة أهميّة كبيرة عند الجيل الثاني والثالث اللّذين نشآ في عصر الخلفاء، ليعلموا من أيّ حضيضٍ خرج آباؤهم الأوّلون، وفي أيّ جوٍّ دخلوا، وفي أيّ جوّ يتنفّسون هم الآن؟ وجاءت مثل هذه التوضيحات في ما قاله عليه السلام في المبعث وأهميّة دور النبيّ صلى الله عليه وآله في موارد شتّى، في نهج البلاغة، بخاصّة أنّه عليه السلام كان يأتي بها في وصفه صلى الله عليه وآله، إذ سُنَّ أن تبدأ الخطب بحمد الله سبحانه، ثمّ الثناء على رسوله صلى الله عليه وآله، وهي ترتبط بنحوٍ عامّ بدوره صلى الله عليه وآله في إخراج الناس من ظلمات الجاهليّة إلى نور الإسلام.

ومن ذلك عبارات جميلة رائعة وردت في الخطبة (٨٩) من خطب النهج، حيث قال عليه السلام: أرسَلَه على حِينِ فَتْرةٍ مِنَ الرُّسُل، وطُولِ هَجْعةٍ مَنَ الأُمَم،

واعْتِزامٍ مِنَ الفِتن، وانتشارٍ من الأمور، وتَلَظٍّ مِنَ الحُروب، والدنيا كاسفةُ النور، ظاهرةُ الغُرور، على حِينِ اصفرارٍ مِن وَرَقِها، وإياسٍ مِن ثَمَرِها، وأغْورارٍ مِن مائِها. قد دَرَستْ مَنارُ الهُدى، وظَهَرَتْ أعلامُ الرَّدى، فهي مُتَجهِّمةٌ لأِهلها، عابِسةٌ في وَجْهِ طالبِها، ثَمرُها الفتنة، وطَعامُها الجيفة، وشِعارُها الخَوف، ودِثارُها السيف[1]!

وكذلك، فإنّ التصوير الذي رسمه صلوات الله وسلامه عليه في الخطبة الأُولى من خطب النهج يدلّ على نظرته القُدسيّة إلى النبوّة وموقعها في الحضارة البشريّة، وهذه الخطبة خطبةٌ جامعة بدأت بذكر خَلْق العالم، وانتهت بالفروع الفقهيّة، وتوسّطَها الحديثُ في دور الأنبياءعليهم السلام، وذكرعليه السلام أنّ الهدف من بعثة الأنبياء هو لِيَستأدُوهُم مِيثاقَ فِطْرتِه. ثمّ عرّجعليه السلام على الظروف التي ظهر فيها المصطفى محمّد بنُ عبد اللهصلى الله عليه وآله : إذ بُعِثَ وأهلُ الأرضِ يَومئذٍ مِلَلٌ متفرّقة، وأهواءٌ منتشِرة، وطَرائقُ مُتَشتّتة... فَهَداهُم بهِ مِن الضَّلالة، وأنقَذَهُم بمكانِه مِن الجَهالة. وفي الخطبة (١٨٥) إشارات إلى هذا الأمر أيضاً، وهي من نوع الوصف الأسمى الذي عرضه بشأن النبيّصلى الله عليه وآله في بداية الخطب[2].

وقد قُبِضصلى الله عليه وآله مُخلّفاً تراثاً [يتوعّر إحصاؤه على العادّين].

ويرى الإمامعليه السلام أنّ أوّل تراثٍ خلّفهصلى الله عليه وآله للأُمّة هو القرآن الكريم: كِتابَ ربِّكُم فِيكُم، مُبيِّناً حَلالَه وحَرامَه، وفرائِضَهُ وفَضائِلَه[3]... كما خلّفصلى الله عليه وآله أشرف

---

١ – **نهج البلاغة**: الخطبة ٨٩.

٢ – نفسه: الخطبة ١٨٥.

٣ – نفسه: الخطبة ١.

السُّنَن. وأشارعليه السلام في هذه الخطبة المباركة إشارة مجملة إلى علاقة القرآن بالسنّة[١]، وتحدّث في مواضع كثيرة حول أهل البيتعليهم السلام بوصفهم التراثَ النبويّ الآخرَ الذي يتعيّن على الناس الاقتداء به والأخذ عنه والتمسّك به.

وقدّمعليه السلام في الخطبة (٩٤) بياناً لنبوّة الأنبياء، وسبب بعثتهم، وتسلسلهم بين مختلف الأقوام، فقال: حتّى أفْضَتْ كرامةُ الله سبحانه وتعالى إلى محمّدٍصلى الله عليه وآله، فأخرجَه مِن أفضلِ المعادنِ مَنْبتاً، وأعزِّ الأرُوماتِ مَغْرساً... عِتْرتُه خَيرُ العِتر. ثمّ ذكر دوره كإمام، وأثنى على سيرته وسنّتهصلى الله عليه وآله، فقال: فَهُوَ إمامُ مَنِ اتّقى، وبَصيرةُ مَنِ اهتدى، سِراجٌ لَمَعَ ضَوْؤُه، وشِهابٌ سَطَعَ نُورُه، وزَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُه.

ثمّ قال: سِيرتُه القَصْد، وسُنّتُه الرُّشْد، وكلامُهُ الفَصْل، وحُكْمُه العَدْل[٢].

وألمععليه السلام في الخطبة (٩٥) بالبرهة العصيبة التي كانت فيها البعثة، مشيراً بأدبه الرائع الجميل إلى الوضع الجاهليّ وغلبة الأهواء، وأنّ النبيّصلى الله عليه وآله جاء فَبالَغَصلى الله عليه وآله في النّصيحة، ومَضى عَلَى الطَّريقة، ودَعا إلَى الحِكْمةِ والمَوعظةِ الحَسَنة[٣].

وأعادعليه السلام في الخطبة (١٠٠) الكلام حول تراثهصلى الله عليه وآله في الأمّة، وقال: وخَلَّفَ فِينا رايةَ الحقّ، مَنْ تَقَدَّمَها مَرَق، ومَنْ تَخلَّفَ عَنْها زَهَق، ومَنْ لَزِمَها لَحِق[٤].

---

١ - نفسه.

٢ - نفسه: الخطبة ٩٤.

٣ - نفسه: الخطبة ٩٥.

٤ - نفسه: الخطبة ١٠٠.

فالناس من السنّة النبويّة الشريفة ثلاثة في ضوء هذا الكلام الشريف:

١- المتقدّمون عليها.

٢- المتخلّفون عنها.

٣- اللّازمون لها.

ويؤكّدعليه السلام هنا كَونَ النبيّ صلى الله عليه وآله أُسوة، وهذا لايعني في الحقيقة إلّا إطاعةَ سُنَنه صلى الله عليه وآله. وهو يقوم على قوله تعالى: ﴿لَقَد كانَ لَكُمْ فى رَسُولِ اللهِ أُسْوةٌ حَسَنةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ واليَوْمَ الآخِرَوذَكَرَاللهَ كَثيراً﴾[1]. ويدلّ هذا الموضوع من الامامعليه السلام ـ وهو الذي كان يحبّ رسول الله صلى الله عليه وآله حبّاً خالصاً، ويؤكّد بالغ التأكيد المفهوم القرآنيّ بكَونه صلى الله عليه وآله أسوةً ـ على عنايتهعليه السلام باتّباع السيرة والسنّة النبويّة.

وفي الخطبة (١٦٠) يبدأعليه السلام بتعبير عامّ قائلاً: ولَقد كانَ في رسول الله صلى الله عليه وآله كافٍ لكَ في الأُسْوة[2]. ثمّ فصّل الكلام في أبعاد حياته الشريفة، إذ يوضّح هذا الموضوع بتأكيد أكثر، ويقول آمِراً مُوصياً: فَتَأسَّ بِنَبِيِّك الأطيبِ الأطْهر صلى الله عليه وآله، فإنّ فيهِ أُسْوةً لِمَنْ تأسّى، وعَزاءً لِمَنْ تعزّى، وأحبُّ العِبادِ إلَى الله المتأسّي بِنَبيِّه، والمُقْتَصُّ لأثَرِه. وتبسّط في كلامه حول حياة النبي صلى الله عليه وآله، وهو كلام في غاية اللّطافة والجمال. وكان مِن تأكيدهعليه السلام موضوعُ إعراضه صلى الله عليه وآله عن الدنيا، وأنّه لم يتعلّق بها أساساً، ولم يُقبل قلبُه على زخارفها، بل لم يتحمّل رؤية سترٍ منقوش على باب بيت إحدى أزواجه، فطلب منها أن تغيّبه عنه لئلّا

---

١ - الأحزاب: ٢١.

٢ - **نهج البلاغة**: الخطبة ١٦٠.

يذكر الدنيا وزخارفها إذا نظر إليه. قال عليه السلام مؤكِّداً: ولَقد كانَ في رسولِ الله صلى الله عليه وآله ما يَدُلُّك عَلى مَساوئِ الدُّنْيا وعُيُوبها. ثمّ تساءل عليه السلام: فَلْيَنظرْ ناظرٌ بعقلِه: أكرمَ اللهُ محمّداً أمْ أهانَه؟! وبيِّنٌ أنّ الله تعالى أكرمه، فخيرٌ للمؤمن أن يتأسّى بنبيّه. فَتأسّى متأسٍ بِنَبيِّه، واقْتَصَّ أثَرَه، وولَجَ مَوْلجَه وإلّا فَلا يأمَنِ الهَلَكَة... فَما أعْظمَ مِنّةَ الله عندَنا حينَ أنْعمَ عَلَينا بِهِ سَلَفاً نَتّبِعُه، وقائداً نَطَأُ عَقِبَه[1].

ونحن نعلم أنّه عليه السلام كان ممّن أكثَرَ في وصفه صلى الله عليه وآله، ثمّ حفلت كتب الشمائل بوصفه عليه السلام له صلى الله عليه وآله[2].

والبعد الآخر لروح طاعته ونظرته المنقطعة العاشقة عليه السلام إلى النبيّ صلى الله عليه وآله هي موازنة عصره عليه السلام بعصره صلى الله عليه وآله، فبيّن في سياق ذلك ما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله من أسرار حول مستقبل الأمّة الإسلاميّة.

وكان عهد النبيّ صلى الله عليه وآله ـ مع جميع ما كان فيه من نقائص ومصاعب ومنافقين ـ عهداً جميلاً صالحاً للاقتداء عند أمير المؤمنين عليه السلام، وطالما كان يُوازن زمانه عليه السلام بزمانه صلى الله عليه وآله، ويسعى إلى عرض الفوارق الموجودة بين مُجتمعَيهما. وقد تطرّق عليه السلام في كثيرٍ من المواطن إلى ابتعاد المجتمع عن الإسلام الأصيل، وأنّه لم يَبْقَ منه إلّا اسمه ورَسْمُه، وأنّ الناس عادوا بَدواً

---

١ – نفسه: الخطبة ١٦٠.

٢ – عن عبد الله بن عِمران، عن رجلٍ من الأنصار: أنّه سأل عليّاً في مسجد الكوفة عن نعت رسول الله صلى الله عليه وآله وصفته، فقال: كانَ رسُول الله صلى الله عليه وآله أبيضَ اللّون، مُشْرَباً حُمرة، أدعجَ العين، سبطَ الشَّعر، كثَّ اللّحية، سَهْلَ الخدّ، ذا وَفْرة، دقيق المَسرُبَة، كأنّ عُنُقَهُ إبريقُ فضّة، له شعر من لَبّته إلى سُرّته يجري كالقضيب، ليس في بطنه ولا صدره شعر غيره، شَثْنَ الكفّ والقَدَم، إذا مشى كأنّما ينحدرُ مِن صَبَب، وإذا قام كأنّما يَنقَلِعُ من صَخْر، إذا التفتَ التفتَ جميعاً، كأنّ عَرَقَهُ في وجهه اللّؤلؤ،... صلى الله عليه وآله (**الطبقات الكبرى** ١: ٤١٠)

أعراباً. وحفلت كلماته عليه السلام ببيان الابتعاد عن القيم في مواضعَ كثيرة، فدلّ عليه السلام على زوال تلك القيم في مُجتمعه قياساً بعصر رسول الله صلى الله عليه وآله.

وذكر عليه السلام في الخطبة (٥٦) العصرَ النبويّ، وكيف كان الصحابة يُقاتلون آباءَهم وإخوانهم وبني أعمامهم من أجل الإسلام، وكانت نتيجة عملهم هذا زيادة إيمانهم وتسليمهم وثباتهم وصبرهم: ولَقَد كُنّا معَ رسُول الله عليه السلام نَقْتُل آباءنا وإخوانَنا وأعمامَنا، ما يزيدُنا ذلك إلّا إيماناً وتسليماً، ومُضِيّاً علَى اللَّقَم، وصَبراً على مَضَضِ الألَم، وجِدّاً في جهاد العدوّ. وبعد ذلك ذهب عليه السلام إلى أنّ هذا الشعور الذي كان خالصاً لِلّه والإسلام هو السببُ الأصليّ في نصر الدِّين يومئذ. فَلَمّا رَأى اللهُ صِدْقَنا، أنزلَ بعدُوِّنا الكَبْت، وأنزَلَ عَلَينا النَّصْر، حتَّى استقرّ الإسلامُ مُلْقِياً جِرانَه... ثمّ قال عليه السلام: ولَعَمْري لَو كُنّا نأتي ما أتيتُم، ما قام للدِّينِ عمود، ولا اخْضَرَّ للإيمان عُود. وأيْمُ الله، لَتحْتَلِبُنَّها دَماً، ولَتُتْبِعُنَّها نَدَماً[١]!

وحاول الإمام عليه السلام في موقفه من الخوارج أن يعرض مرّةً أخرى نوعاً من التفاوت بين عصره وعصر النبيّ صلى الله عليه وآله، ففي ذلك اليوم كان الجميع يقاتلون أعداءَ الإسلام بقلوبٍ متآلفةٍ في طريق الدين، حتّى لو كان الأعداء آباءَهم أو إخوانهم أو أعمامهم. أمّا اليوم، فإنّ القتال نشب بين المسلمين أنفسهم، والجبهة المعارضة هي جبهةٌ - في الظاهر - مسلمةٌ أيضاً، وهذه مشكلة أساسيّةٌ. وعرض عليه السلام هذا المضمون في الخطبة (١٢٢)، فقال: فَلَقَدْ كُنّا معَ رسُول الله صلى الله عليه وآله، وإنّ القتلَ لَيدُورُ علَى الآباء والإخوان والقَرابات، فما نَزدادُ

---

١ - **نهج البلاغة**: الخطبة ٥٦.

على كلِّ مُصيبةٍ وشدّة إلّا إيماناً ومُضِيّاً علَى الحقّ، وتسليماً لِلأمر، وصبراً على مَضَضِ الجراح، ولكنّا إنّما أصبَحْنا نقاتلُ إخواننا في الإسلام على ما دَخَلَ فيه مِن الزَّيغ والاعْوِجاج والشُّبهةِ والتأويل. ثمّ تحدّث حول ركيزة تجمع الفريقين، وتكون وسيلةً لإقرار الاتّحاد[١].

ولمّا رأى عليه السلام في الأيّام الأخيرة عصيان أصحابه، صرّح في الخطبة التي شبّههم بها بربّاتِ الحِجال، بأنّ موقفه هو الموقفُ الصحيح على عكس عامّة الناس، فقال: وإنّي لَعلى بيّنةٍ من ربّي ومنهاجٍ من نبيِّي. وإنّي لَعلَى الطريقِ الواضحِ أَلْقُطُهُ لَقْطاً[٢]. ثمّ بيّن الوضع في حياة النبيّ صلى الله عليه وآله في سياق وصيّته للناس بأن يلزموا منهج أهل البيت عليهم السلام، فقال: لَقَد رأيتُ أصحابَ محمّدٍ صلى الله عليه وآله، فما أرى أحداً يُشْبِهُهُم مِنكُم! لَقَد كانُوا يُصبِحون شُعْثاً غُبْراً، وقد باتُوا سُجَّداً وقياماً، يُراوِحُون بينَ جِباهِهِم وخُدودِهِم، ويَقِفُون على مِثْل الجَمْر مِن ذِكْرِ معادِهِم! كأنّ بينَ أعينهم رُكَبَ المِعْزى مِنْ طُول سجودِهِم! إذا ذُكِر اللهُ هَمَلَتْ أعينُهم حتّى تَبُلَّ جُيوبَهُم، ومادُوا كما يَميدُ الشَّجَرُ يومَ الرِّيحِ العاصف، خوفاً مِن العقاب، ورجاءً للثّواب[٣]!

أمّا علاقته الخاصّة عليه السلام بالنبيّ صلى الله عليه وآله، فهي من الملاحظات التي تعكس أبعاداً أُخرى من ولائه ومحبّته وطاعته عليه السلام له، وكان عليه السلام يشعر بالقرابة الرُّوحيّة والنسبيّة معاً مِن رسول الله صلى الله عليه وآله، فلمّا كان معه منذ نعومة أظفاره، ثمّ صدّقه بعد

---

١ - نفسه: الخطبة ١٢٢.

٢ - نفسه: الخطبة ٩٧.

٣ - نفسه.

مبعثه مباشرةً، ولازمه في جميع لحظات حياته، فقد تولّد فيه شعور خاصّ، عبّرعليه السلام عنه في الخطبة القاصعة (الخطبة ١٩٢) قائلاً: وقَدْ عَلِمتُم مَوْضعي مِن رسول اللهصلى الله عليه وآله بالقرابةِ القريبة، والمَنزلةِ الخَصِيصة، وَضَعَني في حِجْرِهِ وأنا ولدٌ يَضُمُّني إلى صدرِه، ويَكنُفُني في فراشِه... ولَقَد كنتُ أتَّبِعُهُ اتّباعَ الفَصيلِ أثَرَ أمّة، يَرفَعُ لي في كلٍّ يومٍ مِن أخلاقِه عَلَماً، ويأمُرُني بالاقتداءِ بِه. ولَقَد كان يُجاورُ في كلِّ سَنَةٍ بحراءَ فأراهُ، ولايَراهُ غيري. ولم يَجمعْ بيتٌ واحدٌ يومئذٍ في الإسلام غيرَ رسولِ الله - صلى الله عليه وآله- وخديجةَ وأنا ثالثُهما. أرى نُورَ الوَحي والرِّسالة، وأشُمُّ ريح النُّبوَّةِ. ثمّ أشارعليه السلام إلى أنّه سمع رنّةَ الشيطان حين نزل الوحيُ على رسول اللهصلى الله عليه وآله، وقال: قال لي رسول اللهصلى الله عليه وآله: إنّك تسمعُ ما أسمع، وتَرى ما أرى. ثمّ نقلعليه السلام واقعةً لجّ فيها المشركون وعَتَوا لمّا أراهمُ النبيّصلى الله عليه وآله معجزةً من معجزاته، فسَمَّوه «ساحراً كذّاباً»، وقالوا: وهل يُصدّقُك في أمرِك إلّا مثل هذا! (يعنون الإمامَعليه السلام). وقال الإمامعليه السلام: وإنّي لَمِنْ قومٍ لا تأخذُهم في اللهِ لَومَةُ لائم، سِيماهُمْ سِيما الصِّدّيقين، وكلامُهم كلامُ الأبرار، عُمّار اللّيلِ ومَنارُ النهار، مُتمسّكونَ بحبلِ القرآن؛ يُحيُونَ سُنَنَ الله وسُنَنَ رسولِه[1].

وسَئمعليه السلام من دهره، وتبرّم من الوضع الذي كان يَعيشه، ورأى النبيّصلى الله عليه وآله في منامه، فشكا إليه ما لَقيَه من أمّته من الأوَد واللّدَد - وهو ما ذكره في الكلام (٧٠) من نهج البلاغة- فقال له النبيّصلى الله عليه وآله: ادْعُ عَليهم، فقلتُ: أبْدَلَني اللهُ بِهِم خيراً منهم، وأبدلَهُم بي شَرّاً لَهُم مِنّي[2].

١ - نفسه: الخطبة ١٩٢.

٢ - نفسه: الخطبة ٧٠.

وكان عليه السلام يعلم أنّه أوّل مَن صدّق بالنبيّ صلى الله عليه وآله، ويعلم أنّه المعنيّ في أن يُحافظ على عَهده في التمسّك بسيرته صلى الله عليه وآله، فحين نبّه عليه السلام في الخطبة (١٣١) على رغبته عن الحكومة، وأنّ الحكومة هي لإحياء الدِّين وإصلاح البلاد، قال: اللّهم إنّي أوّلُ مَن أناب، وسَمِعَ وأجاب، لَم يَسبِقْني إلّا رسولُ الله صلى الله عليه وآله بالصّلاة[1].

وأشار عليه السلام في كتابه إلى عثمان بن حُنيف (الكتاب:٤٥) إلى أنّ إعراضه عن الدنيا متابعٌ لإعراض رسول الله صلى الله عليه وآله، قائلاً: وأنا مِن رسولِ الله كالضَّوْء مِنَ الضَّوء، والذِّراعِ مِنَ العَضُد. ثمّ أكّد عليه السلام ذلك قائلاً: والله لو تَظاهَرتِ العربُ على قِتالي لَما ولَّيتُ عنها، ولَو أمْكَنتِ الفُرَصُ مِن رقابِها لَسارعْتُ إليها[2].

واستند عليه السلام إلى السيرة النبويّة الشريفة في خطابه للخروج (الخطبة ١٢٧) حين انتقدوا بعض أعماله، ولاسيّما عمله مع البغاة وتعامله معهم كمسلمين، فقال: وقَدْ عَلِمْتُم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله رَجَم الزاني المُحْصَن، ثمّ صلّى عليه، ثمّ ورّثهُ أهلَه؛ وقتل القاتلَ وورّثَ ميراثَه أهلَه. وقَطَع السارقَ وجَلَد الزاني غير المُحصَن، ثمّ قَسَم عَلَيهما مِنَ الفَيْء، ونَكَحا المسلمات، فأخَذَهم رسولُ الله صلى الله عليه وآله بذنوبهم، وأقام حقّ الله فيهم، ولم يَمنَعْهُم مِن الإسلام، ولَم يُخرِجْ أسماءَهُم مِن بينِ أهله[3]. ذلك أنّ الديوان كان في زمن عمر قد نُظّم على أساسٍ قبليّ. والقصد هو أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله لم يحرمهم من حقوق المواطنة

---

١ - نفسه: الخطبة ١٣١.

٢ - نفسه: الكتاب ٤٥.

٣ - نفسه: الخطبة ١٢٧.

الإسلاميّة.

وهكذا كان الإمامعليه السلام يجدّ في أن يُسند سيرته العمليّة إلى السيرة النبويّة، ويجعلَها مرتكزاً لسيرتهعليه السلام.

ورسم الإمامعليه السلام صورةً واضحةً لوضع الأمّة في عصره، وذلك على أساس المغيّبات والأسرار التي كان رسول اللهصلى الله عليه وآله قد سرّه بها. فإنّه صلى الله عليه وآله ـ كما نعلم ـ قد قال له: تُقاتِلُ الناكثين، والقاسطين، والمارقين. وقالعليه السلام مرّةً: إنّه لَعهدُ النبيّ صلى الله عليه وآله أنّ الأُمّة ستغدرُ بي[1]. وهو نفسه قد رسم صورةً مستقبليّة لحال الأُمّة، مُضافاً إلى هذا، أنّهعليه السلام نقل في الخطبة (١٥٦) خاطرةً ترتبط بالآية الكريمة: ﴿أَحَسِبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا وَهُم لا يُفْتَنُون﴾[2]. فقال: عَلِمتُ أنّ الفتنة لاتَنْزلُ بنا ورسولُ اللهصلى الله عليه وآله بين أظهُرنا، فَقُلتُ: يا رسول الله، ما هذه الفتنةُ التي أخبرَكَ اللهُ تعالى بها؟ فقال: «يا عليّ، إنّ أُمّتي سيُفتَنون مِن بعدي »، فقلتُ: يا رسول الله، أوَليس قد قُلتَ لي يومَ أُحُدٍ حيثُ استُشهدَ مَن استُشهدَ مِن المسلمين، وحيزَت عنّي الشهادة، فشَقَّ ذلك عليَّ، فَقُلتَ لي: «أبْشِرْ، فإنّ الشهادة مِن ورائِك»؟! فقال لي: «إنّ ذلك لكذلك، فكيف صَبرُك إذن»؟! فقلتُ: يا رسول الله، ليس هذا مِن مواطنِ الصبر، ولكنْ مِن مواطن البشرى والشُّكْر. ثمّ أخبره النبيّصلى الله عليه وآله ما رسم له صورة لعصره الوبيلعليه السلام، فقال له بشأن الفتنة المذكورة: يا عليّ، القوم سيُفتَنون بأموالِهم، ويَمُنُّون بدِينِهم على ربِّهم، ويَتمنَّون رحمتَه، ويأمَنُون سَطوته، ويستحلّون حرامَه بالشُّبُهات الكاذبة والأهواء الساهية، فيَستحلّون الخمرَ بالنبيذ، والسُّحتَ بالهديّة، والرِّبا بالبيع، قلت: يا رسول الله، فبأيّ المنازل أُنزِلُهم عندَ ذلك: أبِمنزلةِ ردّةٍ أم بمنزلة فتنة؟

---

١ - **الغارات** ٢:٤٨٦.

٢ - **العنكبوت**: ٢.

فقال: بمنزلة فِتنة[1].

مع هذا كلّه، كان أقصى جهده عليه السلام أن يجعل نفسه مطيعاً للنبيّ صلى الله عليه وآله، فيهدي الناسَ إلى الصراط المستقيم. وقد أشار في الخطبة (١٦٩) إلى أنّ مناوئيه سخطوا إمارته، وأنّه سيتحمّلهم ما لم يفرّقوا جماعة الأمّة ووحدتها وسَأصبِرُ ما لَم أُخَفْ عَلى جَماعتِكُم. ثمّ قال في حقوق الناس على الوالي: ولَكُم عَلَينا العملُ بكتابِ الله تعالى وسيرةِ رسول الله صلى الله عليه وآله والقيامُ بِحقِّه، والنَّعْشُ لِسُنّته[2].

وكان عليه السلام يرى نفسه سالكاً سبيلَ محمّدٍ صلى الله عليه وآله، وأنّه لم يتجاوز السنّة النبويّة قيد أَنْمُلة، فقال عليه السلام في الخطبة (١٩٧): ولَقَدْ عَلِم المُسْتَحفَظون مِن أصحابِ محمّد صلى الله عليه وآله أنّي لَم أَرُدَّ عَلَى اللهِ ولا على رسولِه ساعةً قطّ. ولَقَد واسَيْتُه بِنَفْسي في المواطنِ الّتي تَنْكُصُ فيها الأبطال، وتَتأخّرُ فيها الأقدام، نجدةً أكرمَني اللهُ بِها.

وذهب عليه السلام إلى أنّ قُربه من النبيّ صلى الله عليه وآله ظلّ حتّى اللّحظات الأخيرة، فقال: ولَقَد قُبِضَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وإنّ رأسَه لَعلى صَدْري. ولَقَد سالَتْ نفسُه في كفّي، فأمرَرْتُها على وَجْهي. ولَقد وُلّيتُ غُسلَهُ صلى الله عليه وآله والملائكةُ أعواني. فيدلّ عليه السلام بهذا الكلام على أنّه أولى الناس برسول الله صلى الله عليه وآله. أي أنّه الوفيّ الصادق باتّباعه للنبيّ صلى الله عليه وآله، وأنّه ضحّى بكلّ شيءٍ من أجله صلى الله عليه وآله، فهو كما قال عليه السلام: إنّي لعلى جادّة الحقّ، وإنّهم لعلى مَزَلّةِ الباطل[3]، أي أنا على الصراط المستقيم وغيري

1 – **نهج البلاغة**: الخطبة ١٥٦.

2 – نفسه: الخطبة ١٦٩.

3 – نفسه: الخطبة ١٩٧.

على طريق الباطل؛ لأنّي أطيع النبيّ صلى الله عليه وآله وهم قد عَصَوه وخالفوه.

وقال عليه السلام بعد خلافته مخاطباً طلحة والزبير اللّذَين أرادا منه أن يعمل على خلاف السُّنّة النبويّة، ويتبعَ سيرة الخلفاء الثلاثة: فَلمّا أفْضَت إليَّ نَظرتُ إلى كتابِ الله وما وَضَعَ لَنا، وأمَرَنا بالحُكْم به فاتّبعْتُه، وما استنّ النبيُّ صلى الله عليه وآله فاقتَدَيْتُه، فَلَم أحتَج في ذلك إلى رأيكُما، ولا رأيِ غيرِكُما [1]. (الكلام ٢٠٥).

وأكّد في الخطبة (١١٠) مشيراً إلى الأحكام الإلهيّة وعلل تشريعها، ولزوم رعايتها: واقْتَدُوا بِهَدْيِ نَبيِّكُم فإنّه الهَدْي، واسْتَنُّوا بسُنّتهِ فإنّها أهْدَى السُّنن [2].

وكان عليه السلام ذا حرصٍ خاصّ حيالَ السُّنن والأحاديث النبويّة، فقد تحدّث في الخطبة (٢١٠) حول كذب الرُّواة على رسول الله صلى الله عليه وآله، وتقسيم الكذّابين تبعاً لدوافعهم، وذكر بعض الصحابة الذين كانوا يغتنمون كلّ فرصةٍ من أجل حفظ الأحاديث النبويّة، فقال: حتّى إنْ كانوا لَيُحبُّونَ أن يَجِيءَ الأعرابيُّ والطارئ فيَسألَه عليه السلام حتّى يَسمَعُوا، وكان لا يَمرُّ بي مِن ذلك شيءٌ إلّا سألتُه عنه وحَفِظْتُه [3].

وتحدّث عليه السلام في الخطبة (٣٧) في منزلته، وكيف أنّ الجميع قد فشلوا [وضَعُفوا] حين قام بالأمر، وأنّه كالجَبل لاتحرّكه العواصف، وأنّه دافعَ عن الضعيف والذليل اللّذَين ضاعت حقوقُهما، ثمّ قال: أتَراني أكْذِبُ على رسولِ الله صلى الله عليه وآله؟! والله لأنا أوّل مَن صدّقَه، فَلا أكونُ أوّلَ مَن كَذَبَ عليه [4].

---

١ - نفسه: الخطبة ٢٠٥.

٢ - نفسه: الخطبة ١١٠.

٣ - نفسه:الخطبة ٢١٠.

٤ - نفسه: الخطبة ٣٧.

وذكر عليه السلام في الخطبة (٨٩) أنّ رسالته هي إبلاغ السنّة النبويّة إبلاغاً تامّاً للناس، وأشار إلى الجيل الماضي طالباً من جيله أن ينظر في أحوال آبائه وأجداده، ويعلم أنّ كلّ ما أسمعهم النبيّ صلى الله عليه وآله، هو عليه السلام مُسْمِعُهم أيضاً: واللهِ ما أسْمَعَكمُ الرَّسُولُ شيئاً إلّا وها أنا ذا مُسْمِعُكُمُوه.[١]

وأشار عليه السلام في الخطبة (١٦٦) إلى اعوجاج الناس، ونبّههم على أنّهم إن اتّبعوه سلك بهم منهاج الرَّسُول، فيُكْفَوا مؤونةَ الاعتساف، ويَنبذوا الثِّقْلَ الفادح عن الأعناق.[٢]

وتحدّثنا من قبل أيضاً حول تحذير الإمام عليه السلام من البِدع، وهذا القسم من كلامه عليه السلام يدعم موقفَه المطيع وتبعيّتَه الخالصة لرسول الله صلى الله عليه وآله.

وكان عليه السلام يجهد في أن يقتديَ بالنبيّ صلى الله عليه وآله في جميع حالاته ومواقفه وسُننه، فعندما كان يركب الفرس، يقرأ: الحمدُ لله الّذي أكْرَمَنا وَحَمَلَنا فِي البَرِّ والبَحْر، ورَزَقَنا مِنَ الطيّبات... ثمّ يقول: كذا فعَلَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وأنا رديفُه[٣]. وقد صرّح الأئمّة عليهم السلام في مواطن أخرى أنّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام لم يُفْتِ برأيه، بل كانت فتواه كلامَ النبيّ صلى الله عليه وآله[٤]. وقد بلغ حبّه عليه السلام له صلى الله عليه وآله أنّ نقش خاتمه يومَ مصالحة أهل الشام : محمّدٌ رسولُ الله صلى الله عليه وآله[٥]. وجاء في روايةٍ أخرى ما نصّه: لم يُطقْ أحدٌ أن يَحكيَ صلاةَ رسول الله إلّا: عليّ

١ – نفسه: الخطبة ٨٩
٢ – نفسه: الخطبة ١٦٦.
٣ – **وسائل الشيعة** ١١:٣٩٠.
٤ – **من لا يحضره الفقيه** ٤:٣٧١؛ **بحار الأنوار** ٢:٣١٤ / ج ٧٨ – عن: **المحاسن** ، للبرقيّ.
٥ – **مستدرك الوسائل** ٣:٣٢٣.

ابن أبي طالب، وعليّ بن الحسين[1]. وكان عَدِيّ بن حاتم أيضاً يقول: لَم أرَ مُصلّياً بعد رسولِ الله أتمَّ ركوعاً ولا سجوداً منه[2].

١ - نفسه ٤:١٠٤.

٢ - نفسه ٥:١٢٨.

الفصل الخامس

إمامة الإمام الحسن عليه السلام

شخصيّة الإمام الحسن عليه السلام

وُلد الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ليلةَ النصف من شهر رمضان، أو نهاره، في السنة الثالثة من الهجرة[1]، لا الثانية كما نصّ عليه بعض الأخبار [2]. ويمكن أن نقول تقريباً: إنّه لم يرد اختلاف مهمّ في يوم الولادة وشهرها. وورد في بعض الأخبار أنّ استشهاده كان في شهر صفر بلا تحديدٍ ليومه[3]، وذهب الكلينيّ والنّوبختّي إلى أنّه اليوم الأخير منه[4]، وروى الشيخ الطوسيّ أنّه اليوم الثامن والعشرون منه[5]، ونقل اليعقوبيّ أنّ شهادته عليه السلام كان في ربيع الأوّل سنة(٤٩)هـ وله من العمر يومئذٍ(٤٧) سنة[6]. ويجمع كثير من المصادر على أنّ شهادته عليه السلام كانت في سنة (٤٩)هـ[7]، وذهب بعضها إلى أنّها كانت في سنة (٥٠)[8]، وبعضها

---

١ - **الإرشاد**: ٢٠٥؛ **إثبات الوصيّة**: ١٥٤؛ **تاريخ بغداد** ١: ١٤١؛ **نسب قريش**، الزبير بن بكّار: ٤٠؛ **المجدي**: ١٣.

٢ - **الكافي**: ٤٦١؛ **التهذيب** ٦: ٣٩ . وفي خبر: أنّه عليه السلام وُلد قبل حرب بدر بتسعة عشر يوماً، أي السنة الثانية . **المجدي**: ١٣.

٣ - **الإرشاد**: ٢١١؛ **التهذيب** ٦: ٣٩.

٤ - **الكافي** ١: ٤٦١؛ **فرق الشيعة**: ٤٢.

٥ - **مصباح المتهجّد**: ٧٣٢؛ **مسارّ الشيعة**: ٢٧.

٦ - **تاريخ اليعقوبيّ**: ٢٢٥.

٧ - منها: **الكافي** ١: ٤٦١؛ **التهذيب** ٦: ٣٩؛ **المعارف**، ابن قتيبة: ١٤٢.

٨ - **إثبات الوصيّة**: ١٦٠؛ **مصباح المتهجّد**: ٧٣٢.

الآخر ذكر سنة (٥١)[١].

ونرى رواياتٍ جمّةً في فضائله عليه السلام، وبين رواتها عدد كبير من علماء السنّة وعلماء الشيعة[٢]، واشتملت مصنّفات كثيرة على الفضائل المذكورة عبر التاريخ، لكنّ المؤسف هو أنّ الحوادث التي شهدتها حياته لم تنل نصيبها من العناية إلى الآن، والأغلب ـ ككثير من المراحل الأخرى ـ هو تراكم الحوادث والأخبار خاليةً من البحث الجادّ والتقويم الدقيق الراسخ. وأغلب الفضائل المرويّة عنه عليه السلام يدلّ على الحبّ الجمّ الذي كان يكنّه رسول الله صلى الله عليه وآله لذينك الأخوَين [الحسن والحسين صلوات الله وسلامه عليهما]، وقد أعرب صلى الله عليه وآله عنه جهراً ومراراً... وطريقة الإعراب عنه - كنزوله صلى الله عليه وآله من المنبر[٣] وتقبيلهما ثمّ صعوده مرّةً أخرى - آيةٌ على عظيم محبّته، ونزيد على ذلك ما أُثِرَ عنه صلى الله عليه وآله عند إبراز حبّه، وهو قوله: وليبلّغِ الشاهدُ منكمُ الغائبَ[٤]، أو قوله: إنّي أُحبّه وأحبُّ من يحبّه.[٥]

وحضور الإمام الحسن عليه السلام في المباهلة، وفي عداد أصحاب الكساء معلم على تعظيم رسول الله صلى الله عليه وآله وتوقيره له عليه السلام. ومن الطريف أنّه عليه السلام شهد بيعةَ

١ - **مقاتل الطالبيّين**: ٤٩؛ **تاريخ بغداد** ١: ١٤٠.

٢ - منها مثالان هما: «**ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام»، لابن عساكر في كتابه «**تاريخ دمشق**» و«**ترجمة الإمام الحسن**»، لابن سعد في كتاب «**الطبقات الكبرى**»، ولا بأس بمراجعة كتاب «**قادتنا**»، للسيّد محمّد هادي الميلانيّ.

٣ - **نور الأبصار**: ١١٩ – ١٢٠؛ **مناقب آل أبي طالب**، لابن شهر آشوب ٤: ٢٤؛ **نظم درر السمطين**: ١٩٥.

٤ - **المستدرك**، للحاكم النّيسابوريّ ٣: ١٤٧، ١٧٣؛ **الإتحاف بحبّ الأشراف**: ٣٤.

٥ - **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٣٤ . رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله واضعاً الحسن حَبوته وهو يقول: من أحبّني فليُحبّه، ولْيُبلّغِ الشاهد منكمُ الغائبَ. ولولا عزمةُ رسول الله صلى الله عليه وآله ما حدّثتُ أحداً شيئاً ثمّ فَقَد.

الرضوان، فبايعه رسول الله صلى الله عليه وآله.[١] وأثر عنه صلى الله عليه وآله قوله: لو كان العقل رجلاً لكان الحسن[٢]. وقدرته عليه السلام التي تجلّت في حثّ أهل الكوفة وحضّهم على قتال الناكثين[٣] آيةٌ على عِظم شأنه عندهم. والأحاديث النبويّة الشريفة في حقّ ابنيَ الزهراء عليهما السلام هي التي جعلت المسلمين يَعُدّونهما ابنَي رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يخامرهم أدنى شكّ في ذلك على الرغم من إنكار بني أميّة، ثمّ بني العبّاس من بعدهم[٤].

وقد أقرّ أهل العراق وكثيرٌ من الأمصار بإمامة الحسن المجتبى عليه السلام، فبايعوه بالخلافة بعد أن استخلفه أبوه عليه السلام؛ نظراً إلى ما كان يتمتّع به من تلك الشخصيّة الرفيعة السامية. ومع هذا، سعى كثير من المنتمين إلى أميّة والأحزاب الأخرى المنبثّين هنا وهناك إلى الطعن في شخصيّته. وأساس أراجيفهم أنّه عليه السلام لا حظّ له من التدبير والسياسة من جهة، وأنّه طالب دنياً من جهة أخرى، حتّى راقهم أن يجعلوا موقفَه غيرَ موقف أبيه وأخيه الحسين عليهما السلام. ومثال ذلك، محاولتهم لمزه بأنّه مِزْواج مِطْلاق، وذلك بافتراء أخبار واهية وبثّها ضدّه[٥]. والمثال الآخر هو أنّه اعتزل الحكومة بعد الصلح مكتفياً بأخذ العهود ذات البُعد الماليّ فحسب، أي أنّه كان يريد الاستيلاء على خراج: دارابجرد، والأهواز، والأموال الموجودة في بيت المال بالكوفة[٦].

---

١ – **الحياة السياسيّة للإمام الحسن** عليه السلام: ٢٤، ٤٤.

٢ – **فرائد السمطين** ٢: ٦٨.

٣ – **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ٤٩.

٤ – **الحياة السياسيّة للإمام الحسن** عليه السلام: ٢٧. وتدلّ رواية في كتاب «**كشف الغمّة**» ١: ٥٥٠ على أنّ معاوية كان يُصِرّ على نسبة الحسنين عليهما السلام إلى أبيهما عليّ عليه السلام، لا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله، وكان يسمّيهما ابنَي عليّ، لا ابنَي النبيّ.

٥ – **الإتحاف**: ٣٤.

٦ – سنتناول دراسة هذا الموضوع لاحقاً.

فلخّص بعض المصادر شخصيّته عليه السلام في حبّ المرأة والثروة[1]، وهذا هو منتهى الجفاء والإجحاف بحقّه عليه السلام.

وجدّ واضعو الأخبار المذكورة في تصويره بأنّه كان لا يرى له حقّاً في الخلافة، فسلّمها معاوية! وهذه تهمة واهية؛ لأنّه عليه السلام صرّح مراراً بأنّه للخلافة أهل، وأنّه صالح معاوية كارهاً[2]. وكان معارضو الإمامة والولاية، إلى جانب هذا التشويه لصورته الشخصيّة – الذي مارسه العبّاسيّون بشكل رئيس للضغط على بني الحسن – يبتغون مأرباً آخرى مِن تقوّل هذا الموقف على الإمام الحسن عليه السلام، وهي توجيه النقد إلى الامام أمير المؤمنين عليه السلام، بل الحسين عليه السلام. وممّا افتري على الإمام الحسن عليه السلام أنّه قال... ولكن كَرِهتُ أن

١ – لا شك في أنّه عليه السلام كانت له ثروة طائلة، ويعود ذلك أساساً إلى سهمه من عطاء بيت المال والأموال التي اتّفق عليها في وثيقة الصلح . ويعود أيضاً إلى الموقوفات الكثيرة التي خلّفها له أبوه عليه السلام. وبالمقياس نفسه كان جوده حديث الألسنة . أمّا كثرة زواجه، فذلك أمر يحوم حوله شكّ جادّ حقيقيّ، فيذهب كثير من المؤرّخين إلى أنّ انعكاسه في المتون التاريخيّة للقرن الثاني والثالث نابع من أراجيف العبّاسيّين الذين كانوا في نزاع شديد مع بني الحسن، وكانوا يَسعَون إلى الحطّ من شأن جدّهم. وعدد أزواجه في مصدر قديم كـ **طبقات ابن سعد** عشر أزواج، وهو أمر طبيعيّ يومئذ نظراً إلى موتهنّ أو طلاقهنّ الذي كان شائعاً نسبيّاً. وأبوه أمير المؤمنين عليه السلام تزوّج أكثر من هذا العدد بعد شهادة الزهراء عليها السلام، وكان هذا الأمر مألوفاً بين كثير من الصحابة والتابعين آنذاك . ومن الطبيعيّ أنّ ما ذكر من عددهنّ الذي يتراوح بين السبعين والمئتين والخمسين هو بالهزل أشبه منه بالخبر التاريخيّ الموثوق. وأكثر سقماً وخطأً من ذلك كلّه وأخطأ هو شهرته عليه السلام بكثرة الأولاد، تلك الكثرة التي لم يؤيدّها أيّ مصدر متخصّص في علم الأنساب ولا أيّ مصدر تاريخيّ . ومن حسن الحظّ أنّ معلومات المصادر في هذا المقدار دقيقة ومبسوطة جدّاً، ويمكن أن نفهم من مراجعتها أنّ الحدّ الأدنى لعددهم (١٥) والحدّ الأعلى (٢١) . والنّسبة بين (١٠) أزواج و(٢١) ولداً أمر اعتياديّ ، فنقول: بخاصّة أنّه عليه السلام لم يعش أكثر من (٤٧) سنة . ولمزيد من الاطّلاع على توضيح أكثر في هذا الشأن، ينظر: **تحفة الأزهار** ١: ١٢٢ – ١٤٥، «هامش المصحّح».

٢ – **أمالي الشيخ الطوسيّ** ٢: ١٧٢؛ **بهج الصباغة** ٣: ٤٤٨؛ **حياة الحيوان** ١: ٥٨؛ **بحار الأنوار** ٤٤: ٣٠، ٥٦؛ **مناقب آل أبي طالب** ، لابن شهر آشوب ٤: ٣٤.

أقتلَهم في طلب المُلْك[١]. ويمكن أن يكون هذا ذريعة بيد المتعصّبين من عامّة المسلمين وهواة عثمان لإدانة حروب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

وعلى هذا المنوال ذكروا أنّ أباه الإمام علياً عليه السلام أراد تسميته عند ولادته «حرباً»[٢]، ليعني أنّه عليه السلام كان يحبّ الحرب طبيعيّاً منذ البداية، حتّى جاء في بعض الأخبار المنقولة قوله: كانت جماجم العرب بيدي يُسالمون من سالمتُ، ويحاربون من حاربتُ[٣]. وما ذُكر أنّ مئة ألف أو أربعين ألفاً قد بايعوه وكانوا أطوع له وأحبّ فيه منهم في أبيه[٤]. ويثير قبول هذه الأخبار المغايرة للحقيقة تصوّراً يتمثّل في أنّه عليه السلام تنازل عن الحكومة لمعاوية طائعاً، لا كارهاً، والتفاوت بين الرؤيتين بيّن واضح، والافتراء مقصود به الطعن والانتقاص، ومعروفٌ مصدره وغرضه!

والنقطة الأخرى هي أنّ هذا الفريق من المؤرّخين كان يحاول في أخباره أن يثبت وجود خلافٍ بين الأخوَين الحسن والحسين صلوات الله عليهما وحاشاهما، إنّ الإمام الحسين عليه السلام يرفض في فريتهم موقف أخيه وكان له رأي آخر.

ونقلوا في خبرٍ آخر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: هذا [حَسَنٌ] منّي، وحسينٌ من عليّ[٥]! في حين أنّ من الفضائل التي تكرّر ذكرها للحسين عليه السلام قوله صلى الله عليه وآله حسينٌ منّي وأنا من حسين. والهدف من اختلاق هذا الخبر وأمثاله هو بيان

---

١ - **ذخائر العقبى**: ١٣٩؛ **نظم درر السمطين**: ١٩٥.
٢ - **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٢٦.
٣ - نفسه: ١٦٧؛ **ذخائر العقبى**: ١٣٩.
٤ - **تهذيب التهذيب** ٢: ٢٩٩؛ **ذخائر العقبى**: ١٣٨- ١٣٩؛ **تهذيب تاريخ دمشق** ٤: ٢١٢؛ **الإتحاف**: ٣٥.
٥ - **ذخائر العقبى**: ١٣٢.

شدّة الترابط الوثيق بين الإمامين عليّ والحسين عليهما السلام حتّى كأنّ الاثنين كانا يريدان القتل وسفك الدماء! وفي افتراء التناقض بين هذين الأخوَين ذكروا أنّ الحسين عليه السلام قال لأخيه عليه السلام: يا حسن، وَدِدتُ أنّ لسانك لي وقلبي لك[١]. ونقلوا على لسان أبي بكر أيضاً قوله لمّا رأى الحسن عليه السلام : بأبي شبيهاً بالنبيّ ليس شبيهاً بعليّ[٢].

ونقل المتأخّرون هذه المطالب كفضائل، في حين أنّ كثيراً منها قد اختُلِق للهدف الذي أشير إليه. ويمكن لهذا التصوير أن يوائم أنصار الاتّجاهات العثمانيّة من أجل تشويه صورة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ولوحة عاشوراء.

وأسوأ تهمة قذف بها الإمام الحسن المجتبى عليه السلام في الحقيقة، هي التهمة التي تُشبِّه مواقفه بمواقف العثمانيّة، أي أنّه لم يعارض حروبَ أبيه فحسب، بل كان يرفض موقف أخيه الحسين عليه السلام أيضاً. وهذا التصوير الهيّن والمهين يعود الى بثّ الأخبار الموضوعة المختلَقة من جهة، وإلى الفهم المغلوط للصلح من جهة أخرى. وقد زعمت هذه الأخبار الواهية أنّ الإمام عليه السلام سلّم لمعاويَة الحكومةَ وهو ذو قدرة كافية، بيد أنّ الحقيقة هي أنّ هذا الموضوع المطروح يغاير كثيراً من الحقائق التاريخيّة. واتّسعت دائرة هذه الأخبار المُفتراة إلى درجة أنّهم رووا أنّه عليه السلام - حاشاه - اتّهم أباه عليه السلام بالاشتراك في قتل عثمان[٣]! وأشرنا آنفاً إلى أنّ هذه التهمة رماه بها الأمويّون لا غيرهم، وكانوا يتوخَّون بهذا العمل هدفاً سياسيّاً خبيثاً خاصّاً، وإلّا فكيف يمكن أن

١ - **كشف الغمّة** ٢: ٢٤٣؛ **ترجمة الإمام الحسين** عليه السلام، لابن عساكر: ١٤٥ - ١٤٦.

٢ - **مناقب ابن شهر آشوب** ٤: ١٢١.

٣ - انظر: **أنساب الأشراف** ٢: ١٢ . وجاء في هذه الرواية التاريخيّة: أنّ الحسن أنكر على الإمام عليّ عليه السلام . ويبدو أنّ أصل الخبر صحيح، إلّا أنّ الحسن هذا هو الحسن البصريّ، لا الإمام الحسن المجتبى عليه السلام .

يتّهم ابنُ الإمام أباه بالاشتراك في قتل عثمان؟! وذهب بعض المؤرّخين إلى أنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أرسل الحسن عليه السلام إلى دار عثمان للدفاع عنه... والهدف من ذلك ـ وأصله صحيح[1] ـ هو الحؤول دون قتل عثمان الذي يمكن أن يستتبع نتائج معكوسة كثيرة. ويضاف إلى هذا، أنّ الإمام الحسن عليه السلام كان ممّن له دور مهمّ في حربِ الجمل التي كانت حرباً حقيقيّة ضدّ أوّل تيّار عثمانيّ، وكان عليه السلام مبعوث أبيه عليه السلام إلى أهل الكوفة لحثّهم على الحرب وجذبهم إليها، وقد استطاع عليه السلام، بخطبته في مسجد الكوفة، أن يجنّد زُهاء عشرة آلافٍ منهم لقتال العثمانيّين المعتدين في البصرة[2]. وقبل ذلك كان الحسن المجتبى عليه السلام من المدافعين عن [الصحابيّ الجليل] أبي ذرّ الغفاريّ [رضوان الله عليه] في منازعته عثمان، وقد خاطبه عند توديعه مُبعَداً إلى الرّبذة قائلاً له:... وقد أتى مِن القوم إليك ما ترى... واصبر حتّى تلقى نبيّك صلى الله عليه وآله وهو عنك راضٍ[3]. وحاول عبيد الله بن عمر بحمق وغباء – وهو الذي فرّ إلى معاوية خوفاً من قصاص الإمام عليّ عليه السلام بسبب قتله الهرمزان وزوج أبي لؤلؤة وولده ـ أن يُثير الإمام الحسن عليه السلام على أبيه، فردّه عليه السلام بشدّة، ولاحقاً قال معاوية مقرّاً مذعناً مادحاً من غير إرادته: هو ابن أبيه[4]!

وكان عليه السلام يحثّ الناس على قتال القاسطين في صفّين، وقال في كلام له: فاحتشدوا في قتال عدوّكم معاويةَ وجنودِه؛ فإنّه قد حضر، ولا تخاذلوا؛ فإنّ

---

١ – شكّك أستاذنا السيّد جعفر مرتضى في هذا الموضوع (**الحياة السياسيّة للإمام الحسن** عليه السلام: ١٤٩ – ١٥٠).

٢ – **وقعة صفّين**: ١٥؛ **العقد الفريد** ٥: ٦٣.

٣ – **الحياة السياسيّة للإمام الحسن** عليه السلام: ١١٣؛ **شرح النهج** ٨: ٢٥٣؛ **الغدير** ٨: ٣٠١، **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ١٧٢.

٤ – **وقعة صفّين**: ٢٩٧؛ **شرح النهج** ٥: ٢٣٣؛ **مناقب آل أبي طالب**، لابن شهر آشوب ٣: ١٨٦، ١٩٩.

الخذلان يقطعُ نياطَ القلوب[١].

ولمّا بويععليه السلام بالخلافة كتب إلى معاوية يُخبره بحقّ أهل البيتعليهم السلام [في الخلافة] وظُلامتهم بعد وفاة رسول اللهصلى الله عليه وآله. وفي خبر آخر أنّه خاطب أبا بكر وهو على المنبر قائلا له: انزل عن منبر أبي!! فقال أمير المؤمنينعليه السلام حينها: إنّ هذا لشيء وعن غير مَلأٍ منّا[٢].

وموقفه القاطععليه السلام في قتال معاوية بعد بيعته بالخلافة شاهد على وحدة موقفه مع موقف أبيه عليهما السلام. وقد بلغت مناوءة الإمام الحسنعليه السلام للبيت الأمويّ المنحرف مبلغاً من الشدّة أنّ مروان منع دفنَهعليه السلام عند جدّه رسول اللهصلى الله عليه وآله... وقال المعارضون: «منعوا عثمان من دفنه في المقبرة، ويريدون دفن حسنٍ في بيت عائشة».

وهذا كلّه يدلّ على موقفه الوطيد القاطع في محادّة التفكير العثمانيّ، وفي الوقت ذاته على وحدة نسق سيرته مع سيرة أبيه سلام الله عليهما في جميع المراحل، لكنّ المصادر الأمويّة حرّفت موقفه بذريعة الصلح؛ بُغيةَ إضفاء الشرعيّة على حكومة معاوية.

الإمام المجتبىعليه السلام والإمامة

إنّ من الآثار الباقية للرؤية العثمانيّة في المذهب السنّيّ التغافل عن خلافة الإمام المجتبىعليه السلام التي دامت ستّة أشهر، فلا هي عندهم من عهد الخلفاء الراشدين، ولا هي من العهد المَلَكيّ عند أصحاب الرؤية المذكورة[٣]... فهم لم

---

١ - **وقعة صفّين**: ١١٤.

٢ - **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٦٠؛ **أنساب الأشراف** ٢: ٢٦؛ وذكر ابن سعد هذا الموقف أيضاً للإمام الحسين عليه السلام من عمر (٢١٩).

٣ - من الطبيعيّ أنّ كتب التاريخ ذكرته عادة بعد شهادة أبيه عليه السلام كخليفة بايعه الحاضرون في الكوفة. يُنظر: **تاريخ الخلفاء**، للسيوطيّ. قال المسعوديّ: «ووجدت في بعض كتب التاريخ

يعترفوا بها كثيراً، في حين أنّ بقايا المهاجرين والأنصار الذين كانوا بالكوفة، وأهل العراق والمناطق الإسلاميّة الشرقيّة رضَوه خليفةً للمسلمين. بيد أنّ انشقاقاً عميقاً قد حدث في صفوف المسلمين كما كان بيّناً، فصادف ذلك ادّعاء معاوية بالخلافة في الشام، وإن كان معه واحد من الأنصار فحسب على حدّ قوله.[1]

ومن الواضح أنّ أصل تفكيك الخلافة لم يُرفَض في ذلك العصر فحسب، بل رُفض أيضاً وجود خليفتين في العالم الإسلاميّ، وحتّى العهد الأخير من تاريخ الخلافة، أي سقوط الدولة العثمانية في الحرب العالميّة الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨ م). وحين وليَ الإمام المجتبى عليه السلام الخلافة، كان العراق يمرّ بأسوأ الظروف قياساً بالشام، ففضلاً عن الهزيمة التي مُنيَ بها أهل العراق في التحكيم، كان تمرّد الخوارج أيضاً قد أضعف القوّات العراقيّة بشدّة، فسَئِم الناس وعَيُوا بعد حروب ثلاث خاضوها، وكلّما أراد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أن يستنفر الناس ويعبّئم في الأيّام الأخيرة من حياته، قلّ من أجابه ولبّى طلبه[2]. وها هم يرجون خوض مقاومة جادّة بعد شهادة الإمام عليه السلام، وقلقهم الشديد من تسلّط الشام عليهم، فلا بدّ لهم من اختيار إمام يقودهم، ولم تكن لهم حيلة إلّا الرضى بالإمام المجتبى عليه السلام قائداً. وكان لبيعة قيس بن سعد وعبد الله بن عبّاس تأثيرٌ بالغ في التمهيد لبيعة أهل العراق إيّاه عليه السلام، ثمّ تلا

في أخبار الحسن ومعاوية أن بخلافة الحسن صحّ الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله: الخلافة بعدي ثلاثون سنة». وعرض المسعوديّ نفسه هذا الحساب بذكره تاريخ خلافة كلّ من الخلفاء. «**مروج الذهب**» ٢: ٤٢٩ . وحريّ بالالتفات إلى أنّ العثمانيّة المؤسّسين لمذهب أهل السنّة المتأخّر لم يعترفوا بخلافة الإمام عليّ عليه السلام حتّى أوائل القرن الثالث.

١ - **طبقات الشعراء**: ١٠٩؛ وانظر: **الإمتاع والمؤانسة** ٣: ٦٧٠.

٢ - **شرح النهج** ١٠: ١٦٧.

بيعة العراق بيعةُ أهل الحجاز بعد قَدْرٍ من التأمّل.

وكان إلى جانب جمهور الناس شيعةٌ يعتقدون إمامته عليه السلام أساساً، فبايعوه أيضاً.

وكانت النزعة المذهبيّة في الكوفة غالباً هي التشيّع المقصود منه رفض عثمان وتأييد حكومة الإمام عليّ عليه السلام، فصار أهلها علويّي الرأي، وكرهوا النزعة العثمانيّة بتأثير الإمام عليه السلام وأصحابه فيهم خلال السنين الخمس التي مضت من حكمه، وبلغت معارضتهم لعثمان وسوء سمعته عندهم منذ عصر الإمام عليه السلام درجةً أنّ جرير بن عبد الله البجليّ ذكر بأنّه لن يبقى في مدينةٍ تَسُبّ عثمان جهرةً[1].

فمع وجود مثل هذا الاتّجاه، لم يكن للناس سبيل بعد شهادة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلّا اختيار الإمام المجتبى عليه السلام. وكان بين المهاجرين والأنصار، حتّى القرشيّين، بالكوفة رجالٌ من الصحابة، وفيهم مثل عبد الله بن عبّاس، وهؤلاء لم يعترِهم أدنى شكّ في اختياره عليه السلام، كما لم يُذكَر أيٌّ شخصٍ آخر غيره، وليس هذا لأنّهم كانوا «أحبّوه أشدّ من حبّهم لأبيه»[2]، بل لأنّهم اضطرّوا إلى ذلك، وسبب تذكيرنا هذا هو وجود مَن يقول: إنّ الظروف كانت ممهّدة للإمام الحسن إلّا أنّه لم يُرْد مواصلة الجهاد.

وما دام الأمر يرتبط بعقيدة الإمامة الشيعيّة، فإنّ الأدلّة الموجودة تُرشد إلى أنّ الإمام عليّاً عليه السلام عرّف ابنه خليفةً له، وإن لم يذكر أهلُ السنّة تلك الأدلّة بوصفها ولاية العهد[3]، وقد ورد حديث نبويّ شريف في مصادر جمّة، وهو

١ – **مختصر تاريخ دمشق** ٦: ٣٠؛ ٧: ٢٨٢.

٢ – **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن عساكر: ١٧١.

٣ – نقل ابن ابي الدنيا – مُخطِئاً – أنّ عليّاً عليه السلام لم يعرّف خليفةً له . انظر: **مقتل أمير المؤمنين** عليه السلام: ٦١.

قوله صلى الله عليه وآله: الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا[١]، وهذا الحديث برهان ساطع على الإمامة المنصوص عليها لهذين الأخَوَين، وتشهد أخبار تاريخيّة أيضاً على عقيدة الإمامة الشيعيّة في شأن الإمام المجتبى عليه السلام.

روى نصر بن مزاحم أنّ الأعور الشنّيّ خاطب الإمام عليّاً عليه السلام قائلاً: زاد الله في هُداك وسُرورك، نظرتَ بنورِ الله... أنت الإمام، فإن هلكتَ فهذان من بعدك - يعني حسناً وحسيناً - وقد قلت شيئاً فاسمعه...:

أبا حسنٍ أنتَ شمسُ النهار | و هذانِ في الحادثاتِ القَمَرْ
وأنتَ وهذانِ حتّى المَمات | بمنزلةِ السّمعِ بعدَ البَصَرْ
وأنتُم أناسٌ لكم سُورةٌ | يُقصّر عنها أكفُّ البَشَرْ[٢]

وقال المنذر بن الجارود له عليه السلام بصفّين: فإن تهلك فهذان الحسنُ والحسين أئمّتُنا من بعدك، وأنشد:

أبا حسنٍ أنت شمسُ النهار | و هذانِ في الحادثاتِ القَمَرْ
وأنتَ وهذانِ حتّى المَمات | بمنزلةِ السّمعِ بعدَ البَصَرْ[٣]

فاستبان أنّ أصحاب الإمام عليه السلام كانوا يعلمون ويعتقدون منذ عهده أنّ الخلافة والإمامة بعده للحسنين عليهما السلام، ونحن نعلم أنّ شيعة الكوفة راسلوا الإمام الحسين عليه السلام بعد شهادة الإمام المجتبى عليه السلام، ودعا عبد الله بن عبّاس الناس مِن قبلُ أيضاً إلى بيعة الإمام المجتبى عليه السلام، قائلاً «هذا ابن نبيّكم، ووصيّ إمامكم، فبايعوه»[٤]. وكتب الإمام الحسن عليه السلام إلى معاوية: «إنّ أمير

---

١ - **مجمع البيان** ٢: ٤٠٣؛ **كشف الغمّة** ٢: ١٥٩؛ **الإرشاد**: ٢٢٠.

٢ - **وقعة صفّين**: ٤٢٥ - ٤٢٦؛ **الطبقات الكبرى** ٣: ٣٤.

٣ - **الفتوح** ٣: ١٤٧. الشعر في «وقعة صفين»، للأعور الشنّيّ، وفي «**الفتوح**»، للمنذر بن الجارود. وهو في هذا المصدر نفسه في ذلك المصدر بتفاوت يسير. (المترجم).

٤ ـ **الإرشاد** ٢: ٨. (لم ترد كلمة «الوصيّ» في **شرح النهج** ١٦: ٣٠ - ٣١، ولا في «**مقاتل**

المؤمنين عليّ بن أبي طالب لمّا نزل به الموت وولّاني هذا الأمر بعده»[١]، ونقل الهيثم بن عَدِيّ عن كثير من مشايخه قولهم: «إنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام قد أصار الأمَر إلى الحسن»[٢]، وقال أبو الأسود الدؤليّ، وهو في البصرة، عند أخذ البيعة للإمام عليه السلام: «وقد أوصى بالإمامة بعده إلى ابن رسول الله، وابنه»[٣]... وقال له الناس أيضاً: أنت خليفة أبيك ووصيّه، ونحن مطيعون لك[٤].

فجملة القول: إنّ الإمام عليّاً عليه السلام - حسب وصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله - عرّف ابنه بوصفه الشخصَ الذي اختاره هو عليه السلام خليفةً له[٥]، ولمّا اعتلّ عليه السلام أمر ابنه الحسن أن يصلّي بالناس يوم الجمعة[٦]. وإذا تغاضينا عن ميل الشيعة أنفسهم في الكوفة إلى الإمام الحسن المجتبى عليه السلام تبعاً لاتّجاههم المذهبيّ، فلا بدّ من الالتفات إلى العقائد الشيعيّة الخاصّة لأهل البيت ومقام الإمامة في هذه المرحلة. وأوّل خطبة للإمام الحسن المجتبى عليه السلام كما جاءت في جميع المصادر المعنيّة في قوله:... أيّها الناس، مَن عَرَفني فقد عرَفَني، ومَن لم يعرِفني فأنا الحسن بن محمّدٍ رسول الله صلى الله عليه وآله، أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله باذنه والسّراج المنير. أنا من أهل البيت الذين أذهب[٧] الله

الطالبيّين»: ٣٣.

١ ـ **الفتوح** ٤: ١٥١ (وفي **مقاتل الطالبيّين**: ٣٦، و**شرح النهج** ١٦: ٢٤: «ولّاني المسلمون الأمرَ من بعده» . والتفاوت بين النصّين واضح).

٢ ـ **العقد الفريد** ٤: ٤٧٤.

٣ ـ **الأغاني** ١١: ١١٦.

٤ ـ **بحار الأنوار** ٤٤: ٤٣.

٥ ـ انظر: **الحياة السياسيّة للإمام الحسن** عليه السلام: ٤٨ – ٤٩ .

٦ ـ **مروج الذهب** ٢: ٤٣١.

٧ – ما بين المعقوفتين هو القسم الأوّل من الآية المستشهَد بها، ولم ترد في أصل الخبر، وذكرتُ تتمّتها بالاعتماد على القسم الأوّل .

عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، والذين افترض الله مودّتهم في كتابه، إذ يقول: [﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى] وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً﴾، فاقتراف الحسنة مودّتنا أهل البيت[1].

وأورد المسعوديّ قسماً من إحدى خطبه عليه السلام كما يأتي: نحن حزب الله المفلحون، وعترةُ رسول الله صلى الله عليه وآله الأقربون، وأهلُ بيته الطاهرون الطيّبون، وأحدُ الثقلينِ اللّذَين خلّفهما رسولُ الله صلى الله عليه وآله، والثاني كتابُ الله، فيه تفصيلُ كلّ شيء، لا يأتيه الباطل من بين يَدَيه ولا من خلفه... فأطيعُونا؛ فإنّ طاعتنا مفروضة؛ إذ كانت بطاعةِ الله والرسول وأولي الأمر مَقْرونة، ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ... وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾[2].

وقال هلال بن يساف: «سمعتُ الحسنَ بن عليّ وهو يخطب، وهو يقول: يا أهلَ الكوفة اتّقوا الله فينا، فإنّا أمراؤكم وإنّا أضيافُكم، ونحن أهل البيت الذين قال الله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.[3] ويبدو أنّ هذه الخطبة كانت بعد جرحه عليه السلام في ساباط.

وكان الإمام الحسن كأبيه عليهما السلام يعدّ الخلافة حقّه الإلهيّ، على الرغم ممّا جاء في بيعة المهاجرين والأنصار للخلفاء السابقين. وكتابه إلى معاوية كبعض كتب أبيه في اشتمالها على انتقادٍ لاستخلافهم إيّاه مِن قِبَل مَن لا حقّ لهم في ذلك، فقال عليه السلام في ذلك الكتاب الذي بعثه إليه مع حرب بن عبد الله الأزديّ، وهو يُشير إلى استدلال قريش في السقيفة بقرابتها من رسول الله صلى الله عليه وآله، وقبول العرب ذلك... ثمّ حاجَجْنا نحن قريشاً بمِثْلِ ما حاجَجْتَ به العرب،

---

١ - **مقاتل الطالبيّين**: ٣٣؛ **شرح النهج** ١٦: ٣٠ - ٣١؛ **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٦٧؛ **أنساب الأشراف** ٣: ٢٨؛ **حياة الصحابة** ٣: ٥٢٦ - ٥٢٧.

٢ - **مروج الذهب** ٢: ٤٣٢ (والآيتان في سورة النساء: ٥٩، ٨٣).

٣ - **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٦٧.

فلم تُنصِفْنا قريشٌ إنصافَ العربِ لها... باعَدُونا واستَوْلَوا بالإجماع على ظُلْمِنا ومُراغمتِنا، والعَنَتِ منهم لنا... ثمّ قال عليه السلام: وأمْسَكْنا عن منازعتهم مخافةً على الدين أن يَجد المنافقون والأحزاب في ذلك مَغْمزاً يَثلمُونه به... فاليوم فلْيتعجّبِ المُتعجّبُ من توثُّبك ـ يا معاويةُ ـ على أمرٍ لستَ مِن أهله، لا بفضلٍ في الدين معروف، ولا أثرٍ في الإسلام محمود، وأنت ابنُ حزبٍ من الأحزاب، وابنُ أعدى قريشٍ لرسولِ الله صلى الله عليه وآله ولكتابه...! ثمّ طلب منه أن يبايع مع الناس الذين بايعوه عليه السلام، فكتب إليه معاوية في موقف الإمام من السقيفة قائلاً: «... فصرّحت بتهمة: أبي بكر، وعمر، وأبي عبيدة، والزبير، وصلحاء المهاجرين والأنصار، فكرهتُ ذلك لك»! ثمّ بيّن له رأيه في اختيار قريش والمهاجرين والأنصار أبا بكر وأنّهم اختاروا أفضلَهم، وقال: «والحالُ فيما بيني وبينك اليومَ مِثلُ الحال التي كنتم عليها أنتم وأبو بكر بعدَ وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله، فلو علمتُ أنّك أضبطَ منّي للرعيّة، وأحوطُ على هذه الأمّة، وأحسن سياسةً، وأقوى على جمع الأموال، وأكيدَ للعدوّ، لأجبتُك إلى ما دعوتَني إليه، ورأيتُك لذلك أهلاً، ولكن قد علمت أنّي أطولُ منك ولايةً، وأقدمُ منك بهذه الأمّة تجربةً، وأكبر منك سنّاً، فأنت أحقّ أنْ تجيبني إلى هذه المنزلة التي سألتني، فادخلْ في طاعتي، ولك الأمرُ من بعدي، ولك ما في بيت مال العراق من مال بالغاً ما يبلغ، تحملُه إلى حيثُ أحببتَ، ولك خَراجُ أيِّ كُوَر العراق شِئتَ»[1]!

هكذا يقلّب معاوية الأمر. بشيطنته ودهائه، ويحرّف الموضوع الأساس في الخلافة الشرعيّة وأهدافها المقدّسة.

ووردت إشارة معاوية إلى تشبيه نزاعه لعليّ وابنه عليهما السلام بدعوى أبي بكر

---

١ - **شرح النهج** ١٦: ٣٣ – ٣٦ (بإيجاز)؛ **الفتوح** ٤: ١٥١ – ١٥٣؛ **مقاتل الطالبيّين**: ٦٨ ـ ٨٤.

وعليّ عليه السلام، في مراسلة جرت بينه وبين محمّد بن أبي بكر أيضاً[1]، وكان معاوية - مدّعياً - يرى نفسه خليفة لأبي بكر وعمر، فدافع عنهما بشدّة، وقصدُه من هذا العمل هو الاستغلال السياسيّ، فكتب إلى الإمام عليّ عليه السلام مرّةً يتّهمه قائلاً: «على الخلفاء بغيت»، فأجابه الإمام عليه السلام قائلاً... فإن يكن ذلك كذلك فليست الجنايةُ عليك، فيكونَ العذرُ إليك. ثمّ هو عليه السلام لم يكن منه انتقاد الخاطئ من أعمالهم، فلن يعتذر إلى أيّ أحد في ذلك[2].

ومهما كان، فإنّ عواملَ متنوّعةً حملت أهل العراق والحجاز على بيعة الإمام الحسن عليه السلام ، وقيل: قال قيس بن سعد عند البيعة: «... أبايعك على كتاب الله عزّ وجلّ وسنّة نبيّه، وقتال المحلّين»؛ فقال له الحسن عليه السلام: «على كتاب الله وسنّة نبيّه؛ فإنّ ذلك يأتي من وراء كلّ شرط».[3] قال المدائنيّ: «ولمّا توفّي عليّ عليه السلام خرج عبد الله بن عبّاس إلى الناس، فقال: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام توفّي وقد ترك خلفاً، فإن أحببتُم خرج إليكم، وإن كَرِهتم فلا أحدَ على أحد؛ فبكى الناس، وقالوا: بل يخرج إلينا. فخرج الحسن عليه السلام، فخطبهم فقال: أيّها الناس؛ اتّقوا الله؛ فإنّا أمراؤُكم وأولياؤكم، وإنّا أهلُ البيت الذين قال الله تعالى فينا: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾**[4]، فبايعه الناس»[5].

---

١ - **أنساب الأشراف** ٢: ٣١، وكتب معاوية إلى محمّد بن أبي بكر: «... فقد كُنّا وأبوك معنا في حياة من نبيّنا نرى حقّ ابن أبي طالب لنا لازماً، وفضلَه علينا مُبرَّزاً ... فلمّا اختار الله لنبيّه ما عنده ... فكان أبوك وفاروقه أوّل من ابتزّه حقّه وخالفه على أمره...» **مروج الذهب** ٣: ١١ - ١٣.

٢ - **نهج البلاغة**، الكتاب ٢٨.

٣ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ١٥٨.

٤ - الأحزاب : ٣٣.

٥ - **شرح النهج** ١٦: ٢٢؛ وانظر: ص ٢٨.

ثمّ خاطب الناس قائلاً:... ثمّ إنّكم بايعتموني طائعين، غير مُكرَهين.[١]

وجاء في خبر الأصفهانيّ: أنّ ابن عبّاس دعا الناس إلى بيعته، فاستجابوا وقالوا: ما أحبّه إلينا وأحقّه بالخلافة! فبايعوه [٢].

ويتعيّن علينا هنا الالتفات إلى موضوع آخر، وهو المبدأ السياسيّ المقبول في أمر الخلافة، أي بيعة أهل الحَرَمين. وفي تلك البرهة التي مرّ فيها على وفاة رسول الله ﷺ زُهاء ثلاثين سنةً، مات جيل عظيم من الصحابة في الفتوحات، وكذلك في الجَمَل وصفّين، ويُزاد على ذلك فقدان المدينة [المنوّرة] لمركزيّة الخلافة. فهذان إشكالان واجههما المبدأ المذكور المتمثّل ببيعة المهاجرين والأنصار الساكنين بالمدينة، وهما يدلّان على أنّ الأوضاع كانت تسير نحو التغيير، وسنرى أنّ زوال المبدأ الآنف الذكر اقترن بإحلال مبدأ ولاية العهد، الذي سنّه معاوية محلّه. ويجب أن نضيف قائلين: قلّما بقي أحد من رؤساء قريش ممّن يمكن أن يدّعي الخلافة، فكتب معاوية إلى ابن عبّاس: «... فاتّقوا الله في قريش! فما بقيَ مِن رجالها إلّا ستّة: رجلان بالشام، ورجلان بالعراق، ورجلان بالحجاز. فأمّا اللّذان بالحجاز: فسعد [بن أبي وقّاص] وعبد الله بن عمر، وأمّا اللّذان بالشام: فأنا وعمرو [بن العاص] ، وأمّا اللّذان بالعراق: فعليّ وأنت»[٣].

والعراق وحده يمكن أن يثق بابن الإمام عليّ عليه السلام في مثل هذه الظروف، وهكذا فعل، إلّا أنّ أهله لم يصمدوا على الطريق الذي اختاروه بسبب

١ - **الفتوح** ٤: ١٥٦.

٢ - **شرح النهج** ١٦: ٣١.

٣ - **الإمامة والسياسة** ١: ١٣٣؛ **أنساب الأشراف** ٤: ١٠٥ / الرقم ٣١٥ . ورد في «**الإمامة والسياسة**» اسم الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، ولم يرد اسم الإمام الحسن عليه السلام كما ذكر المؤلف. المترجم .

المصاعب والمحن التي عايشوها. ومَن أصرّ منهم على قتال معاوية، إبّان بيعة الإمام عليه السلام، كان يرى إدراج قتاله في شروط البيعة، أي نحن نبايع على قتال معاوية. بيد أنّ الإمام المجتبى عليه السلام أبى هذا الشرط، وقال: والله لا أبايعكم إلّا على ما أقول لكم، قالوا: وما هو؟ قال تُسالمونَ مَن سالمتُ، وتُحاربون مَن حاربتُ[1]. ومن الطبيعيّ أنّ إمام الأمّة لايسعه أن يبايع أحداً على مثل هذا الشرط، بل له الخِيَرةُ في أمرٍ مهمّ كالحرب والصلح، وكلامه المذكور عليه السلام لم يَعْنِ أنّه لم يقصد القتال في بادئ أمره، كما تصوّر بعض[2]؛ لأنّ الأعمال التي قام بها الإمام الحسن عليه السلام لاحقاً تدلّ على أنّه عليه السلام كان مصرّاً على القتال. والهدف الأصليّ من رفضه الشرطَ المذكورَ هو المحافظة على نطاق صلاحيّاته بوصفه إمامَ الأمّة، وقبول شرطهم يعني أنّهم اختاروا قائداً عسكريّاً، لا إماماً للأمّة. وقد ذكر الشيخ المفيد [رضوان الله عليه] أنّ بيعته عليه السلام كانت في يوم الجمعة، الحادي والعشرين من شهر رمضان سنة أربعين للهجرة[3].

المواصفات الاجتماعيّة والدينيّة والسياسيّة لأهل الكوفة

من المناسب أن نشير في بداية الحديث حول القضايا السياسيّة التي كانت في عصر الإمام المجتبى عليه السلام إلى الوضع العامّ للعراق، فالعراق هو أحد الأقاليم الإسلاميّة الأصيلة التي حكمت العالمَ الإسلاميّ طوال حياة السلطنة قروناً عديدة، وشهد تطوّرات مهمّةً وأحداثاً لاتُحصى، وظهر إلى الحياة في بداية أمره متمثّلاً بمدينتَي البصرة والكوفة المعروفَتين بـ «العراقين». ثمّ

---

١ - **ترجمه الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٥٤ – ١٥٥؛ **تاريخ الطبريّ** ٥: ١٥٨؛ **أنساب الأشراف** ٣: ٢٩.

٢ - **أنساب الأشراف** ٣: ٢٩.

٣ - **الإرشاد** ٢: ٩.

اضطلع بدور أهمّ في العالم الإسلاميّ بعد ظهور بغداد. والسنون التي نتحدّث فيها سبقت تأسيس بغداد بمئة عام، حيث كانت البصرة «عثمانيّة المذهب» ردحاً من الزمن بعد واقعة الجمل[1]، ثمّ اعتدلت نوعاً ما بسبب نفوذ «المعتزلة».أمّا الكوفة فقد عرفت كأحد المراكز الشيعيّة دائماً، واستدامت هذه السمعة طوال الحكم الأمويّ، وصمد أهلها على عقيدتهم الشيعيّة لاحقاً، ومع هذا كلّه، فإنّها ـ بسبب ما عايشته من تقلّبات كثيرة في شتّى الأحداث ـ لقيت لوماً من جهة، وثناءً وتمجيداً من جهة أخرى، من هنا حَكم على أهلها بأحكام متباينة . ويتسنّى لنا تقصّي هذا الموضوع في النقاط الآتية:

أ – كان لأهل الكوفة مواقف متفاوتة في مراحل مختلفة، فشهدت مراحل من التاريخ موقفهم في الدفاع عن أهل البيت عليهم السلام وتعزيز الجناح العلويّ بشجاعة لا نظير لها، وتجلّى ذلك في نصرهم الإمامَ أمير المؤمنين عليّاًعليه السلام في موقعة الجمل، فاستطاع أن يهزم الناكثين فيها، بيد أنّهم فتروا وتراخَوا عن نُصرتهعليه السلام في الأيّام الأخيرة من خلافته، فشُلَّ الحقُّ وفَلَجَ الباطلُ بسبب ذلك. ومع وجود شيعة كُثْر فيهم[2]، فقد فرّط جمهورهم في نصر الإمام الحسن المجتبىعليه السلام، وتَركَه وحيداً. وتكرّر هذا الموقف في المحرّم سنة (٦١)هـ إلّا أنّ فريقاً كبيراً منهم باسم التوّابين تاب عن سوء صنيعه، واستُشهد معظمهم في حركتهم المعروفة بحركة التوّابين. ومؤازرةُ جماعة منهم المختار بن أبي عبيدة الثقفي للثأر لقَتَلَة الإمام الحسينعليه السلام آيةٌ أخرى

١ – **مسند أحمد** ١: ٥٢٧ . ورُدّ هذا الخبر إذ سمع قتادة في القرن الثاني وجود رجال في البصرة يفضّلون عليّاً على عثمان، وقال ما مضمونه: والله ما كان أهلها قبلكم كذلك !

٢ - هؤلاء هم شيعة سياسيّون غالباً، لا أنّهم رضوا بالإمام الحسن عليه السلام إماماً مفترض الطاعة نصبه الله سبحانه.

على موقفهم الشيعيّ، إلّا أنّ تقصيرهم في حقّ زيد بن عليّ[عليهما السلام]سنة ١٢٢هـ، وخذلانه آيةٌ على خذلانهم للعلويّين.

ب - السبب الآخر في تباين الأحكام على أهل الكوفة هو وجود الفرق السياسيّة والمذهبيّة المنوّعة فيهم، ففرقة ذات أفكار «مارقيّة»؛ وأخرى ميولها أمويّة إلى حدٍّ ما، وهي التي حملت عنوان «الأشراف»؛ وثالثة شيعيّة، وهي الفدائيّة لأهل البيت عليهم السلام، وهذا ما أدّى إلى أن يحظى خيارهم بأفضل المدح والثناء لأعمالهم السديدة، وأن يمضي شرارهم إلى الحدّ الذي يقتلون فيه ابنَ نبيّهم صلى الله عليه وآله.

ج - كانت التركيبة القبليّة لمدينة الكوفة مؤثّرة في هذا التغيّر للمواقف السريعة، فالحسّاسيّة القبليّة لأهلها جعلتهم ذوي غِلظة وفظاظة، حتّى أنّهم كانوا يتّخذون القرارات الآنيّة في الأمور المرحليّة والدائميّة غالباً، وتلك القرارات كانت تصبّ غالباً في مصالحهم القبليّة، وهذا التوجّه نفسه كان حجَرَ عثرةٍ في طريق وحدتهم، وهو ما استغلّه الأمويّون مراراً.

وما يتعيّن علينا أن نستعرضه هنا هو معرفة وضع الناس بالعراق في مستهلّ إمامة الحسن بن عليّ عليهما السلام، والذي نراه هو أنّ هؤلاء الناس لو عرفوا حقّ المعرفة لسَهُل إدراك التطوّرات اللّاحقة التي شهدها العراق أفضل فأفضل.

وقد قسّم الشيخ المفيد [رضوان الله عليه] في تحليلٍ له أصحابَ الإمام الحسن عليه السلام خمسة أقسام:

الأوّل: شيعته وشيعة أبيه عليهما السلام.

الثاني: الخوارج الذين كانوا يُؤْثرون قتال معاوية بكلّ حيلة، والتفّوا حول الإمام الحسن عليه السلام حين قصد قتاله.

الثالث: أصحاب الفتن والطمع في الغنائم.

الرابع: الشُكّاك الذين لم يعلموا ماذا يفعلون.

الخامس: أصحاب عصبيّة اتّبعوا رؤساء قبائلهم لايرجعون إلى دين[١].

وكان القسم الثالث أكثر الأقسام عدداً، وكان العراق مركزاً لفتوحات الشرق، فحصتُه من الغنائم كبيرة في الحروب جميعها، ولكن مُنيَ بالحروب الداخليّة منذ اليوم الذي حاربوا الإمامَ عليّاًعليه السلام أو خذلوه، لذلك كان يرى نفسه غريماً لآل عليّ [عليه وعليهم السلام][٢]، وكان يرى في الظروف المستجدّة أنّ من مصلحته ألّا يخوض حرباً جديدةً بعد حرب النهروان. واشتغل معاوية ببثّ الأراجيف في العراق بمساعدة جواسيسه، فبذر بذلك بذرة الشكّ، والتذبذب بين أهله، وزاد ظهور الخوارج هذا الشكّ، ففقد كثير منهم القدرةَ على التحليل الصحيح لمجريات الأمور.

والحقيقة التي ينبغي أن نقولها - بغضّ النظر عمّا تقدّم - هي أنّ أهل العراق عبّروا مبدئيّاً عن روحهم في التعامل مع الحكّام طوال قرنٍ من الزمان. والغرور الذي مُنوا به خلال السنين التي فُتِحت فيها إيران جعلهم يسيطرون على مدينة النبيّصلى الله عليه وآله، فكلّما أرادوا عزل حاكم من الحكّام عزلوه، وحملوا - حتّى عمر - على عزله. من هنا ، فإنّ الوجوه والشخصيّات التي لم تعرف وجهَ الحيلة والخداع لا يمكنها أن تلبث فيه طويلاً، ومن هذه الوجوه والشخصيّات عمّار بن ياسر كإنسانٍ نقيّ طاهر؛ وسعد بن أبي وقّاص كشخصيّة غير سياسيّة، أمّا المُغيرة بنُ شعبة الذي عبّر عنه عمر بالفاجر

١ - **الإرشاد** ٢: ١٠؛ **الفصول المهمّة**: ١٤٧؛ **بحار الأنوار** ٤٤: ٤٦، ٥٦؛ **مناقب آل أبي طالب**، لابن شهر آشوب ٤: ٣٢؛ **صلح الإمام الحسن** عليه السلام: ٦٨ - ٦٩.

٢ - سنرى لاحقاً أنّ الإمام المجتبى عليه السلام صرّح بهذه المسألة.

المقتدر، فقد حَكَمه عدد سنين.

ولمّا هاجر الإمام عليّ عليه السلام إلى الكوفة، اتّسعت، وتضاعف دورها في العالم الإسلاميّ أضعافاً. وما كان يتمتّع به عليه السلام من رصيدٍ أخلاقيّ وعلميّ، وسابقة في الفداء والتضحية من أجل الإسلام على طول الحقبة الإسلاميّة، دفع النّاسَ إلى أن ينهضوا لدعمه ومؤازرته.وزاد ذلك وجودُ أصحابه المقرّبين والتحاق صحابة النبيّ صلى الله عليه وآله بجيشه، فلم يسع الكوفيّين أن يغلبوه على أمره حتّى حين، لكنّهم وجدوا ذريعةً دينيّة لمواجهته بعد تورّطهم في التحكيم يومَ صفّين، ثمّ نكصوا عنه بعد قمع الخوارج زاعمين أنّهم تعبوا وملّوا، حتّى قال الإمام عليه السلام: لقد كنتُ أمسِ أميراً، فأصبحتُ اليومَ مأموراً، وكنتُ أمسِ ناهياً، فأصبحتُ اليومَ منهيّاً[1].

وأعلن عليه السلام بعد ظهور الوضع الجديد بين الناس أنّه لايمكن إصلاحهم، وكان بمقدوره أن يحكمهم بالقوّة والإكراه والاستبداد، إلّا أنّ لم يُرد استخدام هذه الأساليب، ووصف عليه السلام هذه الروح التي كانوا عليها في كلام عذب غايةَ العذوبة، فقال: عاتبتُكُم يا أهل الكوفة بمواعظ القرآن فلم أنتفع بكم، وأدّبتُكم بالدِرَّة فلم تستقيموا، وعاقبتُكُم بالسَّوط الذي يُقام به الحدودُ فلم تَرْعَوُوا. ولقد علمتُ أنّ الذي يُصلِحكم هو السيف، وما كنتُ متحرّياً صلاحكم بفسادِ نَفْسي[2].

وكان أهل العراق لا يذلّلهم إلّا السيف، وهذه حقيقة أيّدها التاريخ، فإذا لم يُرد رجلٌ كعليٍّ وابنه عليهما السلام، أن يستخدم القوّةَ والاستبداد (وبتعبيره، لم يحملهم على ما يكرهون)، فلا رجاء له في النجاح والتوفيق في انقيادهم.

---

١ - **نهج البلاغة**: الخطبة ٢٠٨.

٢ - **الإرشاد** ١: ٢٨١.

وما قرّ للعراق قرار بعد ذلك إلّا حين حكمه زياد ابن أبيه، وابنه عبيد الله، أو الحجّاج وأضرابهم... وهكذا، فالاستبداد وحده كفيل بإخماد توتّراته السياسيّة. وأداره المختار بالسياسة ردحاً من الزمن، لكنّه أيضاً لمّا لم يرد أن يستبدّ، لم يستطع توحيد الكوفة، فكيف بالعراق؟

وكلمات أمير المؤمنين عليه السلام ذاته حول معنويّات هؤلاء الناس معبِّرةٌ غاية التعبير، ومنها: أنّه عليه السلام شبّههم [شبّه أهل العراق] بالمرأة الحامل التي حملت، فلمّا أتمّت أمْلَصت.[١] ومنها: أنّه شبّههم بالإبل التي لا راعي لها، كلّما اجتمعت من جانب تفرّقت من جانب آخر.[٢]

فطبيعة كهذه لايمكن أنْ تتحمّل والياً متريّثاً مصلحاً، لا سيّما إذا كان متمسّكاً ملتزماً بالطرق الشرعيّة المنطقيّة الإنسانيّة. من هنا، كان عليه السلام كلّما أصرّ عليهم في أيّامه الأخيرة أن يتّحدوا لمواجهة أهل الشام لم يفعلوا، بل لم ينهضوا للدفاع عن العراق نفسه، فانطلق لسانه في توبيخهم، فقال: أَيَّتُهَا الْفِرْقَةُ الَّتِي إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِعْ، وإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ... لله أَنْتُمْ! أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ، ولا حَمِيَّةٌ تَشْحَذُكُمْ؟ أَوَ لَيْسَ عَجَباً أَنَّ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفَاةَ الطَّغَامَ فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ ولا عَطَاءٍ وأَنَا أَدْعُوكُمْ وأَنْتُمْ تَرِيكَةُ الْإِسْلَامِ وبَقِيَّةُ النَّاسِ إِلَى الْمَعُونَةِ أَوْ طَائِفَةٍ مِنَ الْعَطَاءِ، فَتَفَرَّقُونَ عَنِّي وتَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ؟! إِنَّهُ لا يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضًى فَتَرْضَوْنَهُ، ولا سَخَطٌ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، وإِنَّ أَحَبَّ مَا أَنَا لَاقٍ إِلَيَّ الْمَوْتُ![٣]

هكذا حال هؤلاء الناس من الإمام عليّ عليه السلام، ذي السوابق المتألّقة

---

١ - **نهج البلاغة**: الخطبة ٧١.

٢ - **الإرشاد** ١: ٢٨٣ . وفيه: يا أشباه الإبل غاب عنها رُعاتها، كلّما اجتمعت من جانب، تفرّقت من جانب آخر.

٣ - **نهج البلاغة**: الخطبة: ١٨٠؛ **شرح النهج** ١٠: ٦٧.

المشرقة، حتّى تمنّى الموت! وكان عليه السلام قادراً على تطويعهم بالأساليب غير الإسلاميّة، كما فعل معاوية، أو سَوقهم إلى الحرب بالقوّة والإكراه، أو الخداع، بيد أنّه لم يفعل وحاشاه أن يفعل ، ولمّا كانوا قد أحبّوا البقاء، فلم يحملهم على ما يكرهون[1]؛ ذلك أنّه إذا فعل ذلك، فقيادته ليست «إمامة» بل «مَلكيّةً». وهذا هو ما كان يتفاخر به معاوية. ومهما كان، فمثل هؤلاء الناس كانوا في مستهلّ خلافة الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام، فإنّهم لم يطيعوا أمر إمامهم في الدفاع عن العراق، وحين ذهبوا إلى بيوتهم للاستراحة بعد النهروان، لم يرجعوا[2]!

وأخذت مشاكل الإمام عليه السلام تزداد في هذه المرحلة، وتعزّزت قاعدة معاوية بالشام أكثر من ذي قبل، وكان أهلها يُسمّون معاويةَ أميراً قبل التحكيم، وها هو أصبح «أميرَ المؤمنين» عندهم. أمّا العراق، فَقَدْ فَقَدَ وحدته التي كانت قائمة في حرب صفّين. وأضعفت كثرة القتلى الذين قدّمهم العراقيّون في صفّين والنهروان[3] معنويّاتهم بشدّة لتعلّقهم بالدنيا، ويُضافُ إلى ذلك أنّ الحسن عليه السلام هو ابن الإمام عليّ عليه السلام، وهذه الأمور كلّها زادت الأوضاع تعقيداً. في الوقت نفسه كان العراق يخشى من تسلّط الشام، ولم يتّبع أهله إمامَهم، بيد أنّهم لم يرضوا بقتله وشهادته أيضاً؛ لأنّهم لم يريدوا الرضوخ لسلطة معاوية على العراق، لذلك لم يكن لهم بُدٌّ إلّا بيعةَ ابن الإمام عليّ عليه السلام. ولم تتهيّأ أرضيّة قيادة العراق لأحدٍ في تلك الظروف إلّا للإمام الحسن عليه السلام، وعلى فرض غيابه فإنّ بني أميّة كانوا سيسيطرون على العراق طبيعيّاً. وفي

---

١ - **شرح النهج** ١١: ٢٩، وفيه: وقد أحْبَبْتُمُ البقاء، وليسَ لي أن أحملكم على ما تكرهون.

٢ - نفسه ٢: ١٩٣؛ **مروج الذهب** ٢: ٤١٨.

٣ - مع أنّ القتلى من أنصار الإمام عليه السلام كانوا قليلين، لكنّ كثيراً من الخوارج الذين قُتلوا في هذه الوقعة كانوا من قُربى أهل الكوفة.

ذات الوقت لم يتأصّل مطلب العراقيّين على المدى الذي يمكّنهم من الالتزام بعهدهم لإمامهم الجديد عمليّاً، بل - كما وقع آخر الأمر - عند الاختيار استحبّوا البقاء مع الحكم الأمويّ (وإن كان بإكراه) على البقاء مع الإمام عليه السلام. وهكذا لم يبق مبرّر لبقائه عليه السلام مع مثل هؤلاء الناس، فما كان منه ألّا التوجّه تلقاء المدينة [المنوّرة].

الإجراءات الأولى للإمام عليه السلام ومعاوية

أشرنا سابقاً إلى أحد كتب الإمام عليه السلام إلى معاوية وجوابه، ولم يكن للكتب المتبادلة ـ التي نقل الأصفهانيّ نصوصها[1] ـ ثمرةٌ تُذكر. ويتعيّن علينا أن نقول: إنّ الإمام الحسن عليه السلام كان يعلم أنّ معاوية لا يستجيب لمثل هذه الكتب، فما كان مهمّاً هو أنّ الكتب المذكورة خَلُدت في التاريخ كوثائق، وأرتأينا أدلّة الجانبين على شرعيّتهما، وبقيت حجّةً للإمام عليه السلام في جملة حُججه الخالدة.

وجدّ معاوية في تقصّي أخبار الكوفة والبصرة عبر جواسيسه الذين دسّهم، وقد عُرِف أولئك الجواسيس، وقُتلوا بأجمعهم[2]، وفي هذا الشأن كاتَبَ الإمامُ عليه السلام وعبدُ الله بن عبّاس معاوية، ونبّهاه على بغيه، وآخر تهديدٍ للإمام عليه السلام هو أنّ معاوية إذا تمادى في غيّه، فسيتوجّه إليه بالمسلمين: فحاكمتُك إلى الله حتّى يَحكُمَ اللهُ بيننا وبينكم، وهو خيرُ الحاكمين[3].

ولمّا لم تُثمر المراسلات بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية، كتب الإمام عليه السلام

---

١ - **مقاتل الطالبيّين**: ٦٢- ٦٨.

٢ - نفسه: ٦٢؛ **شرح النهج** ١٦:٣١؛ **الإرشاد** ٢: ٩.

٣ - **مقاتل الطالبيّين**: ٦٦ . يخلو هذا المصدر من كلمة (وبينكم) . المترجم.

إليه قائلاً:... فليس بيني وبينكم إلّا السيف[1]. وبعد ذلك كتب معاوية إلى عمّاله في شتّى الأمصار، وعبّر عن سروره بقتل الإمام عليّ عليه السلام وشهادته، وأنّ عدوّه قد قضى بلا عناء، وأنّ أوضاع الكوفة متخلخلة، والخلاف ناشب بين أصحابه [أصحاب الإمام الحسن عليه السلام]، وأضاف (كاذباً أو صادقاً): «وقد جاءتنا كتبُ أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم، فأقبلوا إليّ حين يأتيكم كتابي هذا... فقد أصبتم بحمد الله الثأر...»! ثمّ سار مع جنده، وبلغ جسر منبج، وسار الإمام الحسن عليه السلام إليه، وبعث حُجر بن عَدِيّ يأمر العمّال والناس بالتهيّؤ للمسير، واجتمع الناس بالكوفة، وخطب الإمام عليه السلام فيهم... فقال: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2]، فلستُم - أيّها الناس - نائلين ما تُحبّون، إلّا بالصبر على ما تكرهون. إنّه بلَغَني أنّ معاوية بلَغه أنّا كنّا أزمَعْنا على المسير إليه، فتحرّك لذلك، فاخرجوا - رحمكم اللهُ - إلى معسكركم بالنُّخَيلة[3]. قال الأصفهانيّ: «وإنّه في كلامه لَيتخوّفُ خذلان الناس إيّاه، قال: فسكتوا، فما تكلّم منهم أحد»! فلمّا رأى ذلك عَدِيُّ بن حاتم قال: «أنا ابن حاتم، سبحان الله، ما أقبح هذا المقام! ألا تُجيبون إمامكم وابن بنت نبيّكم»؟! «... ثمّ استقبل الحسن بوجهه»، وأعلن عن طاعته له، ومضى إلى النخيلة، ومضى معه رجال قبيلته طيّئ، وهو يرأسهم، نقل اليعقوبيّ أن كان في رجال عديّ ألفُ مقاتل، لا يعصون له أمراً[4]. ثم تحدّث بعده قيس بن سعد بن عُبادة، ومَعْقِل بن قيس، وزياد بن صَعْصَعة، وتهيّأ زهاء اثني عشر ألفاً في

١ - شرح النهج ١٦: ٢٦.

٢ - الأنفال: ٤٦.

٣ - مقاتل الطالبيّين: ٦٩.

٤ - تاريخ اليعقوبيّ ٢: ١٨١.

النُّخَيلة، فمضى بهم الإمام الحسن عليه السلام حتّى دير عبد الرحمان[١].

ويتعيّن علينا الالتفات إلى أنّ معنويّات أهل العراق خُدِشت بعد التحكيم، وكانوا قد مهّدوا في أذهانهم احتمال الصلح بينهم وبين القاسطين، بيد أنّهم لمّا شعروا بتسلّط معاوية على العراق، رجفت فرائصهم. وفي هذه النوائب تغافل فريقٌ منهم، وارتاب فريق آخر أشدَّ الارتياب، ولم يلحق بالإمام الحسن عليه السلام إلّا أقلّيّة منهم. وأزمع عليه السلام الترحال إلى المعسكر، واستخلف على الكوفة ابن عمّ أبيه المُغيرة بن نوفل؛ ليحثّ الناس على السير نحو النخيلة. قال الحارث الهَمْدانيّ: «فركب وركب معه مَن أراد الخروج، وتخلّف عنه كثير، فما وَفَوا بما قالوا وبما وعدوه»[٢]. وفي ضوء هذا الخبر، رجع الإمام عليه السلام إلى الكوفة ليعبّئ الناس للقتال.

وموقفه عليه السلام هذا يُغاير ما ذكره الزهريّ وغيره، إذ قالوا: «كان الحسن لايُؤْثر القتال، ويميل إلى حقن الدماء[٣]، ولم يكن في نيّة الحسن أن يقاتل أحداً، ولكن غَلَبوه على رأيه»[٤]، أي أنّه لم يرغب في الحرب. ويضاف إلى موقفه المذكور، أنّه عليه السلام زاد رواتب جنده تعزيزاً لمعنويّاتهم[٥]، وكانت هذه الزيادة في مستهلّ خلافته، كي يتأهّبوا لمواجهة أهل الشام.

وبلغ عدد السائرين إلى النّخيلة اثنَي عشر ألفاً، وكان مسيرهم إليها إمّا استجابةً لضغط الدعايات وإمّا تبعيّةً لرؤسائهم. ومع ما نصّ أغلب المصادر التاريخيّة على هذا العدد، ذهب بعض إلى أنّ العدد أربعون ألفاً، وقيل : خرج

---

١ - **مقاتل الطالبيّين**: ٧٠ – ٧١.

٢ - **بحار الأنوار** ٤٤: ٤٤ / ح٤ – عن: **الخرائج والجرائح** ، للراونديّ.

٣ - **تاريخ الطبريّ** ٥: ١٥٨؛ **تذكرة الخواصّ**: ١٩٦.

٤ - **البداية والنهاية** ٨: ١٤.

٥ - **مقاتل الطالبيّين**: ٦٤.

الإمام الحسن عليه السلام بأربعين ألفاً حتّى نزل بـ «دير عبد الرحمان»، ثمّ دعا قيس ابن سعد وضمّ إليه ألف رجل وجعله على مقدّمته[١]. ولا يصحّ هذا الرقم للأسباب الآتية:

أوّلاً: نصّت الأخبار التاريخيّة على أنّ الإمام عليه السلام حين دعا الناس لم يُجبه أحدٌ منهم، فكيف بلغ جمعهم هذا العدد فجأةً؟!

ثانياً: إذا كان عنده هذا العدد من الأنصار، فلم تكن هنالك ضرورة لذهابه إلى المدائن من أجل حشد الناس، فيمهّد لخطر انفصاله عن جيشه!

ثالثاً: لم يتحدّث مؤرّخون كثيرون عن الإيفاد بنحو دقيق، والعدد الذي نقلوه هو اثنا عشر ألفاً[٢].

رابعاً: من المحتمل قويّاً أنّ منشأ هذا القول خبر مختَلَق حول عدد الذين بايعوه عليه السلام حين شهادة أبيه عليه السلام، وهم الذين قُرّر أن يواجهوا جند الشام، والعدد المذكور في الخبر أربعون ألفاً.[٣] ويرى بعض[٤] أنّ هذا الخبر حمل رجالًا على الظنّ أنّ هؤلاء الأشخاص كانوا مستعدّين للتعاون معه عليه السلام، وإن حامَ شكّ كبير حول مبايعةِ هذا العددِ أميرَ المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام.

خامساً: أنّ ما تكرّر من كلام للإمام أمير المؤمنين عليه السلام في ذمّ أهل الكوفة بسبب إحجامهم عن المسير معه إلى حرب الشام - وهو ما جاء في نهج البلاغة وسائر المصادر - يجعلنا لا نصدّق باصطحاب العدد المذكور ابنَه الحسنَ عليه السلام.

---

١ - **الفتوح** ٤: ١٥٣؛ **الكامل في التاريخ** ٣: ٦١.

٢ - **مقاتل الطالبيّين**: ٧١؛ **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٢١٤؛ **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن عساكر: ١٦٧.

٣ - **ذخائر العقبى**: ١٣٨ - ١٣٩.

٤ - **صلح الحسن** عليه السلام، للشيخ راضي آل ياسين، ص ١٢٣.

سادساً: أنّ الدليل المهمّ لعقد الصلح - كما سنرى لاحقاً - هو خذلانُ الناس، وهذا ما صرّح به الإمام عليه السلام غيَر مرّةٍ، ومن الواضح أنّ مثل هذه التصريحات لا تصدر عنه عليه السلام إذا كان معه أربعون ألفاً.

و تولّى عبيد الله بن العبّاس قيادة جيش الإمام عليه السلام، ووهم الزهريّ في أنّ القائد هو عبد الله بن عبّاس [1]، وذهب بعض إلى أنّه قيس بن سعد[2]. وطبعاً تولّى قيس القيادة بعد فرار عبيد الله، ويبدو أنّ اختيار عبيد الله لا امتراء فيه[3]؛ لأنّ اختيار رجل من أهل بيت الإمام الحسن عليه السلام في ذلك الجوّ المريب هو أفضل خيار لانتخاب قائد الجيش. ونزيد على ذلك بُغض عبيد الله الشديد لمعاوية بسبب ذبح بسر بن أرطاة [قبّحه الله ولعنه] ـ أحدِ أمراء معاوية ـ وَلَدَيه بمنظر من أمّهما، وذلك في غارته [المعروفة] على الحجاز واليمن. وفي الوقت نفسه راعى الإمام الحسن عليه السلام جانب الاحتياط، فعيّن لعبيد الله معاونَين هما: قيس بن سعد، وسعيد بن قيس.

ووجّههم الإمام الحسن عليه السلام إلى العدوّ، وسار هو إلى ساباط المدائن، وقبل تحرّكه زوّد عبيد الله بن العبّاس ببعض النصائح، ومنها: أنّه قال له: وألِنْ لهم جانبك، وابْسُط لهم وجهَك، وافرشْ لهم جناحَك، وأدْنِهم مِن مجلسِك... وشاورْ هذين - يعني قيس بن سعد وسعيد بن قيس - وإذا لقيتَ معاويةَ فلا تُقاتلْه حتّى يقاتلَك، وذكّره بأنّ الذين معه هم بقيّة ثِقات أمير المؤمنين عليه السلام، ثمّ أمره أن يسير بهم على شطّ الفرات حتّى يقطع بهم الفرات، ثمّ يعبر «مَسْكِن»، ويستقبل بهم معاويةَ، ويبقى هناك إلى أن يأتيه الإمام الحسن عليه السلام[4].

---

١ - انظر: **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٦٨.

٢ - **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن عساكر: ١٧٦.

٣ - **أنساب الأشراف** ٣: ٣٤.

٤ - **مقاتل الطالبيّين**: ٧١؛ **شرح النهج** ١٦: ٤٠.

ومضى الإمام الحسن عليه السلام نفسه إلى ساباط المدائن... قال الدينوريّ: وجّه معاويةُ عبد الله بن عامر بن كُريز إلى الأنبار على رأس جيشٍ ليتقدّم منها إلى المدائن، وبلغ ذلك الحسنَ بن عليّ عليه السلام، فسار نحو المدائن[1].

والحادثة التي وقعت هناك، ونقلها المؤرّخون جميعاً، هي حملةُ الخوارج على الإمام الحسن عليه السلام. وذكر مؤرّخون مثل: الدينوريّ، والبلاذريّ، وأبي الفَرَج الأصفهانيّ - وحتّى الشيخ المفيد الذي روى عن الأصفهانيّ - أنّ الإمام الحسن عليه السلام خطب في ساباط خطاباً تُشَمُّ منه رائحة الصلح، فهاجم الخوارجُ مَضاربَه وما فيها. وكلامهم هذا لا ينسجم وظاهرَ الوقائع، إذ كيف يمكن أن يتحدّث الإمام الحسن عليه السلام قبل الوقيعة حديثاً - سدىً - تشمّ منه رائحة الصلح، وهو الذي قدم المدائن للحؤول دون حملة العدوّ عليها أو لتهيئة الجند؟ وهنا حفظ اليعقوبيّ لنا خبراً يُبينُ فيه ما جرى. فمعاوية الذي لم يَرْعوِ عن المكر والخديعة في كلّ موطن، وجّه المُغيرةَ بن شعبة وعبدَ الله ابن عامر وعبد الرحمان بن أُمّ الحكم إلى ساباط ليُحادثوا الحسن حول الصلح، وحين رجعوا منه بخُفَّي حُنين، قالوا بصوت يسمعه الناس: «إن الله قد حقن بابن رسولِ الله الدماء وسكّن به الفتنة، وأجاب إلى الصلح»! قال اليعقوبيّ: فاضطرب العسكر ولم يشكّك الناس في صدقهم، فوثبوا بالحسن فانتهبوا مَضاربَه وما فيها»[2].

وأحاط به شيعته وأبعدوه عن المعركة. مع هذا، حمل عليه الجرّاح بن سنان وطعنه بمِغْولٍ في فَخِذه وهو يقول: «أشركتَ كما أشركَ أبوك [من قبل]»، فتدافع الشيعةُ على الجرّاح وقتلوه. وحُمِل الإمام عليه السلام إلى دار أمير

---

١ - **الأخبار الطوال**: ٢١٦.

٢ - **تاريخ اليعقوبيّ** :٢: ٢١٥، المضارب: جمع مضرب، وهو الخيمة العظيمة . المترجم .

ساباط سعد بن مسعود الثقفيّ - عمّ المختار - وأقام عنده يعالج نفسه[١].

ويتبيّن من كلام اليعقوبيّ حول شغب المدائن مطلبٌ في غاية الأهميّة، وهو أنّ حادثة المدائن انبثقت من مؤامرة معاوية وأمرائه الذين كان على رأسهم رجلٌ ماكر كالمُغيرة بن شُعبة.

وقال الإمام الحسن عليه السلام بعد جرحه مخاطباً الناس: يا أهلَ العراق! اتّقوا الله فينا، فإنّا أمراؤُكم وضيفانُكم، أهلُ البيتِ الذين قال الله: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾. قال الراوي: «... حتّى ما رُئيَ أحد من أهل المسجد إلّا وهو يخنّ بكاء»[٢]!

ولّد تعبئة المدائن لصدّ المعتدين الناهبين من أهل الشام، مشاكل خاصّة. واستقرّ جيش عبيد الله في قرية الحبوبيّة بمسكِن أمام جيش الشام. وفكّر معاوية - كعادته دائماً في استخدام الأساليب الماكرة الخادعة - أن يخدع جيش الإمام عليه السلام، فوجّه مفترياً، وهو عبد الرحمان بن سَمُرة إلى عبيد الله وجيشه ليخبرهم بأنّ الحسن سأله الصلح، فكذّبوه وشتموه[٣].

ثمّ أرسل إلى عبيد الله بن العبّاس خفيةً أنّ الحسن قد راسله في الصلح، فإن جاءه الآن فله ألفُ ألفِ درهم [مليون]، يعجّل له في هذا الوقت النصف، وإذا دخل الكوفة النصف الآخر! فانسلّ عبيد الله ليلاً، فدخل عسكرَ معاوية، فأصبح الناس ينتظرون أن يخرج عبيد الله فيصلّي بهم! ثمّ صلّى بهم قيس بن سعد [بن عُبادة] ، وخطب طاعناً في العبّاس بن عبد المطّلب أبي عبيد الله أنّه كان مع المشركين يوَم بدر، وأسِر فيه، وقدح في عبيد الله أنّه كان والياً للإمام

١ - **مقاتل الطالبيّين**: ٧٢.

٢ - **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٦٧، ١٦٩، ١٧٠؛ **المعجم الكبير** ٣: ٩٦ / الرقم ٢٧٦١؛ **مجمع الزوائد** ٩: ١٦٧.

٣ - **أنساب الأشراف** ٣: ٣٧.

أمير المؤمنين عليه السلام على اليمن، فهرب من بُسر بن أرطاة وترك ولدَيه حتّى ذَبَحهما بُسر[١].

ويُستشفّ من دفع معاوية المال، ومن أخبار أخرى أيضاً، أنّه افترى على الإمام عليه السلام موضوع طلب الصلح، فلو كان الإمام عليه السلام راضياً بالصلح أساساً، فلا معنى لاستعداد معاوية دفعَ ألف ألف درهم لعبيد الله. وكان كثير من أهل العراق ينتظرون أن يروا رغبة الإمام عليه السلام في الصلح، فلا يلبثوا لحظةً واحدةً في الجيش. وبانسلال عبيد الله، التحق قُرابة ثُلُثَي الجيش بمعاوية[٢]، وبذلك بقي أربعة آلاف منهم مع قيس بن سعد.

وظنّ معاوية أنّه لم يبق شيء بعد التحاق عبيد الله بن العبّاس وهذا العدد المذكور به، فبعث بسر بن أرطاة إلى من تبقّى من الجيش، وكان الناس متأهّبين للهجوم عليهم، فرجع بسر، ثمّ حمل عليهم مع جماعة معه، فاقتتلوا، فهزمهم قيس بن سعد وأصحابه، وقُتل من الفريقين قتلى[٣]. وحاول معاوية أن يخدع قيساً أيضاً، لكنّ قيساً قال بأنّه لن يُخدع عن دينه، فطفق معاوية يُهينه ويحقّره، ونبزه بأنّه يهوديّ ابن يهوديّ! وقال له: «فخذله قومه [خذل قومُ أبيه سعدِ بنِ عبادة أباه سعداً]، وأدركه يومه، فمات بحوران طريداً غريباً»، فأجابه قيس: «... فإنّما أنت وثنٌ ابنُ وثنٍ من هذه الأوثان، دخلت في الإسلام كُرْهاً، وأقمتَ عليه فَرَقاً، وخرجتَ منه طَوْعاً... ولم تزل حرباً لله ورسوله، وحزباً من أحزاب المشركين»[٤]. وأشار الأصفهانيّ بعد نقل هذا الخبر إلى وفدٍ بعثه معاوية إلى ساباط ليتحدّث مع الإمام الحسن عليه السلام. وهذا يدلّ على أنّ معاوية

١ - مقاتل الطالبيّين: ٧٣.
٢ - أنساب الأشراف ٣: ٣٨.
٣ - نفسه.
٤ - مقاتل الطالبيّين: ٧٤؛ أنساب الأشراف ٣: ٣٩- ٤٠.

ما أراد من عبيد الله إلّا خداعه.

وبلغ معاويةَ خبرُ جرح الإمام الحسن عليه السلام قبل أن يبلغ جيشَ العراق ذلك، بواسطة كثرة جواسيسه، فكتب إلى قيس يُعْلمه عُقم إصراره على القتال. واختلف أصحاب الإمام عليه السلام على إمامهم، وجرحوه في ساباط، فتوقّف قيس عن القتال ينتظر ما يكون من أمر الإمام عليه السلام [1]، ولمّا رأى وجوه العراق هذا الوضع وقوي احتمالهم بغَلَبة معاوية، بدأوا يلتحقون به أو يراسلونه بالبيعة. قال البلاذريّ: وجعل وجوه أهل العراق يأتون معاويةَ فيبايعونه، فكان أوّلَ من أتاه خالدُ بن مُعمَّر، فقال: أبايعك عن ربيعة كلِّها ففعل... فلذلك قال الشاعر:

مُعاويَ أكرِمْ خالدَ بن مُعمَّرٍ ... فإنّك لولا خالدٌ لم تُؤمَّرِ [2]

والسياسة التي أصاب منها معاوية حظّاً وافراً هي استخدام الأراجيف التي بثّها هو نفسه في الكوفة وساباط، وفي ساحة القتال. وكان الكوفيّون يخالون أنّ كلّ شيء قد انتهى، وأُشيع في ساحة القتال أنّ إمامكم قد طلب الصلح. وفي ساباط بلغ الإمامَ الحسن عليه السلام خبُر انحياز عبيد الله بن العبّاس والقسم الأعظم من الجيش إلى معاوية، بل أشيع أنّ قيساً قد صالح أيضاً. ولم يلتفت أحد من المؤرّخين إلى هذه الأراجيف المتعدّدة الجوانب بدقّة إلّا اليعقوبيّ، فقال: «وكان معاوية يدسّ إلى عسكر الحسن مَن يتحدّث أنّ قيس ابن سعد قد صالح معاوية وصار معه ؛ويوجّه إلى عسكر قيس مَن يتحدّث أنّ الحسن قد صالح معاوية وأجابه» [3]. ومن المؤسف أنّ فريقاً من المؤرّخين ضبط هذه

---

١ - **أنساب الأشراف** ٣: ٣٨.

٢ - نفسه ٣: ٣٩.

٣ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٢١٥.

الأراجيف كأخبار تاريخيّة، ومن هؤلاء محمّد بن سعد، فقد سجّل احتيالَ المُغيرة بن شعبة الذي شَغَبَ فئةً من الناس في ساباط المدائن، كخبرٍ تاريخيّ يعبّر عن قبول الإمام عليه السلام بكلّ ما تعهّد به معاوية[1].

ولحق بمعاوية خلق كثير من أشراف العراق، وأخبروه بأنّهم مستعدّون لتسليم الإمامَ الحسن عليه السلام إليه مكتوفاً. وذكر ابن أعثم أنّ قيساً لمّا كتب إلى الإمام يخبره بأمرهم، دعا عليه السلام وجوهَ أصحابه، وقال لهم: يا أهل العراق! ما أصنعُ بجماعتكم معي، وهذا كتابُ قيس بن سعد يُخبرُني بأنّ أهل الشرف منكم قد صاروا إلى معاوية. أما والله ما هذا بمنكرٍ منكم؛ لأنّكم أنتُمُ الذين أكرهتُم أبي يومَ صِفّين على الحكمين، فلمّا أمضى الحكومة وقَبِل منكم اختلفتُم! ثمّ دعاكُم إلى قتال معاوية ثانيةً فتوانيتم! ثمّ صار إلى ما صار إليه من كرامة الله إيّاه. ثمّ إنّكم بايعتُموني طائعين غيرَ مُكرَهين، فأخذتُ بيعتكم، وخرجتُ في وجهي هذا، واللهُ يعلم ما نَويتُ فيه، فكان منكم إلى ما كان. ياأهل العراق! فحَسْبي منكم لا تغرّوني في ديني[2].

وتدلّ كلماته المُبينةُ عليه السلام على أنّه لم يشكّ في الحرب أدنى شكّ، بيد أنّ الموقف المَشين الذي وقفه الناس منه أضناه وأنهكه، وشتّت جيشه.

معاوية وطلب الصلح

إنّ النقطة المهمّة في توضيح موقف الإمام الحسن عليه السلام هي أنّه لم يعرض أيَّ طلبٍ للصلح ، وكان معاوية يريد الاستيلاء على العراق بلا متاعب، وكان يُصرّ على إرضاء الإمام عليه السلام بالتنازل عن الحكومة. وفي مقابل هذا الرأي، أظهرت بعض المصادر بعد الأراجيف التي كانت تُبثّ يومذاك - ونقلها لفيف

١ - **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٦٩.
٢ - **الفتوح** ٤: ١٥٧. وازن هذه الكلمات بالكلمات المحرَّفة في **أنساب الأشراف** ٣: ٣٩.

من رواة الأخبار كأخبار تاريخيّة - أنّ الإمام هو الذي عرض الصلح، وكان راغباً فيه![1]

وثمّة أمثلة وشواهد تؤيّد الرأي الأوّل، وأوّلها خبر اليعقوبيّ، فقد قال: «وجّه معاوية رجالًا إلى ساباط المدائن ليكلّموا الحسن بالصلح»[2]. وهذا هو اللّقاء الذي رفض فيه الإمامُ عليه السلام عرض الصلح، فعلى هذا، ردّ الإمام الحسن عليه السلام أوّل طلب للصلح عَرَضه معاوية. والمثال الآخر كُتبه عليه السلام الأولى إلى معاوية، إذ حوت جميعها إصرارَه على الحرب، وفيها تهديده عليه السلام معاوية بالمواجهة إذا لم يستسلم، حتّى قال عليه السلام لمبعوث معاوية مرّةً: قل لمعاوية: ليس بيننا وبينَك إلّا السيف. وكلّ أولئك يدلّ على أنّ موقفه عليه السلام كان موقف الحرب لا الصلح. والمثال الثالث هو قوله الصريح للناس حين خاطبهم ذات مرّة:... ألا وإنّ معاويةَ دعانا إلى أمرٍ ليس فيه عِزٌ ولا نَصَفَة، فإن أردتُمُ الموتَ ردَدْناه عليه، وحاكمناهُ إلى الله جلّ وعزّ بظُبا السُّيوف، وإن أردتُمُ الحياة قَبلْناه وأخذنا لكمُ الرضى[3]. قال سبط ابن الجوزيّ: لمّا عرف الحسن تفرّقَ الناس عنه وخيانةَ أهل الكوفة، رَغِبَ في الصلح، وكان معاوية قد دعاه إليه قبل ذلك فأبى . وأضاف بأنّ معاوية هو الذي كاتبه بالصلح[4]. وذكر الشيخ المفيد أيضاً أنّ معاوية كتب إلى الإمام عليه السلام بالصلح.[5]

ونعتقد ـ كما قلنا في مواضع أخرى أيضاً ـ أنّ الأراجيف التي بثّها

---

١ - انظر: **البداية والنهاية** ٨: ١٤؛ **الكامل في التاريخ** ٣: ٢٠٥.

٢ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٣: ٢١٥.

٣ - **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن عساكر: ١٧٨ - ١٧٩؛ **الكامل في التاريخ** ٣: ٤٠٦؛ **أعلام الدين**: ١٨١؛ **بحار الأنوار** ٤٤: ٢١ / ح ٥؛ **تذكرة الخواصّ**: ١٩٩.

٤ - **تذكرة الخواصّ**: ١٩٧.

٥ - **بحار الأنوار** ٤٤: ٤٨ / ح ٥.

معاوية حول الصلح حملت بعض المؤرّخين على التصريح بأنّ الإمام الحسن عليه السلام هو الذي عرض الصلح، فقد جاء في خبر: أنّ معاوية أرسل عيونه إلى مقدّمة الحسن عليه السلام، ليشيعوا بينهم أنّ الحسن كتب إليه يريد الصلح، «فعلامَ تقتلون أنفسَكم» [1]؟! وكتب معاوية إلى عبيد الله بن عبّاس يخدعه قائلاً: إنّ الحسن قد راسلني في الصلح.[2] واتّخذت هذه الإشاعات والأراجيف فيما بعد طابع المسلّمات التاريخيّة، وقلبت الحقائق رأساً على عَقِب.

أسباب قبول الإمام الحسن عليه السلام الصلح

اجتمعت عدّة أسباب حالت دون بلوغ الإمام الحسن عليه السلام بالناس هدفَه الأصليّ المتمثّل بخوض حرب ضروس ضدّ معاوية للقضاء على فتنه، فرأى ضرورةَ ترك حربٍ خاسرة؛ حفظاً لأصل الإسلام وحؤولاً دون إراقة للدماء لا طائل تحتها. وفيما يأتي بعض الأسباب المذكورة:

أ - تواني الناس وفتورهم في دعم الإمام عليه السلام، وهذا من أهمّ الأسباب التي دفعته عليه السلام إلى اتّخاذ الموقف الجديد. ولايستطيع أحد أن يدّعي بأنّه عليه السلام لم يعتقد قتال معاوية، فكلماته ومواقفه تُثْبت عكس هذا الافتراء تماماً، وما جرى في ساباط آية من أهمّ الآيات التي كانت تبرهن على أنّه عليه السلام لم يستطع أن يعتمد على مثل هؤلاء الناس المتخاذلين في الحرب.

وكانت بصيرته عليه السلام تدرك خذلان القوم له، كما عبّر الشيخ المفيد[3]. وكان قُتل عدد كبير منهم مع أبيه أمير المؤمنين عليه السلام في الجمل وصفّين والنهروان، فسئم الباقون من الحروب، ولم يجدوا في أنفسهم قدرةً على مواصلة الحرب

---

١ - **شرح النهج** ١٦: ٤٢ .

٢ - نفسه.

٣ - **الإرشاد**: ٢: ١٣.

في نصرة الإمام الحسن عليه السلام، بل كانوا يرون أنفسهم غرماء الحكومة وطلّاب ثأرٍ من أهل البيت [عليهم السلام]، وزعموا أنّ الإمام عليه السلام مسؤول عن دماء قتلاهم. وتقدّم أنّه عليه السلام لمّا بلغه فرار جماعة من جنده، التفت إلى الناس قائلاً: خالفتم أبي حتّى حُكِّم وهو كاره، ثمّ دعاكم إلى قتال أهل الشام بعد التحكيم، فأبيتم حتّى صار إلى كرامة الله. ثمّ بايعتموني على أن تُسالموا مَن سالَمَني، وتحاربوا مَن حاربني. وقد أتاني أنّ أهل الشرف منكم قد أتَوْا معاويةَ وبايعوه، فحسبي منكم! لا تَغرُّوني مِن ديني ونفسي[1]. قال الجاحظ في سبب اعتزاله عليه السلام:... إلى أن كان من اعتزال الحسن عليه السلام الحروب وتخليته الأمور عند انتشار أصحابه، وما رأي من الخلل في عسكره وما عرف من اختلافهم على أبيه وكثرة تلوّنهم عليه...[2].

وبَصُر الإمام الحسن عليه السلام أنّه لا يمكنه الثقة بهؤلاء الناس، ولا يشمل سلب الثقة هذا تركُهمُ التعاون معه فحسب، بل يشمل ما قاله عليه السلام في هذا المجال أيضاً، فقد قال: والله لو قاتلتُ معاويةَ لأخذوا بعُنُقي حتّى يدفعوني إليه سلماً[3]. وقال في موضع آخر: ورأيت أهل العراق لايثق بهم أحدٌ أبداً إلّا غُلِب، ليس أحدٌ منهم يوافق آخرَ في رأي ولا هوى، مختلفين لا نيّة لهم في خيرٍ ولا شرّ[4]. فلم يمكن قتال أهل الشام المتّحدين اتّحاداً تامّاً، المعروف هدفهم ونيّتهم، بأُناس متفرّقين مذبذبين، لا إرادة لهم ولا عزيمة. ونظرة على الكلمات الممضّة الموجعة التي نطق بها أمير المؤمنين عليّ عليه السلام سنة ٣٩

١ - **شرح النهج** ١٦: ٢٢.
٢ - **رسالة الجاحظ في بني أميّة**، المطبوعة في كتاب عصر المأمون ٣: ٧.
٣ - **إعلام الورى**: ٢٠٥؛ **بحار الأنوار** ٤٤: ٢٠ / ح ٤؛ **عوالم العلوم** ١٦: ١٧٥.
٤ - **الكامل في التاريخ** ٣: ٤٠٥. في المصدر المذكور: أهل الكوفة لا أهل العراق. المترجم.

و٤٠هـ، تُقنع كلّ منصف بأن لا حيلة إلّا تصالح العراق والشام. ولم يكن من المعقول أن يتحرّك الإمام الحسن عليه السلام أعزل، ويسلّم نفسه وثلّةً من شيعته لشاميّين يقودهم مصّاص الدماء بُسر بن أرطاة، فالصلح الآن وسيلة وحيدة لصيانة العراق من النهب والغارة. وكان من الميسور أن يقاوم هو عليه السلام وثلّةٌ قليلة من أصحابه ويُستشهَد، بيد أنّ نتيجة ذلك غير واضحة ولا نافعة.

وكان معاوية قد أوجد ـ برفعه قميص عثمان ـ جوّاً مسموماً... ومضافاً إلى الشام، خضعت مصر وكثير من المناطق لسلطته. فماذا يراد من الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، في المقابل، أن يفعل وهو مَن هو في سابقته ونفوذ كلامه، ولم يكن لهذا وجه إلّا مهانة العراق أمام الشام، واستشهاد الإمام الحسن عليه السلام في مثل هذا الوضع يذهب هدراً. وهذه هي الشخصيّة التي يعرفها الجميع لمعاوية، ولا حاجة إلى إصرار وإثبات لمعرفتها. وربّما قيل خطأ: إنّ الإمام عليه السلام كان كارهاً للحرب... وهذا غير صحيح؛ فقد شهد عليه السلام حرب الجمل، وصفّين، وكان مؤيّداً كامل التأييد لسيرة أبيه عليه السلام، وكان يأبى إراقة الدماء بما لا طائل تحته، وما لا يثمر شيئًا بيّنًا.

ب – النقطة الأخرى التي تبيّن سبب الصلح برأي الإمام عليه السلام هي أنّ شبوب الحرب في الظروف الاعتياديّة منوط بحضور الناس فيها، وللحاكم أن يدفعهم إليها في حدّ خاصّ. وفي الحقيقة يتعيّن علينا أن نفصل بين نقطتين؛ الأولى: أيستطيع حاكم المسلمين أن يبدأ الحرب بأيّ حال من الأحوال حتّى بالمعارضة الصريحة لأكثر الناس؟ وإذا استطاع أن يفعل ذلك، ففي أيّ ظروف؟ الأخرى: هبْ أنّه يستطيع، أفهذا العمل يعدّ مصلحة للمسلمين أم لا؟

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يشاور المسلمين في الحرب، وقد بيّنا ذلك في

دراسة حروبهﷺ... وهنا ملاحظتان؛ الأولى: كان عمله المذكور يُسْبَقُ ببيعته للناس. الأخرى: كان الجهاد من فروع الدين، وما على المسلمين إلّا العمل به كالصلاة، فَلِمَ كان يشاورهم، مع وجود هاتين الملاحظتين؟ والجواب: هو أنّ عبء الحرب كان ثقيلاً جدّاً، وكان الناس أنفسهم يضطلعون بهذا العبء. والصلاة عبادة لا تستغرق إلّا وقتاً محدوداً من أوقات المسلمين، أمّا الحرب فهي مدعاة إلى ذهاب أنفسهم وأموالهم، وأحياناً تَشَرُّدِهم وتقصيهم عن بيوتهم. ومن الطبيعيّ بوجود مثل هذه النتائج للحرب -التي يسبّب شهادة فرد واحد فيها قلقَ طائفة وامتعاضها- أن يكون الناس على علم بها، ويتحمّلوا قَدْراً من خسائرها عبر المشورة. ومع أنّ الجهاد كان من فروع الإسلام، لم يستعن رسول اللهﷺ في السرايا التي سبقت بدراً بالأنصار الذين لم يتعهّدوا بالاشتراك في حروبه، وما استعان بهم ببدر إلّا بعد إعلان قادتهم الاستعداد للمشاركة فيها. ونلحظ المشاورات في أحد والأحزاب أيضاً.

ولنا أن نسأل بشأن الحرب: أيمكن فرض شيء على الناس بخصوصها أم لا؟ فسيرة أمير المؤمنين عليه السلام كانت قائمة على النصيحة وحدها، وأحياناً حمل الدِرَّة واستخدامها لتربية الناس، ولم يستعمل التعذيب والسيف لإكراه الناس على الحرب[1]، وكان يصرّح قائلاً: لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيراً فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُوراً. وكُنْتُ أَمْسِ نَاهِياً، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَنْهِيّاً. وقَدْ أَحْبَبْتُمُ الْبَقَاءَ، ولَيْسَ لِي أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ[2].

وكان الإمام المجتبى عليه السلام متمسّكاً بهذه السيرة أيضاً، فلمّا رأى الناس غير راغبين في أن يكون لهم إمام مثله، وغيرَ مستعدّين للاحتفاظ بموقعهم أمام

١ - **الغارات** ٢: ٤٥٨.

٢ - **نهج البلاغة**، الخطبة ٢٠٨؛ **شرح النهج** ٢: ٢٢٠، ١١: ٢٩.

الشام، فطبيعيّ أن يترك العراق ويُيمّم المدينة بعد النصائح اللّازمة التي كان أبوه عليه السلام قد قدّم القسم الأعظم منها سلفاً، إذ كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يُعلِم أهل العراق بما ينتظرهم من مستقبل عسير: أما إنّكم ستلقون بعدي ثلاثاً: ذُلّاً شاملاً، وسيفاً قاتلاً، وأثَرَةً يتّخذُها الظالمون عليكم سنّةً، فستذكروني عند تلك الحالات فتمنّون لو رأيتموني ونصرتموني، وأهرقتُم دماءكم دون دمي[1]!

و خطب الإمام الحسن عليه السلام مبيّناً مواقفه في مستهلّ إصرار معاوية على تنازل الإمام، وفي تلك الظروف العصيبة التي كان يمرّ بها العراق، وإهمال أهله مطالبته بالحرب، فأعلن عليه السلام منذ البداية أنّه لا يخامره أيّ شكّ أو تذبذب في قتال الشام، فقال: والله لايثنينا عن أهل الشام شكّ ولا ندم، وإنّما نقاتل أهل الشام بالصبر والسلامة. ثمّ تحدّث حول معنويّات الناس، فقال: وكنتم في منتدبكم [مُبتدَئكم] إلى صفّين ودينُكم أمامَ دُنياكم، فأصبحتم اليومَ ودُنياكم أمامَ دينكم. ألا وإنّا لكم كما كنّا، ولستم لنا كما كنتم. ألا وقد أصبحتم بعد قتيلين: قتيلٍ بصفّين تبكون عليه، وقتيلٍ بالنهروان تطلبون ثأره... ألا وإنّ معاوية دعانا إلى أمرٍ ليسَ فيه عِزّةٌ ونَصَفَةٌ. وأعلن عليه السلام ببيانه هذا لأهل العراق أنّ الدخول في الصلح لا ينفعهم أبداً، ثمّ طلب من الناس أن يبيّنوا ما عليهم، فقال عليه السلام: فإن أردتُمُ الموتَ رَدَدناه عليه وحاكمناه إلى الله عزّ وجلّ بظُبا السُّيوف، وإن أردتم الحياةَ قَبلناه وأخذنا لكم الرضى، فناداه القوم من كلّ جانب: البقيّةَ البقيّة. فلمّا أفردوه أمضى الصلح[2].

وقال عليه السلام في موضع آخر: إنّي رأيت هوى عُظْمِ الناس في الصلح،

---

١ - **الغارات ٢: ٤٩٢.**

٢ - **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن عساكر: ١٧٨ - ١٧٩؛ **الكامل في التاريخ ٣: ٤٠٦؛ أعلام الدين:** ١٨١، **بحار الأنوار ٤٤:** ٢١ / ح ٥؛ **تذكرة الخواص:** ١٩٩.

وكرهوا الحرب، فلم أحبَّ أن أحملَهم على ما يكرهون[١].

وقال عليه السلام في موطن آخر: أرى أكثَركُم قد نَكِل عن الحرب، وفَشِل في القتال، ولستُ أرى أن أحملَكُم على ما تكرهون[٢].

وذكر عليه السلام أنّ ترك الناس مسايرته هو الذي حمله على قبول الصلح مع معاوية، ولا حلّ غيره في مثل تلك الظروف.

وقال عليه السلام في موضع آخر: والله إنّي سَلّمتُ الأمر؛ لأنّي لم أجد أنصاراً، ولو وجدت أنصاراً لقاتلته ليلي ونهاري حتّى يَحكُمَ الله بيننا وبينه[٣].

ج- ومن الأسباب الأخرى التي حملته عليه السلام على قبول الصلح، هو المحافظة على البقيّة الباقية من الشيعة، وكان المنكرون للصلح فريقَين؛ الأوّل: المتطرّفون من الخوارج الذين كانوا حاربوا الإمام عليّاً عليه السلام لنفس السبب بعد أن طالبوه بالصلح وهدّدوه. والفريق الآخر: الشيعة أولو الروح الثائرة المتّقدة، الذين لم يكن لهم وعيٌ كامل للإمامة، فكانوا معارِضين للصلح، وكانوا ينكرون على الإمام عليه السلام بين فينة وأخرى، ومنهم مَن خاطبه: «يا مُذِلَّ المؤمنين»!

أمّا هو عليه السلام فقد رأى قبول الصلح «مجلبةً للعزّة»، وسمّى نفسه: «معزّ المؤمنين»، وذكر سبب ذلك قائلاً: إنّي لمّا رأيتكم ليس بكم عليهم قوّة، سلّمتُ الأمر لأبقى أنا وأنتم بين أظهُركم. ويُستشَفّ من كلماته الأخرى أنّ قصده من بقائهم وبقائه هو حفظ التشيّع، وبحفظهم تفوت الفرصة على معاوية في الغلبة عليهم وإذلالهم!

---

١ - **الأخبار الطوال**: ٢٢٠ .

٢ - نفسه: ٢١٧.

٣ - **بحار الأنوار** ٤٤: ١٤٧، وانظر: ٤٥ - ٤٦.

وقد شبّه عليه السلام عمله بخرق العالِم الذي كان مع موسى عليه السلام السفينةَ للمحافظة عليها لتبقى لأصحابها[١].

وقال عليه السلام في كلام آخر له: فصالحتُ بَقْياً على شيعتنا خاصّةً من القتل، فرأيتُ دفع هذه الحروب إلى يومٍ ما، فإنّ الله كلّ يوم هو في شأن[٢].

وأجاب أحدَ المعترضين قائلاً له: ما أردتُ بمُصالحتي معاويةَ إلّا أن أدفَع عنكُمُ القتاَل عندما رأيتُ تباطُؤَ أصحابي عن الحرب، ونكولَهم عن القتال[٣].

وشَبّه الإمام الحسن عليه السلام صُلحَه لمعترضٍ آخر بصُلح جَدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، سوى أنّ ذلك الصلح كان مع الكفّار على «التنزيل»، وهذا مع الكفّار على «التأويل»، ثمّ قال: ولولا ما أتيتُ لَما تُرِك من شيعتِنا على وجه الأرض أحدٌ إلّا قُتِل[٤]!

وقال لحُجْر بن عَدِيّ حين أنكر عليه الصلح: يا حُجْر! ليس كلّ الناس يُحبُّ ما تُحبّ، وما فعلتُ إلّا إبقاءً عليك، واللهُ كلَّ يومٍ هو في شأن[٥].

ولمّا اعترض عليه مالك بن ضَمْرة بسبب الصلح، قال عليه السلام له: يا مالك! لا تَقُلْ ذلك؛ إنّي لمّا رأيتُ الناسَ تركوا ذلك إلّا أهله، خشيتُ أن تُجْتَثُّوا عن

---

١ - نفسه ٤٤: ١٩ / ح ٣ - عن: **الاحتجاج**؛ **تحف العقول**: ٢٢٧؛ **عوالم العلوم** ١٦: ١٧٥؛ **فرائد السمطين**، للجوينيّ الشافعيّ ٢: ١٢٠.

٢ - **الأخبار الطوال**: ٢٢٠؛ وانظر **مناقب آل أبي طالب**، لابن شهر آشوب ٤: ٣٥.

٣ - **الأخبار الطوال**: ٢٢١.

٤ - **علل الشرائع** ١: ٢١١؛ **عوالم العلوم** ١٦: ١٧٤.

٥ - **بحار الأنوار** ٤٤: ٢٩، ٥٧؛ **مناقب آل أبي طالب**، لابن شهر آشوب ٤: ٣٥؛ **عوالم العلوم** ١٦: ١٧٠.

وجه الأرض، فأردتُ أن يكون للدِّين في الأرض ناعٍ[١].

وقال في كلام آخر: إنّما هادنتُ حقناً للدماء وصيانةً؛ وإشفاقاً على نفسي وأهلي والمخلصين من أصحابي[٢].

وكان المنكِرون عليه من محبّي أهل البيت عليهم السلام نوعاً ما، وفيهم من يرى الخلافة حقّ آل عليّ وحدهم، ومن هؤلاء حُجْر بن عَدِيّ، ومع هذا كانوا عازمين على مواجهة بني أميّة في كلّ حال؛ لعلمهم بحقد هؤلاء على الإسلام، ولأنّهم كانوا أولي روح ثوريّة غير واعية لحكمة الإمام. وتدلّ كلمات الإمام الحسن عليه السلام ـ التي تعمّدنا نقلها مفصّلاً ـ على أنّ بصيرته هي بصيرة إلهيّة كاشفة، فكان عليه السلام يدرك أنّ معاوية، بزعمه أنّ الحقّ معه وبجيشه الغبيّ البليد الجرّار، قادر على دحر التحرّك العراقيّ المحدود وإبادة البارزين من البيت العلويّ والشيعة انتقاماً ظاهريّاً لعثمان، وكان قد نظم ظواهر الأمور جميعها لمصلحته، وفي المقابل كان قلّما بقيَ أحد من الصحابة المشهورين الذين كان بمقدورهم أن يبرزوا أنفسهم أمامه. فاستطاع أن يريب أهل العراق أيضاً حتّى ذلك الحين.

ولهذا السبب وأسباب أخرى، تفرّق أهل العراق عن الإمام عليه السلام، ولا يصعب علينا أن نتصوّر أنّ معاوية لو أراد ان يأخذ العراق في الأيّام الأخيرة من حكومة الإمام عليّ عليه السلام، لَفعل الإمام عليه السلام ما فعله ابنه الحسن عليه السلام، فوجود ثلّة من المخلصين، لكنّهم قليلون، لم يكف الإمام الحسن عليه السلام أن يبدأ بهم الحرب أو يواصلها . وموقف أبيه عليه السلام من التحكيم جدير بالانتباه والاهتمام من أجل أن نُدرك أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لو عايش الظروف التي عايشها ابنه

---

١ - **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن عساكر: ٢٠٣.

٢ - **عوالم العلوم** ١٦: ١٦٩ – ١٧٠.

الحسن المجتبى عليه السلام، لما كان له سبيل إلّا هذا العمل، فقد قال عليه السلام لبعض المعترضين على قبوله التحكيم في صفّين، الذين كانوا يصرّون على مواصلة القتال: يا قوم، قد تَرَون خلاف أصحابكم وأنتم قليل في كثير، ولئن عدتم إلى الحرب لَيكوننّ [هؤلاء] أشدّ عليكم من أهل الشام. فإذا اجتمعوا وأهل الشام عليكم أفنَوْكم! والله ما رضيتُ ما كان ولا هَوَيتُه، ولكنّي مِلْتُ إلى الجمهور منكم خوفاً عليكم[١].

ومهما كان، فالمحافظة على الشيعة هي من الأصول والضرورات التي حملت الإمام عليه السلام على قبول أمر يتطلّب القيامُ به شجاعةً خاصّة، والمهمّ للإمام ليست في الأصل إلّا العمل برسالته الشرعيّة، لا الالتفات إلى طعون الناس، فيُلقي نفسه في فخّ يودي به وبمن معه. وقد قال عليه السلام في صلحه: والله، الذي عَمِلتُ خيراً لشيعتي ممّا طلعت عليه الشمسُ أو غَرَبت[٢]. وقال الإمام الباقر عليه السلام في هذا العمل: والله، الذي صنع الحسن بن عليّ عليه السلام كان خيراً لهذه الأمّة ممّا طَلعَت عليه الشمس[٣].

الإمام الحسين عليه السلام والصّلح

أشرنا فيما تقدّم إلى أنّ بعض المؤرّخين والمحدّثين حاول أن يُرِيَ شخصيّتين متفاوتتين لهذين الأخوَين [الحسن والحسين صلوات الله وسلامه عليهما]، واستتباب هذه المحاولة البلهاء بشأن رأيهما في الصلح، كان بنحوٍ أنّ الحسينَ عليه السلام لم يعتقد فيه الصلح، وأنّه أنكره على أخيه. وأساس هذا الكلام أيضاً هو أنّ الحسين عليه السلام كان على نهج أبيه، في حين أنّ الحسن عليه السلام

١ - **أنساب الأشراف** ٢: ٣٣٨؛ وانظر: **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن عساكر: ٢٠٣ (الهامش).
٢ - **فرائد السمطين** ٢: ١٢٤؛ **بحار الأنوار** ٤٤: ١٩ / ح ٣.
٣ - **بحار الأنوار** ٤٤: ٢٥، عن **روضة الكافي**: ٣٣٠.

كان يكره الحرب. وسبق أن بيّنا بالأدلّة أنّهعليه السلام كان يؤيّد الحرب، وهذا بيّن جليّ من كلماتهعليه السلام ومواقفه.

و أثِرَ عن الإمام الحسينعليه السلام قوله معترضاً على أخيه: أعيذُك بالله أن تكذّب عليّاً في قبره، وتصدّق معاوية[1]! ونُقل عن المدائنيّ أيضاً أنّ الحسنعليه السلام امتنع عن قبول الصلح ابتداءً حتّى كلّمه أخوه فيه[2]. وفي مقابل هذا الزعم، هناك شواهد تدلّ على أنّ الإمام الحسينعليه السلام كان أيضاً لا يرى سبيلاً أفضل من الصلح، وأنّه كان يدعو الناس إلى طاعة أخيه، ومنها:

أ - سيرته العمليّةعليه السلام تدحض الأقوال والأعمال التي تجعله معارضاً لموقف أخيه الحسنعليه السلام، أو تصفه بأنّه قائد الشيعة في العراق؛ فقد كان الحسينعليه السلام إلى جانب أخيه الحسن حتّى اللّحظات الأخيرة من حياته، وعاش في المدينة. بل كان للحسينعليه السلام نفس الموقف أيضاً في السنين الاحدى عشرة التي تلت شهادة الإمام الحسنعليه السلام، وتدلّ هذه السيرة على أنّه لم يعارض الصلح أدنى معارضة.

ب - لمّا امتعض الشيعة المُفْرِطون من الصلح، جاءوا الإمامَ الحسينعليه السلام وطلبوا منه أن يتولّى قيادتهم. قال عليّ بن محمّد بن بشير الهَمْداني: «خرجت أنا وسفيان بن ليلى حتّى قدمنا على الحسن المدينةَ، فدخلنا عليه، ، وعنده المسيّب بن نَجَبَة وعبد الله بَن الودّاك التميميّ وسراج بن مالك الخثعميّ، فقلت: السلام عليك يا مذلّ المؤمنين! فقال: وعليك السلام، اجلسْ، لستُ مُذِلَّ المؤمنين، ولكنّي معزّهم. ما أردتُ بمصالحتي معاويةَ إلّا أن أدفع عنكم

١ - **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن عساكر: ١٧٨.

٢ - **شرح النهج** ١٦: ٢٣؛ وانظر: **البداية والنهاية** ٨: ٢٦؛ **أسد الغابة** ٢: ٢٠؛ **كشف الغمّة** ٢: ٢٤٧؛ **تذكرة الخواص**: ١٩٧.

القتل...: قال ثمّ خرجنا من عنده، ودخلنا على الحسين فأخبرناه بما ردّ علينا. فقال: صَدَقَ أبو محمّد، فليكنْ كلُّ رجلٍ منكم حلساً من أحلاس بيته ما دام هذا الإنسان حيّاً، فإن يهلك وأنتم أحياء رَجونا أن يَخيرَ الله لنا ويؤتينا رشدنا، ولا يكلنا إلى أنفسنا»[1].

وقال الإمام الحسين عليه السلام لرجل آخر طلب منه أن يثور: أمّا أنا، فليس رأيي اليومَ ذلك، فالصقُوا رَحِمَكُم الله بالأرض، واكمنوا البيوت واحترسوا الظنَّة ما دام معاويةُ حيّاً.[2]

وإشارته عليه السلام إلى حياة معاوية دلالة على بصيرته بالظروف التي أفضت إلى الصلح، وكان لمعاوية في هذا التحليل دورٌ محوريّ. ومهما كان، فقد غادر الأخَوان كلاهما الكوفةَ، وتوجّها تلقاءَ المدينة بعد انتهاء عقد الصلح.

نصّ الصلح

لا تُجمع المصادر التاريخيّة إجماعاً تامّاً على موادّ الصلح الذي كان بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية. ولم تترك الأراجيف المبثوثة آنذاك أثَرها البالغ في الشائعات المتعلّقة بنقل شروط الصلح فحسب، بل كان لأغراض المؤرّخين والرواة أثرُها المذكور أيضاً، فتضخيم قسم من الشروط مصحوباً بحذف سائر الشروط ، واختلاق شروط غير حقيقيّة وغير صحيحة، وإهمال ذكر الشروط الأساسيّة للجهات المختلفة، كلّ ذلك كان تحريفاً ظهر فيما بعد في هذه الأخبار التاريخيّة.[3]

و إذا تغاضينا عن هذه الشروط ، فإنّ الأخبار المتباينة والمتفرّقة التي

---

١ - **أنساب الأشراف** ١: ١٥٠؛ **الأخبار الطوال**: ٢٢١؛ **الإمامة والسياسة** ١: ١٨٧.

٢ - **الأخبار الطوال**: ٢٢٢.

٣ - ينظر على سبيل المثال: خبر الزهريّ في **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن عساكر: ١٦٨.

تحوم حول الشروط يذكر كلّ منها قسماً من النصّ الأصليّ. وقد جمع الشيخ راضي آل ياسين [رحمه الله] وغيره هذه الأخبار وأودعها في موضعٍ واحد. وهنا ننقل فيما يأتي النصّ الأصليّ، ثم نعرّج على بعض الموارد التي وردت متفرّقةً.

حاول بعض المصادر القديمة - وأوّلها «الفتوح» لابن أعثم الكوفيّ؛ وثانيها «أنساب الأشراف» للبلاذريّ، وثالثها «مناقب آل أبي طالب» لابن شهر آشوب - أن ينقل لنا النصّ الكامل للصلح كمعاهدة رسميّة، والمقدّمات التي جاءت حول النصّ المذكور تدلّ على صحّته.

قال ابنُ أعثم: لمّا آل أمر الحسن ومعاوية إلى الصلح، دعا الحسنُ عبدَ الله بن نوفل... فقال له: صِرْ إلى معاوية فقل له عنّي: إنّك إنْ أمِنتَ الناسَ على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ونسائهم، بايعتُك، وإن لم تؤمنهم لم أبايعك... فقَدِم عبدُ الله على معاوية، فقال له - من عنده - أمرني أن أشرط عليك شروطاً، فقال معاوية: وما هذه الشروط؟ فقال: إنّه مسلّمٌ إليك هذا الأمر على أنّ له ولايةَ الأمر من بعدك، وله في كلّ سنة خمسةُ آلاف ألف درهم من بيت المال، وله خراج دار أبجرد من أرض فارسٍ، والناس كلُّهم آمنون بعضهم من بعض، فقال معاوية: قد فعلتُ ذلك.

قال: فدعا معاويةُ بصحيفة بيضاء، فوضع عليها طينةً وختمها بخاتمه، ثمّ قال: خذ هذه الصحيفة فانطلقْ بها إلى الحسن... فأخذ عبد الله بن نوفل الصحيفة، وأقبل إلى الحسن ومعه نفر من أصحابه... فقال الحسن: أمّا ولاية الأمر من بعده، فما أنا بالراغب في ذلك... وأمّا المال، فليس لمعاوية أن يشرط لي في فيء المسلمين، ولكن اكتب غير هذا، وهذا كتاب الصلح:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما صالح عليه الحسنُ بن عليّ بن أبي

طالب معاويةَ بن أبي سفيان، صالَحَه على أن يُسلّم إليه ولايةَ أمر المسلمين على أن يعمل فيهم بكتاب الله وسنّة نبيّه محمدٍ صلى الله عليه وآله وسيرة الخلفاء الصالحين. وليس لمعاوية بن أبي سفيان أن يعهَدَ لأحد من بعده عهداً، بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين، وعلى أنّ الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله شامِهم وعراقِهم وتُهامِهم وحِجازهم، وعلى أنّ أصحاب عليّ وشيعته آمِنون على أنفسِهم وأموالِهم ونسائِهم وأولادِهم، وعلى معاويةَ ابن أبي سفيان بذلك عهدُ الله وميثاقه، وما أخذ اللهُ على أحدٍ من خَلْقه بالوفاء بما أعطى الله من نفسه، وعلى أنّه لايبغي للحسن بن عليّ ولا لأخيه الحسين ولا لأحدٍ من أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله، غائلةً سراً وعلانيةً، ولايُخيفَ أحداً مِنهم في أفقٍ من الآفاق[1].

وقال البلاذريّ: «... فكتب معاوية كتاباً نُسختُه... إنّي صالحتك على أنّ لك الأمر من بعدي، عهدُ الله وميثاقه وذمّته... لا أبغيك غائلةً ولا مكروهاً، وعلى أن أعطيك في كلّ سنةٍ ألفَ ألفِ درهمٍ من بيت المال، وعلى أنّ لك خراج «فسا» و«دار أبجرد»... شهد: عبد الله بن عامر، وعمرو بن سلمة الهمدانيّ، وعبد الرحمان بن سمرة، ومحمّد بن الأشعث الكنديّ. وكتب في شهر ربيع الآخر سنة احدى وأربعين.

فلمّا قرأ الحسن الكتاب قال يُطْمِعُني في أمرٍ لو أردته لم أسلّمه إليه. ثمّ بعث الحسنُ عبدَ الله بن الحرث بن نوفل بن الحَرث بن عبد المطّلب... فقال له: ائتِ خالَك فقل له: إن أمِنتَ الناسَ بايعتُكَ. فدفع معاويةُ إليه صحيفة بيضاءَ وقد ختم في أسفلها، وقال له: اكتب فيها ما شئت»![2] فكتب الإمام عليه السلام

---

١ - **الفتوح** ٤: ١٥٨ - ١٦٠.

٢ - **أنساب الأشراف** ٣: ٤١ - ٤٢.

نصّاً نقلناه فيما تقدّم، وأورد ابن شهر آشوب هذا النصّ في المناقب[١]، وكذلك أورد المدائنيّ خبَر ذهاب عبد الله بن الحرث بن نوفل[٢] والشروط التي أشرنا إليها[٣].

وتحدّث كثير من المصادر الأخرى في شرط خلافة الإمام الحسنعليه‌السلام بعد معاوية بلا إشارة إلى نصّ خاص[٤]، وذكرت مصادر أخرى أيضاً العهود الماليّة المتعلّقة بخراج دار أبجرد وفسا، والأهواز، أو دفع مليون درهم سنويّاً[٥]... وقيل أيضاً: إنّ الشرط الآخر هو إلّا يسبّ معاويةُ أميرَ المؤمنين عليّاً [عليه‌السلام][٦].

ويتعيّن علينا هنا أن نستعرض نقطتين حول الشرطَين؛ الأولى: الشرط الماليّ، والأخرى: شرط الخلافة. أمّا الشرط الماليّ الذي جاء في مصادر عديدة، حتّى إنّ بعض الشيعة قدّم سُبُلاً لتوجيهه[٧]. فنقول فيه: إنّه بالنظر إلى ما تقدّم، لا يصحّ مبدئيًّا عندنا إلّا النصّ المذكور، وفي ضوء هذا، لا نستصوب وجود مثل هذا الشرط في المعاهدة من الأساس. والدليل المهمّ عليه هو أنّ الإمام الحسنعليه‌السلام حين سمع اشتراط عبد الله بن نوفل نفسه هذا

١ - **المناقب** ٤: ٣٣.

٢ - ذكر المؤلّف في المتن أنّه عبد الله بن نوفل، بيد أنّ الصواب هو عبد الله بن الحرث بن نوفل. المترجم.

٣ - **شرح النهج** ١٦: ٢٢؛ **الفصول المهمّة**، ١٦٢ - ١٦٣؛ **عوالم العلوم** ١٦: ١٧٢.

٤ - **ترجمة الإمام الحسن** عليه‌السلام، لابن عساكر: ١٧٢، ١٧٨.

٥ - **تاريخ الخلفاء**: ٧٤؛ **ترجمة الإمام الحسن** عليه‌السلام: ١٧٦ - ١٧٧؛ **الأخبار الطوال**: ٢١٧ - ٢١٨.

٦ - **ترجمة الإمام الحسن** عليه‌السلام، لابن عساكر: ١٧٦؛ **إعلام الورى**: ٢٠٦.

٧ - مثل ما قيل: إنّ للإمام على أساس قوله تعالى: ﴿**مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ... فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى**﴾ حقّاً في بيت المال، فأراد بهذا أن يأخذ حقّه. انظر: **بحار الأنوار** ٤٤: ١٠ (الهامش). وقيل في توجيه آخر: إنّه عليه‌السلام أراد خراج دار أبجرد لعوائل شهداء الجمل، وصفّين. انظر: **بحار الأنوار** ٤٤: ٣؛ **عوالم العلوم** ١٦: ١٨٢، ١٨٧، ١٨٨.

الأمر على معاوية، ضَجِرَ، وقال: «وأمّا المال، فليس لمعاويةَ أن يشرط لي في [بيت مال] المسلمين»، وهذا الاستدلال يمكن استيعابه جيّداً بما نعرفه من أساليب الأئمّة وشِيَمهم. والسؤال الآن هو: من أين استقى المؤرّخون هذا الشرط؟ ويستبين الجواب عن هذا السؤال من الموضوعات الآنفة الذكر، فقد جاء في خبر ابن أعثم أنّ عبد الله بن نوفل هو الذي طرح هذا الشرط، ونقل البلاذريّ أنّ معاوية هو الذي كتب الشروط، وفيها الشرط الماليّ. ويضاف إلى هذا كلّه، أنّ الذي يتحقّق في النظر هو أنّ جواسيس معاوية، ومن جاء بعدهم من مؤرّخي البلاط بثّوا الأراجيف والإشاعات لتشويه سمعة الإمام الحسن عليه السلام. وربّما كان الوفد الذي أرسله معاوية إلى ساباط المدائن ليتفاوض بشأن الصلح هو الذي طرح الشرط الماليّ [١]. والنقطة الأخرى التي تدلّ على خلوّ المعاهدة من الشرط المذكور هي أنّ سليمان بن صُرَد الخزاعيّ أنكر على الإمام عليه السلام بعد الصلح أنّه لم يجعل لنفسه حظّاً في العطاء [٢].

وأمّا شرط خلافة الإمام الحسن عليه السلام بعد معاوية، فله مِثل هذه الأدلّة أيضاً، فقد جاء في بعض الأخبار أنّ الإمام عليه السلام يخلف معاوية في ضوء المعاهدة التي نُظّمت، بل قيل: إنّ فيها : أنّ الإمام الحسن عليه السلام إذا مات، فأخوه يخلف معاوية [٣]. وبهذا الشأن أيضاً، رفض الإمام الحسن عليه السلام ما عرضه عبدُ الله بن نوفل (أو ما عرضه معاوية نفسه كما نصّ عليه البلاذريّ وغيره [٤]).

وفي المقابل، سلب الإمام الحسن عليه السلام من كلّ أحد في النصّ الذي نظّمه، حقّ تعيين وليّ العهد أساساً، وأكّد عليه السلام فيه تفويضَ معاويةَ أمر الخلافة إلى

---

١ – تهذيب تاريخ دمشق ٤: ٢٢٤؛ تذكرة الخواصّ: ١٩٨.

٢ – أنساب الأشراف ٣: ١٤؛ بحار الأنوار ٤٤: ٢٩.

٣ – الفتوح ٥: ٤٨؛ عمدة الطالب: ٦٧.

٤ – شرح النهج ١٦: ٢١.

المسلمين؛ لعلم الإمام الحسن عليه السلام أنّ معاوية كان في صَدَد جعل الخلافة وراثيّة، فالأفضل حينئذٍ هو الأخذ على يده في هذه المعاهدة. وإذا تحدّث عليه السلام عن خلافته، فحديثه إشارة إلى النظام الوراثيّ. وتعبير «شورى المسلمين»، وإن كان عامّاً شيئاً ما، إلّا أنّه سبيلُ خلاصٍ من وراثية الخلافة. ويمكن أن يقال: إنّ هذا الشيء لا ينسجم واعتقاد النصّ في الإمامة الشيعيّة، فنقول في جوابه: إنّ معظم الناس الذين كان يعيش الإمام الحسن عليه السلام بين ظهرانيهم لم يعتقدوا النصّ، فليس أمامهم إلّا هذا الخيار. ويضاف إلى هذا، أنّه حتّى لو كانت الشرعيّة بالنصّ، فإنّ رضى الناس أصبح أمراً بديهيّاً في مقبوليّة الحاكم لمنصب قيادة الأمّة، وكذلك تولّي أمر الحكومة، بعد انصرافهم عن النصّ المُعيِّن.

وتشتمل معاهدة الصلح على نقاط جديرة بالتأمّل:

أ – أوّل نقطة مهمّة هي العمل بكتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله، وسيرة الخلفاء الصالحين. وإصرار الإمام الحسن عليه السلام على ذلك هو من أجل تقييد معاوية في إطار محدود. وقد عبّر عليه السلام عن هذه النقطة في خطبة خطبها على منبر مسجد الكوفة بعد قدوم معاوية إليها، فقال: إنّما الخليفةُ من سار بسيرة رسول الله، وعمل بطاعته. وليس الخليفةُ من دان بالجور، وعطّل السُّنن، واتّخذ الدّنيا أباً وأمّاً. ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿**وإنْ أدري لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ ومَتَاعٌ إلى حينٍ**﴾[1]، فاشتدّ ذلك على معاوية[2]! وفي هذه الخطبة قال الإمام عليه السلام أيضاً: وإنّ معاوية نازعني حقّاً هوَ لي، فتركتُه لصلاح الأمّة، وحَقْن دمائها[3].

---

١ – الأنبياء: ١١١.

٢ – **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٧١، ١٧٢ .

٣ – **ذخائر العقبى**: ١٤٠؛ **نظم درر السمطين**: ٢٠٠ – ٢٠١؛ **بحار الأنوار** ٤٤: ٤٢ / ح ٣؛ **المحاسن والمساوئ** ١: ٥٣؛ **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٧٣؛ **أنساب الأشراف** ٣: ٤٣.

ب - النقطة المهمّة الأخرى في معارضة الإمام الحسن عليه السلام لوراثة الخلافة، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل.

ج - أخذ الأمان للشيعة كان أحد المبادئ المهمّة في هذه المعاهدة، وقد أشرنا إلى أنّ الإمام عليه السلام قال في كتابه الذي بعثه إلى معاوية في بدء المفاوضات: «إنّك إن أمِنتَ الناسَ... بايعتُك». وأشير في تعبيرٍ ورد في بعض الأخبار إلى أنّه عليه السلام استأمن للأحمر والأسود، وربّما أريد من هذا التعبير أخذُ الأمان للموالي أيضاً، وهم الذين كانوا يحظون بعناية أبيه عليه السلام بهم عنايةً بالغة، وكانوا مهدَّدين من قِبل الحكّام السابقين.

د - الشرط الآخر للإمام الحسن المجتبى عليه السلام هو أن لا يبغيَ معاوية له ولا لأخيه الحسين عليهما السلام غائلةً، سرّاً ولا جهراً... ولهذه الفقرة أهمّيّة خاصّة أيضاً.

وقد رضيَ معاوية بالمعاهدة غير مشروطة بشرط سابق، فكان عَجلاً إلى الاستحواذ على العراق، وهو واثق من أنّه يقدر على أن يضع الشروط المذكورة، مهما كانت، تحت قدميه، ويضرب بها عرض الجدار! ولم يلتزم معاوية بأيّ شرطٍ من الشروط!! فما عمل بكتاب الله تعالى، ولا سُنّة نبيّه صلى الله عليه وآله، وليس هذا فحسب، بل لم يبقَ حتّى بالمستوى الذي كان عليه عثمان أيضاً، فنصب يزيد وليّاً للعهد، وسلب الأمنَ من جميع شيعة عليّ عليه السلام، وسلّط عليهم زياد ابن أبيه وأشباهه. وكان حُصَين بن المنذر يقول: «ما وفى معاويةُ للحسن بشيءٍ ممّا جعل له: قَتَل حُجْراً وأصحابَه، وبايع لابنه، ولم يجعلها شورى، وسَمَّ الحسنَ»[1]!

ومعاوية حين قدم الكوفة قال بصراحة وعلانية وصفاقة: «ألا إنّي كنتُ

١ - أنساب الأشراف ٣: ٤٧ - ٤٨.

شَرَطْتُ شروطاً أردتُ بها الألفة ووَضْعَ الحرب، ألا وإنّها تحتَ قدمي»[١]!
ونقل عنه تعبير آخر قال فيه: «والله إنّي ما قاتلتُكُم لتصلّوا ولا لتصوموا، ولا لتحجّوا، ولا لتزكّوا... وإنّما قاتلتُكم لأتأمّرَ عليكم، وقد أعطاني اللهُ ذلك وأنتم كارهون»[٢]!!

وأرادت فئة من أهل البصرة بقيادة حُمران بن أبان أن تستولي على البصرة، فبعث معاويةُ عمرَو بن أرطاة أو أخاه بُسراً حاكماً عليها[٣]، فسيطر بذلك على العراق. ونصب المغيرة بن شعبة على الكوفة وظلّ حاكماً عليها بقيّة عمره التي كانت تسع سنين، وولّى على البصرة عبدَ الله بن عامر الذي كان أميراً عليها أيضاً بأمره ردحاً من الزمن. وكانت قد بدأت خلافة الإمام الحسن عليه السلام في شهر رمضان سنة ٤٠هـ، وانتهت في ربيع الآخر سنة ٤١هـ، بعد مضيّ سبعة أشهر عليها[٤].

سيرة الإمام المجتبى عليه السلام

ولد الإمام الحسن عليه السلام ليلةَ النصف من شهر رمضان المبارك سنة ثلاث للهجرة، وكان يُشْبه جدَّه رسولَ الله صلى الله عليه وآله كثيراً[٥]. وتولّى قيادة الشيعة بعد شهادة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام. نُقل عن أبي رزين أنّه قال: «خَطَبَنا الحسنُ بن عليّ وعليه ثيابٌ سود وعمامة سوداء»[٦]. وكان عليه السلام من الوجوه الكريمة البارزة اللّامعة التي كان سلوكها وعملها مناراً للهدى. وألمعنا سابقاً إلى أنّ رسول

---

١ – نفسه ٣: ٤٤، ٤٦؛ **الفتوح** ٤: ١٦٣؛ **شرح النهج** ١٦: ٤٦.
٢ – **شرح النهج** ١٦: ٤٦.
٣ – **أنساب الأشراف** ٣: ٥٢؛ **الفتوح** ٤: ١٤٨.
٤ – انظر: **أنساب الأشراف** ٣: ٥٤.
٥ – **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٣٠ – ١٣١.
٦ – نفسه: ١٦٣.

الله صلى الله عليه وآله عبّر في كلمات كثيرة عن حبّه لابنه الحسن عليه السلام، وأمَرَ الناس أن يُحبّوه، فقوله صلى الله عليه وآله: اللّهمّ إنّي قد أحببتُه فأحِبَّه، وأحِبَّ مَن يُحبّه[1]، وقوله: من أحبَّني فليُحبَّه، ولْيُبلّغِ الشاهدُ منكمُ الغائب[2]، وقوله: من أحبّ الحسنَ والحسينَ فقد أحبَّني، ومن أبغَضَهما فقد أبغَضَني[3]، وقوله: مَن سَرَّه أن ينظرَ إلى سيّد شباب أهل الجنّة فَلْيَنظُرْ إلى الحسن بن عليّ[4]، أمثلة من كلماته صلى الله عليه وآله في ابنه الحسن عليه السلام.

ونُقلت أخبارٌ كثيرة في خصائصه العباديّة عليه السلام، منها ما جاء في سفره إلى الحجّ ماشياً، فقد قال عليه السلام: إنّي لأستَحْيي من ربّي أن ألقاه ولم أمْش إلى بيته. فمشى عشرين مرّةً من المدينة على رِجلَيه[5]. وورد في خبر آخر: أنّه عليه السلام حجّ خمساً وعشرين مرّةً ماشياً[6]، وذكر ابن سعد أنّه حجّ خمس عشرة مرّةً[7].

أمّا سخاؤه وجوده في سبيل الله، فمزيّةٌ أخلاقيّة أخرى من مزايا ذلك الإمام العظيم، التي استفاض خبرها بين الناس. وحين ذهب إسماعيل بن يسار مع عبد الله بن أنس إلى معاوية في الشام لأخذ مالٍ منه، ولم يحصلا على شيء أنشد إسماعيل مخاطباً صديقَه ابن أنس:

---

١ – نفسه: ١٣٩؛ **سنن الترمذي** ٥: ٦٦١.

٢ – **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٣٨؛ **مسند أحمد** ٥: ٣٦٦؛ **المستدرك** ٣: ١٧٣.

٣ – **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد : ١٣٨، ١٤٣؛ **مسند الطيالسيّ** / الرقم ٢٥٠٢؛ **مسند أحمد** ٢: ٤٤٠؛ **المستدرك** ٣: ١٦٦.

٤ – نفسه: ١٣٨؛ **البداية والنهاية** ٨: ٣٥.

٥ – **أخبار أصبهان** ١: ٤٤.

٦ – **تاريخ الخلفاء**: ٧٣.

٧ – **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٥٩.

لَعَمْرُكَ ما إلى حَسَنٍ رَحَلْنا ولا زُرْنا حُسَيناً يا ابن أنسِ[١]

يريد أنّ الزائر إذا قصد هذين الأخَوين فإنّه لا يرجع منهما خاليًا من أياديهما. وجاء في خبر: «أنّ رجلاً أتى الحسنَعليه السلام في حاجة، فقالعليه السلام له: اكتب حاجتَك في رقعة وارفعها إلينا، فرفعها إليه، فأضعفَها له»[٢].

وورد في خبرٍ آخر: أنّهعليه السلام «خرج من ماله لله مرّتين، وقاسم اللهَ مالهَ ثلاثَ مرات»[٣]. وقال رجل يُدعى أبا هارون: «انطلَقْنا حُجّاجاً فدخلنا المدينة، فقلنا: لو دخلنا على ابن رسول اللهصلى الله عليه وآله الحسنِ فسلّمنا عليه! فدخلنا عليه فحدّثناه بمسيرنا وحالنا، فلمّا خرجنا من عنده بعث إلى كلّ رجلٍ منّا بأربعمائة أربعمائة [دينار]، فقلنا: إنّا أغنياءُ وليس بنا حاجة، فقال: لا تردّوا علَيَّ معروفي»[٤].

وقيل لهعليه السلام: فيك عظمة، فقال: لا، بل عزّة، قال الله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[٥].

وكانعليه السلام في السنين الثماني أو التسع التي تلت الصلح يلتقي في المدينة بشيعة الكوفة الذين كانوا يقصدون الحجاز للحجّ، ومن الطبيعيّ أنّهم رضُوهعليه السلام إماماً لهم، واستناروا بعلمه في أمر دينهم.

شهادة الإمام الحسنعليه السلام

إنّ من الجرائم التي لا تغتفر لمعاوية قتلَهُ الإمامَ الحسنعليه السلام ريحانةَ رسول اللهصلى الله عليه وآله، ولا وجود لأدنى شكّ في ذلك من الوجهة التاريخيّة، فقد دبّر

---

١ – **الأغاني** ٤: ٤١٩.

٢ – **المحاسن والمساوئ**: ٥٥.

٣ – **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٥٩؛ **تاريخ الخلفاء**، للسيوطيّ: ٧٣؛ **تذكرة الخواص**: ١٩٦.

٤ – **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٥٥.

٥ – **ربيع الأبرار** ٣: ١٧٧. والآية هي الثامنة من سورة المنافقين.

دسيسةً لم يألُ جهداً في إمضائها، فقتل الإمامَ عليه السلام بواسطة امرأته جَعدة بنت الأشعث بن قيس، اللعينة بنت اللعين. ولمّا استُبيحت المدينة المنوّرة في واقعة الحرّة سنة ٦٣هـ نُهبت دار هذه المرأة الملعونة، ولكنّ أموالها أُعيدت إليها مكافأةً لها على قتلها الإمامَ الحسن عليه السلام. وتحدّثت مصادر لا تُحصى حول قتلها الإمامَ عليه السلام بدسيسة معاوية[١]، فنقل ابن حمدون أن المقرّر هو أن تتسلّم جَعدةُ مئةَ ألفِ درهم في مقابل سمّه، ثمّ تزوّجت رجلاً قرشيّاً بعد ذلك وأنجبت منه، وكان الأطفال يقولون لابنها: يا ابنَ مُسَمِّمَة الأزواج[٢]!

وقال الهيثم بن عَدِيّ: دسّ معاوية إلى ابنة سهيل بن عمرو امرأة الحسن مئة ألف دينار على أن تسقيه شربةً بعث بها إليها، ففعلت.[٣] واعتلّ عليه السلام بعدها أربعين يوماً ثمّ قضى شهيداً[٤]. وقالت أمّ بكر بنت المسوّر: «كان الحسن بن عليّ سُقِي مراراً، كلّ ذلك يفلت منه، حتّى كان المرّة الآخرة التي مات فيها، فإنّه كان يختلف كبده.[٥]

ولمّا استُشهد عليه السلام أرادوا دفنه عند قبر جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله إن لم يُرَقْ دمٌ حسب وصيّته، فمنعتهم عائشة بقولها: «بيتي لا آذنُ فيه لأحد»[٦]. وكان مروان

---

١ - **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٧٥ – ١٧٦؛ **أنساب الأشراف** ٣: ٥٥ – ٨٨. ونقله الأستاذ المحموديّ في هوامش الصفحات المذكورة عن مصادر عديدة. وفي هذا البَين، أبدى ابن خلدون تعصّبه المذهبيّ على عكس الأدلّة التاريخيّة جميعها، فقال: و«حاشا لمعاوية ذلك» ! **تاريخ ابن خلدون** ٢: ق ٢،ص ١٨.

٢ - **التذكرة الحمدونيّة** ٩: ٢٩٣ – ٢٩٤.

٣ - **أنساب الأشراف** ٣: ٥٩.

٤ - **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٧٦.

٥ - **المنتخب من ذيل المذيّل**: ٥١٤.

٦ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٢٢٥. وجاءت عائشة وهي راكبةٌ بغلةً شهباء، وقالت ذلك. ونقل اليعقوبيّ (في نفس الموضع) أنّ القاسم بن محمّد بن أبي بكر أتاها، فقال لها: «يا عمّة ! ما غسَلْنا رؤوسنا من يوم الجمل الأحمر، أتريدين أن يقال: يوم البغلة الشهباء ؟! فرجعت».

حاكمَ المدينة يومئذ، فلم يأذن لهم بذلك. وكان الإمام الحسنعليه السلام قد أوصى بني هاشم، إذا رأوا أن سيحدث لدى دفنه عند جدّه شرّ، فليدفنوه عند جدّته فاطمة بنت أسد بالبقيع[١]. وأبدت عائشة مرّة أخرى حقدها على الزهراء وابنهاعليهما السلام، فلمّا أتِيَ بجنازته ليُدفن عند جدّهصلى الله عليه وآله قالت: هذا الأمرُ لا يكون أبداً[٢]. «وقال أبو سعيد الخُدريّ وأبو هريرة لمروان: أتمنع الحسن من أن يُدفَنْ مع جدّه، وقد قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: «الحسنُ والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة»؟ فقال مروان [مستهزئاً]: لقد ضاع حديث رسول الله إن كان لا يَرويه إلّا مِثْلُك ومثل أبي هريرة»![٣]

وقال محمّد ابن الحنفيّة: «... فلمّا توفّي الحسن ارتُجّت المدينة صياحاً، فلا يُلقى أحد إلّا باكياً. وأبرد مروان يومئذٍ إلى معاوية يخبره بموت حسن ابن عليّ، وأنّهم يريدون دفنه مع النبيّصلى الله عليه وآله؛ وأنّهم لايَصِلون إلى ذلك أبداً وأنا حيّ! فانتهى حسينُ بن عليّ إلى قبر النبيّصلى الله عليه وآله فقال: احفروا هاهنا، فنكب عنه سعيد بن العاص وهو الأمير، فاعتزل ولم يحل بينه وبينه، فصاح مروان في بني أميّة ولفّها وتلبّسوا السلاح، وقال: مروان: لا كان هذا أبداً، فقال له حسين: ما لك ولهذا؟! أوال أنت؟! قال لا كان هذا ولا خَلُصَ إليه وأنا حيّ. فصاح حسين يحلف بحلفٍ الفضول. فاجتمعت: هاشم، وتيم، وزُهرة وأسد، وبنو جعونة بن شعوب من بني ليث قد تلبّسوا السلاح. وعقد مروان لواءً، وعقد حسين بن عليّ لواءً، فقال الهاشميّون: يُدفَن مع النبيّصلى الله عليه وآله ، حتّى كانت بينهم المُراماة بالنبل... وجعل عبد الله بن جعفر يلحّ على الحسينعليه السلام وهو يقول

١ - **أنساب الأشراف** ٣: ٦١، ٦٤، وانظر: هامش ص ٦١ – ٦٢.

٢ - **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٨٤.

٣ - **أنساب الأشراف** ٣: ٦٥؛ ومثله في **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٨٤ – ١٨٥.

ياابنَ عمّ، ألا تسمع إلى عهد أخيك؛ إن خفتَ أن يُهْراق فيّ محجمٍ من دم فادفنّي بالبقيع مع أمّي».[١] وجاء في خبر آخر أنّ «مروان يومئذٍ معزول يريد أن يُرضَي معاوية»[٢]. وبعث مروان ـ بعد أن مَنَع دفنَ الإمام عند جدّه ـ بريداً [مُنمَّقاً] إلى معاوية يخبره أنّه قد مات الحسن عليه السلام[٣]. وكان يقول: كيف يُدفن ابنُ قاتل عثمان مع النبيّ صلى الله عليه وآله، ودُفن عثمان بالبقيع[٤]؟! ولا ريب ولا شبهة في أنّ مروان كان من أقذَر الأمويّين وأرجسهم، إذ كان طوال حكمه في المدينة يسبّ عليّاً عليه السلام وبني هشام بلسان بذيءٍ لاذع.

و ذهب بعض إلى أنّ الإمام عليه السلام استُشهد في ربيع الأوّل سنة ٤٩هـ، وذهب آخرون إلى أنّ شهادته كانت في ربيع الأوّل سنة ٥٠هـ[٥]، وما يصحّ في النظر هو سنة ٤٩هـ.

ولمّا استُشهد عليه السلام، بعث بنو هاشم من يخبر الأنصار في مناطق مختلفة من المدينة وحواليها بهذا الخبر، وقيل: «لم يتخلّف أحد عنه»[٦]. «وأقام نساء بني هاشم عليه النَّواح شهراً»[٧]، ونقل الطبريّ عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «مكث الناسُ يبكون على حسن بن عليّ سبعاً ما تقوم الأسواق»، [٨] ونُقل عن آخر

١ - **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد:١٧٧ – ١٧٩.
٢ - نفسه: ١٨٠، وانظر: ١٨٧.
٣ - نفسه: ١٨٨.
٤ - نفسه: ١٨٣. لم يُدفن عثمان بالبقيع، لأنّ الناس لم يأذنوا بذلك بل دُفن في مقابر اليهود.
٥ - **أنساب الأشراف** ٣: ٦٦؛ **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٨٣، ١٨٩، ١٩٠.
٦ - **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٨١؛ **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن عساكر، الرقم ٣٧١.
٧ - **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٨٢؛ **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن عساكر، الرقم ٣٣٨.
٨ - **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٨٢.

قوله: «... فلقد رأيتُ البقيع ولو طُرحت إبرةٌ ما وقعت إلّا على إنسان»[١]، وعقد شيعة البصرة أيضاً مأتماً عليه صلوات الله عليه[٢].

وكتب شيعة الكوفة إلى الإمام الحسين عليه السلام يعزّونه على مصابه بأخيه، وجاء في كتابهم أنّ هذه المصيبة عظيمة على الأمّة عامّة، وعليك وعلى الشيعة خاصّة، ويدلّ هذا التعبير على اتّساق «الشيعة»، واستعمال هذه الكلمة كاصطلاح حوالَي سنة ٥٠هـ، وذكروا في الكتاب ألقاباً للإمام المجتبى عليه السلام مثل عَلَم الهُدى، ونور البلاد، المَرْجوّ لإقامة الدين، وإعادة سِيَر الصالحين، ورجوا من الله سبحانه أن يعيد الحقّ إلى الإمام الحسين عليه السلام،[٣] ويتعيّن علينا أن نعدّ هذا الكتاب وثيقة من وثائق اتّساق الشيعة العَقَديّة والإماميّة بالكوفة.

قال عمرو بن بعجة: «أوّلُ ذُلٍّ دخل على العرب موتُ الحسن بن عليّ»[٤].

---

١ - **المنتخب من ذيل المذيّل**: ٥١٤؛ **المستدرك على الصحيحين** ٣: ١٧٣؛ **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٨٢ **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن عساكر، الرقم ٣٧٢.

٢ - **مختصر تاريخ دمشق** ٥: ٢٢٤.

٣ - **تاريخ اليعقوبيّ** ٢: ٢٢٨.

٤ - **ترجمة الإمام الحسن** عليه السلام، لابن سعد: ١٨٣.

الفهرس

تذكير٣ •

الفصل الأوّل: خلافة أبي بكر (٥ ـ ٦٦)

في ظلّ السقيفة ٨• ردّ الفعل الشعبيّ من المنصَّب في السقيفة ٢١• الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ٢٥ • قضيّة الردّة ٢٩ • ولاة أبي بكر٤٢• فتح دمشق٤٨• فتح العراق٥٦•

الفصل الثاني: خلافة عمر (٦٧ ـ ١٥٤)

سيرة الخليفة الثاني٦٩• أخلاق الخليفة٧٣• ولاة عمر٧٩• أفكار الخليفة الثاني ٩٠• مقتل عمر١١٩• استمرار الفتوحات في الشام ومصر١٢٦• استمرار الفتوحات في العراق وفتح بلاد فارس ١٣٤• فتح إيران ١٤٩•

الفصل الثالث: خلافة عثمان (١٥٥ـ ٢٣٨)

الشورى واختيار عثمان ١٥٧• خلافة عثمان ١٧٣• أسباب الثورة على عثمان ١٧٦• المعارضون لعثمان ١٨٨• موقف عثمان من المعارضين ١٩٩• عثمان ومعاوية ٢١٠• الإمام عليّ وعثمان ٢١٣• قتل عثمان ٢٢١• استمرار الفتوحات في عهد عثمان ٢٢٨• آثار الفتوحات في الأُمّة الإسلاميّة ٢٢٩•

الفصل الرابع: إمامة عليّ عليه السلام (٢٣٩ـ٤٤٢)

الإمام عليه السلام والنبيّ صلى الله عليه وآله ٢٤١• الإمام عليّ عليه السلام والخلفاء ٢٤٨• نشاط الإمام وأنصاره في

بسط التشيّع ٢٥٧• بيعة الناس الإمام عليّاً عليه السلام ٢٧٥• القاعدون وفقدان الجماعة اتّساقها ٢٨٧• مِحَن الإمام عليه السلام ٢٩١• إحياء السيرة النبويّة والإصلاح الشامل، سياسة الإمام المبدئيّة ٣٠٢• الإمام عليه السلام أَمامَ الناكثين [حرب الجمل] ٣٠٩• استقرار الإمام عليه السلام في الكوفة ٣٣٢• محاربة القاسطين في صِفِّين ٣٣٦• قتال الخوارج المُفْرِطين ٣٧٤• الخوارج: نشوءهم وصفاتهم ٣٨٢• انتهاكات جيش الشام وغاراته ٣٩٢• مجمل نظرة الإمام عليه السلام إلى المجتمع الدينيّ في عصره ٤٠٦• تعريف الإمام عليه السلام للمفاهيم السلبيّة الأربعة: البِدعة، والفِتنة، والشُّبهة، والتَّفْرقة ٤٠٧• الفساد في المجتمع الدينيّ ممهِّدٌ لانحلال السيادة الدينيّة ٤٢٠• شهادة الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ٤٢١• سيرة الإمام عليّ عليه السلام ٤٢٤• حبّ الإمام عليه السلام وطاعته للنبيّ صلى الله عليه وآله وتأثير ذلك فيه ٤٢٧•

الفصل الخامس: إمامة الإمام الحسن (٤٤٣-٥٠٢)

شخصيّة الإمام الحسن عليه السلام ٤٤٥ • الإمام المجتبى عليه السلام والإمامة ٤٥٢ • المواصفات الاجتماعيّة والدينيّة والسياسيّة لأهل الكوفة ٤٦١• الإجراءات الأولى للإمام عليه السلام ومعاوية ٤٦٨ • معاوية وطلب الصلح ٤٧٧ • أسباب قبول الإمام الحسن عليه السلام الصلح ٤٧٩• الإمام الحسين عليه السلام والصّلح ٤٨٧• نصّ الصلح ٤٨٩ •سيرة الإمام المجتبى عليه السلام ٤٩٦ • شهادة الإمام الحسن عليه السلام ٤٩٨ •